الألف
كتاب
الثاني
٢٥٨

إدوارد جيبون

اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها

الجزء الأول



Bibliotheca Alexandrina
0115379

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

محسنة عطية

26266

اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها

الجزء الأول

تأليف
إدوارد جيبون

ترجمة
محمد على أبو درة

937.06
ج ع ا
١
V1

مراجعة وتقديم
أحمد نجيب هاشم

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية
رقم التصنيف 937.06
ج ع ا
رقم التسجيل 26266

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٧

هذه هى الترجمة العربية لمختصر كتاب

EDWARD GIBBON'S

DECLINE AND FALL OF THE ROMAN EMPIRE

الذى أعده

D. M. Low

فهـــرس

(الفصل الثامن والتاسع حذفا من الطبعة المختصرة لتقادم معلوماتهما)

الموضـــوع | الصفحة

تحـدى النظام القـديم

نمو الأوتوقراطية العسكرية وتدفق الروح الشرقية

تفكك الامبراطورية

انحســار المـد

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مقدمة الطبعة الأولى العربية

صدر كتاب ادوارد جيبون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، أي أنه قد أوشك أن ينقضى على ظهوره لأول مرة نحو قرنين من الزمان ، ومع ذلك ظل حتى يومنا هذا ، يحتل بين أسفار التاريخ وذخائر الأدب مكانا ملحوظا ، فكم أعيد طبعه كاملا أو مختصرا فى مجموعة من المجلدات أو فى مجلد واحد ، كما ترجم الى معظم اللغات الأوربية ، وكم علق عليه النقاد والمؤرخون ، وكم رجع اليه الباحثون واستقى منه الدارسون !!٠

تعريف بالمختصر :

والكتاب الذى نضعه اليوم بين أيدى قراء العربية ترجم عن مختصر فى ثلاثة مجلدات أصدره فى الولايات المتحدة الأمريكية فى سنة ١٩٦٠ الدكتور د. م. لو D. M. Low الذى كان محاضرا فى الدراسات القديمة بجامعة لندن ٠ ثم أعيد طبعه فى ١٩٦٢ ، ١٩٦٦ فى مجلد واحد يضم نحو ألف من الصفحات ، وأوضح فى مقدمته التى أثبتناها بنصها ، النهج الذى سار عليه فى مختصره هذا ، والحق أنه التزم فيه جانب الحكمة والدقة ، فهو لم يغير كلمات المؤلف وانما حذف من الأصل فصولا برمتها رأى أن حذفها لا يؤثر فى السياق العام لفكرة جيبون أو منهجه فى كتابه ، ولا ينتقص من قيمة موضوعه بصفة عامة ، لأن هذه الفصول المحذوفة تعالج تفصيلات قد لا تهم القارىء العام ، كذلك حذف صاحب المختصر أجزاء قليلة من الفصول التى أبقى عليها فى مختصره ، وفى الوقت نفسه أوجز المحذوف فى سطور قليلة أبقت عليها الترجمة العربية فى مواضعها ٠

ولما كان من العسير أن نفصل التاريخ عن مؤلفه أو المؤلف عن عصره .. فيجدر بنا أن نلم أولا بسيرة حياة ادوارد جيبون والعوامل التى شكلت شخصيته وأثرت فى كتاباته . والجدير بالذكر أن جيبون دون سيرة حياته وخلجات نفسه فى كتاب آخر له : « مذكرات عن حياتى وكتاباتى Memoirs of my Life and Writings » ، وفيه الكثير مما يشوق القارىء ، ومما يدعو الى الاعجاب ، وما يمكن أن تكون فيه عظة وعبرة .

نشأة جيبون :

ولد ادوارد جيبون فى ٢٧ ابريل ١٧٣٧ فى بلدة بتنى Putney فى مقاطعة سرى Surrey بجنوب انجلترا من أسرة غنية عريقة نشأت أصلا فى بلدة رولفندن Rolvendon بمقاطعة كنت Kent وكان أبوه آنذاك عضوا فى البرلمان الانجليزى ، ويشير مؤرخنا الى مولده فيقول : «خليق بى أن أذكر ما حبتنى به الطبيعة ، فقد ولدت فى بلد تزدهر فيه الحضارة ، فى عصر يشع فيه نور العلم والمعرفة ، فى أسرة ذات مكانة رفيعة ابتسم لها الحظ » ، وكان ادوارد جيبون الأخ الأكبر لخمس من الأخوات وأخ واحد ، ماتوا جميعا فى سن الطفولة . أما هو فكان حتى السادسة عشرة من عمره ضعيف البنية هزيل الجسم الى درجة غير عادية ، غالبا ما انقطع معها الرجاء فى بقائه على قيد الحياة . ومن اجل ذلك تعثر فى دراسته الأولى ، وكثيرا ما أقعده المرض عن مواصلة تعليمه فى انتظام أو عن مواظبته على مقاعد الدرس ، وهنا تبرز منذ اللحظة الأولى أروع عبرة فى حياته ، تلك هى أنه علم نفسه بنفسه ، وبنى مجده وشهرته بجهوده وحدها ! .

حياته الدراسية ، ولعه بالقراءة :

بدأ جيبون تعلم القراءة والكتابة والحساب فى البيت ، ثم بدا تعلم اللاتينية على يد مدرس خاص اسكتلندى اسمه جون كيركبى ، ولما بلغ الثامنة من عمره التحق لأول مرة بمدرسة بتنى ، ثم انتقل منها فى العام التالى الى مدرسة داخلية هى مدرسة كنجزتن على نهر التيمز وعكف على دراسة اللغة اللاتينية ، ولكنه لا يتحدث فى ابتهاج عن دراسته ولا عن المدرسة نفسها فهو يقول فى مذكراته : « لقد اشتريت معرفة النحو اللاتينى بثمن باهظ من دموع ذرفت ودماء نزفت » ، وأولع فى هذه المدرسة بقراءة ترجمة الشاعر بوب Pope لأعمال هوميروس وترجمة درايدن Dryden لأعمال فرجيل ، كما قرا كتاب الف ليلة

وليلة مترجما الى الانجليزية ، ولكنه لم يمكث فى هذه المدرسة أكثر من عام فقد توفيت والدته وهو فى العاشرة من عمره ، وانتقل ابوه الى مقاطعة هامشير Hampshire .

فضـــل خـــالته عليه :

وبقى جيبون فى بيت جده لأمه ، تحت رعاية خالته كاترين بورتن Catherine Porten ويبدو أنه فى العامين اللذين قضاهما فى كنف هذه الخالة العزيزة زاد ولعه الشديد بالقراءة ، ذلك الولع الذى لازمـــه وملك عليه نفسه طوال حياته ، مستفيدا الى اكبر حد من مكتبة جده ، وشجعته خالته على ذلك ، وهو نفسه يعترف بأن هذه الفترة تميزت « بأنها اقترنت بأعظم التوفيق فى نمو عقله وفكره » ، وانه ليوفى هذه الخالة حقها فيقول : « انى مدين لها ببقائى على قيد الحياة ، وبتحسن صحتى فى باكورة ايامى ، فقد كنت طفلا هزيلا أهملته امه ، وغفلت مربيته عن تغذيته ، وأولته من الرعاية اقلها ، حتى لم يكن يرجى من وجودها الى جانبه اى خير ، ولولا سهر هذه الخالة الكريمة ويقظتها وعنايتها ــ وتلك مظاهر الأمومة الحقة ــ لكنت اليوم رهين الثرى ، او لعشت معتلا كسيحا ، شقيا سيىء الخلق ، ولأصبحت عبئا ثقيلا على نفسى وعلى الناس ، وبفضل توجيهاتها رضعت اول مرة لبان المعرفة ، واعملت العقل ، وتذوقت القراءة التى لا تزال اكبر متعة لى فى حياتى ودعامة مجدى . انى لم أتلقن عنها اللغة او العلوم ، ولكنها وايم الحق ، أكثر من لقيت من المعلمين نفعا » .

وفى اواخر سنة ١٧٤٨ انشأت هذه الخالة بيتا يقيم فيه طـــلاب مدرسة وستمنسرت بلندن فكانت تديره بنفسها ، فرافقها جيبون والتحق بالمدرسة ذاتها فى يناير ١٧٤٩ ، ولكن ما لبث ان عاوده المرض والهزال فارسلته خالته للاستشفاء تارة فى مدينة باث وتارة اخـــرى فى مدينة ونشستر ، وتنقل من معلم الى معلم بل من طبيب الى آخر ، ولكن بقيت الكتب معلمه الأول والأخير ، وازداد غرامه بالتاريخ ، وتفتحت شهيته للاستزادة منه ، فجال فيه وصال دون ترتيب او نظـــام ، وقرأ كـــل ما وصلت اليه يداه من مختلف العصور ، فقرأ هوراس Horace وفرجيل Virgil وترينس Terence بل واوفيد Ovid ، والم الماما وافيا بتاريخ الشرق ، وبذل غاية جهده فى تصفح المجلدات الضخمة التى نشرها باللاتينية المستشرق بوكوك Pococke الذى ترجم من العربية بعض كتب المؤرخ ابى الفرج (اسقف حلب فى منتصف القرن الثالث

عشر) — وفى احدى زياراته لأبيه وقع لأول مرة على كتاب يعالج الحقبة المتأخرة من تاريخ الامبراطورية الرومانية ٠

التحاقه بجـامعة اكسـفورد :

وفى الثالث من أبريل ١٧٥٢ ، وهو يستقبل عامه السادس عشر، أبل من مرضه وتحسنت صحته ٠ والتحق بكلية مجدلين Magdalen College بجامعة أكسفورد بوصفه طالبا غـير مقيـد عـلى منحـة ، لأنـه لم يكن قد تدرج بانتظام فى مراحل وسنى الدراسة المقررة فى ذاك العصر، ومن أطرف ما كتبه هو فى مذكراته بهذه المناسبة قوله : « التحقت بها (جامعة اكسفورد) وعندى حصيلة من العلم والمعرفة تحير أى علامة ، ولكن على قدر من الجهل يندى له جبين أى طالب » . والحق أنه كره الكلية وكره معلميها وهاجم الجامعات الانجليزية ، حتى لقد وصف فى مذكراته تلك الشهور الأربعة عشر التى قضاها فى اكسفورد بأنها أشد فترات حياته خمولا وعقما .

اعتناقـه الكاثوليكية :

بيد أنه فى اكسفورد اتجه الى الاكثار من قراءاته فى الدين ، ولعله تأثر أكثر ما تأثر بكتابات القس الانجليزى ميدلتن Middleton (١٦٨٣ — ١٧٥٠) والفيلسوف الفرنسى بوسويه Bossuet (١٦٢٧ — ١٧٠٤) وانتهى به الأمر الى أن تحول عن مذهب الكنيسة الانجليزية الى المذهب الكاثوليكى ، ولما أعلن تحوله هذا فى رسالة الى والـده غضب الوالد أشد الغضب ، وود لو عرف اسم الشخص الذى أغرى ابنه بهذه الفعلة النكراء فى نظره لينزل به أشد العقاب ، وخاصة لأن قوانين انجلترا كانت آنذاك صارمة ضد الكاثوليك ، ويكفى للدلالة على ذلك انه لما قامت فى انجلترا بعد ذلك ببضع سنوات حركة للتخفيف من شدة تلك القوانين تظاهرت الجماهير فى لندن وأحرقت بعض الأحيـاء سخطا واحتجاجا .

ايفـاده الى لـوزان :

ولم تمض على تحول جيبون الى الكاثوليكيـة عشرة أيـام حتى أوصدت أبواب جامعة اكسفورد فى وجهه ، وقرر والده نقله الى لوزان بسويسرا ، وعهد به الى قسيس يدعى بافيار Pavillard أحد رجال الكنيسة الكلفنية ، وقد وصف هذا تلميذه جيبون بأنه صـبى نحيـل الجسم كبير الرأس يتميز بقدرة بالغة على المناقشة ، مع ايراد كل الحجج التى استخدمت للدفاع عن المذهب الكاثوليكى .

وربما أحس الفتى بشىء من الضيق فى أيامه الأولى فى لوزان ، فى بلد غريب ، نزح اليه نتيجة طرده من الجامعة وغضب أسرته عليه ، وليس له فيها أصدقاء ، ولن يتيسر له عيش ناعم ، أو طعام شهى ، أو ملابس أنيقة لقاء المبلغ الزهيد الذى يرسله أبوه لنفقات اقامته فى دار القس بافيار ، الى جانب أنه كان يجهل الفرنسية لغة أهل لوزان ، ومن ثم بدأ فى تعلمها بحكم الضرورة وبات بعد خمس سنوات يفكر تلقائيا بهذه اللغة التى تأثر بها أسلوبه أيما تأثر ، وقرأ لبعض الكتاب الفرنسيين المعاصرين أمثال فولتير ومونتسكيو .

ارتداده الى البروتستنتية !

مهما يكن من أمر ، فان القسيس بافيــار أدرك ما عليه الصبى من ذكاء ، فكان يتحدث اليه كلما أدرك فيه ميلا الى الحديث ، كما كان يحترم صمته اذا لمس فيه الرغبة فى التزام الصمت ، وحاول فى رفق أن يعيده الى مذهبه البروتستنتى ووفق فى ذلك ، فلم تمض سنتان حتى هجر جيبون الكاثوليكية وتقبل القربان المقدس فى الكنيسة الكلفنية فى يوم عيد الميلاد سنة ١٧٥٤ . على أنه لابد من الاشــارة الى أن جيبون اكتسب فى لوزان فلسفة دينية لم يحد عنها قط ، فلسفـــة تقـــوم على الايمان بوجود الله ، والشك فيما عدا ذلك ، وانه حين أصدر الجزء الأول من كتابه « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » اتهمه كثيرون بالزندقة ونعته الكاتب بوزول بأنه « أحمق كافر » .

فضـــل القس بافيـــار فى تدريبه :

واستطاع بافيار بما أوتى من عــلم وحصـــافة وذوق أن يدرب جيبون على طرائق البحث ومناهجه ، دون أن يحشو هو ذهنه ، أو يحدد له مجالا معينا ، فأبدى التلميذ رغبته فى دراسة الثقافة اللاتينيـــة فى كتابات المؤرخين والشعراء والخطباء والفلاسفة ابتــداء من الــكاتب المسرحى بلوتس Plautus (٢٥٠ — ١٨٤ ق٠م) والمؤرخ سالوست Sallust (٨٦ — ٣٤ ق٠م) حتى اضمحلال لغة روما وامبراطوريتها ، فشجعه على المضى فى ذلك ، وقضى جيبون أربعة عشر شهرا فى متابعة هذا العمل ، كذلك ساعده بافيار فى دراسة اللغة اليونانية ، فأتم قراءة نصف الياذة هوميروس وقدرا كبيرا من كتابات هيرودوت وزينوفون ، وكان جيبون يقرأ وقلمه فى يده ليدون ما يعن له من مذكرات أو ملاحظات ، وتابع الى جانب ذلك كله دراسة اللغة الفرنسية ، وبلغ من حرصه على اجادتها أنه كان يترجم شيشرون من اللاتينية الى الفرنسية ، ثم

يعود فيترجم ما كتبه من الفرنسية الى اللاتينية ، ليطابق الترجمة على الأصل ويختبر بذلك قدرته .

وفى أثناء اقامته فى لوزان ، التقى جيبون بأعز أصدقاء العمر : الشاب السويسرى ديفردن Dyverdun والشاب الانجليزى هولريد Holryd الذى أصبح فما بعد لورد شيفلد والذى تولى نشر مؤلفاته ، كما كان لقاؤه لأول مرة مع شخصية العصر الفريدة فولتير (١٦٩٤ — ١٧٧٨) ، وعن طريقه أولع جيبون بالمسرح الفرنسى ، وهو يشير فى مذكراته الى أن هذا المسرح قلل من اعتزازه بعبقرية شكسبير ، ذلك الاعتزاز الذى شب عليه منذ صباه ، بوصفه الواجب الأول لكل شاب انجليزى .

تعرفه على سوزان كورشو :

وفى لوزان أيضا وقع جيبون فى أول وآخر غرام له فى حياته ، فقد أعجب بفتاة تدعى سوزان كورشو Suzanne Curshod ابنة راعى كنيسة كلفنية فى بلدة كراسى الفرنسية القريبة من الحدود السويسرية ، وكانت مواهب الفتاة تزيد من قيمة مفاتنها الشخصية ، واتفقنا على الزواج ، ولكن كان عليه أن يحصل على موافقة أبيه أولا .

عودته الى انجلترا :

وهكذا رخص له فى ١٧٥٨ بالعودة الى لندن بعد غيبة دامت قرابة خمس سنوات ، وتلقاه أبوه بمزيد من العطف الذى لم يكن يتوقعه ، وترك له حرية اختيار المكان الذى يقيم فيه ، والرفاق الذين يصطفيهم ، والوان المسرة والتسلية التى يرتضيها . وحقيقة الأمر أنه كان له فى العودة الى لندن مأربان : أولهما أن يعرض على أبيه موضوع زواجه من سوزان كورشو ، أما الثانى فان أباه كان قد تزوج ، وخشى جيبون أن يثمر هذا الزواج نسلا يشاركه ثروة أبيه التى كانت قد بدأت تتقلص ، واطمأن قلبه لما تبين له أن زوجة أبيه سيدة رقيقة طيبة القلب ولا ينتظر أن تنجب ، وعندئذ تحدث الى أبيه فى مشروع زواجه من الفتاة الفرنسية ، ولكن أباه عارض هذا الزواج معارضة شديدة . وهنا يقول جيبون فى مذكراته : « لقد تنهدت تنهد العاشق الولهان ، وامتثلت كما يجب أن يفعل الابن البار » .

وكان جيبون اذ ذاك فى الحادية والعشرين من عمره ، وبذلت بعض المساعى لالحاقه بوظيفة فى السلك الدبلوماسى ولكنها أخفقت ، وأشارت عليه زوجة أبيه بدراسة القانون ، ولكنه لم يجد فى نفسه

ميلا الى هذه الدراسة ، ولم تكن مباهج الحياة فى لندن تستهويه ، وطاب له أن يقضى وقته فى بيت أبيه فى بوريتن بمقاطعة هامشير فى التزود من المعرفة والعلم ، وعكف الى جانب دراسته للأدب القديم على قراءة أديسون وسويفت وغيرهما من الكتاب الانجليز ، يحدوه الأمل فى تنقية لغته الانجليزية مما علق بها من آثار الأساليب الأجنبية ، وحاول أبوه أن يثير فيه حب الزراعة ، ولكنه لم ينجح الا فى حمله على مصاحبته فى بعض الجولات التى كان لا بد منها لكبار المقيمين فى الريف .

أول مؤلف ينشره جيبون :

وفى سنة ١٧٦١ نشر جيبون باللغة الفرنسية أول مؤلف له هو « بحث فى دراسة الأدب » Essai sur l'Etude de la Literature وكان قد كتب جزءاً منه فى لوزان ثم أكمله فى لندن ، وربما كان من الجائز أن يؤجل جيبون اخراج هذا الكتاب ، ولكن والده استحث نشره لعل ظهوره يوجه الأنظار الى مؤلفه ومواهبه الأدبية ، ويكون له منفذا الى الحياة العامة والشهرة ، وقد رحب أهل الثقافة والفكر فى فرنسا وسويسرا وهولندا بهذا الكتيب وقرظوه ، ولكنه لما نشر فى انجلترا باللغة الانجليزية لم يثر اهتماما كبيرا فى أوساطها ، وجدير بالذكر أن جيبون نادى فى بحثه هذا بأنه لكى يستسيغ المرء الأدب القديم لابد له أن يلم الماما وافيا بمجريات الأمور فى العصر الذى كتب فيه وبالحوافز التى دفعت اليه ، ويضرب لذلك مثلا أن فرجيل كتب مؤلفه فى فن الزراعة Georgics بناء على طلب الامبراطور أوغسطس ، كى يحول نشاط معارضيه من زعماء الحرب الأهلية القدامى الى نشاط سلمى ، ويقنعهم بمزايا الاشتغال بالزراعة ، وبذلك لم يكن فرجيل مجرد كاتب يصف حرفة الزراعة ، بل كان أشبه بالأسطورى أورفيس Orpheus الذى كان يلعب على قيثارته لينزع من القبائل الهمجية وحشيتها ، ويوحدها داخل مجتمع سلمى مترابط .

جيبون يلتحق بالخدمة العسكرية :

وفى تلك الأثناء التحق جيبون بالخدمة العسكرية برتبة نقيب بالفرقة الرابعة فى هامشير ، وكانت انجلترا فى ذلك الوقت مشغولة بحرب السنين السبع وتعرضت لخطر الغزو ، وكان هذا العمل بعيدا كل البعد عن ميول جيبون واتجاهاته ، حيث قضى على حد تعبيره عاما ونصف عام — من مايو ١٧٦١ الى ديسمبر ١٧٦٢ — فى

حياة عسكرية شاقة ، ولكنه لم يستطع فى تلك الفترة أن يقلع عن مألوف عادته فحاول أن يوفق بين الجندى وطالب العلم ، وتعرف على نظم الجيش وحياة الجند ، ولكنه داوم على قراءاته الواسعة ، وظل يحتفظ بنسخة من هوراس يحملها معه اينما سار .

رحلته فى أوربا : باريس ، ولوزان :

وهكذا فان شخصية المؤرخ وكتابة التاريخ كانتا دواما تداعبان خياله ، وما أكثر ما اختار من موضوعات للكتابة فيها ، ولكن لم يستقر قراره على واحد منها . وتوقفت مشروعاته كلها بسبب زيارته للقارة حيث رأى والده أن القيام بجولة فى أوربا أمر ضرورى لاستكمال تعليم ابنه بوصفه شابا انجليزيا ، وتلك كانت عادة العصر ، وبعد شهر من تسريح جيبون من الجيش كان فى طريقه الى باريس حيث سبقته اليها شهرة كتابة « بحث فى دراسة الأدب » ، ولقى فى باريس ما طابت له نفسه من الترحيب بوصفه رجلا من رجال الأدب ، وهناك قضى أربعة عشر أسبوعا التقى فيها بقادة الفكر ورجال الأدب الفرنسيين من أمثال ديدرو Diderot ودالمبير D'Alembert وريئال Raynal ودارنو D'Arnaud ثم تابع جولته الى لوزان ليزور أصدقاءه ومعارفه القدامى ، وهناك تلقى من حبيبته القديمة سوزان كورشو رسالة تؤكد له فيها بقاءها على حبه ، وظنت هى انه سوف يتزوجها — رغم فسخ خطبتها منذ سنتين ، وطلب اصدقاؤها الى جان جاك روسو أن يتحدث فى ذلك الى جيبون ، ولكن روسو رفض أن يتوسط قائلا ان جيبون شاب ذو مزاج بارد ، وان سوزان لن تكون سعيدة معه ، ولعله أنصف فان سوزان تزوجت بعد قليل من نكر Necker وزير مالية فرنسا الشهير الذى دعا مجلس طبقات الأمة قبيل الثورة الفرنسية ، وأنجبا فى سنة ١٧٦٦ ابنة أصبحت فيما بعد مدام دى ستاى Madame de Stael (١٧٦٦ — ١٨١٧) الكاتبة الروائية المعروفة .

والواقع ان جيبون فى هذا الموقف كانت تعوزه الشجاعة ، فضلا عن انه امتثل لراى والده ، ثم انه فضلا عن ذلك علم أن سوزان كانت محوطة بعدد من المعجبين ، وانها كانت تميل الى بعضهم ، فعلق على ذلك فى مذكراته « اذا كانت الخيانة ضعفا أحيانا فان الرياء رذيلة دائما ، ان هذه الفترة كانت ذات نفع كبير لى ، لأنها بصرتنى بأخلاق النساء ، ولسوف تحمينى دوما من اغراء الحب » ، ولعله لم يفكر بعد ذلك فى الزواج اطلاقا ، ومن الطريف انه كتب مرة الى زوجة

صديقه لورد شيفلد يقول : « ترى هل تدهشين يا سيدتى ، اذا أنا تزوجت ! قد يبدو غريبا أن أذكر لك أن مشروعا من هذا النوع هو اليوم أقل احتمالا مما كان يبدو لى أنا نفسى منذ سنة مضت ، لقد دار بخلدنا — صديقى ديفردن وأنا — أن بيتا مثل بيتنا سوف يسوده النظام وتدب فيه الحياة والبهجة اذا وجدت فيه سيدة وديعة ، ولكن كلا منا يود لو أن زميله قام بهذه التضحية وحده ، اننى منذ أقمت هنا تعرفت على آنسات كثيرات ، واكتشفت أن نحو ست منهن يصلحن زوجات ، ولكل منهن مزايا ترضينى فى نواح مختلفة ، فواحدة منهن تصلح لأن تكون رفيقة فاتنة ، وثانية لأن تكون مضيافة مسامرة ، وثالثة لأن تكون صديقة وديعة مخلصة ، ورابعة لأن تتصدر المائدة فى مهابة ورشاقة معا ، وخامسة لأن تكون ربة بيت مدبرة حازمة ، وسادسة لأن تكون ممرضة يقظة نافعة ... ولو أنى وجدت هذه الصفات والمزايا مجتمعة فى امرأة واحدة لما ترددت فى طلب يدها ، ولما ترددت هى فى رفض طلبى ! » .

سفره الى ايطاليا :

والواقع أن جيبون وقع فى غرام من نوع آخر ، فبعد ان قضى سنة فى لوزان واصل سفره الى ايطاليا ووصل الى روما فى خريف ١٧٦٤ . وهو يشير فى قصة حياته الى المشاعر والأحاسيس القوية التى ملكت عليه عقله وقلبه حين اقترب من المدينة الخالدة وحين دخل اليها ، فيقول : « لقد سكرت بهذه المشاعر والأحاسيس عدة أيام قبل أن تهدأ نفسى ، واخلد الى الدرس ، والبحث » . وكتب فى الوقت ذاته الى ابيه يقول : « لقد وفقت الى مورد خصب يلذ لذهن مؤهل له ، بما يعرف عن الرومان ، اننى الآن فى حلم ! ومهما زودتنا الكتب بالمعلومات فانها اقل بكثير مما تحدثنا به الأطلال » . هكذا راقه منظر روما وملك عليه لبه ، وحدد على الفور اساس شهرته ، وقد عبر هو نفسه عن ذلك بقوله : « ففى روما فى الخامس عشر من اكتوبر ١٧٦٤ ، بينما كنت جالسا أتأمل فى اطلال العاصمة ، على حين كان الرهبان العراة الأقدام يرتلون صلوات المساء فى معبد جوبتر الذى هو الآن كنيسة الفرنسيسكان — نبتت فى ذهنى لأول مرة فكرة الكتابة عن اضمحلال مدينة روما وسقوطها » ، وظاهر من كلامه هذا أن فكرة الكتابة عن « المدينة الخالدة » كانت وليدة الأحاسيس التى طافت بذهنه وهو جالس بين اطلالها ، ولولا أنه بعد ذلك وسع نظرته واجال فكره لما خرج علينا الا بكتاب رقيق عن آثارها ، لا بمؤلف رائع عن تاريخ الامبراطورية الرومانية .

ولكن لا بد لنا هنا من وقفة قصيرة ، حيث يبدو أن جيبون بالغ فى هذا القول ، فانه لم يكتب « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » لمجرد أنه زار روما ، ولا لأنه ذكر فى موضع آخر من مذكراته أنه كان قد قرأ قبل تلك الزيارة بثلاث عشرة سنة كتابا عن تاريخ الامبراطورية الرومانية فى عصرها الأخير ، ولكن حقيقة الأمر أنه اتجه هذا الاتجاه وأولع بالتاريخ الرومانى منذ طفولته ، قال فى رسالة كتبها وهو فى الثالثة عشرة من عمره : « وفى طريق عودتنا الى البيت شاهدنا أطلال معسكر رومانى قديم فشعرت بسعادة غامرة » . ثم ان قراءاته الواسعة منذ حداثته تشير الى ميوله واتجاهاته .

عـــودته الى لنـــدن :

وفى يونية ١٧٦٥ قفل جيبون عائدا الى لنـــدن . ولم يقـــع فى السنوات الخمس التالية ما يستحق الذكر سوى أنه عاون صديقـــه ديفردن فى اخراج مجلدين من مجلة فى الأدب البريطانى . لتنشر فى القارة باللغة الفرنسية ، كما أنه نشر مقالا بامضاء مجهول ضمنه نقده للكتاب السادس من الانيادة ، وكان طيلة هذه المدة معتمدا على أبيه ، رغم أنه كان فى الثلاثين من العمر ، حتى كانت سنة ١٧٧٠ حيث توفى والده ، وشغل بعض الوقت بتسوية الميراث ، ثم أصبـــح مطـــلق التصرف فى وقته ، معتمدا على نفسه .

جيبـــون ينضم للنـــادى الأدبى :

وكان اسمه فى عالم الأدب قد بدأ فى الظهور ، فأصبح عضوا فى النادى الأدبى الذى أسسه صمويل جونسون فى لندن سنة ١٧٦٥، وكان هذا النادى يضم عددا من الشخصيات البارزة أمثال بوزويل Boswell عدو جيبون اللدود ، وجوشا رينولدز Joshua Reynolds الرســـام الشهير ، وأوليفر جولد سميث Oliver Goldsmith وادموند بيرك Edmund Burke ودافيد جارك David Garrick الممثل القدير ، وشارل جميس فوكس Fox السياسى البارع ، وريتشارد شريدان Sheriden الروائى السياسى ، وآدم ســميث Adam Smith الاقتصادى الذائـــع الصيت .

عضويته فى البرلمان البريطانى :

وفى سنة ١٧٧٤ فاز جيبون بمقعد فى مجلس العموم البريطانى ، واحتفظ بعضويته فيه طيلة ثمانى سنوات ، ولكن حيـاته البرلمانيـة

اتسمت بالصمت والخمول ، فلم يلق خطابا واحدا فى المجلس رغم أنه كان عضوا فى الفترة التى شغلت فيها انجلترا بحربها مع مستعمراتها الأمريكية التى كانت تنشد الانفصال والاستقلال ، واكتفى جيبون بأن أدلى بصوته تأييدا لسياسة لورد نورث ، مضحيا بأفكاره ومبادئه هو ، ولاء منه لرئيس حزبه ولحزبه ، ولكنه اقتنع فى النهاية بخطأ هذه السياسة .

جيبون يعكف على كتابة مؤلفه — ظهور المجلد الأول :

ومهما يكن من شىء ، فقد كانت هذه الفترة التى قضاها عضوا فى مجلس العموم أخصب فترات حياته وأوفرها انتاجا ، حيث عكف فيها جيبون على كتابة تاريخه الشهير الذى بين أيدينا ، وكانت فكرته تدور فى رأسه لعدة سنين ، فقرأ كل ما يمت اليه بصلة ورجع وقلمه فى يده الى المصادر الأصلية اليونانية واللاتينية ابتداء من ديون كاسيوس Dion Cassius الى أميانوس ماركلينوس Ammianus Marcellinus واستوعب السير التى دونها الرواة القدامى عن الأباطرة من دقلديانوس الى قسطنطين ، واستعان كذلك بما كتبه المؤرخ الفرنسى تلمون Tillemont (١٦٣٧ — ١٦٩٨) عن تاريخ الأباطرة ووصفه بالدقة والعبقرية ، وتأثر جيبون بعدد من الفلاسفة والمؤرخين الأجانب أمثال بيل Bayle (١٦٤٧ — ١٧٠٦) ومونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ — ١٧٥٥) الفرنسيين ، وجيانونى Giannone (١٦٧٦ — ١٧٤٨) الايطالى الذى كتب « التاريخ المدنى لنابولى » وهاجم فيه سلطة رجال الدين . وشق جيبون طريقه فى ظلمات العصور الوسطى فى حوليات ايطاليا وآثارها ، وقرأ قوانين تيودوسيوس لا بوصفها فقها قانونيا ولكن بوصفها أدبا ، وكان فى البداية محاذرا متئدا ، وما أن انتهى من بضعة الفصول الأولى حتى انطلق قدما وظهر المجلد الأول من تاريخه هذا فى ١٧ فبراير ١٧٧٦ ولقى نجاحا لم يسبق له مثيل حتى لقد أعيد طبعه مرتين أخريين ، ولما ينقض العام . ولكن فى غمرة الاحتفاء به تلقى من هيوم ، الفيلسوف والمؤرخ الاسكتلندى المعاصر تحذيرا بأن ما ورد فى كتابه عن تقدم المسيحية ونموها لابد أن يثير كثيرا من المشادة والجدل ، وهذا ما حدث بالفعل فقد تصدى لمعارضته كثيرون واضطر جيبون الى أن ينشر فى سنة ١٧٧٩ دفاعا رد فيه على كل من هاجموه .

ظهور المجلدين الثانى والثالث

من مؤلفه عن الامبراطورية الرومانية :

وفى ابريل ١٧٨١ أصدر جيبون المجلدين الثانى والثالث من تاريخه وقوبلا بالترحيب ولكنهما لم يثيرا ضجة ، وفى يونيه من العام نفسه ترك جيبون مجلس العموم وحلت به ضائقة مالية باع معها كل ما يملك فيما خلا مكتبته ، واتجه تفكيره الى مدينته الأثيرة لوزان ، وكان يطوى فى نفسه رغبة دفينة ، تلك هى أن يكون مرتع شبابه ومنبع معرفته الاولى ، اى لوزان ، ملجاه الذى يأوى اليه فى أخريات أيامه ، حيث يتهيأ له فيها ، مع دخل متوسط ، كل اسباب الدعة والهدوء والحرية والاستقلال ، وفى سبتمبر ١٧٨٣ ودع جيبون انجلترا ووصل الى لوزان بعد نحو عشرين عاما من رحيله الأخير عنها .

اتمام مؤلفه فى لوزان :

وبعد قرابة عام من مقامه فى بيت فسيح ذى حديقة غناء على شاطىء بحيرة ليمان (دار صديقه ديفردن) انتهى من المجلد الرابع من تاريخه ، وبعد ذلك بنحو عامين اكمل جيبون مشروعه الضخم فى تاريخ اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها بكتابة مجلدين أخيرين . وانه ليتحدث عن ذلك فى مذكراته فيقول : « فى اليوم السابع والعشرين من يونية ١٧٨٧ ، فى الكشك الصيفى بالحديقة ، فيما بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة مساء ، دونت السطور الأخيرة فى الصحيفة الأخيرة من الكتاب ، ثم نهضت للتريض فى الماشى المفروشة التى تشابكت فوقها فروع اشجار السنط ، والتى تطل على منظر رائع ، حيث يمتد البصر الى الريف والبحيرة والجبال ، وكان النسيم عليلا ، والسماء صافية ، وضوء القمر ينعكس على مياه البحيرة ، وكل الطبيعة من حولى هادئة ساكنة ، وان انس فلا انس ما غمرنى لأول وهلة بعد الفراغ من كتابة هذا المؤلف — ما غمرنى من أحاسيس الغبطة والفرح لاسترداد حريتى — وربما لبناء شهرتى ، ولكن سرعان ما انطفأت جذوة الزهو ورانت الكآبة على قلبى ، وخيم على فؤادى حزن عميق ، حين تذكرت اننى ساودع الى الأبد ، رفيقى القديم الأنيس ، وانه مهما يكن من أمر هذا «التاريخ» فى المستقبل ، فان حياة المؤرخ نفسه لا بد ان تكون قصيرة مزعزعة » .

عـــودته الى لنـــدن :

وحمل المؤرخ مخطوطاته وعاد الى لندن ، وهنـــاك خـــرجت الى السوق فى أبريل ١٧٨٨ المجلدات الثلاثة الأخيرة التى دونها جيبون فى تاريخ اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها . وقد تجدر الاشارة هنا الى أن جيبون قضى فى عمله الضخم هذا عشرين سنة ، وأن المجلد الأول صدر قبل الأخيـــر بنحو اثنى عشر عاما .

وعاد جيبون بعد ذلك بقليل الى لوزان حيث فجع بوفاة صـــديق حياته ، بل رفيق حياته ، ديفردن الذى توفى فى يولية ١٧٨٩ ، وكانت الوصية التى تركها الصديق الحميم ترخص لجيبون فى الاقامـــة بنفس الدار المطلة على بحيرة ليمان ، وهناك دون جيبون ســـيرة حياته : « مذكرات عن حياتى وكتاباتى » ، ثم عاد الى لندن فى أوائل صيف سنة ١٧٩٣ ، واشتدت عليه علة أجريت له من أجلها عمليات جراحية ، ولكن شمس حياته آذنت بالمغيب وأسلم الروح فى ١٦ يناير ١٧٩٤ ، ودفن بمقبرة أسرة صديقه لورد شيفلد فى بلدة فلتشنج Fletching بمقاطعة سسكس Sussex وبقيت ذكراه خالدة بفضل تاريخه الذى أعيد طبعه مرارا وتكرارا .

ماذا ضمن جيبون تاريخه :

ولا يقتصر كتاب جيبون على تاريخ روما من عصر الأباطرة الأول حتى نهاية الامبراطورية فى الغـــرب ، بـــل انه يعـــالج كذلـــك تاريخ الامبراطورية الشرقية التى قدر لها البقاء قرابة الف سنة بعد سقوط الامبراطورية الغربية ، وكذا تاريخ جميع الشعوب المتمدينـــة والمتبربرة التى كانت تقطن على حدود الامبراطورية ، ثم ظهور الاســـلام وقيـــام الامبراطورية الرومانية المقدسة والحروب الصليبية ، وقصارى القول : هو تاريخ الغرب وما يتصل به من تاريخ الشرق ، من القرن الأول الى القرن الخامس عشر الميلادى .

وقد أوضح جيبون ذلك فى المقدمة التى كتبها بيده والتى لم ترد فى طبعة هذا المختصر ، فقال انه فى حوالى ثلاثة عشر قرنا قوضت سلسلة من الثورات والغارات دعائم العظمة الانسانيـــة وقضت فى النهـــاية عليها ، ويمكن حصر هذه السلسلة فى ثلاث فترات :

فالفترة الأولى يمكن تتبعها من عصر تراجان والأنطونينيين حـــين بدأت الامبراطورية الرومانية التى كانت قـــد بلغت ذروة قـــوتها ، فى التردى الى مهـــاوى الضعف والانحـــلال ثم الى الدمـــار عـــلى يد

جماعات المتبربرين من ألمانيا واسكيذيا ، وهؤلاء هم الأسلاف الجفاة لأكثر شعوب أوربا الحديثة حضارة وثقافة ، وقد تمت هذه الثورة العاتية التى أخضعت روما لسلطان فاتح قوطى ، حوالى بداية القرن السادس الميلادى .

ويمكن أن نفترض أن الفترة الثانية فى اضمحلال الامبراطورية الرومانية تبدأ بعهد جستنيان (٤٨٣ — ٥٦٥ م) الذى أعاد للامبراطورية الشرقية ومضة عابرة من المجد بفضل قوانينه وانتصاراته معا ، وتشمل هذه الفترة غزو اللمبارديين لايطاليا ، وفتح العرب المسلمين للولايات الأسيوية والأفريقية ، وثورة الشعب الرومانى ضد حكام القسطنطينية الضعاف ، ثم ارتقاء شارلمان الذى أقام فى سنة ٨٠٠ م الامبراطورية الرومانية المقدسة .

أما الفترة الأخيرة ، وهى أطول الفترات جميعا — فانها تطوى نحو ستة قرون ونصف قرن ، وتبدأ باحياء الامبراطورية الغربية ، وتنتهى باستيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية وفناء سلالة الأمراء المنحلين الذين ظلوا يتخذون لأنفسهم لقب « قيصر » ، و « أوغسطس » بعد أن تقلص ظل ملكهم الى حدود مدينة واحدة ، نسيت فيها منذ أمد طويل لغة الرومان القدامى وآداب سلوكهم . ويضيف جيبون قوله : « ان المؤرخ الذى يأخذ على عاتقه سرد أحداث هذه الفترة ليجد نفسه مضطرا الى الخوض فى التاريخ العام للحروب الصليبية بقدر ما أسهمت تلك الحروب فى سقوط الامبراطورية الشرقية (البيزنطية ، أو اليونانية كما كان ينعتها) ، كما لا يمكن أن يتحاشى التعرض لبحث أحوال مدينة روما فى فترة ظلام العصور الوسطى وما سادها من فوضى وفساد » .

ويطلب جيبون الى قارئة أن يقل من اللوم اذا هو لاحظ أن المؤرخ عالج فى أكثر من نصف سفره الضخم تاريخ أربعة القرون الأولى ، على حين أنه تناول فى جزئه الباقى وهو أقل من النصف تاريخ تسعة قرون ، وأوضح أنه لم يعالج التاريخ البيزنطى فى تفصيل واسهاب ، وانما وضع جل همه فى عصر جستنيان وفتوحات المسلمين ثم العصر الأخير فى القسطنطينية (الحروب الصليبية والأتراك العثمانيون) باعتبار أن هذه الأمور كلها مرتبطة بنشأة أوروبا الحديثة ، ومن ثم فقد اقتضب فى حديثه عن الفترة التى تمتد من القرن السابع الى القرن العاشر ، وحصر بحثه فى الأحداث التى رآها هامة وطريفة .

رأى العلامة بيورى فى جيبون وتاريخه :

ولعل خير من كتب عن جيبون وأنصفه هو المؤرخ البريطانى الشهير جون باجنل بيورى John Bagnell Bury (١٨٦١ — ١٩٢٧) الذى كان استاذا بجامعة كمبردج ، فقد أشرف على اخراج أحسن طبعة صدرت لمؤلف جيبون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » وذلك بين ١٨٩٦ — ١٩٠٠ ، وتكرر طبعها بعد ذلك حيث انها امتازت بمقدمة رائعة كتبها بيورى ، كما تميزت بتعليقاته التى أضافها فى ضوء ما جد من أبحاث ، ومن المفيد لنا هنا أن نلخص آراءه :

لقد أوضح بيورى أن جيبون يمتاز بأنه بذل جهدا كبيرا فى الرجوع الى المصادر الأصلية لموضوعه ، وأنه راعى فى كتابته دقة بالغة تثير الدهشة ، ولكن اذا قلنا ان جيبون كان دقيقا فليس معنى هذا أنه كان مصيبا دائما ، ذلك لأن الدقة مسألة تتناسب مع الفرص والمواد المتاحة للمؤلف ، فقد كشفت فى السنوات المائة التالية لظهور مؤلف جيبون ، مواد جديدة استطاع العلماء فى ضوئها تعديل بعض الآراء التى أوردها . ولو أنه عاد اليوم لمراجعة تاريخه لاختلف اختلافا ملموسا ، ولكنا نعود فنقول انه بفضل حاسته التاريخية أصاب فى استخدام ما توفر له من مصادر فى اطار ثقافة العصر الذى عاش فيه ، أى قبل الكشف عن مصادر جديدة (علم النميات مثلا) وقبل وضع الأسس العلمية السليمة لدراسة تلك المصادر والافادة منها . وقد بدأت هذه فى القرن التاسع عشر .. فان الأبحاث التى قام بها عدد من العلماء الأجلاء أمثال مومسن الألمانى Mommsen ، وموراات الروسى Muralt عدلت الكثير من أفكارنا عن النظم الرومانية والتاريخ الدستورى للامبراطورية من عصر دقلديانوس الى ما بعده ، ومع ذلك يقول بيورى ان وصف جيبون لتحول الامبراطورية Principate الى ملكية مطلقة ، وكذا حديثه عن نظام دقلديانوس ووصفه نظام قسطنطين — كل أولئك ما يزال يحتفظ بقيمته العالية .

ويضيف بيورى أنه من الملامح المميزة لمؤلف جيبون هذا ، بصفة عامة ، أنه يقدم لنا درسا فى وحدة التاريخ ، فان عنوانه يوضح الحقيقة الأساسية بأن الامبراطورية التى أسسها أوغسطس سقطت فى منتصف القرن الخامس عشر وأن كل التغيرات التى حولت أوربا التى عاش فيها ماركوس أوريليوس الى أوربا التى عاش فيها ارزمس لم تلغ اسم الامبراطورية وذكراها ، ومهما استخدم جيبون من الفاظ مهينة فى وصف

الامبراطورية وانحلالها ، وسواء أنعتها بالامبراطورية السفلى أم الامبراطورية اليونانية ... فان عنوان كتابه قد صحح المفهوم الخاطىء الذى قد تحمله مثل تلك التسمية ، حيث تعتمد وحدة كتابه على استمرار الامبراطورية الرومانية .

ويأخذ بيورى على جيبون أن روايته للتاريخ الداخلى للامبراطورية بعد عصر هرقل لم تكن رواية سطحية فحسب .. بل انها كذلك تنقل للقارىء فكرة خاطئة ، ولو أن جيبون استطاع أن يستغل المصادر كما فعل عدد من العلماء فيما بعد — لما عجز عن أن يتبين أن تحت المؤامرات والجرائم التى سادت فى القصر وقتئذ كانت هناك أسباب أعمق تعمل عملها ، وأن وراء ثورات العاصمة عوامل أعم وأشمل ، فان محطمى الايقونات Iconoclasts كانوا يناضلون لشىء أكثر من مجرد مقاومة عبادة الصور ، بل كان نضالهم من أجل تجديد الامبراطورية وانعاشها . خذ مثلا آخر ، هو أن مفتاح تاريخ القرنين العاشر والحادى عشر كان فى النضال بين العرش الامبراطورى وبين كبار ملاك الأراضى فى آسيا الصغرى ، ويتضح انتصار هذه الفئة الأخيرة من اعتلاء الكسيس كومنينس العرش ، كذلك يأخذ بيورى على جيبون قوله بأن الامبراطورية فى عصرها الأخير انما كانت تمثل قصة متجانسة للضعف والبؤس .. لأنه قول غير صحيح وحكم لا يجوز أن يصدر عن هذا المؤرخ المفكر الكبير ، فقد كانت الامبراطورية قبل ثورة ١٢٠٤ قلعة حصينة حمت الغرب . وهذه حقائق أوضحها العلماء الذين جاءوا فيما بعد أمثال فينلى Finlay وهيرش Hirsch ورامبو Rambaud وكرومباخر Krumbacher .

وأخيرا يذكر بيورى أن جيبون كانت تعوزه المصادر عن القسطنطينية ومبانيها وعن تاريخ الشعوب السلافية ، ومن ثم كان مقلا فى حديثه عنها .

ومهما يكن من شىء ، فان بيورى يقرر أن جيبون هو واحد من قلة من الكتاب الذين يحتلون مركزا ممتازا فى تاريخ الأدب الانجليزى وفى قائمة كبار المؤرخين ، وأنه يمكن أن يوضع فى مرتبة تيوسوديديس ، وتاسيتس من حيث صفاء أسلوبه وحرصه على مراعاة الدقة ، وهذا هو سر بقاء كتابه ، فهو تاريخ وأدب معاً ، وقد بلغ من حرصه على روعة أسلوبه أنه عدل فى الطبعة الثانية لمؤلفه عبارات شتى لا لشىء الا لزيادتها تهذيبا ، وعندما صدرت طبعته الثانية أورد بخط يده على

عدد قليل من صفحاتها بعض التعليقات والتصحيحات ، مثال ذلك أنه بعد العبارة التى تحدث فيها عن موت ماركس أنطونيوس كتب ما يلى :

« ألم يكن جديرا بى أن أشرح تاريخ هذه الفترة الزاهرة التى جاءت بين عهدين جديدين ؟ ألم يكن لزاما على أن أستخلص انحلال الامبراطورية من الحروب الأهلية التى تلت سقوط نيرون ، أو حتى من الطغيان الذى جاء فى أعقاب عصر أوغسطس ؟ واأسفاه ! ما قيمة المعرفة اذا جاءت بعد فوات الوقت ! لا ينفع الندم اذا ما استحال تصحيح الخطأ » .

والى جانب دقته وروعة أسلوبه ، يتميز جيبون كذلك بوصفه الممتع الأخاذ لشخصياته ، وولعه بالسخرية ، ولكنه على خلاف كثير من المؤرخين ، لم يخف أهواءه ، فنراه يتحمس فى لوم امبراطوره المحبب اليه جوليان ، وفى مدح الأسقف أثناسيوس .

ويبرز جيبون فى سخريته شيئا من حكم الحياة . فهو يتحدث عن دقلديانوس حين اعتزل الحكم وقضى الأعوام التسعة الأخيرة من عمره فى الاشتغال بالزراعة وفلاحة البساتين ، فى موطنه فى مدينة سالونا بولاية داشيا ، ويروى كيف أن زميله مكسيميان الذى كان قد أشركه معه فى حكم الامبراطورية ، توسل اليه فى العودة الى العرش وارتداء الحلة الأرجوانية ، وكيف أن دقلديانوس أصر على رفضه ، قائلا فى سخرية لاذعة : « لو أن مكسيميان استطاع أن يبصر بعينيه الكرنب الذى زرعته بيدى فى سالونا ، فانه لن يعود يصغى لأى اغراء يثنيه عن التمتع بهذه السعادة طلبا للسلطة » . ويضيف جيبون أن دقلديانوس كثيراً ما اعترف لأصدقائه فى مناقشاته معهم بأن أشق فن فى الحياة هو فن الحكم . وتلك هى خلاصة تجربته الطويلة وخبرته الأصيلة .

جيبون وايمانه بحرية الفرد والحرية السياسية :

وخلاصة القول ان جيبون كان مفكرا حرا ، ومؤرخا هادئا ، يحرص الحرص كله على حرية الفرد وعلى استقلال الشعوب . وهو اثر من آثار حياته فى سويسرا الى جانب آثار قراءاته ، فقد أعجب بكفاح الولايات السويسرية من أجل استقلالها وحريتها وكان قد شرع فعلا فى وضع مؤلف عن نضال هذا الشعب المجيد ولكنه عدل عن اتمام مشروعه . كذلك دافع جيبون عن الحرية السياسية التى يرى أنه بدونها لا يمكن للفرد أن يطمئن على مستقبله ، كما يتضح من حكمه على

عصر نرفا وخلفائه حتى وفاة ماركوس اوريليوس (الفصل الثالث من هذا الكتاب) فهو عصر يمثل فى رأيه فترة من التاريخ نعم فيها الجنس البشرى بالسعادة والازدهار ، ولكنه يضيف الى قوله هذا نقطتين أوضح فيهما ما كان يشوب هذه السعادة من نقائص فقال : « ان مثل هؤلاء الحكام كانوا يستحقون شرف استعادة الجمهورية لو أن الشعب الرومانى فى أيامهم استطاع أن يتمتع بالحرية » . كما أوجز وصفه لحكام القسطنطينية فى آخر القرن الرابع الميلادى (الفصل ٣٢ من هذا المؤلف)، فقـــال :

« وكان حكام القسطنطينة يقيسون عظمتهم بمقياس الطـــاعة الذليلة التى فرضوها على شعبهم ، ولم يدركوا أن هذا الخلق السلبى يضعف كل ملكات العقل ويورثها الانحطاط » .

لقد كانت الحرية فى رأيه عنصرا أساسيا وشرطا لا غنى عنه لسعادة البشرية ، وهى القياس الذى أقام عليه جيبون حكمه على الماضى . يقول فى حديثه عن أعراض الاضمحلال فى الامبراطورية الغربية (الفصل ٣٥) : « كانت الحكومة الرومانية تبدو كل يوم أقل بأســـا فى نظر أعدائها ، وأكثر ظلما ومقتا فى نظر رعاياها ، فالضرائب كانت تتضاعف مع تفاقم الضيق العام ، وكلما ألحت الحاجة الى الاقتصاد زاد الاسراف ، وطرح الأغنياء الظالمون كل العبء عن كواهلهم ، وألقوه على كواهل الناس ، بل وتحايلوا على حرمانهم من المتع البريئة التى قد تخفف من بؤسهم فى بعض الأحيان ، وعمدت الحكومة الى التحقيق والتفتيش ثم الى مصادرة أملاكهم وتعذيب أشخاصهم ، كل أولئك أرغم رعايا فالنتنيان على ايثار البرابرة مع طغيانهم الأيسر احتمالا ، أو على الفرار الى الغابات والجبال ، أو على الهبوط الى مراتب الخدم والمرتزقة رغـــم خستها وحقارتها ، حتى وصل بهم الأمر الى التبرم بلقب « المواطن الرومانى » والى التبرؤ منه ، بعد أن كان فيما مضى محط أطماع العالم أجمـــع ..

« واذا كانت روما قد ظلت قائمة ، فانها ظلت قائمة على أنقاض الحرية والفضيلة والشرف » .

وكان جيبون فوق هذا وذاك متشبعا بالروح الانسانية التى ميزت العصر المستنير فى القرن الثامن عشر ، فكان يكره القســـوة والعنف والاضطهاد بأية صورة من الصور ، وفضلا عن أن كتابه هذا حافل

بالشواهد على ذلك ، فقد تجلت هذه الروح الانسانية فى سخطه على تجارة الرقيق ، رغم أن صديقه لورد شفيلد كان من أنصار الابقاء عليها ، وكم اغتبط جيبون حين اتخذ البرلمان الانجليزى سنة ١٧٩٢ الخطوات الأولى لالغاء هذه التجارة وتحريمها .

هذا هو جيبون .. وهذا هو كتابه الخالد ، بل ملحمته المنثورة وسمفونيته الرائعة ... أضعه بين أيدى قراء العربية . وان أنس فلا أنس هنا أن أسجل مع الشكر والتقدير فضل وزارة الثقافة ، والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر فى العمل على اثراء المكتبة العربية بالتراث الانسانى والذخائر العالمية ، فكان فى مخططها هذا العام نشر هذا الكتاب .

والله ولى التوفيق

أحمد نجيب هاشم

مقـدمة الطبعة الانجليزية

(د ٠ م ٠ لـو)

وضع مختصر « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسـقوطها » على أمل أن يكسب الكتاب قراء جددا ، وعلى أمـل أن يزود أولئك الذين درجوا عليه وألفوه بخلاصـة له ، اذ قلما يتيسر الحصول عليه فى أقل من ستة مجلدات ان لم يكن اكثر .

وسيظل اضمحلال الامبراطوريـة الرومانية وسقوطهـا الحدث التاريخى الفذ فى أوربا والشرق الأدنى . وليس ثمة سجل يقص مجرى هذه الأحداث خير من مؤلف جيبون ، وأنه لمن نافلة القول أن نذكـر أنه جماع براعة واطلاع واسع ، يندر أن يكون لهما مثيل ، مع مهارة أدبية لا تبارى . ولا يكاد يعرف أى هذه الصفات أوفر حظا أو أبرز فيه أثرا . ولقد ألف جيبون كتابه هذا منذ زمن طويل (١٧٧٦ — ١٧٨٨)، وكم من أشياء كشفت وكتبت منذ ذلك التاريخ ، ولكن هناك رغم ذلك اتفاقاً تاماً على أن كتاب جيبون ما يزال يحتفظ بمكانته ، بل ويزداد الاقبال على قراءته لما ينفرد به من فن وجمال . ولو أن كتاب « الاضمحـلال والسقوط » فقد قيمته التاريخية ، لكان من العبث أن نتعلق بالأمل فى قراءته ، أكثر ما تكون القراءة ، من أجل أسلوبـه فحسب ، اللهم الا أولئك المتخصصون فى الأدب الذين يتناولونه بالتشريح والتحليل ، ومن ثم كانت الحاجة الى « مختارات » منه ، تهدف الى ابراز هاتين الصفتين معا . أما اللجوء الى اقتطاع شذرات منه وضمها بعضها الى بعض لمجرد سرد الحقائق وابراز القيمة الفعلية ، فانه يسىء الى هذا العمل الجليل ، ويحجب عن القارىء تفوقه وميزاته الحقيقية . فيجدر أن ينظر الى الكتاب على أنه كل ، على أن يؤخذ فى الاعتبار موضوع انقاص حجمه قدر الامكان ، دون الانتقاص من الاحساس بأنه يصدر عن كيان متكامل .

أما الفصلان العظيمان الخامس عشر والسادس عشر اللذان يعالجان « ظهور المسيحية » فقد احتفظ بهما كاملين . فقد خيف هنا أن يشعر الاقتضاب بأن المحرر ينصب نفسه حكما بين جيبون وقارئه فى هذه السيرة الحيوية • ومنذ كتب جيبون فى ١٧٧٦ أول مجلداته الأربعة ، وفيه هذا الفصلان اللذان بلغ فيهما المؤلف ذروة المهارة والحذق ، ظل هذا الجزء ـ لسوء الحظ ـ أكثر ما كتب جيبون عن المسيحية عرضة للتشهير وسوء السمعة ، ولو أن كثيرا من الناس اعتبروه فى الواقع شيئا عاديا مألوفا ، ولهذا أبقينا على أجزاء كثيرة من الفصول الأخيرة التى تناولت التطورات اللاهوتية والكنسية .وليس من الميسور فهم غزوات المتبربرين والتاريخ الداخلى للامبراطورية دون الاشارة الى تقدم مذهب آريوس (١) ونظرية التثليث . ونظرية التجسد . وقد يكون الوقت الآن مناسبا لتذكر ما ذكره كاردينال نيومان فى حسرة وأسى من أن جيبون كان المؤرخ الوحيد للكنيسة . ولكن الزمن والجهد قد عالجا ذلك . فان أعظم مؤرخى الكنيسة قيمة متفقون مع جيبون ، رغم ذلك ، فى استنكار التصديق الأعمى ، والخرافات الساذجة والخداع المتعمد ، وفى الحزن على تنكب المثل العليا البدائية والانزلاق الى الأطماع الدنيوية ، مما يشوب تاريخ الدين كثيرا . وكان جيبون أول من جعل من التاريخ الدينى دراسة علمانية . ولم يختلف عنه خلفاؤه فى معظم الأحوال الا فى طريقة تناولهم للموضوع وفى لهجتهم . وهنا يجب أن نقول شيئا : فقد يحلو ويسهل على بعض الكتاب أن يتحدثوا عن عداء جيبون للمسيحية . والحق أنه أورد فى شىء من الطيش أشياء نبذها وترفع عنها فى عصرنا هذا «جلبرت مرى Gilbert Murray » على أنها « حثالات دنيئة » . ولكن جيبون لا يهاجم قط « السنن القويم للانجيل » ، وهو لا يتحدى الأخلاقيات المسيحية كما فعل بعض « اللاأدريين » (٢) من بعد • بل انه كان دائما يجل الاخلاص والتمسك الجرىء بالمثل العليا . خذ مثلا كلامه عن القديس كبريان Cyprian أسقف قرطاجة (فى القرن الثالث الميلادى) وعن أثناسيوس ، وكريزوتوم (أحد آباء الكنيسة اليونانية فى القرن الرابع) ، تدبر كذلك تهكمه الذى تناول به تناولا نزيها آراء جوليان (٣) الدينية وطقوسه

(١) "Arianism" مذهب آريوس Arius الذى يقول بان المسيح ليس من نفس مادة الرب ولكنه أحسن ما خلق الله ـ (المترجم) •

(٢) "Agnastics" (الغنوصيون) الذين لا يعتقدون بكفاية العقل لفهم الوحى الالهى ـ (المترجم) •

(٣) Julian the Apostate امبراطور روما ٣٦١ ـ ٣٦٢ •

ومن السخف كذلك ، الزعم بأن جيبون كان يميل ميلا خاصا الى الحياة الروحية ، فقد امتلأ عقله بفلاسفة القارة (أوربا) الذين قال عنهم ليتون ستراتشى Lytton Strachey فى مقالــه عن مــدام دى دفــان Mme, du Devand ان مذهب المتشككين فى هذا الجيل لمن أعنف واعند ما عرف العــالم ، فانه لم يتكلف حتى مشقة الانكار بل عمد فى بساطة الى التجاهل ، وكان بمثابة حجاب كثيف من الاستهتار باسرار الــكون ، وبحلولها وكشف غوامضها على حد سواء . وتعلم جيبون من بسكال Pascal « التهكم اللاذع والمعتدل » واستخدمه استخداما مدعما ، فاذا كان هذا التهكم قد اصبح على طول المدى مملا شيئاً قليلا ، فيجب أن تتذكر — كما تذكر ج.ب بيورى J. B. Bury — أن تناول الموضوع بأسلوب غير مباشر كان لونا من الحيطة اللازمــة فى القــرن الثامن عشر ، فلربما صحت الكنيسة آنذاك من مرقدها الوثير لانزال اشــد العذاب والعقاب بالمجدفين فى الدين .

ان رجال الدين فى عصر جيبون ، بالاضافة الى بعض العلمانيين ، لم يدركوا ، وما كان فى مقدورهم أن يدركوا ، ما كان يصنعه هــذا الرجل ، بل انهم لم يحاولوا شيئا من ذلك . لقد طاش صوابهم وفقدوا أعصابهم لما اعتبروه فى نظرهم تهجما على نظام مرتبط بالطبيعة المستقرة للأمور ، فلما كانوا يفتقرون الى حجة دامغة عمــدوا الى الأســلوب التقليدى القديم فى تجريح من يدافع عن خصمهم . وكان الهدف لأول وهلة سهلا . لأن جيبون كان بدينا متأنقا ، ولم تكن العقلية الانجليزية لتغتفر بسهولة اجتماع هاتين الصفتين . واستطال الداب على تحقير شخصه وتشويه سمعته وأخلاقه قرنا من الزمان ، وتكشف بعد ذلك تقييم أكثر رشادا وسدادا لصفات الرجل امام اعين اولئك الذين كلفوا انفسهم أن يتدبروا القول : اذا كان لنا ان نسخر بعد من غرابة الرجل وشذوذه — وقد يكون من قبيل الصلف والكبرياء الا نهمــل ذلــك — افلا يجدر بنا فى نفس الوقت ان نؤكد ان جيبون كان رجلا متكامل العقل والخلق معا ، كما كان — على حد اعتراف أصدقائه الأقربين — يتحــلى بروح انسانية فياضة ! والحق ان تلك صفات كانت تسود تاريخه .

ومن الطبيعى ان تعقد موازنة بين مجرى الامبراطورية الرومانية وبين مجرى التاريخ الأوربى الحديث . وفى ظروف الحيــاة الناعمــة السعيدة منذ ٦٠ عاما عقد لورد بريس Bryce (مؤرخ انجليزى ١٨٣٨ — ١٩٢٢) موازنــة مشــوقة بين فتــوح القيصر أوغســطس وبين الامبراطورية البريطانية . واليوم قد يجد اولئك الذين يحسون بانهــم يعيشون وسط مدنية متداعية الأركان — يجدون فى قصــة اضمحلال

الامبراطورية الرومانية مادة غزيرة للمقارنة . وانا لنترك للقراء أن يقارنوا لأنفسهم ما شاءوا . وثمة تعليق أو اثنان على موقف جيبون من الموضوع الذى اختار الكتابة فيه . وقد لا يكون التعليق أمرا نابيا ، بل ان هذا موضعه .

شرع جيبون فى تأليف كتابه بعد فترة شباب ثم رجولة مبكرة عكف فيها على دراسة الآداب القديمة ، وخاصة اللاتينية ، ومن ثم تحكم فى نظراته ما وجد في تلك الآداب القديمة من مقاييس ومثل ، فتراه فى معظم ثنايا مؤلفه يكتب كما لو كان عضوا مثقفا فى السناتو (مجلس الشيوخ) فى أزهى أيام الامبراطورية ، وهنا تكون فكرته عن الإضمحلال والسقوط أمرا طبيعيا لمثل هذا الشيخ عضو السناتو ، على افتراض أن عصر الأنطونينيين كان عصرا ذهبيا حقا ، ولا يضعف من هذا الافتراض ما أظهرته الأبحاث مؤخرا من حقيقة مؤداها أن الاستقرار الاقتصادى كان تمويها . فلما أخذ جيبون نفسه بنظرية الإضمحلال ، لا من ناحية الرخاء فحسب ، بل على أساس المقاييس الأدبية والفلسفية القديمة كذلك ، فانه تابع قصته ، على الأقل حتى سقوط الامبراطورية فى الغرب، دون تناقض صارخ . ولم يمنعه حزنه التقليدي ورثاؤه لفقدان الحرية السياسية من أن يسجل فى بصيرة وفطنة الشيء الكثير من المبتكرات السياسية والادارية ، ابتداء من أعمال أوغسطس الى تنظيمات دقلديانوس وقسطنطين ، وقد يرى القارىء مصادفة أن نفوره من مراسم البلاط (الامبراطورى) — تلك التى نشأت فى آسيا واقتبسها دقلديانوس وخلفاؤه ، ثم انتشرت مؤخرا فى كل أوربا — لم يكن أقل وضوحا من استهتاره بالدين .

ومن الطبيعى أن يرى جيبون ، بحكم اتجاهه الرومانى أو السناتورى ، فى غزوات المتبربرين شيئا أقل من أنها كانت موجات من التخريب والتدمير . ولكن يمكن من زاوية أخرى مختلفة ، كما فعل بيورى أن ندرك أن الغزاة لم يكونوا يسعون دائما الى التخريب ، بل يهدفون الى الاندماج فى الرحاب الجميل للمدنية القديمة . ومثل هذا التباين فى وجهات النظر لابد ان يؤدى الى الاختلاف فى الحكم على استيطان الشعوب الجرمانية داخل الحدود الامبراطورية . أضف الى ذلك أن هؤلاء الناس جلبوا معهم كثيرا من المبتكرات التى زادت من نعيم الحياة الأوربية ، مما لم تكتشفه دنيا اليونان والرومان قط .

ولكن الأدهى والأمر أن نظرية جيبون فى الاضمحلال ضلت به الطريق الى تاريخ الحضارة البيزنطية ، ومن ثم يجدر اللجوء هذا الى المؤلفين

المحدثين ، علاجا لهذا الضلال أو ترياقا ضده . ولا يتبقى أمام القارىء الا سؤال واحد وهو : كيف يتسنى أن يقال فى جملة واحدة : ان القسطنطينية فى حالة اضمحلال مستمر على حين بقيت هذه المدينة حصنا لأوربا لفترة تربو على الف عام ؟ .

ومهما يكن من أمر ، فستظل الحقيقة قائمة ، وهى أن الامبراطورية فى الغرب والشرق قد آذنت بزوال . ولقد شغل المؤرخون المحدثون أنفسهم بالبحث عن أسباب هذا السقوط ، أكثر منهم برواية أنبائه فحسب . وليس هناك إتفاق معين بين هؤلاء الباحثين والمحققين . فاذا وليت وجهك شطر جيبون وملاحظاته الهادئة عن فناء الامبراطورية فى الغرب لوجدته لا يفتش كثيرا عن أسباب السقوط ، قدر ما يعبر عن دهشته وعجبه من بقاء هذا التنظيم المعقد لعدة قرون ، وقد نمتدح نحن الذين رأينا تفكك ما كان ينظر اليه باعتباره نظما امبراطورية قوية — فى بضع سنين — نمتدح حكمة جيبون ونشاطره الدهشة والعجب .

وما دام المقام يتسع لكل شىء فلنذكر انها كانت ميزة ومكرمة . وليست علة أو نقيصة ، أن جيبون أقام وسط دنيا الرومان ليكتب قصصه الذى اقتحم به الى قلب العالم الرومانى ليزودنا بسيرة أصيلة خالصة مستمدة من المراجع القديمة فى تفصيل كامل ، لا يمكن الوقوع على مثله فى أى مؤلف حديث آخر . والحق أن كتاب جيبون يسمو على تفاصيل الامبراطورية الرومانية . لقد ساد الاعتراف بأن الكتاب ملحمة منثورة استعرضت فيها كل خبرة التاريخ . على مستوى عام شامل ، واذا كان جيبون قد نظر الى التاريخ على أنه « سجل لجرائم الجنس البشرى وسقطاته ونكباته » فان رؤياه هذه ، فى سعتها وحنوها ، تضعه فى منزلة أدنى قليلا من منزلة كبار الشعراء .

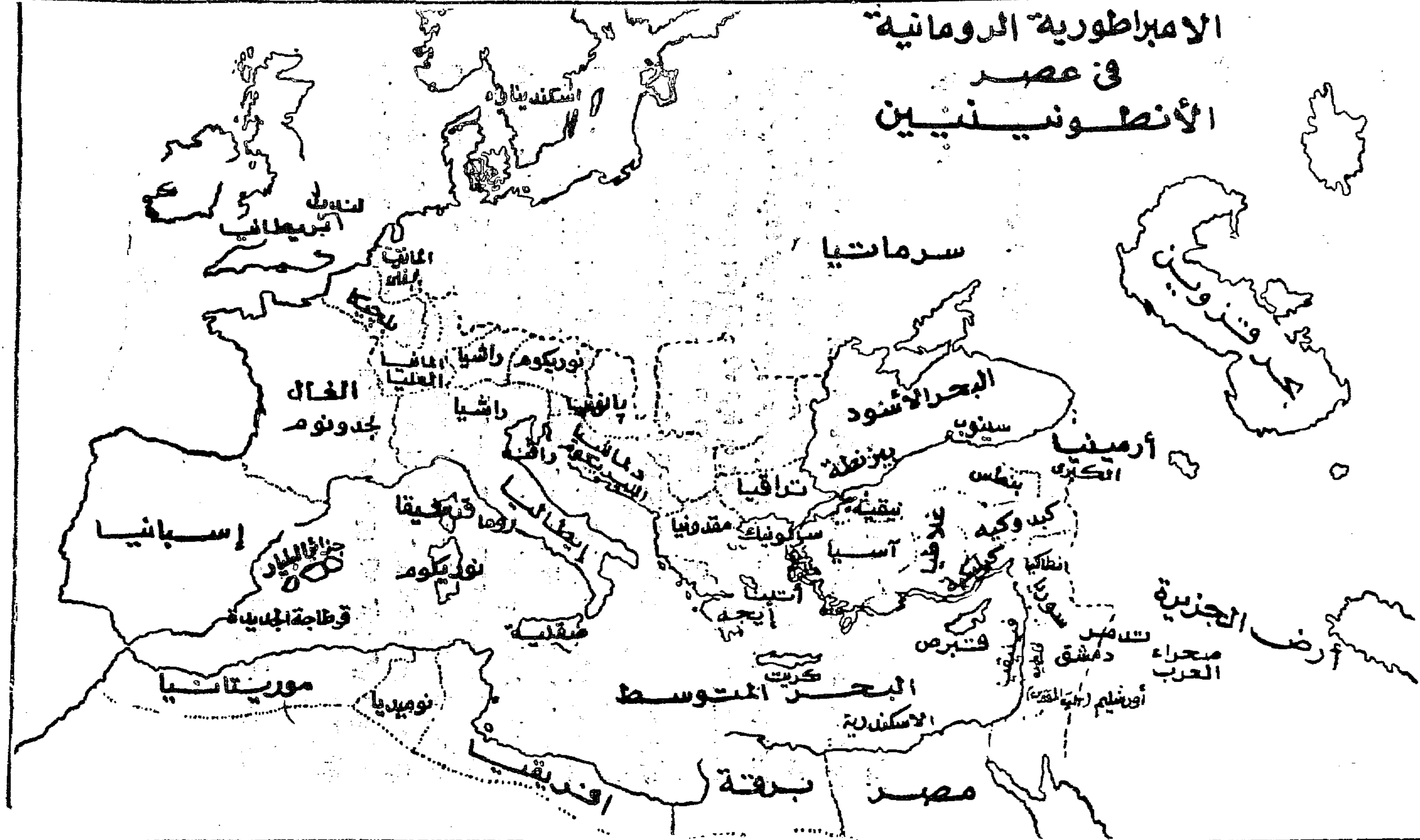
وينهج هذا المختصر نهج النص الأصلى لكتاب جيبون ، اللهم الا فى استثناء واحد جدير بالملاحظة ، وهو قطعة الافتتاحية التى جاءت تحت عنوان « تمهيد » ، فقد أخذت هذه القطعة من نهاية الفصل الثالث ، حيث رئى انها تشكل فاتحة أفضل من بداية الفصل الأول . ولم يكن ثمة فسحة لاختيار القطعتين معا . وقد عمدنا الى هذا الاستثناء الوحيد من ترتيب النص الأصلى دون أن نقصد الاستعلاء على رأى المؤلف . ولما كان كل فصل من الكتاب يشكل قطعة اجاد المؤلف تصورها واخراجها — أو قل حركة فيما أسلفنا وصفه بأنه سمفونية عظيمة . ولما كانت هذه الحركات كلها تنتهى الى خاتمة مقررة مؤثرة ، فقد وضعنا نصب أعيننا أن نثبت فصولا برمتها ما استطعنا الى ذلك سبيلا . وقد

اعتراف بالفضل :

قدم الى كثير من الاصدقاء المشورة والنصح خالصين دون مقابل فى عملى هذا ، ولم يفتر حماسهم فى حفزى ودفعى فيه . ولو قبلت كل مقترحاتهم لخرجت بنص كامل لكتاب ((الاضمحلال والسقوط)) . ويستحق مستر فرانك ف. مورلى أجزل الشكر وأعظم الامتنان ، لا لمجرد تشجيعه الحكيم الرصين فحسب ، بل كذلك لاستعداده التام وسهره الدائب على انجاز المهمة الكبيرة ، ألا وهى قراءة التجارب . ويجل عن التقدير كذلك ما قدمت لى زوجتى من مساعدة قيمة فى هذا المضمار . وانى ليطيب لى ان اذكر الحماس والفطنة والبراعة التى أبداها مستر كولن هايكرافت Mr. Colin Haycraft فى المراجعة النهائية للمختارات، واعدادها للطبع ، وكانت له يد صناع طولى فى تصحيح العنوانات والملخصات المتداخلة فى صلب الكلام ، ولولا ما بذل من عون لبدا العمل ثقيلا . وانى لمدين اخيرا بأعمق الشكر لاعضاء مؤسسة شاتو ووندس وشركاهم Chatto & Windus Ltd. بالنسبة لهذا الكتاب وغيره منذ سنوات كثيرة مضت ، لعنايتهم واهتمامهم وتدبرهم لكل مرحلة من مراحل الاعداد لمثل هذا النوع المعقد من اعمال النشر .

د. م. لو

كرافن هل ١٩٦٠


الامبراطورية الرومانية
فى عصر
الأنطونيين
بريطانيا
لندينيوم
الغال
لجدونوم
إسبانيا
جزائر البليار
قرطاجة الجديدة
موريتانيا
نوميديا
إفريقية
برقة
مصر
الإسكندرية
البحر المتوسط
كريت
قبرص
صقلية
سردينيا
كورسيكا
روما
إيطاليا
رائيا
نوريكوم
پانونيا
دلماشيا
مقدونيا
تراقيا
أخائيا
أثينا
آسيا
بيثينية
بيزنطة
البحر الأسود
سينوب
بنطس
كبدوكية
أرمينيا الكبرى
سرماتيا
الإسكندناوة
أنطاكية
سوريا
تدمر
دمشق
أورشليم
صحراء العرب
أرض الجزيرة

العصر الذهبى للأنطونيين

تمهيـــد (★)

اذا طلب الى انسان أن يحدد الحقبة من تاريخ العالم التى بلغت فيها أحـوال الجنس البشرى ذروة السعادة والازدهار لحددها دون تردد بالفتـرة التى انقضت بين مـوت دوميتيـان (١) Domitian واعتلاء كمودس (٢) Commodus العـرش . وكانت الامبراطوريـة الرومانية المترامية الأطراف تحكمها القوة المطلقة على هدى من الفضيلة والحكمة . وكبح جماح الجيوش أيد حازمة ثبتة ، وفى نفس الوقت وديعـة رفيقة ، لأربعة من الاباطرة تعاقبوا على العرش ، فـرضت سلطتهم وشخصياتهم الاحترام فرضا . وحافظ نرفا وتراجان وهادريان والأنطونينيون فى عناية تامة ، على اشكال الادارة المدنية ، وكـانوا يقرون عيونا بطيف الحرية ، ويبتهجون اذ يعتبرون أنفسهم حماة للقوانين مسئولين عنها . ان هؤلاء الأمراء لينستحقون شرف استعادة الجمهورية، لو أن الموطنين الرومان على أيامهم كانوا قادرين على التمتع بحريـة تتسم بالتعقل .

ولقد وفيت أعمال هؤلاء الحكام حقها بهذا الجزاء الوفاق الذى اقترن بنجاحهم ، أو قل بهذا الاعتزاز الصادق بالفضيلـة والسرور البالغ بما غمر الناس من سعادة كانوا هم صانعيها . ولكن خـاطرا مشروعا وحزينا معاً كدر انبل ما يتمتع به الانسان ، فانهم لابد كـانوا كثيرا ما يسترجعون أنه لا ثبات ولا استقرار لسعادة تعتمد على شخصية

(★) مقتبس من الفصل الثالث .

(★★) يلاحظ ان ارقام الفصول هنا هى نفسها ارقام الفصول فى النص الاصلى الذى دونه جيبون .

(١) امبراطور روما ٨١ ـ ٩٦ م .

(٢) امبراطور روما ١٨٠ ـ ١٩٢م .

رجل واحد ، فربما اقتربت اللحظة المشئومة التى يستغل فيها الى حد الدمار ، شاب داعر أو طاغية حاقد تلك القوة المطلقة التى استخدمها أولئك الحكام لمصلحة شعبهم . فقد تجدىء ضوابط السناتو المثالية ، وتجدى القوانين ، فى نشر الفضائل ، ولكنها لا يمكن أن تقضى على مساوىء الامبراطور ورذائله . وكانت القوة العسكرية أداة للظلم عمياء تتعذر مقاومتها ، ويمكن أن يخلق فساد الخلق الرومانى على الدوام طائفة من المنافقين الذين يتلهفون على الاستحسان والتصفيق ، من الوزراء المستعدين لخدمة سادتهم ، فى ساعة الخوف أو الجشع ، والشهوة الجامحة أو القسوة العاتية .

وكان فى تجارب الرومان ما يبرر بالفعل هذه المخاوف والظنون الكئيبة . ذلك أن أنباء الأباطرة تقدم صورة قوية واضحة متباينة للطبيعة الانسانية ، من العبث أن نلتمسها فى الشخصيات المشوبة المشكوك فيها فى التاريخ الحديث ، ومن اليسير أن نتعقب تطرف الفضيلة والرذيلة فى سلوك هؤلاء الحكام ، وتترسم فيهم أعظم الكمال وأحط الانتكاس فى صنوف جنسنا البشرى ، فقد سبق العصر الذهبى لتراجان والأنطونيين عصر حديدى . وقد يكون نافلة من القول أن نعدد من لا يستحقون الذكر من خلفاء أوغسطس ، فان رذائلهم المنقطعة النظير والمسرح الفخم الذى مثلت عليه رذائلهم ، أبقى على ذكرهم وانقذهم من التردى الى زوايا النسيان . فقد دمغ بالفضيحة والعار أبد الدهر تيبريوس Tiberius الجبار الغامض ، وكاليجولا Caligola الشرس ، وكلوديوس Cladius الضعيف ، ونيرون Nero المبذر الغاشم وفيتليوس Vitellus البهيمى الكريه ، ودرميتيان الجبان الغليظ القلب . ورزحت روما طوال ثمانين عاما (فيما عدا فترة توقف قصيرة مشكوكاً فيها أيام حكم فسبازيان Vespasian) تحت نير من الطغيان لم تخب ناره أو يهدأ أواره ، أباد الأسرات القديمة فى الجمهورية ، وكاد يكون ضربة قاضية لكل فضيلة وكل مقدرة أو نبوغ ظهر فى هذه الفترة المنكودة .

واقترن استعباد الرومان تحت حكم هؤلاء الجبابرة بظرفين خاصين ، نجم الأول عن الحرية التى تمتع بها الرومان من قبل ، ونشأ الثانى نتيجة توسعهم فى الفتوح ، حتى غدوا فى حالة رهيبة من التعاسة التى لم يقدر لأية فريسة من ضحايا الطغيان أن تعانيها فى أى بلد آخر وفى أى عصر آخر . واستتبع هذان العاملان :

١ — حساسية شديدة لدى المظلومين .

٢ — واستحالة الافلات من يد الظالمين .

١ — كان يحكم الفرس حكام من نسل الصفوى ، وهم جماعة من الأمراء ، كثيرا ما لطخت قسوتهم الغاشمة الفاجرة دواوينهم ومآدبهم وفراشهم بدم خلصائهم ، حتى انه ليؤثر عن شاب من النبلاء قوله : انه ما انصرف مرة من حضرة السلطان دون أن يقتنع نفسه بأن رأسه لا يزال فوق كتفيه . وتكاد خبرة الحياة اليومية تبرر شكوك الفرد هناك ، على انه يبدو أن السيف البتار المتدلى فوق الراس من خيط رفيع واحد ، لم يقض مضجع المواطن الفارسي أو يكدر صفو هدوئه ، فقد علم حق العلم أن عبوس الملك يطرح به الى الأرض ميتا ، ولكن البرق قد يصعقه ، وقد تودى به كذلك نوبة من السكتة القلبية ، وكل أولئك ضربات قاضية على حد سواء . ومن ثم كان على الرجل العاقل أن ينسى البلاء النازل والقضاء المحتوم فى حياة الانسان عندما يخلو الى شىء من متاع الدنيا فى ساعة عابرة . لقد كرموه بقولهم انه عبد الملك ، وربما كانوا قد اشتروه من ابوين مجهولين فى بلد لم يعلم هو من أمره شيئا قط ، ونشأ منذ نعومة أظفاره فى ظل النظام القاسى فى قصر السلطان . وكان اسمه وثروته وأمجاده كلها هبة من عند سيده ، ومن حق هذا السيد أن يسترد ما وهب ، دون أن يكون فى ذلك مجافاة للعدالة ، ولا تجدى المعرفة عند العبد ، اذا تيسر له شىء منها ، الا فى تثبيت عاداته عن طريق الآراء الفجة ، ولم تنم الفاظه عن اى شكل من اشكال الحكومة اللهم الا الملكية المطلقة . ولقد انباه تاريخ الشرق ان تلك كانت دوما حال البشر (١) . كما أن القرآن ، ومفسرى هذا الكتاب المنزل من عند الله قرروا له ان السلطان كان من نسل النبى ، وانه نائب عن الله ، وأن الصبر أول فضيلة ينبغى أن يتحلى بها المسلم ، وان الطاعة العمياء هى أهم واجبات الرعية (٢) .

ولكن أذهان الرومان كانت مهيأة للعبودية بشكل يختلف عن هذا كل الاختلاف ، لقد كانوا يعانون من الظلم الوانا تحت وطأة

---

(١) يقول شاردن Chardin ان بعض الرحالة الاوربيين نشروا بين الفرس بعض الأفكار عن الحرية والاعتدال فى حكومتنا . وقد أساءوا اليهم بذلك ايما اساءة .

(٢) التزمنا هنا كل الامانة والدقة فى نقل كلام المؤلف بحروفه وقد لا يقتضى الأمر أن نعلق عليه باكثر من أن القرآن الكريم والتفسير بريئان من هذه الاباطيل ، وتعاليم الاسلام الصحيح ابعد ما تكون عن هذا الذى حشره المؤلف هنا حشرا — (المترجم) .

الفساد الذى ترديوا فيه هم أنفسهم ، وتحت وطأة العنف العسكرى ، ولكنهم احتفظوا لزمن طويل باحساسهم — أو على الأقل بفكرتهم ، بأسلافهم الذين ولدتهم أمهاتهم احرارا . لقد كان تعليم هلفيديوس Helvidius وتاسيتس Tacitus وتراسيا Thrasea وبلينى Plini هو نفس تعليم كاتو وشيشرون . لقد نهلوا من معين الفلسفة اليونانية انبل الآراء وأكثرها تحررا عن كرامة الطبيعة الانسانية وعن منشأ المجتمع المدنى . وتعلموا من تاريخ بلادهم أن ينظروا بعين الاحترام الى حكومة جمهورية حرة فاضلة منتصرة ، وأن يبغضوا الجرائم الناجحة التى اقترفها قيصر وأوغسطس ، وأن يزدروا فى أعماق نفوسهم هؤلاء الطغاة الذين عبدوهم عبادة منافقة احط ما يكون النفاق . وكان مرخصاً لهم ، بوصفهم قضاة وشيوخاً ، فى الدخول الى المجلس الموقر الذى كان يوما يملى القوانين على العالم ، والذى ظل اسمه ضمانا وسندا لتصرفات الملك أو الحاكم ، والذى كثيرا ما انتهكت حرمة سلطته لخدمة أدنأ اغراض الطغيان . وحاول تيبريوس والأباطرة الذين نهجوا نهجه واعتنقوا مبادئه أن يخفوا جرائم القتل التى يقترفونها تحت ستار من مراسم العدالة وشكلياتها ، بل ربما غمرهم شعور خفى من الاغتباط بأنهم جعلوا من السناتو شريكا متواطئا معهم ، وفريسة لهم سواء بسواء . وقد أدان هذا المجلس اواخر الرومان بجرائم وهمية كانت فى واقع الأمر فضائل حقة ، وانتحل المدعون الشاكون الممقوتون لأنفسهم لغة المحبين لوطنهم المستقلين بآرائهم ، الذين يستدعون المواطن الخطر الى ساحة المحكمة فى بلده لاستجوابه ، وكان موظفو الدولة يجزون الثروة والتكريم . وكان القضاة الأذلاء يعلنون أنهم يؤكدون جلال وعظمة الدولة التى تمتهن كرامتها فى شخص الحاكم الأول ، الذى كان الناس يمتدحون فيه الرأفة والرحمة أيما مديح ، فى نفس الوقت الذى ترتعد فيه فرائصهم اشد رعدة لما يحيق بهم من قسوته التى لا ترحم ولا تلين . وقد نظر الطاغية الى خستهم ونذالتهم فى ازدراء عادل ، وواجه مشاعر المقت والبغض الخفية فيهم بكراهية خالصة علنية لهيئة السناتو باسرهـا .

٢ — انتهى تقسيم أوربا الى عدد من الدول المستقلة ، التى يربطها بعضها ببعض ، على أية حال ، ذلك التشابه العام فى الدين وفى اللغة والسلوك — انتهى الى خير النتائج وأكثرها احسانا الى حرية الجنس البشرى . ان الطاغية الحديث الذى لا يجد رادعا من نفسه أو مقاومة من شعبه ، سرعان ما يلقى وازعا هادئا فى المثل الذى يقدمه

نظراؤه ، وفى الخشية من لوم الساعة ، وفى نصح حلفائه وفى توقع الشر من أعدائه . وكان من اليسير على من يغضب عليه الطاغية — وقد خرج من الحدود الضيقة لممتلكاته — أن يجد فى بيئة أسعد حالا ، ملجأ آمنا ، وقد يبتسم له من جديد حظ يكافىء استحقاقه ، أو تتوفر له حرية الشكوى ، وربما تيسرت له وسائل الانتقال . ولكن الإمبراطورية الرومانية ملأت آفاق الأرض ، فما أن وقعت هذه الامبراطورية بين يدى فرد واحد حتى أصبح العالم بأسره سجنا آمنا كئيبا لأعداء هذا الفرد . وكان كل عبد لهذا الجور الامبراطورى يرقب فى يأس صامت ما يخبئه له القدر ، سواء قضى عليه أن يجر سلسلته المذهبة فى روما أو فى السناتو ، أو يفنى حياته فى المنفى على الصخور المجدبة فى سريفوس Seriphus أو على الشواطىء المتجمدة للدانوب (١) . وكان فى المقاومة هلاكه ، وكان الهرب أمرا مستحيلا ، ففى كل ناحية كانت تطوقه مساحة شاسعة من البر أو البحر ، لا يمكن أن يراوده الأمل فى عبورها فى مأمن من اكتشافه والقبض عليه وإعادته الى سيده الهائج . أما وراء الحدود فلن تقع عيناه المتلهفتان الا على المحيط ، أو على الصحراء القاحلة ، أو على القبائل المتبربرة المعادية، ذوى الشراسة واللغة المجهولة ، أوالملوك الأتباع الذين يسعدهم أن يشتروا حماية الامبراطور بالتضحية بأى لاجىء ممقوت (٢) . أو كما قال شيشرون لمارسيلس Marcellus وهو فى منفاه : «تذكر أنك فى قبضة الفاتح وتحت سلطانه أينما كنت » .

---

(١) سريفوس Seriphus جزيرة صخرية صغيرة فى بحر ايجه ، كان سكانها محتقرين لجهلهم وخمول ذكرهم . ان المكان الذى نفى اليه أوفيد (الشاعر) معروف تماما عن طريق عويله وبكائه ، والذى لا يليق برجل ، ويبدو أنه تلقى أمرا بمغادرة روما فى بضعة أيام معدودة ، والانتقال الى تومى Tomi ، (حصن على البحر الأسود) ولم تقتض الضرورة حراسا أو سجانين (فى المنفى) .

(٢) حاول فارس رومانى الهرب الى بارثيا (مملكة قديمة فى الجنوب الشرقى من بحر قزوين) فى أيام تيبيريوس ، ولكنه أوقف فى مضايق صقلية ، وبدا الخطر من أن يحذو الناس حذوه ، حتى أن أشد الطغاة حقدا احتقر أن يعاقبه .

الفصل الأول
(٩٨ ـ ١٨٠ م)

امتداد الامبراطورية الرومانية ،
نظرة عامة عنها

تمت الفتوحات الرومانية الهامة فى عهد الجمهورية ، وقنع الأباطرة فى معظم الأحوال بالاحتفاظ بهذه الممتلكات ، التى تم احرازها بفضل سياسة السناتو ، وتسابق القناصل ، والحماس العسكرى فى الشعب . وقد زخرت القرون السبعة الأولى بتتابع الانتصارات السريعة ، ولكن قدر على أوغسطس أن ينبذ مشروع الطمع فى اخضاع العالم بأسره ، وينفخ روح الاعتدال فى المجالس العامة . وكان يميل الى السلام بطبيعته وبحكم موقفه ، ولذلك كان من اليسير عليه أن يكتشف أن أمل روما — بمكانتها الرفيعة الحالية — فى امتشاق الحسام أقل كثيراً من تهيبها له ، وأن مواصلة القتال فى الحروب النائية كانت عبئا يزداد فى كل يوم مشقة وعناء ، بقدر ما يزداد الشك فى النتيجة ، ويتخلخل الاستقرار فى الممتلكات ، ويقل نفعها . وزادت تجربة أوغسطس من قيمة هذه الآراء السديدة ، واقنعته بالفعل أنه بفضل نصائحه القوية الحكيمة ، يسهل على روما أن تحصل من هؤلاء المتبربرين المروعين على كل ما تتطلبه سلامتها وكرامتها من تنازل أو اذعان ، فتوصل بمقتضى معاهدة مشرفة — بدلا من تعريض نفسه وقواته لسهام البارثيين — الى استعادة الأعلام والأسرى الذين أخذوا فى هزيمة كراسوس .

وحاول قواده ، فى مستهل حكمه ، اخضاع اثيوبيا والجنوب العربى ، وساروا نحو الف ميل الى الجنوب من مدار السرطان ، ولكن حرارة الجو ردت الغزاة على أعقابهم ، وحمت السكان غير المحاربين فى هذه الأقاليم المنعزلة . أما دول أوروبا الشمالية فكانت لا تكاد تستحق عناء الغزو ونفقته . وكانت غابات ألمانيا وبطاحها

تموج بقبيلة ذات بأس شديد من المتبربرين الذين كرهوا الحياة اذا لم تقترن بالحرية . وبدا أنهم استسلموا لأول ضربة تحت ضغط القوة الرومانية ، ولكنهم رغم ذلك ، سرعان ما استردوا استقلالهم بعد محاولة يائسة مستميتة ، وذكروا اوغسطس بتقلبات الحظ . وعند وفاة هذا الامبراطور قرئت وصيته علنا فى السناتو ، فاذا به قد أوصى لخلفائه من بعده بتراث قيم ، ذلك أنه قدم لهم النصح ببقاء الامبراطورية ، داخل تلك الحدود التى يبدو أن الطبيعة نفسها قد جعلت منها حصونا وحدودا ثابتة دائمة للامبراطورية : اعنى المحيط الأطلسى غربا ، والراين والدانوب شمالا ، والفرات شرقا ، وصحراء العرب وصحراء افريقية جنوبا .

ولحسن الحظ ، ولطمأنينة الجنس البشرى وهدوئه ، نجد أن أسلوب الاعتدال الذى انبثق عن حكمة أوغسطس ، انتهجه خلفاؤه المباشرون على أساس من مخاوفهم ورذائلهم . فقد انغمس القياصرة الأول فى اللهو وانصرفوا الى الظلم والطغيان ، ومن ثم ندر ظهورهم مع الجيوش ، أو فى الولايات ، كما أنهم لم يكونوا مستعدين ليروا فى لوعة أن هذه الانتصارات التى أهملها خمولهم وتراخيهم قد يغتصبها قوادهم بفضل تدبيرهم وجرأتهم وشدة بأسهم . وكانت الشهرة العسكرية لأى فرد من الرعية تعتبر عدوانا صارخا على الامتيازات أو الحقوق الامبراطورية ، ومن ثم كان من واجب أى قائد رومانى أن يحمى الحدود التى هو مكلف بحراستها ، دون التطلع الى فتوح قد يثبت أنها ليست أقل خطرا على شخصه منها على المتبربرين المهزومين .

ولم يزد على الامبراطورية الرومانية فى القرن الأول المسيحى سوى ولاية بريطانيا ، وهذه هى المرة الوحيدة التى أغرى فيها خلفاء قيصر وأوغسطس بأن يحذوا حذو الأول أكثر منهم باتباع وصية الثانى . ويبدو أن قرب بريطانيا من شواطىء الغال هو الذى استحث القتال ، كما أسال اللعاب وحرك الأطماع انباء سعيدة ، قد تكون مشكوكا فى صحتها ، عن وجود مصائد اللؤلؤ . ولما كان ينظر الى بريطانيا على أنها عالم متميز منعزل ، فان فتحها لم يكد يشكل أى استثناء للأسلوب العام لاجراءات الغزو داخل القارة . وخضع معظم الجزيرة للنير الرومانى بعد حرب دامت نحو أربعين سنة ، حرب بداها أغبى الأباطرة ، واستمر فيها أكثرهم فسقا وفجورا ، وأنهاها أشدهم جبنا . وكانت مختلف قبائل البريتون ذوات بأس شديد ، ولكن دون

تدبير أو قيادة ، كما تملكهم حب الحرية دون روح الوحدة ، فقد يشهرون أسلحتهم فى وحشية عاتية ، وقد يضعونها ، أو يسددونها الى صدور بعضهم بعضا ، وكل أولئك فى تقلب سريع طائش ، فلما قاتلهم الرومان وهم على هذه الحال من الفرقة ، أمكن اخضاعهم تباعا . ولم يجد بأس كاراكتاكوس Caractacus (أحد رؤساء القبائل) أو استماتة الملكة بوديكا Boadicea ، أو تعصب الدرود Druids (مذهب الكلت الدينى قبل المسيحية) — لم يجد كل أولئك نفعا فى الحيلولة دون استعباد بلادهم أو فى مقاومة التقدم المطرد للقادة الامبراطوريين الذين حافظوا على المجد الوطنى ، على حين تلوثت كرامة العرش ولحقه العار بجلوس أرذل بنى الانسان وأضعفهم عليه . وفى نفس الوقت الذى قبع فيه دوميتيان فى قصره شاعرا بما أشاعه من رعب وارهاب ، هزمت جيوشه تحت امرة اجريكولا الفاضل ما تجمع من قوات كاليدونيا (الاسم القديم لاسكتلنده) عند سفح تلال جرامبيان ، وقامت اساطيله — عندما غامرت بارتياد طريق بحرى خطير مجهول — باستعراض الأسلحة الرومانية حول الجزيرة البريطانية بأسرها واعتبر فتح بريطانيا أمرا مفروغا منه . وكانت خطة أجريكولا ، استكمالا وتوكيدا لنجاحه ، أن يغزو ايرلنده ، وتلك مهمة يسيرة يكفى لها — فى رأيه — فيلق واحد وقليل من القوة المساعدة ، ومن الميسور اصلاح أحوال هذه الجزيرة الغربية لتصبح درة ثمينة فى الممتلكات الرومانية ، وعندئذ يكون البريتون أقل ضجرا وامتعاضا بالأغلال والقيود التى وضعت عليهم ، اذا أزيح من أمام أعينهم ، أينما اتجهت أبصارهم ، نموذج الحرية ومنظرها .

ولكن سرعان ما اقتضت مقدرة أجريكولا الفائقة ابعاده عن حكومة بريطانيا ، واختفى بذلك الى الأبد مشروع الفتح المعقول والضخم معا . وعمل هذا القائد الحازم قبل رحيله على استتباب الأمن والسيطرة سواء بسواء ، وكان قد لحظ أن الجزيرة تكاد تقسم الى قسمين غير متساويين ، بالخلجان المتقابلة التى يطلق عليها الآن مضايق اسكتلنده ، فأقام فى نحو ٤٠ ميلا من الجزء الداخلى الضيق خطا من المحطات العسكرية التى جرى تحصينها فيما بعد ، فى عهد أنطونينوس بيوس Antoninus Pius ، بحاجز أخضر مشيد على أساس من الحجر . وتقرر أن يكون سور أنطونينوس هذا ، وهو على مسافة قصيرة وراء المدينتين الحديثتين أدنبره وجلاسجو ، حدا للولاية الرومانية . واحتفظ أهل كاليدونيا فى الأطراف الشمالية من

الجزيرة ، باستقلالهم الهمجي ، الذى لم يكن الفضل فيه لفقرهم أقل منه لبسالتهم . وكثيرا ما صدت غاراتهم وعوقبوا عليها ، ولكن لم يتم اخضاع بلادهم قط . وانصرف سادة أجمل بقاع الأرض مناخا وأكثرها رخاء ، فى احتقار وازدراء ، عن هذه التلال الكئيبة التى تجتاحها عواصف الشتاء ، وعن البحيرات التى تختفى تحت الضباب الأزرق ، وعن المروج الباردة الموحشة التى كانت جماعات المتبربرين العراة تطارد فوقها غزلان الغابات .

تلك كانت حال الحدود الرومانية ، وتلك كانت مبادىء السياسة الامبراطورية ، منذ موت أوغسطس حتى اعتلاء تراجان العرش . وتلقى هذا الأمير الفاضل النشيط تعليما عسكريا ، وتجلت فيه صفات القائد . وقطعت مشاهد الحرب والغزو أسلوب السلام الذى انتهجه أسلافه ، وأبصرت القوات بالامبراطور العسكرى على رأسها بعد سكون طويل الأمد . ووجهت أول أعمال تراجان الباهرة ضد الداشيين Dacians ، وهم محاربون أشداء كانوا يقطنون فيما وراء الدانوب ، نالوا من هيبة روما ، وجرجوا كبرياءها فى عهد دوميتيان دون أن يلقوا جزاءهم ، وقد جمعوا الى قوة المتبربرين ووحشيتهم ، احتقارا للحياة نابعا من اقتناعهم الشديد بخلود الأرواح وتناسخها . وارتضى ديكيبالوس Decebalus ملك داشيا أن يكون خصماً جديراً بتراجان ، كما لم يتطرق الى نفسه اليأس من حظه هو أو حظ شعبه عامة ، حتى استنفد — باعتراف اعدائه — كل موارده من البسالة والسياسة . واستمرت هذه الحرب المشهودة خمس سنوات ، مع توقف قصير جرت خلاله بعض المناوشات . ولما كان الامبراطور يستطيع دون رقابة أن يستغل كل امكانات الدولة ، فقد انتهت هذه الحرب بخضوع المتبربرين خضوعا تاما . وكانت ولاية داشيا الجديدة هى الاستثناء الثانى من وصية أوغسطس وناموسه . وكان محيطها يبلغ نحو ١٣٠٠ ميل . وكانت حدودها الطبيعية هى نهر الدنيستر ، والثيس ، والدانوب الأدنى ، والبحر الأسود . وما تزال بعض آثار الطريق الحربى باقية يمكن تعقبها من ضفاف الدانوب الى أرباض بندر Bender — وهو مكان مشهور فى التاريخ الحديث — وهو الحد الفعلى للامبراطوريتين التركية والروسية .

وكان تراجان يطمع فى الشهرة ، وطالما دأب البشر على المبالغة فى التحليل لحطميه اكثر منه للمحسنين اليه ، فسيظل التعطش الى المجد العسكرى سيئة اعظم الشخصيات المجدة ، ولقد اذكى نار الغيرة الخطيرة فى قلب تراجان ما ردده الشعراء والمؤرخون على مر الزمان

من مديح الاسكندر والثناء عليه . وحذا امبراطور الرومان حذو الاسكندر ، فأنفذ حملة الى أمم الشرق ، ولكن ذهبت نفسه حسرات على أن تقدمه فى العمر لا يكاد يدع له فسحة من الأمل فى أن يضارع ابن فيليب (الاسكندر) فى شهرته . على أن نجاح تراجان ، مهما كان عابراً ، فانه كان كذلك سريعاً لا يدل مظهره على مخبره . فان البارثيين المنحطين الذين حطمهم النزاع الداخلى ولوا الادبار أمام قواته . واخذ تراجان طريق دجلة من جبال أرمينيا الى الخليج الفارسى (خليج العرب) وحظى بشرف كونه أول قائد رومانى — وآخر قائد رومانى كذلك — يمخر عباب هذا البحر السحيق ، نهبت أساطيله شواطىء بلاد العرب ، وعبثا زين تراجان لنفسه انه كان يقترب من حدود الهند . وكان السناتو المذهول يتلقى كل يوم أنباء عن أسماء جديدة وأمم جديدة اعترفت بسلطانه عليها . كما ترامت اليهم الأنباء بان ملوك البسفور وكولكيس Colchis وأيبيريا والبانيا واسرهين Osrhaene ، وحتى ملك بارثيا نفسه ، وارتضوا أن يتسلموا تياجانهم وعروشهم من يد الامبراطور ، وأن القبائل المستقلة فى تلال ميديا وكردوش توسلت اليه ليبسط حمايته عليها ، وأن البلاد الغنية : أرمينيا ، وما بين النهرين (ميزوبوتاميا) وآشور قد أصبحت ولايات تابعة له ، ولكن ، سرعان ما أقتمت هذه الصورة الرائعة بموت تراجان ، وكان حقا توجس الخيفة من انتقاض كثير من الأمم البعيدة وخلعها هذا النير الذى لم تألفه ، بعد أن تراخت قبضة اليد القوية التى فرضته حول الرقاب .

وتقول اسطورة قديمة انه حين اسس أحد ملوك الرومان الكابيتول فان الاله ترمينوس Terminus (الذى رابط على رأس الحدود ، وكان يمثله طبقا لأسلوب ذاك الزمان حجر كبير) هذا الاله وحده — دون الآلهة التى هى اقل شأنا — هو الذى كان يرفض التخلى عن مكانه للاله جوبيتر نفسه . وقد اتخذ من عناد ترمينوس دليل مقبول فسره العرافون على انه نبوءة أكيدة بأن حدود سلطان الرومان لن تتقلص قط ، وكانت النبوءة على مر العصور تسهم فى مدى تحققها هى نفسها ، كما هى العادة . ولكن الاله ترمينوس الذى قاوم عظمة جوبيتر استسلم لسلطان الامبراطور هادريان . وكان أول مظاهر عهده التخلى عن كل فتوحات تراجان فى الشرق . فأعاد الى بارثيا حق اختيار ملك مستقل ، وسحب الحاميات الرومانية من ولايات أرمينيا وميزوبوتاميا وآشور . وتمشيا مع ناموس أوغسطس ، جعل الفرات مرة أخرى حدا للامبراطورية .

ومن ثم ضاعت فى زوايا النسيان لهجات ايطاليا القديمة ، مثل لهجة السابين Sabine (قبائل سكنت جبال الابنين فى وسط ايطاليا) ، ولهجة اتروريا ، ولهجة فينيسيا ، ولكن الولايات كانت فى الشرق أقل منها فى الغرب تقبلا لتوجيه معلميهم الظافرين . وكشف هذا الفارق البارز بين شطرى الامبراطورية عن تباين فى الألوان كان مختفيا نوعا ما فى ذروة الازدهار ، ولكنه تكشف واستبان مع الأيام حين بدأ الليل يسدل أستار الظلام على دنيا الرومان . لقد بعثت الحضارة فى أقطار الغرب على أيدى من اخضعوها ، وما أن أخلد المتبربرون الى الطاعة حتى تفتحت أذهانهم لكل طارق من الوان المعرفة والتهذيب ، وعمت لغة فرجيل وشيشرون ، مع شىء من خليط لا مفر منه ، افريقيا واسبانيا والغال وبريطانيا وبانونيا Pannonia (ولاية رومانية قديمة كانت تقع بين نهرى الدانوب والساف) الى حد أن الآثار الباهتة لمصطلحات اللغتين البونية (الفينيقية) والكلتية لم يعد لها وجود الا فى الجبال أو بين الفلاحين . وكان التعليم والدراسة فعلهما فى استلهام اهل تلك البلاد لمشاعر الرومان وعواطفهم دون ان يحسوا . وعملت روما على تكييف أهل الولايات اللاتينية وتشكيلهم ، كما زودتهم بالقوانين . ولشد ما هفت نفوسهم الى الحرية والى امجاد الدولة ، وما كان أيسرها منالا لهم ! . وعززوا الكرامة الوطنية بالكلمة وبالسلاح ، واخيرا صنعوا من شخص تراجان امبراطورا لم يكن آل اسكبيو Scipios ليتخلوا عنه لواحد من أبناء جلدتهم . وكان موقف الاغريق يختلف عن موقف المتبربرين . فلقد طال عهد الأولين بالمدنية وبالفساد . وكان بهم ميل شديد الى هجر لغتهم ، ولكن الغرور استبد بهم الى حد العزوف عن اقتباس أية نظم اجنبية . واحتفظوا بما كان يتملك اسلافهم من روح التحيز بعد أن فقدوا فضائلهم ، ومن ثم تصنعوا احتقار ما كان للرومان الفاتحين من سلوك خشن غير مصقول ، على حين اضطروا الى احترام قوتهم وحكمتهم السامية (١) .
وكذلك لم تكن العواطف واللغة اليونانية محصورة فى النطاق الضيق لهذا البلد الذى ذاعت يوما شهرته . ذلك أن امبراطوريتهم — اليونان — امتدت عن طريق المستعمرات والفتوح من الأدرياتيك الى الفرات والى النيل ، وامتلأت آسيا بالمدن اليونانية . وأحدث الحكم المقدونى الطويل فى سوريا ومصر انقلابا صامتا ، ولقد

(١) ليس هناك ، فيما أعتقد ، من ديونيسيوس Dionysius الى ليبانيوس Libanius واحد من النقاد اليونانيين ذكر فرجيل او هوراس ، وكأنى بهم يجهلون أن بين الرومان كتابا كبارا .

واتجه اللوم الذى ينصب عادة على الأعمال العامة والبواعث الخاصة للحكام ، اتجه الى أن يرجع الى الشعور بالحقد تصرفا كان يمكن نسبته الى حزم هادريان واعتداله ، وكانت شخصية هادريان متعددة الجوانب ، فهو قدير ، تنقلب عليه نوبات من أحط المشاعر وأنبلها ، الأمر الذى يفسر الشك نوعا ما ، ومهما يكن من أمر ، فانه ما كان فى مكنته أن يبرز تفوق سلفه بشىء أكثر من اعترافه بأنه غير أهل لمهمة الدفاع عن فتوح تراجان .

ان روح تراجان العسكرية الطموحة لتشكل تباينا فريدا مع اعتدال خلفه . على أن النشاط القلق عند هادريان لم يكن أقل اعتبارا اذا قيس بالسكون الهادىء عند أنطونينوس بيوس ، وتكاد حياة الأول تكون رحلة متواصلة ، وطالما أوتى مواهب الجندى ورجل الدولة ، والرجل العالم ، فقد أشبع فضوله وحبه للاستطلاع فى النهوض بأعباء واجبه . وما كان ليأبه بالاختلاف بين الفصول والأجواء ، فمشى على قدميه عارى الرأس فوق ثلوج كاليدونيا ، والسهول اللافحة فى صعيد مصر ، ولم تبق فى الامبراطورية طوال حكمه ولاية لم تحظ بشرف قدوم الامبراطور اليها ، على حين قضى أنطونينوس بيوس حياته الناعمة فى أحضان ايطاليا . وفى السنوات الثلاث والعشرين التى قضاها فى ادارة البلاد ، لم تطل رحلة هذا الأمير المحبوب لأكثر من المسافة بين قصره فى روما وبين فيلا لانوفيا حيث يستريح ويستروح .

ورغم هذا الاختلاف فى سلوكهم الشخصى ، انتهج هادريان والامبراطوران الأنطونينيان ، بنفس القدر ، الأسلوب العام لأوغسطس، واتبعوه حذو النعل بالنعل ، فاستمسكوا بخطة المحافظة على هيبة الامبراطورية وكرامتها دون محاولة منهم لتوسيع حدودها . فتذرعوا بكل وسيلة شريفة لمصادقة المتبربرين ، وحاولوا اقناع بنى الانسان بأن القوة الرومانية تتسامى على شهوة الفتح ، وأنها لا تعمل الا حبا فى اقرار النظام والعدالة . وكللت أعمالهم الفاضلة بالنجاح طوال فترة طويلة امتدت الى ثلاثة وأربعين عاما . واذا استثنينا بعض المناوشات البسيطة التى أفادت فى تمرين فرق الحدود ، فان حكم هادريان وانطونينوس بيوس يقدم صورة جميلة للسلام العالمى . وأصبح اسم الرومان موضع اجلال واحترام لدى أبعد أمم الأرض . وكثيرا ما بسط أشد المتبربرين وحشية خلافاتهم للامبراطور لتحكيمه فيها . وينبئنا مؤرخ معاصر أنه رأى سفراء يتوسلون للترخيص لهم فى أن يكون لهم شرف المواطنة ، فلم يسمح لهم بهذا الشرف .

فكرة عامة عن الامبراطورية الرومانية (*)

ان هذا الثبت الطويل من الولايات التى تكون من فتاتهـــا كثير من الممالك القوية ، غالبا ما يحملنا على أن نغفر للأقدمين غرورهـــم أو جهلهم . ولقد سمح الأباطرة لأنفسهم – وقد بهر أبصارهم اتســاع النفوذ ، والقوة الجبارة ، والاعتــدال الحقيقى أو المصــطنع – أن يحتقروا أو ينسوا أحيانا تلك الأقطار النائية التى تركت لتتمتع باستقلال همجى . ثم انهم ، شيئا فشيئا ، اغتصبوا الحق فى الخلط بين الملكية الرومانية والكرة الأرضية جمعاء . ولكن فطرة المؤرخ الحديث وعلمه معاً يتطلبان لغة أدق وأرشد . فقد يرسم لعظمة روما صورة أعدل ، فيقول ان الامبراطوريــة كانت تبلغ أكثر من ألفى ميل عرضــا ، من سور أنطونينوس والحدود الشمالية لداشيا الى جبال أطلس ومدار السرطان ، وانها امتدت طولا لأكثر من ثلاثة آلاف ميل ، من المحيـــط الأطلسى الى الفرات ، وانها كانت واقعة فى اجمل بقاع المنطقة المعتدلة، بين خطى عرض ٢٤ و ٥٦ من خطوط العرض الشمالية ، وانهـــا كانت تضم مساحة قدرها مليون وستمائة ألف ميل مربـــع ، معظمها أرض خصبة يكسوها أحسن الزرع .

(*) حذف الكلام هنا عن القوات المسلحة والولايات .

الفصل الثانى
(٩٨ ـ ١٨٠ م)

الاتحاد والازدهار الداخلى فى الامبراطورية الرومانية

الولايات والآثار ، تحسين الزراعة

ليس لنا ان نقيس عظمة روما بسرعة الفتوح ومدى اتساعها فقط ، فان ملك الصحراء الروسية يسيطر على جزء من الكرة الأرضية اكبر من الامبراطورية الرومانية ، كما أن الاسكندر اقام فى الصيف السابع من عبوره مضيق الدردنيل ، النصب التذكارية على ضفاف هيفاسس Hyphasis فى مقدونيا . وفى أقل من قرن شن جنكيزخان الجبار وامراء المغول من بنى جلدته هجماتهم العنيفة الكاسحة المدمرة واقاموا امبراطوريتهم العابرة من بحر الصين الى حدود مصر والمانيا . ولكن حكمة العصور هى التى رفعت قواعد الصرح الثابت للقوة الرومانية ، وهى التى حافظت عليه . فقد وحدت القوانين بين الولايات المطيعة على عهد تراجان والأنطونيين ، كما ازدهرت فيها الفنون ، وربما عانت الولايات أحيانا من استغلال غير نزيه للسلطة المخولة لبعض حكامها ، ولكن المبدأ العام للحكومة كان مبدأ حكيما بسيطا خيرا ، ولقد تمتعوا بممارسة دين أسلافهم ، على حين أنهم بالنسبة لألوان التكريم والمزايا المدنية كانوا يتمتعون بمراتب ودرجات عادلة ، الى حد التساوى مع الغزاة الفاتحين .

١ ـ كانت سياسة الأباطرة والسناتو فيما يتعلق بالدين تظاهر فى ارتياح تام ، سواء بسواء ، آراء المستنيرين وعادات ذوى الخرافات من الرعايا ، تلك التى كانت جزءا لا يتجزأ من حياتهم . واعتبر الناس فى دنيا الرومان أن مختلف الوان العبادة صادقة حقة على قدم المساواة ، كما اعتبرها الفلاسفة باطلة كاذبة على قدم المساواة كذلك ،

كما تساوت جميعها فى أعين الحكام على أنها مفيدة . ومن ثم لم يؤد هـذا التسـامح الى السماحة المتبادلـة فحسب ، بل الى وئام دينى كـذلك .

ولم تكن ثمة أخلاط من ضغائن أو حزازات لاهـوتية تنغص دنيا الخرافة (العقائدية) عند الشعب ، كما أنه لم تحـد منها اية قيود يفرضها أى أسلوب من اساليب التأمل . وكان المشرك الورع يسـلم بكل أديان العالم عن اعتقاد راسخ ، رغم التزامه الشـديد بشعائره وطقوسه الوطنية الخاصة . وكان الخوف وعرفان الجميل والفضول ، والحلم أو الفأل ، والاضطراب الشاذ أو الرحلة البعيدة ، كل أولئك كان يحمله على الاكثار من أصول عقيدته والاستزادة من عـدد حماته (معبوداته) . وكان النسيج الرفيع للميثولوجيا الوثنيه منسفراً بمواد مختلفة ولكنها غير متنافرة ، ولما أساغوا القول بأن الحكماء والأبطال الذين عاشوا أو قضوا نحبهم فى سبيل مصلحـة بلادهم قد سموا الى مرتبة القوة والخلود ، ساد الاعتراف بأنهم جديرون على الأقل باحترام الجنس البشرى واجلاله ، ان لم يكونوا جديرين بالعبادة . وكان كل اله من آلهة الآلاف من الغابات والأنهار يحتفظ فى هدوء بنفوذه المحلى الخاص به . فلم يكن الرومانى الذى يستعيذ من غضب التيبر ، يستطيع أن يسخر من المصرى الذى يقدم القربان للنيل لعبقريته الخيرة . وكانت القوى المرئية للطبيعة والكواكب والعناصر هى هى نفسها فى أنحـاء الكون بأسره ، أما حكام دنيا الأخلاق غير المرئيين فقد صبوا بالضرورة فى قوالب متشابهة من الخيال والمجاز . وكانت كل فضيلة ، بل قل وكل رذيلة ، تتطلب ممثلا الهيا لها ، كما تطلب كل فن وكل حرفة حاميا وراعيا ، وقد اشتقت منذ أقدم العصور خصائصهم وصفاتهم جميعا ، على نسق واحد ، من أخلاق المتعلقين بهم . ومثل هذه الجمهورية من الآلهة المتعارضين فى الأمزجة والطباع والمصالح كانت تتطلب ، بكـل الوسائل ، يدا ملطفة لحاكم أعلى أسبغ عليه بالتدريج ، وتبعا لتقدم المعرفة والتفنن فى التملق ، الكمال الفائق لأب أزلى وملك على كل شىء قدير . تلك كانت روح الاعتدال فى العصر القديم ، حتى ان الأمم آنذاك كانت أقل التفاتا الى وجوه الخلاف ، منها الى وجوه الشبه ،بين عباداتها الدينية . ولقد سهل على الاغريق والرومان والمتبربرين — عندمـا كانوا يقفون — كل أمام مذبحه الخاص — أن يقنعوا انفسـهم بأنهم جميعا يعبدون نفس الآلهة ، وان تعددت الأسماء والطقوس ، وقـد أضفت أساطير هوميروس الطريفة على تعدد الآلهة فى العالم القديم شكلا جميلا يكاد يكون قياسيا .

ولقد استنبط فلاسفة اليونان أخلاقياتهم من طبيعة الانسان أكثر منها من طبيعة الله . انهم ، على أية حال ، تأملوا طويلا في الطبيعة الالهية بوصفها موضوعا للتأمل بالغ الغرابة والاهمية ، كما انهم في استقصائهم العميق عرضوا لمواطن القوة والضعف في ادراك الانسان . ومن بين المدارس الأربع المشهورة ، حاول الرواقيون والأفلاطونيون أن يوائموا بين المصالح المتنافرة للعقل والتقوى ، وقد خلفوا لنا أروع البراهين على وجود « العلة الأولى » وضروب الكمال فيها . ولكن لما استحال عليهم ادراك خلق المادة ، بات « الصانع » في فلسفة الرواقيين غير متميز الى حد كاف عن الصنعة ، على حين أنه على النقيض من ذلك ، كان « الاله الروحي » عند أفلاطون وتلاميذه ، فكرة أكثر منه مادة . أما الأكاديميون (النظريون) والأبيقوريون فان المسحة الدينية في آرائهم كانت أقل ، ولكن في الوقت الذى فيه حمل الأولين علمهم المتواضع على الشك في وجود « العناية الالهية في حاكم أعلى » ، حرض الآخرين جهلهم الأكيد على انكار ذلك .
وأدت روح الاستقصاء — وقد أذكتها المنافسة والتفاخر ودعمتها الحرية — الى انقسام أساتذة الفلسفة الى تشكيلة من الفرق المتنازعة . ولكن الشباب الذكى الذين نزحوا الى أثينا والى مراكز الدراسة في الامبراطورية الرومانية ، لقنوا جميعا في كل مدرسة أن ينكروا ويزدروا ديانة عامة الناس . قل لي بربك كيف كان يمكن أن يتقبل فيلسوف قصص الشعراء التافه أو التقاليد القديمة المفككة المتنافرة على أنها حقائق الهية ، أو يعبد ، على أنها آلهة ، هذه الكائنات الناقصة المعيبة التى احتقرها على أنها رجال ؟ ولقد ارتضى شيشرون أن يشرع سلاح العقل والبيان ضد هؤلاء الخصوم الذين لا قيمة لهم . ولكن هجاء لوشيان كان سلاحا أكثر ملاءمة ومضاء في وقت معا . ومن المؤكد أن أى كاتب مطلع على العالم ما كان ليجرؤ على تعريض آلهة بلده للتسفيه العام ، الا اذا كان الآلهة انفسهم موضع زراية خفية بين الطبقات المهذبة المستنيرة في المجتمع .

وكانت مصالح الكهنة وسلامة نوايا الناس وسرعة تصديقهم موضع الاحترام ، رغم ما كان سائدا من الكفر وعدم التدين على عهد الأنطونينيين . فقد أكد الفلاسفة القدامى في كتاباتهم ومحادثاتهم المقام المستقل للعقل ، ولكنهم لبوا في تصرفاتهم داعى القانون والعرف . وفي ابتسامة تنم عن الاشفاق والتغاضى عن مختلف أخطاء الرعاع ، نشطوا في تأدية طقوس آبائهم ، وعكفوا في تقى وورع في معابد الآلهة ، بل لقد ارتضوا أحيانا أن يمثلوا دورا على مسرح الخرافة . وكانى بهم ،

فى هذا كله أخفوا مشاعر الالحاد تحت رداء الكهنوت . ولا يكاد يميل من يتطبعون بهذا الطبع الى المحاجة فى صنوف معتقداتهم أو عباداتهم الخاصة بهم ، ولم يكونوا يكترثون ، بل كان يستوى عندهم أى شكل من الحماقة يأخذ الجمهور أنفسهم به ، ومن ثم قصدوا — مع ما يخفون فى أنفسهم من احتقار ، ما يبدون فى الظاهر من اجلال — قصدوا الى مذبح الاله جوبيتر فى ليبيا أو فى أوليمبيا أو فى الكابيتول فى روما .

وليس من اليسير أن ندرك لماذا برزت روح الاضطهاد فى المجالس العامة الرومانية ، وماذا كانت بواعثها . وما كان التعصب الأعمى ، مهما كان مخلصا ، ليستفز الحكام ، لأنهم كانوا هم أنفسهم فلاسفة ، كما أن مدارس الفكر فى أثينا زودت السناتو بالقوانين . وما كان الطموح أو الجشع ليسوقهم الى شىء ، لأن السلطتين الزمنية والدينية كانتا متحدثين فى قبضة واحدة . وكان الأحبار يختارون من بين الممتازين من أعضاء السناتو ، أما منصب الحبر الأعظم فان الأباطرة أنفسهم كانوا يشغلونه . ولقد عرفوا وقدروا مزايا الدين بوصفه متصلا بالحكومة المدنية ، وشجعوا الاحتفالات العامة التى تصقل الشعب وتهذب خلقه ، واخذوا بأفانين الكهانة والعرافة بوصفها أداة مناسبة من أدوات السياسة . ونظروا بعين التقدير والاحترام ، وكأنه أوثق رباط فى المجتمع ، الى ما وقر فى الأذهان من اعتقاد يقينى نافع بأن آلهة الانتقام ستعاقب جريمة شهادة الزور أو الحنث فى اليمين ، ان عاجلا أو آجلا ، فى الحياة الدنيا أو فى الحياة الثانية . ولكننا نجد أنهم بينما سلمو بالمزايا العامة للدين ، اقتنعوا كذلك بأن مختلف أشكال العبادة انما تعاون بنفس القدر على تحقيق نفس الأغراض السليمة . وأن لون الخرافة الذى أجازه واقره الزمن والاختبار فى كل بلد ، هو أحسن ما يصلح للمناخ وللسكان فيه . وكثيرا ما سلب الجشع والذوق الأمم المقهورة التماثيل الرشيقة لآلهتها والزخارف الثمينة لمعابدها . ولكنهم فى ممارسة الديانة التى أخذوها عن أسلافهم ، نعموا دواما بتسامح الفاتحين من الرومان بل وبحمايتهم . ويبدو أن ولاية الغال — والواقع أنها تبدو فقط — هى الوحيدة التى شذت عن قاعدة التسامح العام الشامل هذا ، ذلك أن الامبراطورين تيبيريوس وكلوديوس قمعا من السلطان الرهيب الذى كان لطائفة الدرود Druids (ديانة الكلت فى فرنسا وبريطانيا وايرلندة قديما) بحجة زائفة هى ابطال تقديم القرابين من البشر . ولكن الكهنة أنفسهم وآلهتهم ومذابحهم عاشوا فى غموض وخفاء وهدوء حتى قضى على الوثنية قضاء نهائيا .

وزخرت روما ، عاصمة المملكة العظيمة ، دوما بالرعايا والغرباء من كل أرجاء العالم ، الذين كانوا ينعمون فيها ويدخلون اليها خرافاتهم المحببة اليهم فى أوطانهم . وكان لكل مدينة فى الامبراطورية حق المحافظة على نقاوة احتفالاتها القديمة وأصالتها ، وكان السناتو الرومانى ، بما له من حق عام ، يعترض فى بعض الأحيان ليحول دون طغيان الطقوس الأجنبية . وطالما حرمت الخرافات المصرية ، من بين أدنأ الخرافات وأجدرها بالزراية ، كما هدمت معابد سيرابيس Serapis (اله العالم السفلى) وايزيس ، وابعد عبادهما عن روما وايطاليا . ولكن حماس التعصب تغلب على الجهود الفاترة الهزيلة للسياسة ، فعاد المنفيون ، كما تضاعف عدد المريدين ، وأعيدت المعابد أكثر ضخامة وفخامة ، وتبوأ سيرابيس وايزيس فى النهاية مكانهما بين الآلهة الرومانية . ولم يكن هذا التساهل خروجا على سنن الحكم القديم ، فكم دعيت سيبيل Cybele (الهة الطبيعة) واسكولابيوس Aesculapius (اله الطب والشفاء) فى أزهى عصور الجمهورية ، عن طريق بعثات وقورة . وكان من المألوف اغراء حماة المدن المحاصرة بالوعد بأن يختصوا بألوان من التكريم أفضل مما فى بلادهم ، وأصبحت روما يوما بعد يوم المعبد المشترك لرعاياها جميعا ، وأسبغت حرية المدينة على كل آلهة الجنس البشرى .

٢ — ان النظرة الضيقة لسياسة الاحتفاظ بنقاوة دم المواطنين القدامى دون أن يشوبه أى دم اجنبى ، عوقت أثينا واسبرطة ، وعجلت بفنائهما . ولكن العبقرية المتطلعة فى روما ضحت بالغرور فى سبيل الطموح ، وقدرت أنه من دواعى الكياسة والحزم والشرف معا أن تقتبس الفضيلة والموهبة حيثما وجدتا : بين الرقيق أو الغرباء أو الأعداء أو المتبربرين على حد سواء . ولقد تناقص عدد المواطنين يوما بعد يوم فى أبهى عصور الجمهورية فى أثينا من ثلاثين الى واحد وعشرين ألفا . وعلى النقيض من ذلك ، نجد — اذا درسنا نمو الجمهورية الرومانية — أنه على الرغم من مطالب المستعمرات والحروب التى لا تنقطع ، لم يزد عدد المواطنين طبقا للاحصاء الأول الذى أجراه سرفيوس توليسServius Tullus ، عن ثلاثة وثمانين ألفا ، ثم تضاعف قبل بداية الحرب الاجتماعية ، الى أربعمائة وثلاثة وستين ألفا من الرجال القادرين على حمل السلاح فى خدمة بلدهم . ولما طالب حلفاء روما بنصيب متساو فى التكريم والامتيازات ، آثر السناتو فى الواقع فرصة التسلح على مجرد التنازل المذل ، ودفع السامانيون Samnites واللوكانيون Lucanians لتهورهم واندفاعهم ثمنا باهظاً ، أما سائر

الولايات الايطالية ، وقد عادت الى سابق عهدها تباعا ، فقد رخص لها فى الدخول الى رحاب الامبراطورية ، وسرعان ما أسهمت فى القضاء على الحرية العامة . ان المواطنين ليمارسون سلطات السيادة فى الحكومة الديمقراطية ، ولابد ان يساء استخدام هذه السلطات فى البداية ، ثم تضيع فيما بعد ، اذا وضعت فى يد جمهور لا يحسن استعمالها . ولما عطلت سياسة الأباطرة المجالس الشعبية بتوليهم هم أنفسهم زمام الحكم ، لم يكن الغزاة القاهرون يتميزون عن المقهورين الا بأن لهم الصدارة وانهم أشرف الرعايا ، لم يعد تكاثرهم ، مهما كان سريعاً ، معرضاً لنفس الأخطار . على أن أوفر الأمراء عقلا ، أولئك الذين ترسموا خطى أوغسطس ومبادئه ، وجهوا أشد العناية الى المحافظة على كرامة روما وحسن سمعتها ، ونشروا « حرية المدينة » بروح من التحرر تتسم بالحزم والكياسة .

وامتدت امتيازات الرومان على مر الأيام لتشمل كل سكان الامبراطورية ، ولكن فارقا هاما استمر قائما بين ايطاليا والولايات ، ذلك أن الأولى — ايطاليا — اعتبرت نواة الوحدة العامة ومركزها ، والدعامة الراسخة للدستور ، وقالت ايطاليا انها مولد الأباطرة ، أو انها على الأقل مقر الأباطرة والسناتو . وكانت ضياع الايطاليين معفاة من الضرائب ، كما كانوا هم انفسهم معفين من السلطة التعسفية للحكام . وكانت الهيئات البلدية — وهى مشكلة احسن تشكيل على نسق ما فى العاصمة — مخولة حق تنفيذ القوانين ، تحت الاشراف المباشر للسلطة العليا . وكان كل أهالى ايطاليا ، من سفوح الألب الى آخر حدود كالابريا ، يعتبرون من مواطنى روما ومواليدها . فالغيت الفوارق الجزئية بينهم ، والتأموا ، بطريقة غير ملموسة ، بالأمة الكبرى التى وحدتها اللغة والسلوك والنظم المدنية ، والتى تعدل فى ثقلها امبراطورية قوية ، وتألق مجد الامبراطورية فى كرم سياستها ، وكثيراً ما لقيت خير الجزاء فى مواهب وفى خدمات هؤلاء الذين اتخذت منهم اولادا لها . ولو انها استمرت على حبس امتياز الفرد الرومانى وجعله وقفا على الأسرات القديمة داخل جدران المدينة ، لحرم الاسم الخالد من شىء من أبهى زينته واثمن حليته . الم يكن الشاعر فرجيل Virgil من أهالى مانتوا Mantua (مدينة فى شمال ايطاليا) ، الم يكن هوراس يميل الى الشك فى انه يجب ان يكون من أهل ابوليا أو من أهل لوكانيا . ولقد وجد فى بادوا نفسها مؤرخ جدير بأن يسجل السلسلة الرائعة الجليلة من انتصارات الرومان . ونزحت أسرة كاتو التى اشتهر أفرادها بالوطنية من تسكولم

وكان لمدينة أربينوم Arpinum الصغيرة فخر مزدوج في Tusculum انجاب ماريوس وشيشرون ، وقد اعتبر أولهما ثالث مؤسسي روما بعد روميلوس Romulus وكاميلس Camillus ، أما الثاني فانه ، بعد انقاذ بلده من مشروعات كاتلين Catiline (أحد النتاصل في القرن الأول ق.م.) ، مكن لها من أن تنازع أثينا على عرش الفصاحة والبيان . . .

الولايات

وكانت ولايات الامبراطورية (كما أسلفنا وصفها في الفصل السابق) خالية من أية قوات عامة ، ومن أية حريات دستورية . فان السناتو عنى أول ما عنى ، في اترورريا (مملكة قديمة الى الغرب من وسط ايطاليا) واليونان والغال (فرنسا) — عنى بأن يحطم هذه البلاد الموحدة الخطيرة التي علمت الانسان أن الأسلحة الرومانية يمكن مقاومتها بالاتحاد ، بعد أن انتصرت وسادت بالتفرقة والانقسام . ولقد قدر لبعض الأمراء — نتيجة التظاهر بعرفان الجميل أو بالكرم — أن يمسكوا بصولجان الملك مزعزعا في أيديهم بعض الوقت ، وسرعان ما طردوا عن عروشهم بعد أن أدوا مهمتهم المقررة ، الا وهي تهيئة الأمم المغلوبة للنير الروماني . وكوفئت الولايات والمدن الحرة التي ظاهرت روما بتحالف اسمى ، ثم أغرقت دون أن تدرى في خضم العبودية . وكان وزراء السناتو ووزراء الامبراطور يمارسون السلطات العامة في كل مكان ، وكانت هذه السلطات مطلقة لا رقيب عليها ولا ضابط لها . ولكن الأساليب الحكومية الناجعة التي وفرت السلام والطاعة في ايطاليا — امتدت الى الفتوحات النائية . فتكونت في الولايات شيئا فشيئا أمة الرومان بوسيلة مزدوجة : تكوين المستعمرات ، واسباغ حرية روما (الرعوية الرومانية) على أكثر أهل الولايات اخلاصا وامتيازا وجدارة .

وقد أكدت التجربة والتاريخ تلك الملاحظة الصائبة التي أدلى بها سنكا الحكيم حيث قال « حيثما غزا الروماني أقام » . وكان أهل ايطاليا يستخفهم الفرح أو تغريهم المصلحة بالتمتع بثمار النصر . وقد نشير هنا الى أنه بعد أربعين عاما من اخضاع آسيا ، ذبح ثمانون الفا من الرومان في يوم واحد ، تنفيذاً للأوامر الوحشية التي اصدرها متريداتس (ملك بلاد بنطس في آسيا الصغرى في القرن الأول ق.م) وما امتثل المنفيون بمحض ارادتهم الا بقصد التجارة

أو الزراعة أو جمع المال عن طريق الالتزام . فلما أقام الأباطرة الفرق العسكرية فى الولايات اقامة دائمة عمرت الولايات بعنصر الجنود ، وكان من عادة هؤلاء الجنود القدامى — سواء تلقوا جـزاء خـدمتهم أرضا أو مالا — أن يستقروا أو يستوطنوا فى الأرض التى قضـوا فيها زهرة شبابهم مبجلين مكرمين . وخصصت لخصب البقاع وأفضـل المواقع فى مختلف أنحاء الامبراطورية ، وبخاصة الأجزاء الغربية على الأغلب ، لانشاء المستعمرات التى كان لبعضها طابع مدنى ، ولبعضها الآخر طابع عسكرى . وكانت هذه المستعمرات صورة صادقة لأمها العظيمة فى آداب سلوكها وفى سياستها الداخلية . فلما كرمهم الأهالى بما وثقوا معهم من وشائج الود والتحالف ، نشروا بطريقة فعالـة الاحترام لاسم الرومان وأحاطوه بالتبجيل والاجلال وأثاروا رغبة قل أن خابت فى المشاركة فى أمجاد هذا الاسم ومزاياه ، فى الوقت المناسب . وتساوت المدن البلدية ، كذلك بطريقة ملموسة ، مـع المستعمرات مرتبة وجلالا ، حتى لقد ثار الجـدل فى عهـد هـادريان أى هـذه المجتمعات أفضل حالا : أهى تلك التى انبثقت من رومـا ، أو تلك التى ارتمت فى أحضانها ؟ ومنحت بعض المدن حق المواطنة أو الرعوية الرومانية (Right of Latium) فأضفى عليها هذا الحق حظوة خاصة، واكتسب الحكام فقط ، بعد انتهاء خدمتهم صفة « المواطن الرومانى » . ولكن لما كانت هذه المناصب سنوية ، فقد تداولتها الأسرات الكبيرة فى مدى سنوات قليلة ، وكان أبناء الولايـات الذين يرخص لهـم فى حمل السلاح فى الفرق العسكرية ، أو فى تولى أية وظيفـة مدنية ، أو فى ايجاز ، كل من أدى خدمة عامة أو أظهر مواهب شخصية — كل أولئك كانوا يجزون مكافأة تناقصت قيمتها بالتدريج نتيجـة لتزايـد تساهل الأباطرة . على أنه — حتى فى عصر الأنطونينيين — عندمـا كانت حرية المدينة تمنح لأكبر عدد من رعاياهم ، ظلت هـذه المنحـة تقترن بمزايا حقيقية ثابتة . وحصلت غالبية الناس فى ظل هذا اللقب ، على نعماء القوانين الرومانية ، وخاصة هذه المواد الهـامة المتعلقـة بالزواج والوصية والوراثة . وكان طريق الحظ معبدا مفتوحا أمام أولئك الذين تدعم مزاعمهم الحظوة أو الجدارة . وتـولى أحفـاد الغاليين الذين حاصروا يوليوس قيصر فى اليزيا Alesia ، قيادة الفرق العسكرية، وحكموا الولايات ، ورخـص لهم فى عضـوية السناتو فى رومـا . وبذلك ارتبط طموحهم ارتباطا وثيقا بأمن الدولة وعظمتها ، بدلا مـن أن يتجه الى تكدير صفو الهدوء فيها ، وبلغ احساس الرومان بأثر اللغة فى آداب السلوك القومية حـداً بذلوا معـه قصارى عنايتهم وجهدهم لنشر استخدام اللغة اللاتينية حيثما تقدمت قواتهم المسلحة ،

جمع هؤلاء الأمراء فى بلاطهم الفخم بين اناقة أثينا وترف الشرق ، وحذت الطبقات العليا من الرعية حذو البلاط مع فارق يسير . وهكذا كان التباين بصفة عامة بين اللغتين اللاتينية واليونانية أو بين من يتحدثون بهما فى الامبراطورية الرومانية ، ويمكن أن نضيف فارقا آخر ، يميز مجموع الأهالى فى سوريا ، ويميز بوجه أخص أهل مصر . فان بقاءهم على لهجاتهم أو لغاتهم القديمة حال بينهم وبين الدخول فى علاقات انسانية عامة . وباء أهل سوريا لطراوتهم ورقتهم (لتخنثهم الرقيع) باحتقار الغزاة الفاتحين ، كما أثار المصريون كراهيتهم لشراستهم وكآبتهم . وقد خضعت هذه الأمم لنير الرومان واستسلمت لقوتهم ، ولكنها لم ترغب يوما — أو قل انها لم تكن تستحق — فى حرية المدينة ، وقد لوحظ أنه قد انقضى بعد انتهاء حكم البطالمة اكثر من مائتين وثلاثين عاما قبل السماح لأى مصرى بعضوية السناتو فى روما .

وثمة ملاحظة صادقة ولكنها تافهة ، تلك هى أن روما نفسها استسلمت لفنون الاغريق . وسرعان ما أصبح أولئك الكتاب الخالدون — الذين ما فتئوا يستحوذون على اعجاب أوربا الحديثة — أصبحوا موضوعا محببا للدراسة والمحاكاة فى ايطاليا وفى الولايات الغربية . ولكن الرومان لم يكونوا يطيقون أن يتدخل لهوهم الجميل فى النهج القويم لسياستهم ، فتراهم يعترفون بمفاتن اللغة اليونانية ، ولكنهم فى الوقت نفسه يؤكدون مكانة اللغة اللاتينية ويرفعون من شأنها ، ففرض استخدامها استخداما شاملا لا هوادة فيه ، فى الادارتين المدنية والعسكرية على حد سواء فى الحكومة . وكانت اللغتان كلتاهما فى نفس الوقت تمارسان ولايتهما الشرعية كل فى نطاقها داخل الامبراطورية ، فكانت الأولى ، اليونانية ، اللغة الطبيعية للعلم ، والثانية اللغة الرسمية للمعاملات العامة ، أما أولئك الذين جمعوا بين الأدب والعمل فكانوا ملمين بهما بنفس القدر . وكاد يكون من المستحيل فى اية ولاية أن يكون أحد الرعايا الرومان ممن تلقوا تعليما متحررا ، غير ملم باحدى اللغتين اليونانية واللاتينية .

وعن طريق مثل هذه النظم ذابت أمم الامبراطورية ، دون أن تحس ، فى اسم روما وشعبها ، ولكن تبقى بعد ذلك وسط كل ولاية وكل أسرة بعض حالات تعيسة لأفراد تحملوا أعباء المجتمع دون أن ينعموا بخيراته ، فقد تعرض العبيد المحليون فى الولايات الحرة القديمة لأشد الوان الظلم ، وسبق الاستقرار الكامل للامبراطورية

الرومانية عهود من العنف والسلب والنهب . وكان العبيد هم — فى الكثير الغالب — أسرى المتبربرين ، الذين يؤخذون بالآلاف نتيجة للحروب ، ويشترون بثمن بخس ، وقد رأوا أنفسهم وسط حياة تتسم بالاستقلال ، ومن ثم تلهفوا على تحطيم قيودهم وعلى الانتقام من واضعيها . وقد يكون فى القانون العظيم ، قانون المحافظة على النفس ، ما يبرر أكثر التعليمات تشددا واقسى المعاملة ضد هؤلاء الأعداء الداخليين الذين قربت ثوراتهم اليائسة المستميتة الجمهورية من حافة الهاوية أكثر من مرة . فلما دانت الأمم الرئيسية فى أوربا وآسيا وأفريقيا للقوانين التى سنها ملك واحد ، أصبح المدد الأجنبى (من العبيد) أقل وفرة ، فلجأ الرومان الى أسلوب للتكاثر أكثر اعتدالا ولكنه أكثر مشقة ، وشجعت اسرات كثيرة ، وبخاصة فى الريف ، الزواج من عبيدها . وساعدت أحاسيس الطبيعة ، وعادات التعليم واقتناء نوع من الممتلكات غير المستقلة (المشتركة) ، ساعد كل أولئك على التخفيف من محنة العبودية . لقد بات وجود العبد أمرا له قيمته العظمى ، وكانت سعادة العبد لا تزال تتوقف على طباع سيده وظروفه ، الا أن السيد لم يعد يكبت شعوره الانسانى نتيجة الخوف من أن يقابل العبد الاحسان بالاساءة ، بل انه شجع هذا الشعور نتيجة الاحساس بمصلحته . وزادت فضائل الأباطرة أو حسن سياستهم من معدل السرعة فى ارتقاء العادات والآداب العامة . وامتدت الحماية التى تفرضها القوانين الى أدنى طبقات الناس بفضل مراسيم هادريان والأنطونينيين . ونزع حق التحكم فى حياة العبيد وفى موتهم — وكان هذا قوة طال عهد ممارستها واساءة استعمالها — نقول نزع من الأيدى الخاصة أى من السادة المباشرين ، ووضع فى أيدى الحكام وحدهم . وحرم السجن تحت الأرض أو فى الأقبية ، حتى اذا تقدمت شكوى صادقة عادلة من سوء المعاملة كان جوابها حصول العبد المظلوم على حريته أو انتقاله الى سيد أقل قسوة .

وما كان باب الأمل موصدا قط فى وجه العبد الرومانى — وفى التعلق بالأمل أكبر عزاء وسلوى وسط حياته التعسة — فاذا واتته الفرصة ليجعل من نفسه شخصا نافعا أو مقبولا ، كان من الطبيعى أن يعلل نفسه ، فى بضع سنين ، بنعمة الحرية ، وهى نعمة تجل عن التقدير ، جزاء وفاقا لجده واخلاصه ووفائه . وكثيرا ما كانت أدنى بادرة من الغرور والجشع تستهوى السيد الى الاحسان وتثير فيه الأريحية ، الى حد أن القوانين وجدت من الضرورى أن تحد أكثر من أن تشجع السرف وعدم تحرى الدقة فى هذا التحرير

الذى قد ينجط الى سوء ابستغلال خطير . وكان من مبادىء التشريع القديم أن العبد لا ينتمى الى وطن معين ، فإذا ما حصل على حريته حصل معها على رخصة باللحاق بالمجتمع السياسى الذى ينتمى اليه سيده . وربما أساءت نتائج هذا المبدأ الى امتيازات المدنية الرومانية وجعلتها نهبا مباحا لأخلاط وضيعه من الناس . فوضعت لهذا بعض ضوابط ملائمة بحيث تكون هذه الميزة المشرفة مقصورة على أولئك العبيد الذين يجدر ان يحرروا تحريرا قانونيا مهيبا ، لأسباب عادلة صادقة ، برضا من الحاكم . وحتى هؤلاء العبيد الذين وقع عليهم الاختيار ليعتقوا لم يكونوا ليحصلوا على أكثر من الحقوق الخاصة للمواطنين ، وكانوا محرومين حرمانا صارما من كل الوظائف المدنية والعسكرية . ومهما توفر لأبنائهم (أبناء العبيد المحررين) من جدارة أو حظ ، كان ينظر اليهم (كما كان ينظر الى آبائهم) على أنهم غير جديرين بمقاعد السناتو . وما كانت بصمات الأصل الوضيع ، أو منبت الخضوع والاسترقاق ، لتمحى تماما الا فى الجيل الثالث أو الرابع . وهكذا ، دون القضاء على التمييز بين المراتب ، كانوا يلوحون بصورة بعيدة للحرية والشرف ، حتى الى أولئك الذين يأبى عليهم الغرور والتحيز أن يحشروا فى عداد الأنواع البشرية احتقارا لهم وزراية بهم .

واقترح يوما أن يميز العبيد بلباس خاص ، ولكن خيف بحق أن يكون هناك بعض الخطر من تعريف العبيد بعددهم هم أنفسهم . وقد نجرؤ على القول — دون اللجوء الى الحساب الدقيق بأرقام الآلاف وعشرات الآلاف — بأن نسبة العبيد الذين يدخلون فى حساب الحيازة أو الملكية كانت أكثر بكثير من نسبة الخدم الذين كانوا يعتبرون عبئا . وكانت البراعم الناشئة المبشرة تلقن الفنون والعلوم ، وكانت أثمانهم تحدد بقدر مهارتهم ومواهبهم . وكانت كل المهن والحرف — ذهنية أو ميكانيكية — تكاد تكون متوفرة فى معية السناتور الثرى . وتضاعف عدد الحشم بدرجة تفوق مفهوم الترف الحديث ، وانهمكوا فى الشهوات والملذات وأحاطوا أنفسهم بمظاهر الأبهة والعظمة . وكان أدنى الى مصلحة التاجر أو صاحب المصنع أن يشترى عماله من أن يستأجرهم . أما فى الريف فقد كان العبيد يستخدمون فى الزراعة بوصفهم أرخص الآلات وأكثرها عملا . ولنضرب بعض أمثلة منوعة خاصة توكيدا لهذه الاشارة العامة ، ولضخامة عدد العبيد . فقد اكتشف فى مناسبة تدعو الى الأسى والحزن أن قصرا واحدا فى روما كان يضم أربعمائة من العبيد . ومثل هذا

العدد بالضبط كان ملحقا بضيعة تنازلت عنها لابنها أرملة أفريقية كانت لها مكانة عادية جداً ، على حين احتفظت هى لنفسها من ممتلكاتها بنصيب أكبر كثيرا من الضيعة ومن فيها وما فيها . أضف الى ذلك أن عبدا أعتق أيام اوغسطس ، وعانى من الحروب الأهلية أفدح الخسائر، ولكنه رغم ذلك خلف وراءه ثلاثة آلاف وستمائة من الثيران ، ومائتين وخمسين ألف رأس من صغار الماشية ، ويكاد يندرج تحت وصف هذه الماشية أربعة آلاف ومائة وستة عشر من العبيد .

ولا يتيسر الآن ، الى حد الدقة التى يقتضيها المقام والهدف ، أن نحصى عدد الرعايا الذين اعترفوا بقوانين روما ، سواء فى ذلك المواطنون او أهل الولايات او العبيد . وقد قيل ان الامبراطور كلوديوس حين قام بعملية الاحصاء ، قدر المواطنين الرومان بستة ملايين ومائة وخمسة واربعين الفا (٦٫١٤٥٫٠٠٠) ويرتفع هذا الرقم الى نحو عشرين مليونا من الأنفس اذا أدخلنا النساء والأطفال فى الحساب . أما عدد جموع الرعايا ذوى المرتبة الدنيا فكان متقلبا غير مؤكد . ولكن اذا ادخلنا فى حسابنا كل الظروف التى كان لها تأثير فى الميزان لوجدنا انه من المحتمل أن عدد اهل الولايات فى عهد كلوديوس كان ضعف عدد مواطنى روما من الجنسين من كل الأعمار ، وان عدد العبيد كان على الأقل مساويا لعدد السكان الأحرار فى دنيا الرومان . وقد يصل المجموع الكلى لهذا الحساب غير الدقيق الى نحو مائة وعشرين مليونا من الأنفس ، وهذه درجة من كثافة السكان قد تفوق مثيلتها اليوم فى أوربا الحديثة ، كما أنها تشكل أكبر عدد لمجتمع توحد فى ظل اسلوب واحد من الحكم .

وكان الهدوء الداخلى والاتحاد نتيجتين طبيعيتين للسياسة المعتدلة الشاملة التى انتهجها الرومان . فاذا ولينا وجوهنا شطر ممالك آسيا لوجدنا حكما مطلقا فى الوسط وضعفا فى الأطراف البعيدة : فهناك تحصيل الأموال أو ادارة القضاء ، بحكم وجود جيش ، وهناك المتبربرون ، وهم اقوام معادون استقروا فى قلب البلاد ، وهناك صغار الطغاة من الحكام الوراثيين الذين كانوا يغتصبون الولايات (ويحاولون الاستقلال بها) ، وهناك الرعايا الذين كانوا يميلون الى الثورة والتمرد ولكنهم عاجزون عن الحرية او غير اهل لها . ولكن الطاعة فى دنيا الرومان كانت امرا مطردا اختياريا ثابتا . وودعت الأمم المقهورة — بعد ان انصهرت فى شعب كبير واحد — ودعت الأمل ، ان لم تكن تخلت عن الرغبة — فى استرداد استقلالها ، وقلما اعتبرت

وجودها شيئا يفترق أو يتميز عن وجـود رومـا . وطـوق سلطـان الأباطرة الوطيد ، دون جهد منهم ، جميع أطراف ممتلكاتهم ، وكـانوا يمارسونه بنفس القـدر من السهولة واليسر عـلى ضـفاف التاميز والنيل أو على ضفاف التيبر . وكان مقدرا أن تعمل الفرق العسكرية ضد العدوان المشترك ، وقلما احتاج الحكام المدنيون الى عون عسكرى . وفى مثل هذه الحالة التى يسود فيها الأمن العام ، كان الأمراء والشعب على حد سواء يوجهون فراغهم ورخاءهـم وثراءهم معـا للنهـوض بالامبراطورية الرومانية وازدهارها .

الآثار الرومانيـــة

كم من الآثار التى لا يحصيها العـد للعمارة الرومانية لم يسجلها التاريخ ؟ وما أقل ما صمد منها لعوادى الزمن وغـارات المتبربرين ! ومهما يكن من أمر ، فان البقايا الرائعة المجيـدة التى لا تزال مبعثـرة هنا وهناك فى ايطاليا وفى الولايات ، كافية لأن تثبت أن هـذه البلاد كانت يوما مقرا لامبراطورية قوية مهذبة . فـان جلالهـا وحـده ، أو جمالها ، قد يكون جديرا بأن يسترعى انتباهنا ويجذب أنظارنا . ولكن يضيف الى أهميتها عاملان هامان يربطـان بين التاريخ المألوف للفنون وبين التاريخ الذى هو أشـد نفعا وهـو تاريخ السـلوك الانسانى . وقد شيد كثير من هذه الآثار بأموال خاصـة ، ولكنهـا تكاد تكون كلها قد قصد بها الخير العام .

وطبيعى أن يذهب بنا الظن الى أن الجـزء الأكبر من العمـارة الرومانية وأضخمها أقامه الأباطرة الذين كانـوا يتحـكمون فى معين من المال والرجال بلا حدود ، وكان من عادة أوغسطس أن يباهى بأنه جاء الى عاصمة من الآجر وأنه تركها من الرخام . وكان الاقتصـاد الدقيق عند فسبازيان Vespasian مصدر عظمته وجلاله ، كما كانت أعمال تراجان تحمل طابع عبقريته ، ولم تقم الآثار العامـة التى زين بها هادريان كل ولاية فى الامبراطورية ، بأمر منه فحسب ، بل تحت رقابته المباشرة كذلك ، فقد كان هو نفسه فنانـا أغـرم بالفنـون لأنها كانت ركيزة لمجد الملك . وكان الأنطونينيون يشجعون الفنـون لأنها تسهم فى اسعاد الشعب . ولكن اذا كان الأباطرة سباقين فـانهم لم يكونوا الوحيدين فى مضمار العمارة والهندسة فى جميـع أنحـاء الامبراطورية . لقد احتذى مثالهم فى كل مكـان رعاياهم الأصـليون

الذين لم يخشوا أن يعلنوا على الملأ أن لهم بصيرة تعى ، ولديهم ثروة تحقق أنبل المنجزات ، وما كاد الكوليزيوم Coliseum الفاخر يهدى روما ، حتى أقيمت على شاكلته ، وان تكن أصغر منه ، فى مدينتى كابوا وفيرونا مبان على نفقتهما ومن أجلهما . وتشير الكتابات المنقوشة على جسر (القنطرة Alcantara) المقام على نهر التاجه (فى أسبانيا) ، الى أن بعض جماعات من أهل لوزيتانيا (فى شبه جزيرة أيبيريا) أسهمت فى اقامته . ولما عهد لى بلينى بحكم ولايتى بيثينية وبنطس Pontus — وما كانتا بأية حال أغنى ولايات الامبراطورية أو أهمها — وجد أن المدن الداخلة فى نطاق سلطانه ينافس بعضها بعضا على احراز قصب السبق فى الأعمال العامة النافعة وفى تجميل البلاد ، مما ينتزع اعجاب الأجانب ويثير فضولهم ويستحق شكر المواطنين وتقديرهم ، وكان من واجب بلينى بوصفه حاكم الولاية أن يكمل ما قصرت عنه المدن ، أو يوجه أذواقهم أو يخفف أحيانا من حدة الغيرة فيما بينهم . أما الأثرياء من أعضاء السناتو فى روما وفى الولايات ، فكانوا يرون فى العمل على بهاء عصرهم وأبهة بلادهم شرفا لهم ، ان لم يكن التزاما عليهم . وكان تأثير الطراز السائد يعوض عن النقص فى الذوق أو فى السخاء . ويمكن أن نذكر من بين العدد العديد من ذوى الفضل من عامة القوم ، هيرود أتيكس Herodes Atticus وهو مواطن أثينى عاش فى عصر الأنطونينيين ، ومهما يكن من أمر الباعث على سلوكه أو اعماله ، فان عظمته أو جلال أعماله أمر جدير بأعظم الملوك .

وقد أرجع أصل أسرة هيرود — على الأقل بعد أن أسعدها الحظ — الى سيمون Cimon وملتيادس Miltiades وتيسيوس Theseus وسيكربس Cecrops وايكس Aecus وجوبيتر Jupiter ذرية هؤلاء الآلهة والأبطال الكثيرين ترددت فى أسوأ مهاوى الخسة والحقارة . من ذلك أن جده وقع بين يدى العدالة ، وان اباه يوليوس أتيكس ، لو انه لم يكتشف كنزا كبيرا مدفونا تحت جدران بيت عتيق — وهو آخر ما بقى من تراث آبائه — لقضى آخر ايامه معدما محتقرا . وربما كان من الجائز للامبراطور بقوة القانون ، أن يثبت دعواه فى هذا الكنز مستندا الى صرامة القانون ، ولكن اتيكس الحازم تحاشى — باعتراف صريح — فضول المبلغين او تعرض المتشككين . على أن نرفا العادل ، الذى كان يعتلى العرش آنذاك ، رفض أن يحصل على أى جزء من الكنز ، وامره أن ينتفع دون تردد بالكنز الذى اهداه اليه الحظ . ولكن الأثينى الحريص ما فتىء مصرا على أن الكنز اكبر من

أن يختص به فرد من الرعية وأنه لا يدرى كيف يستخدمه . فقال الملك ، فى تبرم رقيق : تصرف فيه كيف شئت (أسىء استخدامه) لأنه ملك لك . وقد يكون من رأى كثير من الناس أن أتيكس أطاع آخر تعليمات الامبراطور بنصها حيث انه قد أنفق فى الخدمات العامة الجزء الأكبر من ثروته التى زيدت كثيرا نتيجة لزواج رابح . وكان قد حصل لابنه Herod على منصب حاكم المدن الحرة فى آسيا . ولحظ الحاكم الشاب اهمالا وتراخيا فى تزويد مدينة ترواس Troas بالماء. فهز أعطاف هادريان ، وحصل منه على ثلاثة ملايين درهم (نحو مائة ألف جنيه) ليحفر قناة جديدة للماء . ولكن تكاليف انجاز هذا العمل جاوزت ضعف ما كان مقدرا لها ، مما أثار تذمر مأمورى الدخل ، الى أن أخرس أتيكس الكريم ألسنتهم الشاكية بأن التمس أن يرخصوا له فى أن يتعهد هو شخصيا بكل النفقات الاضافية .

ودعى أقدر المعلمين فى اثينا وآسيا للقيام بتعليم هيرود الصغير مقابل مكافآت سخية ، وسرعان ما أصبح تلميذهم خطيبا ذائع الصيت ، طبقا لأساليب البلاغة العقيمة التى سادت فى ذاك العصر ، والتى حصرت نفسها داخل المدارس فترفعت عن الدخول الى السناتو أو الساحة (الفورم Forum) . وعين فى وظيفة القنصل فى روما تكريما له . ولكنه قضى معظم حياته منصرفا الى الفلسفة فى أثينا وفى الريف المجاور ، محوطا دائما بجماعة من السفسطائيين الذين أعترفوا ، على غير كره منهم ، بتفوق المنافس الثرى الكريم . ولقد تلاشت الآثار التى أبدعتها عبقريته ، ولكن هناك أطلالا وخرائب تخلد شهرته وذوقه وكرمه . وقام بعض السائحين الحديثين بقياس بقايا الملعب (الاستاد) الذى شاده فى أثينا للألعاب الأوليمبية ، فوجد أنه يبلغ ستمائة قدم طولا ، وأنه مبني كله من الرخام الأبيض ، وأنه يتسع للشعب جميعه ، وقد استغرق بناؤه أربع سنوات عندما كان هيرود رئيسا للألعاب فى أثينا . ثم بنى ، تخليدا لذكرى زوجته رجيلا Regilla ، مسرحا لا يكاد يوجد له نظير فى الامبراطورية ، كله من خشب الأرز المحفور أعجب حفر ، ولم يستخدم فى البناء أى نوع آخر من الخشب . وكان الأوديوم Odeum الذى خصصه بريكليز Pericles لعزف الموسيقى وتمثيل الروايات الجديدة شاهدا على انتصار الفنون وتفوقها على عظمة المتبربرين ، ولكن الأخشاب التى استخدمت فى بنائه كانت أصلا من أخشاب سوارى السفن الفارسية . ولقد تهدم هذا البناء القديم ثانية رغم الاصلاحات التى تفضل بها فيه أحد ملوك كبادوكيا Cappadocia ، ولكن هيرود أعاد اليه ما كان

عليه من جمال وجلال . ولم ينحصر كرم هذا المواطن الممتاز بين جدران أثينا . فان أفخم الزخارف التى قام بها فى معبد نبتيون فى البرزخ ، والمسرح الذي شيده فى كورنثه ، والملعب فى دلفى ، والجمام فى ترموبيل ، والقناة المائية فى كنوزيوم canusium فى ايطاليا — نقول ان هذه كلها لم تكن كافية لاستنفاد ثروته . ولكم حظى أهل أبيروس ، وتساليا ، ويوبيا ، وبوشيا ، والبلوبونيز بجوده وفضله . وثمة نقوش كثيرة فى مدن اليونان وآسيا تضفى ، مع الشكر والتقدير ، على هيرود أتيكس لقب الراعى المحسن .

وان بساطة البيوت وتواضعها فى جمهوريتى أثينا وروما لتنبىء بأن حالة الحرية كانت متساوية فيهما ، بينما تمثلت سيادة الشعب فى المبانى الفخمة التى خصصت للنفع العام ، ولكن الروح الجمهورية لم تخمد بتدفق الثروة أو قيام الملكية . لقد تظاهر أفضل الأباطرة وأعفهم بأن يعرضوا عظمتهم وجلال ملكهم فى أعمال المجد الوطنى والنفع العام . ولقد أثار قصر نيرون الذهبى سخطا له ما يبرره ، ولكن رقعة الأرض الشاسعة التى كان قد اغتصبها بحكم ما استأثر به لنفسه من بذخ وترف — نقول ان هذه الأرض قد أقيم عليها فى العهود التالية الكوليزيوم وحمامات تيتس ورواق كلوديوس والمعابد التى أهديت لآلهة السلم وعبقرية روما . ولقد زينت وجملت آثار العمارة هذه ، والتى هى ملك للشعب الرومانى ، بأجمل النتاج اليونانى من النقش والرسم والتصوير والنحت ، وكان فى معابد السلام مكتبة زاخرة مفتوحة أمام العلماء الباحثين وعلى مقربة من هذه المبانى كانت توجد ساحة تراجان (الفورم) ، وكانت محوطة برواق شاهق قائم على أعمدة ذوات شكل رباعى ، وله مدخل وجيه فسيح يتكون من أربعة من أقواس النصر ، وفى وسطه عمود من الرخام يعلو الى مائة وعشر من الأقدام ، مما يدل على ارتفاع التل الذى قطع منه البناء . وما يزال هذا العمود يحتفظ بجماله القديم ، ويمثل أدق تمثيل انتصارات داشيا ، تلك التى أحرزها من أقامه . فقد أمعن الجندى المحنك النظر فى قصة الحملات التي شنها ، ثم ما كان أيسر ، بعد ذلك ، على المواطن المسالم أن يرسم فى خياله صورة لكبرياء الوطن وعظمته يربط بينها وبين أمجاد النصر . وبمثل هذا الشعور النبيل بالأبهة العامة دبجت ربوع العاصمة وسائر ولايات الامبراطورية ، وزخرت بالمدرجات والمسارح والمعابد والأروقة وأقواس النصر والحمامات وقنوات المياه ، وقد أنجزت

كلها ، بشكل أو بآخر ، من أجل صحة أقل المواطنين شأناً أو تعبده أو ممارسة مباهجه ومسراته . ويستحق منا آخر ما ذكرنا من هـذه المبانى عناية خاصة ، ذلك أن قنوات المياه تعـد من أنبل وأعظم آثار عبقرية الرومان وقوتهم ، لما اتسمت به مشروعات هـذه القنـوات من جـرأة ، وما اتسم به انجازها من متانة ، وما نتج عنها من فوائـد . وقد تزهو وتتفوق قنوات المياه فى العاصمة بحـق على مثيـلاتها . ولكن من الطبيعى أن يخلص السائح المستطلع عندما يتفحص الأقنيـة الرومانية فى سبوليتو Spoleto ، وفى متز Metz ،وفى سيجوفيا Segovia يخلص ، دون الرجوع الى التـاريخ ، الى أن هـذه المـدن البلـدية كات قديما مقر ملك قـدير . وكانت قفار آسيا وأفريقية يومـا مغطاة بالمدن المزدهرة التى استمدت كثافـة السكـان فيها ، بل حقيقـة وجودها ، من هذا المعين الذى لا ينضب من المياه العـذبة من هـذه المجارى الصناعية للمياه .

قدرنا الآن عدد السكان ، وتأملنا الأشغال العامة فى الامبراطورية الرومانية . وقد يكون فى الكلام عن عدد مدن الامبراطوريـة وعـن عظمتها ما يؤكد عـدد السكان ، وما يضاعف من الأشغـال العامـة . وقـد لا يبعث على السأم أن نعـرض لبعض أمثـلة متصـلة بهـذا الموضوع ، دون أن ننسى على أية حال أن غرور الأمم وفقـر اللغات أديا الى اطلاق اللفظة الغامضة « المدينة » ، دون مبالاة أو اكتراث ، على روما وعلى لورنتوم Laurentum .

١ ــ المقول انه كان فى ايطاليا القديمة ١١٩٧ مدينة ، ومهمـا كان من أمر مساحتها قديما ، فليس هنـاك ما يبرر الاعتقـاد بـأن السكان فى عصر الأنطونيين كانوا أقـل منهم فى عهـد روميـلوس Romulus . لقد كانت امارات لاتيـوم الصغيرة Latium داخلة فى نطـاق عاصـمة الامبراطورية ، روما ، التى جذبت بفضل ما لها من نفوذ سام أنظار هذه الامارات اليها . أما أجزاء ايطاليا التى انحطت ورزحت طويلا تحت نير الطغيان الخامل للكهنة والحكـام (نـواب الملك) فلم يصبها الا بعض كوارث كان من الميسـور احتمالها نتيجـة للحروب ، وقـد عوضتها التحسينـات (الاصلاحات) السريعة التى أدخلها الغاليون المطلون على الألب تعويضا كافيا ، عمـا كانت تعانى من النذر الأولى للانهيار . وانه لمن الممكن أن نتعقب عظمـة فيرونـا فيما بقى بها من آثار ، ومع ذلك كانت فيرونا أقل شهـرة من أكويليا أو بادوا أو ميلان أو رافنا .

٢ — وتخطت روح التحسين والاصلاح حدود الألب ، حتى لقد باتت ملموسة فى غابات بريطانيا ، التى اجتثت تدريجا لتفسح المجال للاسكان المريح الأنيق . وكانت يورك مقر الحكومة ، أما لندن فقد انتعشت بالتجارة ، أما باث Bath فقد اشتهرت بالفوائد الصحية لمياهها المعدنية . كما كان لبلاد الغال أن تزهو تيها بمدنها التى يبلغ عددها مائتين والفا . وكان كثير من مدن الشمال — بما فيها باريس نفسها — لا يعدو أن يكون أكبر قليلا من مرافىء صغيرة بدائية متواضعة لشعب ناشىء ، لكن ولايات الجنوب كانت تحكى ايطاليا ثروة وأناقة . والحق أن كثيرا من مدن الغال — مرسيليا ، آرل Arles ، نيزم Nisme ، ناربون ، تولوز ، بوردو ، أوتون ، فيين ، ليون لانجر ، تريف ، لتصمد أمام مقارنة حالتها قديما بحالتها الراهنة اليوم ، فتتعادل الكفتان ، وربما رجحت كفة الأولى . أما أسبانيا فقد انتعشت أيام كانت مجرد ولاية ، ولكنها تدهورت منذ أصبحت مملكة . فقد أرهقها سوء استغلال سلطانها . كما أرهقتها أمريكا ، وأنهكتها الخرافات ، وقد نخدش من كبريائها اذا فتشنا عن مدنها التى بلغ عددها ثلثمائة وستين مدينة ، كما ذكرها بلينى على عهد فسبازيان .

٣ — وكانت هناك فى أفريقية ثلثمائة مدينة اعترفت بسيادة قرطاجه ، وليس من المرجح أن يكون قد تناقص عددها تحت حكم الأباطرة ، فقد صحت قرطاجة نفسها من كبوتها وتألق مجدها من جديد ، وسرعان ما استردت هذه العاصمة — مثل ما استردت كابوا وكورنثه — كل المزايا التى كان يمكن فصلها عن السيادة المستقلة .

٤ — أما ولايات الشرق فانها تبرز الفارق بين عظمة الرومان وهمجية الأتراك . ان الخرائب المبعثرة على الأرض غير المزروعة ، والمنسوبة جهلا الى قوى السحر — هذه الخرائب لا تكاد تزود الفلاحين المظلومين أو العرب الرحل بملجأ او مأوى . وكانت فى آسيا الأصلية وحدها على عهد القياصرة خمسمائة مدينة مكتظة بالسكان ، حبتها الطبيعة بكل خيراتها ، وازدانت بأروع نتاج الفن . ولقد تنافست احدى عشرة مدينة فى آسيا على اهداء معبد الى الامبراطور تيبيريوس ، فأجرى السناتو مفاضلة بينها ليرى أيها أجدر بهذا الشرف ، فتقرر على الفور رفض أربع منها لأنها لا تتكافأ مع هذا العبء ، وكان من بينها مدينة اللاذقية التى لا تزال خرائبها

تشهد بعظمتها وبهائها . وكانت اللاذقية تجنى دخلا كبيرا من مـراعى الضـأن التي اشتهرت بنعومة أصوافها ، وكانت قد ورثت قبل هذه المنافسة بقليل ، أكثر من أربعمائة الف جنيه (١) أوصى لها بها مواطن كريم . فاذا كانت هذه هى درجـة فقر اللاذقية ، فماذا كانت ثروة المدن الأخري التى فضلت عليها ، وعلى الأخص ماذا كانت درجـة ثراء بيرجاموس ، وأزمير وافسوس Ephesus ، تلك التى كانت تنازع بعضها بعضا على مكان الصـدارة فى آسيا ؟ أما عاصمتا سوريـا ومصر فكانت لهما فى الامبراطورية مكانـة سامية مرموقـة ، وكانت أنطاكيه والاسكندرية تنظران بعـين الازدراء الى عـديد من المدن التابعة ، ولكنهما سلمتا على مضض بعظمة روما ذاتها .

واتصلت هذه المدائن جميعها بعضها ببعض وبالعاصمـة بشبكة من الطرق العامة كانت تبدأ من الساحة فى روما ، وتخترق ايطاليا ، وتنتشر فى الولايات ، وتنتهى عند حدود الامبراطورية . فاذا تتبعنـا بدقة المسافة من سور أنطونينوس الى رومـا ، ومنها الى أورشليم لوجدنا أن هذه الشبكة العظيمة من المواصـلات من شـمال غـرب الامبراطورية الى جنوبها الشرقى ، تمتد نحو ثمانين وأربعـة آلاف من الأميال الرومانية . وكانت هذه الطرق العـامة مقسـمة تقسيما دقيقا بشـواخص المسافـات أو علامـات الأميـال . وكانت تجـرى فى خطوط مستقيمة بين المدن ، لا تقيم للعقبات الطبيعية أو الممتلكـات الخاصـة وزنا يذكر ، وكانوا ينقبـون الجبـال أو يقيمـون القناطر القوية على أوسع وأسرع المجارى المائية . وكان الجـزء الأوسـط من الطريق يرتفع الى سطحية تشرف على القرى المجاورة ، وتكون عدة مصاطب أو طبقـات من الرمـل والحصى والأسمنت ، وكـان يرصف بالأحجار الـكبيرة ، وبالجـرانيت فى بعض الأماكـن قـرب العاصمة . وهكذا كان البنيـان المتين للطرق الرومانية ، وهكذا كانت صـلابتها التى لم تستسلم كـل الاستسـلام لعـوامل الزمن طيلة خمسة عشر قرنا . ولقد وحـدت هـذه الطـرق بين الرعايا فى أقصى الولايات بمواصلات ميسورة مألوفة . ولـكن هدفهـا الأساسى كـان تيسير تحركات القـوات العسكرية . فمـا كان هناك بلد يقال انه

---

(١) لم يكن لفظ جنيه مستعملا كاسم وحدة نقدية فى ذلك الزمان .

— وعن العملة عند الرومان يرجع الى عبد اللطيف احمد على (دكتور) مصادر التاريخ الرومانى ، ص ص ١٢٤ — ١٤٥ .

أخضع اخضاعا تاما الا اذا أصبح من الميسور على القوات المسلحة وعلى سلطات الغزو اختراقه فى أى جزء من أجزائه . وأغرى النفع الذى يعود من تلقى الأنباء المبكرة ، ومن خفة الحركة فى نقل الأوامر والتعليمات — أغرى الاباطرة بانشاء نظام دقيق للبريد فى طول ممتلكاتهم الواسعة وعرضها — ولهذا الغرض بنوا استراحات لا تبعد الواحدة منها عن الأخرى بأكثر من خمسة او ستة اميال ، وزودت كل منها دائما بأربعين من الجياد ، وبفضل هذه المراحل أو المحطات سهل السفر لمسافة مائة ميل فى اليوم على هذه الطرق الرومانية . وكان استعمال البريد مرخصا به لمن يحمل أمرا امبراطوريا بذلك . وكان البريد فى الأصل مقصورا على الخدمات العامة ، ولكنه رغم ذلك كان يستخدم أحيانا لخدمة الناس او قضاء حاجاتهم . ولم تكن المواصلات البحرية فى الامبراطورية الرومانية أقل حرية وانطلاقا من المواصلات البرية فيها ، فقد احاطت الولايات بالبحر المتوسط وطوقته ، وتوغلت ايطاليا — وهى أشبه برأس ضخم — الى وسط هذه البحيرة الكبيرة . وسواحل ايطاليا ، بصفة عامة ، خالية من الموانىء الأمينة ، ولكن مهارة الانسان عوضت النقص فى الطبيعة . فان المرفأ الصناعى فى أوستيا — بالذات — الذى أنشأه الامبراطور كلوديس على مصب التيبر ، كان أثراً نافعاً شاهداً على عظمة الرومان . وكان هذا المرفأ على بعد ستة عشر ميلا فقط من العاصمة ، ومنه كانت الريح المواتية فى الغالب تدفع السفن الى اعمدة هرقل (١) فى سبعة ايام ، وفى تسعة ايام او عشرة الى الاسكندرية فى مصر .

تحسين الزراعة

ومهما يكن من امر المساوىء التى يلصقها العقل او الحماس بامبراطورية مترامية الاطراف ، فان قوة روما اقترنت دائما ببعض النتائج التى ادت الى خير الجنس البشرى . ولا بد من القول بأن حرية الاتصال التى مدت فى حبل الرذائل ، ساعدت بالمثل على تحسين الحياة الاجتماعية . وكان العالم فى الأزمنة السحيقة مقسما تقسيما غير متكافىء فكان الشرق ينعم بالفنون والترف مما لا يذكره التاريخ او تعيه الذاكرة ، على حين كان يقطن الغرب المتبربرون المحاربون القساة الجفاة ، الذين كانوا يحتقرون الزراعة ، او قل انهم لم

(١) Columns of Hercules : مضيق جبل طارق .

يعرفوها بتاتــا ، ولكن أمكن شيئا فشيئا فى ظــل حكومة مستقــرة ثابتة الأركان ، ادخال منتجــات المناخ الأطيب وصناعــات الأمم التى هى أكثر مدنيـــة ، الى بلاد غرب أوربا ، وتشــجع المواطنون ، عــن طريق التجــارة المفتوحـــة الرابحة ، على مضــاعفة ذاك الانتـــاج وتحسين هـــذه الصناعة . وقد يكون من المستحيـــل تعـــداد السلع الحيوانية أو النباتية التى كانت ترد تباعا الى أوربا من آسيا ومن مصر ، ولكنه جدير بالسفر التاريخى ، بالنسبة لقيمته ، وأقل منـــه بالنسبة لنفعه ، أن يعرض للجوانب الرئيسية عرضا خفيفا .

١ ــ تكاد تكون معظم الأزهـــار والأعشـــاب والفـــواكه التى تنمو فى حدائق أوربا من أصـــل أجنبى تنم عنه أسماؤهـــا فى معظم الأحيان . فالتفـــاح فاكهة ايطالية ، فلما ذاق الرومـــان ما هـــو أطيب منه نكهة من المشمش والخوخ والرمان والليمون والبرتقال ، قنعـــوا بأن يطلقوا على كل هذه الفواكه الجـــديدة تسمية مشـــتركة هى فصـــيلة التفاح ، مع تمييز بعضها عن بعض بنعت اضافى هو اسم البلد الذى جـــاءت منه .

٢ ــ وفى زمن هوميروس كانت الكروم البريـــة تنبت فى جـــزيرة صـــقلية وما جاورها فى الغالب ، ولـــكن مهـــارة السكان المتوحشين لم تتناولها بالتحسين ، ولم تزودهم الكروم بشراب سائغ لديهم . ولكن استطاعت ، بعد ألف سنة من ذلك التاريخ ، ان تتيـــه زهـــوا وعجبـــا بأن أكثر من ثلثى أفخر الأنبذة وأشهرها ، ويصل عـــددها الى ثمانين نوعا ، هى من نتاج التربة الايطالية . وسرعان ما انتقلت البركة الى الولاية الجنوبية فى الغـــال ، ولكن البرد كان قارصا فى شمال هضبة السفن (جنوب وسط فرنسا) حتى ظن فى أيام سـترابون (العـــالم الجغرافى اليونانى فى القرن الأول) أنه من المستحيل نمو الكـــروم فى تلك الأجـــزاء من بـــلاد الغـــال . وذللت هـــذه الصعوبة على مر الأيام . وهناك ما يحمل على الاعتقاد بأن كروم برجندى تمتد فى القدم الى عصر الأنطونينيين .

٣ ــ وسارت زراعة الزيتون فى دنيا الغرب فى أعقاب تقـــدم الســـلام ، حتى لقد اعتبروا الزيتـــون رمزا له ، ولم تكن ايطاليـــا وأفريقية تعرفان هذا النبات المفيد ، حتى بعـــد قـــرنين من تأسيس روما . ثم أدخل وتأقلم فيهما حتى انتقل أخـــيرا الى قلب أســـبانيا والغال . وقد قضت المثابرة والتجربة بطريقة غير ملحوظـــة على خطأ الأقدمين وتهيبهم ، فيما ذهبوا اليه من أن الزيتون يحتاج الى درجـــة معينة من الحرارة ، وأنه لا يجود الا فى الأماكن المجـــاورة للبحـــر .

٤ — انتقلت زراعة الكتان من مصر الى الغال ، وعادت بالغنى والثروة على البلاد بأسرها ، مهما قيل من أن الكتان قد يفقر أو يجدب نفس الأرض التى يزرع فيها .

٥ — أصبح استخدام الحشائش غير البرية أمرا مألوفا لدى فلاحى ايطاليا والولايات ، وبخاصة حشائش لوسرن (١) Media Cagocative التى استمدت اسمها وأصلها من ميديا . وضاعف من قطعان الغنم والماشية ، هذا الزاد الصحى الوفير المحقق وجوده من الطعام فى الشتاء ، كما ساعد وجود هذه القطعان على زيادة خصوبة الأرض . ويمكن أن نضيف الى كل هذه التحسينات ، الدأب على العناية بالمناجم ومصايد الأسماك ، وقد استخدم فيها الكثير من الأيدى العاملة المجدة . مما ادى الى زيادة سعادة الموسرين وسد حاجة المعوزين . ويصف كولوملا Columella فى رسالة لطيفة تقدم الزراعة فى اسبانيا فى عهد تيبيريوس . وجدير بالذكر أن تلك المجاعات التى كثيرا ما اجتاحت الجمهورية الناشئة ، قل أن شهدتها ، أو لم تشهدها قط ، امبراطورية روما المترامية الأطراف ، فاذا ما نزلت باحدى الولايات كارثة طارئة من فاقة أو عوز أو جدب سارع جيرانها الذين هم أسعد حظا الى تخفيف ويلاتها بما أوتوا من وفرة ويسار .

والزراعة أساس الصناعات ، لأن منتجات الطبيعة هى المواد اللازمة للفن .

ولقد تنوعت وتعددت اعمال الشعب العبقرى المجد النشيط فى الامبراطورية الرومانية ، ولكن هذه الأعمال لم تكن يوما الا لخدمة الأغنياء . فلقد جمع الموسرون المحظوظون فى ملابسهم وموائدهم وبيوتهم واثاثهم ورياشهم — جمعوا بين الراحة والأناقة والعظمة فى اروع ما وصل اليه التفنن فيها ، مما يرضى غرورهم أو يشبع نزواتهم . ولقد نعى رجال الأخلاق فى كل عصر على هذا التنعم وهاجموه بشدة بوصفه ترفا ممقوتا . على ان هذا الترف ربما ادى — اكثر ما يؤدى ، الى الفضيلة والى سعادة الجنس البشرى ، شريطة أن تتوافر الضروريات للجميع ، والا يعيش احد على فضلات الحياة وفتاتها فحسب . ولكن الترف مهما كان مبعثه الرذيلة أو الحماقة ، كان يبدو أنه الوسيلة الوحيدة لعلاج سوء توزيع الثروة (الملكية) فى المجتمع الحالى المعيب . ذلك أن الميكانيكيين المهرة

---

(١) حشائش ذات جذور طويلة لها ازهار كأزهار البرسيم ، تسمى فى الولايات المتحدة « الفا الفا » .

والفنانين البارعين كانوا يتقاضون ضريبة اختيارية من ملاك الأرض وكان هؤلاء بدافع من مصلحتهم ينشدون تحسين ضياعهم ليشتروا بنتاجها مزيدا من البهجة والحبور ، وهذه عملية ملموسة آثارها المحققة فى كل مجتمع ، ولكنها كانت أكثر انتشارا وقوة فى دنيا الرومان . ولو أن صناعة الكماليات وتجارتها لم تستعبدا ، بطريقة غير ملحوظة للرعايا الكادحين المبالغ التى ابتزها منهم جيش روما وسلطتها لنفدت ثروة الولايات ، وما دامت هذه الدورة محصورة داخل نطاق الامبراطورية ، فانها تغذى الآلة السياسية بدفعة متجددة من النشاط ، ولن تكون لها نتائج وبيلة ، بل ربما كان من ورائها بعض الخير أحيانا .

ولكنه ليس يسيرا أن نحصر الترف داخل نطاق الامبراطورية فلقد نهبت اقصى العالم القديم بغية توفير الأبهة واللذة لروما . فجاء الفراء الثمين من غابات سكيذيا Scythia (بلاد قديمة فى الجنوب الشرقى من أوربا وآسيا) . وكان يؤتى بالكهرمان عبر الأرض من شواطىء البلطيق الى الدانوب ، وكان المتبربرون يقفون مشدوهين من الثمن الذى يتقاضونه مقابل هذه السلعة التى لا فائدة منها . وكان الطلب كبيرا على سجاجيد بابل وغيرها من مصنوعات الشرق . ولكن أهم صنوف التجارة وأقلها شعبية ذلك الذى كان يجرى مع بلاد العرب والهند . ذلك أنه كان يبحر عند الانقلاب الصيفى (فى شهر يونيه) من كل عام اسطول من مائة وعشرين سفينة من ميناء ميوس هرمز Myos Hormz فى مصر ، عبر البحر الأحمر ، ثم تدفعه الرياح الموسمية فيقطع المحيط فى أربعين يوما ، حتى يلقى مراسيه فى ساحل مالابار أو جزيرة سيلان . وفى هذه الأسواق كان يرقب وصوله التجار من أقصى أطراف آسيا ، وكان من المقرر أن تعود السفن المصرية أدراجها فى شهر ديسمبر أو ينساير ، وما أن تنتقل حمولتها الثمينة فوق ظهور الجمال من البحر الأحمر الى النيل ، وفيه تنقل الى الاسكندرية حتى تتدفق دون ابطاء على عاصمة الامبراطورية . وكانت هذه التجارة الشرقية فاخرة ، ولو أنها تافهة عديمة النفع ، ومنها الحرير الذى لا تقل قيمة الرطل منه عن قيمة رطل من الذهب ، ومنها الأحجار الكريمة وفيها اللؤلؤ الذى كانت له المكانة الأولى بعد الماس (١) ، ثم تشكيلة العطور التى كانت تستخدم

(١) كانت أعظم مصائد اللؤلؤ كما هى الآن فى هرمز ورأس كومورين ، ومادام من الممكن مقارنة الجغرافيا القديمة بالحديثة فان روما كانت تزود بالماس من منجم جوملبور Jumelpur فى البنغال ، وقد ورد وصفه فى رحلات تافرنييه Tavernier .

فى الطقوس الدينية وفى اسباغ الأبهة والعظمة على الجنازات . وكان الربح الوفير الذى لا يكاد يصدق يعوض عن مشاق الرحلة ومخاطرها. ولكن هذا الربح كان يستخلص من الرعايا الرومان . وكانت فئة قليلة من الناس توسر على حساب مجموع الشعب . وبينما كان العرب والهنود قانعين بمنتجات بلادهم ومصنوعاتهما كانت الفضة هى أداة التعامل الأساسية ، ان لم تكن الوحيدة عند الرومان ، وثمة شكوى ترددت ، وكانت جديرة بهمة السناتو وحكمته . ذلك أن أموال الدولة كانت تضيع هباء دون تعويض الى الأمم الأجنبية والمعادية فى حالة شراء حلى النساء مما قدره كاتب مدقق ناقد بخسارة سنوية تربو على ثمانمائة الف جنيه استرلينى . وفى هذا تعبير عن السخط على شبح الفقر الذى كان يقترب ويهدد البلاد . على أننا اذا قارنا نسبة الذهب الى الفضة ، كما كانت فى أيام بلينى ، وكما حدث فى عهد قسطنطين ، لوجدنا زيادة كبيرة فى هذه الفترة وليس هناك البتة ما يدعو الى الظن بأن الذهب اصبح اندر من الفضة . ومن هنا يتضح أن الفضة هى التى غدت أكثر شيوعا واستعمالا الى حد أن الصادرات العربية والهندية بالغة ما بلغت كميتها ، كانت ابعد ما تكون عن أن تستنزف ثروة دنيا الرومان ، وأن انتاج المناجم كان من الوفرة بحيث يغطى حاجات التجارة (التعامل) .

وعلى الرغم من نزوع الانسان الى امتداح الماضى وذم الحاضر ، فان أهل الولايات والرومان انفسهم احسوا احساسا قويا واعترفوا اعترافا صادقا بحالة الهدوء والرخاء التى سادت الامبراطورية ، « وادركوا أن المبادىء القويمة للحياة الاجتماعية ، والقوانين ، والزراعة ، والعلوم — تلك المبادىء التى ابدعتها فى البداية حكمة اثينا — قد دعمتها وأرست قواعدها قوة روما التى اتحد ، فى ظل نفوذها الموفق ، أكثر المتبربرين وحشية ، عن طريق الحكومة الواحدة واللغة المشتركة . انهم يؤكدون أن الجنس البشرى تضاعف عدده بشكل ملحوظ نتيجة لتقدم الفنون ، كما يشيدون بازدياد عظمة المدن وفخامتها ، وبجمال وجه الريف الذى اشرق وتالق بعد أن زرع وازدان حتى أصبح يحكى حديقة واسعة غناء ، ويشيدون بالعيد الدائم للسلام الذى نعمت فيه أمم كثيرة ، بهدوء طويل وقد نسيت الضغائن والحزازات القديمة ، وتخلصت من التفكير فى أى خطر مقبل قد يدهمها » . ولا يفوتنا ان نذكر أن هذا الكلام ينطبق كل الانطباق على الحقائق التاريخية ، مهما كان من جو البلاغة والحماسة الذى يحلق فيه .

وكاد يكون من المتعذر على أعين المعاصرين ، وسط الهناءة الشاملة ، أن تكشف العلل الدفينة للاضمحلال والفساد . فقد نفث طول العهد بالسلام ، ووحدة النمط فى الحكومة الرومانية فى مراكز الحيوية فى الامبراطورية ، سما بطيئا خفيا . فانحطت عقول الناس الى مستوى واحد ، وانطفأت شعلة العبقرية ، وخمدت جذوة الروح العسكرية . وكان أهل أوربا شجعانا أشداء ، وكانت أسبانيا والغال وبريطانيا والليريكوم Illyricum (ولاية قديمة فى غرب ايطاليا) تزود القوات المسلحة الرومانية بجنود ممتازين ، وكانت تشكل القوة الحقيقية للمملكة . لقد احتفظوا بشجاعتهم الشخصية ولكنهم لم يعودوا يتحلون بروح الشجاعة العامة ، تلك الروح التى يغذيها وينعشها حب الاستقلال والشعور بالشرف الوطنى ، واحداق الخطر ، وعادة السيطرة والقيادة . ذلك لانهم تلقوا القوانين واستقبلوا الحكام من لدن مليكهم ووفق ارادته ، وعهدوا بالدفاع عنهم الى جيش من المرتزقة ؟ وقنع نسل أشجع قادتهم وأعظمهم بأن يكونوا مجرد مواطنين أو رعايا . كما انزوى أكثر القوم طموحا وتطلعا فى بلاط الأباطرة أو تحت لوائهم ، وانزلقت الولايات المهجورة المحرومة من القوة السياسية ومن الوحدة — انزلقت الى الحياة الخاصة التى تتسم بالوهن وعدم الاكتراث .

وكان الولع بالأدب ، الذى يكاد يقترن بعهود السلام والتهذيب شيئا مألوفا بين الناس فى عصر هادريان والأنطونينيين الذين كانوا هم أنفسهم رجال علم واطلاع ، وقد انتشر على امتداد الامبراطورية ، حتى لقد تذوقت البلاغة قبائل البريتون فى أقصى الشمال ، كما كان هوميروس وفرجيل يسجلان ويدرسان على ضفاف الرين والدانوب وكانت الجوائز السخية تجد فى أثر أقل بادرة لموهبة أدبية . لقد نجح اليونان فى وضع علم الفيزياء وعلم الفلك . وقام بعض الناس بدراسة ملاحظات بطليموس وكتابات جالينوس Galen (عالم الطب) وتحسين اكتشافاتهما وتصحيح أخطائهما . ولكننا باستثناء لوشيان (١) Lucian الذى لا يبارى ، نجد أن عصر الخمول هذا من دون أن ينبغ فيه كاتب ذو عبقرية أصيلة ، أو كاتب برز فى فنون الانشاء الأنيقة . وكان سلطان أفلاطون وأرسطو ، وزينو وأبيقور لا يزال يتحكم ويسيطر فى المدارس . وانتقلت آراؤهم ومبادئهم من جيل الى جيل من التلاميذ ، فى انقياد أعمى ، كان من شأنه أن

(١) كاتب يونانى تهكمى عاش فى القرن الثانى الميلادى — (المترجم) .

يحول دون أية محاولة كريمة لتحكيم العقل الانسانى أو توسيع آفاقه . ولم تلهب روعة الشعراء والخطباء القرائح حتى تجود بشيء من مثل هذه الروعة ، بل دفعت فقط الى شيء من المحاكاه الفاتره المهينة ، أما اذا جرؤ أحد على أن يحيد عن هذه النماذج ، فانه كان فى نفس الوقت ينحرف عن طريق اللياقة والذوق السليم . وجـاءت النهضة الأدبية ، فأيقظ أوربا وابتعث عبقريتها قوة الخيال الفنية بعد طـول الخمود ، والغيرة الوطنية ، والدين الجديد واللغات الجديدة والعالم الجديد . ولكن أهل الولايات التابعة لروما ، الذين تلقوا تعليما أجنبيا نظيفا نمطيا مصطنعا كانوا مشغولين بمنافسة غير متكافئة مع أولئـك القدامى الشجعان الذين عبروا عن عواطفهم الأصلية بلغتهم المحلية ، فأحرزوا بذلك قصب السبق وتبوأوا مراكز الشرف ، وكـاد لفـظ « الشاعـر » أن ينسى ، واغتصب السفسطائيـون لأنفسـهم لقب « الخطيب » وظهرت طائفة من النقاد والمؤلفين والمعـلقين . فكانت بمثابة غيوم اربد وأسود معها وجه العلم . وسرعان ما جاء فساد الذوق فى ركاب انحطاط الذكاء والعبقرية .

ويلحظ الفيلسوف العظيم لونجينوس Longinus (فى القرن الثالث الميلادى) الذى عاش فى فترة متأخرة نوعا ، فى بلاط احدى ملكـات سوريا واحتفظ بروح أثينا القـديمة يلحظ وينعى عـلى معـاصريه ذلك الانتكاس الذى أفسد مشاعرهم وثبط عزائمهم وأخمـد مواهبهم فيقول : « قد تبقى أطراف الأطفال حبيسة منكمشة كل الانكماش ، ومن ثم تقف عن النمو ، ويصبح الأطفال أقزاما ، وهذا هو حال عقولنا الغضة وهى مكبلة بقيود من حزازات الاستعباد وعاداته ، فانها تصبح عاجزة عن التفتح والاتساع ، وعن بلوغ مستوى العظمة التى كـنا نعجب بها فى الأقدمين الذين عاشوا فى ظل حكومة شعبية وتمتعـوا بحرية القول والفعل معا » (١) واسـترسالا فى المجاز أو التشـبيه ، يمكن القول بأن القوام الضئيل للانسان كان يهبط يوما بعد يوم دون المستوى القديم ، وان عالم الرومان كان حقا يقطنه جنس من الأقزام فى الوقت الذى انطلق فيه عمالقة واصلحوا الذرية الناقصـة النمـو ، فاستمادوا روحا قوية وثابتة من الحرية وبعد ثورة دامت عشرة قرون ، أصبحت الحرية أبا سعيدا عطوفا للذوق والعلم .

---

(١) وهنا كذلك يمكن أن نقول عن لونجينوس : « ان المثال الذى أورده يدعم كل قوانينه » وبدلا من أن يظهر مشاعره فى جراة ورجولة ، نراه يرجى بها فى حذر بالغ ، ويلقى بها على لسان صديق . وطبقا لما يمكن استنتاجه من النص المهوش نراه يتباهى هو نفسه بدحضها وتفنيدها .

الفصل الثالث
(٩٨ - ١٨٠ م)

دستور الامبراطورية الرومانية

فكرة عامة عن النظام الامبراطورى

يبدو أن التعريف الواضح لأية ملكية هو أنها دولة يعهد فيها الى فرد واحد مهما كان اقبه ، بتنفيذ القوانين والتصرف فى الموارد وقيادة الجيش ، فان لم يقم على حماية الحرية حراس شداد يقظون ، فسرعان ما ينقلب سلطان هذا الحاكم المارد الى حكم استبدادى جائر . وقد ينتفع فى عصور الخرافة بالكهنة ورجال الدين فى تقرير حقوق الانسان ، ولكن العلاقة بين العرش والمذبح كانت وثيقة الى حد أن راية الكنيسة قلما كانت ترى فى صف الشعب . ولن يقوم توازن قادر على الاحتفاظ بدستور حر يقف فى وجه هذا الملك وتطلعاته ونزواته ، الا اذا ارتكز هذا التوازن على اشراف محاربين .. وعلى ممثلين للشعب يتسمون بالعناد والصلابة ويتمسكون بالملكية ، ويجتمعون فى مجالس دستورية ويمتلكون السلاح .

لقد حطمت الأطماع العريضة للدكتاتور كل حصون الدستور الرومانى (أو ضماناته) ، وبطشت اليد القوية لحكومة الثلاثة بكل حاجز وبات مصير دنيا الرومان بعد معركة اكتيوم ، رهن مشيئة أوكتافيوس الذى سمى قيصر عندما تبناه عمه ، ثم خلع عليه السناتو اسم أوغسطس نفاقا وملقا منه . وكان الفاتح على رأس قوة قوامها أربع وأربعون فرقة من المحاربين المحنكين ، وكان يدرك كل الادراك مبلغ قوتهم ، كما يدرك ضعف الدستور ، وقد أمعن هؤلاء طوال عشرين سنة من الحرب الأهلية فى أعمال القتل والقمع ، واخلصوا فى حماس لبيت قيصر ، ومن ثم تلقوا منه وحده وتوقعوا أسخى

الجزاء . وكانت الولايات قد طال بها العهد بالظلم على يد وزراء الجمهورية .. فتطلعت فى حسرة وأسى الى حكومة فرد واحد يكون سيدا مسيطرا على هؤلاء الطغاة الصغار . لا شريكا متواطئا معهم . وغمر شعب روما سرور خفى وهم يشهدون اذلال الأرستقراطية ، فلم يطالبوا الا بالخبز وبالحفلات العامة ، وسارعت يد أوغسطس السخية الى تحقيق هذه الرغبات . أما أهل ايطاليا الأغنياء المهذبون الذين اعتنق معظمهم فلسفة أبيقور ، فقد تمتعوا الآن بنعمة الراحة والهدوء ، ولم يسمحوا لذكريات حريتهم القديمة المشوشة أن تعكر عليهم صفو حياتهم . وفقد السناتو قوته ووقاره . وانقرض كثير من أشرف الأسرات القديمة ، وهلك خير الجمهوريين روحا ومقدرة فى ميدان القتال أو بيد الجلاد ، أو بالتجريد من حماية القانون أو بالنفى ، وفتح باب المجلس عمداً لخليط من الأفراد يربو على الألف ، ممن جلبوا العار على الوظيفة التى يتبوءونها ، أكثر مما اكتسبوا منها الشرف .

وكان اصلاح السناتو أولى الخطوات التى تخلى فيها أوغسطس عن شخصية الطاغية أو نحاها جانبا ، واتخذ فيها صفة الأب لبلاده ، وانتخب أوغسطس رقيبا Censor فعمد بالاتفاق مع رجله المخلص الأمين أجريبا Agrippa (١) الى تفحص قائمة أعضاء السناتو ، فطرد منهم أعدادا قليلة ممن كان عنادهم ومساوئهم صارخة يضرب بها المثل ، وأغرى نحو مائتين من الأعضاء بأن يتقوا فضيحة الطرد بالانسحاب طوعا . ورفع نصاب العضو الى نحو عشرة آلاف جنيه ، وخلق عددا وفيرا من الأسرات النبيلة ، وقبل لنفسه لقب الشرف « أمير » السناتو ، وهو اللقب الذى كان يمنحه الرقيب لأعظم المواطنين أمجادا وخدمات . ولكنه اذ أعاد للسناتو وقاره ، حطم استقلاله . ان سيادة الدستور الحر لتضيع بلا رجعة اذا تولت السلطة التنفيذية تعيين السلطة التشريعية .

وأمام هذا المجلس الذى شكل وأعد على النسق الذى أسلفنا ، القى أوغسطس خطابا مدروسا أبرز وطنيته لكن أخفى طموحه . « فلقد حزن لسلوكه السابق ولكن التمس لنفسه فيه عذرا ، ذلك أن واجب الطاعة والاحترام حتم على الابن أن يكون على يديه الثأر لمقتل أبيه ، وأن روح الانسانية التى فاضت بها نفسه أخلت السبيل أحيانا للأحكام الصارمة للضرورة الملحة ، ولعلاقة مفروضة قسرا

(١) سياسى وقائد رومانى (٦٣ - ١٢ ق.م) ، انتصر على انطونيو وكليوباترة فى معركة أكتيوم ٣١ ق.م.

بين زميلين حقيرين غير متناسبين : فما دام أنطونيو حيا ، حرمت عليه الجمهورية أن يتخلى عنها الى رومانى منحل وملكة من المتبربرين ، أما الآن فهو مطلق الحرية فى النهوض بواجبه وتحقيق ميوله . والآن ، وقد أعاد فى هيبة ووقار للسناتو والشعب حقوقهم القديمة ، فهو انما يرغب فى الاختلاط والامتزاج بجموع رفاقه المواطنين ، ويشارك فيما جلب لبلاده من خير ونعيم » .

وما كان اجدر من قلم تاسيتس (لو كان حاضرا فى هذا المجلس) بوصف مختلف أحاسيس السناتو ، ما ظهر منها وما بطن ! . وكان من الخطر الوثوق باخلاص أوغسطس ، ولكن عدم الايمان به كان أشد خطرا . وطالما فرقت مزايا كل من الملكية والجمهورية بين الباحثين المدققين . فان العظمة المشهودة الآن للدولة الرومانية وفساد الآداب العامة وفجور الجنود أمدت المدافعين عن الملكية بحجج جديدة ، وانحرفت هذه الآراء العامة فى نظام الحكم مرة ثانية بآمال كل فرد ومخاوفه . ولكن جواب السناتو كان جماعيا حاسما وسط فوضى المشاعر هذه ، فقد فرضوا اعتزال أوغسطس ، وناشدوه ألا يترك الجمهورية التى انقذها . وأذعن الطاغية الداهية لأوامر السناتو بعد مقاومة رزينة هادئة ، وارتضى أن يتولى حكومة الولايات والقيادة العامة للجيوش الرومانية ، مع اللقب المشهور « البروقنصل » و « الامبراطور » على أن يكون ذلك لمدة عشر سنوات فقط . وكان يأمل ، حتى قبل انقضاء هذه الفترة ، أن تلتئم تماما جراح الخلافات الأهلية ، وأن تكون الجمهورية ، بعد أن تعود سيرتها الأولى من السلامة والقوة ، فى غير حاجة الى الوساطة الخطيرة من جانب حاكم غير عادى . وتكررت هذه المسرحية الهزلية عدة مرات فى عهد أوغسطس ، وخلد ذكراها الى أواخر أيام الامبراطورية ، تلك الأبهة التى كان يسبغها دائما ملوك روما الأبديون على السنوات العاشرة من حكمهم بنوع خاص .

وكان قائد الجيوش الرومانية يستطيع ، دون خرق لمبادىء الدستور ، أن يتولى ويمارس سلطة تكاد تكون مطلقة ، على الجنود وعلى الأعداء وعلى رعايا الجمهورية . أما فيما يتعلق بالجنود فان الغيرة على الحرية ، حتى فى العصور الأولى لروما ، أذعنت للأمل فى الفتوحات ، ولشعور صادق بالنظام العسكرى ، وكان الدكتاتور أو القنصل الحق فى أن يجند الشباب الرومانى ، وأن ينزل أشد العقوبات ردعا وقسوة بالمخالفين عنادا أو جبنا ، وذلك بحذف أسماء الآثمين من سجل المواطنين ومصادرة ممتلكاتهم ، وبيعهم بيع الرقيق .

فكان الارتباط بالعسكرية يعطل أقدس حقوق الحرية التى أكدتها قوانين بورشيا وسمبرونيوس وكان القائد يمارس فى معسكره سلطة مطلقة على الحياة والموت ، ولم يكن قضاؤه محدودا بأية قواعد أو ضوابط للمحاكمة أو الاجراءات ، وكان الحكم ينفذ فورا ، وليس له من استئناف . وكانت الهيئة التشريعية هى التى تختار وتقرر بانتظام من هم أعداء روما ، وكانت أهم قرارات الحرب والسلم تناقش فى السناتو مناقشة جدية . ثم يصدق عليها الشعب وسط مظاهر الهيبة والوقار ، فما أن تنأى القوات بأسلحتها الى مسافات بعيدة عن ايطاليا حتى ينتحل القواد لأنفسهم حرية توجيه السلاح الى أى شعب وبأى شكل ، تبعا لما يتراءى لهم أنه أوفق وأفضل للمصلحة العامة . فكانوا يلتمسون شرف النصر وأمجاد الظفر فى نجاح مغامراتهم وتصرفاتهم لا من عدالتها وأحقيتها . ولجأوا فى استغلال انتصاراتهم الى حد الاستبداد المطلق بلا قيود ، وخاصة بعد أن بعدت عنهم أعين مبعوثى السناتو . ولما تولى بومبى Pompey القيادة فى الشرق ، كافأ جنوده وحلفاءه ، وخلع الأمراء عن عروشهم وقسم الممالك ، وأسس المستعمرات ، ووزع كنوز متريداتس . ولدى عودته الى روما فاز بالتصديق العام الشامل على كل تصرفاته بمقتضى قرار واحد من السناتو والشعب . وهكذا كانت السلطة على الجنود وعلى أعداء روما ، سواء خولت لقواد الجمهورية أو انتحلوها هم لأنفسهم . وكانوا فى نفس الوقت حكاما للولايات المفتوحة أو قل ملوكا عليها . فجمعوا فى أشخاصهم بين الطابع العسكرى والشخصية المدنية ، وتولوا القضاء والشئون المالية والسلطتين التشريعية والتنفيذية فى البلاد .

وقد يكون من الميسور ، مع ما أسلفنا ذكره فى الفصل الأول من هذا الكتاب ، تكوين فكرة عن جيوش أغسطس والولايات التى وقعت تحت حكمه . ولما كان يستحيل عليه أن يتولى قيادة الجيوش بنفسه فى عدة جبهات بعيدة ، أجاز له السناتو — كما كان الحال مع بومبى من قبل — أن يفوض عددا كافيا من النواب أو الوكلاء فى تنفيذ المهام الضخمة لمنصبه . ولم يبد أن هؤلاء الضباط كانوا أقل فى الرتبة والسلطة من الولاة القدامى ، ولكن مراكزهم كانت تابعة مزعزعة ، فقد يتقلدون وظائفهم ويقومون بعملهم تحت رحمة رئيس كان ينسب قانونا لنفوذه الميمون المبارك ، كل فضل لهم فى أعمالهم . وكان هؤلاء ممثلين للامبراطور ، وكان الامبراطور هو القائد الأوحد للجمهورية ، وكانت ولايته المدنية والعسكرية ،

تمتد لتشمل كل فتوحات روما . بيد أن السناتو وجد نوعا من الترضية فى أن الامبراطور كان دائما يفوض سلطاته لأعضاء هذا المجلس . أما نواب الامبراطور فكانوا من مرتبة القناصل أو الحكام ، كما كان يتولى قيادة الفرق أعضاء من السناتو ، أما منصب والى مصر فكان المنصب الهام الوحيد الذى يعهد به الى أحد الفرسان الرومان .

وبعد ستة أيام من اضطرار أوغسطس الى الرضا بهذه المنحة السخية ، قرر أن يرضى غرور السناتو بتضحية يسيرة . ذلك أنه أبدى لهم أنهم منحوه من السلطات حتى أكثر مما تدعو اليه الظروف السيئة آنذاك ، وأنهم لم يتركوا له فرصة ليمتنع عن قبول العبء الشاق ، عبء قيادة الجيوش والجبهات ، ولكنه يصر اصرارا على أن يرخص له فى اعادة الولايات التى هى أكثر وداعة وأمنا بين أيدى حكام مدنيين يديرونها ادارة رفيقة . ولم يغفل أوغسطس فى تقسيمه للولايات أمر قوته هو ، وأمر كرامة الجمهورية ، بل احتاط للأمرين وحسب لكل حسابه . وحظى الولاة المختارون من السناتو ، وعلى الأخص ولاة آسيا واليونان وافريقية ، على مرتبة أكبر من نواب الامبراطورية الذين حكموا فى بلاد الغال وفى سوريا . وكانت حاشية الأولين من الضباط ، والآخرين من الجنود ، وصدر قانون ينص على أنه حيثما كان الامبراطور حاضرا فان ما يتمتع به من تفويض خارق يجب أية ولاية شرعية عادية للحاكم ، وابتدع عرف جديد يقضى بأن تكون الفتوحات الجديدة من نصيب الامبراطور وسرعان ما استبان أن قوة « الأمير » ، وهو اللقب الأثير لأوغسطس كانت هى بنفس القدر فى مختلف أرجاء الامبراطورية .

وحصل أوغسطس فى مقابل هذا التنازل الوهمى أو الاذعان الصورى ، على ميزة هامة جعلته سيدا على روما وعلى ايطاليا ، ذلك أنه استثناء من المبادىء القديمة — وهو استثناء خطير — خول حق الاحتفاظ بالقيادة العسكرية مدعمة بعدد كبير من الحرس حتى فى زمن السلم ، وفى قلب العاصمة . حقا كانت امرته مقصورة على المواطنين الذين التحقوا بالخدمة بمقتضى اليمين العسكرية ، ولكن تلك كانت نزعة الرومان الى العبودية ، حتى ان السناتو والحكام والفرسان كانوا يقسمون اليمين ، الى أن انقلب الانسياق مع النفاق الى اعلان سنوى مدو مهيب عن الولاء والاخلاص .

وكان أوغسطس يرى فى القوة العسكرية أقوى ركيزة ، ولكنه رغم ذلك أنكر عليها فى حكمة وتبصر ، أن تكون أداة ممقوتة

للحكم . وكان أكثر التئاما مع مزاجه ومع سياسته فى وقت معـا ، ، يحكم تحت ظل الأسماء الوقورة لألوان الحكم القـديم ، على أن يجمع فى شخصه ، بمهـارة ودهاء ، كـل الخيوط المبعثرة للسلطـة المدنية ، وعلى هذا الأساس سمح للسناتو أن يمنحه مـدى الحيـاة سلطات الوظائف القنصلية والتربيونية ، وقد بقيت هـذه السلطات على هذا النسق ، لجميع خلفائه . وكان القناصل قـد سموا الى مرتبة ملوك روما ــ ومثلوا كرامة الدولة وجلالها . فرأسـوا الاحتفـالات الدينية ، وحشدوا الفـرق وتولوا قيادتها . واستقبلـوا السفـراء الأجانب ، ورأسوا اجتماعات السناتو والمجالس الشعبيـة ، كما عهد ودوميتيان . والواقع أن أوغسطس سـمح لبعض مدن الولايات أن الفراغ ما يتولون فيه القضاء بأنفسهم ، لـكنهم كـانوا رغم ذلك يعتبرون الحماة الأعلين للقانون والعدالة والسـلام العام . تلك كانت حدود ولايتهم الشرعية العادية ، أما اذا فوض السناتو العاهل الأول فى السهر على سلامة الجمهورية والذود عن حياضـها ، فانه كـان يرتفع بمقتضى هذا القرار فوق القانون ، وكـان يمارس ، من أجـل الدفاع عن الحرية ، سلطانا مطلقـا بصـفة مؤقتة . وكانت شخصية التربيون Tribune تختلف عن شخصية القنصل من كل النواحى ، فكان الأول يتسم فى مظهره بالبساطة والتواضـع ، ولو أن شخصه كان مقدسا لا يمس . وكان له أن يعارض ويناهض أكثر من أن يعمل أو يبت فى الأمر . وأنشىء منصب التربيون للدفـاع عن المظلـومين والصفح عن الاسـاءات ، ولاستجواب أعـداء الشـعب ، ولوقـف اجراءات الحكومة كلها ، بكلمة واحدة منه ، اذا رأى أن الضرورة تقضى بذلك . وطيلة أيام الجمهورية كانت ثمة قيود هامة تحـد مـن النفوذ الخطير لكل من القنصل والتربيون ، ذلك النفوذ الذى كـانت تسبغه عليهم وظائفهم . من ذلك أن سلطتهم كانت تنقضى بانقضـاء السنة التى انتخبوا فيها ، وكانت الوظيفـة الأولى ــ القنصـل ــ موزعة بين شخصين ، والثانية بين عشرة أشخاص . ونظرا لتعارض المصالح الخاصة والعـامة لكل من الفريقين ــ القنصل والتربيـون ــ فـان الصراع بينهما أدى ، أكثر مـا أدى ، الى تدعيم التـوازن الدستورى ، لا الى تحطيمه . ولـكن حين اتحـدت وظيفتا القنصـل والتربيون ، وخولت سلطتهما مدى الحياة لفرد واحـد ، حين كـان قائد الجيش هو نفسـه رئيس السناتـو وممثل الشـعب الرومانى فقد كان من المستحيل عليه الا يمارس الحق الامبراطـورى أو يعين حدوده ومداه .

وسرعان ما أضافت سياسة أوغسطس الى هـذه الوظائف التى تجمعت له ، وظيفتين عظيمتين هـامتين فى وقت معا : الحبر الأعظم والرقيب ، فبالأولى تـولى أمور الـدين ، وبالثانيـة يكتسب حقـا قانونيا فى الرقابة على ملوك الشعب الرومانى وفى البحث عن ثرواته . واذ لم تلتئم هذه السلطات المتميزة المستقلة بعضها مع بعض التئامـا تاما ، فان السناتو — ادبا منه ولطفا — كان على استعداد ليعـالج أى نقص بالرخص والتنازلات الكثيرة الخارقـة الى أبعـد حـد . وتحرر الأباطرة بوصـفهم الرؤسـاء الأول فى الدولة من التزامـات وعقوبات كثير من القوانين المضايقة ، وكان لهم حق دعوة السناتـو للاجتماع ، واجراء عدة اقتراحات فى نفس اليوم ، وتقـديم أسـماء المرشحين لوظائف الدولة ورتبها ، وتوسيع حدود المدينـة ، والتصرف فى الدخل حسب تقديرهم واعـلان الحـرب والسلم ، والتصـديق على المعاهدات ، واخيراً كانوا يفوضون ، بقرار شامل جـامع أن يفعلوا ما يرونه نافعا للامبراطورية ، متفقا مع الجلال والعظمة ، فى الخاص والعام ، والانسانى واللاهوتى من الأمور .

وحين انتقلت هذه الصلاحيات التنفيذية المختلفة للحـكومة الى شخص « الحاكم الامبراطور » ، قبع الحكام العاديون فى الجمهـورية فى أركان مظلمة خاملين بل عاطلين عـن العمـل فى الغالب . واحتفظ أوغسطس بكل أسماء وأشكال الادارة القديمة فى أبلغ عناية ولهفة . وكان العدد المألوف من القناصل ومساعديهم Praetors ومن التربيون يزودون فى كل عام بشمارات وأعلام وظائفهم ، وقـد استمروا عـلى القيام بأتفه مهامهم . وكانت هذه الشمارات والأوسمة لا تزال تثير فى نفوس الرومان طموحا وغرورا ، وحتى الأباطرة أنفسـهم ، رغـم ما منحوا من سلطـان القنصل مدى الحياة ، كثيرا ما تشـوفوا الى هذا التكريم السنوى ، وقـد تنازلوا فارتضوا أن يشاركوا فيه أكثر مواطنيهم امتيازا وسموا . وقد أتاح انتخـاب هـؤلاء الحكـام ، فى عصر أوغسطس ، للشعب فرصة اظهار كل متاعب الديمقراطية الفجة الساذجة ، وما كان هذا الأمير الداهية الماكر اتظهر عليه أقل أمارات الضجر أو الضيق بهذا الذى يقولون ، بل انه بدلا من ذلك ، كـان يتنبه الى كل هذه المتاعب ، وكان بكـل تواضع يوجه نظر زملائه اليها ، ثم يؤدى — فى دقة وأمانة — واجبه كأى مرشح عادى . ولكن يمكن ، فى شىء من الجرأة ، أن ننسب الى مجالسـه أول اجراء اتخذه العهد الذى أعقبه ، وهو الاجراء الذى أدى الى انتقـال هـذه الانتخابات الى السناتو . فألغيت المجالس الشعبية الى الأبـد ، وبذلك تخـلص

الأباطرة من التجمع الخطير الذى كان يمكن — اذا لم ترد له حريته — أن يهز أركان الحكومة الوطيدة أو يعرضها الخطر ويعصف بها .

ولقد حطم ماريوس وقيصر دستور البلاد حين أعلنا انهما حماة الشعب . ولكن سرعان ما اتضح أن السناتو الذى يضم خمسمائة أو ستمائة عضو ، أصبح بعد أن أخضع واذل وجرد من قوته — أصبح أداة للسيطرة أنفع وأسلس قيادا . ومن هنا يمكن القول بأن أوغسطس وخلفاءه انما شادوا امبراطوريتهم الجديدة على حساب السناتو ، وما كان له من مقام ومكانة . وكانوا يتظاهرون فى كل مناسبة بأنهم يقتبسون لغة النبلاء ورجال السناتو ومبادئهم . وكثيرا ما التمسوا الرأى والمشورة عند هذا المجلس الوطنى الموقر فى تأدية مهام وظائفهم ، وبدا أنهم يرجعون الى قراراته أو يأخذون بها فى أهم قضايا الحرب والسلم . وكانت روما وايطاليا والولايات الداخلة خاضعة للسلطة القضائية للسناتو مباشرة . فكان هو بمثابة محكمة الاستئناف العليا بالنسبة للأحوال المدنية . أما فيما يتعلق بالجنايات فكان هو ، أى السناتو ، محكمة مشكلة للنظر فى الجرائم التى يرتكبها الموظفون العامون فى الدولة أو التى تكدر السلم أو تسىء الى كرامة الشعب الرومانى وعظمته ، فاصبحت ممارسة السلطة القضائية هى الشغل الشاغل للسناتو وأخطر المهام التى يضطلع بها ، وكنت ترى فى السناتو ، عند نظر القضايا الكبرى التى تستأنف اليه ، ترى آخر منبر للبلاغة القديمة . وكانت السناتو ، بوصفه مجلسا للدولة ومحكمة للقضاء ، امتيازات هامة ، أما بالنسبة لقوة التشريع ، فكان المقرر أو المعترف به أن حقوق السيادة كانت مركزة فى هذا المجلس الذى كان مفروضا فيه أنه فى الحقيقة يمثل الشعب . ان أية قوة كانت تستمد من سلطته ، ولا يجاز أى قانون الا بتصديق منه . وكان السناتو يعقد اجتماعات دورية فى ثلاثة أيام معينة هى الأول والتاسع والخامس عشر من كل شهر . وكانت المناقشات تدار فى حرية تتسم بالوقار والحشمة ، وكان الاباطرة الذين تألقوا فى مقاعد الشيوخ ، يأخذون أماكنهم ويصوتون مع زملائهم من الأعضاء أو يخالفونهم .

فكرة عامة عن النظام الامبراطورى

يمكن فى عبارة موجزة ، اجمال نظام الحكومة الامبراطورية ، كما وضعه أوغسطس ، واحتفظ به أولئك الأمراء الذين أدركوا مصالحهم الخاصة ومصالح الشعب — بأنه ملكية مطلقة متسترة وراء اطارات جمهورية ، وقد لف سادة دنيا الرومان ، عروشهم فى غلالات من الغموض والظلام ، وأخفوا قوتهم القاهرة الغلابة ، وأعلنوا فى خشوع وتواضع أنهم الوزراء المسئولون للسناتو الذى أملوا هم أوامره العالية ثم أطاعوها .

ووكان مظهر البلاط يطابق المظاهر الخارجية للحكومة . وباستثناء أولئك الطغاة الذين انتهكوا حرمة كل قوانين الطبيعة والوقار بحماقتهم الخرقاء ، نجد أن الأباطرة كانوا ينفرون من كل مراسم الأبهة والعظمة التى قد تسىء الى مواطنيهم ، والتى لا تجديهم هم أنفسهم نفعا ولا تزيد فى قوتهم شيئا . فتظاهروا بأنهم يشاطرون رعاياهم فى كل ما يهمهم من أمور الحياة ، وتبادلوا معهم سلسلة من الزيارات والحفلات المنتظمة . ولم يسموا فى ملابسهم وقصورهم وموائدهم عن مرتبة عضو ميسور من أعضاء السناتو . أما أتباع الامبراطور أو معيته ، مهما بلغ من وفرة عددها ومن سنائها ، فكانت تتكون كلية من عبيده المحليين والمعتقين (١) ، وربما كان أوغسطس أو تراجان يستحى ويخجل من استخدام أقل الرومان شأنا فى مثل هذه الوظائف الحقيرة التى يلتمسها ويسيل لها لعاب أكثر النبلاء البريطانيين غرورا ، فى حاشية ملك صغير أو فى غرفة نومه .

وكان تقديس الأباطرة الى حد العبادة هو الأمر الوحيد الذى خرجوا فيه عن مألوف فطنتهم وتواضعهم . وكان الاغريق الأسيويون أول من ابتدعوا هذا اللون الذليل الملحد من المداهنة والرياء ، وكان خلفاء الاسكندر أول هدف لهذا التقديس . وما كان أيسر امتداد هذا التقديس أو التأليه من الملوك الى الحكام فى آسيا ، وكثيرا ما كان الحكام الرومان يعبدون بوصفهم آلهة محليين ،

(١) كان أتباع الامبراطور الضعيف يسيطرون عليه ويسيرونه ، وكانت قوة العبيد وسيطرتهم تضاعف من سوءات الرومان وتزيدهم عارا . وكم احتفى السناتو بالشبان المفترين والشابات الجميلات من هؤلاء الاتباع . وكانت الفرصة مواتية ليدخل أحد المقربين المحظيين الجدد فى عداد السادة المهذبين الأجلاء .

بكل ما تقتضيه العبادة من أبهة المذابح والمعابد والأعياد والقرابين .
وكان من الطبيعي الا يأبى الاباطرة على انفسهم ما ارتضاه السلاطين والولاة ، ولا شك في أن هذه الأمجاد الالهية التي كان يتلقاها هؤلاء وهؤلاء كانت اقرارا باستبداد روما أكثر منها بعبوديتها .
ولكن سرعان ما قلد الغزاة الفاتحون الأمم المقهورة في افانين الملق والرياء ، فسهل على القيصر الأول ، وهو على قيد الحياة مع ما ركب فيه من عتو وغطرسة ، أن يرتضى له مكانا بين الآلهة الأوصياء الحراس على روما . ولم يتعلق خلفه ذو المزاج الأرق بمثل هذا المطمع الخطير ، الذي لم يحيه قط من جديد الا جنون كاليجولا ودوميتيان . والواقع أن أوغسطس سمح لبعض مدن الولايات أن تقيم المعابد تكريما وتمجيدا له ، شريطة أن يربطوا عبادة روما بعبادة الملك ، وتسامح في بعض الخرافات الخاصة التي قد تدور حول شخصه ، ولكنه قنع بأن يكون اجلال السناتو والشعب له على أساس شخصيته الانسانية ، وفي حكمة وتبصر ترك لخلفه مهمة التاليه العام . واستحدث عرف جديد ، ذلك أن السناتو كان يصدر عند وفاة الامبراطور الذي لم يحك في حياته أو مماته سيرة الطاغية — يصدر قرارا خطيرا بادراجه في عداد الآلهة . وكان الاحتفال بضمه الى الآلهة يختلط بمراسم دفنه . وكان مبدأ الشرك وتعدد الآلهة ، بما اتسم به من سهولة وبساطة يتقبل ، في غير ما ضجة ، هذا الامتهان القانوني الذي يبدو غريبا طائشا ، كما يبدو بغيضا مقيتا كل البغض والمقت في نظر مبادئنا التي هي أشد صرامة ودقة ، ولكنه كان يتقبل على أنه لون من نظم السياسة ، لا الدين . وانا لنحط من قدر فضائل الانطونيين اذا قارناها برذائل هرقل أو جوبيتر . بل ان شخصية قيصر أو أوغسطس كانت تسمو كثيرا على شخصية الآلهة المحليين ، ولكن من سوء حظ الأولين انهما عاشا في عصر مستنير ، وأن أعمالهما دونت بأمانة سمحت بمثل هذا الخليط من الخرافة والغموض الذي ارادته عبادة السوقة والعامة وولاؤهم . وما أن تقررت ألوهيتهم بمقتضى القانون حتى انحدرت الى زوايا النسيان ، دون أن تضيف شيئا الى شهرتهم أو الى مكانة خلفائهم .

وكثيرا ما أوردنا ، في الحديث عن الحكومة الامبراطورية ، ذكر المؤسس الداهية تحت اللقب الذائع « أوغسطس » ، الذي لم يسبغ عليه الا عندما كاد الصرح أن يكتمل . أما الاسم الخامل المهجور « أوكتافيوس » فقد أخذه عن أسرة وضيعة في المدينة الصغيرة

آريتشيا Aricia ، وكان ملطخا بدم حكم الاعــدام ، ومن ثم كان متلهفا ما أمكن على محـو أية ذكريات لحياته الأولى . أمــا اللقب اللامع « قيصر » فقد كسبه بوصفه ابن الدكتاتور بالتبنى . ولـكنه أوتى من سعة العقل ما جعله لا يأمل فى أن يقرن بهذا الرجل الخــارق أو يرغب فى أن يقارن به . واقترح فى السناتو تكريم وزيره بتسمية جديدة ، واختير ، بعد مناقشة حامية اسم « أوغسطس » من بين عدة أسماء . لأنه أصدق تعبيراً عن طبيعة السلام والطهر التى اصطنعهــا دوما . ومن هنا كان أوغسطس امتيازا شخصيا ، أما قيصر فهو امتياز نابع من الأسرة ، وكان من الطبيعى أن ينقضى الأول بانقضاء حيــاة الأمير الذى أسبغ عليه ، ومهما يكن من أمر انتشار اللقب الأخــير — قيصر — عن طريق التبنى أو تحالف الأسرات ، فان نيرون كــان آخر أمير يستطيع أن يدعى أى حق وراثى فى أمجاد فرع يوليوس . ولكنا نجد عند وفاته أن ما تم على مدى قرن من الزمان قــد أحكم الصلة بين هذه التســميات وبين المقــام الامبراطورى الجــليل ، كما حافظ عليها تعاقب طــويل لأباطرة من الرومان واليونان والفرنجــة والألمان ، منــذ سقوط الجمهــورية الى وقتنا هذا . على أن فارقــا واحدا أدخل ، الا وهو الاحتفــاظ باللقب المقــدس « أوغسطس » لشخص الملك ، أما اسم « قيصر » ، فكثيرا ما انتقل فى حريــة أكثر الى ذوى قرباه . ومنذ عهــد هادريان — على الأقل — خصص هذا الاسم الأخير للشخص الثانى فى الدولــة ، الذى كان يعتبر الوريث المحتمل للامبراطورية .

ويمكن تفسير الاحترام الهزيل الذى ابداه أوغسطس للدستور الحر الذى حطمه ، بالتأمل الدقيق الواعى فى شخصية هذا الطاغيــة الداهية المحتال . لقد كان رصينا هادىء الطــبع ذا قلب لا يتأثر ، نزاعا الى الجبن والتهيب ، كل أولئك مــكن له فى سن التاسعة عشرة من أن يلبس قناعا من النفاق لم يتخل عنه بعدها قط . فتراه يوقــع بنفس اليد ، وأغلب الظن بنفس الروح ، الحــكم بالاعــدام عــلى شيشرون ، وقرار العفــو عن ســـنا Cinna . وكانت فضائله ، بل وحتى رذائله ، متكلفة مصطنعة ، وكان فى بداية الأمر عدوا للعالم الرومانى ، ثم غدا فى النهــاية أبا له ، وكل أولئك خطــرات من املاء مصلحته (١) . ولما وضع النظام الخبيث للسلطة الامبراطورية كــان

(١) عندما ارتقى أكتافيوس الى مرتبة القياصرة ، كان بمثابة حرباء تتلون بألوان كثيرة : صفراء شاحبة فى البداية ، ثم حمراء ، وبعد ذلك سوداء ، وفى النهاية تقمص أرواح الهة الربيع والأخوات الثلاث الهات مسرات الحياة ومباهجها . تلك هى الصورة =

اعتداله منبعثا من مخاوفه . فأراد أن يخدع الشعب بطيف الحرية المدنية كما يخدع الجيوش بصورة الحكومة المدنية .

١ — لقد كان موت قيصر ماثلا أبدا أمام عينيه ، فأغدق المال والرتب على أتباعه وأشياعه ، ولكن أخلص الأصدقاء المقربين الى عمه كانوا فى عداد المتآمرين . وقد يجدى اخلاص القوات المسلحة فى التصدى للعصيان أو التمرد السافر على سلطته ، ولكن يقظتهم لن تنقذ شخصه من طعنة خنجر من يد جمهورى متشدد ، ولابد أن الرومان الذى مجدوا ذكرى بروتس ، سيمتدحون ويصفقون لمن يفعل فعلته . لقد تعجل قيصر مصيره بفعل مفاخرته بقونه وبفعل قوته على قدر سواء . ولربما كان قد حكم فى سلام وهدوء لو أنه اكتفى بمنصب القنصل أو التربيون . غير أن طمعه فى أن يكون ملكا أعطى الرومان سلاحا يستخدمونه فى قتله . وكان أغسطس يدرك أن البشر تغرهم الألقاب ، كما أنه لم يكن مخدوعا فى توقعه أن السناتو والشعب لا بد أن يستكينوا ويستسلموا ، شريطة أن يؤكد لهم فى احترام واجلال أنهم لا يزالوان ينعمون بحريتهم القديمة .. وكان السناتو الضعيف والشعب الذى وهنت عزائمه يقنعون مبتهجين بهذا الوهم السار ، طالما كان يعتمد على فضيلة خلفاء أوغسطس ، أو حتى على حكمتهم . والحق أنه كان دافعا من دوافع الابقاء على الذات ، لا مبدأ من مبادىء الحرية ، ذلك الذى أثار المتآمرين ضد كاليجولا ونيرون ودوميتيان ، فقد تصدروا لشخص الطاغية ولكنهم لم يسددوا ضربتهم الى سلطة الامبراطور .

ويبدو فى الواقع أن هناك مناسبة واحدة جديرة بالذكر ، قام فيها السناتو بعد سبعين سنة تذرع فيها بالصبر ، بمحاولة عقيمة لاسترداد حقوقه التى طال عليها عهد النسيان . ذلك أنه عندما خلا العرش ، بقتل كاليجولا ، دعا القناصل هذا المجلس الى الاجتماع فى الكابيتول ، ونددوا بذكرى القياصرة ، وأعطوا كلمة السر « الحرية » للفئة القليلة من الفرق العسكرية التى التفت فى فتور حولهم ، ثم تصرفوا (القناصل) لمدة ثمان وأربعين ساعة وكأنهم

= التى رسمها جوليان فى قصته البارعة ، وهى صورة صادقة رشيقة . ولكنه حين ينسب تقلب شخصيته الى قوة الفلسفة ، انما يولى الفلسفة ويولى أوكتافيوس شرفا أكثر مما ينبغى . (« القياصرة » تأليف لوشيان — وهو كاتب يونانى عاش فى القرن الثانى الميلادى) .

رؤساء مستقلون لجمهورية حرة . وفى الوقت الذى كانوا يتدبرون فيه الأمر فى روية . كان رجال الحرس الامبراطورى قد حزموا أمرهم ، واستقر قرارهم ، بل وكان كلوديوس الغبى شقيق جرمانيكس فى معسكرهم فى حلة الامبراطورية الأرجوانية مستعدا لتثبيت انتخابه بحد السيف . وهنا تبخر حلم الحرية ، وفتح السناتو عينيه على فظائع العبودية التى لا مفر منها . وأرغم هذا المجلس الهزيل ، وقد تخلى عنه الشعب وهددته القوة العسكرية ، أرغم على اقرار ما اختاره الحرس ، والاستفادة من العفو العام الذى اقتضت فطنة كلوديوس أن يعرضه ، كما اقتضى كرمه أن يتنبه اليه .

٢ ــ وأثارت سفاهة الجيش وصلفه فى نفس أوغسطس مخاوف تفاقم نذيرها على مر الأيام . وبلغ بالمواطنين القنوط الى حد أنهم لم يحاولوا الا ان يعرفوا ماذا تستطيع قوة الجنود أن تفعل فى أى وقت . وكم كان سلطانه (أى أوغسطس) مزعزها غير مأمون على قوم لقنهم هو أن ينتهكوا حرمة كل واجب اجتماعى ! لقد سمع من قبل صخبهم المثير للفتنة ، كما توجد خيفة من لحظات تأملهم الهادئة . وقد يمكن شراء ثورة واحدة لقاء ثمن باهظ ، ولابد أن يكون هذا الثمن مضاعفا لشراء الثورة الثانية ، لقد أعلن الجنود أشد التعلق ببيت قيصر ، ولكن تعلق الجماهير متقلب غير ثابت ، ولكن أوغسطس أهاب لمعونته بكل ما تبقى فى تلك العقول من أهواء وتحيزات رومانية ، وفرض نظاما صارماً بقوة القانون ، ووضع هيبة السناتو بين شقى الرحى : الامبراطور والجيش . ثم جمع أطراف شجاعته وطالب بولائهم له بوصفه الحاكم الأول للجمهورية .

ومنذ اقيم هذا الأسلوب البارع الماكر حتى وفاة كومودس Commodus ، أى طيلة فترة امتدت مائتين وعشرين سنة ، توقفت الى حد كبير الأخطار الملازمة للحكومة العسكرية ، فقلما كان الجنود يوقظون الى حد الاحساس بخطورة قوتهم ، وبضعف السلطة المدنية ، ذلك الضعف الذى كان ، من قبل ومن بعد ، نتيجة لمثل هذه الكوارث الرهيبة . لقد ذبح كل من كاليجولا ودوميتيان فى قصره بيد خدمه ، وكانت الهزة التى اصابت روما لموت الأول محصورة بين جدران المدينة ، ولكن وفاة نيرون هزت أركان الامبراطورية بأسرها . وفى مدى ثمانية عشر شهرا هلك أربعة من الأمراء بحد السيف ، وانتفضت دنيا الرومان لهذا الصراع المحتدم بين الجيوش المتنازعة . وباستثناء احتدام هذه المنازعات العسكرية القصيرة ، ولكن العنيفة ، فان القرنين من الزمان ــ من أوغسطس

الى كومودس — لم تلطخهما دماء الحروب الأهلية أو تكدر صفوهما أية ثورات . فكان الامبراطور ينتخب بمقتضى ما للسناتو من سلطة ، وبرضا من الجيش . واحترمت القوات يمين الاخلاص الذى كانوا يؤدونه . ويتطلب الأمر فحصا دقيقا لسجلات التاريخ الرومانى للاهتداء الى ثلاث ثورات تافهة أخمدت فى بضعة شهور ، دون المخاطرة بالدخول فى معركة .

ان ساعة خلو العرش فى الملكية الانتخابية محفوفة بالخطر منذرة بالسوء . ومن ثم اتجهت رغبة أباطرة الرومان الى أن يجنبوا الفرق العسكرية فترة الترقب والبلبلة هذه ، ويجنبوهم الاغراء باختيار شاذ ، ولذلك زودوا الشخص الذى يقصدون أن يكون خلفا لهم بنصيب كبير من سلطتهم الراهنة ، بالقدر الذى يستطيع معه ، بعد وفاتهم أن يستحوذ على ما تبقى من سلطة دون أن تعانى الامبراطورية مشقة ادراك التغيير فى الحكام . ومن هنا نرى أن أوغسطس بعد أن اختطفت منه تطلعاته التى هى أكثر ازدهارا بأحداث الموت التى جاءت فى غير أوانها ، ركز آماله الأخيرة على تيبيريوس ، وحصل لابنه بالتبنى على سلطات الرقيب والتربيون ، ثم فرض قانونا زود الأمير المنتظر بسلطة مساوية لسلطته هو ، على الولايات والجيش . وكذلك كبح فسبازيان التطلع الجامح لابنه الأكبر ، وكان تيتس معبود الفرق العسكرية الشرقية التى أتمت مؤخرا ، تحت امرته ، فتح أرض يهوذا Judea . وكان مرهوب الجانب . وكانت تشوب فضائله مسحة من طيش الشباب ، ولذلك كانت مشروعاته موضع الشك والريبة . وبدلا من الاصغاء الى هذه الريب التافهة ، عمد الملك الفطن (فسبازيان) الى اشراك تيتس فى السلطات الامبراطورية كاملة . واثبت الابن الشكور دائما أنه الوزير المخلص المتواضع للأب اللطيف المتساهل .

والحق أن ادراك فسبازيان السليم أدى به الى أن ينشغل باتخاذ اجراء لتدعيم هذا الارتقاء المزعزع حين تبوأ العرش حديثا . لقد كانت اليمين العسكرية كما كان اخلاص القوات ، وفقا للعادات التى تأصلت لمدة مائة عام وقفاً على اسم قيصر وأسرته . يتطلع الرومان فى شخص نيرون ، يبجلون حفيد جرمانيكوس والخليفة الوراثى لأوغسطس ، على الرغم من أن هذه الأسرة لم تستمر فى الوجود الا بهذه السنة الملفقة ، الا وهى سنة التبنى . ولم يكن اقناع الحرس الامبراطورى وتحريضه للتخلى عن الطاغية أمرا خاليا من الندم

والمضايقة . وقد علم السقوط السريع لجالبا Galba وأتو Otho وفيتليوس Vitellius علم الجيوش أن تنظر الى الأباطرة على أنهم من صنع ارادتها ، وأدوات لسلطانها . لقد كان فسبازيان من أصل وضيع ، كان جده جنديا خاصا ، وأبوه مأمورا صغيرا للدخل ، وقد رفعته مواهبه الخاصة الى مرتبة الامبراطور ، ولكن مواهبه كانت نافعة أكثر منها لامعة مشرقة ، وتلوثت فضائله ببخله الشديد الدنيء . وقد رعى هذا الأمير مصلحته الحقيقية باشراك ابنه الذى يمكن أن تصرف شخصيته العظيمة المحبوبة الأنظار العامة عن الأصل المظلم الى ما ينتظر فى المستقبل من أمجاد لبيت فلافيوس Flavius وفى ظل الاعتدال الذى اتسمت به ادارة تيتس استروح عالم الرومان نسيما عابرا من الغبطة والهناء ، حتى لقد غطت ذكراه العاطرة المحببة ، لمدة تزيد على خمسة عشر عاما ، سيئات أخيه دوميشيان .

وما كاد نرفا Nerva يتسلم طيلسان الملك من قتله دوميتيان حتى تبين له أن تقدمه فى السن يجعله عاجزا عن صد تيار الفوضى الجارف الذى استشرى طيلة حكم سلفه الطاغية . وكانت ميوله الطيبة موضع تقدير كرام القوم ، ولكن الرومان الذين دب فيهم الانحلال كانوا يتطلبون شخصية أصلب وأقسى ، حتى تلقى عدالتها الرعب فى قلوب المجرمين ، وكان لديه العديد من ذوى قرباه ، ولكن وقع اختياره على رجل غريب ، فتبنى تراجان الذى كان آنذاك فى الأربعين من العمر ، والذى كان تحت امرته جيش قوى فى المانيا السفلى (فى الجزء الجنوبى من ألمانيا) . وبمقتضى قرار من السناتو ، أعلن نرفا على الفور تراجان زميلا له وخلفا له فى الامبراطورية . وانه لما يبعث حقا على الأسى ، أنه فى الوقت الذى نشقى فيه بالسرد الممل الكريه لجرائم نيرون وحماقاته ، نجد أنفسنا مضطرين الى جمع أعمال تراجان من شتات موجز أو مخلفات مديح مريب . على أن هناك مديحا واحدا يرتفع عن الشبهات وعن مظنة الملق . ذلك أنه بعد مرور مائتين وخمسين عاما على موت تراجان وفى غمرة الهتاف والتهليل المألوف لمناسبة اعتلاء امبراطور جديد على العرش ، تمنى السناتو للعاهل الجديد أن يبز أوغسطس فى هناءة عهده ، وأن يبز تراجان فى فضائله .

وقد نكون على استعداد للقول بأن أبا البلاد تردد فيما اذا كان ينبغى له أن يعهد الى شخص قريبه المتقلب المريب هادريان ببعض السلطات الملكية . فلما حانت منيته استخدمت الامبراطورة بلوتينا

Plotina . دهاءها وحيلها فى اخراج تراجان من حيرته ، أو أنها تجاسرت فلفقت له امرا لم يأمن مغبة الجدل فيه . وانتهى الأمر بالاعتراف فى سلام بهادريان خلفا شرعيا لتراجان . ونعمت الامبراطورية على عهده ــ كما أسلفنا ــ بالسلام والرخاء ، وقد شجع الفنون وأصلح القوانين ، واقر النظام العسكرى ، وزار كل الولايات بنفسه . كما وجه ذكاءه الواسع الفعال ، بنفس القدر ، الى كل كبيرة وصغيرة فى مجال السياسة المدنية . ولكن الزهو والفضول كانا يملآن عليه جوانب نفسه فكلما الحا عليه ، وكلما ثارا لشىء أو لآخر ، انقلب هادريان بدوره من أمير ممتاز الى سفسطائى يدعو الى السخرية ، والى طاغية تأكل الغيرة قلبه . لقد كان الرجل يستحق الثناء لما تميز به الطابع العام لسلوكه من انصاف واعتدال ، ومع ذلك ففى الأيام الأولى اعدم اربعة من اعضاء السناتو القناصل ، كانوا اعداء الداء له ، وكانوا جديرين بمنصب الامبراطورية . وكان يعانى من داء عضال ، جعل منه فى النهاية رجلا شريرا قاسيا . وحار السناتو هل يدعوه الها او طاغية . ولم يتقرر تمجيد ذكراه الا نتيجة لتوسلات انطونينوس التقى .

واثرت نزوات هادريان وشذوذه فى اختيار خلفه . وبعد أن اعمل فكره فى عدة رجال من ذوى المواهب البارزة ، الذين كان يقدرهم ويبغضهم في وقت معا ، اختار اليوس فيروس **Aelius Verus** وهو شخص مرح داعر من الأشراف ، أوصى به جمال ساحر لدى هادريان عشيق انطونينوس . وبينما كان لاهيا ناعما بما يكال له من مديح وتقريظ ، وبتهليل الجنود الذين حصل على موافقتهم بما اغدق عليهم من هبات ضخمة ، اختطف القيصر الجديد من بين يديه موت مفاجىء . وقد ترك ولدا وحيدا ، اوصى به هادريان الأنطونينيين خيرا ، فقد تبناه انطونينوس بيوس ، كما زود بنصيب من السلطة الملكية مساو لنصيب ماركوس عند اعتلائه العرش . والى جانب رذائله الكثيرة كان فيروس الصغير يتحلى بفضيلة واحدة : الاحترام والامتثال لزميله الذى هو أرجح عقلا ، الذى ترك له رغبا مشقة المهام الجسام فى الامبراطورية . وغض الامبراطور الفيلسوف الطرف عن حماقاته ،وحزن لموته المبكر واسدل ستارا وقورا على ذكراه .

وعندما أشبعت رغبة هادريان أو خابت ، صمم على أن يتقاضى شكر الأعقاب باجلاس اعظم الموهوبين المبجلين على العرش الرومانى ، فوقعت عينه الفاحصة على سناتور فى نحو الخمسين من العمر ،

لم تلصق به فى أى من وظائف الحياة شائبة ، وعلى شاب فى نحـــو السابعة عشرة تبشر سنو نضجه القـــادمة بامارات الفضـــيله ، وعلى أولهما ابنا وخلفا له شريطة أن يتبنى هــذا الشخص الأول نفســه الشـــاب الثانى على الفور . وحـكم هـــذان الاثنان الأنطونينيـــان (ونحن هنا انما نتحـــدث عن الأنطونينيين) دنيا الرومـــان طيـــلة اثنين وأربعين عاما بروح ثابتة لم تتغير من الحـــكمة والفضـــيلة . وكان لأنطونينوس بيوس ابنان ، ولكنـــه رغـــم ذلـــك آثر مصلحـــة الامبراطورية على مصلحة أسرته ، فزوج ابنته فوستينا من ماركـــوس الشـــاب ، وحصل من السناتو على سلطات التربيـــون والقنصـــل ، وفى احتقار كريم منه ، بل قل فى جهل منه بمشاعر الغيرة والحقـــد ، اشركه معه فى كل أعمال الدولة . واحترم ماركوس ، من جهة أخرى وبجل الرجل الذى أسدى اليه الخـــير على أنه والد له ، وأطـــاعه بوصفه مليكا وسيدا له ، فلما قضى ، سار فى ادارته عـــلى مثـــال سلفه ونهج على مبادئه . وربما كانت فترة هذين الحاكمين المتحدين هى الفترة الوحيدة فى التاريخ التى كانت فيها سعادة شعب عظيم هى الهدف الأوحد للحكومة .

وقد نعت تيتس أنطونينوس بيوس بأنه نومـــا Numa ثان (ثانى ملوك روما فى القرن السابع ق.م.) . فقد كان حب الدين والسلام هو الخاصة المميزة لهذين الأميرين كليهما . وربما افسح موقف المتأخـــر منهما (انطونينوس) مجالا أكبر لممارسة هاتين الفضيلتين . لقـــد استطاع نوما فقط أن يحول دون أن تسطو بضع قرى متجـــاورة على محصولات بعضها بعضا . ولكن أنطونينوس نشر النظام والهدوء فى أكبر رقعة من الأرض . وتفرد حكمه بميزة نادرة ، تلـــك هى قلة المواد التى زود بها التاريخ الذى لا يعدو أن يكون شيئا أكثر من سجل لجرائم البشر وحماقاتهم ونكباتهم ، وكان فى حياته الخاصـــة رجـــلا طيبا محبوبـــا . وكانت البســـاطة الفطرية لفضـــائله لا تلتئم مـــع اى زهو او تكلف . ولقد تمتع متعة طابعها الاعتدال بما أتاحـــه له حظه من وسائل ، وبما تيسر فى المجتمع من مسرات بريئة ، وتمثلت طيبة نفســه فى طبع هادىء ينبض بالبشر والبهجة .

أما فضائل ماركوس أوريليوس انطونينوس فكانت من طـــراز آخر أكثر عنفا وارهاقا ، كانت حصيلة مكتســـبة اكتسابا جـــادا من كثير من مؤتمرات العلماء ، والمحاضرات التى يتجلد المرء للاستماع اليها ، ومن طـــول السهر فى التحصيل والطلب . فقـــد اعتنـــق ، وهو فى

الثانية عشرة من عمره مذهب الرواقيين الصارم الذى علمه أن يخضع جسده لعقله وهواه لمنطقة ، وأن الفضيلة هى الخير كله ، وأن الرذيلة هى الشر كله ، وأن يعتبر الأشياء المظهرية ، (الخارجية) أشياء لا تستحق الاهتمام . وما تزال « تأملاته » التى وضعها وسط ضجيج المعسكر وصخبه باقية ، بل انه تنازل فأعطى دروسا فى الفلسفة بطريقة علنية أعم وأكثر مما قد يتفق مع تواضعه بوصفه حكيما ، أو مع وقاره بوصفه امبراطورا . ولكن حياته كانت أنبل تعبير عن نواميس زينون مؤسس المدرسة الرواقية ـ القرن الرابع ق.م. لقد كان عنيفا مع نفسه ، متسامحا مع عيوب الآخرين ، عادلا خيراً مع جميعهم . وكم أسف وحزن لأن أفيديوس كاشيس الذى أثار تمردا فى سوريا مات طواعية واختيارا ، فحرمه بذلك مما يجد من لذة وسرور فى تحويل عدو الى صديق ، وأكد صدق عواطفه بالتخفيف من حدة السناتو بازاء أتباع الخائن . وكره الحرب باعتبارها كارثة الطبيعة البشرية والعار اللاصق بها ، ولكن عندما دعا داعى الحرب الى امتشاق الحسام من أجل دفاع عادل ، بادر على الفور فقاد بنفسه ثمانى حملات فى الشتاء على ضفاف الدانوب المتجمدة ، مما لم تحتمل بنيته الضعيفة قساوتها ، فقضى فيها نحبه . وقد مجدت الأجيال الشاكرة العارفة لفضله ذكراه . واحتفظ كثير من الناس ، لأكثر من قرن من الزمان بعد موته ، بصورة ماركوس أوريليوس بين صور آلهتهم المحليين .

***

تحدي النظام القديم

الفصل الرابع
(١٨٠ - ١٩٢ م)

عصر كومودس

كان اعتدال ماركوس الذى لم تجد المبادىء الرواقية الصارمة فى اقتلاعه منه ، يشكل فى نفس الوقت أحب الجوانب فى خلقه والنقيصة الوحيدة فى شخصيته . وكان قلبه الطيب الذى لا يميل الى الشك ، كثيرا ما يخدع ادراكه الممتاز . واتصل به نفر من الدهاة المحتالين الذين يدرسون هوى الأمراء ، ويخفون مشاعرهم هم أنفسهم ، متنكرين فى طهارة الفلسفة وقداستها ، ينشدون الثروة والمجد عن طريق التظاهر باحتقارهما والتعفف عنهما . وتجاوز افراطه فى التسامح مع أخيه وزوجه وابنه حدود المعاملة الطيبة اللائقة بهم ، حتى صار اساءة عامة شاملة ، لأن رذائلهم أصبحت نموذجا يحتذى ، وكانت لها نتائج وبيلة .

واشتهرت فوستينا ، ابنة بيوس وزوجة ماركوس بغرامياتها ومجونها قدر ما اشتهرت بجمالها . وقدر خطأ أن ما فى الفيلسوف من بساطة وقورة رزينة قد تشغل وتغطى رعونتها الطاغية ، وتكبح جماح اللهفة غير المحدودة على التغيير والتنوع ، وهى نزوة كثيرا ما تكتشف جدارة خاصة فى أحط بنى البشر . وكان كيوبيد الأقدمين الها عاطفيا عامة ، أما عشاق الامبراطورة ، الذين توددت هى اليهم وارخصت نفسها لهم فقلما كانوا يستشعرون أية لذة عاطفية . وكان ماركوس الشخص الوحيد فى الامبراطورية ، الذى يبدو أنه كان جاهلا أو غير شاعر بمساوىء فوستينا التى كانت — كما هو مألوف فى كل عصر — تعكس العار والفضيحة على الزوج المنكوب . ورقى ماركوس نفرا من عشاقها الى مراكز تضفى شرفا ومجدا وتدر مالا . ولم ينقطع عن أن يقدم لها طيلة ثلاثين عاما الدليل تلو الدليل على ثقته الكريمة بها واحترامه لها ، وهو احترام لم ينته بوفاتها ، ففى « تأملاته » نراه يشكر الآلهة التى وهبته زوجة مخلصة وديعة

متحلية بمثل هذه البساطة فى سلوكها (١) . وأعلن السناتو الخنوع بعد توسل حار منه وضعها فى مصاف الآلهة . وكانت تمثل فى معابدها بصور جينو وفينوس وسيريز Ceres . وتقرر أن يقسم الشباب من الجنسين ، عند الزواج يمين الوفاء أمام مذبحها بوصفها حاميتهم أو حارستهم العفيفة الطاهرة .

والقت رذائل الابن الرهيبة ظلالا على نقاوة فضائل الوالد . وقد أخذ على ماركوس أنه ضحى بسعادة الملايين فى سبيل التحيز الجارف لولد غير أهل له ، وأنه اختار خليفة له فى أسرته هو ، لا فى الجمهورية ، ومهما يكن من أمر ، فان الوالد القلق ورجال العلم والفضل الذين أهاب بهم لمساعدته ، لم يدخروا جهدا فى تعليم كومودس وتوسيع مداركه الضيقة ، وفى تقويم رذائله الناشئة ليجعلوا منه شخصا جديرا بالعرش الذى أعد له . ولكن قل أن تكون قوة التوجيه والتعليم ذات فعالية كبيرة الا مع الميول والاستعدادات الطيبة حيث يكون التعليم نافلة لمجرد التزويد . ومن ثم فان الدرس الكريه الذى كان يلقيه الفيلسوف الجاد سرعان ما كانت تمحوه وتطمسه فى لحظة واحدة همسات أقران السوء . وقد أفسد ماركوس نفسه ثمار هذا التعليم الذى جهد وكد فيه ، حين أشرك ابنه فى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، اشراكا تاما فى السلطة الامبراطورية . وعاش بعد ذلك أربعة أعوام ، ولكنه فى الواقع قضى وقتا كافيا يعض بنان الندم على الخطوة الطائشة التى قفزت بابنه الشاب المتهور عن حدود العقل وقيود السلطة .

ان معظم الجرائم التى تعكر صفو الأمن الداخلى فى المجتمع تنجم عن القيود التى فرضتها قوانين الملكية ، تلك القوانين الضرورية غير المتكافئة مع شهوات الانسان ، وهى قيود تخص القلة من الناس بملكية ما تطمع الكثرة فى الاستحواذ عليه أو اقتنائه . ومن بين كل ما تتفتح له الشهية أو تهفو له الشهوة ، قد يكون حب السلطة أكثرها طغيانا وجفاء ، وبعدا عن الروح الاجتماعية . ففى هذه الحالة يتطلب غرور الفرد الواحد خضوع الجماهير ، وفى غمرة الخلافات الداخلية تفقد قوانين المجتمع قوتها . وقل أن تحل محلها قوانين الانسانية . وعندئذ تساعد حدة النزاع وزهو النصر ، واليأس من النجاح ، وذكريات المساوىء والأضرار السابقة ، والخوف من أخطار لاحقة — تساعده هذه

---

(١) لقد سخر العالم من سلامة نية ماركوس . ولكن مدام داسييه Dacier تؤكد لنا (وقد نصدق سيدة !) أن الزوج سيخدع اذا ارتضت الزوجة أن تنافق .

كلها على اثارة العقول وكتم أصوات الرحمة والاشفاق . ومن جراء مثل هذه البواعث تكاد تكون كل صفحات التاريخ ملطخة بدماء الحروب الأهلية . ولكنا لا نجد فى هذه البواعث كلها تفسيرا لفظائع كومودس الذى لم يثر حفيظته شىء ، والذى أوتى كل شىء ، ونعم بكل شىء ، مما ليس بعده زيادة لمستزيد . لقد خلف الابن الحبيب أباه ماركوس وسط هتاف السناتو والجيش ، وجلس الشاب السعيد على العرش فلم ير حوله منافسا يقضى عليه او أعداء ينزل بهم العقاب . وكان منَ الطبيعى حقا فى مثل هذا المركز الرفيع الهادىء أن يؤثر حب الناس على أن يضمر لهم الكراهية والبغض ، وأن يؤثر العظمة الوادعة فى عهد أسلافه الخمسة على المصير الشائن المخزى لنيرون ودوميتيان .

ولكن كومودس لم يكن — كما يصورونه — وحشا ولد وبه ظمأ لا يرتوى قط الى دم البشر ، قادرا منذ نعومة أظفاره على الاتيان بأى عمل غير انسانى . لقد شكلت فيه الطبيعة استعدادا ضعيفا أكثر من أن يكون خبيثا شريرا . وجعلت منه بساطته وجبنه عبدا أسيرا لأتباعه الذين أفسدوا عليه عقله يوما بعد يوم ، فان قسوته التى كانت فى بداية الأمر اطاعة لأوامر الآخرين تحولت الى عادة ، وأصبحت فى النهاية غاية الهوى فى نفسه .

وجد كومودس نفسه ، بموت أبيه ، مثقلا بقيادة جيش ضخم ، وشن حرب ضروس ضد قبائل كوادى Quadi وماركومانى Marcomanni (فى غرب ألمانيا) . وسرعان ما استعاد الشباب الذليل الخليع الذين كان ماركوس قد أقصاهم ، مكانتهم ونفوذهم لدى الامبراطور الجديد ، فهولوا وبالغوا له فى أمر المشاق والمخاطر المتوقعة فى حملة فى بلاد متوحشة وراء الدانوب ، وأكدوا للأمير الكسول الخامل أن الرعب الذى يبثه اسمه فى النفوس وأسلحة قواده كافية لاتمام غزو هؤلاء المتبربرين المرتعبين ، أو لاقرار الأمور بشكل أكثر جدوى من الغزو والحرب . وأثاروا نزواته الشهوانية بطريقة ماهرة ماكرة ، ثم قارنوا له بين الهدوء والأبهة وصفو المسرات فى روما وبين الصخب فى معسكر بانونيا حيث لا فراغ ولا ترف . وأصغى كومودس الى هذه النصيحة السارة ، وفيما هو متردد بين ميله الخاص وبين الرهبة التى كان لا يزال يحتفظ بها لمستشارى أبيه ، ولى الصيف دون أن يحس ، وتأجل دخوله الظافر الى العاصمة الى الخريف . ونال حظوة الجماهير لرشاقته وتلطفه المحبوب وفضائله الموهومة وعم الفرح بالصلح المشرف الذى تفضل به على المتبربرين . واعتز

الناس بأن ينسبوا تلهفه على العودة الى روما الى حبه لبلاده . أما لهوه الفاجر فقد انكروه انكارا خافتا على أمير فى سن التاسعة عشرة .

وفى السنوات الثلاث الأولى من حكم كومودس احتفظ المستشارون الأمناء الذين كان ماركوس قد أوصاهم بابنه ، بكل أشكال الادارة السابقة ، بل حتى بروحها كذلك ، وكان كومودس لا يزال يحتفظ فى غضاضة ، بشىء من التقدير لهؤلاء المستشارين وحكمتهم ونزاهتهم وتمرغ الأمير الشاب وخلصاؤه الفجار وعربدوا فى بحبوحة الملكية وسلطانها ، ولكن يديه لم تلطخا بعد بالدماء ، بل انه أظهر من كرم العاطفة ما كان يحتمل أن يتأصل حتى يصبح فضيلة راسخة ، ولكن حادثا فظيعا حسم له شخصيته المتقلبة .

فى ذات مساء ، بينما كان الامبراطور عائدا من المدرج الى قصره ، عبر رواق ضيق مظلم ، اندفع نحوه قاتل كان يرقب مروره ، وبيده سيف مسلول وصاح بصوت عال : « ان السناتو يبعث بهذا اليك » . وحال التهديد دون ارتكاب الجريمة ، وأطبق الحراس على القاتل ، وكشفوا النقاب فى الحال عن مدبرى المؤامرة . ولم تكن المؤامرة من تدبير الدولة ، بل نسجت خيوطها داخل جدران القصر ، ذلك أن لوتشلا **Lucilla** أخت الامبراطور ، وأرملة لوتشيس فيروس ، وهى تتحرق لهفا على المرتبة الثانية فى الامبراطورية ، وغيرة وحقدا على الامبراطورة الحاكمة ، هى التى زودت القاتل بالسلاح للقضاء على أخيها . ولم تجرؤ على أن تطلع على خطتها الرهيبة ، زوجها الثانى كلوديوس بومبيانوس ، وقد كان عضوا فى السناتو ذا مواهب ممتازة وولاء لا يتزعزع ، ولكنها وجدت بين جمهور عشاقها (وكانت تقلد فى ذلك فوستينا) رجالا ذوى مستقبل يائس ومطامع جامحة ، مستعدين لخدمة أهوائها العنيفة والرقيقة فى وقت معا ، وواجه المتآمرون صرامة العدالة ، وعوقبت الأميرة المنبوذة بالنفى أولا ، ثم بالموت أخيرا .

ولكن كلمات القاتل حفرت لها مجرى عميقا فى ذهن كومودس ، وتركت فيه شعورا ثابتا لا يتزعزع بالخوف والكراهية لكل هيئة السناتو . وكانت ثمة طائفة من الوزراء اللجوجين الذين كان يرهب جانبهم ، ونراه الآن يرتاب فيهم على أنهم أعداء مستترون . وكانت هناك جماعة الهمازين المشائين ــ وكانت قد كسرت شوكتهم وثبطت عزائمهم فى العهود الماضية ، ولكنهم وجدوا الفرصة سانحة لرفع رءوسهم واسترداد هيبتهم حين رأوا فى الامبراطور ميلا الى

الكشف عن الخيانة والسخط فى السناتو . وكان هذا المجلس الذى اعتبره ماركوس المجلس الأعلى فى الأمة ، يتشكل من أفاضل الرومان وأكثرهم امتيازا . وسرعان ما أصبح اى امتياز فى اية ناحية جريمة ، وحفز التلهف على الثراء هؤلاء المشائين النمامين الى العمل . فاعتبرت الفضيلة الحقة لوما صامتا لمساوىء كومودس ، والخدمات العظيمة موهبة فائقة تنذر بالخطر ، وصداقة الوالد تحولا عن الابن . وكان مجرد الشك مساويا للدليل القاطع ، والمحاكمة مساوية للادانة . وكان اعدام عضو محترم يستتبع قتل كل من يرثى لمصيره أو يثأر له . وما أن تذوق كومودس طعم الدم البشرى مرة ، حتى بدا عاجزا عن استشعار الرحمة أو الندم .

ومن بين الضحايا البريئة للطغيان كان الحزن اشد ما كان على الأخوين مكسيموس وكنديانوس — من أسرة كونتيليا Quintiiia — اللذين لم يتطرق النسيان الى اسميهما قط ، لما كان يربط بينهما من عرى المحبة الأخوية التى خلدت ذكرهما فى الأجيال اللاحقة . فقد ظلا صنوين فى الدراسة والمهنة والمطالب والمسرات ، وفى ادارتهما لضيعة كبيرة لم يسلما قط بأن لأى منهما فيها مصلحة منفصلة عن مصلحة الآخر ، وما تزال توجد شذرات من رسالة اشتركا فى تأليفها ، وكان ملحوظا فى كل عمل من اعمال الحياة أنهما جسمان تحركهما روح واحدة . وكان الأنطونينيون يقدرون مزاياهما ويبتهجون لاتحادهما ، ولذلك رفعوهما الى مرتبة القنصل فى نفس العام . وعهد اليهما معا ماركوس بعد ذلك بالادارة المدنية فى بلاد اليونان ، وبقيادة حملة عسكرية هامة انتصرا فيها انتصارا مشهودا على الألمان . هكذا اجتمعا فى حياتهما ، حتى جاء كومودس فجمعت قسوته الرحيمة بينهما فى الممات !

وبعد أن سفك كومودس أكرم الدماء فى السناتو ، نكص فى النهاية الى الأداة الرئيسية لقساوته . ذلك أن كومودس غرق فى الدم وانغمس فى اللهو والترف ، وترك أمر الدولة كله بين يدى برنيز Perennis ، وهو وزير ذليل طموح ، قفز الى منصبه بقتل سلفه . ولكنه أوتى حظا وافرا من النشاط والمقدرة . وقد جمع ثروة ضخمة بطريق الاكراه وعن طريق ضياع الأشراف المصادرة والمرهونة اشباعا لجشعه ، وكان الحرس الامبراطورى تحت امرته المباشرة ، وكان ابنه — الذى أظهر فجاة عبقرية عسكرية ، على رأس فرق الليريا Illyria عند ذلك هفت نفس برنيز الى الامبراطورية

او أنه كان قادرا على التطلع اليها ، الأمر الذى بدا فى عينى كومودس انه الجريمة بعينها . فحيل بينه وبين منية نفسه وأخذ على غرة وأعدم . وسقوط الوزير حادث تافه فى التاريخ العام للامبراطورية ، ولكن الذى عجل به هو ظرف غير عادى ، واثبت فعلا الى أى حد تراخت أوصال النظام ، فلم تكن القوات فى بريطانيا راضية عن ادارة برنيز فأرسلوا نيابة عنهم الفا وخمسمائة رجل شخصوا الى روما ليبسطوا شكواهم للامبراطور . واستطاع هؤلاء الشاكون العسكريون — الذين حزموا أمرهم فألهبوا فرق الحرس ، وبالغوا فى قوة الجأش البريطانى ، وأثاروا مخاوف كومودس — استطاعوا ان يطالبوا براس الوزير ، علاجا وحيدا لدرء ما لحق بهم من ضيم وأذى ، وكان لهم ما أرادوا . فكانت جراة هذا الجيش الذى هو فى اقصى الأرض ، وكشفه عن ضعف الحكومة نذيرا أكيدا بأخطر الفتن والاضطرابات .

وسرعان ما افتضح بعد ذلك أمر الاهمال فى الادارة العامة نتيجة اضطراب جديد ، فكان بمثابة نار نتجت عن أصغر الشرر . ذلك هو الهرب من الجيش الذى بدأ يشكل ظاهرة عامة بين القوات ، ولم يلتمس الهاربون النجاة فى الفرار أو الاختفاء ، بل انهم قطعوا الطرق العامة واعملوا السلب والنهب . وجمع ماترنوس Maternus وهو جندى خاص ذو جراة نادرة تفوق مركزه — جمع هذه العصابات من اللصوص وكون منها جيشاً صغيراً ، وفتح أبواب السجون ، ودعا العبيد لاعلان حريتهم ، وعاث فسادا ونهبا ، دون حسيب أو رقيب ، فى المدن الغنية العزلاء فى الغال واسبانيا . واخيرا ، وازاء تهديدات الامبراطور ، أفاق بعد طول تراخ وتقاعس ، حكام الولايات الذين طال وقوفهم موقف المتفرج على هذه الغارات ، ان لم يكن موقف الشريك فيها . ورأى ماترنوس أنه قد أحيط به وانه لابد مغلوب على أمره ، فنثر آخر ما فى جعبته فى محاولة يائسة ، ذلك أنه أمر اتباعه بالتفرق ، وبعبور جبال الألب فى جماعات صغيرة متنكرين فى أشكال مغايرة بعضها لبعض ، والتجمع فى روما ، فى غمرة الهرج والمرج فى عيد القديسة سيبل . وكان اللص العاتى يطمع فى قتل كومودس واعتلاء العرش ، والتأمت خطواته فى براعة ، حتى ملأت قواته بالفعل شوارع روما ، ولكن حقد احد شركائه المتواطئين معه أماط اللثام عن هذا المشروع الشاذ الغريب وحطمه فى اللحظة التى آذن فيها بالتنفيذ .

ومن عادة الأمراء الذين تملأ الريبة والشكوك قلوبهم ، انهم

كثيراً ما يرفعون من مرتبة احط بنى البشر ، حيث يغريهم الوهم بأن هذا الذى لا يعتمد الا على حظوته لدى سيده ، لن يتعلق الا بشخص هذا السيد الذى أكرمه ، ولن يحب الا اياه . ومن هنا نرى كلياندر Cleander ، وهو من أهل فريجيا (مملكة قديمة وسط آسيا الصغرى) ، وكان فيهم من الخسة والعناد ما لا يجدى معه الا كيل الضربات لهم . وارسل كلياندر من موطنه الى روما بوصفه عبدا . والتحق بالقصر الامبراطورى بهذه الصفة ، ووضع نفسه رهن اشارة سيده ، وسرعان ما قفز الى أعلى مرتبة يمكن ان يحظى بها واحد من الرعية ، وكان تسلطه على عقل كومودس أقوى بكثير من نفوذ سلفه ، لأن كلياندر لم يكن له من المقدرة أو المزايا ما يثير حفيظة كومودس أو يزعزع ثقته فيه . وكان الشره هوى نفسه وأساس ادارته . وكانت وظائف القناصل والنبلاء ، وعضوية السناتو ، مفتوحة للبيع والشراء . وكان الامتناع عن شراء هذه الأمجاد العقيمة المهينة بأكبر جزء من الثروة يعتبر ضربا من النفور والبغض . وكان الوزير يشارك الحاكم فيما يغنمه من الشعب فى الوظائف والأشغال التى ندر ربحا . وكان تنفيذ القوانين أمرا تعسفيا تتدخل فيه الرشوة ، وكم استطاع المجرم الثرى ، لا مجرد الغاء الحكم الذى صدر عليه عدلا وحقا فحسب ، بل كذلك انزال اى عقاب تطيب له نفسه بمن اتهمه وبالشهود وبالقاضى .

وبهذه الوسائل استطاع كلياندر فى سنوات ثلاث ، ان يجمع من الثروة أكثر مما تيسر لعبد معتق قط . وكان كومودس راضيا غاية الرضا بالهدايا الفاخرة التى كان نديمه يضعها تحت قدميه فى انسب الأوقات . وليحول كلياندر عن شخصه نظرات الشعب الحاقدة الحاسدة ، شيد باسم سيده ، الحمامات والأروقة والملاعب لخدمة الجمهور ، وكان يمنى نفسه بأن الرومان المبهورين المتلهين بهذا السخاء الظاهر ، لابد أن يكونوا اقل تأثرا بالمشاهد الدموية التى تقع تحت بصرهم كل يوم ، وان ينسوا موت بيرتس Byrthus ، وكان شيخا فى السناتو ، زوجه الامبراطور احدى بناته جزاء مواهبه الفائقة ، وان يصفحوا عن اعدام آريوس انطونينوس آخر من مثل اسم الأنطونينيين وشمائلهم الطيبة . وكان الأول قد حاول فى نزاهة اكثر منه فى حزم ، أن يظهر صهره على حقيقة شخصية كلياندر . وكان الثانى ، وهو يشغل وظيفة البروقنصل فى آسيا ، قد أصدر حكما ضد مخلوق تافه من رجال صاحب الحظوة (يقصد كلياندر) ، فكان فى اصدار الحكم قضاء عليه هو نفسه . وبعد سقوط برنيز

اتخذت فظائع كومودس ، لفترة قصيرة ، مظهر الرجوع الى الفضيلة ، حيث نقض أشنع تصرفاته ، وحشا ذاكرته بلعنات الجمهور ، ونسب الى هذا الوزير ونصائحه الخبيثة كل الأخطاء التى ارتكبت عندما كان الامبراطور شابا يافعا غير محنك . ولكن ندمه لم يدم أكثر من ثلاثين يوما ، وكثيرا مابات عهد برنيز أمرا مبكيا مأسوفا عليه ، الى جانب طغيان كلياندر .

وبلغ الطاعون والقحط بروما اقصى ذروة الكارثة . وعزى الأول — الطاعون — الى سخط الآلهة فقط ، أما المجاعة فقد اعتبر السبب المباشر لها ، احتكار القمح بعون من الوزير وثروته وقوته . عندئذ انفجر السخط عاليا بين الجموع فى الميادين ، بعد أن ظل طويلا لا يعدو أن يكون همسا هنا أو هناك . وعزف الناس عن مسراتهم المفضلة الى مسرة ألذ وأشهى وهى الانتقام ، واندفعت جموعهم الى قصر فى الضواحى ، كان يقضى فيه الامبراطور خلواته ، وطالبوا فى صيحات غاضبة برأس عدو الشعب . فأمر كلياندر ، بوصفه قائد الحرس البريتورى ، فرقة من الفرسان بالاسراع الى مهاجمة الجموع المتمردة وتفريقهم . واندفعت الجموع هاربة الى المدينة ، وذبح كثيرون ومات أكثر منهم تحت الأقدام ، ولكن عندما دخل الفرسان المدينة عاق تقدمهم فى شوارعها وابل من الحجارة والنبال أمطروا به من سطوح المنازل ونوافذها ، وانحاز الى جانب الشعب الحراس المشاة الذين كانوا من قديم ينقمون على الفرسان امتيازاتهم ووقاحتهم . واصبح الهياج عاما شاملا ، وأنذر بمذبحة عامة . واستسلم الفرسان آخر الأمر ، وقد غلبتهم الكثرة ، وعادت ثورة الشعب أشد عنفا ، واندفع الناس الى أبواب القصر الذى قبع فيه كومودس غارقا فى ألوان الترف ، وكأنه الوحيد الذى لم يدر من أمر الحرب الأهلية شيئا . وكان شبح الموت يقترب من شخصه بهذه الأنباء السيئة . وكاد الهلاك يكون مصيره ، وهو مستلق فى مأمنه لولا أن امرأتين — فادلا Fadille أخته الكبرى ومارتشيا Marcia احب خليلاته اليه — تجاسرتا فاقتحمتا عليه الباب ، وارتمتا تحت قدميه وقد خنقتهما العبرات ، وشعث شعر رأسيهما ، وبكل ما أوتيتا من فصاحة أملاها منطق الفزع ، كشفا للامبراطور المرتعب عن جرائم الوزير ، وغضب الشعب ، والخراب المحدق الذى قد يحيق فى بضع دقائق ، بقصره وشخصه . وفاق كومودس من سكرته وأمر بأن تلقى رأس كلياندر الى الشعب ، وهدأ المشهد المأمول — مشهد رأس الوزير — من سورة الهياج ، وربما كان فى مقدور ابن ماركوس بعد ، أن يستعيد ثقة رعاياه به وحبهم له .

ولكن كل أحاسيس الفضيلة والانسانية كانت خامدة فى نفس كومودس . فانه فى الوقت الذى ترك فيه مقاليد الأمور لهؤلاء المقربين غير الجديرين بشىء ، نراه لم يقدر من قوة السيادة شيئا أكثر من حرية الانغماس بلا حدود فى ملذاته الشهوانية . فكان يقضى ساعاته فى بيت الحريم الذى يضم ثلاثمائة من جميلات النساء ، وكثيرا من الغلمان من كل مرتبة ومن كل ولاية ، وحينما لم تجد كل أفانين الاغواء والاغراء ، لجأ الوحش العاشق الى استعمال العنف . وكم أسهب وأفاض المؤرخون القدامى فى ذكر مثل هذه المشاهد المقوتة من العهر والفجور ، تلك المشاهد التى لم ترع حرمة لأية ضوابط من الطبيعة أو من الاحتشام ! . ولكن ليس من اليسير أن نترجم أوصافهم الأمينة الدقيقة فى وقار لغتنا الحديثة . وكانت أوقات اللهو تعج بأحط الوان التسلية . ولم يفلح قط أثر أى عصر مهذب أو أية تربية يقظة فى صب أبسط قطرة من العلم فى مخه البهيمى الغليظ . وكان أول امبراطور رومانى لم يتذوق لذة المعرفة . لقد تفوق نيرون نفسه ، أو تظاهر بأنه متفوق ، فى فنون الموسيقى والشعر الجميلة ، وليس لنا أن ننتقص من قدر تطلعاته ، لولا أنه حول لذة الراحة فى ساعات فراغه الى الأعمال والأطماع الرهيبة لحياته . ولكن كومودس ، منذ صباه المبكر ، تبين فى نفسه نفورا شديدا لكل ما هو معقول أو كريم ، وتعلقا شديدا بالتسلية والمسرات الشعبية ، مثل ألعاب السيرك والمدرجات المجالدة وصيد الوحوش . وكان يستمع الى المعلمين الذين رتبهم له أبوه فى مختلف الفروع ، فى شرود وضجر ، على حين وجد فيه العرب والبارثيون الذين كانوا يدربونه على الرماية بالقوس والنشاب ، تلميذا فرحا مبتهجا بعمله ، سرعان ما تعادل مع أمهرهم فى ثبات العين وخفة اليد .

وكان الجمهور الخنوع الذى اعتمد مصيره على رذائل سيده ، يصفق ويهلل لهذه التصرفات الشائنة . وأعاد صوت الملق الغدار الى ذاكرته أن هرقل الاغريقى حظى بمكان بين الآلهة ، وبذكرى خالدة بين الناس ، يمثل هذه المآثر ، وبقهر أسد نيميا (واد فى بلاد اليونان) وبقتل خنزير اريمانثوس البرى . ولكن غاب عن أذهانهم أنه فى العصور الأولى للمجتمع حين كانت هذه الحيوانات المفترسة كثيرا ما تنازع الانسان السيطرة على الأرض غير المسكونة ، كان النزال مع هذه الوحوش يعتبر من أنبل الأعمال البطولية البريئة النافعة ، أما فى حالة الامبراطورية الرومانية المتحضرة ، فان هذه الحيوانات المتوحشة

قد ولت الأدبار من وجه الانسان ومن الأماكن المجاورة للمدن الآهلة بالسكان . أما مفاجأة هذه الحيوانات فى مأواها المنعزل وحملها الى روما ليذبحها الامبراطور بيده وسط مظاهر الأبهة والعظمة ، فكانت عملا سخيفا من جانب الامبراطور ، صعب الاحتمال على الشعب (١) . وجهلا منه بهذه الفوارق ، عمد كومودس الى التشبه بهذا المجد ، ولقب نفسه (كما نقرأ حتى اليوم على أوسمته) « بهرقل الرومان » . ووضع الهراوة وجلد الأسد الى جانب العرش وسط الشعارات الملكية ، وأقيمت التماثيل التى تصور كومودس فى شخصية وفى خواص الاله الذى حاول كومودس فى البرنامج اليومى لمسراته الشرسة — ان ينافسه .

وقرر كومودس — وهو يزهو ويتيه عجبا بهذا المديح الذى قتل فى نفسه كل شعور دفين بالخزى والعار — ان يعرض هذه الألعاب أمام أنظار الشعب الرومانى — وكانت حتى تلك اللحظة ، وقارا واحتشاما منه ، محصورة بين جدران قصره لا يشهدها الا فئة قليلة من المقربين . وجذبت مختلف بواعث الملق والخوف والفضول الى المسرح المدرج جمهورا لا يحصى من المتفرجين وحظيت مهارة الامبراطور الخارقة فى اللعب بشىء من الاستحسان الذى تستحقه . وأينما طعن فى رأس الحيوان أو قلبه كان الجرح محققا مميتا سواء بسواء . وكثيرا ما ضيق كومودس الخناق استعدادا للعمل الخاطف ، وكان يعاجل العنق العظمى الطويل للنعامة ، بسهم صنع راسه على شكل هلال ، فيطرحها الى الأرض ، وكان يطلق سراح نمر ، وينتظر رامى السهم حتى يهجم النمر على مجرم يرتعد فرقا ، وفى اللحظة عينها ينطلق السهم فيردى الحيوان قتيلا ، دون أن يصيب الرجل أى أذى . وكانت حظائر المسرح المدرج تموج على الفور بمائة من الأسود التى صرعتها من نبال كومودس ، وهى تجرى هائجة حول العرين . ولم تحم ضخامة جسم الفيل أو جلد الخرتيت الأحرش هذا او ذاك ضد ضرباته . وجادت أثيوبيا والهند بنتاجهما ، وكم فى المدرج من حيوانات قتلت لم يكن لها اى وجود من

---

(١) كانت الأسود فى افريقيا — اذا عضها الجوع — تغير على القرى المكشوفة والأراضى المنزرعة ، دون حساب . أما حيوان الملك فكان مخصصا لمتعة الامبراطور والعاصمة . وكان الفلاح المنكود يتعرض لعقاب شديد اذا هو قتل واحدا منها ، ولو دفاعا عن نفسه ، وقد خفف هونوريوس من قوانين اللعبة هذه ، ثم الغاها جيستنيان نهائيا .

قبل الا فى تصاوير الفن أو ربما فى الخيال ! (١) . واتخذت فى كل هذه العروض أشد الاحتياطات لحماية شخص « هرقل الرومان » من أية ميتة يائسة من حيوان مفترس قد لا يحسب حسابا لحرمة الامبراطور أو قدسية الاله .

ولكن احط الناس قدرا من بين الرومان كانوا يستشعرون الفضيحة والحطة حين يرون مليكهم يدخل الحلبة بوصفه مجالدا ويتألق فى حرفة دمغتها القوانين والآداب الرومانية بأعدل أمارات العار والفجـور . واختار الامبراطور لنفسه ملابس السكيوتر Secutor وسلاحه ، ذلك الذى يشكل صراعه مع الرتياريوس Retiarius أجمل مناظر الألعـاب الدامية فى المسرح المدرج . وكان السيكوتر بخوذة وسيف وترس ، اما غريمه العارى فكان يتسلح بشبكة كبيرة ورمح ذى ثلاث شعب ، بالأولى يحاول أن يحتبل عدوه ويعرقله ، وبالثانى يفتك به . فاذا أخطأ الرمية الأولى اضطر الى الفرار من تعقب « السكيوتر » له حتى يهيىء شبكته لجولة ثانية . وصارع الامبراطور على هذا النسق سبعمائـة وخمس وثلاثين مرة . وكانت هذه المنجزات المجيدة تسجل بعنايـة ضمن الأعمال العامة للامبراطورية . وحتى لا يترك بابا للسفالة والانحطاط دون أن يطرقه ، كان الامبراطور يتقاضى من الاعتمادات العامة المخصصة للمجالدة راتبا باهظا حتى لقد أصبح ضريبة جديدة شـائنة حقـيرة يدفعها الشعب الرومانى . ومن الميسور أن يذهب بنا الظن الى أن سيد العالم كان فائزا على طول الخط فى هذه المباريات فى المدرج . أما اذا مارس مهارته فى مدرسة المجالدين أو داخل قصره ، فكثيرا ما تشرف منازلوه التعساء بضربة قاتلة من يده ، وبهذا يبصمون ملقهم بخاتم من دمائهم . وعند ذاك كان يحتقر اسم « هرقل » ولم تكن أذناه تطرب الا لاسم بولوس Paulus وهو اسم مجـالد « سكيوتر » مشهور . وكان هذا الاسم محفورا على تماثيله الضخمة ، ومكررا فى الهتافـات الكثيرة للسناتو المهلل الذى يرثى لحاله . وكان كلوديوس بمبيانوس ، زوج لوتشيلا الفاضل هو السناتور الوحيد الذى حافظ على شرف مكانته ، فسمح لأبنائه — بوصفه والدا — بارتياد المدرج حفاظا عـلى سلامتهم ، وأعلن — بوصفه رومانيا — أن حياته تحت تصرف امبراطوره، ولكنه لن يشهد قط ابن ماركوس وهو يمتهن شخصه ووقاره . وأفلت بمبيانوس من غضب الطاغية ، وأوتى من الحظ السعيد ما أمكن معه الابقاء على حياته ، وعلى شرفه .

(١) قتل كومودس الزرافة ، وهى أطول الحيوانات الكبيرة ذوات الأربع وأكثرها وداعة وأقلها نفعـا . ولم تر أوربا هذا الحيوان الغريب الذى يستوطن الأجزاء الداخلية فى أفريقيـا بعد ذلك حتى عهد النهضة وحاول مسيو دى بفو M. de Buffon وصفه فى كتابه « التاريخ الطبيعى » المجلد الثامن ، ولكنه لم يجرؤ على رسم الزرافة .

وبلغ كومودس الآن ذروة الرذيلة والعار . وكان ، وسط تهليل حاشية مرائية متملقة ، عاجزا عن أن يخفى عن نفسه أنه استحق احتقار وبغض أى انسان أوتى ذرة من الفضيلة فى الامبراطورية ، وأهاج روح الشراسة فيه وعيه لهذه الكراهية وحقده على أية شيمة فاضلة ، وتوقعه الحقيقى للخطر ، وعادة القتل التى مارسها فى مسراته اليومية. واحتفظ التاريخ بقائمة من الشيوخ القناصل الذين ضحيت حياتهم على مذبح ريبة الامبراطور الطائشة ، التى كانت تفتش فى لهف زائد عن هؤلاء الأشخاص المنكودين الذين تربطهم صلة القربى ، مهما كانت بعيدة ، بالأنطونينيين ، ولم يفلت منهم حتى الوزراء الذين كانوا أدواته فى جرائمه وفى ملاهيه . وأثبتت قساوته فى النهاية أنها لابد قاضية عليه . لقد سفك أنبل دماء روما دون رقيب أو حسيب ، ولكنه هلك حين تولاه الفزع فأوجس خيفة من معيته ، ذلك أن مارتشيا خليلته المقربة ، واكلكتوس Eclectus حاجبه ، وليتوس Laetus رئيس حرسه ، كل أولئك أزعجهم وأنذرهم مصير أقرانهم وأسلافهم ، ليتفادوا الدمار المحدق بهم فى كل ساعة ، نتيجة نزوات الطاغية المجنونة أو السخط المفاجىء للشعب ، فانتهزت مارتشيا فرصة تقديم جرعة من النبيذ لعشيقها بعد أن عاد متعبا مكدودا من صيد الوحوش . وأوى كومودس الى فراشه ، ولكن بينما كان يتلوى بفعل السم والخمر ، اقتحم غرفته شاب مفتول العضلات — يحترف المصارعة — وقتله خنقا دون مقاومة . ونقل الجثمان سرا خارج القصر ، قبل أن تظهر فى المدينة ، أو حتى فى البلاط أية بادرة من الريبة فى موت الامبراطور ، وهكذا كان مصير ابن ماركوس ، وهكذا كان من السهولة بمكان تحطيم الطاغية البغيض الذى أمعن ، بسلطاته الحكومية المصطنعة ، على مدى ثلاثة عشر عاما ، أمعن فى ظلم الملايين الكثيرة من الرعايا الذين كان الواحد منهم يستوى مع سيدهم فى القوة وفى القدرات الشخصية .

يعتمد جيبون ، فى كلامه عن كومودس ، على الاشاعات المتواترة التى أثارها سلوك الامبراطور ، ولم يكن كومودس رومانيا فى تفكيره ، وقد تحدى الآراء التقليدية عن الحرية . وبدأ يهبط بروما من ذرى شموخها الأصيل . وبوصفه ((هرقل الرومانى)) ، و ((الشمس المشرقة))، تخطى الحدود ووحد الطقوس الوطنية القديمة ، ومهد الطريق لأسرة سيفيروس Severus ، وكان قتلته يمثلون القوات الرجعية . وقدم هؤلاء المتآمرون الملك الى برتيناكس Pertinax وهو سناتور معمر محافظ ، ولكنه قتل بيد الحرس البريتورى بعد أن حاول القيام ببعض الاصلاحات ، وبعد حكم دام ستة وثمانين يوما .

نمو الأوتوقراطية العسكرية
وتدفق الروح الشرقية

الفصل الخامس
(١٩٣ ـ ١٩٧ م)

البريتوريون يبيعون الامبراطورية
قيام سبتيميوس سيفيروس

ان الاحساس بقوة السيف لهو أكثر وأوضح فى المملكة المترامية الأطراف منه فى الجماعة الصغيرة . ولقد حسب أقدر السياسيين أنه ليست هناك دولة تستطيع أن تحتفظ بأكثر من واحد من مائة من أفرادها مسلحين ولكن خاملين لا يعملون ، دون أن ينتابها الارهاق السريع . وقد يكون هذا التقدير النسبى قياسيا ، ولكن رغم ذلك ، يختلف أثر الجيش على بقية المجتمع تبعا لدرجة قوته الايجابية . ولن تتحقق مزايا العلوم العسكرية والنظام العسكرى الا اذا توحد عدد مناسب من الجنود فى هيئة واحدة تحركها روح واحدة . ويكون هذا الاتحاد عقيما اذا قامت عليه حفنة من الرجال ، واذا كان الجيش أضخم من أن يساس صار اتحادا غير عملى ، فان قوة الآلة تتحطم بالصغر المتناهى أو الثقل المفرط فى زباركها سواء بسواء . ولتوضيح هذه الملاحظة ، يكفى أن نشير الى أنه ليس هناك من تفوق القوة الطبيعية ، أو الأسلحة الصناعية ، أو المهارة المكتسبة ، ما يتمكن به رجل واحد من اخضاع مائة من أقرانه اخضاعا دائما ، وسرعان ما يكتشف الطاغية فى مدينة واحدة أو فى اقليم صغير أن مائة من أتباعه المسلحين لن يشكلوا الا دفاعا ضعيفا فى مواجهة عشرة آلاف من المواطنين أو الفلاحين . ولكن مائة الف من جنود أحسن تنظيمهم يمكن أن يسيطروا سيطرة مطلقة على عشرة ملايين من الرعايا ، كما أن عشرة آلاف أو خمسة عشر الفا من الحرس لابد أن يلقوا الرعب فى قلوب أكبر عدد من السكان ازدحم فى شوارع عاصمة ضخمة .

وجدير بالذكر أن هذه العصابات البريتورية — التى كان عنفها الفاجر أول أعراض اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسببه — قل أن بلغت هذا العدد الذى أسلفنا ذكره . وبدأ انشاؤها فى عهد أوغسطس. كان هذا الطاغية الماكر يدرك أن القوانين قد تضفى على ملكه المغتصب لونا ما ، ولكن قوة السلاح وحدها هى التى تستطيع المحافظة عليه ، ولهذا شكل بالتدريج هيئة قوية من الحرس ، على استعداد دائم لحماية شخصه ، وارهاب السناتو ، وتحول اما دون أية بادرة للثورة أو تقوم بسحقها . وميز هذه الفرق المحظية بأجر مضاعف وامتيازات هائلة ، ولكن لما كان مظهرها الرهيب قد يرعب الشعب الرومانى أو يستفزه ، فقد اكتفى بابقاء ثلاث كتائب منهم فقط فى العاصمة ، ووزع الباقى على المدن القريبة فى ايطاليا . ولكن بعد خمسين عاما من السلام والعبودية، اقدم تيبيريوس على اتخاذ اجـراء حاسم كان من شأنه أن يحكم الى الأبد الأغلال فى بلده . ذلك انه تذرع بادعاءات منمقة قوامها الرغبة فى تخليص ايطاليا من عبء الأحياء العسكرية الثقيل بادخال نظام أكثر صرامة فى الحرس ، ومن ثم جمعهم فى روما فى معسكر دائم تم تحصينه بعناية بارعة ، وأقيم فى موقع متحكم .

ومثل هؤلاء الخدم الأشداء ضروريون دوما ، ولكنهم فى الغالب يشكلون خطرا قتالا على عروش الاستبداد. وباقتحام الحرس البريتورى، بهذا الشكل ، على القصر وعلى السناتو ، علمهم الامبراطور كيف يدركون قوتهم ويقفون على ضعف الحكومة المدنية ، وكيف يشهدون مساوىء سادتهم فى احتقار مألوف ، وكيف يطرحون جانبا رهبة التوقير التى لا يبقى عليها فى النفوس نحو القوة المتصورة سـوى البعد والغموض . ووسط الخمول المترف فى مدينة غنية كان شعور الحرس بقوتهم التى لا تقاوم ، يغذى غرورهم ، كما أنه لم يكن من الميسور أن يخفى عليهم أن شخص الملك وسلطة السناتو والخزانة العامة وعرش الامبراطورية ، كل أولئك كان بين أيديهم وتحت تصرفهم . واضطر أكثر الأباطرة حزما واكثرهم استقرارا ، من اجل صرف هذه العصابات البريتورية عن مثل هذه التأملات الخطيرة — اضطر الى مزج الأوامر بالملاطفة والثواب بالعقاب او الى تملق غرورهم والانغماس فى ملذاتهم ، والتغاضى عن مخالفاتهم ، والى شراء اخلاصهم المزعزع بالعطايا السخية التى أصبحت منذ عهد كلوديوس حقا مشروعا لهم عند جلوس امبراطور جديد على العرش .

وحاول المدافعون عن الحرس أن يبرروا بالحجة والبرهان تلك القوة التى قرروها لأنفسهم بحد السيف . فقالوا أن موافقة الحرس

على تعيين الامبراطور ضرورة أساسية بمقتضى أقوم مبادىء الدستور. ومهما كان من أمر اغتصاب السناتو مؤخرا لانتخاب القناصل والقواد والقضاة ، فان هذا الانتخاب كان حقا قديما غير مشكوك فيه للشعب الرومانى . ولكن أين يوجد الشعب الرومانى ؟ لن نجده ، على التحقيق وسط الجمع المختلط من العبيد والغرباء الذى ملأ شوارع روما ، وهم سوقة اذلاء لا روح لهم ولا يمتلكون شيئا . أما المدافعون عن الدولة والذائدون عن حياضها فكانوا يختارون من بين زهرة شباب ايطاليا ، ويدربون على استخدام الأسلحة وممارسة الفضيلة ، ومن ثم كانوا المثلين الأصلاء للشعب ، وخير المؤهلين لانتخاب الرئيس العسكرى للجمهورية . ومهما اعوزت الحكمة والعقل هذه الادعاءات فانه لم يكن من الميسور دحضها ، عندما زاد البريتوريون الأشداء من وزنهم بوضعهم أسلحتهم فى كفة الميزان ، كما فعل المتبربر الذى غزا روما .

لقد انتهك البريتوريون حرمة العرش بتقتلهم برتيناكس شر قتلة ، كما اساءوا الى جلاله بسلوكهم بعد ذلك . وكان المعسكر بلا قائد ، بل ان لاتوس ، الذى كان قد أثار العاصفة زاغ عن السخط العام . ووسط هذه الفوضى الرهيبة ، وفيما كان سلبشيانوس Sulpicianus وهو حمو الامبراطور وحاكم المدينة الذى أرسل الى المعسكر عند أول انذار بالتمرد — يحاول تهدئة سورة الجماهير ، أخرسته العودة الصاخبة لقتلة برتيناكس وهم يحملون رأسه فوق حربة . ولو أن التاريخ قد علمنا ان نلحظ كل مبدأ وكل عاطفة تستسلم لأحكام الطمع العاتية ، الا اننا لا نكاد نصدق أن سلبشيانوس ، فى هذه اللحظات الرهيبة المليئة بالفزع ، كان يمكن أن يتطلع الى عرش تلطخ بدم حديث لواحد من ذوى قرباه الأقربين ومن افضل الأمراء . ولكنه شرع بالفعل فى استخدام الحجة القاطعة ، والمفاوضة من اجل المنصب الامبراطورى ، ولكن واحدا من احزم البريتوريين توقع انهم بمثل هذا التعاقد الخاص قد لا يحصلون على ثمن عادل لهذه السلعة القيمة ، فاسرع الى الأسوار واعلن بأعلى صوته انهم لن يتخلوا عن العالم الرومانى الا لمن يدفع اغلى ثمن فى مزاد عام .

واثار هذا العرض الدنىء ، وهو أوقح ما وصل اليه تطرف السيطرة العسكرية — اثار فى المدينة غما وعارا واستياء عاما ، ووصل فى النهاية الى مسامع ديديوس جوليانوس Didius Julianus وهو سناتور غنى كان منصرفا الى شهوات بطنه ، دون اعتبار لهذه الكوارث العامة . وسهل على زوجه وابنته ومعتقيه واذنابه أن يقنعوه بانه جدير بالعرش ، وناشدوه فى حماس أن ينتهز هذه الفرصة

السعيدة . وأسرع الرجل العجوز العابث الى معسكر البريتوريين ، حيث كان سلبشيانوس لا يزال يفاوض الحرس ، ودخل في المزاد ضده ، من أسفل السور . وأجريت المفاوضات غير اللائقة عن طريق رسل أمناء تنقلوا بالتناوب من طالب الى آخر ، ليبلغوا كلا منهم بالعرض الذى قدمه منافسه . وكان سلبشيانوس بالفعل قد وعد كل جندى بخمسة آلاف درهم (أكثر من مائة وستين جنيها) ، ولكن جوليان المتلهف على المنصب قفز على الفور الى ستة آلاف ومائتين وخمسين درهما (اكثر من مائتى جنيه استرلينى) . وفتحت فى الحال أبواب المعسكر للمشترى ، وأعلن امبراطورا ، وتلقى يمين الولاء من الجنود الذين عادوا الى شيء من الانسانية الى حد أنهم اشترطوا عليه أن ينسى ويغفر لسلبشيانوس منافسته اياه .

وكان حتما على البريتوريين أن ينفذوا الآن شروط البيع . فوضعوا مليكهم الجديد ، الذى خدموه واحتقروه معا ، وسط صفوفهم ، وأحاطوه من كل جانب بدروعهم ، وقادوه فى نظام دقيق لاختراق الشوارع الخالية فى المدينة . وصدرت الأوامر الى السناتو بالاجتماع . ووجد أصدق أصدقاء برتيناكس ، أو الأعداء الشخصيون لجوليان أنه من الضرورى أن يتظاهروا بقدر أكثر من عادى من الرضا بهذه الثورة السعيدة . وبعد أن ملأ جوليان دار المجلس بالجند المسلحين ، أفاض فى الكلام عن الحرية التى اقترن بها انتخابه ، وفى شمائله العالية وفى تأكده التام من تعلق السناتو به. وأظهر المجلس الخنوع (بفتح الخاء) غبطته وغبطة الناس عامة ، وقدموا له ولاءهم ، ومنحوه كل السلطات الامبراطورية على اختلاف أنواعها . وتوجه جوليان فى نفس الموكب العسكرى من السناتو الى القصر ليضع يديه عليه . وكان أول ما استرعى نظره فيه جذع برتيناكس الذى ترك بالقصر والمائدة المتواضعة التى أعدت لعشائه . فنظر الى الواحد دون اكتراث ، والى الآخر باحتقار ، ثم أعدت ، بناء على أوامره ، وليمة فاخرة ، ثم تسلى الى ساعة متأخرة من الليل بلعب النرد وبمشاهدة الراقصة الشهيرة بيلادس Pyledes . على أنه لوحظ أنه ، بعد أن انصرف حشد المتملقين وتركوه للظلام والوحدة والتأمل الرهيب ، قضى ليلة لم يذق فيها طعم النوم ، ومن المحتمل أنه أخذ يقلب فى نفسه حماقته المتهورة ، ومصير سلفه الفاضل ، وحق التملك الخطير المشكوك فيه لامبراطورية، ذلك الحق الذى لم يكسبه عن جدارة ، بل اشتراه بالمال .

وحق له أن ترتعد فرائصه ، فقد وجد نفسه على عرش العالم وحيدا بلا صديق أو حتى مرافق ، بل ان الحرس أنفسهم عراهم الخجل من

الأمير الذى أغراهم جشعهم بقبوله ، كما أنه لم يكن ثمة مواطن لم ينظر بعين الجزع الى اعتلائه العرش على أنه آخر وصمة لاسم الرومان . أما الأشراف الذين اقتضت مكانتهم البارزة وثروتهم الطائلة أشد الحرص ، فقد وضعوا كبرياءهم فى جيوبهم وتصنعوا عواطفهم وقابلوا ما تظاهر به الامبراطور من لطف ورقة بابتسام الرضا وبما يقتضيه المقام من واجب الحفاوة . أما الشعب فقد وجد فى كثرة عدده وخمول ذكره مأمناً للتنفيس الحر عما يجيش فى صدره . ورددت الشوارع والمحال العامة فى روما صدى الصيحات واللعنات ، وجابه الشعب الحانق جوليان بالاساءة وأبوا عليه سخاءه ، وادراكا منهم لنهاية استيائهم ، استدعوا علانية فرق الحدود لتؤكد جلال الامبراطورية الذى انتهك وأسىء اليه .

أعلنت قوات بانونيا Pannonià سبتيميوس سيفيروس Septimius Severus امبراطورا ، فعبر الألب ، وأقره السناتو على العرش ، ثم أعدم جوليانوس . وهزم سيفيروس منافسيه المطالبين بالعرش وهما بسكنيوس نيجر Pescennius Niger حاكم سوريا ، وألبينوس Albinus حاكم بريطانيا .

سبتيميوس سيفيروس

ان المصلحة الحقيقية لأى حاكم مطلق لتتفق بصفة عامة مع مصلحة شعبه ، فان أعدادهم وثروتهم ونظامهم وأمنهم لهى أفضل الأسس ، وهى الدعائم الوحيدة لعظمته الحقيقية . واذا كان مجردا من الفضيلة ، فان الحزم قد يعوض عنها ، وقد فرض نفس قواعد السلوك . واعتبر سيفيروس الامبراطورية الرومانية ملكا خاصا له ، فما أن استتب له الملك حتى أولى هذا الملك العظيم عنايته لاصلاحه وتحسينه ، وسرعان ما صححت القوانين الصالحة التى نفذت فى عزم لا يلين ، معظم المساوىء التى انتابت — منذ موت ماركوس — كل ناحية فى الحكومة . وفى ولاية القضاء تميزت أحكام الامبراطور بالتبصر والفطنة وعدم التحيز ، وما انحرف يوما عن الطريق المستقيم للعدالة الا كان هذا بصفة عامة مجاملة للفقراء والمظلومين ، ولم يكن فى الحقيقة صادرا عن معنى من معانى الانسانية أكثر منه عن ميل طبيعى فى الحاكم المطلق لبذل غرور العظمة ، ويهبط بجميع رعاياه الى نفس المستوى العام من التبعية

المطلقة . وكان تذوقه الباهظ الثمن لاقامة المبانى والحفلات الفخمة ، وفوق كل شيء توزيعه المستمر السخى للغلال والمؤن — كل أولئك كان أنجح الوسائل الأكيدة لانتزاع حب الشعب الرومانى له وتعلقه به . وزالت مساوىء الفتن الأهلية . ونعمت الولايات مرة أخرى بهدوء السلام والازدهار . واستردت أريحية سيفيروس وسخاؤه كثيرا من المدن ، فدخلت فى عداد مستعمراته ، وأظهرت اغتباطها وامتنانها بما شيد من آثار عامة . وأحيا ذلك الامبراطور المحارب الموفق شهرة القوات الرومانية ، وكان يزهو بحق بأنه تسلم الامبراطورية منهوكة بالحروب الخارجية والمحلية ، ثم خلفها مستقرة فى سلام تام شامل مشرف .

وبدا أن كل جراح الحرب الأهلية قد التأمت تماما ، ولكن سمومها القاتلة كانت لا تزال تكمن فى جوهر الدستور . ولقد أوتى سيفيروس قدرا كبيرا من العزم والقدرة ، ولكن جرأة القيصر الأول أو عمق سياسة أوغسطس لم تتكافأ مع مهمة الحد من وقاحة القوات المنتصرة وصلفها . وأغرى سيفيروس بارخاء قبضة النظام والتخفيف من قيوده ، اما عرفانا للجميل ، أو نتيجة لسياسة مضللة ، أو لما بدا أنه ضرورة حتمية . وأشبع غرور جنوده وزاد زهوهم بما تحلوا به من خواتم من ذهب ، واكتملت أسباب الراحة بالترخيص لهم بالعيش مع زوجاتهم داخل الثكنات فى دعة وخمول ، ورفع رواتبهم فوق ما كانت عليه من قبل . وعلمهم أن يتوقعوا — وسرعن ما طالبوا — بعطايا غير عادية فى أية مناسبة عامة ، احتفالا كانت او خطرا داهما . والآن وقد انتفخت أوداجهم بما أصابوا من نجاح ، ووهنت عزائمهم بما أترفوا فيه ، ورفعتهم امتيازاتهم الخطيرة فوق مستوى أفراد الرعية ، فقد أصبحوا عاجزين عن احتمال أى جهد عسكرى ، كما أصبحوا عالة على البلاد مرهقين لها ، وضاقوا ذرعا بأية تبعية عادلة معقولة . وأكد ضباطهم سمو الرتبة بالاسراف فى الكماليات والأناقة . وهناك رسالة ما تزال باقية من رسائل سيفيروس ، يرثى فيها لحالة الفوضى نتيجة لسيطرة الجيش ، ويحض فيها أحد قواده على المبادرة بالاصلاح الضرورى ابتداء من التريبون نفسه ، حيث — كما لحظ بحق — أن الضابط الذى يفقد مكانته ويمتهن كرامته لا يستطيع أن يفرض طاعته على جنوده . ولو استرسل الامبراطور فى تأملاته لتبين له أن السبب الأساسى فى هذا الفساد العام ، ربما كان راجعا ، لا الى القدوة (الضابط) فى الواقع ، بل الى التسامح المعيب الخطير من جانب القائد الأعلى نفسه ، على أية حال .

ونال البريتوريون الذين قتلوا امبراطورهم وباعوا امبراطوريتهم جزاء عادلا لقاء خيانتهم فسرعان ما وضع سيفيروس لنظام الحرس ، ذلك النظام الضرورى رغم خطورته ، أساسا جديدا . وزاده الى أربعة أمثال عدده القديم . وكانت فرق الحرس تجند قديما فى ايطاليا ، ولما تشربت الولايات المجاورة شيئا فشيئا أساليب روما ، التى هى اكثر رقة ونعومة ، امتد تجنيد هذه الفرق الى مقدونيا ونوريكوم Noricum (جزء من النمسا الحالية) . واسبانيا وقرر سيفيروس ، بالنسبة لهذه الفرق الأنيقة التى كانت أليق بأبهة البلاط منها بالاستخدام فى الحرب ، قرر أن يختار بين الحين والحين ، من بين قوات الحدود أكثر الجنود امتيازا لقوتهم وبسالتهم واخلاصهم ، ويرقوا الى صفوف الحرس ، وهى أليق بهم ، تشريفاً ومكافأة لهم . وبهذا النظام تحول الشباب الايطالى عن خدمة الجيش واستعمال السلاح، وروعت العاصمة بجموع المتبربرين وبسلوكهم ومناظرهم الغريبة ، ولكن سيفيروس كان يعلل النفس بأن قوات الجيش سوف تعتبر أن هؤلاء البريتوريين المختارين يمثلون التشكيل العسكرى بأسره ، وأن العون الحالى الذى يتألف من خمسين ألفاً متفوقين فى السلاح والرواتب (من الحرس) على أية قوة يؤتى بها الى الميدان ضدهم ، لابد أن يقضى الى الأبد على اى أمل فى العصيان ، ويؤمن الامبراطورية له ولذريته من بعده .

وسرعان ما أصبحت قيادة هذه الفرق ذوات الحظوة والبأس المنصب الأول فى الامبراطورية. فلما انحدرت الحكومة الى استبدادية عسكرية. وضع قائد البريتوريين — الذى لم يكن فى الأصل الا نقيبا فى الحرس ، وضع — لا على رأس الجيش فحسب ، بل على رأس الخزانة والقانون كذلك . ومثل فى كل أقسام الادارة شخص الامبراطور ومارس سلطاته. وكان بلوتيانوس Plautianus — الوزير الأثير المقرب الى سيفيروس — أول قائد تمتع بهذه السلطة الواسعة واستغلها أسوأ استغلال ، طيلة عهده الذى دام اكثر من عشر سنوات ، حتى زوج ابنته من أكبر أبناء الامبراطور ، وكان يبدو أن فى هذا الزواج ضمانا لحسن مستقبله ، ولكن ثبت انه كان ايذانا بسقوطه (١) وأهاجت أحقاد القصر أطماع بلوتيانوس وأثارت مخاوفه ، ومن ثم هددت باحداث ثورة ، وأجبرت الامبراطور الذى لا يزال يحبه على الموافقة على قتله ، على غير رضا

---

(١) من أكثر تصرفاته نزقا وجرأة خصى مائة من أحرار الرجال الرومان ، فيهم المتزوج وفيهم رب الأسرة لا لشيء الا أن يكون فى ركاب ابنته عند زواجها من الامبراطور الصغير حاشية من « الخصيان » ، مما هو جدير بملكة شرقية .

منه . وبعد موت بلوتيانوس عين المحـــامى العظيم المشهـــور بابنيان Papinian فى المنصب الزاهى ، منصب رئيس الحرس البريتورى .

والمشاهد انه حتى عصر سيفيروس تميزت فضيلة الأباطـــرة ، أو حسن ادراكهم باحترامهم الحقيقى أو المصطنع للسناتو ، وفى الرعايـــة الكريمة للاطار الجميل للسياسة المدنية التى وضعها أغسطس . ولكن سيفيروس كان قد درج طوال سنى شبابه على الطاعـــة العمياء فى المعسكرات ، وقضى أعوامه الاكثر نضوجا فى استبداد القيادة العسكرية، فلم تستطع روحه المتعالية العنيدة أن تكتشف ، أو قل لم تعترف ، بميزة الابقاء على قوة وسط ، مهما كانت صورية ، بين الامبراطور والجيش . فاحتقر أن يعترف بأنه خادم لمجلس أضمر البغض لشخصه على حين كانت ترتعد فرائصه فرقا لمجرد عبوسه ، فأصدر الأوامر حيثما ثبت أنها تقضى مآربه . وسلك سلوك الملك والفاتح ونهج منهجهما ، ومارس دون استخفاء السلطتين التشريعية والتنفيذية معا .

وكان الانتصار على السناتو أمرا ميسورا تافها معيبا لا يتسم بأى مجد ، ألم تكن كل العيون وكل الأحاسيس موجهة الى الحاكم الأعلى الذى تملك الجيش والمال فى الدولة ؟ على حين أن السناتو الذى لم ينتخبه الشعب ، ولم تحمه القوات العسكرية ، ولم تنعشـــه الروح العامة ــ هذا السناتو اقام سلطته المتداعية على اساس واه محطم من وضعه القديم ؟ واختفت النظرية الجميلة عن الجمهورية بطريقة غير محسة واخلت مكانها لمشاعر الملكية ، وهى مشاعر طبيعيـــة أساسية الى حد أكبر . ولما أسبغت حـــرية روما وامجادهـــا تباعـــا عـــلى الولايات ، حيث كانت الحكومة القديمـــة غـــير معـــروفة ، أو كان ذكرها يقترن بالمقت والذم ، محيت معها تدريجـــا كل تقاليد المبادىء الجمهورية ، ويلاحظ المؤرخون اليونانيـــون فى عصر الأنطـــونينيين ، فى اغتباط خبيث ، أن ملك روما ــ على الرغم من أنـــه ، مســـايرة لهوى مندثر ، كان يجفل من لقب الملك ويتورع عنـــه ــ لكنه مـــع ذلك ، كان يتمتع بالسلطة الملكية فى أبعد حدودها . وامتلأ مجـــلس السناتو على عهد سيفيروس بعبيد فصحاء مصقولين جاءوا من الولايات الشرقية ، وبرروا الملق الشخصى بمبادىء نظرية نبعت من العبوديـــة . وغرح البلاط ، على حين كان الشعب ينفد صبره عند الاستماع الى هؤلاء المدافعين الجدد عن الامتيازات ، حين كانوا يقررون واجب الطاعة العمياء، ويسهبون القول فى المساوىء المحتومة للحرية. واتفق المحامون والمؤرخون على تلقين الناس أن الامبراطور لم يتول الســـلطة نتيجـــة لتفويضه بهذه المهام ، بل نتيجة الاستسلام القاطع والتنازل التام من

جانب السناتو . وبأنه متحرر من قيود القوانين المدنية ، وبأنه يستطيع التصرف فى حياة رعاياه وثرواتهم ، والتخلص من الامبراطورية كما لو كانت ميراثا خاصا له . وترعرع ابرز هؤلاء المحامين المدنيين ، وخاصة بابنيان ، ويولوس وألبيان فى ظل بيت سيفيروس . وقد افترض أن الفقه الرومانى بلغ غاية النضج والكمال ، منذ أن ارتبط ارتباطا وثيقا بنظام الملكية .

وغفر معاصرو سيفيروس له ضروب القسوة التى استهل بها عهده، حين نعموا بالسلم والمجد بعد ذلك . ولكن الأعقاب الذين خبروا الآثار الفتاكة لمبادئه ولمن حذا حذوه ، اعتبروه ، حقا وعدلا ، «المنشىء» أو المخطط الأساسي لاضمحلال الامبراطورية الرومانية .

الفصل السادس
(٢١١ ــ ٢٢٥ م)

أسرة سيفيروس

كاراكلا وجيتا • ايلاجابالوس الاسكندر سيفيروس

نمو نفوذ المرأة فى البلاط

قد يبتعث ارتقاء سلم المجد ، مهما كان الارتقاء وعرا خطيرا ، فى الانسان روحا وثابة تعى قوتها وتمارسها . ولكن امتلاك عرش ، أى عرش ، لن يستطيع أن يشبع فى النفس الطامحة قناعة دائمة . وقد أحس سيفيروس بهذه الحقيقة المحزنة واعترف بها . لقد سما به حظه ومواهبه من الحضيض الى أسمى مكان بين بنى الانسان ، أو كما قال هو فى نفسه : « لقد كان هو كل شىء ، ولكن ما من شىء كانت له قيمة تذكر » . والآن وقد ساورته الهموم ، لا من أجل الحصول على امبراطورية ، بل من أجل المحافظة عليها ، وأرهقته الشيخوخة والعلل ، وعزف عن الشهرة ، وأتخم بالسلطة ، وضاقت به سبل الحياة . فانه لم يبق من مطامعه ومن حنانه الأبوى الا الرغبة فى الحفاظ على مجد الأسرة وعظمتها أمدا طويلا .

وأولع سيفيروس ــ مثل معظم الأفريقيين ــ بالدراسات العقيمة فى السحر والالهيات . وكان خبيرا عليما بتفسير الأحلام والنذر ، كما كان على دراية تامة بالتنجيم الشرعى ، وكل أولئك كان يتملك عقل الانسان فى كل زمان ، فيما خلا عصرنا هذا . وقد فقد زوجته الأولى عندما كان حاكما على اقليم ليون فى الغال . وجرى فى اختيار زوجته الثانية وراء ارتباط بذات حظ سعيد . وما أن اكتشف أن سيدة شابة من حمص فى سوريا قد خبأت لها النجوم طالعا ملكيا ، حتى أسرع فى التوسل اليها وحظى بالزواج منها . وكانت جوليا دونا Julia Donna.

(وكان هذا اسمها) تستحق كل ما يمكن أن تعد به النجوم ، فقد وهبت ، حتى عندما تقدمت بها السنون ، كل مفاتن الجمال ، وجمعت بين روعة الخيال ورصانة العقل وقوة الحكم ، مما يندر أن يوهب لبنات جنسها . ولم يكن لهذه الصفات الحميدة أثر عميق قط فى المزاج الكئيب الحقود لزوجها . ولكنها على عهد ابنها ، تولت المهـام الرئيسية فى الامبراطورية ، فى فطنة دعمت سلطته ، وفى اعتـدال صحح فى بعض الأحيان من حماقاته الهمجية . وانصرفت جوليا الى الأدب والفلسفة فأصابت فيهما بعض النجاح ، وأحرزت أكبر شهرة . وكانت ترعى كل فن ، وتشجع كل نبوغ ، وكان تملق العلماء لها ، اعترافا منهم بفضلها ، سببا فى تمجيد شمائلها ، ولكن اذا كان لنا أن نصدق افتراء التاريخ القديم ، لكانت العفة أبعد من أن تكون أبرز صفات الامبراطورة جوليا .

وكانت ثمرة هـذا الزواج ولدين هما كاراكـلا وجيتا الوريثـان المحتومان للامبراطورية . وسرعان ما خابت الآمال العريضـة للوالد وللعالم الرومانى فى هذين الشابين العابثين اللذين استناما الى حيـاة الاطمئنان الخامل لأمراء وراثيين ، مفترضين أن الحظ سيعوض عـن الجدارة والمثابرة . وتجردا من المنافسة فى الفضائل أو المـواهب ، ولكنهما اكتشفا ، حتى منذ طفولتهما على الأغلب ، جفوة عاتية راسخة فى الواحد منهما نحو الآخر .

وثبتت السنون جذور الكراهية، وأهاجتها أفانين الخلان المغرضين، حتى انفجرت بينهما منافسات صبيانية ، زادت حدتها على مر الأيام ، مناقشات شطرت المسرح والملعب والسيرك والبلاط الى حزبين تحركهما آمال ومخاوف القائمين على الأمر فى كل منها . وتذرع الامبراطور الرزين بكل ضروب النصح والسلطان ليهدىء من هـذه العداوة المتزايدة . وغشى هذا الخلاف المنكود بين ولديه كل تطلعاته بسحب من الكآبـة ، وهدد بسقوط العرش الذى أقامه بالكثير من الجهد والكد ، ودعمـه بالكثير من الدماء ، وذاد عنه بقوة السلاح والمال . وفى غير ما تحيز ، وحفاظا على التوازن الدقيق بينهما وزع بينهما رعايته وحظوته بالعدل والقسطاس ، فحبا كلا منهما بمرتبة « أوغسطس » مـع الاسم المعظم « أنطونينوس » . وبذلك شهد العالم الرومانى لأول مرة ثلاثة أباطرة فى وقت معا . ومع ذلك فانه حتى هذه المساواة لم تجد الا فى اذكاء النار بينهما ، واستمسك كاراكلا الشرس بحق الابن البكر ، على حين استدر جيتا المعتدل عطف الشعب والجنود ، وفى ألم مبرح تنبأ الوالد اليائس سيفيروس بأن الابن الأضعف سيقع فريسة لابنه الأقوى الذى لابد ، بدوره ، أن يخر صريع رذائله هو نفسه .

وفى تلك الأثناء جاءت أنباء حرب نشبت فى بريطانيا، وغزو المتبربرين فى الشمال لهذه الولاية ، وتلقى سيفيروس هذه الأنباء بسرور ، وصمم ، على الرغم من أن يقظة قواده ربما كانت كافية لصد هذا العدو البعيد ، على انتحال مبرر نبيل لانتزاع ولديه من أحضان الترف فى روما ، ذلك الترف الذى أوهن عقليهما وأثار عواطفهما ، كما صمم على أن يعرك شبابهما ويعودهما على مشاق الحرب والحكم . ورغم تقدمه فى السن (كان آنذاك قد تجاوز الستين) ، ورغم داء النقرس الذى كان يستلزم حمله على محفة — خرج بنفسه الى هذه الجزيرة النائية يتبعه ولداه وكل حاشيته وجيش قوى . واجتاز من فوره أسوار هادريان وأنطونينوس ، ودخل بلاد الأعداء مصمما على اكمال فتح بريطانيا الذى طالما جرت محاولته من قبل . وتوغل الى الطرف الشمالى من الجزيرة دون أن يقابل عدوا . ولكن كمائن الاسكتلنديين Caledonians المختفية التى اطبقت على جناحى جيشه ومؤخرته ، وبرودة الجو ، وقسوة الشتاء الذى حل بتلال اسكتلنده وبطاحها ، كل أولئك ، على ما قيل ، كبد الرومان أكثر من خمسين الفا من الرجال .. واستسلم الاسكتلنديون فى النهاية لهذا الهجوم القوى العنيد ، وتوسلوا للصلح ، وسلموا جزءا من أسلحتهم ورقعة كبيرة من أراضيهم ، ولكن خضوعهم الظاهرى لم يدم لأكثر من فترة أزمة الرعب الراهنة ، وحالما انسحبت القوات الرومانية ، استأنفوا استقلالهم العدائى . وحفزت روحهم القلقة المتبرمة سيفيروس الى ارسال جيش جديد الى كاليدونيا (اسكتلنده) ، مع كل الأوامر المشددة ، لا باخضاع السكان ، بل بابادتهم . ولم ينقذهم الا موت عدوهم المتعجرف .

ولا تستحق منا حرب كاليدونيا اى اهتمام ، حيث لم تتميز بأية أحداث حاسمة ، ولم تنجم عنها أية نتائج هامة ، ولكن المظنون ، مع شىء كبير من الاحتمال ، أن غزو سيفيروس يرتبط بألمع فترة فى التاريخ البريطانى أو الأساطير البريطانية . ويقال ان فنجال Fingal الذى احيا شهرته وشهرة أبطاله وشعرائه فى لغتنا الانجليزية أحد المؤلفات الحديثة . قاد الاسكتلنديين فى هذه الفترة العصيبة المشهورة ، وانه ضلل قوات سيفيروس ، وانه انتصر فى معركة مشهورة على ضفاف نهر كارون ، فر فيها كاراكول ابن « ملك الدنيا » من جيشه الى مراتع زهوه وخيلائه . وما تزال بعض سحائب الشك تعلق بهذه الروايات الاسكتلندية ، ولو انه لا يمكن لأدق النقاد الحديثين نقضها نقضا تاما . ولكن اذا استطعنا أن نسلم مطمئنين بالمزاعم السارة بأن فنجال عاش ، وان أوسيان Ossian أنشد ، فقد يكون فى المفارقة الأخاذة بين موقف

وسلوك الأمتين المتنازعتين بعض التسلية للعقلية الفلسفية . ولن تجدى المقارنة شيئاً لصالح الشعب الذى هو اكثر تحضرا ، اذا قارنا انتقام سيفيروس الشديد بالصفح الكريم من جانب فنجال ، وقسوة كاراكلا الوحشية المتهيبة ، بالشجاعة والوداعة والعبقرية الرقيقة من جانب اوسيان ، والرؤساء المرتزقة الذين خدموا فى ظل الراية الامبراطورية ببواعث من الخوف أو المصلحة ، بالمحاربين الذين ولدوا احرارا الذين هرعوا الى اسلحتهم تلبية لنداء ملك مورفن Morven ، أو بعبارة موجزة اذا تأملنا الأسكتلنديين الجهال وقد تألقوا فى فضائل الطبيعة والفطرة ، والرومان المنحلين وقد تلوثوا بأحط رذائل الثروة والعبودية .

كاراكلا وجيتـــــا

أذكى تدهور صحة سيفيروس ومرضه الأخير نار الأطماع الوحشية والأحاسيس السوداء فى نفس كاراكلا . وضاق ذرعا بأى ابطاء فى تقسيم الامبراطورية ، فحاول غير مرة التعجيل بالأيام القليلة الباقية من حياة والده ، وجهد دون جدوى فى احداث فتنة بين الجنود . وكثيرا ما عاب الامبراطور العجوز على ماركوس ترفقه المضلل ، حيث كان فى مقدوره ، بتصرف عادل واحد منه ، أن يخلص الامبراطورية من طغيان ابنه التافه . فلما وضع سيفيروس فى هذا الموقف ادرك كيف تذوب صرامة القاضى فى رفق الوالد . لقد اطال التفكير فى الامر ، ثم هدد ، ولكنه لم يستطع الى العقاب سبيلا . وكان هذا المثال الوحيد والأخير من الرحمة اشد فتكا بالامبراطورية من سلسلـــة طويلـــة من ضروب القسوة . وحرك اضطراب ذهنه آلام جسمه ، حتى تمنى الموت بفارغ الصبر ، وعجل قلقه ونفاد صبره بساعته الأخيرة . وقضى نحبه فى يورك فى سن الخامسة والستين ، وفى السنة الثامنة عشرة من حكم مجيد موفق . وفى لحظاته الأخيرة أوصى ولديه بالوفاق والوئام ، كما أوصى الجيش بهما . ولم تنفذ النصيحة النافعة الى قلب الشـــابين العنيدين ، بل لم تصل الى ادراكهما . ولكن القـــوات التى هى اكثر انصياعا ، والتى تذكر جيدا يمين الولاء كما تذكر سلطة سيدها المتوفى، قاومت توسلات كاراكلا ، واعلنت كلا من الأخوين امبراطـــورا على روما . وترك الأميران الجديدان فى الحـــال كاليدونيا فى سلام ، وعادا الى العاصمة ، واحتفلا بدفن والدهما وسط مظاهر التكريم الالهية ، واعترف بهما السناتو والشعب والولايات فى ابتهاج ومرح . ويبـــدو انه

قد أسبغ على الأخ الأكبر شيء من مرتبة أرفع . ولكن كليهما تولى الامبراطورية بسلطة متكافئة مستقلة .

وكان حتما أن يؤدى مثل هذا التوزيع فى الحكومة الى نشوب الخلاف بين أحب أخوين . وكان من المستحيل أن يدوم طويلا بين عدوين حقودين ، لم يرغبا فى التراضى أو يستطيعا الاطمئنان اليه . وكان من الواضح ان واحدا منهما فقط يستطيع أن يتولى الحكم ، وأن الثانى لابد أن يسقط . وأن كلا منهما ، وهو يحكم على نوايا غريمه بمقياس نواياه ، كان يحمى حياته فى أشد يقظة حاقدة ، ضد الهجمات المتكررة بالسم أو بالسيف . وأظهرت رحلتهما السريعة عبر الغال وايطاليا ، تلك الرحلة التى لم يجلسا فيها الى مائدة واحدة للأكل ، أو يأويا الى مكان واحد للنوم — أظهرت الولايات على المنظر الكريه للشقاق الأخوى . ولدى وصولهما الى روما عمدا على الفور الى تقسيم القصر الامبراطورى الفسيح . ولم يسمح بأى اتصال بين مسكنيهما ، وحصنت كل الأبواب والممرات ، وتسلم الحراس مواقعهم أو انصرفوا بنفس الصرامة التى تتبع فى مكان محاصر ضيق عليه الحصار . ولم يلتق الامبراطوران الا فى مناسبة عامة ، وفى حضرة أمهما المفجوعة ، يحوط كلا منهما فوج كبير من الأتباع المسلحين ، وحتى فى هذه المناسبة الرسمية ، لم يكن نفاق الحاشيتين ليخفى ما تنطوى عليه القلوب من أضغان .

وكان من شأن هذه الحرب الأهلية الخفية أن توقع الحكومة بأسرها فعلا فى حيرة ، عند اقتراح أى مشروع يبدو أنه يحقق نفعا متبادلا للأخوين المتناجزين ، ولما كان من المتعذر التوفيق بينهما فقد اقترح الفصل بين مصالحهما وتقسيم الامبراطورية بينهما . وصيغت بالفعل بنود المعاهدة بدقة . واتفق على أن يحتفظ كاراكلا ، بوصفه الأخ الأكبر بأوروبا وغرب أفريقية ، وأن يترك آسيا ومصر لأخيه جيتا ، الذى يمكن أن يتخذ مقرا له فى الاسكندرية أو فى انطاكية ، وهما لا تقلان كثيرا عن روما ذاتها من حيث الثروة والعظمة ، وعلى أن تعسكر دائما قوات كبيرة على ضفتى البسفور فى تراقيا لتحمى حدود المملكتين المتنافستين ، وعلى أن يعترف أعضاء السناتو الذين هم من أصل أوربى بامبراطور روما ، ويتبع أهل آسيا ملك الشرق . وقطعت دموع جوليا الامبراطورة الأم تلك المفاوضات التى ملأت فكرتها الأولى صدر كل رومانى دهشة وسخطاً . وكان الزمن والسياسة قد ربطا بين الكتلة القوية التى كونتها الفتوحات ، فى وحدة وثيقة إلى حد أنها كانت تتطلب أشد العنف قسرا لفصم عراها . وكان للرومان كل العذر فى أن يوجسوا

خيفة من عودة سريعة لهذه الأوصال الممزقة الى يدى سيد واحد نتيجة حرب أهلية ، ولكن اذا استمر الفصل ، فان تقسيم الولايات لا بد أن ينتهى الى ذوبان الامبراطورية التى لم تمس وحدتها حتى الآن ، وهذان أمران احلاهما مر ، (الحرب الأهلية أو ذوبان الامبراطورية) .

ولو أن المعاهدة وضعت موضع التنفيذ لسارع ملك أوربا توا الى غزو آسيا . ولكن كاراكلا أحرز انتصارا أيسر ، ولكنه أشد اجراما . فقد أصغى فى احتيال ودهاء الى توسلات أمه ، ورضى بلقاء أخيه فى بيتها على أساس من المصالحة والتراضى ، وفيما هما يتحدثان اندفع جماعة من الضباط كانوا مختبئين بسيوف مسلولة وانهالوا بها على جيتا المسكين . وحاولت الأم المضطربة أن تحميه بين ذراعيها ، ولكن عبثا كانت تكافح . وجرحت يدها وتلطخت بدماء ابنها الأصغر ، بينما رأت الأكبر يستحث الفاتحين ويعاونهم ، وما أن فعل فعلته حتى أسرع الخطى والفزع يرتسم على محياه ، الى معسكر البريتوريين بوصفه الملجأ الوحيد له ، وارتمى على الأرض تحت تماثيل الآلهة حماته . وحاول الجنود أن يرفعوه من الأرض ويسروا عنه ، وفى كلمات متقطعة مهوشة أبلغهم عن الخطر العظيم المحدق به ، وعن هربه الموفق ، محاولا أن يقر فى أذهانهم انه حال دون تنفيذ خطط عدوه ، وأعلن تصميمه على الحياة أو الموت برفقة جنوده المخلصين . وكان جيتا أثيرا لدى الجنود ، ولكن ماذا تجدى الآن الشكوى ؟ والانتقام محفوف بالخطر ، وهم لا يزالون على اجلالهم لابن سيفيروس . وتبخر استياؤهم فى شىء من تذمر خافت ، وسرعان ما أقنعهم كاراكلا بعدالة قضيته ، حين أجزل لهم العطاء فوزع عليهم الاموال التى جمعها أبوه طيلة حكمه . وكانت للمشاعر الحقيقية للجنود وحدها اهميتها من اجل قوته أو سلامته . وتحكم الاعلان الذى أصدروه لصالحه فى موقف السناتو مما يجب عليه بحكم وظيفته . وكان المجلس الخنوع مستعداً دائماً للرضاء بما قسم به الحظ . ولكن كاراكلا كان راغبا فى التخفيف من بوادر الاستياء العام ، ومن ثم أحيط اسم جيتا بكل وقار . وأضفى على جنازته كل مظاهر التكريم الواجب لكل امبراطور رومانى . ورثى خلفه لسوء حظه فأسدل الستار على مساوئه . وأنا لنعتبر هذا الأمير الشاب ضحية بريئة لطمع أخيه ، دون أن نستعيد الى الذاكرة أنه هو نفسه أراد القوة ، لا الميل ، لانهاء محاولات الثأر والقتل هذه نفسها .

ولم تطو الجريمة دون عقاب . ذلك أن العمل واللهو والتملق لم تجم كاراكلا من وخزات الضمير الآثم ، وقد اعترف هو ، فى نوبة كرب

وضيق المت بعقله المعذب ، أن خياله المضطرب صور له أباه وأخاه يعودان الى الحياة ليهدداه ويؤنباه . وكان الأجدر أن يغريه شعوره بجريمته باقناع الناس ، عن طريق مزايا حكمه ، بأن هذه الفعلة الشنيعة أكرهته عليها ضرورة ملحة . ولكن ندم كاراكلا لم يسوح اليه بشيء اللهم الا أن يمحو من الوجود كل ما يذكره باثمه ، أو يعيد الى الأذهان ذكرى أخيه القتيل . ووجد ، لدى عودته من السناتو الى القصر أمه وسط جمع من النسوة النبيلات يبكين الابن الصغير الذى لقى حتفه قبل أوانه . فهددهن الامبراطور الحقود بالموت فورا ، بل انه نفذ تهديده بالفعل فى فاديلا ، ابنة الامبراطور ماركوس الوحيدة الباقية ، وحتى جوليا المفجوعة نفسها، فانها اضطرت الى أن تكتم نحيبها وآهاتها، وتستقبل السفاح بابتسامة الرضا والفرح . وقدر عدد الذين أعدموا بحجة غامضة ، هى أنهم أصدقاء جيتا ، بأكثر من عشرين ألفا من الجنسين ، كان من بينهم حراسه ومعتقوه ، ووزراؤه ومعاونوه فى مهمته ، ومرافقوه فى أوقات فراغه ، الذين اقتضت مصلحته اسناد بعض الوظائف اليهم فى الجيش والولايات ، وكل السلسلة الطويلة ، من الاتباع الذين ارتبطوا بهؤلاء جميعا . كل أولئك حشروا فى قائمة الاعدام التى حاولت أن تصل الى كل من ارتبط أقل ارتباط بجيتا ، أو حزن لموته ، أو حتى ذكر اسمه . وراح هلفيوس برتيناكس Helvius Pertinax ، وهو ابن امبراطور بهذا الاسم ، ضحية نكتة فى غير أوانها وكانت الجريمة الوحيدة الكافية لادانة ترازيا بيسكس Thrasea Piscus أنها انحدرت من أسرة بدا أن حب الحرية صفة وراثية فيها . واستنفدت أخيرا الأسباب الخاصة والوشاية للريبة غرضها ، فاذا اتهم أحد أعضاء السناتو بعدائه الخفى للحكومة ، تنع الامبراطور بالدليل العام المائع وهو أنه من أصحاب الثروة والفضيلة . وانطلاقا من هذا المبدأ الراسخ كثيرا ما انتهى الامبراطور الى أخطر الاستنتاجات .

ذرف الأصدقاء والأسرات الدموع خفية حزنا على اعدام هؤلاء المواطنين الأبرياء ، وهم كثر ، ولكن موت بابنيان ، رئيس الحرس البريتورى ، كان محزنا بوصفه كارثة عامة ، فقد تقلد أهم مناصب الدولة فى السنوات السبع الأخيرة من حكم سيفيروس ، وبنفوذه ، المفيد الناجح ، قاد خطوات الامبراطور فى طريق العدل والاعتدال . وكان سيفيروس ، وهو على سرير الموت ، لتأكده التام من قدراته وفضائله ، قد أوصاه بالسهر على وحدة الأسرة الامبراطورية ورفاهيتها . ولكن جهود بابنيان المخلصة لم تفلح الا فى اذكاء شعور البغض الذى

كان يضمره كاراكلا لوزير ابيه . وبعد مقتل جيتا ، تلقى بابنيان أمرا بأن يفرغ كل ما أوتى من مهارة وفصاحة فى تلمس الأعذار لهذه الفعلة النكراء . وكان الفيلسوف سنكا قد تنازل وقبل اعداد رسالة مماثلة للسناتو ، باسم ابن اجربينا Agrippina وقاتله . فما كان الجواب العظيم لبابنيان ، الذى لم يتردد فى أن يؤثر فقدان حياته على ضياع شرفه ، الا أن قال : « ان ارتكاب جريمة قتل الوالدين أيسر من تبريرها » . ومثل هذه الشيم الفاضلة الجريئة التى خرجت نقية سليمة من براثن الدسائس فى البلاط ، ومن خطايا العمل ومكائد المهنة ، تعكس على ذكرى بابنيان بهاء ورواء أكثر مما تعكسه وظائفة العالية وكتاباته الكثيرة ، وشهرته الذائعة التى ظل يتمتع بها فى كل عصور التشريع الرومانى بوصفه محاميا أو من رجال القانون .

لقد كان كل ما يغتبط له الرومان بنوع خاص ، أو يخفف عنهم فى أحلك العصور ، حتى الآن ، هو نشاط جانب الفضيلة فى الاباطرة وخمود جانب الرذيلة فيهم.فقد شخص أوغسطس وتراجان وهادريان وماركوس بأنفسهم الى مختلف أنحاء ممتلكاتهم الواسعة ، وتميز تقدمهم بما أتوا من اعمال تتسم بالحكمة والبر . وكان طغيان تيبيريوس ونيرون ودوميتيان — الذين أقاموا على الأغلب دائما فى روما أو فى الريف المجاور لها — منصبا على طوائف السناتو والفروسية وحدها . ولكن كاراكلا كان العدو المشترك للبشرية جمعاء . وغادر العاصمة (ولم يعد اليها قط) بعد حوالى عام من مقتل جيتا . وقضى بقية سنى حكمه فى مختلف ولايات الامبراطورية وبخاصة فى الولايات الشرقية ، وكانت كل ولاية بدورها مسرحا لسلبه ونهبه وقسوته . وكان اعضاء السناتو مضطرين ، بدافع الخوف الى مصاحبته فى كل تحركاته ، واقامة الحفلات اليومية له بابهظ التكاليف ، تلك الحفلات التى كان يتركها فى احتقار لحرسه ، والى تشييد القصور والمسارح الفخمة فى كل مدينة ، فكان يحتقر زيارتها أو يأمر بهدمها فى الحال . وحل الخراب باغنى الأسرات نتيجة الغرامات الظالمة التى تفرض عليها أو مصادرة أموالها . وارهق السواد الأعظم من الرعية بالتفنن فى جمع الضرائب الثقيلة منهم . ووسط الهدوء الشامل بالاسكندرية ، فى مصر ، ولأنفه بادرة من الاستفزاز ، أمر بمذبحة عامة ، شهدها وأدارها من مكان آمن فى معبد سيرابيس ، وراح ضحيتها عدة آلاف من المواطنين والغرباء دون أن يتبين عددهم أو جرائمهم ، حيث ان كل السكندريين — كما ابلغ هو السناتو فى برود — من مات منهم ومن قتل ، مجرمون على حد سواء .

ولم تترك توجيهات سيفيروس الحكيمة أى أثر دائم قط فى عقل ولده الذى لم يكن مجردا من الخيال والفصاحة ، ولو أنه عاطل بالمثل عن التمييز والانسانيه . وتمه مبدا خطير جدير بالطاغية كان يذكره كاراكلا ويستغله ، وهو « كسب محبة الجيش ، والنظر الى بقية رعاياه على انهم قليلو الأهمية » . ولكن سخاء والده كانت له ضوابط من الحرص والروية ، كما كان تسامحه مع القوات العسكرية مقرونا بالحزم والسلطة . أما تبذير الابن بغير حساب فكان طابع سياسة حكمه ، وكان فيه الخراب المحتوم للجيش والامبراطورية معا . وتبددت عزائم الجنود وهممهم فى بذخ المدن ، بدلا من تدعيمها بالنظام الصارم فى المعسكرات . وأرهقت الدولة لاثراء العسكريين بالاسراف فى زيادة رواتب الجنود واغداق المنح عليهم ، على حين أن فى الفقر المشرف أحسن ضمان لاحتشامهم فى أوقات السلم وخدماتهم فى زمن الحرب . وكانت الغطرسة والزهو طابع سلوك كاراكلا ، ولكنه مع الجنود نسى حتى الوقار الواجب لمرتبته ، فشجع رفع الكلفة ، والالفة الوقحة بينه وبينهم ، واهمل الواجبات الأساسية للقائد ، فتصنع تقليد الجندى العادى فى زيه وسلوكه .

وكان من المستحيل أن يوحى بالحب أو التقدير مثل هذا الخلق ومثل هذا السلوك ، ولكن كاراكلا كان يأمن خطر الثورة طالما كانت رذائله ومساوئه خيرا على الجيوش ، ولكن حقده هو نفسه كان سببا فى اثارة مؤامرة خفية قاتلة للطاغية . ذلك أن رياسة البريتوريين كانت موزعة بين وزيرين ، فتولى الشئون العسكرية احدهما ، وهو أدفنتوس Adventus ، وكان رجلا محنكا أكثر منه عسكريا قديرا . وتولى الشئون المدنية أوبليوس مكرينوس Opilius Macrinos الذى استطاع أن يسمو بنفسه فى هوادة ورفق الى هذا المركز الرفيع بفضل براعته فى عمله . ولكن مصلحته تعارضت مع نزوات الامبراطور ، وربما تعلقت حياته بأوهن خيط من الشك أو بأى ظرف مفاجىء أكثر ما تكون المفاجأة . وجادت قريحة رجل أفريقى ذى خبرة عميقة فى أمور المستقبل والغيب ، نكاية أو تعصبا ، بنبوءة خطيرة ، تقول انه مقدر لمكرينوس وولده ، أن يحكما الامبراطورية . وسرعان ما انتشر النبأ فى الولاية وجىء بالرجل الى روما مكبلا بالسلاسل ، وظل يؤكد صدق نبوءته فى حضره حاكم المدينة . وتلقى حاكم المدينة تعليمات مشددة بأن يبلغ بنفسه عن « خلفاء » كاراكلا — فنقل على الفور نتائج التحقيق مع الأفريقى واختباره الى البلاط الامبراطورى الذى كان يقيم آنذاك فى سوريا ، ولكن رغم يقظة الرسل العامين استطاع أحد أصدقاء مكرينوس أن يجد

وسيلة لاظهاره على جلية الخطر المحدق به . وتلقى الامبراطور الرسائل من روما ، ولما كان آنذاك مشغولا بسباق العجلات ، فقد سلم الرسائل دون أن يفتحها الى رئيس الحرس البريتورى ، وكلفه بترك المسائل العادية جانبا ، واعداد تقرير عما قد تحتويه الرسائل من مسائل أكثر أهمية . وقرأ مكرينوس فيها مصيره ، وعقد العزم على تجنبه . وأهاج مكرينوس سخط بعض صغار الضباط ، واستخدم مارتيالس Mertialis وهو جندى يائس أبوا عليه رتبة « ضابط مائة » . ودفع التقى والورع كاراكلا الى الحج من اذاسا Edessa (مدينة أورفة الحالية فى تركيا) الى معبد القمر فى مدينة كاره Carrhae (مدينة شران الحالية) وكانت تتبعه كوكبة من الفرسان ، فلما توقف فى الطريق لضرورة طارئة ، بقى الحرس على مسافة محترمة منه ، واقترب مارتيالس من شخص الامبراطور مدعيا أنه انما يؤدى واجبه ، وطعنه بخنجر . وسرعان ما سدد رماح سكوذى من الحرس الامبراطورى رمحه الى القاتل الجرىء ، فأرداه قتيلا . تلك كانت نهاية المارد الجبار الذى لطخت حياته الطبيعة الانسانية بالعار ، والذى عيل صبر الرومان بحكمه . ونسى الجنود العارفون لفضله مساوئه ، ولم يذكروا الا سخاءه المتميز عليهم ، فأرغموا السناتو على أن يسىء الى نفسه ويمتهن كرامته وكرامة الدين بمنح الامبراطور القتيل مكانا بين الآلهة ، وكان البطل الوحيد الذى اعتبره هذه الاله (كاراكلا) فى حياته جديرا باعجابه هو الاسكندر الأكبر ، ولذلك اتخذ لنفسه اسمه وشعاراته ، وكون فرقة مقدونية من الحرس ، واضطهد تلاميذ أرسطو ، وتفاخر فى حماس صبيانى سخيف ، بالحاسة الوحيدة التى اكتشف بها أى اهتمام بالفضيلة أو العظمة . ومن الميسور علينا ان ندرك أنه بعد معركة نارفا وغزو بولندة ، كان شارل الثانى عشر « ملك السويد ١٦٨٢ — ١٧١٨» (ولو أنه كان لا يزال فى حاجة الى منجزات أفخم تليق بابن فيليب الذى هو أفخم وأروع) يستطيع أن يفاخر بأنه نافس كاراكلا فى بأسه وشهامته ، ولكن كاراكلا ، فى أى عمل فى حياته ، لم يتشبه أقل شبه ببطل مقدونيا الا فى قتل عدد كبير من أصدقائه وأصدقاء والده .

أجلس البريتوريون مكرينوس على العرش ، ولكن محاولاته لاصلاح الجيش جعلته غير محبوب ، وادعت جوليا ميسا — أخت زوجته — أن حفيدها هو ابن كاراكلا ، وأعلن امبراطورا باسم أنطونينوس . وهزم مكرينوس وقتل . ورحل انطونينوس وحاشيته الى روما .

الاجـــابالوس

كان اتفه الوان اللهو والتسلية يشد انتباه الامبراطور الجديد ، ومن ثم أضاع عدة شهور فى انتقاله الذى اقترن بكل ترف وبذخ مـــن سوريا الى روما . وقضى فى نيقوميديا أول شتاء له بعـــد الانتصار ، واجل دخوله الظافر الى العاصمة الى حلول الصيف . ومهما يكن من شىء ، فان الصورة الأمينة التى سبقت وصوله ، والتى وضعت بأمر فورى منه فوق مذبح النصر فى دار السناتو ، قد حملت الى الرومـــان شبها صادقا ، ولكن غير لائق ، بين شخصه وخلقه . وقد رسمت له الصورة وهو يرتدى يابا كهنوتية من الحرير والذهب على غـرار زى الميديين والفينيقيين الفضفاض المنســـاب ، وفوق رأســـه تاج مثلث سامق ، ورصعت أساوره وأطواقه الكثيرة بجواهر ثمينـــة لا تقدر قيمتها ، وقد زججت حواجبه بالسواد ، وصبغ خداه بلون غير طبيعى من الأحمر والأبيض . واعترف شيوخ السنـــاتو ، وهم يصـــعدون الزفرات ، بأن روما بعد أن لاقت أقسى طغيان أبناء جلدتهم طـــويلا ، ارتكست اخيرا تجرع الذلة والهوان فى ظل الترف المخنث للحكم الشرقى المســـتبد المطلق .

وكانوا فى حمص Emesa يعبدون الشمس تحت اسم الاجابالوس ، وكانوا يمثلونه على هيئة حجر مخروطى الشكل ، كان يسود الاعتقاد بأنه سقط من السماء الى هذه البقعة المقدسة.ولأمر ما نسب أنطونينوس ارتقاءه العرش الى حامى الحمى ، الى هذا الاله . وكان الشغل الشـــاغل له فى حكمه هو اظهار امتنانه الخرافى وعرفانه لجميله ، وكان انتصار اله حمص على جميع ديانات الأرض موضعا عظيما لزهوه وغروره ، وكان اسم الاجابالوس (وقد قرر أن يتخذ هذا الاسم المقدس بوصفه حبراً أعظم ، ومن المقربين) أعز لديه من لقب الجلالة الامبراطوريـــة وفى موكب مهيب اخترق شوارع روما المغطاة بالتبر ، ووضع الحجـــر الأسود ، وقد رصع بالجواهر الثمينة ، على عربة تجرهـــا ستة جياد بيضاء فى لون اللبن مطهمة بأبهى الحلى ، وأمسك الامبراطـــور التقى بأعنتها ، وهو يتحرك الى الوراء فى أناة ، يعاونه وزراؤه ، حتى ينعم دائما ببهجة الحضرة الالهية وكانت القرابين التى تقدم للاله الاجابالوس فى معبده فى تل بالاتين Palatine Mount بالغة غاية القيمة والقداسة . فكانت تنثر على مذبحه أندر الأنبذة وأغلى الضحايا وأحسن العطور فى اسراف شديد . وكانت فرقة من العذارى السوريات تقدم رقصاتها الداعرة حول المذبح ، على حين قام اكبر شخصيات الدولة والجيش ،

وقد ارتدوا الملابس الكهنوتية الفينيقية بأدنأ الحركات ، وهم يتصنعون الحماس ، ويخفون السخط والاستياء .

وحاول الامبراطور المتعصب أن ينقل الى هذا المعبد ، بوصفه المركز العام للعبادات الدينية ، كل التماثيل المقدسة التى ترمز لعبادة نوما ، ولحق حشد كبير من الآلهة الصغرى ، باله حمص فى جلاله وعظمته ، بدرجات متفاوتة . ولكن حاشيته لم تكن قد اكتملت بعد ، حتى سمح لانثى رفيعة الشأن بقرانه . واختيرت فى أول الأمر بالاس Pallas (الالهة أثينا — الهة الحكمة) زوجة له . ولكن خيف أن تزعج فظائعها الحربية رقة الاله السورى ونعومته ، وقدر أن الهة القمر التى كان يعبدها الافريقيون تحت اسم « عشتارت » قد تكون رفيقا أليق بالشمس ، فحمل تمثالها من قرطاجة الى روما مع كل ما احتوى معبدها من نفائس وهدايا لتكون صداقا للزواج . وأصبح يوم هذا الزواج الرمزى الغامض عيدا عاما فى العاصمة وفى سائر أنحاء الامبراطورية .

وقد يلازم الانسان شره معقول ، مع احترام ثابت ، لكل ما تمليه الطبيعة من سنن معتدل ، مما يعمل على تحسين ملذات الحواس عن طريق المخالطة الاجتماعية وتعزيز الروابط ، والتشكيل الرقيق للذوق والخيال . ولكن الاجابالوس (أعنى الامبراطور المسمى بهذا الاسم) ، وقد أفسده شبابه وبلده وحظه ، أسلم نفسه الى أغلظ الملذات بلا حدود ، وسرعان ما أحس الضجر والتخمة وسط هذا النعيم . ودعى الى نجدته أشد قوى الفن اثارة ، واستخدم لتحريك شهيته وشهواته الفاترة جموع مختلطة من النساء ، ومجموعات من مختلف الأنبذة وألوان الطعام ، وتشكيلة مدروسة من الأوضاع وعصارات التوابل ، حتى لقد تميز عصره بأسماء جديدة وبدع جديدة فى هذه الفنون ، وهى الأشياء الوحيدة التى تعهدها ورعاها الملك بنفسه (١) ، ثم حملت عاره وفضائحه الى الأجيال من بعده . وعوض التبذير الجنونى عن الفقر فى الذوق والرشاقة ، وبينما بعثر الاجابالوس كنوز شعبه ذات اليمين وذات الشمال فى اسراف بالغ ، كان هو ومتملقوه يرددون أصوات الاستحسان ويمتدحون روح العصر وعظمته ، مما لم تألفه وداعة أسلافه . وكان من الذ تسليته ومسراته ان يشوه نظام الفصول والمناخ، وأن يداعب أهواء رعاياه وحزازاتهم ، وأن يقلب قوانين الطبيعة وقواعد

---

(١) كوفىء بسخاء اختراع جديد من « عصارات التوابل » . ولكنه لم يكن مستطابا ، فأرغم المخترع على الا يأكل شيئا غيره ، حتى ابتدع نوعا آخر أساغه ذوق الملك .

الحشمة والوقار . ولم يكف لاشباع شهواته البهيمية فوج كبير من الخليلات ، وتعاقب سريع من الزيجات ، كان من بينهن عذراء بتول انتزعت من مأواها المقدس . وتظاهر سيد دنيا العالم بمحاكاة النساء فى زيهن وسلوكهن ، وآثر القرناس (صنارة المغزل) على الصولجان ، وامتهن المهام الرئيسية للامبراطور فوزعها على حبيباته الكثيرات ، فخلع على واحدة منهن علنا لقب الامبراطور وسلطته أو — بشكل أدق — سلطة زوج الامبراطورة ، كما سمى هو نفسه .

ويبدو من المحتمل أن رذائل الاجابالوس قد دبجها الخيال وسودها التحيز ، ولكنا اذا اقتصرنا على المشاهد العامة التى كانت تعرض على الشعب الرومانى ، والتى أكدها المؤرخون الجادون المعاصرون ، لوجدنا أن عارها الذى لا يوصف ، يجاوز مثيله فى أى زمان ومكان . ان الأسوار العالية لبيت حريم أى ملك شرقى لتحجب رذائله عن عيون أى متطفل أو محب للاستطلاع . ولقد أدخلت أحاسيس الشهامة والشرف ، تهذيب الملذات والاهتمام بالحشمة والوقار واحترام الرأى العام فى البلاط الحديث لملوك أوربا ، ولكن نبلاء روما الفاسدين الكثيرين اغتبطوا لكل رذيلة اقتبسوها من التدفق الجارف للأمم والعادات . وطالما كانوا بمأمن من العقاب ، لا يأبهون للوم أو التوبيخ ، فقد عاشوا ، دون قيود ولا حدود ، فى المجتمع الذليل الصبور ، مجتمع العبيد والأتباع ، فلما رأى الامبراطور ، بدوره هذا الاستهتار الشائن المعيب فى الشعب على مختلف طبقاته ، دعم من امتيازه الملكى فى الجشع والبذخ .

ولن يتورع أحط بنى الانسان عن أن ينكر على غيره ما يجيزه لنفسه من نقائص . ويجد فى الحال فارقا لطيفا فى العمر أو الخلق أو المكانة ليبرر به هذا التمييز غير النزيه . وكان الجنود الفجار هم الذين رفعوا الابن المنحل لكاراكلا على العرش ، والآن نراهم وقد احمروا خجلا من هذا الاختيار المخزى ، وولوا وجوههم ، فى ضيق وضجر ، عن هذا المارد ليتأملوا فى سرور الفضائل المتفتحة فى ابن خالته الاسكندر بن ماميا Mamaea . ولما أحست مايسا Maesa الداهية المحتالة بأن حفيدها الاجابالوس لابد أنه سيحطم نفسه برذائله ، قدمت لأسرتها دعامة أخرى أشد ثباتا . فأغرت الامبراطور الصغير ، فى لحظة مواتية من لحظات الغرام والاخلاص ، بأن يتبنى الاسكندر ويخلع عليه لقب قيصر ، حتى لا تعود مهامه الالهية تضطرب لانشغاله بهموم الدنيا ، وقد أصبح الأمير المحبوب الرجل الثانى فى الدولة ،

كسب محبة الشعب وأثار حقد الطاغية الذى صمم على وضع حد لهذه المنافسة الخطيرة ، بأن يفسد على غريمه خططه أو يقضى على حياته . ولم تنجح أساليبه ، وفضحت حماقته الثرثارة مشروعاته العابثة ، فأحبطها أولئك الخدم الأمناء الأفاضل الذين اقتضى حرص ماميا أن تحيط بهم ابنها ، وفى نزوة انفعال سريعة وطد الاجابالوس العزم على أن ينفذ بالقوة ما عجز عن تنفيذه بالاحتيال والغش . وأصدر حكما جائرا جرد بك ابن خالته من لقب قيصر ومن أمجاده ، وتلقى السناتو الرسالة فى صمت ، ولكنها أثارت حمية المعسكر وغضبه . فقد أقسم الحرس البريتورى على حماية الاسكندر ، والثأر لكرامة العرش التى امتهنت ، وصرفتهم عن سخطهم العادل دموع الاجابالوس المرتعد ووعوده ، ولم يكن يرجو الا الابقاء على حياته ، مع هيروكليز Hierocles المحبوب ، وقنعوا بتفويض رؤسائهم بالسهر على سلامة الاسكندر ومراقبة سلوك الامبراطور .

وكان من المتعذر أن تدوم هذه المصالحة ، أو أن تتقبل نفس الاجابالوس الدنيئة حكم الامبراطورية على أساس شروط التبعية المذلة هذه . وسرعان ما دخل فى تجربة قاسية لاصلاح الجنود وتقويمهم . وذاع نبأ وفاة الاسكندر ، فاشتد هياجهم لموته ولارتيابهم الطبيعى فى أنه مات قتيلا ، ولم تهدأ العاصفة فى المعسكر الا بحضور الشاب المحبوب ، وبنفوذه هو نفسه ، فاستفز الاجابالوس وأثاره هذا المثال الجديد لتعلقهم بابن خالته واحتقارهم لشخصه ، ومن ثم أقدم الامبراطور على معاقبة بعض قادة الفتنة . ولكن ثبت على الفور أن شدته التى جاءت فى غير أوانها ، كانت وبالا على أتباعه وعلى أمه وعلى شخصه ، فقد ذبحه البريتوريون الساخطون ، وجروا جثته المشوهة فى شوارع المدينة ، وألقوا بها فى نهر التيبر . ووصم السناتو ذكراه بالعار الأبدى ، وصدق الأعقاب على عدالة هذا القرار .

الاسكندر سيفيروس يتولى العرش

رفع الحرس البريتورى الاسكندر على العرش مكان الاجابالوس . وكانت علاقته بأسرة سيفيروس ، التى اتخذ اسمها لنفسه ، هى هى علاقة سلفه بها ، وعززت فضائله وخطره بالفعل مكانته لدى الرومان ، وأغدق عليه السناتو المتلهف السخى فى يوم واحد مختلف الألقاب وصلاحيات السدة الامبراطورية ، ولكن لما كان الاسكندر شابا يافعا

متواضعا طيعا فى سن السابعة عشرة ، فقد وضع زمام الحكم فى أيدى سيدتين : أمه ماميا وجدته مايسا . وبعد موت هذه الأخيرة التى لم تعمر الا قليلا بعد توليه العرش ، بقيت ماميا وصـــية على ابنها وعلى بلاد آل ســـكيبيو ..

وكان أعقل الجنسين ، أو قل أقواهما ، فى كل عصر وفى كل بلد ، يغتصب سلطة الدولة ، ويحصر الجنس الآخر فى مشاغل الحياة المنزلية وملاهيها ، ومهما يكن من أمر ، ففى الملكيات الوراثية ، وخاصة فى أوربا الحديثة ، عودتنا روح الشهامة فى الفروسية ، وقانون اعتلاء العرش أن نسمح باستثناء واحد ، وكثيرا ما اعترف بامرأة لتكون سيدة مطلقة لمملكة عظيمة ، قد نحسب أنها غير قادرة على أصغر المهام المدنية أو العسكرية . فلما كان الأباطرة الرومان لا يزالون يعتبرون القـــادة والحكام فى الجمهورية ، فان زوجاتهم وأمهاتهم ، رغـــم تميزهن بلقب « أوجستا » ، لم يشتركن قط فى مهامهم الشخصية ، ولهذا ، ربما بدا حكم النساء عى أنه هول لا يغتفر فى أعين الرومان البدائيين الـــذين تزوجوا دون حب ، أو أحبوا دون لذة أو احترام . وتطلعت اجريبينـــا Agrippina المتغطرسة ، فعلا الى المشاركة فى أمجاد الامبراطورية التى خلعتها على ابنها ، ولكن أطماعها الجنونية التى كرهها كـــل مواطن يستشعر مكانة روما ، خابت أمام الحزم البارع الذى أظهره ســـينيكا Seneca وبرهوس Burhus ومنع الأمراء المتعاقبين حسن ادراكهم ، أو قل استهتارهم ، من الاساءة الى الآراء غير الناضجة لرعـــاياهم ، واحتفظ للفاجر الاجابالوس بأن يشين قرارات السناتو باسم أمه سواميا التى أجلست جنبا الى جنب مع القناصل ، ومهـــرت قوانين الهيئـــة التشريعية بوصفها عضوا منتظما . ورفضت أختها التى كانت أشد منها حرصا وروية ، هذا الامتياز الكريه المقيم ، وسن قانون صارم استبعد النساء من السناتو الى الأبد ، ونذر للآلهة الخبيثة رأس اللعين الذى يخرق هذا القانون . وكان طمع الرجولة فى ماميا يهـــدف الى جوهر السلطة لا الى أبهتها وجمال منظرها . وكانت لها سيطرة مطلقة مستمرة على عقل ولدها ، ولم تكن لتطيق صبرا على من يزاحمها فى حبها له وتعلقها به . وتزوج الاسكندر بموافقتها من ابنة أحد النبلاء ، ولكن احترامه لصهره أو لزوجه الامبراطورة لم يكن ليتفق مع حنان ماميـــا ومصلحتها . أما النبيل (الصـــهر) فقد أعدم بتهمة الخيانة المدبرة ، أما زوجة الاسكندر فقد أخرجت من القصر بالعار ثم نفيت الى أفريقية .

وعلى الرغم من هذا التصرف القاسى الذى ينم عن الحقد ، وغيره من أعمال الجشع التى اتهمت بها ماميا ، فان طابع ادارتها كان خير

ابنها وخير الامبراطورية سواء بسواء واختارت بموافقة السناتو ستة عشر من أرجح شيوخه عقلا وافضلهم ، وشكلت منهم مجلسا دائما للدولة تناقش أمامه اهم مسائل الساعة وبيت فيها ، وكان على راسهم البيان Ulpian المشهور الذى تميز بحسن درايته وباحترامه لقوانين روما . وقد أعاد حزم هذه الهيئة الأرستقراطية الحريصة المتبصرة النظام والسلطة الى الحكومة ، وسرعان ما طهر المدينة من الخرافة والبذخ الغريبين عنها ، اى مما خلفته نزوات طغيان الاجابالوس ، ثم لجأ الى ابعاد تلك المخلوقات الدنيئة من وظائف الادارة العامة ، واحل محلهم رجالا من ذوى الكفاية والفضل . وأصبح التعليم وحب العدالة هما المؤهلين الوحيدين للوظائف المدنية ، والشجاعة وحب النظام للوظائف العسكرية .

ولكن تكوين شخصية الامبراطور الصغير كان اهم ما يشغل بال ماميا ومستشاريها ، حيث كانت سعادة العالم الرومانى أو شقاؤه يعتمد فى النهاية عليها . وعاونت التربية الخصبة — أو قل الاستعداد الطيب — على الغراس ، بل كفت أيدى الغارسين عن الافراط فى الجهد . ذلك ان الاسكندر سرعان ما اقتنعه حسن الادراك بمزايا الفضيلة ولذة المعرفة وضرورة العمل وبذل الجهد ، كما ان الطبيعة حبته رقة واعتدالا فى المزاج عملا على حمايته من نزوات الانفعال واغواء الرذيلة ، كما وقى احترامه الذى لم يتحول لأمه وتقديره لألبيان الحكيم شبابه غير المجرب من سموم الملق والنفاق .

ويبرز السجل اليومى لأعماله العادية صورة بهيجة لامبراطور مهذب ، وقد تكون جديرة ، مع التسامح فى بعض فوارق السلوك ، بأن يقلدها أمير حديث . كان الاسكندر يستيقظ من نومه مبكرا ، ويخصص وقت البكور لتعبده الخاص ، حيث كان معبده فى القصر زاخرا بصور اولئك الأبطال الذين ارتقوا بالحياة الانسانية أو أصلحوها، ومن ثم استحقوا اجلال أعقابهم واعترافهم بجميلهم . ولكنه اعتبر خدمة الناس اكثر عبادة قبولا لدى الآلهة ، فقضى معظم ساعات الصباح فى مجلسه ، حيث ناقش الشئون العامة ، وبت فى القضايا الخاصة ، فى صبر وحصافة تفوقان سنه ، وكانت روائع الأدب تخفف من شقوة العمل ، فقد كان دائما يخصص جزءا من وقته لدراساته المحببة فى الشعر والفلسفة ، وشكلت مؤلفات فرجيل وهوراس وجمهوريتا افلاطون وشيشرون ذوقه ووسعت مداركه ، وزودته بأنبل الفكر عن الانسان والحكومة ، وسمت رياضة جسمه الى رياضة عقله . وتفوق الاسكندر ، الطويل النشيط المفتول العضلات ، على لداته فى الألعاب

تفكك الإمبراطورية

الفصل السابع
(٢٣٥ ـ ٢٤٨م)

امبراطور من المتبربرين • الجورديانيون • فيليب العربى

من بين مختلف اشكال الحكومة التى سادت العالم ، يبدو ان الملكية الوراثية ، هى التى تمثل اليق مجال بالهزء والسخرية . وهل يمكن القول ، دون ابتسامة ساخطة . انه عند موت الأب ـ تؤول ممتلكات الأمة ـ وكانها ارث من قطيع من الثيران ـ الى ابنه الطفل الذى لم يعرفه الناس ، ولم يعرف هو نفسه بعد ، ومن ثم يتنحى أشجع المحاربين واحكم السياسيين عن حقهم الطبيعى فى تولى الحكم ، ويقتربون من المهد الملكى راكعين مظهرين اخلاصهم المكين ؟ وقد يصور الهجو والنقد مثل هذه الموضوعات الواضحة بألوان تبهر العيون ، ولكنا قد نحترم ، فى تفكير اكثر جدية ورزانة ، أى تحيز نافع يقرر قاعدة للتعاقب على الحكم بعيدة عن أهواء الانسان . وسنرتضى بكل سرور اية وسيلة تحرم الجماهير من هذه السلطة المحفوفة بالخطر ، والمثالية حقا ، وهى سلطتهم فى تنصيب سيد عليهم .

وقد يسهل علينا فى استجمامة هادئة أن نبتكر اشكالا خيالية للحكومة ، يسلم فيها الصولجان دائما لأجدر فرد ، عن طريق الانتخاب الحر النزيه للجماعة بأسرها ، ولكن التجربة تهدم هذه التلفيقات الوهمية ، وانها لتعلمنا ان انتخاب حاكم فى مجتمع كبير لا يمكن قط ان يؤول الى اعقل افراد الشعب أو الى أكبر جزء منه . والجيش هو الفئة الوحيدة من الرجال الذين يتحدون بدرجة كافية ليلتقوا بعضهم مع بعض فى نفس المشاعر ، والذين تبلغ قوتهم حدا يستطيعون معه أن

يفرضوا هذه المشاعر على سائر مواطنيهم . ولكن طبيعة العسكريين التي ألفت الضعف والاستعباد معا ، تجعلهم حراسا أو حماة غير صالحين لأي دستور شرعي أو حتى مدني ، فالعدالة أو الانسانية أو الحكمة السياسية انما هي صفات ليس لهم بها كبير دراية فيما بينهم وبين انفسهم ، الى حد أنهم لا يقدرونها في الآخرين ، ان شدة البأس تكسب تقديرهم ، والسخاء يشتري أصواتهم . ولكن أولى هاتين الخلتين غالبا ما تكون مودعة في اشد الصدور قسوة ، وليس للثانية وجود الا على حساب الشعب ، ويمكن أن تنقلب كلتاهما على رأس صاحب العرش نتيجة لطامع منافس جسور .

اما الامتياز الأسمى وهو امتياز المولد ، اذا توفر له ضمان من الزمن ومن رأي الشعب ، فهو أبسط الامتيازات وأقلها اثارة للبغضاء لدى بني الانسان . فان الحق المعترف به يهدم آمال الفتنة ، والطمأنينة الواعية تجرد الحاكم من قسوته . وانا لمدينون بالتوارث السلمي للعرش في الملكيات الأوربية وبأداتها الوادعة . أما ما يشوب هذه الفكرة من نقص فلا بد لنا أن ننتبه الى تلك الحروب الأهلية الكثيرة التي يضطر فيها حاكم مستبد مطلق من آسيا ، الى أن يشق طريقه نحو عرش آبائه . ان مجال التصارع حتى في الشرق ، محصور عادة في أمراء البيت المالك ، وحالما يقضي المنافس الذي هو أسعد حظا على اخوته بحد السيف أو بالقوس والنشاب ، فانه لا يعود يستشعر أي حقد او غيرة من رعاياه الذين هم ادنى مرتبة . ولكن بعد ان خوت سلطة السناتو الى الحضيض أصبحت الامبراطورية الرومانية مسرحا للفوضى والاضطراب ، وسيقت الأسرات الملكية وحتى الأسرات النبيلة في الولايات لعهد طويل سوقا ظافرا أمام عجلة الجمهوريين المتعالين . وسقطت الأسرات القديمة في روما صريعة طغيان القياصرة . وبينما غلت أيدي أولئك الأمراء بأشكال الحكومة الجمهورية (الحكم الذاتي) في مجموعة الأمم الرومانية ، وخابت آمالهم بما أصاب ذريتهم من فشل متكرر ، كان من المتعذر أن تتأصل جذور فكرة التوارث في أذهان رعاياهم . فادعى كل حق العرش لنفسه جدارة واستحقاقا ، لأن أحدا لم يستطع أن يطالب به بحق المولد . وتحللت آمال المطامع الجامحة من القيود السليمة للقانون ، ومن ثم قد يتعلق أحط بني الانسان ، دون أن يكون في ذلك اي حق من جانبه — يتعلق بأهداب الأمل في أن ترفعه شجاعته وحظه الى مرتبة في الجيش ، حيث تمكنه جريمة واحدة يقترفها من انتزاع صولجان الملك من سيد ضعيف غير محبوب . وبعد قتل الاسكندر سيفيروس واعتلاء مكسيمين Maximin لم يعد أي امبراطور يظن انه آمن فوق عرشه ،

وربما تطلع كل فلاح من المتبربرين على الحدود الى هذا المركز الرفيع المحفوف بالخطر — الى العرش .

وقبل هذا الحادث بنحو اثنتين وثلاثين سنة ، توقف الامبراطور سيفيروس ، وهو عائد من حملته فى الشرق ، فى تراقيا ، ليحتفل بعيد ميلاد ابنه الأصغر جيتا ، باقامة بعض الألعاب العسكرية ، وجاء الناس افواجا ليشهدوا مليكهم ، وبرز من بينهم شاب من المتبربرين ، ضخم الجسم وتوسل فى لهجة خشنة أن يسمح له بالاشتراك فى حلبة المصارعة بغية الحصول على الجائزة . وخيف آنذاك من امتهان النظام واختلاله اذا تغلب فلاح من تراقيا على جندى رومانى ، فسمح له بدخول المباراة مع أقوى رجال المعسكر ، فطرح منهم ستة عشر على الأرض تباعا ، ولكنه كوفىء على فوزه ببعض جوائز تافهة ، وبالسماح له بالانخراط فى سلك الجيش . وفى اليوم التالى أظهر المتبربر السعيد امتيازا وتفوقا على حشد من أقرانه المجندين حين كانوا يرقصون ويمرحون وفقا لتقاليد بلدهم ، وما أن أدرك أنه قد جذب انتباه الامبراطور حتى لحق فى الحال بجواده ، وجرى وراءه فى سرعة فائقة لمسافة طويلة دون أن يظهر عليه أى أثر لاجهاد او كلل . فقال سيفيروس فى دهشة : « أيها التراقى ، هل تميل الى المصارعة بعد هذا السباق »؟ فأجاب الشاب الذى لم يكن قد نال منه التعب بعد : « بكل سرور يا سيدى » . وفى طرفة عين صرع سبعة من أقوى الجنود فى الجيش ، فكان جزاؤه على نشاطه وبأسه الذى لا يبارى طوقاً من الذهب ، وعين فى الحال فى الحرس الراكب الذى يلازم الملك نفسه .

وانحدر مكسيمين — وهذا هو اسمه — من عرق مختلط من المتبربرين ، ولو أنه ولد بالفعل فى بقعة من بقاع الامبراطورية . وكان والده من القوط ، ووالدته من أمة العلانى ، وقد أظهر فى كل مناسبة جرأة تتعادل مع قوته . وسرعان ما خفت حدة شراسته الفطرية او استترت ، بازدياد معرفته بالعالم . وحصل على مرتبة « ضابط مائة » فى حكم سيفيروس وولده ، مع تقديرهما له وعطفهما عليه ، حيث كان أولهما حكما ممتازا على الجدارة والموهبة ، ومنع مكسيمين عرفانه للجميل من اللحاق بخدمة قاتل كاراكلا ، وعلمه الشرف أن يتنزه عن اساءات الاجابالوس المخنثة ، وعاد الى البلاط عند اعتلاء الاسكندر العرش ، فوضعه الأمير فى مركز يمكن أن ينتفع فيه بجهوده ، وهو كذلك مشرف لشخصه ، وسرعان ما أصبحت الفرقة الرابعة التى عين فيها فى وظيفة تربيون ، أحسن فرق الجيش نظاما بفضل عنايته . ونتيجة

لامتداح الجنود له امتداحا عاما شاملا — حتى لقد أضفوا عليه لقب اجاكس وهرقل ، بلغ مكسيمين أرفع مرتبة عسكرية . ولولا أنه ظل محتفظا بشيء كثير من أرومته الوحشية ، فلربما زوج الامبراطور أخته من ابن مكسيمين .

وعملت هذه الرعاية والمنن على اذكاء روح الطمع — بدلا من الابقاء على الاخلاص والولاء ، فى قلب فلاح تراقيا ، الذى حسب أن حظه لا يكافىء استحقاقه ، طالما أكره على الاعتراف برئيس أعلى منه . ورغم أنه كان دخيلا على الحكمة الحقيقية ، الا انه كان له من دهائه الذاتى ما أوضح له أن الامبراطور قد فقد حب الجيش له ، وعلمه أن يعمل على زيادة الاستياء فى الجيش من اجل مصلحته هو (مكسيمين) . وانه لمن اليسير أن تنفث الوشاية والفتنة سمومها فى ادارة أحسن الأمراء ، وأن تتهم فضائلهم عن طريق خلطها فى دهاء بتلك الرذائل التى تكون لها بها أقرب علاقة وأصغى الجنود مبتهجين الى رسل مكسيمين . وخجلوا لصبرهم المخزى لمدة ثلاث عشرة سنة ، ذلك الصبر الذى مكن لهذا النظام الملىء بالمضايقات . والذى فرضه عليهم هذا السورى المخنث ، والعبد الجبان لأمه وللسناتو ، وهنا ارتفعت أصواتهم بأنه قد حان الوقت ليقذفوا بهذا الشبح العقيم ، شبح السلطة المدنية ، وينتخبوا كأمير وقائد لهم جنديا حقيقيا تعلم فى المعسكر وتمرس فى الحرب ، يستطيع أن يؤكد مجد الامبراطورية ويوزع عليهم كنوزها . وكان هناك آنذاك جيش متجمع على ضفاف الراين تحت قيادة الامبراطور نفسه ، الذى اضطر بعد عودته من الحرب الفارسية الى أن يتقدم نحو المتبربرين فى المانيا . وكانت مهمة تدريب الجنود واستعراض الفرق الجديدة — وهى مهمة خطيرة — موكولة الى مكسيمين . فلما دخل هذا ذات يوم ميدان التدريب ، ما كان من الجنود ، نتيجة دافع مفاجىء أو مؤامرة مدبرة ، الا أن رحبوا به امبراطورا ، واسكتت هتافاتهم العالية رفضه العنيد ، وأنهوا ثورتهم بقتل الاسكندر سيفيروس .

واختلفت الروايات فى ظروف موته ، فيقول الكتاب الذين يظنون أنه مات وهو يجهل مطامع مكسيمين وجحوده ، انه آوى الى فراشه بعد أن تناول وجبة بسيطة من الطعام على مرأى من جيشه وانه فى الساعة السابعة صباحا ، اقتحم جزء من الحرس الخيمة الامبراطورية ، وطعنوا أميرهم الفاضل المطمئن عدة طعنات حتى مات . واذا كان لنا أن نصدق كاتبا آخر ، وقد تكون روايته فى الواقع أرجح ، فان ثلة كبيرة من الجيش ، على مسافة عدة أميال من مقر القيادة ، قد خلعت على

مكسيمين الحلة الامبراطورية ، وانه كان على ثقة من النجاح نتيجة للرغبات الخفية ، اكثر منه للاعلان العام للجيش الكبير . وكان لدى الاسكندر وقت كاف لايقاظ شعور هزيل من الولاء في قواته ، ولكن اقرارهم بالاخلاص سرعان ما تبدد لدى ظهور مكسيمين الذى اعلن نفسه صديقا ونصيرا للعسكرية ، واعترفت به القوات المصفقة بالاجماع امبراطورا على الرومان ، فما كان من ابن ماميا ، المنبوذ المعدور ، ازاء ذلك ، الا أن انسحب الى خيمته ، وهو راغب على الأقل فى الابتعاد بمصيره المقترب عن اهانات الجموع المحتشدة . وسرعان ما تبعه تربيون وبعض ضباط المئات — وهم رسل الموت ، ولكنه بدلا من تلقى الضربة المحتومة بعزمة الرجال ، تعالت صرخاته وتوسلاته العقيمة فشوهت آخر لحظات حياته ، وحولت الى احتقار جزءا من الاشفاق الصادق الذى كانت توحى به براءته ونكباته . اما أمه ماميا التى اتهم كبرياؤها وجشعها بأنهما سبب دماره ، فقد هلكت مع ابنهما ، وراح أصدق أصدقائه ضحية الفورة الأولى للجنود ، وأبقى على آخرين ليكونوا طعاما مقصودا لقسوة الغاصب . أما هؤلاء الذين لقوا أرق المعاملة فقد فصلوا من وظائفهم ، وأبعدوا بطريقة مخزية عن البلاط والجيش .

لقد كان الطغاة السابقون جميعا : كاليجولا ، ونيرون ، وكومودس ، وكاراكلا — شبابا منحلين غير مجربين ، تلقوا تعليمهم فى أحضان العز وأبهة الملك ، وأفسدهم زهو الامبراطورية وبذخ روما وصوت الملق الغدار . ولكن قسوة مكسيمين كانت من منبع آخر ، ذلك هو الخوف من الازدراء به . فانه رغم ملازمته للجنود الذين أحبوه لما يتحلى به من فضائل من جنس فضائلهم ، كان يعرك أن أصله المتبربر الوضيع ومظهره الوحشى وجهله المطبق بفنون الحياة المدنية ونظمها ، كل أولئك شكل مفارقة شديدة جدا مع الخلق الرضى المحبوب عند الاسكندر التعس . وتذكر انه أيام حظه المتواضع كثيرا ما كان يقف على أبواب أشراف روما المتغطرسين ، وقلما كانت تسمح له وقاحة عبيدهم بالدخول . كما تذكر صداقة أفراد قلائل انتشلوه من وهدة الفقر ، ومدوا يد المساعدة لآماله المتفتحة . ولكن هؤلاء الذين ترفعوا عن فلاح تراقيا ، وهؤلاء الذين بسطوا له أجنحة الحماية والرعاية — كانوا مذنبين لجريمة واحدة بعينها ، تلك هى معرفتهم بوضاعة منبته وخمول ذكره أصلا . وسيق الى الموت بهذه الجريمة كثيرون ، وكأنى بمكسيمين ، وقد أعدم كثيرا من المحسنين اليه ، قد سطر بالدم صفحات تاريخ خسته وجحوده .

وكانت نفس الطاغية المظلمة الجوانب المتعطشة للدم مفتحة لأية ريبة تحوم حول أولئك الذين ارتفعت أقدارهم بحكم مولدهم أو مواهبهم من بين رعاياه ، فلم يطرق سمعه يوما نذر خيانة الا أمعن فى القسوة بلا حدود وبلا رحمة . واكتشف ، أو توهم ، يوما ، مؤامرة على حياته قيل ان مدبرها هو ماجنس Magnus السناتور القنصل ، ودون شهود أو محاكمة أو فرصة للدفاع أعدم ماجنس وأربعة آلاف ظن أنهم متواطئون معه . وملئت ايطاليا والامبراطورية بأسرها بالجواسيس والمخبرين . وكان انبل الرومان الذين حكموا الولايات وقادوا الجيوش ومنحوا أرفع أوسمة القناصل والانتصارات يساقون مكبلين فى الأغلال فى العربات العامة ليعجل بهم الى حضرة الامبراطور . وكانت مصادرة الأموال أو النفى أو مجرد الموت ، تعتبر أمثلة شاذة لرفقه ورأفته . فقد كان يأمر بأن يخاط بعض هؤلاء المعذبين المنكودين داخل جلود الحيوانات المذبوحة ويلقى بآخرين الى الحيوانات المفترسة ، ويضرب فريق آخر بالنبابيت حتى الموت . ورفض طوال سنى حكمه الثلاث أن يزور روما أو ايطاليا . وكان معسكره الذى ينتقل من حين الى حين بين ضفاف الراين والدانوب هو مقر حكمه المطلق الكالح الذى داس كل مبادىء القانون والعدالة ، والذى كانت تدعمه قوة واحدة معترف بها هى قوة السيف . ولم يطق أن يرى الى جانبه رجلا كريم المحتد ، أو ذا أعمال جليلة ، أو ذا دراية بالشئون المدنية . وبعثت حاشية امبراطور الرومان الفكرة القديمة عن رؤساء العبيد والجلادين ، الذين خلقت قوتهم الوحشية أثرا عميقا من الارهاب والكراهية .

وطالما كانت قسوة مكسيمين مقصورة على مشاهير رجال السناتو ، أو حتى على المغامرين الجسورين فى الجيش أو البلاط ، الذين عرضوا أنفسهم لنزوات الحظ ، فقد نظر جمهور الشعب الى ما يكابدونه فى استهتار ، أو قل فى سرور ومرح ، ولكن رغبات الجنود التى لا تشبع أهاجت جشع الطاغية حتى سطا فى النهاية على الأموال العامة . ذلك أنه كان لكل مدينة فى الامبراطورية مورد مستقل مخصص لشراء الغلال من أجل الجمهور ، أو لتغطية نفقات الألعاب والحفلات ، فعمد الطاغية بقرار واحد من قرارات السيادة الى مصادرة كل الثروة فى الحال لمصلحة الخزانة الامبراطورية . فانتزع من المعابد أثمن الهدايا والقرابين من الذهب والفضة ، وصهرت تماثيل الآلهة والأبطال والأباطرة وسكت نقودا . ولم تنفذ هذه الأوامر الفاجرة دون شغب أو مذابح ، حيث آثر الشعب فى أماكن كثيرة أن يموت دفاعا عن معابده ، على أن يرى المدائن معرضة فى هدوء للسلب والنهب وفظائع الحرب . وحتى الجنود الذين

وزعت عليهم هذه الأسلاب المدنسة تقبلوها فى خجل ، كما أوجسوا خيفة ، وهم الذين تحجرت قلوبهم بأعمال العنف ، من التأنيب العادل من أصدقائهم وأقربائهم ، ودوت فى العالم الرومانى صيحة الاستياء العام ، تهيب بالانتقام من العدو المشترك للجنس البشرى ودفعت الى الثورة دفعا ولاية مسالمة عزلاء من السلاح ، بسبب قرار ظالم خاص بها .

ذلك أن مراقب افريقية كان خادما يليق لمثل سيده الذى اعتبر تغريم الأثرياء ومصادرة أموالهم من أغنى مصادر الدخل الامبراطورى . وصدر ضد جماعة من الشبان الأثرياء حكم جائر ، لو تم تنفيذه لتجردوا من الجزء الأكبر من ثروتهم . وفى غمرة اليأس صح عزمهم على أمر قد يكون فيه انقاذهم أو القضاء المبرم عليهم . ذلك انه أمكنهم الحصول بعد لأى من الصراف الجشع على مهلة قدرها ثلاثة أيام جمعوا فيها عددا كبيرا من العبيد والفلاحين من ضياعهم . وهؤلاء العبيد والفلاحون ينصاعون لأوامر سادتهم انصياعا أعمى ، ويحملون أسلحة ساذجة من النبابيت والبلط ، فلما سمح لزعماء المؤامرة بالدخول على الحاكم ، أعملوا فيه الطعن بخناجرهم المخبأة تحت ملابسهم واستطاعوا بمعونة الجموع المشاغبة أن يستولوا على المدينة الصغيرة تسدروس Thysdrus (كانت سوقا تجارية فى تونس) ورفعوا راية العصيان ضد سيد الامبراطورية الرومانية ، وبنوا آمالهم على كراهية الناس لمكسيمين . فاعتزموا فى فطنة وترو أن يضربوا الطاغية البغيض بامبراطور حظيت مزاياه فعلا بتقدير الرومان وحبهم ، كما أن سلطانه فى الولاية لابد وأن يضفى على المشروع وزنا وتمكينا . لقد وقع اختيارهم على جورديانوس ـ البروقنصل ، ولكنه رفض فى اباء خالص لا تصنع فيه ، هذا الشرف المحفوف بالخطر ، وتوسل اليهم وهو يذرف الدمع أن يسمحوا له بأن ينهى حياته الطويلة البريئة فى هدوء دون أن يلطخ أيامه الأخيرة بدم الانسان ، ولكنه ـ ازاء تهديداتهم ـ قبل الحلة الامبراطورية ، والحق أنه لم يكن الا القبول ملجأ له من قسوة مكسيمين الحاقدة ، تمشيا مع منطق الطغاة الذى يقول : انما يستحق الموت من هم فى نظر الناس جديرون بالعرش ، اما أصحاب العقول المفكرة فهم فى نظره ثوار » .

الجـــورديانيون

كانت أسرة جورديان من أبرز الأســر فى السـناتو الرومانى . ويمتد أصله من جهة أبيه الى جراكى ، ومن جهة أمه الى الامبراطــور تراجان ، وكانت له ضيعة كبيرة مكنته من تدعيم كرم محتده ، وقد أظهر فى مباشرتها ذوقا عاليا ونزعة خيرة . وكانت أسرة جورديان ، لعدة أجيال مالكة لقصر روما الذى سبق أن أقام فيه بومبي الكبير ، وكـــان القصر مشهورا بالأنصاب التذكارية القديمة للانتصارات البحرية ، ومزدانـــا بالرسوم الحديثة . أما فيـــلا جورديان ـــ على الطريق الى برانست Pareneste فقــد اشتهرت بحماماتها الفريدة فى جمالهـــا واتساعها ، وبثلاث حجرات فخمة طول الواحدة منها مائة قدم ، وبرواق ضخم مقام على مائة عمود من أغلى وأروع أنواع الرخام الأربعة . وكان يبدو أن الحفلات التى أقيمت على نفقته الخاصة ، والتي ظهر فيها مئات من المجالدين والحيوانات المتوحشة ، تتجاوز حدود ثروة فرد من الرعية . وعلى حين لم يتعد سخاء الحكام الآخرين اقامة بعض حفلات وقـــورة فى روما ، تكررت حفلات جورديان الضخمة مرة كل شهر فى روما عندما كان مكلفا بالأشغال العامة ، وامتدت الى مدن ايطاليا الرئيسية عندما كان قنصلا ، وقد رفع الى هذه المرتبة مرتين على عهــد كـــاراكلا والاسكندر ، لأنه كان ذا موهبة خارقة فى كسب تقدير الأمراء الأفاضل ، دون أن يثير حفيظة الطغاة . وقضى حياته الطويلة ببساطة فى دراسة الآداب وفى الأعمال السلمية المجيدة فى روما ، ويبدو أنه رفض فى حرص قيادة الجيوش أو حكم الولايات ، حتى عين « بروقنصل » فى أفريقية بناء على رأى السناتو وموافقة الاسكندر . وكانت أفريقية سعيدة طوال حكم الاسكندر ، تحت ادارة ممثله الممتازة فلمـــا اغتصب مكســيمين المتبربر العرش ، خفف جورديان من أمر المصائب التى كان عاجزا عن ردها . وكان عمره ، يوم قبل الحلة الامبراطورية على مضض ، أكثر من ثمانين عاما ، فكان آخر خلف عظيم من عهد الانطونينيين الزاهى ، الذى أحيا هو فضائله فى سلوكه الخاص ، وخلد ذكرها فى قصيدة عامرة سجلها فى ثلاثين كراسة . ومع البروقنصل المحترم أعلن ابنه امبراطورا كذلك ، وكان يرافق أباه من قبل بوصفه نائبا له . وكان سلوكه أقل نقاوة ، ولكن شخصيته محبوبة مثل أبيه ، وكانت له اثنتان وعشرون خليلة معترف بهن ، كما كانت لديه مكتبة تضم اثنين وستين الف مجلد ، مما يدل على تنوع ميوله ، ويتضح من الانتاج الذى تركه وراءه أن الخليلات والكتب كانت تخدم غرضا ، اكثر منها لمجرد التباهى والتظاهر. وتبين الشعب الرومانى فى ملامح جورديان الصغير شبه سكيبيو الأفريقى

وتذكروا فى ابتهاج أن امه كانت ابنة انطونينوس بيوس الكبرى ، وعقدوا الآمال على هذه المزايا الكامنة التى ظلت ـــ كما حلا لهم أن يتصوروا ـــ مختفية حتى الآن بين طيات الخمول المترف فى حياة خاصة .

ونقل الجورديانيون بلاطهم الى قرطاجة ، حالما اخمدوا الهياج فى أول انتخاب شعبى . واستقبلتهم هتافات الأفريقيين الذين مجدوا فضائلهم . والذين لم يشهدوا منذ عهد هادريان عظمة امبراطور رومانى . ولكن هذه الهتافات العقيمة لم تقو ولم تثبت لقب الجورديانيين . وكانوا مدفوعين بحكم المبدأ وبحكم المصلحة معا الى التماس موافقة السناتو ، ومن ثم أرسل دون ابطاء ، وفد من علية القوم فى الولاية ، الى روما ليروى القصة ويبرر تصرف مواطنيه الذين صمموا فى النهاية على العمل فى عزم وشدة ، بعد أن صبروا على الشقاء طويلا . وكانت رسائل الأميرين الجديدين متواضعة وقورة ، تلتمس العذر للضرورة التى الجأتهما الى قبول اللقب الامبراطورى ، مع اخضاع انتخابهما ومصيرهما للرأى الأعلى للسناتو .

ولم يشب اتجاهات السناتو اى شك أو انقسام ، فان المولد والروابط الكريمة قد وثقت العلاقة بين الجورديانيين وبين الم بيوتات روما . وقد خلق ثراؤهم اتباعا كثيرين لهم فى المجلس . كما جذبت مواهبهم اليهم أصدقاء كثيرين ، وساعدت ادارتهم المعتدلة على التطلع البراق الى استعادة ـــ لا الحكومة المدنية فحسب ، بل الحكومة الجمهورية كذلك . وانك لتجد الآن ان ارهاب العنف العسكرى ـــ الذى ارغم السناتو فى البداية على نسيان قتل الاسكندر والتصديق على انتخاب فلاح متبربر ـــ قد أتى بنتيجة عكسية ، وحفز على توكيد حقوق الحرية والانسانية التى سبق اهدارها والاساءة اليها . حيث كانت كراهية مكسيمين للسناتو سافرة لا تفتر ، ولم يكن ارق ألوان الخضوع ليخفف من حدته ، كما لم تكن البراءة الحذرة لتزيل شكوكه ، بل ان حرصهم على سلامتهم اغراهم بالاسهام فى مشروع يثقون فى انهم سيكونون أول ضحاياه اذا لم يكتب له النجاح . وكانت هذه الاعتبارات وربما غيرها ، مما قد تكون لها طبيعة أخص ، قد نوقشت فى مؤتمر سابق للقناصل والحكام . ولما انتهوا من وضع قرارهم ، دعوا السناتو بكامل هيئته الى الاجتماع فى معبد كاستور Castor ، طبقا لتقليد قديم من السرية ، وذلك لاثارة انتباههم وكتمان قراراتهم . وقال القنصل سلانوس Syllenus : « أيها الأعضاء : ان الجورديانيين ـــ وكلاهما من مرتبة القنصل : بروقنصل ونائبه ـــ قد أعلنتهما افريقية امبراطورين بموافقة عامة » . واضاف فى جراة : « فلنقدم الشكر الى

شياته تسيدروس Thysdrus ولشعب قرطاجة المخلص ، وهم منقذونا الكرام من المارد الرهيب . لماذا تصغون الى بفتور وفى جبن هكذا ؟ ولماذا تلقون هذه النظرات القلقة بعضكم على بعض لا فيم تترددون ؟ . ان مكسيمين عدو للشعب ، ولتنقض عداوته بانقضائه ، ولننعم طويلا فى ظل روية وتبصر جورديان الأب وغبطته ، وفى ظل عزم جورديان الابن ووفائه » . وأحيت حماسة القنصل الكريمة روح السناتو الخامدة ، وصدق بالاجماع على قرار انتخاب الجورديانيين . وأعلن أن مكسيمين وابنه وأتباعه أعداء لبلادهم . ووعد بمكافآت سخية لمن يجد فى نفسه الشجاعة ويواتيه الحظ للقضاء عليهم .

وفى أثناء غياب الامبراطور بقيت فرقة من الحرس البريتورى ، فى روما لتحمى العاصمة أو بالاحرى لتتولى زمام السلطة فيها . وتميز أخلاص فيتاليانوس ، رئيس حرس مكسيمين ، بخفته ومسارعته الى اطاعة الأوامر القاسية للطاغية ، بل فى الحيلولة دونها . والحق أن موته (رئيس الحرس) كان الوسيلة الوحيدة لانقاذ سلطة السناتو من التوقف ، وانقاذ حياة أعضائه من الخطر المحدق بهم . وقبل أن يذيع السناتو قراراته ، وكل الى ضابط من الفرسان وبعض التريبيون الاضطلاع بمهمة القضاء على حياته الفانية ، ووفقوا فى تنفيذ هذا الأمر فى جراة لا يعدلها الا توفيق السناتو وجرأته فى القرار الذى اتخذه . ثم جروا فى الشوارع بخناجرهم الملطخة بالدماء فى أيديهم يعلنون للشعب وللجيش أنباء الثورة السعيدة ، وضاعفت الوعود باغداق المال والأرض من الحماس للحرية ، وحطمت تماثيل مكسيمين ، وأقرت العاصمة فى فرح وابتهاج سلطة الجورديانيين والسناتو ، وحذت بقية مدن ايطاليا حذو العاصمة .

وظهرت روح جديدة فى هذا المجلس الذى عيل صبره الطويل بالاستبداد الرهيب والفوضى العسكرية . وتسلم السناتو مقاليد الحكم ، واستعد فى جراة هادئة لتأييد قضية الحرية بقوة السلاح . وكان من السهل اختيار عشرين من بين الشيوخ القناصل الذين كانوا مقربين لدى الامبراطور الاسكندر بسبب مواهبهم وخدماتهم ، ممن يضارع بعضهم بعضا فى القدرة على قياد الجيوش وادارة الحروب ، وقد عهد الى هؤلاء بالدفاع عن ايطاليا . وعين كل منهم ليعمل فى دائرة معينة ، وخول تجنيد شباب ايطاليا وتنظيمه ، وأمر بتحصين الموانى والطرق ضد أى غزو متوقع من جانب مكسيمين ، واختير عدد من النواب من أبرز شخصيات السناتو والضباط ، وأوفدوا فى نفس الوقت الى حكام

الولايات المختلفة يناشدونهم أن يسارعوا الى نجدة بلدهم ، ويذكرون الامم بروابط الصداقة القديمة بينهم وبين السناتو والشعب الرومانى . ويدل الاحترام العام الذى قوبل به هؤلاء المبعوثون ، وتحمس ايطاليا والولايات للسناتو ، على أن رعايا مكسيمين قد اشتد بهم الكرب الى حد غير عادى ، أصبح معه جمهور الشعب يخشى الجور والظلم أكثر مما يخشى المقاومة . وقد أذكى الشعور بهذه الحقيقة المريرة الأليمة روح المثابرة على الهياج والغضب ، بدرجة قل أن توجد فى مثل هذه الحروب الأهلية التى تشعل نيرانها بطرق مصطنعة لمصلحة بعض الزعماء المدبرين المشاغبين .

ولكن بينما قوبلت قضية الجورديانيين بحماس شامل ، نجد انهم هم أنفسهم لم يعد لهم وجود ، فقد روع بلاط قرطاجه الضعيف بالتقدم السريع لحاكم موريتانيا : كابليانوس Capelianus الذى شن بعصابة صغيرة من المحاربين المحنكين وجيش متوحش من المتبربرين ، هجومه على ولاية مخلصة ، ولكن غير محاربة . وخرج جورديان الأصغر لملاقاة العدو على رأس عدد قليل من الحرس وجمهور غير منظم ممن تربوا فى أحضان الترف والهدوء فى قرطاجه . ولم تجد جرأته العقيمة الا فى أنها هيأت له ميتة شريفة فى ساحة الوغى . أما أبوه الشيخ العجوز الذى لم تتجاوز فترة حكمه ستة وثلاثين يوما ، فإنه وضع حداً لحياته لدى سماعه بأول أنباء الهزيمة . وفتحت قرطاجه الخالية من وسائل الدفاع ابوابها للفاتح ، وتعرضت أفريقية بأسرها لقساوة رهيبة من عبد كان لزاما عليه أن يرضى ويشبع نهم سيده الذى لا يرحم ، بأكبر قدر من الدم والمال .

انبرى السناتو الآن لمقاومة مكسيمين ، وانتخب امبراطورين مشتركين بوبينوس Pupienus (ورد فى كتاب جيبون مكسيموس) وبالبينوس Balbinus وأعد مكسيمين العدة لدخول ايطاليا بطريقة تعيد الى الأذهان صورة غزوات المتبربرين .

تميز مكسيمين من الغيظ حين تعاقبت الثورات فى روما وأفريقية بهذه السرعة ، وقيل انه لم يتلق أنباء ثورة الجورديانيين وقرار السناتو ضده بمزاج رجل ، بل بغضبة وحش مفترس عاجز عن أن يصب جام غضبه على السناتو البعيد عنه ، وهدد بالانقضاض على ابنه وأصدقائه وكل من يجسر على الاقتراب منه ، وسرعان ما أعقب النبأ السعيد بموت الجورديانيين ، التوكيد بأن السناتو — وقد ودع كل أمل فى العفو أو التوفيق ، قد وضع مكانهما امبراطورين آخرين لا يمكن أن يجهل

هو مواهبهما وقدرتهما . ولم يبق لمكسيمين من عزاء الا الانتقام ، وليس من وسيلة للانتقام الا السيف . وكان الاسكندر قد جمع قواته من مختلف ولايات الامبراطورية ، وقد رفعت حملات ثلاث مظفرة ضد الألمان والسارماتيين من ذكر هذه القوات ودعمت نظامها ، بل حتى زادت من اعدادها عن طريق ملء المناصب بزهرة شباب المتبربرين . وكان مكسيمين قد قضى حياته فى الحرب ، ولن يستطيع التاريخ فى صراحته القاسية أن يغمطه حقه فى عزمة الجندى بل فى مقدرة القائد المحنك . وكان من الطبيعى أن يتوقع من امير على هذا الخلق — بدلا من السماح للثوار بتدعيم أنفسهم بمثل هذا الابطاء — أن يسارع على الفور بمغادرة ضفاف الدانوب الى ضفاف التيبر . وان جيشه — وقد اغرته السخرية من السناتو ، وهزه الشوق والتلهف على جمع الأسلاب والغنائم من ايطاليا ، ليتحرق لهفا على انجاز هذه الغزوة اليسيرة الرابحة . ولكن يبدو — قدر ما نستطيع الركون الى التسلسل الغامض لتاريخ تلك الحقبة — أن عمليات حرب خارجية اجلت الحملة الايطالية الى الربيع التالى . وقد تبين من سلوك مكسيمين الذى يتسم بالروية والتبصر أن جوانب الوحشية والشراسة مبالغ فيها بدافع التحيز ، وأن مشاعره مهما كانت عنيفة ، خضعت لقوة المنطق ، وأن الرجل المتبربر كان يتحلى بشىء من روح سلا Sylla الكريمة ، ذلك الذى أخضع أعداء روما قبل أن يسمح لنفسه بالثأر لما لحق به هو نفسه من أذى .

ولما وصلت قوات مكسيمين — فى نظامها الرائع — الى سفوح الألب اليوليانية ، روعوا وذعروا للسكون والوحشة اللذين سادا الحدود الايطالية . وهجر السكان القرى والمدن المفتوحة عند اقترابهم منها . كما سحبت منها الماشية ، ونقلت المؤن وأتلفت ، ودمرت الجسور ، ولم يبق ثمة شىء يأوى اليه الغزاة أو يتبلغوا به . تلك كانت الأوامر الحكيمة الرشيدة التى أصدرها قواد السناتو ، الذين كان من خطتهم أن يطيلوا أمد الحرب ، ويحطموا جيش مكسيمين بالمجاعة ويستنزفوا قوته فى حصار المدن الرئيسية فى ايطاليا ، وقد زودت هذه المدن بالوفير من الرجال والمؤن من البلاد المهجورة . وتلقت اكويليا أول ضربة وتصدت لها . وفاضت بذوبان ثلوج الشتاء المجارى المائية التى تخرج من أعالى رأس بحر الادرياتيك ، وشكلت عقبة غير متوقعة أمام جيش مكسيمين ، ولكنه فى النهاية ، وعلى جسر واحد أقيم بصعوبة وبمهارة وفن ، من البراميل الكبيرة ، نقل جيشه الى الضفة المقابلة ، واقتلع الكروم الجميلة ، فى ضواحى أكويليا ، وهدم الضواحى واستخدم أخشاب المبانى فى الآلات والأبراج التى هاجم بها المدينة من كل جانب .

وكانت الأسوار آيلة الى السقوط لطول عهدها بالأمن والسلام ، فجرى ترميمها على عجل لمناسبة هذه الضرورة المفاجئة ، ولكن الحق ان أصلب دفاع عن المدينة يكمن فى ثبات أهليها ، فان الخطر المحدق بهيم ، ومعرفتهم بمزاج الطاغية الذى لا يرحم — بدلا من أن يروعهم ويفزعهم — ايقظهم والهبهم على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ، وكان كرسبينوس Crispinus ومينوفيلوس Menophylus — وهما من نواب السناتو العشرين — يدعمان شجاعتهم ويوجهانها ، وقد استطاعا بقوة صغيرة من الفرق النظامية أن يلقوا بانفسهم وسط المكان المحصور . وصد جيش مكسيمين فى هجمات متكررة ودمرت آلاته بما أمطروها به من نيران صناعية . وارتفع الحماس الكريم الذى عم اهل اكويليا الى ثقة بالنصر حين وقر فى أذهانهم أن بيلينوس Belenus الاله الحارس ، قاتل بنفسه دفاعا عن عبادة المكروبين .

ونظر الامبراطور مكسيموس الذى كان قد وصل الى رافنا Ravenna ليستحوذ على هذا المكان الهام ويعجل بالاستعدادات العسكرية — نظر الى قيام الحرب ، بمنظار أكثر اخلاصا وأمانة ، منظار المنطق والسياسة . فأدرك كل الادراك ان أية مدينة واحدة لن تستطيع ان تقاوم الجهود الدائبة لجيش كبير . كما خشى أن يفض العدو الذى سئم مقاومة أكويليا الحصار العقيم فجأة ، ويسير قدما نحو روما . ومن ثم يعتمد مصير الامبراطورية ومصير قضية الحرية على نتيجة معركة ، وأية قوات يمكن أن تتحدى وتتصدى لفرق الراين والدانوب المحنكين ؟ لقد جندت بعض الفرق حديثا من شباب ايطاليا الكريم المنهوك ، كما كانت هناك قوات مساعدة من الألمان من الخطر أن يوثق بصمودهم فى ساعة العسرة . وفى وسط هذا الذعر والفزع ، كانت مؤامرة داخلية لمكسيمين ضربة كانت عقابا وفاقا لما اقترف من جرائم ، وخلصت روما والسناتو من الكوارث التى كان من المحقق أن تحل فى أعقاب انتصار المتبربر الغاصب .

ذلك ان أهل اكويليا الذين لم يذوقوا بالكاد ويلات الحصار المألوفة كانت حوانيتهم مزودة خير تزويد وأوفره . كما أمدتهم النافورات الموجودة داخل الأسوار بمعين لا ينضب من الماء العذب . وعلى النقيض من ذلك كان جنود مكسيمين ، الذين تعرضوا لقسوة الطقس وعدوى المرض وارهاب المجاعة . وخرب الريف المكشوف المنبسط ، وامتلأت الأنهار بجثث القتلى ، وتلوثت مياهها بدمائهم وبدأت روح اليأس والكراهية تنتشر بين الفرق ، ولما كانوا منقطعين انقطاعا تاما عن الأخبار ، فقد سهل عليهم أن يصدقوا ان الامبراطورية بأسرها وقفت فى

صف السناتو . وأنهم قد تركوا ضحايا هالكة يقضون نحبهم تحت أسوار أكويليا التى يتعذر اختراقها . وهاجت شراسة الطاغية للخيبة واليأس اللذين نسبهما الى جبن الجيش . وأثارت قسوته الرهيبة التى لا تتحين الوقت المناسب — كراهيته ورغبة صادقة فى الانتقام ، بدلا من أن تقضى على الفزع والرعب . ونفذ جماعة من الحرس البريتورى — كانوا يرتعدون خوفا على زوجاتهم وأولادهم فى معسكر ألبا قرب روما — حكم السناتو . ولما تخلى عن مكسيمين حراسه ، ذبح فى خيمته مع ابنه (الذى كان رشحه للسدة الامبراطورية) وأنولينوس Anulinus رئيس الحرس ، ووزراء الطاغية الأساسيين . وأقنعت رءوسهم المعلقة على الحراب اهل أكويليا بأن الحصار قد انتهى . وفتحت أبواب المدينة وأقيمت موائد سخية لفرق مكسيمين الجائعة وشارك الجيش بأسره فى اعلان الولاء فى هيبة ووقار للسناتو ولشعب روما وللامبراطورين الشرعيين مكسيموس وبالبينوس . وكان هذا هو المصير الجدير بوحش كاسر ، مجرد كما كانوا يمثلونه دائما ، من أية عاطفة يتميز بها انسان متمدين ، أو قل أى انسان كائنا من كان . وكان جسمه يتفق مع نفسه ، فقد جاوزت قامة مكسيمين ثمانية أقدام ، وقد روى ما لا يكاد يصدق عن قوته وشهيته فى الأكل ، ولو أنه عاش فى عصر أقل استنارة ، لمثلته التقاليد والأشعار على انه شيطان مارد استخدم قوته الخارقة فى تحطيم البشر .

ومن اليسير أن ندرك ، أكثر من أن نصف ، ما عم دنيا الرومان من فرح وسرور لسقوط الطاغية . وقيل ان وصول أبنائه من أكويليا الى روما استغرق اربعة أيام . وعاد مكسيموس فى موكب ظافر ، وخف لاستقباله زميله جورديان الأصغر ، ودخل الأمراء الثلاثة العاصمة ، وفى ركابهم مبعوثو كل مدن ايطاليا تقريبا . وقد استقبلوا بأروع مظاهر التقدير والتقديس وأصدق هتافات السناتو والشعب ، الذين منوا أنفسهم بأن عصرا ذهبيا سيعقب عصر الحديد . والحق أن سلوك الامبراطورين كان يلتئم مع هذه التمنيات . فقد توليا القضاء شخصيا ، وخفف حلم الواحد منهما من عنف الآخر . وقد الغيت ، أو على الأقل عدلت الضرائب الجائرة التى كان مكسيمين قد فرضها على حقوق الوراثة والأيلولة ، وأعيد النظام ، وسن الوزراء الامبراطوريون بمشورة السناتو كثيرا من القوانين الحكيمة محاولين بذلك اقامة دستور مدنى على أنقاض الطغيان العسكرى . وسأل مكسيموس يوما فى جو مشبع بالحرية والثقة : « أى جزاء تنتظر من وراء تخليص روما ؟ » فكان جواب البينوس بلا تردد : « حب السناتو والشعب والجنس البشرى

بأسره » . فأردف زميله الذى هو أعمق فكراً « واأسفاه واحسرتاه ! انى لأخشى كراهية الجنود والنتائج الوبيلة لاستيائهم ! » .

بعد فترة وجيزة من موت مكسيمين ، نبح البريتوريون بيوبينوس Pupienus وبالبينــوس ، وبعد حكم جورديان الثالث الذى لم يــدم طويلا . خلع الجنود الحلة الامبراطورية على « فيليب » وهو عربى المولد .

فيليب العربى

عندما عاد فيليب من الشرق الى روما ، اشتدت به الرغبة فى محو ذكريات جرائمه ، وفى كسب محبة الشعب . فعمد الى احاطة حفلات الألعاب القرنية (التى تقام كل مائة سنة) بكل مظاهر الأبهة والعظمة . وقد احتفل بها ــ منذ أنشأها أو أحياها أوغسطس ــ كل من كلوديوس ودوميتيان وسيفيروس ، والآن تتجدد للمرة الخـامسة لمناسبة مرور الف سنة على تأسيس روما . وكانت فرصة هذه الألعاب تنتهز بمهارة لتعبئة العقلية الخرافية بأعمق الاحترام . والحق أن الفترة الطويلة بين هذه الألعاب تجاوز دورة الحياة الانسانية ، ولم يكن أى من المتفرجين قد شهدها بالفعل ، ومن ثم لا يعلل أحد نفسه بالأمل فى رؤيتها مرة ثانية . وكانت القرابين الخفية الرمزية تقدم فى ثلاث ليال على ضفاف التيبر وكانت ساحة مارشيوس تعج بالموسيقى والرقص ، وتضاء بعدد لا يحصى من المصابيح والمشاعل . ولم يرخص للعبيد والغــرباء فى الاشتراك فى هذه الحفلات الوطنية . وكانت هناك فرقة من سبعة وعشرين شابا وعــدة عــذارى من انبــل العائــلات ممن لا يزال والدوهــن أحياء ــ تنشد الابتهالات الى الآلهة العطوفة من أجل الحاضر ، ومن أجل الأجيال الصاعدة ، وتتوسل اليها فى ترانيم دينية أن تحافظ على الفضيلة وعلى الغبطة وعلى امبراطورية الشعب الرومانى طبقا لما نزل به الوحى القديم . وقد بهرت عظمة الاستعراضات بحفلات التى أقامها فيليب أعين الناس ، وانصرف الأتقياء الورعون الى ممارســة الطقوس الخرافية ، بينما تدبرت القلة المفكرة فى عقولها القلقة ماضى الامبراطورية ومستقبلها .

وقد انقضت الآن عشرة قرون منذ اتخذ روميلوس Romulus مع عصابة صغيرة من الرعاة والخارجين على القانون ، مقرا حصينا لهم على التلال القريبة من نهر التيبر ، وفى الأجيال الأربعة الأولى من هذه الحقبة ، وفى مدرسة الفقر الشاقة المجهدة ، حصل الرومان مزايــا الحرب والحكم . وعن طريق الممارسة الجادة العنيفة لهذه الفضائل ،

وبمساعدة الحظ ، كسب الرومان فى غضـــون القـــرون الثلاثة التالية امبراطورية مطلقة السلطان على بلاد كثيرة فى أوربا وآسيا وأفريقية . أما ثلاثمئة السنة الاخيرة فقد كان طابعها ازدهاراً ظاهرياً ، واضمحلالا داخلياً . أما أمة الجنود والحكـــام والمشرعين التى كونت قبائـــل الامبراطورية الرومانية البالغ عددها خمسا وثلاثين قبيلة فقد ذابت فى كتلة الجنس البشرى ، واختلطت بمـــلايين التابعين الأذلاء من أهـــل الولايات الذين أخذوا اسم الرومان دون أن يقتبسوا الروح الرومانية ، وكان جيش المرتزقة الذى تكون من الرعايا ومن المتبربرين على الحدود، هو الطبقة الوحيـــدة من الرجـــال الذين حافظـــوا على استقـــلالهم واستغلاله . وعن طريق انتخاباتهم التى يسودها الشغب حظى السورى والقوطى والعربى بشرف التربع على عرش روما ، وزود بالسلطـــة المطلقة على الفتوحات وعلى بلاد آل سكيبيو .

وكانت حدود الامبراطورية لا تزال تمتد من المحيط الأطلسى الى الدجلة ، ومن جبال أطلس الى الراين والدانوب . وكان فيليب يبدو فى عين الساذج الأحمق الذى يحسن التمييز ، ملكا لا يقل قـــوة عن هادريان وأوغسطس . وبقى الشكل كما هو ، ولكن ولت الصحة والقوة اللتان تبعثان النشاط والانتعاش . وثبطت الوان الظلم همة الشعب واستنزفت جهوده ، وأفسد طمع الأباطرة نظام الجيش ، كما كان ضعفهم سببا فى تراخى هذا النظام الذى كان يمكن أن يكون دعـــامة عظمـــة الدولة ، اذا ما تبخرت كل الفضائل والمزايا الأخرى . أما قوة الحدود التى كانت ترتكز دائما على الفرق أكثر منها على التحصينات ، فقـــد تقوضت بطريقة غير ملموسة ، وتعرضت أجمل الولايات لسلب المتبربرين وطمعهم ، وهم الذين تبينوا بسرعة اضمحلال الامبراطورية الرومانية .

وبينما كانت حروب الحدود لزمن طويل هى الشغل الشاغل للحكومة الامبراطورية دوما فان الغزوات الكبرى للمتبربرين ، التى كانت الآن فى ذروتها — كانت نتيجة لأسباب جديدة ، ففى الشرق انتهت قوة أسرة أرشك The Archuk فى بارثيا، ولكن جاء التهديد الجديد من فارس . أما فى الحدود الشـــمالية فقد تجمعت الآن شعوب ألمانيا الشرقية ، وهى الشعوب التى لم تكن الفت الرومان بعد ، وقد خصص جيبـــون الفصلين الثامن والتاسع لهذه الموضوعات .

الفصل العاشر
(٢٥٣ - ٢٦٨ م)

الكوارث العامة في عهد فاليريان وجالينوس

غارات القوط ، غزو الفرس لأرمينيا ، وأسرة فاليريان

قتل فيليب فى ٢٤٩ ، وأعقبه دكيوس ، وهو رجل قدير ، قاد الحرب ضد القوط ولكنه قتل هو وابنه فى المعركة فى دبرودسكا . وتوالت بعد ذلك فى تعاقب سريع عهود جالوس وأميليانوس ، وفى ٢٥٣ أصبح فاليريان امبراطورا ، وسرعان ما اشرك ابنه جالينوس . وقد أورد جيبون سيرة جالينوس بشكل يحط من قدره على طول الخط ، ولكن النقاد الحديثين ردوا اليه اعتباره . ومهما يكن من أمر ،فان الصورة التى رسمها جيبون للكوارث فى عهد فاليريان وجالينوس صادقة .

كان فاليريان فى نحو الستين من العمر حين اعتلى العرش ، لا نتيجة خطرات من وساوس الشعب أو هتافات الجنود ، ولكن باجماع العالم الرومانى بأسره . وقد استحق طوال تدرجه فى مناصب الدولة حب أفاضل الأمراء ، كما أعلن فى كل مناسبة أنه عدو للطغاة . وقد مجد فيه السناتو والشعب كريم محتده وخلقه المعتدل النقى وعلمه وتبصره وخبرته ، وكما قال أحد الكتاب القدامى : لو ترك الجنس البشرى حرا فى اختيار سيد له ، لوقع اختياره بكل تأكيد على فاليريان . وربما كانت مواهب هذا الامبراطور غير متكافئة مع شهرته ، أو كانت قدراته ، أو على الأقل روحه متأثرة بما يقترن بكبر السن من ضعف وفتور ، وقد أدى به شعوره بالاضمحلال الى أن يجعل له على العرش شريكا أصغر سنا وأكثر نشاطا . وكانت ظروف الحال تتطلب قائدا كما تتطلب بنفس القدر ملكا . وربما كان حريا بالرقيب الرومانى أن تهديه تجاربه الى أين يتجه ، ليخلع الحلة الامبراطورية على من تؤهله لها الموهبة العسكرية ، ولكن فاليريان بدلا من الاختيار السليم الذى قد يثبت

ملكه ويخلد ذكره ، انقاد لما أملاه عليه الحب أو الغرور ، فأضفى فى الحال على ابنه جالينوس هذا المجد الغامر ، وهو شاب استترت رذائله الأنثوية تحت غموض الحياة الخاصة . وبقيت الحكومة المشتركة بين الوالد والولد سبع سنين ، وانفرد جالينوس بالادارة نحو ثماني سنين . ولكن الفترة كلها — فترة الخمسة عشر عاما — كانت سلسلة متصلة الحلقات من الفوضى والكوارث . ولما كانت الامبراطورية الرومانية قد انقض عليها فى نفس الوقت ، ومن كل جانب ، غزاة أجانب فى غارات رهيبة عاتية ، كما اجتاحتها الأطماع الوحشية للغاصبين المحليين — فاننا لن نحيد عن جادة النظام والوضوح ، اذا نحـــن لم نتتبع كثيرا الترتيب الزمنى المشكوك فيه ، وتتبعنا التقسيم الطبيعى للموضوعات . وكان ألد أعداء روما فى عهد فاليريان وجالينوس هم :

١ — الفرنجة ، ٢ — الألمان ، ٣ — القوط ، ٤ — الفرس . ويمكن أن ندرج تحت هذه التسميات العامة مغامرات قبائل أقل أهمية لن يكون فى ذكر أسمائها الغامضة الثقيلة الا ارهاق لذاكرة القارىء ، وتشتيت لانتباهـــه .

١ — لما كان نسل الفرنجة وذراريهم يكونون اليوم أمة من أكبر امم أوربا وأعظمها استنارة فقد استنفدت كل قوى العلم وكل البراعة فى الكشف عن أسلافهم الأميين . وجاءت أساليب الخيال بعد القصص الساذج . ونشطت عمليات الغربلة والفحص والمسح فى كل قطعة وفى كل بقعة مما يحتمل أن يميط اللثام ، ولو يسيرا ، عن أصلهم ونشأتهم . وكان المظنون أن بانونيا ، وأن الغال وأن الأجزاء الشمالية من المانيا كانت فيها النشأة الأولى لهذه الجماعة الفذة من المحاربين . وأخيرا اقتنع أعظم النقاد منطقا وعقلا . الذين رفضوا هذه الهجرة الوهمية لهؤلاء الغزاة المثاليين — اقتنعوا بفكرة تغرى بساطتها بصدقها . فقد ذهبوا الى الظن بأن السكان القدامى فى الراين الأدنى والويز — كـــونوا ، حوالى عام ٢٤٠ م اتحادا جديدا تحت اسم « الفرنجة » . وكانت منطقة وستفاليا الحالية ، واقطاعيات هيس ودوقيات برنزويـــك ولونبـــرج Luneberg كانت هذه كلها الموطن القديم لقبيلة تشوسى Chauci (من أشهر القبائل فى غرب المانيا قديما) التى تحدت الجيش الرومانى فى مستنقعاتها التى لا يمكن اجتيازها ، ولقبيلة تشيروسكى Cherusci الفخورة بشهرة ارمينيوس Armenius ، ولقبيلة كاتى Catti الشديدة البأس بفضل مشاتها الاقوياء البواسل ، ولعدة قبائل أخرى أقل قوة وشهرة . وكان تعشق الحرية هو منتهى ما يسيطر على عقول هؤلاء

الألمان ، والتمتع بها أغلى كنز لديهم ، والتعبير عن متعة الحرية ونعيمها أحسن ما تطرب له أسماعهم . ومن ثم استحقوا هذا اللقب الكريم واتخذوه لأنفسهم وحافظوا عليه وهو «الفرنجة» أى الرجال الأحرار Freemen وهذا اللقب هو الذى حجب الأسماء الخاصة لمختلف الولايات الداخلية فى الاتحاد ، ولو أنه لم يقض عليها تماما . وقد فرضت الموافقة الضمنية والمنفعة المتبادلة أول قوانين الاتحاد ، ثم وطدت العادة والخبرة يوما بعد يوم دعائمه . وقد تفتح عصبة الفرنجة مجال المقارنة بالاتحاد السويسرى (Helvetia الاسم القديم) الذى كان كل قسم فيه يحتفظ بسيادته المستقلة ، ويتشاور مع سائر الأقسام فى القضايا العامة ، دون الاعتراف بسلطة أى رئيس أعلى أو جمعية تمثيلية أو نيابية ، ولكن مبدأ كل من الاتحادين يختلف عن الآخر كل الاختلاف ، فقد نعم السويسريون بالهدوء والسلام لمدة قرنين من الزمان ، جزاء وفاقا لسياستهم الحكيمة الأمينة . ولكن روح التقلب ، والتعطش الى السلب والنهب ، وعدم احترام أعظم المعاهدات جدية وخطورة — كل أولئك دمغ خلق الفرنجة بالعيب والعار .

وكان الرومان قد خبروا لعهد طويل ، شدة بأس سكان ألمانيا السفلى (الجنوبية) وجرأتهم . وقد هدد اتحاد قوتهم بلاد الغال بغارة شديدة ، مما اقتضى حضور جالينوس شريك الامبراطور ووريثه ، وبينما كان الأمير وابنه الطفل سالونينوس Saloninus يظهران عظمة الامبراطورية فى بلاط تريف (Treves مدينة على نهر الموزل) كان القائد بستوموس Posthomos يتولى قيادة الجيوش فى مقدرة فائقة ، وقد غدر هذا القائد بعد ذلك بأسرة فاليريان ، ولكنه كان أمينا دائما على مصلحة الامبراطورية . وتدل اللغة الزائفة المضللة — لغة المديح والاطراء والملق — على أن هناك سلسلة طويلة من الانتصارات ، كما تشهد النصب التذكارية والألعاب (اذا كان لها أن تشهد) على شهرة بستوموس الذى سمى مرارا وتكرارا « قاهر الألمان ومخلص الغال » .

ولكن حقيقة واحدة ، وهى فى الواقع الوحيدة التى نعلمها حق العلم ، قد تمحو الى حد كبير كل الآثار التى أقامها الغرور والمداهنة . ان الراين — رغم أنهم كرموه بتسميته حامى الولايات — كان يشكل حاجزاً ضعيفا أمام روح الطموح الجريئة التى طغت على أعمال الفرنجة . فقد امتد اكتساحهم الخاطف من النهر الى سفوح جبال البرانس ، بل ان هذه الجبال لم توقف تقدمهم ، حتى ان اسبانيا التى لم تخش يوما حملات الألمان — كانت عاجزة عن المقاومة . وكانت هذه البلاد الغنية

مسرحا لمناوشات مخربة غير متكافئة طوال اثنى عشر عاما — أى الجزء الأكبر من عهد جالينوس . وسلبت ، أو قل دمرت ، المدينة الزاهرة تاراجونا Tarragona عاصمة الولاية المسالمة . وكانت لا تزال تلك الأكواخ التعيسة الكئيبة المبعثرة وسط خرائب المدن تشهد على بطش المتبربرين — حتى أيام أوروسيوس الذى كتب فى القرن الخامس . فلما نضب معين البلاد المنهوكة ولم تعد صالحة للسلب ، استولى الفرنجة على بعض المراكب فى موانى أسبانيا وانتقلوا بها الى موريتانيا . وذهلت الولاية النائية لشدة هؤلاء المتبربرين ، الذين بدوا وكأنهم جاءوا من عالم جديد ، حيث لم يكن اسمهم ولا عاداتهم ولا ملامح وجوههم معروفة فى ساحل افريقية .

٢ — كان يوجد فى غابر الزمان فى الجزء الواقع من سكسونيا العليا وراء نهر الالب — وهى المسماة الآن امارة لوساك — غابة مقدسة — هى الموطن الرهيب لخرافة السويفى Suevi . وما كان مرخصا لأحد فى الدخول الى هذا الحرم المقدس دون الاعتراف — وهو راكع متوسل ، معاهد متذلل ، بوجود الاله الملك على الفور ، والواقع أن الوطنية والغيرة أسهمتا فى تقديس سوننفالد Sonnenwald أو غابة السمنونيين Semnones . وساد الاعتقاد بأن الأمة نشأت أول ما نشأت فى هذه البقعة المقدسة . وكانت القبائل الكثيرة التى تتيه عجبا وتجد شرفا فى جريان الدم السويفى فى عروقها ، تبعث فى فترات محددة بمبعوثيها ، وكانت الطقوس البربرية والضحايا الانسانية تخلد ذكرى المنبت المشترك بينهم . وملأ الاسم الذائع « سويفى » كل أقطار المانيا الداخلية من ضفاف نهر الأودر الى ضفاف الدانوب . وكانوا يتميزون عن سائر الألمان بغرابة تصفيف شعرهم الطويل الذى جمعوه فى خصلة غير مهذبة فى قمة الرأس ، كما اغرموا بحلية تظهرهم أعلى مرتبة وأشد بأسا فى أعين العدو . ولما كانوا — كما هى عادة الألمان — غيورين على السمعة العسكرية ، فانهم جميعا اعترفوا بشوكة سويفى الفائقة ، وأعلنت قبائل أوسيبيت Usypites وتنكتيرى Tencteri التى قهرت الدكتاتور قيصر بجيش عظيم ، أنه لم يكن عارا عليها أن تهرب أمام قوم (أى السويفى) لم تكن الآلهة الأالية لتقف أمام أسلحتهم .

وفى عهد الامبراطور كاراكلا ظهرت أفواج لا تحصى من السويفى على ضفاف نهر السين وفى الأماكن المجاورة للولايات الرومانية ، سعيا وراء الطعام ، أو السلب أو النهب أو المجد ، والتأمت أفواج المتطوعين

المتوثبين فى أمة عظيمة ثابتة ، ولما كان هؤلاء ينتمون الى الكثير من القبائل المتباينة ، فانهم جميعا اتخذوا اسم « الليمانى Allemanni » أى كل الرجال All Men ليدل فورا على اختلاف أنسابهم وشجاعتهم المشتركة . وسرعان ما أحس الرومان بهذه الشجاعة فى الكثير من الحملات العدائية . وحارب الليمانى أصلا على ظهور الخيل ، ولكن قوى من عزمة خيالتهم جماعة من المشاة الخفيفة مختارة من أشجع وأنشط الشباب ، أهلهم تدريبهم المستمر لمصاحبة الفرسان أطول مسافة ، وفى أسرع هجوم أو فى أعنف انسحاب .

ودهش هذا الشعب الجرمانى المحارب لاستعدادات اسكندر سيفيروس الضخمة ، كما أفزعتهم أسلحة خلفه ، وهو متبربر يعدلهم بأسا ووحشية . ولكنهم ظلوا يحومون حول حدود الامبراطورية ، فزادوا من الاضراب العام الذى أعقب موت دكيوس . وأصابوا ولاية الغال الغنية بجراح قاسية . وهم أول من كشف القناع عن العظمة الهزيلة لايطاليا . وسارت جماعة كبيرة من الألمان عبر الدانوب واخترقت جبال الألب الرايتية الى سهول لمبارديا ، وتقدمت حتى وصلت الى رافنا ، ووقفت رايات المتبربرين الظافرة على مرأى من روما تقريبا . وأذكت الصفعة والخطر فى السناتو من جديد ومضات من شمائل غابرة ، وكان الامبراطوران كلاهما مشغولين فى حروب نائية : فكان فاليريان فى الشرق وجالينوس فى الراين . وتعلقت كل آمال الرومان بالسناتو ، ولم يكن لهم من ملجأ الا اليه . فاستأنف أعضاؤه فى هذا الظرف الطارئ الدفاع عن الدولة . وسحبوا الحرس البريتورى الذى تخلف لحماية المدينة ، وزادوا عددهم بتجنيد أقوى أفراد البلبيان (طبقة العامة) وأكثرهم رغبة فى الخدمة العامة ، وذهل الألمان لظهور جيش أكبر من جيشهم فجأة ، فانسحبوا الى ألمانيا محملين بالغنائم ، واعتبر الرومان غير المحاربين أن فى انسحابهم انتصارا لهم (أى للرومان) .

ولما تلقى جالينوس أنباء انقاذ عاصمته من المتبربرين ، كان سروره بها أقل بكثير من فزعه لشجاعة السناتو ، التى قد تحفزهم يوما الى تخليص الشعب من الطغيان الداخلى والغزو الخارجى سواء بسواء . ونشر على الناس جحوده الذى أملاه عليه الجبن ، فى مرسوم حرم فيه على أعضاء السناتو القيام بأى عمل عسكرى ، بل حتى مجرد الاقتراب من معسكرات الفرق . ولكن مخاوفه لم يكن لها أي أساس ، فان النبلاء الأغنياء المترفين ، وقد عادوا بسيرتهم الى خلقهم الطبيعى — قبلوا هذا الاعفاء المذل المشين من الخدمة العسكرية على أنه منة من الامبراطور وفضل . وطالما كانوا يتمرغون فى نعيم حماماتهم ومسارحهم ومساكنهم ،

فقد تنازلوا فى غبطة وسرور عن هذه المهام الخطيرة ، مهام الامبراطورية، للأيدى الخشنة ، أيدى الفلاحين والجنود .

وثمة حملة أخرى قام بها الألمان ، تبدو أشد هولا ورهبة ، ولكنها حدث أبهى سناء وروعة ، ذكرها أحد كتاب الامبراطورية القديمة . فقد قيل ان عشرة آلاف فقط من الرومان على رأسهم جالينوس هزموا ثلثمائة ألف من ذلك الشعب المحارب فى معركة قرب ميلان . ومهما يكن من أمر ، فاننا قد ننسب على الأرجح ، هذا الظفر الذى لا يمكن تصديقه ، أما الى سلامة نية المؤرخين ، أو الى عمل مبالغ فيه قام به أحد قواد الامبراطور . والواقع أن جالينوس استخدم أسلحة من جنس آخر لحماية ايطاليا من بطش الجرمان ، فقد تزوج من بيبا Pipa ابنة أحد ملوك ماركومانى Marcomanni ، وهى قبيلة من السويفى ، كانت كثيرا ما تشترك مع الألمان فى حروبهم وفتوحهم . وقد أقطع والدها — ثمنا للتحالف — رقعة كبيرة فى بانونيا . ويبدو أن المفاتن الأصيلة فى الجمال الفطرى غير المصقول قد مكن لحب العروس فى أعماق الامبراطور المتقلب . ووثقت روابط الحب من علاقات السياسة وزادتها متانة . ولكن تحيز روما الذى يتسم بالتعالى والغطرسة أنكر صفة الزواج على علاقة دنسة بين مواطن وبربرية . ودمغ الأميرة الألمانية باللقب الفاضح المخزى ، أى بأنها « خليلة جالينوس » .

غارات القوط

٣ — لقد تعقبنا حتى الآن هجرة القوط من اسكنديناوه — أو على الأقل من بروسيا ، حتى مصب نهر الدنيبر ، وتتبعنا انتصاراتهم من الدنيبر الى الدانوب . وفى عهد فاليريان وجالينوس كانت غارات الألمان والسرماتيين Sarmatians (احدى القبائل الرحل القديمة) تنقض على الدوام على حدود الدانوب ، ولكن الرومان كانوا يدافعون عنها بعزم وتوفيق بشكل غير عادى . ذلك أن الولايات التى كانت مسرحا للحرب كانت تزود جيوش روما بمعين لا ينضب من الجنود الأشداء . وكم من فلاحى الليريا هؤلاء ، ارتفع الى مرتبة القيادة وأظهر صفات القائد وقدراته . وتوغلت حشود عابرة من المتبربرين ، الذين يحومون حول الحدود بلا انقطاع — الى تخوم ايطاليا ومقدونيا . ولكن ولاة الامبراطور كانوا يصدونهم عادة ، أو يعترضون طريق عودتهم . ولكن السيل الجارف من هجمات القوط تحول الى طريق آخر . فان القوط باستيطانهم الجديد فى أوكرانيا أصبحوا سادة على الشاطىء الشمالى

للبحر الأسود . ولكن كانت تقع الى الجنوب من هذا البحر الداخلى الولايات الغنية الوادعة فى آسيا الصغرى ، تلك الولايات التى حوت كل ما يجذب الأنظار ، وخلت من أية وسيلة لصد أى فاتح متبربر .

ولا تجاوز المسافة بين ضفاف الدنيبر وبين المدخل الضيق لشبه جزيرة القرم ستين ميلا . ومن هذا الشاطىء الماحل اتخذ يوريبيدس مسرحا لأحداث واحدة من أعظم مآسيه اثارة للعواطف ، فدبج القصص القديم بفنه الرائع وأسلوبه الجميل ، وقد تصلح قرابين ديانا الدموية ، ووصول أورستيز Orestes وبيلادس Pylades ، وانتصار الفضيلة والعقيدة على الشراسة الوحشية وتصلح لتمثل حقيقة تاريخية : تلك هى ان التورى Tauri — وهم السكان الأصليون لشبه الجزيرة — هذبوا الى حد ما من سلوكهم الوحشى ، بفضل اتصالهم التدريجى بالمستعمرات اليونانية التى استقرت على الشاطىء . وكانت مملكة البسفور الصغيرة تتألف من اليونان المنحلين والمتبربرين نصف المتحضرين ، وكانت عاصمتها تقع على المضايق التى يتصل بها بحر آزوف بالبحر الأسود ، وقد بقيت كدولة مستقلة منذ حروب البلوبونيز حتى ابتلعتها أطماع متريداتس ، ثم سقطت مع بقية ممتلكاته فى أيدى الرومان ، وبقى ملوك البسفور منذ عهد أوغسطس حلفاء متواضعين ، ولكنهم كانوا ذوى نفع للامبراطورية . ذلك أنهم عن طريق الهدايا والأسلحة وبعض التحصينات اليسيرة عبر البرزخ ، وقفوا سدا منيعا فى وجه قطاع الطرق القراصنة من أهل سارماتيا Sarmatia وحالوا دون وصولهم الى بلاد تتحكم فى البحر الأسود وآسيا الصغرى بفضل موقعها الممتاز وموانيها الملائمة ، وطالما تعاقب على العرش ملوك وراثيون ، فانهم أدوا مهمتهم فى يقظة وتوفيق . ولكن الخلافات الداخلية ، ومخاوف الغاصبين الأدنياء الذين استولوا على العرش الخالى ، أو مصلحتهم الخاصة ، مكنت القوط من التوغل الى قلب البسفور . وبحصول هؤلاء الفاتحين على قطعة أرض خالية ذات تربة خصبة ، أمكنهم أن يسيطروا على قوة بحرية كافية لنقل جيوشهم الى شاطىء آسيا . وكانت السفن المستعملة فى الملاحة فى البحر الأسود فريدة فى مبناها : كانت مراكب شراعية صغيرة ذات قاع مسطح من الخشب فقط ، وليس فيها حديد قط ، يغطيها فى بعض الأحيان سقف واق ، يستخدم عند هبوب عاصفة . وفى هذه المنازل العائمة لم يبال القوط أن يضعوا أنفسهم تحت رحمة بحر مجهول بقيادة بحارة دفعوا الى العمل دفعا ، مشكوك فى مهارتهم وأمانتهم بقدر سواء . ولكن الأمل فى السلب والنهب كان يحجب التفكير فى الخطر ، وغرس مزاج الجراة الطبيعى فى

نفوسهم الثقة التى هى أكثر تعقلا والتى هى فى الواقع وليدة المعرفة والخبرة . ولابد أن المخاربين الذين أوتوا هذه الجرأة والجسارة ، كثيرا ما ضجوا لجبن أدلائهم الذين كانوا يتطلبون أقوى التأكيدات على هدوء البحر واستقراره قبل أن يغامروا بالاقلاع ، والذين كان يندر اغراؤهم بالبعد عن الأرض ، فلا تكون دائما على مرأى منهم . تلك — على الأقل — هى الحال فى تركيا الحديثة . وليس من المحتمل أنهم فى فن الملاحة دون سكان البسفور القدامى .

وظهر أسطول القوط ، وقد خلف شركاسيا Circassia على يساره ، أول ما ظهر ، أمام بتيوس Pityus وهى آخر حدود الولايات الرومانية ، وهى مدينة مزودة بمرفأ ملائم ومحصنة بسور منيع . وهنا لقوا مقاومة أكثر عنادا مما كان لهم أن يتوقعوا من حامية ضعيفة فى قلعة نائية . وردوا عن المدينة . ويبدو أن خيبتهم حطت من رهبة اسم القوط . وطالما كان يتــولى الدفاع عن هــذه الحــدود ســكسيانوس Successianus وهو ضابط كبير موهوب ، ذهبت جهود القوط أدراج الرياح ، فلما أقصاه فاليريان الى مركز أكثر شرفا وأقــل أهمية ، استأنفوا الهجوم على بتيوس . وبتدمير هذه المدينة ، محــوا ذكرى عارهم السابق .

وكانت المسافة من بتيوس الى طرابزون ، طوافا حول الطــرف الشرقى للبحر الأسود ، تبلغ نحو ٣٠٠ ميل . واتخذ القوط طريقا جعلهم دائما على مرأى من كولكيس (Cholchis بلاد فى شرق البحر الأسود) التى خلدتها « الأرجونوت Argonauts » (من أقدم ملاحى الأساطير الاغريقية) ، بل انهم حاولوا سلب معبد غنى عند مصب نهر فاسيس Phasis ولكنهم لم يفلحوا .

وقد استمدت طرابزون — التى اشتهرت فى انسحــاب الألوف العشرة بأنها مستعمرة يونانية قديمة — استمدت ثروتها وعظمتها من أريحية الامبراطور هادريان وسخائه ، حيث شيد ثغرا صناعيا عــلى شاطىء مهجور حرمته الطبيعة من موان آمنة ، وكانت المدينة ضخمــة آهلة بالسكان ، ويبدو أن الأسوار المزدوجة تحدت بطش القــوط ، وعززت الحامية المعتادة بعشرة آلاف رجل تزادت قوتها . ولكن ليس ثمة أية مزايا يمكن أن تعوض عن انعدام النظام واليقظة . فان حامية طرابزون الضخمة انصرفت الى الشغب والترف ، وترفعت عن حراسة تحصيناتها المنيعة ، وسرعان ما اكتشف القوط هذا الاهمال الفاحش من جانب المحصورين ، وشيدوا كومة شاهقة من الأغصان وتسلقــوا

الأسوار فى سكون الليل ، ودخلوا المدينة العزلاء شاهرين سيوفهم . وأعقبت ذلك مذبحة شاملة بين الأهالى ، وهرب الجنود الذين تولاهم الفزع من الأبواب الخلفية للمدينة . ولم ينج من التخريب اقدس المعابد وأفخم المبانى ، ووقعت فى أيدى القوط أسلاب ضخمة ، حيث كانت ثروات البلاد المجاورة مودعة فى طرابزون باعتبارها مأوى أمينا . واقتحم المتبربرون المنتصرون الطريق دون مقاومة فى ولاية بنطس المترامية الأطراف ، وبلغ أسرهم عددا لا يصدق . وملأت الغنائم الثمينة من طرابزون أسطولا عظيما من السفن وجدوه فى الميناء ، وربط شبان الشاطىء الأشداء بالسلاسل الى المجاديف ، وعاد القوط عودا مظفرا قانعين بنجاحهم فى حملتهم البحرية الأولى ، الى مواطنهم الجديدة فى مملكة البسفور .

وخرج القوط فى حملتهم الثانية بقوة أكبر من الرجال والسفن ، ولكنهم سلكوا طريقا آخر ، حيث صرفوا النظر عن ولاية بنطس التى استنزفت ، وساروا مع الساحل الغربى للبحر الأسود ، ومروا بالمصبات الضخمة للدنيبر والدنيستر والدانوب ، وزادوا من أسطولهم بالاستيلاء على عدد كبير من قوارب الصيد ، ثم اقتربوا من المنفذ الضيق الذى يصب البحر الأسود منه مياهه فى البحر المتوسط ، ويفصل بين قارتى آسيا وأوربا . وكانت حامية خلقدونيه Chalcedon تعسكر قرب معبد جوبيتر يوريوس Jupiter Urius على رأس جبل يشرف على مدخل المضيق ويتحكم فيه . وهكذا كانت غزوات المتبربرين المزهوبى الجانب هزيلة الى درجة أن عدد أفراد هذه الحامية كان يفوق عدد جيش القوط . ولكن الحق أن التفوق كان عدديا فحسب ، فقد تخلوا فى اندفاع وتهور عن موقعهم الممتاز ، وهجروا مدينة خلقدونية ، وهى المدينة الزاخرة بالسلاح والأموال ، وتركوها لحكمة الفاتحين . وبينما كان الفاتحون يترددون فى أى طريق يسلكون : البر أم البحر ، وأين يتجهون لمواصلة الأعمال العدوانية ، الى آسيا أم أوربا ، أشار أحد الهاربين الخونة عليهم بالاتجاه الى نيقوميديا ، وكانت يوما عاصمة ملوك بيثينيا كما أنها غنية ميسور فتحها . وقاد الطريق الذى لم يكن يبعد عن معسكر خلقدونية بأكثر من ستين ميلا ، وأدار دفة القتال دون مقاومة ، وقاسم فى الغنائم . فقد تعلم القوط قدرا كافيا من السياسة فى مكافأة الخائن الذى كانوا يكرهون . وانتابت نيقية وبروسة وأباميا وسيوس — وهى مدن نافست أو قلدت أحيانا نيقوميديا فى فخامتها وعظمتها — نفس الكارثة التى اندلعت فى مدى عدة أسابيع فى كل ولاية بيثينيا ، وكان سكان آسيا الوادعون قد نعموا بالسلام

والهدوء ثلاثمائة عام الغى فيها استخدام السلاح ، وزال من الأذهان توقع الخطر ، وتركت الأسوار القديمة تتداعى ، وخصصت كل موارد اغنى المدن لتشييد الحمامات والمعابد والمسارح .

كانت مدينة سيزيكوس Cyzicus (مدينة قديمة على الشاطىء الجنوبى لبحر مرمرة) — عندما تحدت أقصى جهود متريداتس — تتميز بالقوانين الحكيمة ، وبقوة بحرية قوامها مائتا زورق كبير وثلاث ترسانات للأسلحة والآلات الحربية ، والغلال . وكانت لا تزال مستودعا للثروة ومسرحا للترف ، ولكن لم يبق من سابق قوتها الا موقعها ، فى جزيرة صغيرة فى بحر مرمرة ، تربطها بقارة آسيا قنطرتان فقط . وبعد غارتهم على بروسة Prussa تقدم القوط حتى أصبحوا على مسافة ثمانية عشر ميلا من مدينة سيزيكوس التى انصرفوا بكل قواهم لتدميرها ، ولكن هذه العملية تعطلت بسبب حادث سعيد ، ذلك أنه قد حل فصل الأمطار ، وارتفع الماء الى حد غير عادى فى بحيرة أبولونياتس Apolloniates وهى خزان لمياه كل الينابيع فى جبل أولمبس ، كذلك طغت مياه نهر رنداكوس الصغير الذى ينبع من البحيرة ، حتى تحول الى مجرى واسع سريع الجريان ، فعاق تقدم القوط ، وكان انسحاب القوط الى مدينة هرقلية البحرية حيث يحتمل وجود الأسطول — مصحوبا برتل طويل من العربات المحملة بما غنموه من بيثينيا ، كما تميز بألسنة النيران المندلعة فى نيقية ونيقوميدية اللتين أحرقوهما فى قسوة بالغة . وهناك اشارات غامضة ذكرت عن معركة مشكوك فيها أمنت انسحابهم ، ولكن ، حتى الانتصار الكامل كان لزاما أن يبقى ذا قيمة تافهة ، لأن اقتراب الانقلاب الخريفى كان يستحثهم على التعجيل بالعودة . وان الأتراك الحديثين يعتبرون الملاحة فى البحر الأسود قبل شهر مايو ، أو بعد شهر سبتمبر ، ضربا من التهور والحماقة لا نزاع فيه .

واذا علمنا أن الأسطول الثالث الذى أعده القوط فى موانى البسفور كان يتكون من خمسمائة سفينة شراعية ، لاستطاع خيالنا فى الحال أن يحصى ويقدر التسلح الرهيب ، أما وقد أكد لنا المؤرخ الحكيم سترابون Strabo أن قوارب القرصنة التي استخدمها المتبربرون فى بنطس وسكيذيا الصغرى لم يكن يتسع الواحد منها لأكثر من خمسة وعشرين أو ثلاثين رجلا ، ففى امكاننا أن نتثبت ، ونحن مطمئنون، من أن خمسة عشر ألفا على الأكثر قد أقلعوا فى هذه الحملة الكبيرة . وضاق صدر القوط ، باتساع أطراف البحر الأسود فحولوا طريق حملتهم

المدمرة من أرض الغيوم والضباب الدائم الى البسفور عند تراقيا ، فما كادوا يبلغون وسط المضايق حتى انساقوا فجأة الى الوراء نحو مدخل المضايق ، حين هبت فجأة فى اليوم التالى ريح مواتية حملتهم فى بضع ساعات الى البحر الهادىء ، أو بالأحرى الى بحر مرمرة . وما أن نزلوا الى جزيرة سيزيكوس حتى دمروا هذه المدينة القديمة المجيدة ، ومن هنا تقدموا ثانية فى الممر الضيق عبر الدردنيل ، ثم واصلوا ابحارهم ذات اليمين وذات الشمال ووسط الجزر الكثيرة المتناثرة فى بحر ايجه ، وكان لابد من الاستعانة بالأسرى والهاربين ليقودوا سفنهم ، وليوجهوا هجماتهم المختلفة على شواطىء اليونان وشواطىء آسيا على السواء . وأخيرا رسا أسطول القوط فى ميناء بيريه على بعد خمسة أميال من اثينا التى حاولت أن تتأهب لدفاع مجيد . وأصدر الامبراطور أوامره الى المهندس كليوداموس Cleodamus بتحصين المدن الساحلية ضد القوط ، فشرع فعلا فى اصلاح الأسوار القديمة التى كانت آيلة الى السقوط منذ عهد سلا Sylla . ولم تجد مهارته وجهوده شيئا ، وأصبح المتبربرون سادة بلد الفنون والأفكار . ولكن بينما أمعن الغزاة فى السلب والنهب وانغمسوا فى الدعارة والفجور ، باغت دكسيبوس Dexippus الجرىء — الذى كان قد نجا بنفسه مع المهندس كليوداموس ابان غزو أثينا — أسطولهم الرابض فى مياه بيريه تحت حراسة هزيلة ، وانقض عليهم بما جمع فى سرعة من حشود من المتطوعين والفلاحين والجنود ، والى حد ما ثأر لما حل بوطنه من كوارث .

ومهما أضفى هذا العمل من رونق وبهاء على عصر اضمحلال أثينا ، فانه أهاج ، أكثر من أنه أخمد ، روح الجرأة والاقدام فى الغزاة الشماليين . واشتعلت النار فى نفس الوقت فى مختلف أنحاء اليونان . وغدت طيبة وأرجوس وكورنثة واسبرطة التى شنت فيما مضى حروبا شعواء مشهودة ضد بعضها بعضا — غدت الآن عاجزة عن تجنيد أى جيش فى الميدان ، بل عن مجرد الدفاع عن تحصيناتها المتداعية . وامتدت لظى الحرب فى البحر والبر من سونيوم Sunium فى أقصى الشرق الى شاطىء أبيروس فى الغرب . وتقدم القوط الآن على مرأى من ايطاليا ، حين أيقظ اقتراب هذا الخطر الجسيم جالينوس الخامل من أحلامه السعيدة . وظهر الامبراطور على رأس جيشه ، ويبدو أن وجوده فت فى عضد أعدائه ووزع قوتهم . وقبل نولوباتوس Naulobatus رئيس قبائل الهيرولى Heruli التسليم بشروط كريمة ، ودخل مع فريق كبير من بنى جلدته فى خدمة روما ، ومنح أوسمة

مرتبة القنصل التي لم تكن لوثتها بعد أيدي أحد من المتبربرين ، وتولى القوط الضجر بأخطار هذه الرحلة المملة ومشاقها ، فاتجهوا الى ميسيا Maesia ، وقد اعتزموا أن يشقوا طريقهم عنوة عبر الدانوب الى مرابضهم في أوكرانيا ، وكانت هذه المحاولة الضيالة تعني خرابا محققا ، لو لم يهيىء ارتباك القواد الرومان للمتبربرين وسائل الهرب . ذلك أن البقية القليلة من هذا الجيش المدمر قفلت راجعة على سفنهم ، وفيما هم يشقون طريق العودة عبر الدردنيل والبسفور ، أغاروا على شواطىء طروادة ، التي خلد لها هوميروس شهرة أبقى على الزمان من ذكرى غزوات القوط . وحالما وجدوا أنفسهم آمنين في عرض البحر الأسود نزلوا في انخيالوس في تراقية ، قرب سفح جبل هيموس Haemus ، وانصرفوا بعد هذا الكد والجد الى التمتع بهذه الحمامات الصحية البهيجة . ولم يبق من المرحلة بعد ذلك الا رحلة بحرية يسيرة قصيرة . وهكذا تنوع مصير مشروعهم البحري الثالث وهو أعظم مشروعاتهم . وقد يكون من العسير أن نتصور كيف استطاع الجيش الأصلي المكون من خمسة عشر الف محارب أن يحتمل الخسائر والتفرق في مثل هذه المغامرة الجريئة . والواقع أنه كلما تناقص عددهم بفعل السيف أو الغرق أو الحر ، عوضوا عنه دائما بأفواج من الآبقين وقطاع الطرق الذين انضموا تحت راية السلب والنهب ، وبحشود من العبيد اللاجئين — من المانيا وسارماتيا في الغالب — الذين انتهزوا الفرصة العظيمة ، فرصة الحرية والانتقام . وزعمت أمة القوط لنفسها نصيبا أكبر من الشرف والمخاطرة في هذه الحملات ، ولكن القبائل التي حاربت تحت راية القوط أحيانا تميزت وأحيانا غمط حقها فيما دون أو روى من تاريخ غير دقيق لهذا العصر ، ولما كان يبدو أن أساطيل المتبربرين تبدأ من مصب نهر الدون ، فان التسمية الغامضة المألوفة وهي « السكوذيون » كانت تطلق على الجمع المختلط .

وفي الكوارث العامة التي تنتاب الجنس البشري ، قد يمر الناس مرورا عابرا غافلا على موت فرد مهما كان عظيما ، وعلى خراب بناء مهما كان مشهورا . ولكننا لا نستطيع أن ننسى معبد ديانا في افيسوس ، فانه بعد أن أعيد يتلألأ في بهاء متزايد بعد سبع كوارث متكررة ، قد أحرقه القوط في غزوتهم البحرية الثالثة . ان فنون اليونان وكنوز آسيا تضافرت على تشييد هذا البناء الفخم المقدس ، وقد أقيم على مائة وسبعة وعشرين عمودا من الرخام وفق الطراز الأيوني ، وكانت كلها هدايا من الملوك الأتقياء ، وكان ارتفاع كل منها ستين قدما . وزين المذبح بأروع تماثيل النحات براكسيتيلس Praxiteles الذي ربما

-اختار موضوعاتها من أساطير المكان المحبوبة عن مولد أطفال لاتونا Latona المقدسين ، واختفاء أبوللو بعد ذبح سيكلوبس Cyclops وترفق باخوس بالأمازونيين المقهورين . على أن طول معبد افيسوس كان أربعمائة وخمسة وعشرين قدما فقط ، أى نحو ثلثى كنيسة القديس بطرس فى روما . وكان فى أبعاده الأخرى لا يزال أقل كثيراً من هذا النتاج المعمارى الحديث . والواقع أن الأذرع الممتدة للصليب المسيحى تتطلب اتساعا أكبر كثيرا من المعابد الوثنية المستطيلة ، وربما فزع وارتبك أجرأ الفنانين القدامى لمجرد الاقتراح برفع قبة فى الهواء فى حجم البانيثون ونسبه وأبعاده . ومهما يكن من أمر ، فقد كان ينظر الى معبد ديانا باعتباره احدى عجائب الدنيا . وقد احترم قدسيته الأباطرة المتعاقبون والفرس والمقدونيون والرومان وزادوا فى بهائه . ولكن متوحشى البلطيق الغلاظ لم يتذوقوا الفنون الجميلة ، واحتقروا الأهوال الخيالية لخرافة أجنبية .

وهناك ، غير ذلك، ما يروى من احداث هذه الغزوات ، مما يستحق اهتمامنا ، لولا أنه قد يتطرق الينا الشك بحق ، فى أنه من تصوير خيال سفسطائى حديث . فقد قيل ان القوط فى غارتهم على أثينا ، جمعوا كل الكتب من المكتبات ، وكانوا على وشك اشعال النار فى هذا الكوم الجنائزى من علوم اليونان ، لولا أن أحد رؤسائهم — وكان أكثر تهذيبا وأحسن سياسة من رفاقه — ثناهم عن هذا العمل بأن أبدى ملاحظة عميقة ، مؤداها أن اليونان اذا انكبوا على الدرس والبحث لن يتجهوا الى الحرب والسلاح . والواقع أن المستشار الحكيم (لو سلمنا بصدق هذه الرواية) فكر على طريقة متبربر جاهل ، ففى أقوى الأمم وأكثرها تهذيبا ظهرت العبقرية فى مختلف صورها فى نفس الوقت تقريبا ، وكان عصر العلم ، بصفة عامة ، هو عصر المواهب العسكرية والنجاح الحربى .

غزو الفرس لأرمينيا : أسر فاليريان

٤ — انتصر ملك الفرس الجديد أرتجزرسيس وابنه شابور (كما رأينا) على أسرة ارشك (الأسرة المالكة فى بارثيا) . والواقع أن خسرو ملك أرمينيا هو الوحيد من بين الأمراء العديدين من هذا العرق القديم ، الذى احتفظ بحياته وباستقلاله ، فقد دافع عن نفسه بالقوة الطبيعية لبلدة ، وبالسيل المستمر من اللاجئين والساخطين ،

وبالتحالف مع الرومان ، وفوق ذلك بشجاعته هو نفسه . انه لم يقهر في حرب دامت ثلاثين عاما ، ولكن قتله آخر الأمر رسل شابور ملك الفرس . وتوسل حكام أرمينيا المحبون لوطنهم ، والذين أكدوا حرية التاج وكرامته ، الى روما لتحمى بلادهم ، رعاية لمصلحة الوريث الشرعى « تيريداتس Tiridates » . ولكن ابن خسرو كان طفلا ، وكان الحلفاء على مسافة نائية ، فتقدم ملك الفرس نحو الحدود على رأس جيش تعذر صده ، وأنقذ اخلاص أحد الخدم تيريداتس الصغير ، وهو أمل المستقبل فى بلده . ولكن أرمينيا ظلت سبعا وعشرين سنة ولاية ساخطة نافرة وسط مملكة الفرس الكبيرة . وتشجع شابور — وقد انتفخت أوداجه بهذا الفتح اليسير المنال ، وأخذ مساوىء الرومان وكروبهم قضية مسلما بها — فأرغم الحاميات القوية فى القارة ونصيبين على التسليم ، ونشر الخراب والرعب على جانبى الفرات .

وخسرت روما حدا هاما ، وانهار حليف طبيعى مخلص لها ، وتحققت بسرعة أطماع شابور ، كل أولئك اثار فى روما شعورا عميقا بالاهانة ، كما أهاج احساسا شديداً بالخطر . وتوهم فاليريان أن يقظة ولاته قد تكفى لتأمين سلامة الراين والدانوب ، ولكنه عقد العزم ، رغم تقدم سنه ، على أن يشخص بنفسه للدفاع عن الفرات ، وفى أثناء تقدمه فى آسيا الصغرى توقفت حملات القوط البحرية ، ونعمت الولايات المنكوبة بهدوء عابر خداع . وجاوز الامبراطور الفرات والتقى بملك الفرس قرب أسوار مدينة اذاسا فهزمه شابور وأسره . وذكرت تفاصيل هذا الحدث الجلل مشوبة بالغموض والنقص ، ولكن يمكن من الضوء الذى تيسر لنا أن نكشف من جانب الامبراطور الرومانى عن سلسلة طويلة من التهور والخطأ والنكسات التى نزلت به ، وهو أهل لها ! فقد وضع فى ماكريانوس رئيس الحرس البريتورى ثقة وطيدة . ولكن هذا الوزير التافه جعل من سيده شخصا شديد البأس أمام رعاياه المظلومين فقط ، وشخصا محتقرا فى أعين أعداء روما . وانهار الجيش الامبراطورى بفضل نصائحه الهزيلة أو الخبيثة الى وضع أعوزته فيه الشجاعة والمهارة العسكرية على حد سواء . وقام الرومان بمحاولة جريئة باسلة لاقتحام جيش الفرس ، ولكنهم صدوا ، وسقط عدد كبير من رجالهم قتلى . وتذرع شابور ، الذى طوق المعسكر بأعداد كبيرة من الجنود — تذرع بالصبر وانتظر حتى اشتدت وطأة المجاعة والوباء ، ليتأكد من الفوز ، وسرعان ما تعالت الصرخات الفاجرة من الجنود تتهم فاليريان بأنه سبب النكبات ، وطالبت صيحاتهم المتمردة بالتسليم فورا . وعرض مبلغ كبير من الذهب ثمنا للترخيص فى انسحاب

مهين ، ولكن ملك الفرس الواثق من تفوقه رفض المال باحتقار ، واحتجز المندوبين، وتقدم هو فى تشكيل معركة، حتى وصل الى بداية استحكامات الرومان ، وأصر على الاجتماع بالامبراطور شخصيا . وبلغ الهوان بفاليريان الى حد الحاجة الى أن يكل أمر حياته وكرامته الى الثقة فى عدوه ، وانتهت المقابلة بما كان طبيعيا أن تنتهى به ، فقد أسر الامبراطور وسلمت قواته المذهولة أسلحتها . وفى لحظة النصر ، أبت سياسة شابور وغروره عليه الا أن يضع على العرش الخالى خلفا تابعا ذليلا يعتمد على رضاه كل الاعتماد . واختير لتلويث العرش الرومانى سرياذس Cyriades . وهو لاجىء حقير من أنطاكية لم يتورع عن أية سيئة أو رذيلة ، وحظيت ارادة الملك الفارسى الظافر بهتافات الجيش الأسير تصديقا عليها ، وان كانت هذه قد جاءت على مضض .

وتلهف الامبراطور العبد على كسب رضا سيده بخيانة يرتكبها ضد بلده الأصلى ، فقاد شابور عبر الفرات ، ثم عن طريق كلكيس Chalcis الى عاصمة الشرق ، وكانت تحركات الخيالة الفرس سريعة جدا ، الى حد أن أنطاكية — اذا صدقنا مؤرخا حكيما جدا — أخذت على غرة ، على حين كان الجمهور الخامل الكسول قابعا يحملق فى مباهج المسرح معتزا بها . وسلبت أو خربت المبانى الجميلة ، الخاص منها والعام ، فى أنطاكية . وضربت أعناق جمهرة السكان أو أسروا . وتوقف التخريب أمدا قصيرا بناء على قرار من كاهن حمص الأعظم ، فقد ظهر ، مرتديا حلته الكهنوتية ، على رأس حشد من الفلاحين المتعصبين وقد تسلحوا بالمقاليع ليس غير ، ليدافع عن معبوده وأملاكه ضد أتباع زرادشت Zoroaster وأيديهم المدنسة . وفيما عدا هذا المثال الفريد فان تدمير طرسوس وكثير غيرها من المدن يقدم دليلا محزنا — على أن غزو سورياوقيليقيا قلما عاق تقدم الجيش الفارسى . لقد عدلوا عن مزايا الممرات الضيقة فى جبال طوروس ، تلك التى يشتبك فيها فى قتال غير متكافىء ، أى فاتح تتركز قوته الأساسية فى فرسانه . وتمكن شابور من فرض الحصار على قيصرية ، عاصمة كبادوكيا ، وهى مدينة كانت فرضا تضم أربعمائة ألف من السكان ، ولو أنها من مدن الدرجة الثانية . وسيطر ديموستين على المكان ، لا بأمر من الامبراطور ، أكثر منه بتطوعه للدفاع عن بلاده . وقد أجل مصيرها وقتا طويلا . فلما سقطت قيصرية أخيرا نتيجة لغدر أحد الأطباء ، شق ديموستين طريقه وسط الفرس الذين صدرت اليهم الأوامر ليبذلوا أقصى الجهد ليأخذوه حيا . ولكن الرئيس البطل أفلت من قوة عدو ربما رفعه مكانا عليا أو أنزل به أشد العذاب جزاء صلابته العنيدة ، ولكن عدة آلاف من

بنى وطنه راحوا ضحية مذبحة عامة ، ويتهم شابور بمعاملة أسراه معاملة قاسية عاتية ، ولابد هنا من افساح المجال للكلام عن الكراهية الوطنية والكبرياء الجريحة والانتقام الهزيل . ولكن يمكن القول بصفة عامة بأنه من المحقق أن الأمير الذى ظهر فى أرمينيا بمظهر المعتدل ، ظهر للرومان فى هيئة فاتح كشر عن أنيابه ، وقد يئس من اقامة صرح ثابت فى الامبراطورية ، فسعى فى أن يخلف وراءه خرابا بلقعا ، على حين أنه نقل الى فارس أهالى الولايات وكنوزها .

وفى الوقت الذى كانت فرائص الشرق ترتعد فرقا لمجرد ذكر اسمه، تلقى شابور هدية تليق بأعظم الملوك ، وهى عبارة عن قافلة كبيرة من الجمال محملة بأندر السلع وأثمنها ، ومعها رسالة كريمة ، ولكنها ليست مهينة ولا ذليلة ، من أوديناتوس (أذينه) ، وهو من أنبل وأغنى شيوخ السناتو فى تدمر Palmyra . وتساءل الظافر المتغطرس المتعالى، وقد أمر بأن يلقى بالهدايا فى نهر الفرات : « من هو أوديناتوس هذا الذى تبجح هكذا وكتب الى مولاه ؟ اذا كان يمنى نفسه بتخفيف عقابه فدعوه يخر راكعا تحت أقدام عرشنا ويداه مغلولتان الى ظهره ، فاذا تردد ، فلتصبوا الخراب فوق رأسه وبنى جنسه وبلده ! » واستبد اليأس المتطرف المستميت بشيخ تدمر حتى أثار كوامن القوى فى نفسه ، فالتقى بشابور ، ولكنه كان لقاء مسلحا . فقد حوم حول جيش الفرس بجيش صغير نفخ فيه من روحه ، جمعه من قرى سوريا ومن خيام الصحراء فعوق انسحاب الفرس واحتجز جزءا من كنوزهم ، وأغلى من أى كنز وأثمن ، عددا من نساء الملك المعظم الذى اضطر الى أن يعبر الفرات ثانية فى شىء من العجلة والاضطراب . وبهذا العمل وضع أودىناتوس أسس شهرته وثروته فيما بعد . وهكذا احتفظ سورى أو عربى من تدمر لروما بعظمتها التى امتهنها الفرس .

ويعيب صوت التاريخ . وهو عادة لا يزيد كثيرا عن عوارض المقت أو سوانح الملق ، على شابور استغلاله لحق الفتح استغلالا مشوبا بالغرور والتفاخر ، فيخبرنا أن فاليريان عرض لتشهده الجماهير وهو مكبل بالأغلال فى حلته الامبراطورية ، رمزا لعظمة تهاوت ، وأنه كلما امتطى ملك فارس صهوة جواده أناخ بقدمه على عنق الامبراطور الرومانى . وبقى شابور عنيدا لا يرعوى ، على الرغم من اعتراضات حلفته الذين طالما أخلصوا له النصح أن يتذكر تقلبات الحظ ، ويخشى استرداد روما لقوتها ، وأن يجعل من أسيره الكبير رهينة للصلح والسلام ، لا هدفا للاهانة والاساءة . فلما قضى فاليريان تحت وطأة العار

والحزن حشى جلده بالقش وشكل على هيئة انسان وحفظ لعدة أجيال في اشهر معابد فارس رمزا للنصر ، وقد كان أصدق من تلك الأنصاب الخلابة النحاسية أو الرخامية التى غالبا ما شيدها غرور الرومان . والقصة قصة اخلاقية تثير الشجون . ولكن يجوز أن يكون وجه الحق فيها مثار نزاع . فالرسائل الموجودة حتى الآن من أمراء الشرق الى شابور عبارة عن تزييف صارخ ، وليس من الطبيعى أن يذهب بنا الظن الى أن أى ملك حقود لابد أن يحط من جلال الملوك حتى ولو فى شخص منافسه . ومهما كان من أمر المعاملة التى لقيها فاليريان المنكود الحظ فى فارس ، فانه من المحقق على الأقل انه امبراطور روما الوحيد الذى وقع فى أيدى الأعداء وأفنى حياته أسيرا بائسا .

أما الامبراطور جالينوس الذى احتمل طويلا ، بصبر نافد ، من أبيه وزميله قساوته اللاذعة فقد تلقى أنباء نكباته بسرور خفى . وفى استهتار علنى قال : « لقد عرفت أن أبى فان وليس مخلدا ، ولقد فعل كما يليق بالشجعان أن يفعلوا ، ومن ثم فانى راض كل الرضا » . وفى الوقت الذى كانت فيه روما ترثى لمصير مليكها ، كان رجال البلاط الأدنياء الأذلاء يمتدحون الفتور الوحشى فى ابنه ، وكأنه كمال الصلابة والعزم فى بطل أو رواقى . وليس من اليسير أن نصور الأخلاق الهزيلة المتقلبة المزعزعة التى تكشفت بلا ضابط فى جالينوس حالما أصبح المالك الأوحد لزمام الامبراطورية ، وفى كل فن حاوله مكنته عبقريته النشيطة من النجاح ، ولما كانت عبقريته مجردة من القدرة على التمييز ، فقد حاول كل فن اللهم الا أهم الفنون : فن الحرب وفن الحكم ، فكان بارعا فى كثير من العلوم الغريبة ، ولكنها جميعا عقيمة عديمة الجدوى . كان خطيبا حاضر البديهة ، وكان شاعرا رقيقا ، وبستانيا ماهرا ، وطباخا ممتازا ، كما كان أجدر أمير بالهزء والزراية ، ففى الوقت الذى كانت المهام العاجلة للدولة تتطلب وجوده وعنايته ، كان هو يشغل نفسه بالمناقشة مع الفيلسوف بلوتينوس Plotinus أو يقضى وقته فى سفاسف الأمور ، أو فى الملذات الفاجرة ، أو فى الاستعداد للأسرار اليونانية ، أو فى التماس مكان فى الاريوباجوس Areopagus (المحكمة العليا) فى أثينا وكان افراطه فى العظمة والجلال اساءة الى الفقر العام . وغرست السخرية الكئيبة من انتصاراته فى النفوس شعورا أعمق بالعار . وكان يتلقى الأنباء المتكررة عن الغزو والهزيمة والعصيان بابتسامة غير مبالية ، ثم يخص بالذكر ، مع التظاهر بالازدراء ، انتاجا معينا من الولاية المفقودة ، ويتساءل فى غير اكتراث : هل يحل الخراب بروما اذا لم تتزود بالتيل من مصر وستائر الجدران من الغال ؟ على أن فى حياة جالينوس

لحظات قليلة قصيرة ، حين كانت تهيج غضبه ملمة طارئة ، فانه كان عند ذاك يبدو فجأة جنديا باسلا وطاغية قاسيا ، حتى اذا شبع من الدم أو تعب من المقاومة ، عاد ، دون أن يشعر ، الى سابق الاعتدال والبلادة ، وهما من طبيعة خلقه .

وليس مما يدعو الى الدهشة أنه ، فى الوقت الذى تراخت فيه قبضته على مقاليد الأمور ، برزت شرذمة من الغاصبين فى مختلف ولايات الامبراطورية ، تعمل ضد ابن فاليريان . وربما كان هذا الضرب من الخيال الرائع الذى أوحى بمقارنة الطغاة الثلاثين بنظرائهم الطغاة الثلاثين فى أثينا ، هو الذى أغرى كتاب تاريخ أوغسطس باختيار هذا الرقم الذى أصبح بالتدريج تسمية مألوفة . ولكن التطابق من كل الوجوه عقيم سقيم ، فأى شبه يمكن أن يتكشف لنا بين مجلس مكون من ثلاثين شخصا اجتمعوا على ظلم مدينة واحدة بعينها ، وبين قائمة مشكوك فيها تضم منافسين مستقلين نهضوا وسقطوا فى تعاقب غير منتظم فى مختلف أنحاء امبراطورية شاسعة ؟ كذلك لن يكتمل رقم الثلاثين هذا الا اذا دخلنا فى حسابنا النساء والأطفال الذين أسبغ عليهم شرف اللقب الامبراطورى . وأنتج حكم جالينوس ، على ما كان عليه من خبال ، تسعة عشر فقط ممن زعموا لهم حقا فى العرش ، وهم سرياديس Cyriades ، مكريانوس ، بالستا Balista ، أوديناتوس ، وزنوبيا ، فى الشرق — بوستوموس Posthumus ، لوليانوس Lollianus ، فيكتورينوس وأمه فكتوريا ، ماريوس ، تتريكوس Tetricus فى الغال والولايات الغربية — انجينوس Ingenuus ورجلليانوس Regillianus ، وأوريولوس Aureolus فى الليريكوم ومنطقة الدانوب — وساتورنينوس Saturninus فى بلاد بنطس — وتربليانوس Trebellianus فى ايزوريا (فى اقليم طوروس) — وبيزو Piso فى تساليا — فالنز Valens فى آخيا Achia — امليانوس فى مصر — سلسوس Celsus فى أفريقية . وقد نجد مشقة فى تبيان آثار كل منهم فى حياته ومماته ، وهو كذلك عمل لا غناء فيه ولا لذة ، وقد نكتفى بالتعرف على الطبائع العامة التى تميز أحوال العصر وسلوك الرجال ، ومزاعمهم وبواعثهم ومصيرهم ، والنتائج الوبيلة التى نجمت عن اغتصابهم الحكم .

من المعروف جيدا أن اللفظة الكريهة « طاغية » غالبا ما كان يستعملها القدامى للدلالة على مجرد الاستيلاء غير الشرعى على زمام السلطة العليا ، دون اشارة الى سوء الاستغلال . وكان كثير من المدعين الذين رفعوا راية العصيان ضد الامبراطور جالينوس ، نماذج مشرقة

للفضيلة ، وكادوا جميعا يتحلون بقسط كبير من النشاط والمقدرة ، وقد أهلتهم مواهبهم وجدارتهم لنيل الحظوة لدى فاليريان الذى رفعهم تدريجا الى أهم مراتب الامبراطورية . أما القواد الذين حظوا بلقب أوغسطس ، فقد كان جنودهم يحبونهم لسلوكهم الذى يتسم بالكفاية والمقدرة ولصرامة النظام الذى يسود الجيش ، أو يعجبون بهم لشدة بأسهم ونجاحهم فى الحرب ، أو يحبونهم من أجل صراحتهم وكرمهم . وكان ميدان النصر ، هو فى الغالب مقر انتخابهم ، وحتى ماريوس صانع الأسلحة والدروع ، أحق طالبى العرش بالزراية والاحتقار ، كان يتميز على أية حال بشجاعة لا تلين وقوة لا تبارى ، وبأمانة مطلقة ، وقد القت مهنته الحديثة الدنيئة فى الواقع ظلا من السخف والسفاهة على ترقيته ، ولكن نشأته ، أو مولده ليس أكثر خمولا وضعة من غالبية منافسيه الذين ولدوا من آباء فلاحين وانخرطوا فى الجيش كأنفار أو عساكر عاديين . وفى وقت الفوضى والاضطراب يجد كل ذكى نشيط المكان الذى حددته له الطبيعة ، وفى حالة الحرب العامة تكون الموهبة العسكرية هى السبيل الى المجد والعظمة ، وكان تتريكوس عضو السناتو الوحيد بين الطغاة التسعة عشر ، كما كان بيزو وحده من النبلاء . وجرى دم نوما Numa ، لثمانية وعشرين جيلا متعاقبة ، فى عروق كالفورنيوس بيزو الذى جاز له بمقتضى زيجات من سيدات من أسرته ، أن يدعى حق عرض صور كراسوس وبومبى الكبير فى بيته . وكان أسلافه يكرمون دواما بكل الأمجاد التى كانت الجمهورية تستطيع أن تمنحها . وأسرة كالفورنيوس هى الوحيدة ، من بين الأسرات القديمة فى روما ، التى افلتت من طغيان القياصرة ، وقد أضفت صفات بيزو الشخصية مزيدا جديدا من السناء والرفعة على محتده الكريم . واعترف الغاصب فالنس ، الذى قتل بيزو بأمر منه ، فى ندم عميق ، بأن العدو نفسه كان ينبغى أن يجل بيزو ويرعى له حرمته ، وعلى الرغم من أنه قضى نحبه فى الحرب ضد جالينوس ، الا أن السناتو — بترخيص كريم من الامبراطور ، قرر منح أوسمة النصر لذكرى الثائر الفاضل .

وكان ولاة فاليريان يعترفون له بفضل الوالد الذى قدروه تقديرا . ولكنهم احتقروا أن يخدموا ابنه التافه غير الجدير بالملك ، السادر فى خمول الترف وبلادة البذخ . ولم يكن يدعم عرش العالم الرومانى أى مبدأ من مبادىء الولاء . وقد يكون من السهل أن تعتبر خيانة مثل هذا الأمير وطنية وولاء للدولة . على أنه يتضح لنا من الفحص الدقيق لسلوك هؤلاء الغاصبين أنهم كانوا فى الكثير الغالب مسوقين الى الثورة بدافع من مخاوفهم ، أكثر منهم باغراء من مطامعهم . لقد توجسوا خيفة

من شكوك جالينوس الغاشمة ، ومن النزوات العنيفة الطائشة لقوات الجيش . فاذا أعلن الجيش دون تبصر ، نتيجة لحبه المحفوف بالخطر ، استحقاقهم للعرش ، فكأنما وافاهم الدمار المحقق ، ومن ثم يكون من الأفضل التمتع بالامبراطورية ، لفترة قصيرة . وهنا تكون تجربة الحظ في الحرب خيرا من انتظار يد الجلاد — ولما أسبغت هتافات الجنود على هؤلاء الضحايا غير الراغبين شعارات السلطة الملكية، حزنوا ورثوا في أنفسهم لدنو أجلهم . وقال ساتورنينس Saturninus يوم اعتلائه العرش « لقد فقدتم قائداً نافعا ، وصنعتم امبراطورا شقيا تعيسا » .

وكانت الثورات المتكررة تبرر مخاوف ساتورنينس ، فان أحدا من الغاصبين التسعة عشر الذين ظهروا في أيام جالينوس ، لم ينعم في حياته بالسلام أو الهدوء أو بميتة طبيعية، فانهم حالما يرتدون الحلة الامبراطورية الملطخة بالدم ، يوحون الى أتباعهم وأشياعهم بنفس المخاوف والطموح الذى دعا الى ثورتهم ، لقد أحاطت بهم المؤامرات الداخليـــة والفتن العسكرية والحروب الأهلية حتى ارتعدوا فرقا على حافة هاوية لن يجدوا عنها مصرفا بعد فترة من القلق طالت أو قصرت . وتلقى هؤلاء الملوك المزعزعون من التكريم والأمجاد ما شاء ملق وريـــاء جيوشهـــم وولاياتهم أن يضفيه على كل منهم . ولكن دعواهم المؤسسة على الثورة لا يمكن أن تحصل على ضمان وسند من القانون أو التاريخ . والتزمت ايطاليا وروما والسناتو جانب الامبراطور ، واعتبروه سيد الامبراطورية . وتنازل الأمير في الحقيقة فاعترف بانتصار قوات أوديناتوس الــذى استحق التكريم والتشريف لسلوكه الكريم الذى التزم به دومـــا ازاء ابن فاليريان ، فمنح السناتو ابن تدمر الباسل لقب أوغسطس وسط مظاهر الاستحسان العام من الشعب الرومانى ، وبموافقة جالينوس . ويبدو أنه عهد اليه بحكومة الشرق ، التى كان يتولاها بالفعل ، بدرجة من الاستقلال ، حتى انه أوصى به لأرملته الشهيرة زنوبيا ، وكأنـــه تركة وراثية .

وربما كان في الانتقالات السريعة المستمرة من الكوخ الى العرش ، ومن العرش الى القبر تسلية لفيلسوف عديم الاكتراث ، اذا استطاع الفيلسوف أن يستمر على الاستهتار وعدم الاكتراث وسط الـــكوارث العامة التى تنتاب الجنس البشرى . وكان في انتخاب هؤلاء الأباطرة المزعزعين وفي سلطانهم وموتهم وبال على رعاياهم وانصارهم : ألم يكن ثمن هذا الارتقاء المميت يسدد فورا للقوات في هبات سخية تبتز مـــن بطون الشعب النهوك ، ومهما كان خلقهم كريما فاضلا ، ومهما كـــانت

نزعاتهم طيبة نقية ، فقد وجد هؤلاء الغاصبون أنفسهم مضطرين الى الانحطاط الى مستوى الضرورة الملحة لارتكاب الكثير من أعمال السلب والنهب والقسوة لتدعيم هذا السلطان الذى اغتصبوه . وكانوا اذا سقطوا يطوون معهم الجيوش والولايات فى هوة السقوط . ولا يزال يوجد حتى الآن أمر وحشى أصدره جالينوس الى احد وزرائه بعد قمع انجينوس الذى كان يطالب بالعرش فى الليريكوم ، يقول فيه الأمير الناعم المجرد من الروح الانسانية : « ليس يكفى أن تبيد كل من يحمل سلاحا ، فقد حققت فرصة المعركة أغراضها بنفس القدر ، ولكن يجب أن نقضى على الذكور من مختلف الأسنان ، شريطة أن تدبر ، فى حالة اعدام الأطفال والشيوخ ، الوسائل الكفيلة بانقاذ سمعتنا ، فليمت كل من تفوه بعبارة عدائية ، أو راوده تفكير عدائى ضدى ، ضدى أنا ، ابن فاليريان ، والوالد والأخ لكثير من الأمراء . تذكر أنهم صنعوا من انجينوس امبراطورا ! مزق ، اذبح ، اقطع اربا اربا ، انى أكتب اليك بيدى ، لعلى أوحى اليك بمشاعرى » . وانغمست القوات العامة للدولة فى النزاعات الخاصة ، على حين بقيت الولايات العزلاء الخالية من الدفاع معرضة للغزاة . واضطر أشجع الغاصبين ، نتيجة لاضطراب مواقفهم ، الى عقد معاهدات مغرية مع العدو المشترك ، والى شراء حياد المتبربرين أو خدماتهم لقاء أتاوة فادحة ، والى اقحام أمم معادية مستقلة على قلب الامبراطورية الرومانية .

هكذا كان المتبربرون ، وهكذا كان الطغاة على عهد فاليريان وجالينوس ، فقد مزقوا الولايات ، وانزلقوا بالامبراطورية الى أدنى مهاوى العار والدمار ، حتى بدا من المتعذر انتشالها منها قط . لقد حاولنا ، قدر ما سمحت به ضآلة المواد ، أن نتعقب فى نظام ووضوح الأحداث العامة فى هذه الفترة المليئة بالنكبات ، ويبقى بعد ذلك بعض حقائق معينة قد تعكس ضوءا أقوى على الصورة القاتمة الرهيبة :

١ — الاضطرابات فى صقلية .
٢ — الشغب فى الاسكندرية .
٣ — الثورة فى ايزوريا .

١ — اذا تحدث عصابات اللصوص وقطاع الطرق التى تنمو وتتكاثر بفضل ما تصادف من نجاح وأمان من العقاب والحساب — اذا تحدت العدالة فى بلدها علنا ، دون مجرد الافلات من يدها ، فلنا أن نستخلص مطمئنين — أن أحط طبقات الجماعة قد أحست واستغلت افراط الحكومة فى الضعف . ان موقع صقلية حماها من المتبربرين ،

كما أن الولاية العزلاء من السلاح ما كانت لتحتمل غاصبا . فان الجزيرة التى كانت يوما مزدهرة ، والتى لا تزال تربتها خصبة ، عانت ما عانت على أيد أحط وأدنأ . فقد سيطرت جماعة فاجرة من العبيد والفلاحين على البلد السليب بعض الوقت ، وأعادت الى الأذهان ذكرى حروب العبيد فى الأزمنة السحيقة ، ولابد أن عمليات التخريب والتدمير ، التى كان الفلاح ضحية لها أو شريكا فيها ، قد أتلفت زراعة صقلية ، ولما كانت الضياع الرئيسية فيها ملكا للأثرياء من شيوخ السناتو فى روما ، الذين أدخلوا فى نطاق مزارعهم مساحات كانت ملكا للجمهورية القديمة ، فانه لم يكن من غير المحتمل أن تتأثر العاصمة بهذه الأضرار الخاصة ، أكثر منها بغزوات القوط والفرس .

٢ ــ كان تأسيس الاسكندرية مشروعا عظيما ارتآه ونفذه معا ابن فيليب . وكان محيط هذه المدينة العظيمة ــ ذات الشكل الجميل المنتظم ، الثانية بعد روما ــ يبلغ خمسة عشر ميلا ، يقطنها نحو ثلثمائة ألف من الأحرار ، فضلا عن عدد مساو لهم على الأقل من العبيد . وتدفقت تجارة الهند وبلاد العرب الرابحة الى عاصمة الامبراطورية وولاياتها عن طريق ميناء الاسكندرية . ولم تعرف المدينة الى الخمول سبيلا . فاشتغل أناس بنفخ الزجاج وآخرون بنسج الكتان وصناعة البردى . فكلا الجنسين من مختلف الأسنان كان مشغولا فى مطالب الصناعة ، بل ان الكفيف أو الأعرج لم يعدم عملا يتناسب مع حالته . ولكن أهل الاسكندرية ، وهم خليط متباين من الأمم ، جمعوا غرور الاغريق وترفهم الى خرافة المصريين وعنادهم . فان أتفه مناسبة : مثل نقص طارىء فى اللحوم أو العدس ، أو اهمال فى تحية مألوفة ، أو خطأ فى تقاليد الحمامات العامة ، أو حتى نزاع دينى ــ كانت كفيلة فى أى وقت باثارة الشغب بين الجمهور الذى كان فى غيظه وحنقه شرسا لا يرحم . وبعد أن أضعف أسر فاليريان ووقاحة ابنه من سلطان القانون ، أرخى السكندريون العنان لأهوائهم ، فى حدة لا ضابط لها . وأضحى بلدهم المنكود مسرحا لحرب أهلية ، استمرت (مع قليل من هدنات قصيرة مشكوك فيها) أكثر من اثنى عشر عاما . وانقطع الاتصال بين الأحياء الكثيرة فى المدينة المنكوبة ، وتلطخت الشوارع كلها بالدماء ، وتحول كل بناء متين الى قلعة ، ولم يهدأ الهياج الا بعد أن دمر من المدينة جزء كبير بشكل لا يمكن معه تعويضه . وكان قسم بروشيون Bruchion الفسيح الفخم ، حى القصور والمتحف ، مقر ملوك مصر وفلاسفتها ، وقد وصفه بعضهم بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان ، فقال انه انحط بالفعل الى ما هو عليه الآن من عزلة موحشة .

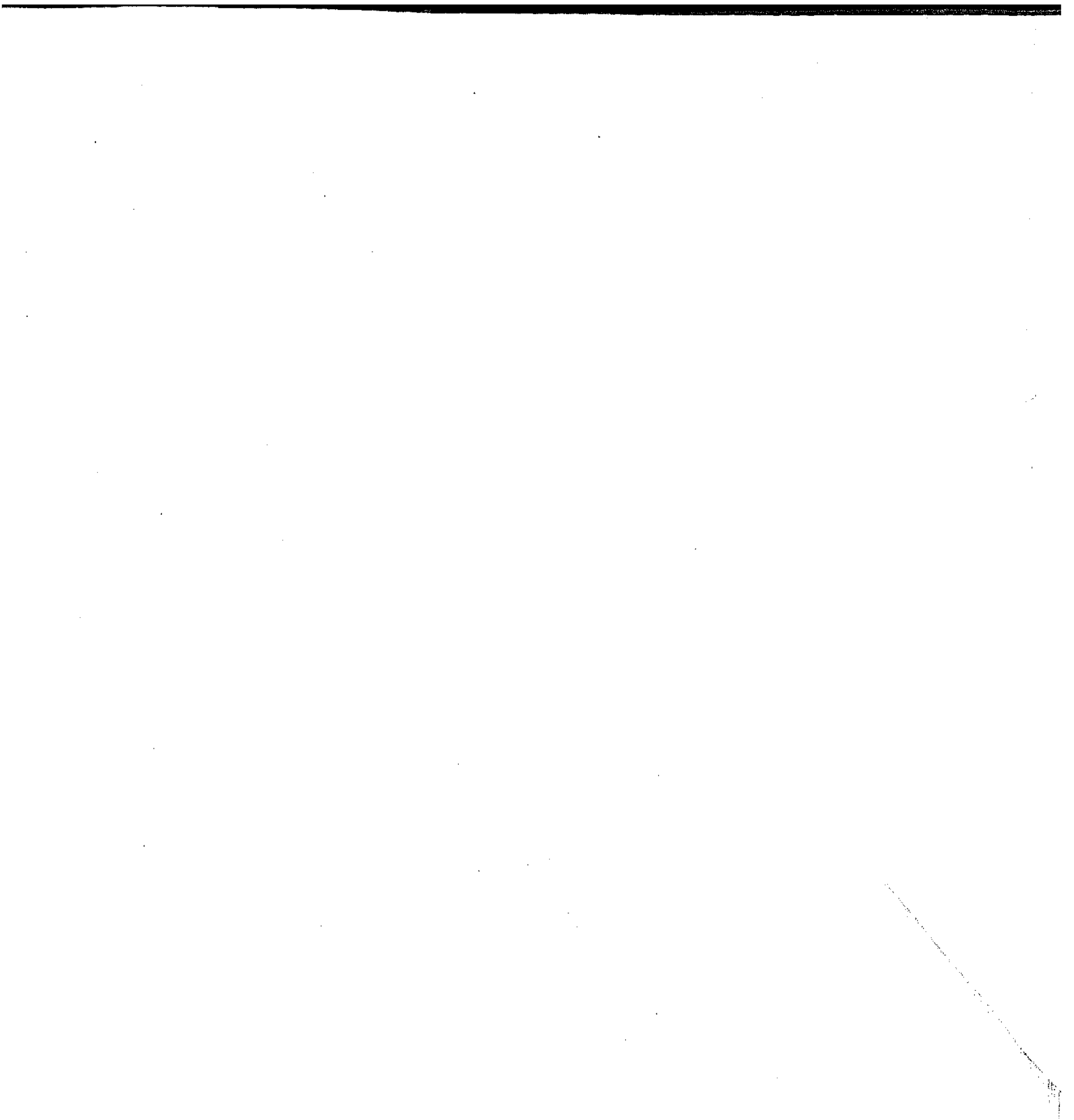
٣ — أسفرت الثورة الغامضة التى قام بها تريليانوس الذى اتخذ لنفسه لقب الامبراطور فى ايزوريا — وهى ولاية صغيرة فى آسيا الصغرى — عن نتائج غريبة تستحق الذكر ، فسرعان ما أفسد أبهة الملك أحد ضباط جالينوس ، ولكن أتباعه قد يئسوا من الرحمة أو الرفق بهم ، وقرروا أن يطرحوا ولاءهم — لا للامبراطور وحده — بل للامبراطورية بأسرها كذلك . وعادوا فجأة الى سلوكهم الوحشى الأول الذى لم يتخلوا عنه تماما قط . وأمنت صخورهم الشاهقة — فرع من جبال طوروس الواسعة الامتداد — لهم ملاذا منيعا لا يمكن معه الوصول اليهم . وفلحوا بعض الأرض الخصبة فزودتهم بضرورات المعيشة ،كما هيأت عادة السلب والنهب لهم حياة الترف والبذخ . لقد بقى اهل ايزوريا أمدا طويلا أمة من المتبربرين المتوحشين فى قلب الامبراطورية الرومانية ، وعجز الأمراء المتعاقبون عن ردهم الى الطاعة بالسيف أو بالسياسة ، حتى اضطروا — اقرارا منهم بالضعف — الى احاطة هذه البقعة المعادية المستقلة بسلسلة طويلة من التحصينات التى ثبت فى كثير من الأحيان أنها غير كافية لصد غارات هؤلاء الأعداء المحليين ، ومد الأيزوريون رقعتهم الى ساحل البحر ، ومن ثم أخضعوا الجزء الغربى الجبلى من قيليقيا ، الذى كان من قبل وكر هؤلاء القراصنة الجريئين ، الذين اضطرت الجمهورية يوما الى أن توجه اليهم أعظم قوة تحت امرة بومبى الكبير .

ان من عاداتنا فى التفكير أن نوجد صلة وثيقة بين نظام الكون وبين مصير الانسان ، الى حد أن هذه الحقبة الكئيبة من التاريخ ملئت بالفيضانات والزلازل والظواهر الجوية الشاذة والظلمة الخارقة للعادة، ومجموعة من الأعاجيب الملفقة أو المبالغ فيها . ولكن كانت هناك المجاعة العامة التى دامت زمنا طويلا ، وكانت كارثة أشد وأقسى، وكانت النتيجة الحتمية للسلب والنهب والظلم الذى استنزف المحاصيل الحاضرة والمرتقبة ، وغالبا ما تجىء الأوبئة فى أعقاب المجاعة ، نتيجة للتغذية الضئيلة غير الصحية . ولابد أن هناك أسبابا أخرى عملت على ظهور الطاعون الرهيب ، الذى اكتسح دون توقف من سنة ٢٥٠ — ٢٦٥ م كل ولاية وكل مدينة ، بل كل أسرة فى الامبراطورية الرومانية ، وجاء وقت كان يموت فيه فى روما خمسة آلاف شخص يوميا ، وثمة مدن أفلتت من أيدى المتبربرين ، ولكنها الآن أقفرت من أهلها بفعل الطاعون.

وأمامنا الآن شىء غريب حقا ، قد يكون ذا دلالة ، فى هذا التقدير المحزن لكوارث الانسان . فقد حفظ فى الاسكندرية سجل دقيق للمواطنين الذين يحق لهم تسلم الغلال الموزعة ، وقد وجد أن العدد

القديم المدرج فى السجل لمن هم بين الأربعين والسبعين سنة كان مساويا لمجموع الطالبين من الرابعة عشرة الى الثمانين ، أولئك الذين بقوا على قيد الحياة بعد عصر جالينوس . فاذا طبقنا هذه الحقيقة الرسمية الموثوقة على أصح جداول المواليد والوفيات ، لثبت بوضوح أن أكثر من نصف سكان الاسكندرية ، قد هلك . فاذا تجرأنا على الامتداد بهذا القياس الى سائر الولايات ، لجاز أن نظن أن الحرب والوباء والمجاعة قضت على نصف الجنس البشرى .

انحسار المد



الفصل الحادى عشر
(٢٦٨ ـ ٢٧٥ م)

زنوبيا ومملكة تدمر • انتصار أورليان ووفاته

تولى العرش بعد جالينوس سلسلة من الأباطرة الأقوياء الذين قال عنهم جيبون بالنص : ((انهم يستحقون اللقب المجيد : معيد بناء العالم الرومانى)) • وقد أصلح الامبراطور الجديد كلوديوس الجيش ، وأحرز انتصاراً فريداً على القوط • وانهى خلفه أوريليان Aurelian لحرب مع القوط بحصرهم فى ولاية داشيا وسحب القوات من جبهة داشيا • وصد بعد ذلك قبائل الليمانى ، واسقط تتريكوس الذى كان قد ادعى لنفسه السيادة فى بلاد الغال واسبانيا وبريطانيا • أما هزيمة تتريكوس التى وصفها جيبون فى سنة ٢٧١ فالمعروف انها أعقبت سقوط زنوبيا ، وانها وقعت فى سنة ٢٧٤ •

ما كاد أوريليان يستولى على ولايات تتريكوس ويقبض عليه ، حتى أسرع بتوجيه قوته الى زنوبيا ملكة تدمر والشرق المشهورة ، وقد أنجبت أوربا الحديثة عدة نساء لامعات احتملن عبء الامبراطورية ، احتمالا مجيدا ، وليس عصرنا نحن خاليا من مثل هذه الشخصيات الفذة. ولكنا اذا استثنينا منجزات سميراميس (١) المشكوك فيها ، فربما كانت زنوبيا هى السيدة الوحيدة التى شقت عبقريتها الفذة أستار الخمول الذليل الذى فرضه على جنسها مناخ آسيا وقواعد السلوك فيها . وادعت أنها انحدرت من الملوك المقدونيين الذين حكموا مصر • وكانت تستوى فى الجمال مع سلفها كليوباترا ، ولكنها فاقتها عفة وطهارة

---

(١) ... أشور ٨١٠ ـ ٨٠٦ ق٠م اشتهرت بالجمال والحكمة ـ تقول الأساطير انها هى التى أسست بابل ـ (المترجم) •

وجراة وشجاعة ، وقد قدروا أن زنوبيا ألطف بنات جنسها واكثرهن بطولة . وكانت سمراء الوجه (وهذه الأشياء التافهة تصبح هامة عند الكلام عن سيدة) ذات أسنان ناصعة البياض كاللؤلؤ . وفاضت عيناها السوداوان حيوية غير عادية ، مع رقة جذابة الى أبعد حد . وكان صوتها قويا مطربا . وكان لها ادراك رجل ، وقد زادت منه وزينته بالدرس ، ولم تكن تجهل اللغة اللاتينية ، ولكنها كانت تجيد اليونانية والسريانية والمصرية بنفس القدر . ولقد دونت لنفسها خلاصة لتاريخ الشرق ، والفت أن تعقد الموازنة بين روائع هوميروس وأفلاطون تحت اشراف لونجينس Longinus الجليل .

وتزوجت هذه المراة المهذبة المثقفة من أودينatوس الذى ارتقى بنفسه من مركز خاص محدود الى السيطرة على الشرق ، وسرعان ما أصبحت هى صديقة البطل ومرافقته ، وكان أودينatوس ، فى أوقات الحروب ، يسر غاية السرور بممارسة الصيد ، فتعقب فى حماسة وشغف وحوش الصحراء الكاسرة مثل الأسد والنمر والدب . ولم يقل تلهف زنوبيا على هذه التسلية الخطرة عن تلهفه . وقد عودت جسمها وبنيتها على التعب والجهد واحتقرت استخدام عربة مكشوفة ، وظهرت بصفة عامة فى لباس عسكرى ممتطية جوادا ، وسارت أحيانا على قدميها عدة أميال على رأس القوات . ونسب نجاح أودينatوس — الى حد كبير — الى حسن بصرها بالأمور وجلدها وثباتها ، وكلها صفات منقطعة النظير . ووضعت أسس وحدة الشهرة والقوة بينهما تلك الانتصارات الرائعة على الملك المعظم الذى تعقبوه مرتين الى أبواب طيسفون Ctesiphon (المدائن) ولم تعترف الجيوش التى توليا قيادتها، أو الولايات التى أنقذاها بأى سيد آخر سوى هذين الرئيسين اللذين لا يقهران . وكرم السناتو وشعب روما الرجل الغريب الذى ثار لامبراطورهم الأسير . بل ان نفس الابن الجامد الفاقد الاحساس — ابن فاليريان — ارتضى أودينatوس زميلا شرعيا له .

وبعد حملة موفقة ضد قطاع الطرق القوطيين فى آسيا عاد ملك تدمر الى مدينة حمص فى سوريا . وهناك أجهزت الخيانة الداخلية على الرجل الذى لم يقهر فى الحرب ، وكانت هوايته المفضلة — صيد الوحوش — هى السبب ، أو على الأقل المناسبة المواتية لموته . ذلك أن ابن أخيه ماؤنيوس Moeonius حسب أن يضرب ضربته قبل أن يسبقه عمه . وقد حذر من الوقوع فى هذا الخطأ الا أنه استمر سادرا فى غيه . وثارت ثائرة أودينatوس ، وهو الملك الرياضى ، ونزل عن جواده وابعده — وتلك دلالة العار عند المتبربرين — وعاقب الشاب الطائش بالحبس

لمدة قصيرة . وسرعان ما نسى الشاب ما قدمت يداه ، ولكن عقاب الحبس ظل عالقا بذاكرته ، وقتل ماؤنيوس مع جماعة من أعوانه الجريئين عمه وسط احتفال كبير ، وقتل معه هيرود ، ابنه من غير زنوبيا ، وكان شابا ذا مزاج رقيق أنثوى . ولم يصب ماؤنيوس من فعلته النكراء الا فرحة الانتقام ، فلم يكد يتسع له الوقت ليتخذ لنفسه لقب أوغسطس قبل أن تضحى به زنوبيا تكريما لذكرى زوجها .

وتبوأت زنوبيا فوراً على العرش الخالى بمعونة أخلص أصدقاء زوجها ، وحكمت فى عزم الرجال تدمر وسوريا والشرق لأكثر من خمس سنوات . وكانت قد انتهت بموت أوديناتوس تلك السلطة التى كان السناتو قد خولها اياه وحده ، بوصفها امتيازا شخصيا له . ولكن الأرملة العسكرية المحاربة احتقرت السناتو وجالينوس كليهما ، وأرغمت القائد الرومانى الذى أرسل لمحاربتها على العودة الى أوربا بعد أن فقد جيشه وشهرته ، وسارت زنوبيا فى ادارتها الحازمة على هدى من أحكم مبادىء السياسة بدلا من أن تتردى فى حمأة الأهواء التافهة التى كثيرا ما تشوب حكم النساء ، فاذا كان الأوفق أن تعفو وتصفح ، استطاعت أن تحد من غضبها وتخفف من غلوائها ، واذا كان لزاما أن تبطش استطاعت أن تخرس نداء الشفقة والرحمة . وقد اتهم اقتصادها الدقيق بالبخل ، ولكنها ظهرت فى كل مناسبة صحيحة بمظهر الجلال والسخاء . واستشعرت الدول المجاورة : العرب وأرمينيا وفارس ، الرهبة من عدائها وتوسلت لمحالفتها ، وأضافت الأرملة الى ممتلكات أوديناتوس التى كانت تمتد من الفرات الى حدود بيثينيا ، المملكة الخصبة الآهلة بالسكان التى كانت قد ورثتها عن أسلافها ، وهى مصر ، وأقر الامبراطور كلوديوس بفضلها ، وكان مقتنعا بأنه فى الوقت الذى يتابع فيه الحرب مع القوط ، ستثبت هى مكانة الامبراطورية فى الشرق ، ومهما يكن من أمر فان سلوك زنوبيا كان يشوبه شىء من الغموض ، وليس من المستبعد أن يكون قد جال بخاطرها مشروع اقامة مملكة مستقلة معادية ، لقد مزجت زنوبيا قواعد السلوك المألوفة لدى أمراء الرومان بشىء من الأبهة والجلال المعروفين فى بلاط أمراء آسيا . وكان رعاياها يعبدونها كما كان خلفاء كورش يد ·ون . وعلمت أبناءها الثلاثة تعليما لاتينيا ، وكثيرا ما أظهرتهم أمام ا .جيش فى الحلة الامبراطورية ، أما هى فقد احتفظت لنفسها بالتاج مع اللقب الفخم المشكوك فيه « ملكة الشرق » .

ولما عبر أوريليان الى آسيا ، فى اثر عدوة ، لها من جنسها وحده ما يدعو الى الزراية والسخرية ، أعاد وجوده ولاية بيثينيا الى حظيرة

الطاعة والولاء ، وكانت قوات زنوبيا ودسائسها قد هزت كيان هذه الولاية . وتقدم على رأس جيشه فتقبل ولاء مدينة أنسيرا Ancera ودخل مدينة تيانا Tyana بمعونة مواطن غادر بعد حصار شديد . وتخلى أوريليان الكريم الطبع ، والقاسي رغم ذلك ، عن هذا الخائن للجنود في سورة غضبهم ، فان احتراما خرافيا حفزه الى معاملة مواطني الفيلسوف أبولونيوس Appolonius (١) برفق ولين . أما أنطاكيه فقد هجرها أهلوها لدى اقتراب الامبراطور منها ، الى أن أصدر الامبراطور مراسيم لعلاج هذه الحالة استدعى فيها النازحين للعودة ومنح عفوا عاما عن كل من كانوا يعملون في خدمة ملكة تدمر ، كرها بحكم الضرورة ، لا طواعية واختيارا . وهدأ من روع السوريين هذا الاعتدال غير المتوقع ، ومن ثم تقدم الى أبواب حمص ، ومن ثم عززت رغبات الشعب ارهاب الجيش على طول الطريق حتى أبواب حمص .

وما كانت زنوبيا لتستحق شهرتها لو أنها تراخت وسمحت لامبراطور الغرب بالاقتراب الى مسافة مائة ميل من عاصمتها . ولقد تحدد مصير الشرق في معركتين عظيمتين تكادان تتشابهان في كل النواحي تقريبا ، حتى يكاد يتعذر التمييز بينهما ، اللهم الا اذا لاحظنا أن واحدة منهما وقعت قرب انطاكية ، والثانية قرب حمص . وفي كلتا المعركتين أثارت زنوبيا حمية الجنود بوجودها بينهم ، وعهدت بتنفيذ أوامرها الى زابداس Zabdas الذي برزت بالفعل مواهبه العسكرية في فتح مصر . وكان الجزء الأكبر من قوات زنوبيا الضخمة يتألف من رماة السهام الخفاف ، ومن الخيالة الثقيلة المدرعة بالصلب ، فلم يقو فرسان جيش أوريليان ، الممتطين جيادا عربية أو الليرية ، على تحمل الهجوم الثقيل من جانب عدوهم ، فهربوا في غير نظام ، تصنعا أو حقيقة ، فأرهقوا جيش تدمر في تعقبه لهم وضايقوه بمناوشات متقطعة ، وفي النهاية دحروا هذا الكيان من الفرسان الذي كان يصعب النفوذ اليه ، ولكنه كان مرتبكا ثقيل الحركة . ولما نفد ، في نفس الوقت ، ما في جعبة المشاة الخفيفة ، وأصبحوا ولاعاصم لهم من أية مباداة قريبة ، تعرضت جوانبهم العارية لسيوف القوات الامبراطورية . وكان أوريليان قد اختار هذه القوات المحنكة التي رابطت عادة في أعالي الدانوب ، والتي امتحنت صلابتها وبأسها أقسى امتحان في حرب الألمان . ووجدت زنوبيا بعد هزيمة حمص ، أنه من المتعذر جمع جيش ثالث ، وانضوت

(١) ولد أبولونيوس في تيانا حوالي الوقت الذي ولد فيه السيد المسيح عليه السلام . وقد روى تلاميذ أبولونيوس قصة حياته في شكل خرافي الى حد الحيرة في الكشف عن هويته : أهو حكيم أم دجال أم متعصب .

تحت لواء الفاتح كل الأمم التى كانت خاضعة لزنوبيا حتى حدود مصر . وأصبحت تدمر الملجأ الأخير لأرملة اوديناتوس ، وقبعت داخل أسوار عاصمتها ، وقد أعدت كل العدة لمقاومة صلبة ، وأعلنت فى شجاعة بطولية أنها لابد أن تقترن نهاية حياتها بنهاية حكمها .

وتنشأ وسط الصحراء القاحلة بقاع قليلة مزروعة ، وكأنها جزر فى بحار من الرمال . وحتى اسم تدمر أو بالميرا ، يدل فى اللغتين السريانية واللاتينية على مجموعة ضخمة من النخيل الذى يظلل هذا الاقليم المعتدل ويكسبه نضرة وخضرة . وكان هواؤه نقيا ، وكان من الميسور انتاج الفواكه والغلال حيث تروى الأرض بواسطة بعض ينابيع عظيمة . وسرعان ما ترددت على هذا المكان ذى المزايا الفريد الواقع على مسافة مناسبة بين الخليج الفارسى (العربى) والبحر المتوسط — القوافل التى حملت الى أمم أوربا جزءا كبيرا من تجارة الهند الثمينة ، ونمت بالميرا — بطريقة غير ملحوظة — الى مدينة غنية مستقلة ، سمح لها بالتزام جانب الحياد المتواضع ، حيث كانت تربط بين دولتى الرومان وبارثيا عن طريق المصالح التجارية المتبادلة . ولكن الجمهورية الصغيرة ، ارتمت فى النهاية ، بعد انتصارات تراجان ، فى أحضان روما ، وازدهرت لمدة تزيد على مائة وخمسين عاما ، بوصفها مستعمرة ذات مركز ثنوى تابع ، ولكنه مشرف . واذا استطعنا أن نستخلص شيئا من بعض النقوش القليلة الباقية ، فانه يمكن القول بأن فترة الهدوء والسلم هذه ، هى التى شيد فيها أهل بالميرا الموسرون — على الطراز الاغريقى — هذه المعابد والقصور والأروقة ، التى نجد اطلالها مبعثرة على مدى عدة أميال ، تجذب سياحنا وتثير فضولهم ، ويبدو أن ارتقاء أودیناتوس وزنوبيا عكس على البلد سناء جديدا ، وباتت لفترة من الوقت منافسة لروما ، ولكن المنافسة كانت قتالة ، فضحيت عصور طويلة من الازدهار والرخاء من أجل برهة قصيرة من المجد .

وكان العرب كثيرا ما يزعجون أوريليان فى الصحراء بين حمص وتدمر ، ولم يكن يستطيع حماية جيشه ، وخاصة العتاد والمهمات ، ضد هذه العصابات الطائرة من اللصوص الممتلئين جراة ونشاطا ، الذين ترقبوا فرصة المفاجاة ، وافلتوا من القوات التى تتعقبهم ببطء . وكان حصار تدمر أمرا اشق واهم كثيرا . واصيب الامبراطور الذى تولى بنفسه الهجوم فى عزم وصلابة ، بجرح من احدى النبال . وقال اوريليان فى خطاب له : « ان الشعب الرومانى يتحدث فى استهزاء وسخرية عن الحرب التى اشنها ضد امراة . ولكنهم يجهلون شخصية زنوبيا وقوتها .

وانه لمن العسير أن تحصى معداتها الحربية ، من الحجارة والسهام ، وكل أنواع القذائف ، وكان كل جزء فى الأسوار مزودا باثنين أو ثلاثة من المجانيق للقذف بالحجارة ، كما كانت النار الصناعية تقذف باللهب من كل جانب . كما ملأ الخوف من الحصار نفسها بشجاعة مستميتة . ومع كل هذا فانى ما أزال كبير الثقة فى حماية آلهة روما ، تلك الآلهة التى كانت الى جانبى حتى الآن فى كل ما قمت به من أعمال » . ومهما يكن من أمر ، فان أوريليان ساوره الشك فى رعاية الآلهة وفى نتيجة الحصار ، الى حد أنه ارتأى أنه من الحكمة أن يعرض عليهم التسليم بشروط أجدى وأنفع ، فعرض على الملكة انسحابا كريما ، وعلى المواطنين الاحتفاظ بامتيازاتهم القديمة . ورفضت شروطه باباء وشمم ، بل اقترن الرفض بالاهانة .

والحق أن صلابة زنوبيا كانت ترتكز على الأمل فى أن ترغم المجاعة جيش الرومان على التعجيل بمغادرة الصحراء فى أقرب فرصة ، وعلى التطلع المعقول الى أن ملوك الشرق ، وخاصة عاهل الفرس ، لابد أن يمتشقوا الحسام دفاعا عن حليفهم الطبيعى الى أبعد حد . ولكن حظ أوريليان ومثابرته ذللا كل عقبة وقلبا الآية ، ذلك أن موت شابور فى تلك الأثناء ، أذهل والهى مجالس الفرس . وكان من السهل على حراب الامبراطور وسخائه أن يقطعا الطريق على النجدات الهائلة التى حاولت انقاذ تدمر . وتتابع بانتظام وصول القوافل بسلام من مختلف أنحاء سوريا الى معسكر الرومان الذى زاد عدده . برجوع بروبوس Probus بقواته الظافرة بعد غزو مصر . وعندئذ قررت زنوبيا الهرب ، فامتطت أسرع هجنها ، وما كادت تصل الى شواطىء الفرات ، على بعد ستين ميلا من تدمر ، حتى أدركها فرسان أوريليان على جيادهم الخفيفة التى جدت السير فى أثرها ، وقبضوا عليها وعادوا بها أسيرة بين قدمى الامبراطور . وسرعان ما سلمت عاصمتها بعد ذلك ، وعوملت فى رفق لم يكن متوقعا . وسلمت الأسلحة والخيول والجمال مع ثروة ضخمة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة الى الامبراطور الذى ترك حامية قوامها ستمائة قواس ، وعاد الى حمص ، حيث قضى بعض الوقت فى توزيع الثواب والعقاب فى نهاية حرب مشهودة ، أعادت الى حظيرة روما تلك الولايات التى كانت قد شقت عليها عصا الطاعة منذ أسر فاليريان .

ولما مثلت الملكة السورية بين يدى أوريليان سألها مبهما : « كيف اجترأت على حمل السلاح فى وجه أباطرة الرومان ؟ » فكان جواب زنوبيا مزيجا حكيما من الاحترام والحزم والعزم : « لأنى احتقرت أن

أعتبر أمثال أوريولوس أو جالينوس أباطرة رومان ، ولكنى أقر بأنك أنت وحدك ملك وفاتح » . ولكن جلد النساء عادة مصطنع ، ويندر أن يكون ثابتا أو متماسكا . فان زنوبيا خانتها شجاعتها فى ساعة المحاكمة ، وارتعدت فرائصها لدى سماعها لصيحات الجنود الذين طالبوا باعدامها فوراً ، ونسيت موقف كليوباترا الكريم البائس ، التى اتخذتها نموذجا لها . واشترت ، شراء مخزيا شائنا ، حياتها بتضحية شهرتها وأصدقائها ، الذين نسبت وزر تحديها العنيد الى نصائحهم التى ساست ضعف النساء . ومن ثم وجهت اليهم انتقام أورليان الغاشم القاسى . وستخلد شهرة لونجينوس الذى حشر فى زمرة ضحاياها الكثيرين ، وربما الأبرياء ، بعد شهرة الملكة التى غدرت به أو الطاغية الذى أعدمه . ولم تجد العبقرية والعلم فى تحريك جندى أمى شرس ، ولكنهما نجحا فى السمو بروح لونجينوس وانعاشها ، فانه تبع السياف فى هدوء دون أن ينبس ببنت شفة ، يندب سيدته التعسة ، ويقدم العزاء والسلوى لأصدقائه المنكوبين .

وما كاد أورليان يعبر المضايق التى تفصل بين أوربا وآسيا ، عائدا من فتوحاته فى الشرق ، حتى فوجىء بالأنباء التى تقول بأن أهل تدمر رفعوا راية العصيان من جديد وذبحوا الحاكم والحامية التى كان قد تركها هناك . فلم يضيع لحظة واحدة فى الأخذ والرد ، بل ولى وجهه فى الحال مرة أخرى شطر سوريا . وروعت مدينة أنطاكية لاقتراب الامبراطور على عجل ، وأحست مدينة تدمر العاجزة البائسة وطأة حنقه الذى لا يمكن دفعه . وهناك رسالة لأورليان نفسه يعترف فيها بأن الشيوخ والنساء والأطفال والفلاحين لم يسلموا من الاعدام الرهيب الذى كان خليقا أن يقتصر على المتمردين المسلحين ، وعلى الرغم من أن عنايته اتجهت الى اعادة بناء معبد الشمس ، فانه استشعر شيئا من الشفقة نحو من بقى من أهل تدمر ، فمنحهم ترخيصا فى اعادة بناء مدينتهم وسكناها . ولكن الهدم أيسر من اعادة البناء . فقد انحط مركز التجارة والفنون ومقر زنوبيا ، مع الأيام ، الى مدينة صغيرة خاملة ، وحصن تافه ، ثم الى قرية تعسة فى النهاية . وأقام مواطنو تدمر الحاليون — وعددهم لا يجاوز ثلاثين أو أربعين اسرة — أكواخهم من الطين فى الفناء الفسيح للمعبد الفخم .

وثمة عمل آخر ، وهو الأخير ، كان ينتظر أورليان الذى لا يكل ولا يمل ، ذلك أن يخمد ثورة خطيرة ، ولو أنها غامضة ، قامت على ضفاف النيل فى أثناء ثورة تدمر . ولم يكن فرموس Firmus — صديق أوديناتوس وزنوبيا وحليفهما ، كما كان يفخر بأن يسمى نفسه — أكثر

من مجرد تاجر ثرى فى مصر . وفى تجارته مع الهند وطد أوثق الصلات بينه وبين العرب والبليميين Blemmyes الذين كانوا يقطنون على جانبى البحر الأحمر ، ومن ثم سهل اتصالهم بصعيد مصر ، والهب فرموس نفوس المصريين بالأمل فى نيل الحرية ، وسار على رأس الجمهور الهائج الى مدينة الاسكندرية حيث اتخذ لنفسه لقب الإمبراطور ، وسك النقود وأصدر الأوامر ، وكون جيشا كان يفخر عبثا بأنه يستطيع الاحتفاظ به والانفاق عليه من أرباحه من تجارة الورق وحدها . ولكن مثل هذه القوات لم تشكل الا دفاعا هزيلا ضد الامبراطور الذى كان يقترب من الميدان ، ونحن فى غنى عن القول بأن فيرموس هزم وأخذ وعذب ثم أعدم . واستطاع الآن أوريليان أن يهنىء السناتو والشعب ، ويهنىء نفسه ، لأنه تمكن فى ثلاث سنوات ، أو زد عليها قليلا من أن يعيد السلام والنظام شاملين الى ربوع العالم الرومانى .

انتصار أوريليان ووفاته

لم يكن ثمة قائد أجدر من أوريليان بالفوز والظفر ، منذ تأسيس روما ، كما لم يحفظ أى انتصار بمثل هذا الاعتزاز الكبير والأبهة العظيمة . وبدأ الموكب بعشرين فيلا ، وأربعة نمور ملكية ، وأكثر من مائتين من اغرب الحيوانات من مختلف الأجواء فى الشمال والشرق والجنوب ، يتبعها الف وستمائة من المجالدين المتفرغين لتسلية المدرج الخطيرة . وعرضت كنوز آسيا وأسلحة وشمارات أمم كثيرة ، ولوحة ملكة سوريا الفخمة وخزانة ملابسها فى ترتيب دقيق وخلط خبيث . وكشف عن عظمة امبراطور الرومان وقوته هذا الحشد الكبير من سفراء اقصى امم الأرض : اثيوبيا وبلاد العرب وفارس وبكتريانا والهند والصين ، بملابسهم الفاخرة أو الفريدة فى بابها ، كما عرض الامبراطور بدوره لأنظار الجماهير الهدايا التى كان قد تلقاها ، وبخاصة هذا العدد الكبير من التيجان الذهبية التى قدمتها له المدن العارفة لفضله . وشهد على انتصارات أوريليان هذا الحشد الكبير من الأسرى الذين ساروا كارهين فى ركابه المظفر ، من القوط والوندال والسارماتيين والألمان والفرنجة والغال والسوريين والمصريين . وقد تميز كل شعب بكتابته الخاصة ، ومنح لقب « المجندات » لعشر بطلات محاربات من القوط أسرن بكامل أسلحتهن . ولكن العيون كانت مركزة على الامبراطور تتريكوس ، وعلى ملكة الشرق ، بصرف النظر عن سائر حشود الأسرى . وكان الأول وابنه الذى اضفى عليه لقب أوغسطس ، يرتديان سروالا

غاليا (بنطلون يلبس فى بلاد الغال) وقميصا زعفرانيا ورداء أرجوانيا(١) . أما زنوبيا فقد كبلت فى أصفاد من ذهب ، وقد أمسك أحد العبيد بالسلسلة التى طوقت عنقها ، وكادت تنوء بما لا يحتمل من ثقل الحلى والمجوهرات التى عليها ، وسارت على قدميها أمام العربة الفاخرة التى كانت تؤمل يوما أن تدخل فيها أبواب روما . وتبعتها عربتان أخريان أفخر وأبهى من عربة أوديناتوس وعربة كسرى فارس . أما مركبة النصر ، الخاصة بأوريليان (والتى كان يستخدمها أحد ملوك القوط من قبل) فكان يجرها فى هذه المناسبة المشهودة أربعة من الأوعال أو من الفيلة . واختتم المركب بابرز أعضاء السناتو والشعب والجيش . وتعالت هتافات الجميع معبرة عن الفرح الخالص والدهشة والامتنان . أما ارتياح السناتو فقد كدره ظهور تتريكوس ، ولم يستطع شيوخ السناتو أن يكتموا تذمرهم من أن يعرض الامبراطور المتغطرس للسخط العام شخصا رومانيا وحاكما .

لكن أوريليان ، مهما أرضى غروره فى معاملته لمنافسيه وأعدائه ، فانه نهج معهم مسلكا كريما رحيما قل أن سلكه الغزاة القدامى ، حيث كثيرا ما كان يزج بالأمراء الذين دافعوا عبثا عن عروشهم وحرياتهم فى غياهب السجون ، بمجرد وصول موكب النصر الى الكابيتول . أما هؤلاء الغاصبون الذين دمغتهم هزيمتهم بجريمة الخيانة ، فقد رخص لهم فى قضاء حياتهم فى يسر وبحبوحة ، فقد أهدى الامبراطور زنوبيا فيلا جميلة فى تيفولى ، على بعد خمسة وعشرين ميلا من العاصمة . وتحولت الملكة السورية دون أن تشعر الى امرأة رومانية عوان (متوسطة العمر) وتزوجت بناتها من أسرات نبيلة ، ولم يكن عنصرها قد انقرض بعد فى القرن الخامس . أما تتريكوس وابنه فقد ردت اليهما وظائفهما وثرواتهما وشيدا قصرا فخما فوق تل كليان Caelian Hill دعى اليه ، بمجرد الانتهاء منه أوريليان لتناول العشاء ، وفوجىء عند دخوله بمفاجأة لطيفة ، حيث وقع بصره على صورة تمثل منظرا فريدا فى تاريخهما الفريد ، وهما يقدمان للامبراطور اكليل الغار وصولجان الغال ، وهما يتناولان من يده أوسمة عضوية السناتو . وأسندت الى

---

(١) كان استخدام السراويل لا يزال يعتبر فى ايطاليا زيا غاليا أو بربريا ، وقد ادخل عليه الرومان تحسينات كثيرة على أية حال . اما لف الارجل والافخاذ بالعصائب ، فكان يؤخذ فى عهد بومبى وهوراس على أنه دليل على اعتلال الصحة والانوثة ، وكانت هذه العادة مقصورة فى عهد تراجان على الأغنياء والمترفين ، ثم اقتبسها بالتدريج سفلة القوم .

تتريكوس الوالد بعد ذلك حكومة لوكانيا Lucania . وسرعان ما مكن أوريليان أواصر الصداقة بينه وبين هذا الملك المخلوع ، وتجاذب معه أطراف الحديث فسأله يوما فى غير ما كلفة : أما كان من الأفضل أن يدير ولاية فى ايطاليا أكثر من أن يحكم فيما وراء الألب ؟ أما الابن فقد بقى طويلا عضوا محترما فى السناتو . ولم يحظ أحد من النبلاء الرومان بأكثر مما حظى هو بتقدير أوريليان وخلفائه .

واستطال وقت موكب النصر وتنوعت عروضه . فقد بدأ مع خيوط الفجر ، ولكن الموكب كان يتهادى يحف به الجلال والعظمة ، فلم يصل الى الكابيتول قبل الساعة التاسعة ، وخيم الظلام بالفعل قبل أن يعود أوريليان الى قصره . وقد تخلل الاحتفال بعض المشاهد المسرحية وألعاب السيرك ، وصيد الوحوش ومنازلة المجالدين والاشتباكات البحرية ، ووزعت العطايا السخية على الجنود والشعب ، وساهمت بعض المشروعات الخيرية أو المفيدة الملائمة للشعب فى تخليد مجد أوريليان . وخصص جزء كبير من غنائمه فى الشرق لآلهة روما ، وتألقت فى الكابيتول وغيره من المعابد الهدايا التى قدمها الامبراطور المتباهى بتقواه ، وتلقى معبد الشمس وحده أكثر من خمسة عشر ألف رطل من الذهب . وكان هذا المعبد الأخير تحفة رائعة فى عالم البناء شيده الامبراطور على أحد جوانب تل كويرينال ، وخصص بعد النصر مباشرة لذلك الاله الذى عبده اوريليان على أنه مصدر حياته وثرواته . وكانت أمه كاهنة صغيرة فى معبد صغير للشمس ، وفى عهد طفولته رسخ فى نفس الفلاحة السعيدة الحظ عاطفة تبتل خاص لاله النور ، وكانت كل خطوة فى سلم المجد ، وكل انتصار أحرزه أثناء حكمه ، بمثابة تدعيم الخرافة بالعرفان والامتنان .

وقهرت أسلحة أوريليان أعداء الجمهورية فى الداخل والخارج . فقد ثبت لنا عن يقين أنه بفضل صرامته الناجعة ، قد محيت من العالم الرومانى ، الجرائم والفتن ، وألاعيب السوء والمحاباة الخبيثة ، كما حيل بين النمو المفرط لحكومة ضعيفة ظالمة ، ولكنا اذا تذكرنا الى أى حد يكون استشراء الفساد أسرع من علاجه ، وأن عدد السنين التى ساد فيها الخلل العام الشامل جاوز الشهور التى قضاها أوريليان فى الحكم العسكرى — لاعترفنا بأن فترات السلم القليلة القصيرة لم تكن كافية للمهمة الشاقة ، مهمة الاصلاح . وحتى محاولته لاستعادة سلامة العملة ، فانها لقيت معارضة شديدة . وينفجر غيظ الامبراطور فى رسالة خاصة يقول فيها : « حقا لقد قضت الآلهة بأن تكون حياتى حربا متصلة . فقد أدت فتنة داخل الجدران الى حرب أهلية طاحنة . فإن

عمـال سـك النقـود ـ بتحـريض من فلكيسـيموس Felicissimus وهو عبد عينته فى وظيفة فى المالية هبوا ثائرين ، وقد أخمدت فى النهاية ثورتهم ، ولكن بعد أن ذبح فى النزاع سبعة آلاف من الجنود الذين كان مقرهم الأصلى فى داشيا والمعسكرات الواقعة على طول الدانوب » .
ويقول كتاب آخرون ، ممن يذكرون الحقيقة نفسها ، انه حدث بعـد انتصار أوريليان مباشرة ، وأن المعركة الفاصلة نشبت فوق تل كليان ، وأن عمال سك النقود زيفوا العملة ، وأن الامبراطور استرد ثقة الشعب بأن وزع عملة أصيلة بدلاً من العملة الزائفة التى أمر الناس أن يردوها الى الخزانة .

وقد نكتفى بسرد هذه العمليات الشاذة ، ولكنا لا نستطيـع أن نغض الطرف عن مدى ما يبدو فيها من تناقض ، ومن عـدم امكـان تصديقها ، فقد يلتئم تزييف العملة حقا مع حكم جالينوس ، على حين كان من المحتمل أن تخشى آلات الفساد عدالة أوريليان التى لا تلين ولا تنثنى . ولكن الجريمة والربح لابد أنهما كانا محصورين فى فئـة قليلة ، وليس من السهل أن نتبين الأفانين التى استطاعوا بها أن يسلحوا شعبا آذوه وأساءوا اليه ضد ملك غدروا به ، وقد يكون من الطبيعى أن نتوقع أن مثل هؤلاء الأشرار قد شاركوا النمامين وغيرهم من أعوان الظلم فى استياء الشعب ، وأن اصلاح العملة لابد أن يكون عملا رحب به الشعب قدر ترحيبه باتلاف الحسابات القديمة بأمر الامبراطور فى ساحة تراجان . وفى عصر لم تكن أصول التجارة معروفة فيه معرفة دقيقة . قد تنفذ الغاية المرجوة بالوسائل الخشنة الغريرة . ولكن قل أن تثير شكوى طارئة من هذا النوع حربا أهلية رهيبة . أما تكرار فرض الضرائب المجحفة على الأرض وعلى ضرورات الحياة ، فانه يثير فى النهاية الذين لن يهجروا بلدهم أو الذين لا يستطيعون أن يهجروها . ولكن المسألة كانت تختلف عن ذلك تماما ، فى كل عملية كان يمكن أن تعيد الى العملة قيمتها الحقيقية مهما كانت الوسائل . فسرعان ما تمحو المنفعة الدائمة اى أذى عارض ، وتتوزع الخسارة بين الجماهير . واذا عانى قليل من الأفراد الموسرين نقصا فى أموالهم ، فانهم فى نفس الوقت سيفقدون الى جانب ثرواتهم تلك الأهمية وذلك الوزن اللذين أضفاهما عليهم تملكهم لهذه الثروات . ومهما أراد أوريليان أن يخفى السبب الحقيقى للفتنة ، فان اصلاحه للعملة لن يقدم الا إدعاء طفيفا لجماعة كانت لا تزال قوية غير راضية ، فقد أزعج الشعب روما رغم حرمانها من الحرية ، فان الشعب الذى اظهر له الامبراطور دائما ــ وهو نفسه واحد من العامة ــ ولعاً خاصا ، عاش فى شقاق دائم مـع السـناتو

والفرسان والحرس البريتورى . ولم يكن ثمة شيء أقل من المؤامرة الحازمة الخفية التى تحيكها هذه الهيئات : الأولى بما لها من نفوذ ، والثانية بثرائها ، والثالثة بسلاحها — يمكن أن يشكل قوة تناهض فرق الدانوب القدامى المحنكين ، الذين أنجزوا فتح الغرب والشرق تحت امرة الامبراطور الذى أولع بالحرب .

ومهما كان الاحتمال ضعيفا فى ارجاع سبب هذه الثورة الى عمال سك النقود ، فان أورليان استغل انتصاره فى صرامة عاتية ، وكان بفطرته نزاعا الى القسوة ، وبوصفه فلاحا وجنديا ، لم ترق أعصابه ، بسهولة لدوافع الشفقة والعطف ، وكان يحتمل دون انفعال مشاهد التعذيب والقتل ، وقد تدرب منذ نعومة أظفاره على السلاح ، ومن ثم لم يقم كبير وزن لحياة الفرد ، وعاقب أتفه الذنوب بالاعدام ، ونقل صرامة النظام فى المعسكر الى مجال الادارة المدنية للقوانين . وكثيرا ما انقلب حبه للعدالة الى هوى أعمى عنيف . وحيثما حسب أن هناك خطرا على سلامته أو سلامة الشعب أغفل كل قواعد الاثبات والبينة ، واغفل تناسب العقوبات . فان الثورة التى لم يكن لها ما يبررها والتى كافأ بها الرومان خدماته ، أثارت نفسه المتعالية . وأخذت أنبل الأسرات فى العاصمة بهذه الجريرة ، أو بالشك فى اشتراكها فى المؤامرة الخفية . فدفعت روح طائشة للانتقام الى الاضطهاد الدموى الذى راح ضحيته احد أبناء اخوة الامبراطور ، ولقد تعب الجلادون (اذا جاز لنا أن نستخدم تعبير شاعر معاصر) وامتلأت السجون ، وحزن السناتو المنكود على موت أو غياب ابرع أعضائه ، كما لم تكن غطرسة أورليان وغروره أقل ايذاء للسناتو من قسوته ، فانه — جهلا منه أو ضيقا بضوابط النظم الادارية — احتقر أن يمارس سلطته تحت أى لقب الا السيف ، وحكم ، بحق الفتح ، الامبراطورية التى انقذها واخضعها .

وقد لحظ واحد من احكم أمراء الرومان أن مواهب سلفه أورليان كانت اليق بقيادة جيش منها بحكم امبراطورية . وكان أورليان يدرك الدور الذى هيأت له الطبيعة والتجربة أن يبرع ويبرز فيه ، ولذلك عاد الى الميدان بعد بضعة شهور من انتصاره . وكان من الخير أن يستخدم تلهف الفرق وفورانها فى حرب خارجية ، وكان كسرى الفرس الذى يتهلل ويعتز بفضيحة فاليريان لا يزال يجترىء ، دون حساب أو عقاب ، على كبرياء روما الجريحة . وتقدم الامبراطور على راس جيش أقل فى العدد منه فى النظام والشجاعة ، نحو المضايق التى تفصل أوربا عن آسيا . وهناك خبر وعرف أن أكبر قوة لا تعدو أن تكون دفاعا ضعيفا

ضد آثار اليأس وخيبة الأمل . وكان قد وجه تهديدا الى احد افراد سكرتيريته ، اتهمه بابتزاز الأموال ، وكان المعروف ان تهديده قل أن يذهب سدى . وكان آخر أمل تعلق به المجرم هو أن يشرك بعض كبار ضباط الجيش فى الخطر المحدق به ، أو على الأقل فى مخاوفه . فعمد فى براعة ودهاء الى تزوير خط الامبراطور ، ثم أطلع هؤلاء الضباط على قائمة طويلة لعينة تضمنت اسماءهم والحكم عليهم بالاعدام . ومن ثم عقدوا النية ، دون ان يساورهم الشك أو أن يدققوا فى هذا الغش والاحتيال — على انقاذ حياتهم بقتل الامبراطور . وفى اثناء سيره بين بيزنطة وهرقلية انقض عليه المتآمرون الذين كانت تخولهم مراتبهم أن يحيطوا بشخصه. وبعد مقاومة قصيرة خر صريعا بيد موكابور Mucapor ، وهو قائد كان أوريليان يحبه ويثق فيه . وقضى الامبراطور نحبه مأسوفا عليه من الجيش ، مكروها من السناتو ، ولكن كان ثمة اقرار عام شامل بأنه كان اميرا محاربا سعيد الحظ ، وبأنه كان المصلح الناجح لدولة منحلة ، رغم قسوته .

وبعد قتل أوريليان ، مارس السناتو سلطته ، للمرة الأخيرة وانتخب م. كلوديوس تاسيتس M. Claudius Tacitus وارتضاه الجيش ، وقاد حملة موفقة ضد الالان Alans (قبيلة من المتبربرين الرحل ، استقروا فى جنوب شرقى روسيا فى القرون الثلاثة الميلادية الأولى) ثم انتخب الجيش بعد مقتله م أوريليوس بروبوس M. Aurelius Probus . وقد احرز انتصارات فى الراين والدانوب قبل ان يقتل فى سيرميوم Sirmium . ومات خلفه م اوريليوس كاروس Carus فى ظروف غامضة فى بداية حملة ضد فارس . واعقبه أولاده من بعده . على ان جماعة من الضباط فى خلقدونية انتخبوا س . اوريليوس فاليريوس ودقلديانوس . وحكم كارينوس الابن الذى بقى بعد ابيه كاروس ، حكم فترة فى الغرب . وانتصر دقلديانوس فى معركة مارجوس Margus ومن ثم اصبح السيد الأوحد فى عالم الرومان . وقد ورد ذكر هذا كله فى الفصل الثانى عشر . وقد حذف من هذا المختصر .

النظام الإمبراطوري الجديد

الفصل الثالث عشر

(٢٨٥ ـ ٣١٣ م)

حكم دقلديانوس وشركائه الثلاثة : انتصاره وتنظيمه الجديد

نشوء مراسم البلاط . اعتزال دقلديانوس . اضمحلال الفنون

كان عصر دقلديانوس ازهى من أى عصر من عصور اسلافه ، كما كان مولده كذلك أكثر غموضا وخسة . وكثيرا ما حلت ادعاءات الجدارة والموهبة والعنف ــ نقول حلت تلك الادعاءات العريضة محل الميزات المثالية للنبل والشرف . ولكن حاجزا واضحا فاصلا كان لا يزال حتى الآن قائما بين الحر والعبد من بنى الانسان . لقد كان آباء دقلديانوس عبيدا فى بيت أنولينوس Anulinus وهو شيخ رومانى من أعضاء السناتو ، ولم يكن دقلديانوس نفسه يتميز بأى اسم آخر غير هذا الذى اشتقه من مدينة صغيرة فى دلماشيا ، حيث كان منبت أمه ، ومن المحتمل على اية حال أن يكون أبوه قد حصل على حرية الأسرة ، وأنه حصل كذلك بسرعة على وظيفة كاتب ، التى كان يشغلها عادة أشخاص من أمثاله . والهمت كلمات الوحى الطيبة ، أو قل حسن ادراكه لمواهبه السامية ، الهمت الابن المتطلع ليسلك طريق الجندية ويتعلق بأمانى الحظ السعيد . وقد يكون من أعجب العجب أن نتعقب تدرج الأساليب والأحداث التى مكنته آخر الأمر من تحقيق النبوءات واظهار هذه المواهب للعالم اجمع . فقد ارتقى دقلديانوس على التوالى الى حكومة ماسيا Maesia ثم الى مرتبة القنصل ، ثم الى قيادة حرس القصر ، وهى وظيفة خطيرة الشأن . وقد تجلت قدرته وكفايته فى حرب

فارس . وبناء على اعتراف منافسيه وحكمهم ، وبعد موت نومريان Numerian ، أعلنوا أنه – وهو العبد – أجدر شخص بعرش الامبراطورية . وعلى حين دمغت الغيرة الدينية المشوبة بالخبث والحقد، زميله مكسيميان Maximian بالقسوة الوحشية فانها عملت على القاء ظلال من الشك فى شجاعة الامبراطور دقلديانوس الشخصية . وليس من اليسير أن تقتنع بجبن جندى من جنود الحظ ، حظى بتقدير الفرق ، وبحب كثير من الأمراء المحاربين ، فى وقت معا . ولكن الوشاية تقترن عادة بقدر من الفطنة والذكاء يجعلها قادرة على اكتشاف أضعف الجوانب ومهاجمتها . ولم تقصر همة دقلديانوس به يوما عن النهوض بواجبه ، أو عن مواجهة أية مناسبة طارئة ، ولكنه لم يبد أنه قد أوتى الروح الجريئة الكريمة لبطل يرحب بالخطر وينشد الشهرة ، ويحتقر التصنع ، ويتحدى فى جراة ولاء النظراء ، فكانت مواهبه نافعة اكثر منها باهرة أو بارزة . وكان ذا عقل راجح تصقله وترقى به التجربة ودراسة البشر ، مع سعة الحيلة وتطبيق العلم على العمل ، ومزيج معقول من السخاء والاقتصاد ، ومن الرقة والصرامة ، ورياء عميق تحت ستار من الصراحة العسكرية ، وجلد على تحقيق الغايات مع مرونة فى تنويع الوسائل ، وفوق كل هذا ، تفنن عظيم فى اخضاع أهوائه وأهواء الآخرين لمصلحة أطماعه ، وفى صبغ هذه الأطماع بأشد الادعاءات خداعا ، مدعيا أنها من اجل العدالة والمصلحة العامة . ويمكن أن يعتبر دقلديانوس ، مثله فى ذلك مثل أوغسطس ، مؤسسا لامبراطورية جديدة ، وتميز – كما تميز ابن قيصر المتبنى – بأنه رجل دولة وسياسة اكثر من رجل حرب وطعان ، فان احدا من هذين الأميرين لم يستخدم القوة حيثما تحققت اغراضه بالسياسة .

وقد تميز انتصار دقلديانوس بالاعتدال الفريد فى بابه . فان الناس الذين تعودوا أن يمتدحوا الفاتح ورحمته اذا أنزلت عقوبة الموت او النفى او المصادرة فى شىء من المساواة والرفق ، شهدوا – لشدة دهشتهم واغتباطهم – حربا اهلية يخمد أوارها فى ساحة القتال . فقد وثق دقلديانوس فى ارسطوبولوس الوزير الأول فى بيت كاروس ، واحترم حياة أعدائه وأموالهم ومكانتهم ، بل أبقى على الجزء الأكبر من اتباع كارينوس فى مناصبهم . وليس من غير المحتمل أن بواعث الفطنة والتبد.. قد ساعدت روح الانسانية لدى هذا الدلماشى الداهية المحتال ، فان كثيرا من هؤلاء الأتباع اشتروا حظوتهم لديه بالخيانة المستورة ، كما أنه قدر فى آخرين اخلاصهم واعترافهم بفضل سيد منكود بائس . وكان أوريليان وبروباس وكاروس بفضل بصيرتهم

النافذة قد ملأوا ادارات الدولة والجيش بموظفين ذوى مواهب معترف بها ، ممن كان اخراجهم من وظائفهم يضر بالخدمة العامة ، دون أن يحقق أية مصلحة لمن يتولى العرش بعدهم . وقد أظهر مثل هذا السلوك ، على أية حال ، للعالم الرومانى أجمل جوانب الحكم الجديد ، وتظاهر الامبراطور بتوكيد هذا الارث المحمود حين أعلن أنه — من بين فضائل وسجايا أسلافه ، كان يطمع أكثر ما يطمع فى محاكاة فلسفة ماركوس أنطونينوس القائمة على الخير والاحسان .

ويبدو أن أول عمل هام قام به قد أوضح اخلاصه واعتداله معا . ذلك أنه حذا حذو ماركوس فجعل من مكسيميان Maximian زميلا له ، وأضفى عليه فى البداية لقب قيصر ، ثم لقب أوغسطس فيما بعد ، ولكن بواعث هذا السلوك والشخص الذى اختاره ، كانت تختلف كل الاختلاف عن بواعث واختيار سلفه موضع اعجابه . فان ماركوس ، بتوليته شابا مترفا على العرش ، قد دفع فى الواقع دين الاعتراف بالفضل الخاص ، على حساب سعادة الدولة . ولكن دقلديانوس ، باشراكه صديقا ورفيق سلاح فى مهام الحكم ، قد اعد العدة للدفاع عن الشرق والغرب على السواء ، اذا ما أحدق أى خطر داهم . فقد ولد مكسيميان مثل أوريليان فلاحا فى مقاطعة سرميوم . فكان أميا لا يعبأ بالقوانين ، وكانت سذاجة مظهره وسلوكه ، تفضح ، حتى فى أسمى مراتب حظه ، وضاعة نشأته . ولم يحذق الا فن الحرب . وقد اشتهر موقفه فى كل بقعة من حدود الامبراطورية ، طوال سنى خدمته الكثيرة الحافلة ، ورغم أن مواهبه العسكرية كانت اليق بالطاعة أكثر منها بالقيادة ، وأنه لم يرق الى مهارة قائد بلغ حد الكمال ، فانه ، بفضل عزيمته وثباته وخبرته ، استطاع أن ينهض بأشق الأعباء . كما أن مساوىء مكسيميان لم تكن أقل نفعا لولى نعمته . فقد كان لا يستشعر الشفقة ولا يتهيب العواقب ، ومن ثم أصبحت فى يد سيده الأداة الطيعة المستعدة لكل عمل من أعمال القسوة توحى به وتتنصل منه معاً سياسة الأمير الداهية المحتال . فما أن تضحى على مذبح الحذر أو الانتقام فريسة ، حتى يسارع دقلديانوس بشفاعته التى يؤديها فى وقتها الى انقاذ الفئة القليلة الباقية من الأفراد الذين لم يفكر قط فى انزال العقاب بهم ، ثم ينحى باللائمة فى وداعة ورفق على زميله العنيد ويندد بقسوته ،وينعم بالمقارنة بين العصر الذهبى (أى حكمه هو) وعصر الحديد (أى حكم زميله) ، كما نعتهما الناس ، على أساس مبادئهما المتناقضة فى الحكم . ورغم تباين شخصيتى الامبراطورين ، فقد احتفظا وهما على العرش بهذه الصداقة التى كانت تربط بينهما منذ كانا رفيقى سلاح . فقد ألف

مكسيميان — بما ركب فيه من صلف وهوج وتهيج ، مما كان سببا فى القضاء عليه وعلى السلام العام — ألف أن يحترم ذكاء دقلديانوس وعبقريته ، واعترف بسيادة منطق العقل على منطق العنف الوحشى . ولسنا ندرى أهو بدافع من الزهو أو باعث من الخرافة أن اتخذ الواحد منهما لنفسه لقب جوفيوس Govius والثانى لقب هرقوليوس Herculus وبينما كان جوبيتر يصـــون حركـــة العالم بحكمته المحيطة بكل شىء (هكذا كان يقول خطباؤهما المرتشون) كانت يد هرقوليوس التى لا تقهر ، تبطش بالطغاة والجبابرة وتطهر الأرض منهم .

ولكن حتى القدرة على كل شىء عند جوفيوس وهرقوليوس ، لم تكن كافية لاحتمال ثقل الادارة العامة . فقد اكتشفت فطنة دقلديانوس أن الامبراطورية التى يقتحمها المتبربرون من كل جانب تتطلب فى كـــل ناحية منها جيشا كبيرا وامبراطورا . وفى ضوء هذا التفكير عقد العزم مرة أخرى على تقسيم السلطة المربكة المتشعبة . وتوزيع الســـيادة العليا ، على قدم المساواة ، بين قائدين موهوبين مشهود لهما بالفضل ، على أن يكون لكل منهما لقب أدنى مرتبـــة وهو « قيصر » . أمـــا الشخصان اللذان حباهما بمرتبة الشرف الثانية فى السدة الامبراطورية، فهما جالريوس ، وكنيته أرمنتاريوس ، وكان فى الأصل يشتغل برعى الماشية ، وقسطنطيوس Constantius الذى بلغ من شحوب وجهه أن سموه كلورس Chlorus . وفى وصفنا لبلد هرقوليوس ومنبته وخلقه، نكون كذلك قد وفينا جالريوس حقه فى هذه النواحى . وكثيرا ما كان يسمى ، وبحق ، مكسيميان الأصفر ، ولو انه أثبت فى مناسبات كثيرة انه يفوق الأكبر فضلا وكفاية ، بشكل واضح . أما منبت قسطنطيوس فكان أقل غموضا من أقرانه . فقـــد كان أبوه يتـــروبيوس Eutropius من أكبر أشراف دردانيا Dardania ، وكانت أمه ابنة أخت الامبراطور كلوديوس . وقضى قسطنطيوس شبابه فى خدمة الجيش ، ولكنه كان على خلق رضى رقيق . وقد اعترف الناس بجدارته بهذه المرتبة الرفيعة التى بلغها فى النهاية . ورغبة فى توثيق أواصر الوحدة السياسية بالوحدة الداخلية الأسرية ، انتحل كل من الامبراطورين صفة الوالد لأحـــد القيصرين : دقلديانوس لجالريوس ، ومكسيميان لقسطنطيوس . والزما كلا منهما بطلاق زوجته السابقة ، ووهب كل منهما ابنته زوجـــة لابنه بالتبنى . واقتسم هؤلاء الأمراء الأربعة فيما بينهم أركان الامبراطورية الرومانية المترامية الأطراف ، فعهد الى قسطنطيوس بالدفاع عن الغال واسبانيا وبريطانيا ، واتخذ جالريوس من ضفاف الدانوب مركزا له ليكون وقاية لولايات الليريا . واعتبرت ايطاليا وافريقية نطاق حكم

مكسيميان ، واحتفظ دقلديانوس بتراقيا ومصر وأقطار آسيا الغنية ، نصيبا خاصا به . وكان كل منهم ملكا وسيدا فى نطاق ولايته الشرعية ، ولكن سلطتهم المتحدة امتدت على المملكة بأسرها ، وكان كل منهم على أتم استعداد لمعاونة زملائه بمشورته أو بحضوره . وعرف القيصران، فى مكانهما الرفيع ، للامبراطورين جلالهما وعظمتهما ، أما الأمراء الثلاثة الصغار ، فقد اعترفوا ، على قدم المساواة بأبيهم المشترك ومقدر حظوظهم ، فالتزموا طاعته وعرفوا له أياديه البيضاء عليهم . ولم تجد الغيرة المرتابة التى تقترن بالسلطة والقوة طريقها اليهم ، أو مكانا بينهم قط ، حتى لقد قورنت وحدتهم السعيدة بفرقة موسيقية حافظت مهارة الفنان الأول فيها على التناسق والانسجام بينها ، وضبطتها .

ولم يتم هذا الاجراء الهام الا بعد ست سنوات من اشراك مكسيميان . على أن هذه الفترة من الزمن لم تخل من أحداث تذكر . ولكنا ، زيادة فى الايضاح ، آثرنا أن نصف ، أولا الشكل الأدق المحكم فى عهد دقلديانوس ، ثم نردفه بأعماله ، متبعين فى ذلك الترتيب الطبيعى للأحداث أكثر من التسلسل التاريخى المشكوك فيه .

أخمد مكسيميان ثورة الفلاحين فى الغال ، وكان كاروسيوس Carausius قد سيطر على أسطول القتال (بحر الشمال) ، فانتحل لنفسه صفة الامبراطور فى بريطانيا ، ولكن قتله انتهى باستعادة قسطنطيوس لبريطانيا . وحمى القيصران حدود الراين والدانوب . ووجه دقلديانوس اهتمامه نحو الشرق بعد أن أخمد ثورة فى مصر ، ونصب حاكما صديقا هو تيريداتس Tiridates على أرمينيا ، وتنازل لفارس عن الولايات الواقعة فيما وراء دجلة ، وعقد معها صلحا دام اربعين عاما .

انتصار دقلديانوس ، ونظامه الجديد

وما وافت السنة العشرون من حكم دقلديانوس حتى احتفل بهذه الفترة المشهودة وبظفر جيوشه فى موكب نصر رومانى . ولم يشاركه فى جلال هذا اليوم وبهائه الا مكسيميان شريكه المتكافىء معه فى القوة والسلطة . وقد حارب القيصران وفتحا — ولكن ، تبعا لصرامة المبادىء القديمة ، نسب الفضل فى كل منجزاتهما الى النفوذ الموفق والطالع السعيد لأبويهما وامبراطوريهما . وربما كان انتصار دقلديانوس

ومكسيميان أقل فخارا من انتصار أوريليوس وبروبوس ، ولكن عـدة ظروف أضفت على الأول شهرة أكبر وحظا أسعد ، فقد أقيمت الأنصاب التذكارية فى افريقية وبريطانيا والراين والدانوب والنيل . ولكن أبرز زينة وأبهى احتفال كانا ذوى طبيعة فريدة : انتصار فى فارس أعقبه فتح مبين ، فحملت أمام العربة الامبراطورية رسوم الأنهـار والجبـال والولايات . وثمة مشهد جديد أرضى غرور الشعب : زوجـات كسرى العظيم وأخواته وأطفاله ، ممن وقعن أسيرات . وهذا انتصار مشهور مذكور لدى الذرارى والأعقاب ، لأنه ينفرد بميزة أدنى شرفا وأقـل مجدا . ذلك أنه كان آخر انتصار شهدته روما . فقد توقف الأباطرة بعد هذه الفترة عن قهر الأعداء ، وتوقفت روما عن أن تكون عاصمة الامبراطـورية .

وكانت البقعة التى أسست عليها روما قد اختصت بطقوس قديمة ومعجزات موهومة . فبدا أن وجود اله ما ، أو ذكرى أى بطل ما أنعش كل أرجاء المدينة وبعث فيها الحياة . وأن الكابيتول قد وعد بامبراطورية العالم . وأحس المواطنون الرومان بقوة هذا الوهم المقبول وأقروه . فقد نبع من آبائهم الأولين ، ونما وترعرع مع أقدم عادات حياتهم ، ثم رعته وتعهدته ، الى حـد ما ، فكرة المنفعة السياسية . وكان كيان الحكومة ومقرها ممتزجين الواحد منهما بالآخـر مزجا شـديداً ، ورئى أنه لم يكن من الميسور نقل أحدهما دون تدمير الآخر . وتقلصت مـع الأيام سيادة العاصمة بالتوسع فى الفتوح ، وارتقت الولايات الى نفس المستوى ، وحصلت الأمم المقهورة على الاسم والامتيازات دون أن تتغذى بمشاعر الحب والتعلق التى وضعها الرومان . على أن بقايا الدستور القديم وتأثير العرف حافظا على مكانة روما لفترة طويلة . ورغم أن الأباطرة كانوا قد نشأوا فى أفريقية أو فى الليريا ، فانهـم احترموا البلاد التى تبنوها ، بوصفها مقراً لسلطانهم وقوتهم ، ومركز أملاكهم الشاسعة . وكثيرا ما اقتضت طوارىء الحرب وجودهم على الحدود ، ولكن دقلديانوس ومكسيميان كانا أول الأباطرة الرومـان الذين حددوا اقامتهم العادية فى الولايات فى زمن السلم . ومهما كـان من بواعث خاصة وراء سلوكهما هذا ، فقد برراه باعتبارات سياسية نمقوها تمويها . فاستقر بلاط امبراطور الغرب ، على الأغلب ، فى ميلان، حيث بدا موقعها فى سفح جبال الألب أفضل من موقع روما ، تحقيقـا لغرض هام هو مراقبة حركات المتبربرين فى ألمانيا . وسرعان ما انتحلت ميلان بهاء المدينة الامبراطورية وفخامتها . فوصفت الدور بالوفـرة وجمال البناء ، ووصف سلوك الشعب بالتهذيب والصقل والسخـاء .

وزاد فى رواء العاصمة الجديدة السيرك والمسرح ، ودار سك النقود ، والقصر ، والحمامات ، التى حملت اسم سيدها مكسيميان ، الى جانب الأروقة التى زينت بالتماثيل والأسوار المزدوجة التى أحاطت بها ، كذلك يبدو أنه لم يضايقها قربها من روما . وكان دقلديانوس كذلك يطمع فى منافسة عظمة روما ، وكان قد استغل أوقات فراغه كما استخدم ثروة الشرق فى تجميل نيقوميديا ، وهى مدينة تقع على حافة أوربا وآسيا ، على مسافة تكاد تكون واحدة بين الدانوب والفرات . وفى بضع سنين قليلة بلغت نيقوميديا درجة من الفخامة ارتضاها ذوق الملك، ودفع ثمنها الشعب ، حتى بدا أنه قد تم فى بضع سنين ما كان انجازه يتطلب جهد العصور ، وباتت نيقوميديا أقل من روما والاسكندرية وأنطاكية فى كثافة السكان فقط . وكانت حياة دقلديانوس ومكسيميان حياة جد وعمل ، ولقد قضيا جزءا كبيرا منهما فى المعسكر ، أو فى مسيراتهم الطويلة الكثيرة ، حتى اذا سمحت الأعباء العامة لهما ببعض الاسترخاء والاستجمام سعدا باللجوء الى مقرهما المفضل الأثير فى نيقوميديا وميلان . ومن المشكوك فيه كثيراً أن يكون دقلديانوس قد زار يوما العاصمة القديمة للامبراطورية الى أن احتفل بيوم النصر فى العام العشرين من حكمه ، وحتى فى هذه المناسبة المشهودة لم تطل اقامته فيها لأكثر من شهرين . وضاق ذرعا واستاء من فجور الناس فى رفع الكلفة ، فغادر روما قبل الموعد الذى كان متوقعا أن يحضر فيه الى السناتو ليضعوا عليه شعارات مرتبة القنصل ، بنحو ثلاثة عشر يوما .

ولم يكن المقت الذى أبداه دقلديانوس نحو روما ونحو الحرية الرومانية نتيجة لنزوة عابرة ، بل كان نتيجة لأعظم دهاء فى السياسة . فقد ابتدع هذا الأمير المحتال أسلوبا جديدا للحكومة الامبراطورية ، استكملته فيما بعد أسرة قسطنطين ، ولما كان شبح الدستور القديم محفوظا فى السناتو يحوطه التقديس والاجلال ، فقد صمم على أن يحرم هذا النظام من بقايا قوته وأهميته . وقد نعود بذاكرتنا الى ما قبل ارتقاء دقلديانوس على العرش بثمانى سنوات، الى عظمة السناتو الزائفة وآماله العريضة . وما دام هذا الحماس سائدا ، فقد اندفع كثير من النبلاء فى اظهار غيرتهم على الحرية . وبعد أن سحب خلفاء بروبوس تعضيدهم عن الحزب الجمهورى ، لم يعد أعضاء السناتو قادرين على اخفاء استيائهم العاجز . وعهد الى مكسيميان — بوصفه ملك ايطاليا — بقمع هذه الروح المزعجة ، ولو انها ليست خطيرة . والحق أن هذه المهمة التأمت كل الالتئام مع طبعه العنيف القاسى ، فأخذ مكسيميان ألمع

شيوخ السناتو الذين تظاهر دقلديانوس بتقديره لهم ، بتهمة الاشتراك فى المؤامرات الوهمية . وكان اقتناء دار فخمة أو ضيعة معتنى بزراعتها يفسر على انه دليل قاطع على الجريمة . وبدأ معسكر البريتوريين يحمى مكانة روما بعد أن كان ردحا طويلا من الزمن أداة ظلم لها ، ولما كانت هذه الفرق المتغطرسة تدرك اضمحلال سلطانهم فانهم جنحوا بطبيعة الحال الى التوحيد بين قوتهم وبين سلطة السناتو . وتناقص عدد البريتوريين بطريقة غير ملحوظة طبقا لاجراءات الحيطة والحذر التى اتخذها دقلديانوس ، كما ألغيت امتيازاتهم ، وحل محلهم فرقتان مخلصتان موثوقتان من الليريكوم ، عينتا للقيام بمهام الحرس الامبراطورى ، تحت اسم جديد : « الجوفيانيون والهرقوليون » ولكن أقسى طعنة مميتة تلقاها السناتو من يد دقلديانوس ومكسيميان ، ولو أنها طعنة خفية ، هى غيابهما المحتوم الذى لا مناص منه . فطالما سكن الأباطرة روما، فمن الجائز أن يعانى هذا المجلس شيئا من الظلم والجور، ولكن لا يغفل أمره قط . ولقد مارس خلفاء أوغسطس سلطة فرض القوانين التى ترتضيها حكمتهم أو توسوس بها نزواتهم ، ولكن اجازة هذه القوانين كانت تتم بعد اقرار السناتو لها : وبقى النموذج القديم للحرية ماثلا فى مناقشاته وقراراته . والى حد ما اضطر الأمراء الحكماء الذين احترموا آراء الشعب الرومانى ، الى انتحال السلوك وأسلوب الكلام اللذين يليقان بهذا المصدر العام الأول للحكم فى الجمهورية . انهم فى الولايات ومع الجيوش أظهروا أبهة الملك ورفعة السلطان ، ولكنهم اذا اتخذوا مقرا لهم بعيدا عن العاصمة ، نبذوا الى الأبد ذلك الرياء أو التصنع الذى أوصى به أوغسطس خلفاءه . فتداول الملك مع وزرائه فيما يتعلق بممارسته لسلطته التنفيذية والتشريعية على حد سواء ، بدلا من التشاور مع المجلس الموقر للأمة . وقد أحيط اسم السناتو بالتكريم والتبجيل حتى نهاية عهد الامبراطورية . وكانت الامتيازات الشرفية لا تزال تشبع غرور الأعضاء ، ولكن المجلس الذى طالما كان مصدر السلطة وأداتها آذن بالتردى فى زوايا النسيان فى خشوع واجلال ، وبقى سناتو روما ، بعد أن فقد صلته بالبلاط الامبراطورى وبالدستور الفعلى تحفة جليلة عديمة النفع من الآثار القديمة ، فوق تل كابيتولين .

وقد سهل على أمراء الرومان — وقد تخلوا عن السناتو وعن عاصمتهم القديمة فلم يعودوا يرون منهما شيئا — أن ينسوا مصدر سلطتهم الشرعية وطبيعتها . فان الوظائف المدنية : القنصل ، والبروقنصل ، والمراقب ، والتربيون ، — تلك التى شكلت باتحادها معا

هذه السلطة — هى التى فضحت للشعب نشأتها الجمهورية . وطرحت هذه الألفاظ المتواضعة جانبا ، واذا كانت قد احتفظت بمقامها الرفيع تحت اللقب الفخم « الامبراطور » فان هذه الكلمة قد فهمت بمعنى جديد أسمى ، ولم تعد تدل على قائد الجيوش الرومانية ، بل على سيد العالم الرومانى . وارتبط اسم « الامبراطور » الذى كان فى بداية الأمر ذا طبيعة عسكرية — باسم آخر من طراز أكثر ذلة . ولم يكن لقب دومينوس Dominus أو سيد Lord فى دلالته البدائية ، يعنى سلطان الأمير على رعاياه ، أو القائد على جنوده ، ولكنه كان يعبر عن السلطة الاستبدادية المطلقة للسيد على عبيده المحليين . وعلى أساس هذه النظرة الكريهة ، رفضه القياصرة الأولون ، مقتا ونفورا . ولكن ضعفت مقاومتهم بشكل غير ملحوظ ، وأصبح الاسم أقل مقتا ، حتى ان اسم « سيدنا وامبراطورنا » لم يعد فى النهاية يسبغ ملقا ورياء فحسب ، بل أدخل كذلك فى القوانين والآثار العامة . وكانت مثل هذه الألقاب الرفيعة كافية لترضى وتشبع أشد الغرور ، واذا كان خلفاء دقلديانوس قد ظلوا يتخلون عن لقب « ملك » ، فيبدو أن هذا لم يكن راجعا الى اعتدالهم ، أكثر منه الى ضعفهم . وحيثما استخدمت اللغة اللاتينية (وقد كانت لغة الحكومة فى مختلف أرجاء الامبراطورية) كان لقب « امبراطور » — وهو خاص بهم أنفسهم — يحمل فكرة الاجلال والاكبار أكثر مما يحمل لقب « ملك » الذى ربما شاركوا فيه مائة من رؤساء المتبربرين أو على أحسن الفروض ، أخذوه عن رميلوس وتاركين، وكانت العواطف والأحاسيس تختلف فى الشرق عنها فى الغرب . ومنذ أقدم عصور التاريخ كان حاكم آسيا يكرمونه فى اللغة اليونانية بأن يطلقوا عليه لقب « باسيليس » Basileus أو «ملك». ولما كان هذا اللقب يعتبر أرفع مقام بين الرجال،فان أهل الولايات التابعين الخاضعين سرعان ما استخدموه فى مخاطباتهم المتواضعة الى العرش الرومانى ، واغتصب دقلديانوس ومكسيميان حتى صفات « الألوهية » أو على الأقل ألقابها ، ونقلوها الى سلسلة متعاقبة من أباطرة مسيحيين ممن جاءوا فيما بعد ، على أن هذه المدائح والتحيات المسرفة سرعان ما تفقد روعتها بضياع معناها ، حتى اذا ألفت الأذن يوما رنينها ، استمعت اليها فى استهتار ، وكأنها احتراف غامض مسرف للاجلال والاحترام .

نشوء مراسم البلاط

كان أمراء الرومان ، من عهد أوغسطس الى عصر دقلديانوس يتحدثون بشكل عادى مألوف مع بنى وطنهم ، الذين كانوا يحيونهم ويسلمون عليهم بنفس الاجلال الذى حيوا عادة به شيوخ السناتو والقضاة والحكام ، ليس غير . وكان امتيازهم الأساسى يتمثل فى الحلة الامبراطورية الأرجوانية ، على حين تميز رداء الشيوخ بشريط عريض ، ورداء العسكرية بشريط ضيق ، من نفس هذا اللون الممتاز . وزين الغرور ، أو بالأحرى السياسة ، لهذا الأمير الداهية ادخال نظام بلاط فارس بما فيه من فخامة وأبهة وسناء . وتجاسر فاتخذ لنفسه التاج ، وهو عبارة عن حلية مقتها الرومان بوصفها رمزا كريها للملكية ، كما اعتبروا استخدام كاليجولا له ذروة الجنون والجرأة . ولم يعد التاج أن يكون عصابة عريضة بيضاء مرصعة باللآلىء تحيط برأس الامبراطور . وكانت الملابس الفاخرة لدقلديانوس وخلفائه تتخذ من الذهب والفضة ، وكان الملحوظ ، مع أشد الاستياء ، أنه حتى أحذيتهم كانت مرصعة بأثمن الجواهر . وكان الوصول الى أشخاصهم المقدسة يزداد صعوبة يوما عن يوم ، بابتداع الأشكال والمراسم الجديدة . وكانت تقوم على حراسة مداخل القصر ، حراسة شديدة ، طوائف ــ بدءوا يسمونها مدارس Schools ــ من الضباط المحليين . اما الغرف والحجرات الداخلية فقد عهدوا بحراستها الى يقظة الخصيان ، تلك التى تتسم بالحقد والغيرة ، وكان تزايد عدد هؤلاء الخصيان ونفوذهم ، أصدق أعراض تفاقم الاستبداد . فاذا حظى أى فرد من الرعية ، فى النهاية بالمثول بين يدى الامبراطور ، كان عليه ، مهما كانت مكانته أو مقامه ، أن يخر الى الأرض ساجدا ، وأن يسبح ، وفقا للطريقة الشرقية ، بقداسة سيده ومولاه . وكان دقلديانوس رجلا فطنا حسن الادراك ، عرف لنفسه قدرها ، كما عرف للناس أقدارهم ، بالعدل والقسطاس ، فى مجال الحياة الخاصة والحياة العامة ، سواء بسواء . كما انه ليس من السهل أن نتصور أنه كان فى احلاله العادات الفارسية محل عادات روما ، مدفوعا اندفاعا جديا بمبدأ وضيع مثل مبدأ الزهو أو الغرور . انه كان يعلل النفس بأن التظاهر بهذه الفخامة والأبهة والشرف قد يقهر خيال الجماهير ، وأن الملك قد يكون أقل تعرضا للاباحية السمجة فى الشعب والجيش ، اذا احتجب شخصه عن الأنظار العامة ، وأن عادة الخضوع والخنوع لابد أن تنبثق بطريقة غير ملحوظة عن مشاعر الاجلال والاحترام . على أن الحالة التى ظهر عليها دقلديانوس ، مثل التواضع الذى اصطنعه أوغسطس ، لم تكن الا تمثيلا

مسرحيا ، ولكن لابد أن نعترف بأن المهزلة الأولى التى مثلها أوغسطس كانت ذات طابع أكثر رجولة وسخاء من تلك التى مثلها دقلديانوس فيما بعد ، لقد كان هدف الواحدة أن تخفى وتستر ، على حين كان غرض الثانية أن تكشف وتعرض ، السلطان المطلق غير المحدود الذى كان للأباطرة فى العالم الرومانى .

وكان حب الظهور أول مبادىء النظام الجديد الذى استنه دقلديانوس . أما الثانى فكان التقسيم ، فقسم الامبراطورية والولايات، وكل فرع من فروع الادارة المدنية أو العسكرية . فضاعف عجلات الأداة الحكومية ، وجعل عملياتها أقل سرعة ولكن أكثر سلامة وأمنا . ومهما كان من مزايا أو مساوىء هذه المبتكرات فانه يجدر أن ننسبها — الى حد كبير — الى المبدع الأول ، ولكن الأمراء المتعاقبين حسنوا وأكملوا على مر الأيام الاطار الجديد للسياسة ، ومن ثم كان من الأوفق ارجاء دراستها حتى يتم نضجها واكتمالها . وما دمنا استبقينا لعصر قسطنطين، الصورة الأدق للامبراطورية الجديدة ، فاننا نكتفى بوصف التخطيط الرئيسى الحاسم الذى سعى اليه دقلديانوس . لقد أشرك فى ممارسة السلطة العليا ثلاثة من الزملاء ، ولما كان مقتنعا بأن قدرات أى فرد واحد لا تكفى للاضطلاع بعبء الدفاع العام ، فانه اعتبر الادارة المشتركة للأمراء الأربعة ، لا مجرد وسيلة مؤقتة ، بل قانونا أساسيا فى الدستور. وكان من رأيه أنه يجب تمييز الأميرين الأكبرين باستخدام التاج ولقب أوغسطس ، وأن يختارا بانتظام لمعاونتهما ، حبا أو تقديرا ، زميلين تابعين ، وأن يرقى هذان القيصران بدورهما الى المرتبة الأولى (أوغسطس) بحيث لا ينقطع تعاقب الأباطرة . وقسمت الامبراطورية الى أربعة أجزاء ، كان الشرق وايطاليا أشرف المراكز ، والدانوب والراين أشقها . وتطلب الأولان وجود أوغسطس ، على حين عهد بادارة الآخرين الى القيصرين . وكانت قوة الجيش موزعة بين شركاء السيادة الأربعة . وقد يحد من طموح أى قائد متطلع يأسه من قهر المنافسين الأربعة الأشداء الواحد بعد الآخر — وكان المفروض — فيما يتعلق بالحكومة المدنية ، أن يمارس الامبراطوران سلطة الحاكم التى لا تتجزأ ، وأن أوامرهما المهورة بتوقيعيهما تتلقاها الولايات وكأنها صادرة عن مجالسهما وسلطاتهما المتبادلة . ورغم هذه الاحتياطات ذابت الوحدة السياسية فى العالم الرومانى شيئا فشيئا ، وساد مبدأ التقسيم الذى كان ، فى بضع سنين قلائل ، سببا فى الفصل الدائم بين الامبراطوريتين الشرقية والغربية .

واقترن نظام دقلديانوس بعيب آخر هام جدا ، لا يمكن التغاضى عنه جملة واحدة حتى فى الوقت الحاضر ، وهو فداحة تكاليف الادارة الحكومية ، وتفاقم الزيادة فى الضرائب ، وظلم الشعب . وبدلا من أسرة متواضعة من العبيد والأحرار،مثل تلك ارتضتها بساطة عظمة أوغسطس وتراجان ، شيد بلاط فخم فى ثلاثة أو أربعة أركان من الامبراطورية ، وتطاحن عدد من ملوك الرومان بعضهم مع بعض ومع ملك الفرس على التفوق العاطل العقيم فى مجال الأبهة والبذخ . وتضاعف — بشكل لم يسبق له مثيل فى العصور الخوالى — عدد الوزراء والحكام والموظفين والخدم ، لملء مصالح الدولة واداراتها . واذا جاز لنا أن نستعير عبارة حماسية لأحد المعاصرين ، فهو يقول : « اذا رجحت نسبة أولئك الذين يأخذون نسبة من يعطون ، فقد وقع على الولايات حيف كبير من فداحة الجزية » . وقد يكون من الميسور أن نستنتج ، منذ هذه الفترة حتى سقوط الامبراطورية ، سلسلة لا تنقطع من الصرخات والشكاوى . ويختار كل مؤرخ ، تبعا لديانته وموقفه ، واحدا من هؤلاء موضوعا لذمه ولعنته : دقلديانوس ، أو قسطنطين ، و فالينس Valens أو تيوديسيوس ، ولكنهم متفقون بالاجماع على تصوير ثقل التكاليف المفروضة على الناس ، وبخاصة ضريبة الأرض وضريبة الرأس ، على أنهما الحيف المتفاقم الذى لا يحتمل فى أيامهم ، ولا شك فى أن المؤرخ النزيه المتجرد المضطر الى استخلاص الحقيقة من بين سطور القدح والمدح أو التهكم والثناء على حد سواء ، سيتجه الى توزيع اللوم على هؤلاء الأمراء المتهمين جميعهم ، وأن يرجع هذا الابتزاز والاغتصاب الى أسلوبهم الموحد فى الادارة أقل كثيرا مما ينسبه الى مساوئهم الشخصية. والحق أن الامبراطور دقلديانوس كان منشىء هذا النظام ، ولكن فى أثناء حكمه كانت بذور الشر محصورة داخل نطاق من التواضع والحزم ، فهو يستحق اللوم على وضع هذه السوابق الخبيثة أكثر منه على ممارسة الظلم والجور فعلا . وقد نضيف أن تصرفه فى موارده كان يتسم بالاقتصاد والتدبر والحرص ، وأنه قد تبقى فى الخزائن الامبراطورية ، بعد سداد المصروفات الجارية ، رصيد للسخاء المعتدل الحكيم ، أو لأية ملمة طارئة تنزل بالدولة .

اعتزال دقلديانوس ووفاته

وفى السنة الحادية والعشرين من حكمه ، نفذ دقلديانوس قراره المشهور فى اعتزال الامبراطورية ، وهو عمل كان من الطبيعى توقعه من أنطونينوس الاكبر أو الأصغر ، منه من أمير لم يمارس أو يطبق دروس

الفلسفة ، لا فى الوصول الى السلطة العليا ، ولا فى استخدامها .وبذلك أحرز دقلديانوس قصب السبق وبلغ مناط المجد فى أنه قدم للعالم أول مثال فى الاعتزال ، وهو مثال قل أن اقتدى به من جاء بعده من الملوك . وطبيعى أن يقفز الى أذهاننا مثال شارل الخامس ، لا لمجرد أن بلاغة مؤرخ حديث قد جعلت هذا الاسم مألوفا لدى القارىء الانجليزى فحسب ، بل كذلك من أجل الشبه الصارخ بين شخصيتى هذين الامبراطورين اللذين تسامت قدراتهما السياسية على عبقريتهما العسكرية ، ونبعت فضائلهما الخداعة المنمقة من الدهاء والاحتيال أكثر منها من الطبيعة . ويبدو أن تقلبات الحظ هى التى عجلت باعتزال شارل الخامس ، وأن خيبة أمله فى مشروعاته الأثيرة لديه دفعته الى التنحى عن السلطة ، التى وجدها لا تتناسب مع أطماعه . ولكن حكم دقلديانوس مضى فى فيض لم ينقطع من التوفيق والنجاح ، كما أنه يبدو أنه لم يراوده شىء من هذا التفكير الجدى فى اعتزال الامبراطورية ، الا بعد أن قهر كل أعدائه ، وأنجز كل مشروعاته . ولم يبلغ أى من شارل الخامس أو دقلديانوس أرذل العمر ، حيث كان الأول فى الخامسة والخمسين ، والثانى فى التاسعة والخمسين من العمر فحسب، ولكن حياتهما الجادة النشيطة وحروبهما ورحلاتهما ، وهموم الملك وانصرافهما الى العمل ، كل أولئك هد من كيانهما وأصابهما بعلل الشيخوخة المبكرة .

وغادر دقلديانوس ايطاليا — رغم قسوة شتاء قر مطير — بعد احتفال النصر مباشرة ، وبدأ تقدمه نحو الشرق ، دائرا حول ولايات الليريا . وانتابته من رداءة الجو ونصب السفر علة بطيئة ، ورغم أنه أبطأ السير وأخذ فى تقدمه شيئا من الراحة، وأنه كان بصفة عامة محمولا فى محفة مغلقة ، اشتدت عليه العلة قبل وصوله الى نيقوميديا حوالى نهاية الصيف ، وباتت تنذر بالخطر . واعتكف طوال الشتاء فى القصر ، وأثار الخطر المحدق به اهتماما عاما صادقا غير مصطنع . ولكن الناس لم يتبينوا التغير فى صحته الا من علامات الفرح أو التجهم التى اكتشفوها فى محيا أتباعه وفى سلوكهم . وقد صدق القوم عامة ، لبعض الوقت ، اشاعة موته ، وظنوا أنهم انما أخفوا موته درءا للمتاعب التى قد تنشأ من جراء غياب القيصر جاليريوس . وأخيراً ، وفى أول مارس، ظهر دقلديانوس أمام الجماهير مرة أخرى ، ولكن على درجة من الشحوب والهزال ، لم يكد يتعرف عليه معها أكثر الناس معرفة لشخصه . وحان الآن الوقت لوضع حد للنزاع المرير بين العناية بصحته ورعاية مهام منصبه ، فاقتضت الأولى الرفق والراحة ، على حين أرغمته الثانية على

أن يتولى من فراش المرض ادارة الامبراطورية الضخمة . ومن ثم اعتزم أن يقضى بقية أيامه فى راحة مشرفه ، وأن يضع مجـده فوق متناول الحظ ، وأن يتخلى عن المسرح العالمى لشركائه الذين هم أصغر سنا وأوفر نشاطا .

وأقيم احتفال تنازله عن الحكم فى سهل فسيح على بعد نحو ثلاثة أميال من نيقوميديا . واعتزل الامبراطور عرشا سامقا . وفى خطاب ملىء بالمنطق والوقار ، أفصح عن عزمه الى الشعب والجنود الذين تجمعوا فى هذه المناسبة الفريدة الخارقة . وما أن جرد نفسه من الحلة الأرجوانية حتى اختفى عن أعين الجماهير المحملقة ، واخترق المدينة فى عربة مغطاة، وجد السير دون ابطاء الى مأواه الأثير لديه والذى اختاره فى مسقط رأسه دلماشيا . وفى نفس اليوم ، أى فى أول مايو ، اعتزل مكسيميان ، وفقا لاتفاق سابق ، منصب الامبراطورية فى ميلان . لقد فكر دقلديانوس فى مشروع اعتزاله الحكم حتى وسط أبهة الانتصارات الرومانية . ولما أراد أن يؤمن انصياع مكسيميان ، استخلص منه اما توكيدا عاما بأن يخضع تصرفاته لسلطان ولى نعمته ، أو عهدا خاصـا بأن ينزل عن العرش عندما يحين الوقت الذى ينبغى عليه فيه أن يتلقى النصـح والقدوة . ورغم توكيد هذا التعهد بقسم غليظ أمام مذبح جوبيتر فى الكابيتولين ، فقد كان من الجائز أن يكون قيدا هزيلا لمكسيميان ذى المزاج الحاد الشرس الذى كان حب السلطة منتهى هواه ، والذى لم يشته الهدوء السائد أو الشهرة فى المستقبل ، ولكنه رضخ ، مهما كان كارها ، للسيادة التى فرضها عليه زميله الذى هو أرجح عقلا ، وآوى فور اعتزاله الى دار فى لوكانيا (فى جنوب ايطاليا) حيث كاد يتعذر أن تجد مثل هذه الروح القلقة أية راحة دائمة .

وقضى دقلديانوس ذو المنبت الوضيع أعوامه التسعة الأخيرة من حياته ، معتكفا عن الحياة العامة . لقد أملى عليه العقل انسحابه — ويبدو أن القناعة لازمته فيه ، كما نعم فيه باجلال واحترام أولئك الأمراء الذين نزل لهم عن ملكية العالم . وندر أن تعودت العقول التى كابدت أمدا طويلا مهام الأمور ، أن تتحدث الى نفسها وتجاهدها ، بل انها عند فقدان السلطة لتبكى حاجتها الى ما يشغلها ، وكانت ملـذات الأدب أو العبادة التى تملأ كثيرا فراغ العزلة ، عاجزة عن أن تسترعى انتباه دقلديانوس ، ولكنه احتفظ ، أو على الأقل سرعان ما استعاد هواه لأطهر المسرات وألصقها بالطبيعة ، فقضى ساعات فراغه الى حد كاف فى البناء والزراعة وفلاحة البساتين . وان جوابه الى مكسيميان لهو جـواب

مشهود يستحق الذكر . فقد توسل اليه هذا الرجل العجوز أن يسترد زمام الحكم ، ويستعيد الحلة الأرجوانية ، ولكنه أبى أن يستجيب لهذا الاغراء بابتسامة مشفقة ، وأشار فى هدوء الى أنه لو استطاع أن يرى مكسيميان الكرنب الذى زرعه بيديه فى سالونا ، فانه لن يعود يصغى لأى اغراء يثنيه عن التمتع بهذه السعادة طلبا للسلطة . وطالما اعترف فى مناقشاته مع أصدقائه بأن أشق فن هو فن الحكم ، وعبر عن نفسه فى هذا الموضوع المحبب اليه فى حرارة لا بد أنها كانت نتيجة الخبرة والتجريب . وقد تعود أن يقول : « ما أكثر ما تقتضى مصلحة أربعة او خمسة من الوزراء بأن يتكتلوا ليغرروا بمليكهم ، فهو معزول فى مكانه الرفيع عن بنى الانسان ، ومن ثم يحتجب الحق عن ناظريه ، فهو لا يرى الا بأعين هؤلاء الوزراء ، ولا يسمع الا تمويهاتهم وأباطيلهم ، وأنه يكرم أهل السوء والرذيلة والضعف والجور باسناد أخطر الوظائف اليهم على حين يمتهن أفضل وأجدر رعاياه ، وبمثل هذه الأفانين الشائنة يصبح خير الأمراء وأعقلهم فريسة لرجال حاشيته الذين استشرى فيهم الفساد والرشوة » . وقد يسيغ لنا التقدير الصادق للعظمة وضمان خلود الشهرة طعم وسائل السرور واللذة فى أيام التقاعد ، ولكن الامبراطور الرومانى شغل فى العالم منصبا بلغ من الخطورة درجة لا يستطيع معها أن ينعم براحة الحياة الخاصة وطمأنينتها دون أى مكدر . فكان من المستحيل عليه أن يبقى بمنجاة من المتاعب التى تلم بالامبراطورية بعد اعتزاله ، أو الا يبالى بنتائجها . لقد تعقبه الخوف والأسى والاستياء الى عزلته فى سالونا . وجرحت رقته ، على الأقل كبرياؤه بما انتاب زوجته وابنته من كوارث ، كما عكرت صفو أيامه الأخيرة بعض اساءات كان يستطيع لينيوس وقسطنطين أن يجنباها الرجل الذى يعتبر أبا لكثير من أباطرة والمخطط الأول لحظوظهم . وجاء فى تقرير وصل الينا علمه فى أيامنا هذه ، ولو أنه مشكوك فيه كثيرا ، أنه انسحب فى حرص وحذر من دنيا سلطانهم بالموت طوعا واختيارا .

وننتقل الآن ، وقبل أن نبتعد عن دراسة حياة دقلديانوس وشخصيته ، الى المكان الذى آوى اليه وتقاعد فيه ، وهو سالونا ، وهى مدينة رئيسية فى ولايته وموطنه دلماشيا ، وكانت تبعد نحو مائتين من الأميال الرومانية (وفقا لمقاييس الطرق العامة) عن أكويليا ومشارف ايطاليا ، ونحو مائتين وسبعين ميلا عن سيرميوم ، وهى المقر المعتاد للأباطرة كلما زاروا حدود الليريا . وما تزال هناك قرية حقيرة تحمل اسم سالونا . ولكن كان يشهد على عظمتها حتى القرن السادس عشر

أطلال مسرح ومنظر مهوش لعقود متهدمة وأعمدة من الرخام . وشيد دقلديانوس قصرا فخما على مسافة ستة أو سبعة أميال من المدينة .
وقد نستنتج من ضخامة هذا البناء الى أى مدى طال أمد تفكيره فى مشروع اعتزال الامبراطورية . فان اختيار البقعة التى تجمع بين الصحة والمتعة لم يتطلب تحيز المواطن . « كانت التربة خصبة جافة ، والهواء نقيا صحيا . وقلما تحس هذه البلاد ، رغم حرها القائظ فى شهور الصيف ، بالرياح اللافحة المؤذية التى تتعرض لها شواطىء أستريا وبعض أجزاء من ايطاليا . ولم يكن المنظر من القصر أقل جمالا وجاذبية من التربة والمناخ ، وكان يتجه الى الغرب الشاطىء الخصيب الذى يمتد على طول شاطىء الادرياتيك الذى تناثرت فيه مجموعة من الجزر الصغيرة الى درجة يظهر معها هذا البحر وكأنه بحيرة عظيمة . وفى الشمال يقع الخليج الذى يؤدى الى مدينة سالونا القديمة والريف من ورائها ، يشكل للناظرين مفارقة واضحة مع السطح المنبسط من الماء فى بحر الادرياتيك ، امتدادا الى الشرق والجنوب . وينتهى المنظر فى الشمال بجبال عالية غير منتظمة ، واقعة على مسافة بعيدة ، تغطيها ، فى كثير من الأماكن ، القرى والغابات والكروم (١) .

وعلى الرغم من أن قسطنطين يتصنع نتيجة حزازة سافرة أن يذكر قصر دقلديانوس فى احتقار ، فان أحد خلفائهما ، ممن لم يروا القصر الا فى حالة مهملة مشوهة ، يشيد بفخامته فى لغة تفيض بأعظم الاعجاب . فقد كانت مساحة أرضه تتراوح بين تسعة وعشرة أفدنة انجليزية (ايكر) . وكان ذا أربعة أضلاع يطوقها ستة عشر برجا . وبلغ طول اثنين من الأضلاع نحو ستمائة قدم ، والآخرين نحو سبعمائة . وقد شيد البناء كله من الحجر الرملى الجميل المأخوذ من محاجر ترو Trau أو تراجوتيوم Tragutium المجاورة . وهو أقل قليلا من الخام نفسه . وفصلت بين الأجزاء المختلفة لهذه العمارة الضخمة أربعة شوارع متقاطعة فى زوايا قائمة . وكان الوصول الى المنطقة الرئيسية فى قصر عن طريق مدخل آية فى الفخامة والروعة ، يسمى حتى اليوم « البوابة

---

(١) انظر آدم فى كتابه « آثار قصر دقلديانوس فى سبالاترو Palatro الصحيفة ٦ . ونصف هنا أمرين آخرين نقلا عن « أباتى فورتيس Abate Frotis » فان ترعة هيادر الصغيرة التى ذكرها لوكان Lucan كان فيها سمك الصمون ، وهى من أفخر السمك ، ويفترض كاتب حكيم ، ولعله راهب ، أنه كان - أى السمك - من الأسباب الرئيسية التى تحكمت فى اختيار دقلديانوس لمكان تقاعده . ويقول نفس المؤلف ان تذوق الزراعة ، انما انتعش فى سبالاترو ، وان جمعية من كرام القوم أسست مزرعة تجريبية قرب المدينة .

الذهبية » وكان يوصل اليه بهو للأعمدة المصنوعة من الجرانيت ، يمكن أن نرى على أحد جانبيه معبدا اسكولابيوس Aesculapius المربع ، وعلى الجانب الثانى معبد جوبيتر المثمن الاضلاع . وقد عبد دقلديانوس الاله الأخير من هذين الالهين بوصفه حارس أمواله ، والأول باعتباره راعى صحته . واذا قارنا بين الأطلال الحالية وبين سنن فيتروفيوس Vitruvius (مهندس معمارى رومانى فى عصر أغسطس وله مؤلف فى فن العمارة ، ظل مدة طويلة المرجع الأساسى للمهندسين المعماريين) لوجدنا أن عدة أجزاء من البناء ، والحمامات والمخدع ، والقاعة والبازيليك Basilica (كلمة لاتينية معناها مبنى كبير مسقوف كان يستعمل فى الخدمة العامة : أسواق ، محاكم ، قاعات للاجتماعات) والقاعة السيزينية Cyzicene (نسبة الى مدينة Cyziens بآسيا الصغرى على مقربة من بحر مرمرة ، اسسها اليونان فى القرن الثامن ق.م ، وتوالى على حكمها اليونان والفرس والرومان . وانتعشت أيام الامبراطورية) والقاعة الكورنثية والقاعة المصرية ، قد وصفت كلها فى شىء من الدقة ، أو على الأقل من الاحتمال . وقد تعددت أشكالها . ولكن نسب بنائها كانت صحيحة ، ولكن كان يشوبها كلها عيبان تنفر منهما آراؤنا الحديثة فى الذوق ووسائل الراحة . فان هذه الغرف الفخمة لم تكن بها نوافذ أو مداخن ، وكانت تضاء من أعلى (يبدو أن البناء كله كان طابقا واحدا) وتزود بالحرارة عن طريق أنابيب كانت تمد على طول الجدران ، وكان صف الأجنحة السكنية الرئيسية يحميها نحو الجنوب الغربى رواق طوله خمسمائة وسبعة عشر قدما . ولا بد أن هذا كان يشكل نزهة لطيفة بهيجة اذا أضيفت روائع النحت والتصوير الى جمال المنظر .

اضمحلال الفنون

ولو أن هذا القصر الفخم بنى فى مكان منعزل لتعرض لعوادى الزمان ، ولكنه ربما أفلت من سلب الانسان . لقد نشأت قرية اسبالاتوس ، وبعدها بزمن طويل مدينة سبالاترو ، على أنقاضه ، وتفتح البوابة الذهبية الآن على ساحة السوق واغتصب يوحنا المعمدان أمجاد أسكولابيس ، وتحول معبد جوبيتر الى كاتدرائية تحت حماية السيدة العذراء . وانا لمدينون بوصف قصر دقلديانوس الى فنان عبقرى مواطن ومعاصر ، حمله حب الاستقصاء الشديد الى قلب دلماشيا ، ولكن هناك مجالا للشك فى أن روعة أعماله ونقوشه هو قد توخت شيئا من المجاملة للأشياء التى كان يهدف الى وصفها واعطاء صورة عنها :

فقد ذكر سائح حكيم أحدث عهداً ، أن الأطلال الرهيبة فى سبالاترو لا تعبر عن اضمحلال الفنون أقل مما تعبر عن عظمة الامبراطورية الرومانية فى عهد دقلديانوس . فاذا كانت تلك حقيقة الحال فى فن العمارة ، فمن الطبيعى أن نعتقد بأن التصوير والنحت قد انتابهما اضمحلال ملحوظ أكثر . فان العمارة تحكمها بضع قواعد قليلة عامة ، بل قل آلية ، ولكن النحت ، وفوق كل شيء التصوير ، يتطلبان ابراز — لا أشكال الطبيعة وحدها فحسب ، بل كذلك ابراز شخصية النفس البشرية وانفعالاتها . ولا تجدى فى هذه الفنون الرائعة العالية خفة اليد ، الا اذا أثارها الخيال ووجهها أرفع الذوق وأدق الملاحظة .

وقد يكون من نافلة القول ان نشير الى أن الخيال الداخلى الذى انتاب الامبراطورية الرومانية وفجور الجنود ، وغارات المتبربرين ، وتفاقم الاستبداد ، كل أولئك لم يكن مناخا مواتيا للعبقرية والنبوغ ، بل ولا لمجرد التعلم ، فقد أعاد تعاقب أمراء الليريا الامبراطورية ، دون أن ينعش العلوم . فلم يقدر لتعليمهم العسكرى أن يغرس فيهم حب الأدب . ومهما كان من أمر نشاط دقلديانوس وقدرته على العمل ، فان ذهنه لم يتفتح قط للدراسة أو التأمل . وجدير بالذكر أن لمهنتى القانون والطب فائدة عامة ، وهما تدران ربحا ، ومن ثم يتوفر لهما دائما عدد من الناس ، على درجة معقولة من الكفاية والمعرفة ، يمارسونها ، ولكن لا يبدو أن هؤلاء الطلبة لجأوا الى أساتذة مشهورين ممن برزوا فى ذاك الزمان . وخرست ألسنة الشعر ، وانحط التاريخ الى موجزات جافة مهوشة خالية من التسلية والتهذيب . وبقى شيء من البلاغة الجامدة المتكلفة فى خدمة الأباطرة على نفقتهم ، حيث لم يشجعوا من الفنون الا ما أرضى غرورهم أو دافع عن سلطانهم .

ومهما يكن من أمر ، فان عصر اضمحلال العلوم والبشر ، يتميز بظهور الأفلاطونيين الحديثين وتقدمهم . لقد أخرست مدرسة الاسكندرية ، ألسنة فلاسفة أثينا ، وانضوت الطوائف القديمة تحت ألوية المعلمين الذين هم أكثر عصرية ، والذين أوصوا باتباع سبيلهم لجدة منهجهم وصرامة سلوكهم ، وكان كثير من هؤلاء الأساتذة — أمونيوس Ammonius ، بلوتينوس Plotinus ، أمليوس Amelius وبورفيرى Porphyry — رجالا ذوى فكر عميق ودأب شديد ، ولكنهم أخطأوا الهدف الحقيقى للفلسفة ، ومن ثم أسهمت جهودهم أقل كثيراً فى النهوض بالعقل الانسانى منها فى افساده . فان الأفلاطونيين الحديثين أهدلوا المعرفة الملائمة لعصرنا وقدراتنا ، كما أهملوا كل دائرة العلوم

الروحية والطبيعية والرياضية . على حين أرهقوا أنفسهم فى المناقشات اللفظية فى الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) وحاولوا أن يستجلوا أسرار العالم غير المرئى ، وجاهدوا ليوفقوا بين أرسطو وأفلاطون ، فى موضوعات لم يكن جهل هذين الفيلسوفين بها أقل من جهل سائر الجنس البشرى ، واستنفدوا منطقهم فى هذه التأملات العميقة غير الثابتة ، ومن ثم تعرضت أذهانهم لأوهام الخيال وتوهموا أنهم وضعوا أيديهم على سر تخليص النفس من هذا السجن المادى (وهو الجسم) ، وادعوا أنهم اتصلوا اتصالا عاديا بالجن والأرواح ، وفى ثورة فريدة فى بابها حولوا دراسة الفلسفة الى دراسة السحر . لقد سخر العقلاء الأقدمون من الخرافة الشعبية المألوفة ، ولكن تلاميذ بلوتينوس وبورفيرى أخفوا ما فيها من سرف عن طريق مزاعم هزيلة لمجازات واستعارات ، ثم بعد ذلك أصبحوا أشد المدافعين عنها حماسا وغيرة . ولما اتفقوا مع المسيحيين فى بعض النقاط الخفيفة فى العقيدة ، هاجموا بقية نظامهم اللاهوتى بكل جنون الحرب الأهلية وشراستها . ولا يكاد الأفلاطونيون الحديثون يستحقون مكانا فى تاريخ العالم الحديث ولكن كثيرا ما سيرد ذكرهم فى تاريخ الكنيسة .

الفصل الرابع عشر
(٣١٥-٣٢٣ م)

قسطنطين فى روما : اصلاحاته التشريعية

تمثل الصدع أو العيب الأساسى الخطير فى نظام دقلديانوس فى أن لمكسيميان ابنا هو مكسنتيوس Maxentius ولقسطنطيوس ابنا هو قسطنطين Constantine وتحكم العطف الأبوى وطغى على نظام الانتخاب وحسن الاختيار . وحاول جاليريوس أن يفرق بين قسطنطين ووالده . لكن الشاب ، رغم ذلك ، لحق بوالده فى بريطانيا ، وعند موت الوالد فى يورك ، نودى بالابن امبراطورا ((أوغسطس)) . وفى نفس العام نقض مكسنتيوس الميثاق ، وخرج من عزلته .

وكانت استراتيجية قسطنطين وخططه الدقيقة البارعة هى الخيط الأول الرئيسى فى كل الحروب والمناورات السياسية ، فقد تولى هو ادارة الغال ، بينما أقام مكسنتيوس حكما طاغيا غاشما فى ايطاليا وافريقية . ثم غزا الأول ايطاليا وهزم مكسنتيوس وقتل عند جسر مليفيان Milivian خارج روما . وقد زعموا أن قسطنطين رأى ، قبل هذه المعركة ، الرؤيا التى قرر من أجلها التحول الى المسيحية .

قسطنطين فى روما

لا يستحق قسطنطين فى استغلاله لثمار النصر ، الاطراء لاعتداله ورفقه ، ولا اللوم لعنفه وبطشه ، فقد سقى بالكأس التى كان لابد أن يتجرعها هو وأسرته لو كانت الهزيمة حلت به . فأعدم ابنى الطاغية ، وحرص على أن يستأصل كل من ينتمى اليه . ولا بد أن أبرز اتباع مكسنتيوس توقعوا أن يشاركوه مصيره كما شاركوه يسره ورخاءه

وجرائمه ، ولكن لما تعالت أصوات الشعب الرومانى مطالبة بالمزيد من الضحايا ، تصدى الفاتح فى شىء من الثبات والانسانية لهذه الصيحات الذليلة التى أملاها الرياء والاستياء معا . وعوقب المخبرون الوشاة ولم يلقوا تشجيعا ، واستدعى من المنفى أولئك الأبرياء الذين عانوا من قبل من ظلم الطاغية السابق . وصدر قانون عفو عام هدأ الخواطر وأقر الممتلكات فى ايطاليا وفى أفريقية . ولخص قسطنطين خدماته ومشروعاته فى خطاب متواضع له أمام السناتو عندما شرفه بزيارته لأول مرة ، وأكد احترامه الخالص للمجلس الموقر ، ووعد بتدعيم مكانته وامتيازاته القديمة . ورد المجلس المشكور على هذه الاعترافات الجوفاء بألقاب الشرف الزائفة التى كان لا يزال من سلطته أن يمنحها . وأصدروا ، دون أن يحصلوا على تصديق قسطنطين ، مرسوما بتعيينه فى المكان الأول بين الأباطرة الثلاثة الذين يحملون لقب « أوغسطس » والذين يحكمون العالم الرومانى . وأقيمت الألعاب والاحتفالات تخليدا لذكرى انتصاره ، كما أن عدة مبان شيدها مكسنتيوس على حسابه قد كرست لتكريم غريمه المنتصر . ولا يزال قوس نصر قسطنطين قائما ، دليلا محزنا على اضمحلال الفنون ، وشاهدا فريدا على أحط ألوان الزهو والغرور ، فانهم لما تعذر عليهم أن يجدوا فى عاصمة الامبراطورية نحاتا يستطيع أن يتولى بلمساته تزيين هذا الأثر العام ، عمدوا الى قوس نصر تراجان فجردوه من أروع رسومه ، دون احترام لذكراه ، أو رعاية لقواعد اللياقة . وأغفلوا كل الاغفال تفاوت الأزمان والأفراد والأعمال والشخصيات . من ذلك أن الأسرى البارثيين يبدون منبطحين تحت قدمى أمير لم يجرد قط جيشا فيما وراء الفرات ، وما يزال فى مقدور الأثريين المدققين أن يكتشفوا رأس تراجان فوق نصب قسطنطين . أما الزخارف التى كان لزاما أن يملأوا بها الفراغات فى النحت القديم فقد تمت على أقبح صورة وأبعدها عن المهارة والاتقان .

اما القضاء النهائى على الحرس البريتورى فكان اجراء يتسم بالحرص والفطنة ، كما يمثل ضربا من الانتقام . ذلك أن قسطنطين أخمد الى الأبد قوة هذه الفرق التى ملأها الصلف والغطرسة ، والتى أبقى مكسنتيوس على أعدادها وامتيازاتها ، بل زاد منها وبالغ فيها . ودمر المعسكر الحصين ، وتبعثرت الفئة القليلة من هؤلاء البريتوريين ، تلك التى أفلتت من بطش السيوف ، نقول تبعثرت بين مختلف قوات الجيش أو نفيت الى أقصى حدود الامبراطورية ، حيث يمكن أن ينتفع بهم دون أن يشكلوا خطرا . واذ قضى قسطنطين على هذه الفرق التى كانت ترابط عادة فى روما ، فانه وجه بذلك ضربة قاضية الى مكانة

السناتو والشعب ، كما باتت العاصمة العـزلاء من السلاح معرضـة لاساءات مليكها النائى أو اهماله ، وليس لها ما يعصمها من هذا أو تلك .
وقد نلاحظ أن الرومان فى محاولتهم الأخيرة للحفاظ على حريتهم المنهارة المحتضرة وقد توجسوا خيفة من الجـزية ، دفعـوا مكسنتيوس الى العرش ، ولكنه تقاضى هذه الجزية على اعتبار أنها تقدمة خالصـة .
وأهابوا بقسطنطين لمساعدتهم ، فقهر الطاغية ، وحول الهدية الخالصة الى ضريبة دائمة . وقسم شيوخ السناتو الى طبقات تبعا لما أعلنوه عن بيان ممتلكاتهم ، فدفع أكثرهم يساراً وغنى ثمانية أرطال من الذهب سنويا ، ودفعت الطبقة الثانية أربعة أرطال ، ودفعت الأخيرة رطلين ، أما أولئك الذين كان يجوز لهم طلب الاعفاء لفقرهم فقد فرض عليهم سبع قطع ذهبية . والى جانب أعضاء السناتو الفعليين ، تمتع أبناؤهم وذرياتهم ، بل وأقرباؤهم ، بالامتيازات الزائفة التى لا قيمـة لها ، واحتملوا العبء الثقيل لهذا النظام ، وليس مما يدعو الى الدهشة بعد ذلك ، أن يوجه قسطنطين عنايته الى الاستزادة من عدد هؤلاء الذين ينطبق عليهم هذا الوصف المجدى . ولم يقض الامبراطور الظافر ، بعد موت مكسنتيوس أكثر من شهرين أو ثلاثة فى روما التى زارها مرتين بعد ذلك طوال ما تبقى من سنى حكمه ، ليشارك فى الاحتفالات العظيمة بالعيد السنوى العاشر والعيد العشرين لتوليه الحـكم . فقد كـان قسطنطين فى حركة دائبة لتدريب جنوده أو لتفقد الأحوال فى الولايات ، وكانت اقامته متنقلة بين تريف Treves وميلان وأكويليا وسرميوم ونسوس Naissus وسالونيكا ـــ الى أن أسس « روما جديدة » على تخوم أوربا وآسيا .

عقد قسطنطين فى البـداية تحـالفا مـع ليسـينوس Licinius ثم اشتبك معه بعد ذلك فى حرب . وتم الصلح بينهما بعـد معـركتى سيباليس Cibalis ومارديا Mardia .

اصلاحات قسطنطين التشريعية

حقق الصلح بين قسطنطين وليسينيوس ، على أية حال ، العالم الرومانى هدوءا دام أكثر من ثمانى سنوات ، رغم ما كان يشوبه من نفور وحقد ، وذكريات الاساءة الأخيرة ، وتوقع الخطر فى المستقبل . واذ تبدأ حوالى هذه الفترة سلسلة منتظمة من القوانين الامبراطورية ، فليس

من العسير أن نسجل تلك التنظيمات المدنية التى شغلت فراغ قسطنطين. ولكن أهم النظم التى ابتدعها مرتبطة أشد الارتباط بأسلوبه الجديد فى السياسة والدين ، ذلك الأسلوب الذى لم يستقر ويتأصل بالفعل ، الا فى سنى الهدوء والسلام الأخيرة من حكمه . ويرجع كثير من قوانينه المتعلقة بحقوق الأفراد وملكيتهم وبممارسة المحاماة الى التشريع الخاص أكثر منها الى التشريع العام فى الامبراطورية . كما أنه أصدر عدة قوانين ذات طابع محلى مؤقت ، بدرجة لا تستحق معهـا عناية التاريخ العام . على أنه يمكن اختيار قانونين اثنين من هذه المجموعة : واحد لأهميته والثانى لغرابته ، الأول لخيره المشهود ، والآخر لقسوته المتناهية .

١ ـ انتشرت الى حد رهيب يوما عن يوم فى الولايات وخاصة فى ايطاليا ، العادة الفظيعة القديمة ، وهى تعرض الأطفال الحديثى الولادة للموت أو قتلهم ، وكان هذا نتيجة الضيق الناتج اساسـا من عبء الضرائب وفداحتها التى لا تحتمل ، ومن مضايقات واضطهادات مأمورى الدخل لمدينيهم المعسرين ، ومن ثم رأى أقل الناس ثراء وعملا ـ بدلا من الاحساس بالمتعة فى كبر الأسرة ـ أنه من الحنان الأبوى والعطف أن يخلصوا اطفالهم مما يحدق بهم من البؤس والفاقة فى حياة يعجز الآباء أنفسهم من احتمالها . وتحركت روح الانسانية فى نفس قسطنطين نتيجة لبعض أمثلة صارخة حديثة من اليأس ، ودفعته الى اصدار أمر عال الى كل مدن ايطاليا ثم أفريقية فيما بعد ، بتقديم معونة عاجلة كافية الى الآباء الذين يحضرون أمام الحكام أولئك الأبناء الذين لا يستطيعون تعليمهم نتيجة لفقرهم . وكان الوعد سخيا والشرط غامضا ، الى درجة لم يحقق معها أى نفع عام أو دائم . فان القانون رغم ما هو جدير به من ثناء وتقدير ، لم يفلح فى تخفيف ويلات الناس أكثر الخطباء فى اظهارها . ولكنه سيظل حجة دامغة تتحدى وتتصدى لأولئك الخطباء المرتشين الذين بلغوا من الرضا بموقفهم حدا لا يستطيعون معه تبين الرذيلة أو التعاسة فى ظل حكومة مليك جواد .

٢ ـ أما قوانين قسطنطين ضد هتك العرض ، فلم تتسم الا بأيسر القليل من التغاضى عن أحب نقاط الضعف فى الطبيعة الانسانية ، حيث ان وصف هذه الجميمة لم يقتصر على الاغتصاب بالقوة ، بل تعداه الى الاغواء الناعم الذى يغرى امرأة غير متزوجة دون الخامسة والعشرين من العمر ، بترك بيت والديها . « هكذا عوقب الغاصب الذى هتك العرض بالموت ، فاذا لم يتكافأ الموت البسيط مع فداحة الجرم ، أحرق

حيا أو قطعته الوحوش الكاسرة اربا فى المسرح . واذا اعترفت العذراء بأنها اختطفت برضاها ، فانها لن تنقذ بذلك حبيبها ، بل كانت تتعرض لمشاركته مصيره . وعهد برفع الدعوى الى أبوى المجرم أو الفتاة المنكودة ، فاذا تغلبت عليهما عواطف الطبيعة وأدت بهما الى التغاضى عن الأذى ، واللجوء الى الزواج بعد ذلك محافظة على شرف الأسرة ، فان الأبوين يعاقبان بالنفى والمصادرة . أما العبيد من الاناث أو الذكور الذين يثبت عليهم الاشتراك فى جريمة الاغتصاب أو الاغواء ، فكانت عقوبتهم الموت بهذا اللون البارع من التعذيب ، وهو صب كمية من الرصاص المصهور فى حلوقهم . ولما كانت هذه الجريمة ذات صفة عامة ، فقد أجيز توجيه الاتهام حتى للأجانب ، ولم يكن الشروع فى اقامة الدعوى محددا بفترة محددة من السنوات ، وكانت نتائج الحكم تمتد لتشمل النتاج البرىء لهذا الاتصال الشاذ » . ولكن لما كانت المعصية تثير من الرعب والفزع أقل بكثير مما تدعو الى العقوبة ، فان صرامة قانون العقوبات لابد أن تذعن لمشاعر البشر . فقد خفضت أو ألغيت أبشع الأجزاء فى هذا القانون فى العهود التالية . بل ان قسطنطين نفسه خفف من شراسة نظمه العامة ، عن طريق قرارات جزئية خاصة أصدرها فى بعض الحالات ، رأفة بأصحابها . هكذا كان المزاج الشاذ للامبراطور الذى تساهل بل تلكأ وتوانى فى تنفيذ قوانينه ، قدر ما كان متشددا بل قاسيا فى سنها . ولا يكاد يكون من الميسور أن تجد أكثر من هذا علامات حاسمة للضعف ، فى خلق الأمير أو فى نظام الحكم .

فى سنة ٣٢٣ نشبت الحرب الأهلية من جديد بين قسطنطين وليسينيوس . وانفرد قسطنطين بالسيادة على الامبراطورية بعد معركتى ادرنة وكريسوبوليس ، وموت غريمه .

ظهور المسيحية

الفصل الخامس عشر

خمسة أسباب لنمو المسيحية : الظروف المواتيـة لتقدمها

اعداد المسيحيين الأولين وأحوالهم

قد يعتبر البحث الصادق المنطقى لتقدم المسيحية واستقرارها من أهم الموضوعات فى تاريخ الامبراطورية الرومـانية . وفى الوقت الذى تعرض فيه هذا الكيان الضخم للعنف السـافر أو قوضه الانحـلال البطىء ، تسلل فى خفة ورقة الى أذهان الناس دين نقى متواضع ، ونما فى صمت وخفاء ، واستمد من التصدى له عزما جديدا . وكتب له فى النهاية أن يرفع الصليب الظافر فوق أطلال الكابيتول . ولم يكن أثر المسيحية مقصورا على عصر الامبراطورية الرومانية وفى نطاق حدودها، فما تزال تعترف بهذا الدين — بعد ثورة دامت ثلاثة عشر أو أربعة عشر قرنا ، أمم اوربا ، وهى ابرز بنى الانسان فى الفنون والعلوم والحرب ، على حد سواء . وبفضل حماسة الأوربيين وجدهم انتشر بسرعة الى أقصى شواطىء آسيا وافريقية ، وعن طريق المستعمرات تركز واستقر من كندا الى شيلى ، فى عالم لم يكن يعرفه الأقدمون .

ومهما كان هذا البحث نافعا وطريفا فانه تكتنفه صعوبتان . فان مواد التاريخ الكنسى الهزيلة الضئيلة المشكوك فيها ، لا نكاد نستطيع معها أن نبدد الغيوم الحالكة التى تتلبد فى سماء العصر الأول للكنيسة . وكثيرا ما يضطرنا قانون التجرد والنزاهة العظيم الى الكشف عن مثالب المعلمين غير الملهمين والمؤمنين بالانجيل ، وقد يبدو للمراقب المستهين أن أخطاءهم تلقى ظلا على العقيدة التى يقرونها . ولكن خـزى المسيحى التقى ، والظفر الكاذب للكافر ، لابد أن ينقضيا حالما يتذكران : من

أنزل الوحى الالهى ، وكذلك الى من نزل هذا الوحى . وقد ينصرف عالم اللاهوت الى المهمة الحبيبة السارة مهمة وصف الديانة كما نزلت من السماء ترفل فى حلل الطهر والنقاوة . ولكن هناك واجبا أشد حزنا وكآبة ملقى على عاتق المؤرخ ، فان عليه أن يميط اللثام عن الخليط المحتوم من الخطأ والفساد اللذين علقا بالديانة فى اقامتها الطويلة على الأرض بين جماعة ضعيفة منحلة من البشر .

ومن الطبيعى أن يحدونا حب الاستطلاع الى تقصى الوسائل التى أحرزت بها العقيدة المسيحية هذا النصر المؤزر على الديانات القائمة فى الأرض . وقد يرد جوابا واضحا مرضيا عن هذا التساؤل ، القول بأن هذا يرجع الى البرهان المقنع فى العقيدة نفسها ، والى التدبير المحكم المكين لمنشئها العظيم . ولما قل أن يجد الحق والمنطق ترحيبا فى هذا العالم ، ولما اقتضت حكمة العناية الالهية أن تتنازل فتتخذ من أهواء الناس ومشاعرهم ومن الظروف العامة المحيطة بالجنس البشرى، أدوات لتحقيق أغراضها ، فانه ما يزال يحق لنا أن نتساءل فى الواقع — مع التسليم اللائق — لا عن الأسباب الأولى ، بل عن الأسباب الثانوية للنمو السريع للكنيسة المسيحية . وربما يبدو أن الأسباب الخمسة الآتية قد ساندتها مساندة صادقة وعاونتها معاونة فعالة :

١ — غيرة المسيحيين التى لا تلين ، وبالأحرى ، الغيرة المتعصبة (اذا جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير) والحق أن هذه الغيرة مأخوذة عن الديانة اليهودية ، ولكنها خلت وتطهرت مما كان يشوب هذه الديانة من روح ضيقة انعزالية غير اجتماعية أبعدت الأمميين (غير اليهود) عن شريعة موسى بدلا من جذبهم اليها .

٢ — نظرية الحياة الآخرة ، وقد عضدتها كل الظروف الاضافية التى يمكن أن تضفى على هذه الحقيقة الهامة قيمة وفعالية .

٣ — قوى الاعجاز المنسوبة إلى الكنيسة فى صدر المسيحية .

٤ — أخلاق المسيحيين النقية الصارمة .

٥ — الوحدة والنظام فى الجمهورية المسيحية التى شكلت ، مع الأيام ، دولة مستقلة متزايدة فى قلب الإمبراطورية الرومانية .

١ — الغيرة التى لا تلين والتى ورثها المسيحيون عن اليهود :

لقد أتينا بالفعل على وصف الإنسجام الدينى فى العالم القديم ، والسهولة التى اعتنقت بها ، أو قل احترمت ، معظم الأمم ، حتى المتعادية

منها ، خرافات بعضها بعضا ، ولكن شعبا واحدا فقط رفض أن يختلط بهذا العالم . فان اليهود الذين انزووا لعهود كثيرة تحت حكم ملوك آشور وفارس بوصفهم أحقر العبيد ، خرجوا من الظلام في عهد خلفاء الاسكندر . ولما كثر عددهم الى درجة مذهلة في الشرق ، ثم في الغرب ، فانهم سرعان ما اثاروا دهشة سائر الأمم وفضولها . ويبدو أن عنادهم الرهيب في الحفاظ على طقوسهم الخاصة وآدابهم الانعزالية البعيدة عن الروح الاجتماعية ، ميزتهم بأنهم جنس مختار من البشر ، وأعلنوا في جرأة أو اخفوا قليلا ، كراهيتهم الشديدة لسائر بنى الانسان . ولم يفلح عنف أنتيوخوس ، ولا دهاء هيرودس ، ولا الإقتداء بالأمم المجاورة ، في اغراء اليهود بالربط بين ناموس موسى وبين الأساطير اليونانية الرشيقة . وطبقا لمبادىء التسامح العام الشامل ، كان الرومان يحمون الخرافة التي يحتقرونها . وقد تنازل أوغسطس المهذب فأصدر اوامره بتقديم القرابين من أجل رخائه وازدهاره في هيكل أورشليم . على حين أن أحقر ذرية إبراهيم ، الذي كان لزاما عليه أن يقدم مثل هذا الولاء لجوبيتر في الكابيتول كان يصبح موضع احتقار من نفسه ومن سائر اخوته ، اذا هو أقدم على شيء من هذا . ولكن اعتدال الغزاة لم يكن كافيا لإخماد الأحقاد والحزازات في نفوس رعاياهم الذين فزعوا واشمأزوا من الشعائر الوثنية ، التي دخلت بالضرورة الى ولاية رومانية . وأحبطت محاولة كاليجولا المجنونة لوضع تمثاله في هيكل أورشليم أمام التصميم الاجماعي لشعب كان يخشى الموت أقل كثيرا مما يخشى مثل هذا الرجس الوثني . وكان تعلقهم بشريعة موسى يعادل مقتهم لسائر الديانات الأجنبية . فلما انحصر تيار الغيرة والإخلاص في هذا المجرى الضيق ، اندفع في قوة السيل الجارف ، بل أحيانا في مثل عنفه وشدته .

ويتخذ هذا الاصرار الذي لا يلين والذي بدا للعالم القديم انه كريه مدعاة للسخرية ، شكلا أشد رهبة ، حين شاءت العناية الإلهية أن تكشف لنا أستار الغموض الذي أحاط بتاريخ الشعب المختار . ولكن هذا التعلق المروع بل المتزمت بشريعة موسى ، والذي برز في اليهود الذين عاشوا في ظل الهيكل الثاني (١) ، يظل ادعى الى المزيد من الدهشة

---

(١) الهيكل الثاني بناه اليهود في أورشليم عام ٥٣٦ ق.م. عقب عودتهم من المنفى . أما الهيكل الأول فكان قد بناه سليمان ودمر حوالي عام ٥٨٦ ق.م. ثم بدأ هيرود العظيم في بناء الهيكل الثالث الذي دمره الرومان عند استيلائهم على أورشليم حوالي سنة ٧٠ م . وكانت كل هذه الهياكل لعبادة يهوه — (المترجم) .

اذا قورن بعناد آبائهم الأولين فى الارتياب وعدم التصديق ، ذلك أنهم عندما نزلت الشريعة من جبل سيناء وسط الرعود ، وعندما توقف جريان البحر وتعطل سير الكواكب خدمة لبنى اسرائيل ، وعندما كان الثواب أو العقاب الدنيوى نتيجة سريعة مباشرة لتقواهم أو لكفرهم — عندما حدث ذلك كله نراهم قد عمدوا باستمرار الى التمرد على جلالة مليكهم الالهى (أى ربهم) الذى يرونه أمامهم ، والى وضع أصنام الأمم القديمة فى محراب يهوه ، والى تقليد كل طقوس غريبة من طقوس العرب فى خيامهم أو الفينيقيين فى مدنهم . فلما حبست العناية الالهية بحق رعايتها عن هذا العنصر الجحود ، اكتسب ايمانهم قدرا متناسبا من القسوة والنقاوة . وقد شهد معاصرو موسى ويسوع فى استهتار مهين أغرب المعجزات . وتحت وطأة الكوارث كلها حفظ الايمان بهذه المعجزات اليهود فى عصر متأخر من عدوى الوثنية الشاملة . ويبدو أن هذا الشعب الفريد — خلافا لكل مبادىء العقل البشرى المعروفة — قد آمنوا ايمانا أقوى وأسرع بتقاليد أسلافهم الأولين ، منه بالأدلة التى لمسوها بأيديهم أو أدركوها بحواسهم (١) .

وكانت الديانة اليهودية مهيأة للدفاع بشكل يدعو الى الاعجاب . ولكنها لم تكن معدة قط للهجوم والتوسع ، ويبدو من المحتمل أن عدد المهتدين لم يزد كثيرا على عدد المارقين فى يوم من الأيام . لقد نزلت الوعود الالهية على شعب واحد كما أمر الشعب نفسه بشعيرة الختان المميزة . فلما تكاثر نسل ابراهيم حتى أصبحوا كرمل البحر ، أعلن الاله الذى تلقوا من فمه مجموعة الشرائع والطقوس — أعلن أنه الاله الخاص باسرائيل وكأنه الاله القومى لهم ، وأفرز شعبه المفضل ، دون سائر البشر ، بأشد ما تكون العناية والغيرة . وقد اقترن غزو أرض كنعان بكثير من الظروف العجيبة والدامية كذلك ، الى درجة أن اليهود المنتصرين باتوا وقد احتدم العداء بينهم وبين كل جيرانهم بشكل لا يهدأ . وامروا أن يستأصلوا بعضا من أشد القبائل وثنية ، وقلما عوق ضعف البشر تنفيذ الأوامر الالهية . وحرم عليهم الزواج من الأمم الأخرى أو التحالف معها . أما تحريم قبولهم فى الجماعة اليهودية ، وقد كان تحريما دائما فى بعض الأحيان ، فقد امتد فى الغالب الى الجيلين الثالث ، والسابع ، بل حتى الى الجيل العاشر . فان الالتزام بتبشير الأمميين

(١) وقال الرب لموسى : « حتى متى يهيننى هذا الشعب ، وحتى متى لا يصدقون بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم » . (سفر العدد — الأصحاح الرابع عشر — الآية ١١) .

بعقيدة موسى ، لم يعتبره اليهود يوما مبدأ من مبادىء ناموسهم ، كما انهم لم يميلوا الى فرضه على أنفسهم باعتباره واجبا يتطوعون لأدائه .

وفيما يتعلق بقبول المواطنين الجدد ، فقد تأثر هذا الشعب الانعزالى غير الاجتماعى وتصرف فى هذا الصدد وفق التقليد اليونانى الذى يشوبه الغرور والأنانية ، لا وفق سياسة روما التى تتسم بالكرم والسماحة . فقد خدع أحفاد ابراهيم أنفسهم بأنهم وحدهم ورثة العهد بين الله والانسان كما ورد فى التوراة . ولشد ما توجسوا خيفة من الانتقاص من قيمة ميراثهم لو سهل على الغرباء الاشتراك معهم فيه . ان المزيد من التعرف على الجنس البشرى قد وسع مداركهم ولكنه لم يهذب تحيزهم أو يحد من تعصبهم . وما اكتسب اله اسرائيل يوما مؤمنين جددا الا كان مدينا للمزاج المتقلب عند المشركين أكثر منه للحماسة الجادة عند المبشرين بدينه . ويبدو أن عقيدة موسى شرعت لبلد واحد ، وكذلك لأمة واحدة . ولو أطاع اليهود طاعة عمياء الأمر الذي يحتم مثول كل ذكر ثلاث مرات سنويا أمام يهوه ، لكان من المستحيل عليهم أن ينتشروا خارج الحدود الضيقة لأرض الميعاد . والواقع أن هذه العقبة ذللت بهدم هيكل أورشليم ، ولكن تورط مع هذا التدمير أهم جزء فى الديانة اليهودية . ووقع الوثنيون الذين طال بهم أمد الدهشة والاستغراب للنبأ الغريب ، نبأ هيكل خال ـ وقعوا فى حيرة من أمرهم ، فأى هدف وأية أدوات يمكن أن تكون لعبادة جردت من المعابد أو المذابح أو الكهنة او القرابين . ومع ذلك فان اليهود ، حتى فى حالة الوهن والتدهور جعلوا ـ وظلوا يؤكدون امتيازاتهم المتغطرسة الخاصة بهم ـ من مجتمع الغرباء ، بدلا من التودد اليهم ، واستمر اصرارهم ، فى صلابة لا تلين ، على تلك الأجزاء التى كان فى مكنتهم أن يمارسوها من شريعة موسى . فان تمييزهم الغريب بين الأيام بعضها بعضا ، وتميز بعض اللحوم عن البعض ، الى جانب مجموعة كبيرة من الطقوس التافهة ، ولو أنها ثقيلة ، كل أولئك كان يثير اشمئزاز ومقت الأمم الأخرى التى كانوا يختلفون معها اختلافا نبأ هيكل خال ـ وقعوا فى حيرة من أمرهم ، فأى هدف وأية أدوات لكفيلة وحدها برد المهتدى ذى الرغبة الأكيدة فى الايمان ، عن باب معبد اليهود .

وفى هذه الظروف تقدمت المسيحية الى العالم ، مسلحة بقوة الشريعة الموسوية ، متحررة من ثقل قيودها وأغلالها . وأشرب النظام الجديد فى عناية فائقة ، مثل النظام القديم تماما ، حماسا مطلقا لصدق العقيدة ووحدانية الله . ورتب كل ما كشف الآن للانسان من طبيعة « الكائن

الأعلى » وتدابيره ، بحيث يزيد من إجلالهم وتقديرهم لهذه النظرية الخفية الغامضة . وسلم بالسلطة الإلهية لموسى وللرسل ، بل اعترف بها على أنها أقوى أركان المسيحية . وظهرت منذ بدء الخليقة سلسلة لا تنقطع من النبوءات التى بشرت وهيأت لقدوم السيد المسيح الذى طال ترقب قدومه ، وطبقا لتوقعات اليهود ومخاوفهم الشديدة ، كان كثيرا ما يمثل فى شخصية ملك وفاتح ، أكثر منه فى شخصية رسول وشهيد وابن الله. وختمت بقربانه المكفر على الفور كل قرابين المعبد الناقصة وألغيت ، وجاء بعد الطقوس التى تألفت من بعض الأنماط والأرقام ، عبادة نقية روحية تصلح لكل مناخ ، كما تتفق بالمثل مع ظروف الجنس البشرى . وبدلا من التدشين بالدم ، حل شىء أقل ضررا وهو التدشين بالماء . وبعد أن كان الوعد برضا الله محصورا فى ذرية ابراهيم — تحيزا وتحزبا — أصبح اليوم قدرا مشتركا للأحرار والعبيد ، واليونان والمتبربرين واليهود والأمميين . وكل ميزة يمكن أن ترقى بالمهتدى من الأرض الى السماء أو تمجد اخلاصه أو توفر له السعادة ، أو حتى ترضى الغرور الخفى الذى يتسرب الى نفس الانسان فى صورة التقوى والايمان — ظلت محتفظا بها لأعضاء الكنيسة المسيحية ، ولكن فى نفس الوقت ، كان الناس جميعا مرخصا لهم ، بل مدعوين رجاء وتوسلا ، لتقبل هذه الميزة التى لم تمنح مجاملة وتفضلا ، بل فرضت فرضا والتزاما . وأصبح من أقدس الواجبات على كل من تحول الى المسيحية أن ينشر بين أصدقائه وأقربائه البركة التى تلقاها والتى لا يمكن تقديرها، وأن ينذرهم بأشد العقاب للرفض الذى يعتبر مخالفة آثمة لإرادة الله المحسن العلى القدير .

وكان تحرير الكنيسة من قيود هيكل بنى اسرائيل ، على أية حال ، عملا يتطلب وقتا ، كما أنه شاق نوعا . واعترف من تحول من اليهود بيسوع على أنه المسيح الذى أنبأ به الوحى القديم ، وأجلوه واحترموه باعتباره رسولا يعلم الناس الفضيلة والدين ، ولكنهم تشبثوا تشبثا عنيدا بشعائر وطقوس أسلافهم ، حتى لقد أرادوا فرضها على الأمميين (غير اليهود) الذين كانوا يزيدون باستمرار فى عدد الداخلين فى المسيحية . ويبدو أن هؤلاء المسيحيين المتهودين ناقشوا ، على درجة من الصواب ، المصدر الالهى للشريعة الموسوية ، والكمال الثابت لمنشئها العظيم ، وأكدوا أنه اذا كان « الكائن الاسمى » وهو هو نفسه عبر الخلود ، قد شرع الغاء الطقوس المقدسة التى كانت تميز شعبه المختار، ولما كان الغاؤها أقل وضوحا وجلالا ومهابة من سنها فى البداية ، فانه بدلا من هذه التصريحات المتكررة التى تفترض أو تؤكد خلود العقيدة

الموسوية ، كان من الممكن تمثيلها على أنها مشروع مؤقت قصد به أن يستمر حتى قدوم المسيح الذى سيعلم الناس أمور العقيدة والعبادة فى أسلوب أقرب الى الكمال ، وأن المسيح نفسه وتلاميذه الذين حاوروه فى الأرض ، بدلاً من اجازتهم ــ عن طريق القدوة ــ لأصغر الشعائر فى الشريعة الموسوية ، كان يمكن أن ينشروا على العالم الغاء تلك الطقوس العقيمة القديمة المهجورة ، دون أن تتكلف المسيحية عناء البقاء سنين طوالا حائرة مرتبكة بين مختلف طوائف الكنيس اليهودى . وقد يبدو أن فى مثل هذه المناقشات دفاعاً عن قضية شريعة موسى المنتهية ، ولكن أحبارنا المتفقهين كثيرا ما استطاعوا بجدهم أن يفسروا لغة «العهد القديم» المبهمة ، وسلوك « المعلمين الرسوليين » الغامض . وكان الأفضل والأسلم أن يكشف النقاب تدريجيا عن الأسلوب الموجود فى الانجيل وأن يصدر ــ فى غاية الحذر والرفق ــ حكم يدين هؤلاء اليهود المؤمنين ، وهو أمر تمافه نفوسهم وتبغضه تعصباتهم .

ويقدم تاريخ كنيسة أورشليم دليلا ناصعاً على ضرورة مثل هذه الاحتياطات ، وعلى أثر الديانة اليهودية العميق فى عقول أتباعها . وكان الأساقفة الخمسة عشر الأولون فى أورشليم من اليهود المختتين . وجمع شعب الكنيسة الذى ترأسوه بين شريعة موسى وتعاليم المسيح . وكان من الطبيعى أن تتقبل التقاليد البدائية للكنيسة التى أسست بعد موت المسيح بأربعين يوماً فقط ، والتى حكمها فى الكثير الغالب حواريوه ورسله لعدة سنين ــ تتقبل على أنها مقياس الصحة أى المذهب الصحيح ــ الأرثوذكسى . أما الكنائس النائية فكثيرا ما لجأت الى الكنيسة الأم (كنيسة أورشليم) ، وفرجت كروبها عن طريق الصدقات السخية ، فلما نشأت المجتمعات العديدة الغنية فى المدن الكبرى فى الامبراطورية : فى أنطاكية ، الاسكندرية ، افيسوس ، كورنثة ، روما ، تقلص الاحترام الذى كانت أورشليم توحى به الى المراكز المسيحية ، وسرعان ما وجد اليهود المرتدون الى المسيحية ، أو كما سموا فيما بعد « النصارى » (نسبة الى مدينة الناصرة) والذين وضعوا أساس الكنيسة ــ نقول وجدوا أنفسهم وقد طغت عليهم الجموع المتزايدة الذين انضموا تحت راية المسيح من مختلف مذاهب الشرك . ورفض الأميون ــ بموافقة رسولهم الخاص ــ ثقل الطقوس الموسوية الذى لا يحتمل ، وأبوا آخر الأمر ، لاخوانهم الذين هم أكثر غيرة على الحق نفس التسامح الذى تضرعوا هم فى بداية الأمر من أجله . وقد احس النصارى احساسا عميقا مريرا بدمار المعبد والمدينة والعقيدة اليهودية ، فقد احتفظوا فى سلوكهم ــ لا فى عقيدتهم ــ بأواصر وثيقة بينهم وبين بنى وطنهم غير الأتقياء

الذين نسب الوثنيون كوارثهم الى احتقار الاله الأعظم ، ونسبها المسيحيون ، بشكل أحق وأصدق ، الى غضبه . وارتد النصارى من اطلال أورشليم الى مدينة بلا Pella الصغيرة وراء نهر الأردن ، حيث انزوت تلك الكنيسة القديمة فى عزلة وخفاء ، ولكنهم ظلوا يجدون العزاء فى التردد على المدينة المقدسة لزيارتها ، وبالأمل فى عودتهم يوما الى هذه الأماكن التى علمتهم الطبيعة والعقيدة معا أن يحبوها ويجلوها كذلك . ولكن تعصب اليهود الذميم اليائس ، فى عهد هادريان زاد الطين بلة فى النهاية ، حتى بلغت الكارثة ذروتها ، فاستخدم الرومان الذين أهاجتهم ثوراتهم المتكررة ، حق النصر فى شراسة بالغة غير عادية ، وأسس الامبراطور ، تحت اسم ايليا كابيتولينا مدينة جديدة على جبل صهيون ، وأعطاها كل امتيازات المستعمرة ، وتوعد بأشد العقوبات أى فرد من الشعب اليهودى يجرؤ على الاقتراب من تخومها ، ووضع حامية يقظة من الجنود الرومان لتقوم بتنفيذ أوامره . ولم يكن أمام النصارى للافلات من هذا الحكم الا سبيل واحدة ، وعضد الدين القويم هذه المرة ، ما للمزايا المؤقتة من أثر ، فانتخبوا ماركوس أسقفا لهم ، وهو من احبار عنصر الأميين الغرباء ، واغلب الظن أنه كان من مواطنى ايطاليا أو احدى الولايات اللاتينية . وبفضل اقناعه ، أشاد معظم شعب الكنيسة بشريعة موسى التى ثابروا على اتباعها أكثر من قرن من الزمان . وبهذه التضحية بعاداتهم وآرائهم اشتروا السماح لهم بالدخول الى مستعمرة هادريان كما دعموا وحدتهم مع الكنيسة الكاثوليكية ، بشكل أقوى وأثبت .

ولما استعاد جبل صهيون اسم كنيسة أورشليم وأمجادها ، نسبت جرائم الانشقاق والضلال الى البقية الحقيرة من النصارى الذين رفضوا أن يرافقوا أسقفهم اللاتينى . وظل هؤلاء يحتفظون بمدينة بلا Pella موطنهم السابق ، وانتشروا فى القرى المجاورة لدمشق ، وأنشأوا لهم كنيسة هزيلة فى مدينة حلب بسوريا . واعتبر اسم « النصارى » أسمى وأشرف من أن يطلق على هذه الشرذمة من اليهود المسيحيين ، وسرعان ما أضفى عليهم ما افترض فيهم من ضيق الأفق وضآلة الادراك ، بالاضافة الى حالتهم — الاسم الحقير المزرى « الابيونيون Ebionites » . وبعد عودة كنيسة أورشليم ببضع سنين ، ثار الشك والجدل حول المسألة الآتية : هل يمكن أن يطمع فى الخلاص رجل آمن عن يقين بيسوع المسيح فى الوقت الذى ظل فيه يتبع شريعة موسى؟ ونزعت بالقديس جوستين الشهيد Justin Martyr روحه الانسانية الطيبة ، فرد على هذا التساؤل بالايجاب ، والحق أن جوابه

كان يتسم بأكبر التحفظ والحياء ، ولكنه رغم ذلك تجاسر فوقف الى جانب مثل هذا المسيحى غير المكتمل ، شريطة أن يكتفى بممارسة الشعائر الموسوية دون أن يعمد الى توكيد نفعها وضرورتها . فلما الحوا على جوستين فى الافصاح عن رأى الكنيسة ، قال ان بين المسيحيين الارثوذكس كثيرين جدا ، لا يستبعدون اخوتهم اليهود المتنصرين من أمل الخلاص فحسب ، بل كذلك ينكرون الاتصال بهم فى المجالات العامة ، مثل الصداقة والضيافة والحياة الاجتماعية . وتغلب الرأى الذى هو أشد صرامة وقسوة ، كما كان متوقعا بطبيعة الحال ، على الرأى الذى هو أكثر اعتدالا . ومن هنا وجد حاجز أبدي يفصل بين أتباع موسى واتباع المسيح . اما الأبيونيون التعساء الذين لفظتهم ديانة بأنهم مارقون ، ولفظتهم الأخرى لأنهم هراطقة ، فقد وجدوا أنفسهم مضطرين الى تحديد موقفهم بشكل أدق ، وربما وجدت حتى القرن الرابع بقية لهذه الطائفة البالية ، الا انها ذابت بطريقة غير ملحوظة فى الكنيسة المسيحية أو فى الهيكل اليهودى .

وبينما اتخذت الكنيسة الأرثوذكسية مكانا وسطا سويا بين الافراط فى الاحترام والاجلال وبين الازدراء غير اللائق ، لشريعة موسى ، نجد أن مختلف الهراطقة قد انحرفوا الى النقيض بنفس القدر من التطرف ، حتى بلغوا غاية الخطأ وغاية الاسراف . فقد انتهى الأبيونيون ، وفقا لما اعترفوا به من صدق الديانة اليهودية ، الى أنه لا يمكن الغاؤها أو ازالتها قط . على حين سارع اللا أدريون (الغنوصيون Gnostics طائفة تقول بأن الخلاص بالمعرفة دون الايمان) فاستخلصوا من عيوبها المزعومة أنها لم تكن قط من انشاء حكمة الاله . وهناك — على سلطان موسى والرسل — بعض اعتراضات سرعان ما تقفز الى أذهان المتشككين الملحدين ، ولو أنها تنبع من جهلنا بالآباد السحيقة وعجزنا عن تكوين فكرة كافية عن التدبير الالهى . ورحب علم الغنوصيين العقيم فى لهفة بهذه الاعتراضات ، ودافع عنها فى جراة ووقاحة . ولما كان معظم هؤلاء الهراطقة يرفضون ملذات الحواس او الملذات المادية فقد هاجموا بشدة تعدد الزواج عند البطاركة (الأشراف) وفروسية داود وحريم سليمان . وبعد فتح أرض كنعان وابادة السكان الأصليين غير المريبين الأبرياء الذين لم يتوقعوا شرا ، باتوا فى حيرة من أمرهم ، كيف يلتئمون مع الأفكار العامة المشتركة للانسانية والعدالة . ولكنهم لما تذكروا السجل الدامى الزاخر بالقتل والاعدام والمذابح ، الذى يكاد يلطخ كل صفحات تاريخ اليهود ، ادركوا أن المتبربرين فى فلسطين أظهروا من الرحمة والرفق بأعدائهم الوثنيين مثل ما أظهروا لأصدقائهم أ بنى

جلدتهم . وعندما تجاوزوا المذاهب الفرعية الطائفية للشريعة الى الشريعة نفسها وجدوا أنه من المستحيل على ديانة لا تتألف الا من القرابين الدموية والطقوس التافهة ، وطبيعة الثواب والعقاب ، على السواء فيها ، هي طبيعة جسدية دنيوية مؤقتة — من المستحيل على هذه الديانة أن توحي بحب الفضيلة أو تكبح جماح الانفعالات والعواطف . وعالج الغنوصيون موضوع خلق الانسان وموته في سخرية يشوبها الدنس والالحاد ، فانهم لم يصغوا في أناة وصبر الى أن الاله قد أخلد الى الراحة بعد ستة أيام من جهد شاق ، الى ضلع آدم ، والى جنة عدن والى شجرة الحياة والمعرفة ، والى الأفعى الناطقة ، والى الفاكهة المحرمة ، والى الحكم الصادر ضد الجنس البشري نتيجة لخطيئة تافهة اقترفها أجداده الأولون . وصور الغنوصيون — في الحاد بالغ — اله اسرائيل ، بأنه معرض للأهواء والخطأ ، متقلب في حبه ، عنيد لا يطاق في غضبه ، غيور بشكل دنيء على عبادته الخرافية ، وقد قصر عنايته المتحيزة على شعب واحد وعلى هذه الحياة المؤقتة الزائلة . ولم يستطيعوا أن يتبينوا في هذه الشخصية أية معالم لاله الكون الحكيم القدير على كل شيء . لقد ذهبوا — اي الغنوصيون — الى القول بأن عقيدة اليهود أقل اجراما — نوعا ما — من وثنية الأمميين ، ولكن عقيدتهم الأساسية قامت على أن المسيح الذى يعبدونه هو أول وألمع انبعاثات من الاله ظهر على الأرض ليخلص بنى آدم من أخطائهم المختلفة وليبتدع طريقا آخر للحق والكمال . واقر الآباء ، في تواضع فريد — سفسطة الغنوصيين ، واذ اقروا بأن المعنى الحرفي كريه تنفر منه كل مبادىء الايمان والمنطق ، فانهم حسبوا انفسهم في مأمن لا يأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم اذا احتموا في الثوب الفضفاض ، ثوب الاستعارة والمجاز ، الذى أشاعوه فوق كل الأجزاء الضعيفة في ناموس موسى .

وقيل في براعة أكثر منه بحق ، ان الطهر العذري في الكنيسة لم تشبه أية شائبة من الانشقاق أو الزيغ قبل عصر تراجان أو هادريان ، بعد موت المسيح بنحو مائة عام . ولكنا نلاحظ ، في دقة أكثر ، أن تلاميذ المسيح خلال تلك الفترة انصرفوا الى العقيدة والعبادة في حرية أكثر مما أتيح في العصور التالية . ولما ضيق أخوية الكنيسة بطريقة غير ملحوظة ، ومارست الطائفة الغالبة سلطاتها الروحية في قسوة متزايدة ، فان كثيرا من أجل أشياعها الذين دعوا لنبذها ، استثيروا للادلاء بآرائهم الخاصة ، وتتبع نتائج مبادئهم الخاطئة ، وبعبارة صريحة ليعلنوا تمردهم على وحدة الكنيسة . ولقد تميز الغنوصيون بأنهم أكثر

المسيحيين أدبا وعلما ومالا . وأما هذه التسمية العامة — التى تعبر عن اتساع معرفتهم وسموها — فقد انتحلها لهم غرورهم ، أو خلعها عليهم حقد أعدائهم تهكما وسخرية . وكاد الغنوصيون ، دون استثناء يكونون من جنس الأمميين . ويبدو أن المؤسسين الأصليين لهذه الطائفة كانوا من أهل سوريا أو مصر ، حيث دفء المناخ الذى يهيىء للعقل والجسم معا جو التقى والورع فى دعة وتأمل . وخلط الغنوصيون بالايمان بالمسيح كثيرا من العقائد أو المذاهب الرائعة الغامضة فى وقت معا ، تلك التى اشتقوها من الفلسفة الشرقية ، بل حتى من ديانة زرادشت التى تتعلق بخلود المادة ووجود عنصرين والتسلل الغامض للعالم غير المرئى . وعندما انزلقوا الى هذه الهوة السحيقة أسلموا قيادهم لخيال مهوش ، وقد كانت مسالك الخطأ متشعبة غير محدودة ، فقد انقسم الغنوصيون ، دون أن يحصوا ، الى أكثر من خمسين شيعة خاصة ، يبدو أن من أشهرهم الباز يليديين Basiliadians والفالنتينيين Valentinians والماركيونيين Marcionites ثم المانيكانز Manichaeons فى عصر متأخر . وتفاخرت كل شيعة منها بأساقفتها وأشياعها وعلمائها وشهدائها . وأخرج الهراطقة — بدلا من الأناجيل الأربعة التى قررتها الكنيسة ، مجموعة كبيرة من التواريخ التى تلتئم فيها مناقشات المسيح وحوارييه وأعمالهم مع أفكار كل شيعة بعينها . وكان نجاح الغنوصيين سريعا واسع النطاق ، فقد ملأوا آسيا ومصر ، وثبتوا مكانهم فى روما ، وتوغلوا أحيانا فى ولايات الغرب . والأرجح أنهم نشأوا فى القرن الثانى ، وترعرعوا فى القرن الثالث ، ثم خمدوا فى القرن الرابع أو الخامس بقيام جدل ومناقشات أكثر عصرية ، وبفضل السيادة العليا للسلطة الحاكمة . وعلى الرغم من أنهم عكروا السلم دائما ، وأنهم كثيرا ما أساءوا الى اسم الدين ، فانهم أسهموا فى تقدم المسيحية أكثر مما عوقوها . ووجد الأمميون الذين تحولوا الى المسيحية ، والذين وجهت كل اعتراضاتهم وتحزباتهم ضد شريعة موسى ، وجدوا منفذا الى كثير من المجتمعات المسيحية ، التى لم تتطلب من عقولهم الأمية الجاهلة أى ايمان بوحى سابق . فقوى وزاد ايمانهم بشكل غير ملحوظ ، وأفادت الكنيسة فى النهاية من دخول ألد أعدائها اليها .

ومهما يكن من أمر الخلاف فى الرأى بين الأرثوذكس والأبيونيين والغنوصيين ، فيما يتعلق بألوهية شريعة موسى أو سندها ، فقد جمعتهم جميعا على قدم المساواة ، نفس الغيرة المطلقة ونفس الكراهية لعبادة الأصنام ، مما ميز اليهود عن سائر الأمم فى العالم القديم ، ان الفيلسوف الذى اعتبر الشرك وتعدد الآلهة مزيجا من غش الانسان وخطئه ،

ليستطيع أن يخفى ابتسامة السخرية تحت ستار التقوى ، دون أن يخشى أن تعرضه السخرية أو الامتثال لغضب أى قوى خفية — أو كما تصورها هو — قوى وهمية . ولكن المسيحيين الأولين كانوا ينظرون الى الديانات الوثنية القائمة نظرة أشد مقتا ورهبة . وكان الاعتقاد السائد عند الكنيسة والهراطقة معا أن الشياطين هم منشئو الوثنية وحماتها وأصنامها . فان هذه الأرواح المتمردة التى حرمت من منزلة الملائكة وألقى بها فى نار جهنم ، كان لا يزال مقدرا لها أن تحوم حول الأرض لتعذيب أجسام البشر الآثمين وتضلل عقولهم ، وسرعان ما اكتشف الشياطين واستغلوا فى الانسان استعداده الطبيعى للعبادة والنسك ، فحولوا الانسان فى دهاء واحتيال عن عبادة ربه ، واغتصبوا هم مكان الاله الأعظم وأمجاده . وبنجاحهم فى محاولاتهم الخبيثة ، أرضوا فى الحال غرورهم وأشبعوا شهوتهم فى الانتقام ، وحصلوا على الراحة التى كانوا فى شك منها ، تلك هى أملهم فى انزلاق الجنس البشرى معهم لمشاركتهم اثمهم وبؤسهم . وقيل ، أو على الأقل تصور، أنهم تقاسموا فيما بينهم أهم شخصيات الآلهة التى عرفها المشركون ، فانتحل فرد من الجن اسم جوبيتر وصفاته ، وآخر اسكولابيوس وثالث فينوس ، وربما انتحل رابع اسم أبولو .. وأنهم بفضل مرانهم الطويل وبفضل طبيعتهم الهوائية استطاعوا فى قدر كاف من المهارة والوقار أن يمثلوا الأدوار التى عهد اليهم بها . وقبعوا فى المعابد ، ونظموا الاحتفالات والقرابين ، وابتدعوا الخرافات ، ونطقوا بالوحى، وكثيرا ما سمح لهم بالاتيان بالمعجزات ، أما المسيحيون الذين كانوا يستطيعون على الفور — بفضل توسط الأرواح الشريرة — أن يفسروا أية ظاهرة خارقة للطبيعة ، فقد كانوا يميلون ، بل يرغبون ، فى التسليم بأشد أوهام وخيالات الأساطير الوثنية اسرافا ، ولكن ايمان المسيحى كان مشوبا بالرعب . واعتبر أقل بادرة من الاحترام للعبادة الوطنية ولاء مباشرا مقدما للشيطان ، وتمردا على جلال الله .

وتبعا لهذا الرأى ، كان أول ، ولكن أشق ، واجب على المسيحى هو أن يحافظ على طهارة نفسه وينأى بها عن أرجاس الوثنية . ولم تكن ديانة الأمم مجرد عقيدة نظرية يعترف بها فى المدارس أو يوعظ بها فى المعابد . ولقد تداخلت وامتزجت آلهة الشرك وطقوسه العديدة امتزاجا دقيقا بكل ظروف العمل واللهو ، ظروف الحياة العامة والخاصة، وبدا أنه يستحيل على الانسان أن يتحاشى ملاحظة وجودهم فى كل شىء ، الا اذا تخلى فى نفس الوقت عن مخالطة الجنس البشرى ، وعن جميع وظائف المجتمع ومسراته . وكانت أمور الحرب والسلام تبدأ

أو تختم بتقديم قرابين رهيبة ، كان لزاما على الحاكم والسناتو والجندى أن يرأسها أو يسهم فيها (١) . وكانت المشاهد العامة جزءا أساسيا فى عبادة الوثنيين المرحة وكان المفروض أن الآلهة تتقبل الألعاب التى يشترك فيها الأمير والشعب تكريما لأعيادها الخاصة ، على أنها — أى الألعاب — أعظم تقدمة تفيض بالشكر والعرفان (٢) . ووجد المسيحى الذى تجنب — ورعا وفزعا — دنس السيرك أو المسرح ، وجد نفسه يقع فى ورطات خبيثة فى كل احتفال بهيج كلما عمد أصدقاؤه — فى صحة بعضهم بعضا — الى صب الخمور قربانا وضراعة الى الآلهة . وعندما كانت العروس تزف فى موكب الزوجية ، وسط التظاهر المتقن بالتمنع والخفر ، الى عتبة دارها الجديدة ، او كان موكب الجنازة الحزين يسير الهوينى الى المحرقة (٣) ، فان المسيحى فى هذه المناسبات الهامة كان يفضل مضطرا التخلى عن أعز الناس لديه ، على أن يرتكب الاثم الكامن فى هذه الاحتفالات البعيدة عن الورع والتقوى . وتلوث بدنس الوثنية كل فن أو مهنة اتصلت ولو اتصالا يسيرا — بصناعة الأصنام أو تزيينها . وهذا حكم قاس ، لأنه جلب البؤس والشقاء الدائمين على أكبر جزء من الجماعة المشتغلة بالمهن الفكرية او الآلية . وانك اذا القيت نظرة على المخلفات القديمة ، لوجدت فضلا عن تماثيل الآلهة والأدوات المقدسة لعبادتهم — الأشكال الجميلة والأقاصيص اللطيفة التى قدمها خيال الاغريق ، قد ادخلت وكأنها أثمن الزخارف لبيوت الوثنيين وملابسهم وأثاثهم . بل ان فنون الموسيقى والرسم والبلاغة والشعر نفسها نبعت من نفس هذا المورد العكر . وفى رأى الآباء كان ابولو والموزيات Muses (٤) لسان حال الشيطان ، وهومر وفرجيل من ابرز خدامه . وقدر للأساطير الجميلة التى تسود وتحيى

---

(١) كان السناتو يعقد اجتماعاته فى معبد أو فى مكان مقدس ، وقبل أن يبدأ العمل ، كان كل عضو يقدم على المذبح شيئا من النبيذ ، والبخور .

(٢) انظر ترتوليان Tertullan فى كتابه « المشاهد "De Spectaculis" . ولا يظهر هذا المصلح العنيف من التسامح مع مأساة ليوريبيدس ، أكثر مما يظهره نحو نزال المصارعين . وكان لباس اللاعبين ، بصفة خاصة ، يضايقه ، وقد حاولوا — فى ضلال وكفر — بأحذيتهم الطويلة أن يضيفوا ذراعا الى طولهم .

(٣) لم يصف فرجيل الجنائز القديمة (فى أيام ميسينوس Misenus وبالاس Pallas) بدقة أقل مما أوضحها بها سرفيوس Servius (المعلق عليه) وكانت المحرقة نفسها مذبحا . وكانت النار تتغذى بدم الضحايا ، وكان المشيعون يرشون بماء معطر .

(٤) جمع موزية : وهى احدى ربات تسع فى أساطير اليونان اختصصن بحماية الآداب والعلوم والفنون ، (المترجم) .

نتاج عبقريتها ، أن تشيد بعظمة الشياطين . وقد زخرفت اللغة الدارجة فى اليونان وفى روما بتعبيرات مألوفة ، ولكنها فاجرة ، مما يمكن أن ينطق به المسيحى المتهور فى غير تبصر ، أو يستمع اليها فى صبر شديد كذلك (١) .

ان المغريات الخطيرة التى تربصت من كل جانب بالمؤمن غير اليقظ ، كانت تهاجمه بأشد العنف المضاعف فى أيام الأعياد الرهيبة . وكانت تنظم وتدبر على مدار السنة فى دهاء وحيلة ، بدرجة تخلع على الخرافة ثوب المسرة وغالبا ثوب الفضيلة كذلك . وخصصت بعض أقدس الأعياد فى الطقوس الرومانية للاحتفال بأول يناير فى أشد مظاهر الابتهاج العام والخاص ، ولتعداد المآثر النقية للأموات والأحياء ، ولتوكيد الحدود التى لا يجوز الاعتداء عليها للممتلكات ، أو للترحيب ، عند عودة الربيع بقوى الاخصاب والنماء ، ولتخليد ذكرى التاريخين الخالدين فى روما : تاريخ تأسيس المدينة وتاريخ قيام الجمهورية ، ولاستعادة المساواة البدائية الفطرية بين الناس فى أيامهم الأولى ، وذلك أثناء الاباحية الرحيمة التى يتسم بها عيد زحل (١٧ ديسمبر من كل عام ، يوم الانقلاب الشتوى) . ويمكن تكوين فكرة عن كراهية المسيحيين لمثل هذه الاحتفالات البعيدة عن التقوى والورع ، من الاحساس المرهف الذى اظهروه فى مناسبة أقل خطرا بكثير . فقد تعود القدماء فى أيام الأعياد العامة ، أن يزينوا أبوابهم بالمصابيح وأكاليل الغار ، وأن يتوجوا رءوسهم بأكاليل من الزهور ، وربما كان من الميسور احتمال هذا الطقس اللطيف البرىء باعتباره عملا مدنيا ، ولكن حدث من سوء الحظ أن الأبواب كانت تحت حراسة المعبودات المنزلية ، وأن الغار كان مقدسا عند عشاق دافنى Daphne (فى الأساطير اليونانية حورية هربت من ابولو) . وأن أكاليل الزهور التى كانت توضع رمزا للفرح أو للأسى خصصت فى بداية نشأتها لخدمة المعتقدات الخرافية . وهنا نجد المسيحيين المرتعدين الذين استدرجوا فى هذه الحالة للتمشى مع عرف بلدهم ومع أوامر الحاكم — نجد أنهم شقوا تحت وطأة الخوف الرهيب من تأنيب ضمائرهم ومن لوم الكنيسة ، ومن الانذار بالانتقام الالهى .

هذا هو الجهد المضنى القلق الذى كانت تتطلبه حماية طهارة الانجيل ضد الجراثيم المعدية لعبادة الأوثان . وكان أتباع الديانة القائمة يمارسون ، بحكم التلقين أو بحكم العادة ، دون وعى ، هذه الطقوس

---

(١) ترتوليان فى كتابه « الأصنام » اذا استعمل صديق وثنى — لمناسبة العطس مثلا (عبارة « يرحمك جوبيتر » اضطر المسيحى الى الاحتجاج على ألوهية جوبيتر .

الخرافية العامة أو الخاصة ، ولكنهم — كما حدث غالباً — هيأوا الفرصة للمسيحيين ليعلنوا أو يؤكدوا تصديهم الغيور لها . وبهذه الاحتجاجات المتكررة تدعم باستمرار تعلقهم بعقيدتهم . وكلما ازدادت غيرتهم ، خاضوا ، بمزيد من الحماسة والتوفيق ، الحرب المقدسة التى شنوها على امبراطورية الشياطين .

٢ — عقيدة الحياة الآخرة :

تمثل كتابات شيشرون ، بأجلى بيان ، جهل الفلاسفة القدامى وأخطاءهم وترددهم فيما يتعلق بخلود الروح . فانهم عندما كانوا يرغبون فى تحصين حوارييهم ضد الخوف من الموت كانوا يقررون ولو أن ما يقولون واضح ، ولكنه محزن ، ان هذه الضربة القاضية التى تصيبنا — أى الموت — انما تخلصنا من نوائب الحياة ، وأن الموتى لن يقاسوا منها بعد موتهم . على أنه كان هناك نفر قليل من حكماء الاغريق والرومان ، تبينوا فكرة أسمى ، ومن بعض الوجوه أصدق ، عن الطبيعة البشرية ، رغم انه يجب الاعتراف بأنه فى هذا البحث الجليل كان خيالهم يوجه منطقهم ، وأن غرورهم كان يلهب خيالهم . انهم لما نظروا فى ارتياح الى مدى قواهم العقلية ، ومارسوا مختلف قوى الذاكرة والخيال ، والحكم على الأشياء ، فى أعمق التأملات وفى اشق الأعمال ، وتملكتهم الرغبة فى الشهرة التى سبحت بهم فى آفاق المستقبل ، وراء حدود المقايا والقبور ، لم يرتضوا أن يحشروا أنفسهم فى زمرة حيوانات الحقل ، أو يفترضوا أن الكائن الذى أبدوا أعظم الأعجاب وأصدقه بجلاله ووقاره يمكن أن يوارى فى حفرة ضيقة من الأرض ، وأن يحدد وجوده بسنوات معدودات من العمر . وفى غمرة هذا التحيز السائغ أهابوا بعلم الميتافيزيقا ، أو على الأصح بلغتها ، لنجدتهم . وسرعان ما اكتشفوا ، حيث ان أيا من خواص المادة لا تنطبق على عمليات العقل — اكتشفوا أن الروح الانسانية لا بد ان تكون تبعا لذلك شيئا متميزا عن الجسم ، شيئا نقيا بسيطا روحيا ، غير قابل للتحلل أو الفناء ، حساسا لأكبر قدر من الفضيلة والسعادة بعد تخلصه من سجنه الجسدى . ومن هذه المبادىء النبيلة الخداعة خرج الفلاسفة الذين تأثروا خطى أفلاطون بنتيجة لا مبرر لها ، حيث أكدوا ، لا مجرد الأبدية الآخرة فحسب ، بل كذلك الأزلية السابقة للروح البشرية التى تقبلوا بأحسن القبول اعتبارها جزءا من الروح السرمدية الموجودة بنفسها وجودا ذاتيا ، والتى تعم الكون وتدعمه . وقد تجدى

مثل هذه النظرية التى جاوزت مجال الحواس والتجربة البشرية فى شغل فراغ عقلية فلسفية ، أو أنها ، فى سكون العزلة قد تضفى شيئا من الراحة على قلب انسان فاضل تولاه القنوط فخارت عزيمته . ولكن سرعان ما محا معترك الحياة الجادة ومشاغلها أثر البصمات الباهتة التى تركتها هذه النظرية فى المدارس . وانا لنعرف حق المعرفة الأشخاص الأفذاذ الذين نبغوا فى عصر شيشرون والقياصرة الأوائل ، ونحن على بينة من أعمالهم وشخصياتهم وبواعثهم ، مما يؤكد لنا أن سلوكهم فى هذه الحياة لم يصدر عن أى اقتناع جازم بثواب أو عقاب فى الحياة الآخرة ، ولم يخش أبرع الخطباء فى ساحة المحكمة أو السناتو فى روما أن يسيئوا الى سامعيهم بالتعريض بهذه النظرية على أنها رأى فج متطرف ينبذه فى ازدراء أى رجل متحرر فى تعليمه وفى فهمه للأمور .

فلما لم تستطع الجهود الفائقة للفلسفة أن تخطو الى أكثر من الاشارة الباهتة الى الرغبة أو الأمل ، أو على الأقل احتمال حياة مستقبلة (ما بعد الموت) فانه لم يعد هناك الا وحى الهى يمكن أن يؤكد وجود عالم غير مرئى مخصص لاستقبال أرواح الناس بعد انفصالها عن أجسادهم ويصف الأحوال فى ذاك العالم المجهول . ولكننا نلمس فى الديانات المعروفة فى اليونان وروما عدة نقائص كامنة فيها جعلتها عاجزة عن الاضطلاع بهذه المهمة العسيرة :

١ — ذلك أن الأسلوب العام فى أساطيرهم لم تعززه أية براهين قاطعة . بل ان أعقل الوثنيين قد أنكر بالفعل على هذه الأساطير سلطانها المغتصب .

٢ — أما وصف جهنم فقد تركوه لخيال الرسامين والشعراء الذين حشدوا فيها الكثير من الأطياف وغرائب الوحوش التى وزعت ثوابها وعقابها فى شىء يسير من المساواة والانصاف ، الى حد أن هذا الخليط السخيف من أشد الأوهام والأباطيل جموحا ووحشية أزرى بالحق الصراح وضيق عليه الخناق ، على حين أنه أحب شىء الى قلب الانسان .

٣ — ونذر أن اعتبر المشركون الأتقياء فى اليونان وروما نظرية « الحياة الثانية » ركنا أساسيا من أركان الايمان . فان عناية الآلهة ، بوصفها تتعلق بالجماعات العامة أكثر منها بأفراد خاصين بذواتهم ، تجلت على المسرح الظاهر للحياة الراهنة . فقد عبرت الابتهالات والتوسلات التى كانت تقدم على مذابح جوبيتر وأبولو عن تلهف

عبادها على السعادة الدنيوية ، وعن جهلهم أو عدم اكتراثهم بالحياة المستقبلة (الثانية) . أما فى الهند وآشور ومصر والغال ، فقد أشربت القلوب الحقيقة الهامة المتعلقة بخلود الروح بدرجة أكبر من المثابرة والنجاح ، ولما كنا لا نستطيع أن ننسب الفارق الى علو كعب المتبربرين فى المعرفة ، فانه لجدير بنا أن نرجعها الى نفوذ الكهنة الوطيد الذى استخدم بواعث الفضيلة بمثابة وسائل لتحقيق أطماعهم .

وطبيعى أن نتوقع أن يتكشف هذا المبدأ الأساسى فى الديانة بأجلى معانيه للشعب المختار فى فلسطين ، وأن يعهد به الى كهنة هارون الوراثيين . وكان حتما مقضيا علينا أن نعبد النواميس الخفية للعناية الالهية ، على حين نكتشف أن نظرية خلود الروح ليس لها وجود فى شريعة موسى ، لقد أقحمها الرسل خلسة ، وفى الفترة الطويلة التى انقضت بين الاستبعاد فى مصر وفى بابل ، يبدو أن آمال اليهود ومخاوفهم معا كانت محصورة فى الدائرة الضيقة للحياة الراهنة (الحياة الدنيا) وبعد أن رخص كورش (١) للأمة المنفية فى العودة الى الأرض الموعودة ، وبعد أن استرد عزرا (٢) Ezra السجلات القديمة للديانة ، نشأت فى أورشليم ، بطريقة غير ملحوظة ، طائفتان مشهورتان : الصدوقيون Sadducees والفريسيون Pharisees . والتزم الألوان ــ وهم من أغنى وأبرز طبقات المجتمع ــ التزاما شديدا بالمعنى الحرفى لشريعة موسى ، وأنكروا ، عن ورع وتقى ، خلود الروح ، باعتباره فكرة ليس لها سند فى الكتاب المقدس الذى يجلونه بوصفه الركيزة الوحيدة لعقيدتهم . وأضاف الفريسيون الى سلطان الأسفار المنزلة سلطان التقاليد والأعراف ، حيث تقبلوا باسم التقاليد والأعراف ، بعض الأفكار النظرية فى فلسفة الأمم الشرقية أو فى ديانتها ، وكانت فى عداد هذه الأركان الجديدة للعقيدة نظريات القضاء والقدر ، والملائكة والأرواح ، والحياة الثانية بما فيها من ثواب وعقاب . ولما كان الفريسيون ، نتيجة لصرامة سلوكهم ، قد جذبوا الى صفوفهم جمهرة الشعب اليهودى ، فقد أصبح خلود الروح هو الشعور السائد فى المجتمع اليهودى تحت حكم ملوك الأزمونيين Asmonaenoena وأحبارهم . وعجز مزاج اليهود عن أن يتقبل مثل هذا التوافق الواهى الفاتر الذى ترتضيه عقلية المشركين ، فلما أقروا فكرة الحياة المستقبلة ، اعتنقوها بالغيرة التى شكلت دائما

---

(١) كورش Cyrus ، مؤسس امبراطورية الفرس ٦٠٠ ــ ٥٢٩ ق.م. ــ (المترجم) .

خاصية الأمة . ولكن غيرتهم على أية حال لم تضف عليهـا شيئـا من الوضوح ، أو حتى احتمال وجودها . وظلت نظرية الحياة والخلود التى فرضتها الطبيعة وأقرها المنطق ، ورحبت بها الخرافة ، فى حاجة الى ضمان وسند حقيقة الهية ترجع الى المسيح والمثل الذى ضربه هـو نفسه .

ولما وعد الناس بالنعيم الأبدى ، شريطة الايمان واتبـاع تعاليم الانجيل ، فليس من عجب فى أن تتقبل أفواج كبيرة من كل دين ومن كل طبقة ومن كل ولاية فى العالم الرومانى ، هذا العرض الكريم . لقد الهب المسيحيين الأقدمين احتقارهم لحياتهم الدنيـا ، وثقتهم الحقـة بالخلود الذي لا يستطيع الايمان الضعيف المزعزع فى العصور الحديثة أن يعطينا أية فكرة وافية عنه . وأثر الحـق بشكل قوى فى الكنيسـة الأولى ، نتيجة راى ، مهما كان جديرا بالاحترام لنفعه وقدمه ، وجد أنه لا يلتئم مع الخبرة والتجربة . لقد ساد الاعتقاد بأن نهايـة العـالم وملكوت الرب وشيكتا المجىء . وتنبأ الرسل بقرب وقوع هذا الحدث العجيب ، وقد احتفظ تلاميذهم الأولون بهذا النبأ العظيم ، واضطر أولئك الذين فهموا أحاديث المسيح بمعناها الحرفى أن يرقبوا فى السحب عودة « ابن الانسان » عودة مجيدة ثانية ، قبل أن ينقرض تماما هذا الجيل الذى شهد حياته المتواضعة على الأرض ، والذى قد يظل شاهدا على ما أصاب اليهود من كوارث على عهد فسبازيان وهادريان . وقد علمتنا ثورة الفكر فى القرون السبعة عشر الا نعتمد كثيرا على لغـة النبوة والوحى الخفية الغامضة ، ولكن طالما سمـح — ومن أجـل أغراض حكيمة — بأن يعيش هذا الخطأ فى الكنيسة ، فانه أسفر عن خير الآثار على عقيدة وأعمال المسيحيين الذى عاشوا فى هذا الترقب الرهيب لتلك اللحظة التى ترتعد فيها فرائص الكرة الأرضية والجنس البشرى بأجمعه لظهور قاضيهم الالهى .

وكانت النظرية القديمة المعروفة ، « نظرية العصر الألفى السعيد »، مرتبطة ارتباطا وثيقا بعودة المسيح ثانية الى الأرض . ولما كان خـلق الدنيا قد تم فى ستة أيام ، فان بقاءها على حالتها الراهنة قد تحـدد بستة آلاف سنة ، كمـا جـاء فى تواتر منسوب الى ايليا (Elijah) (أحد أنبياء بنى اسرائيل فى القرن التاسع قبل الميلاد) . واستدل بنفس هذا القياس على أن هذه الفترة الطويلة من الكد والصراع — والتى انقضى الآن معظمها — سوف تعقبها راحة (سبت) بهيجة مرحة مقدارها الف سنة ، وأن المسيح ، مع زمرة القديسين الظافرين والصفوة الذين

نجوا من الموت أو الذين بعثوا الي الحياة بمعجزة ، سيحكم على الأرض حتى يجين الموعد المقرر ليوم البعث النهائي أو العام . وكم كان هذا الأمل سارا لعقول المؤمنين الى حد أن « أورشليم الجديدة » مقر هذه المملكة المنعمة سرعان ما صورها الخيال فى أبهى زينة وأبهج حلة . ومثل هذه الجنة الهانئة التى لا تنطوي الا على اللذة الطاهرة البريئة الروحية فحسب ، قد تبدو في أعين ساكنيها أنقى مما يحتملون ، اذ المفروض فيهم أنهم لا يزالون على طبيعتهم البشرية مالكين لحواسهم الانسانية . وأن جنة عدن بما فيها من ملذات تصلح لبيئة المراعى لم تعد تصلح للمجتمع الذى هو أكثر تقدما ورقيا ، والذى ساد الامبراطورية الرومانية . ومن ثم شيدت مدينة من ذهب وأحجار كريمة ومنح للبقعة المجاورة لها كل ما تشتهيه الأنفس من غلال وخمر ، فى وفرة خارقة ، يتمتع السعداء الأخيار بنتاجها التلقائى تمتعا حرا لا يشوبه حقد ولا حسد ، ولا تحجبه قيود الملكية الخاصة الممنوعة . وعنى توكيد البشرى بهذا العصر الألفي السعيد ، وترسيخها فى أذهان الناس سلسلة من الآباء ابتداء من جوستين الشهيد Justin Martyr وايرنيوس Irenaeus اللذين تبادلا الحديث مباشرة مع تلاميذ الرسل والحواريين ، حتى لاكتانتيوس Lactantius الذى كان معلما لابن قسطنطين . وربما أمكن القول بأنه من الجائز أن هذه الفكرة لم يتقبلها الجميع ، الا أنها كانت شعورا ملحا على صدور المؤمنين الارثوذكس . كما يبدو أنها كانت تلتئم مع رغبات الانسان وهواجسه ، الى حد أنها لابد أن تكون قد أسهمت بنصيب وافر فى تقدم العقيدة المسيحية . ولكن لما اكتمل صرح الكنيسة أو كاد ، نحى هذا السند المؤقت جانبا . فقد أخذت نظرية حكم المسيح على الأرض فى البداية على أنها مجاز عميق ، ثم اعتبرت ، بدرجات متفاوتة ، رأيا عقيما مشكوكا فيه ، ثم فى النهاية رفضت على أنها بدعة سخيفة من صنع الهرطقة والتعصب . ونجت بأعجوبة من حكم الكنيسة ، نبوءة خفية غامضة لا تزال تشكل جزءا من الشريعة المقدسة ، ولكن كان المظنون أنها تظاهر العاطفة المتفجرة وتلتئم معها .

وبينما وعد تلاميذ المسيح بالسعادة والمجد فى الحكم الدنيوى ، أنذر الذين لا يؤمنون بالويل والثبور وعظائم الأمور . وتقدم تدعيم عقيدة أورشليم الجديدة جنبا الى جنب بنفس الخطى مع تدمير عقيدة بابل الغامضة . وطالما كان الأباطرة الذين حكموا قبل قسطنطين يصرون على الوثنية ، فان اسم بابل كان يطلق على مدينة روما وامبراطوريتها . فقد أعدت سلسلة منتظمة من المصائب المادية والمعنوية

التى يمكن أن تنزل بأمة مزدهرة : الاضطرابات الداخلية ، غارات أعنف المتبربرين من الأقاليم الشمالية المجهولة ، الوبـاء والمجاعة ، النيازك والكسوف والخسوف ، الزلازل والطوفان . وكان كل أولئك مجـرد علامات ونذر أولى للكارثة العظمى التى تنزل بروما ، حين تفنى بلد آل سكيبيو والقياصرة بدخان يغشاها من السماء ، وتدفن مدينة التلال السبعة بقصورها ومعابدها وأقواس النصر بها ، فى بحيرة من قـار وحمم . ومهما يكن من أمر ، فقد يكون لغرور الرومان وكبريائهم بعض العزاء فى أن فترة امبراطوريتهم هى فترة حياة العالم نفسه ، تلك الحياة التى أهلكها مرة عنصر الماء ، ثم قدر لها أن تبتلى ثانية بدمار عاجل من عنصر النار . ولحسن الحظ تلاقت أمام فكرة الحريق العـام عقـيدة المسيحيين وعرف الشرق وفلسفة الرواقيين ومقاييس الطبيعة ، بل ان البلد الذى اختير لدوافع دينية ليكون المصدر والمشهد الرئيسى لهـذا الحريق ، كان مهيأ على أحسن وجه لهذا الغرض لأسباب طبيعية ومادية بمغاراته السحيقة وطبقاته الكبريتية وبـراكينه الكثيرة ، ومـا اتنـا وفيزوف وليبارى الا أمثلة بسيطة لها . وما كـان فى مقـدور أهـدأ المتشككين وأشجعهم أن يرفض الاعتراف بأن تدمير النار للنظام الحالى للعالم ، كان فى حد ذاته محتملا الى أبعد حـدود الاحتمال . وتوقـع المسيحى الذى أسس ايمانه على حجج العقل المضللة ، أقل كثيرا من اقامته على سلطان العرف وتأويل الأسفار المنزلة ، توقع هـذا الدمار فى رهبة وثقة باعتباره حدثا أكيدا قريبا ، ولما كان عقله ممتلئا دائما بهذه الفكرة المقررة ، فانه اعتبر كل مصيبة تحل بالامبراطورية بمثابة علامة محققة من علامات الساعة أو علامات انتهاء العالم .

ان رمى أعقل الوثنيين وأفاضلهم بالجهل أو عدم التصديق بالحقيقة الالهية يبدو فى العصر الحاضر اساءة وامتهانا للعقل والانسانية . ولكن الكنيسة الأولى التى كان ايمانها أثبت قواما حكمت دون تردد بالعذاب الأبدى على أكبر عدد من الجنس البشرى . وقد يكون هناك أمل كريم فى التسامح مع سقراط أو بعض الحكماء الأقـدمين الآخـرين الذين استخاروا العقل قبل ظهور الانجيل ، ولكن تأكد بالاجماع أن أولئـك الذين أصروا فى عناد ، منذ ولادة المسيح أو وفاته ، على عبادة الشياطين والجن ، لا يستحقون ، وليس لهم أن يتوقعوا ، العفو من الاله الذى استثير غضبه . ويبدو أن هذه المشاعر القاسية التى لم تكن معروفة فى العالم القـديم نفثت روحـا من المرارة فى نظام كان يسوده الحـب والانسجام . وكثيرا ما مزق الخلاف فى العقيدة الدينية روابط الـدم

والإخاء والصداقة ، ورأى المسيحيون أنهم يرزحون فى هذه الدنيا تحت نير الوثنيين ، فأضلهم أحيانا حنقهم وكبرياؤهم الروحى وأغوتهم نشوة الفرح بالانتصار فى المستقبل . ويقول ترتوليان(١) المتشدد Tertullian متعجبا : « انك مولع بالمشاهد ، فتوقع أعظم المشاهد فى المحاكمة الأزلية الأخيرة ، كم أعجب ، كم أضحك ، كم أبتهج ، كم أطرب وأتهلل ، حين أرى الكثير من الملوك المتكبرين والآلهة الوهمية يئنون فى أعمق مهاوى الظلام ، والكثير من الحكام الذين اضطهدوا اسم الله يذوبون فى نار أشد سعيرا مما أشعلوا ضد المسيحيين ، والكثير من الفلاسفة الحكماء يصلون مع تلاميذهم المخدوعين نارا حامية ، وكثيرا من الشعراء المشهورين يرتعدون فرقا أمام محكمة المسيح — لا محكمة مينوس (٢) Minos ، والكثير من الممثلين التراجيديين أكثر انسجاما فى النغم تعبيرا عما يعانون ، والكثير من الراقصين والراقصات .. » ولكن انسانية القارىء قد تستميح لى العذر فى اسدال الستار على بقية هذا الوصف الجهنمى الذى يسترسل فيه هذا الأفريقى فى مجموعة طويلة من الفكاهات المصطنعة المجردة من الشعور .

ولا ريب فى أنه كان من بين المسيحيين الأولين كثيرون ذوو طبع أكثر التئاما وتوافقا مع وداعة عقيدتهم وما تدعو اليه من البر المحبة ، فكان هناك كثيرون ممن استشعروا الرحمة الخالصة لمصائب أصدقائهم وبنى وطنهم ، وأحسوا بالغيرة الخيرة لانقاذهم من الدمار المحدق بهم . أما المشرك الغافل الذى كانت تطارده الأهوال الجديدة غير المتوقعة التى لم يزوده كهنته أو فلاسفته بأى عاصم منها ، فكثيرا ما أرهبه وأخضعه التهديد بالعذاب الأبدى . وربما ساعدت مخاوفه على النهوض بعقيدته وعقله ، واذا حمل نفسه يوما على الظن بأن الدين المسيحى قد يكون صحيحا صادقا ، ربما بات من السهل اقناعه بأنه أسلم وأحكم عقيدة يمكن أن ينضم اليها .

٣ — قوى المعجزات فى الكنيسة الأولى :

ان المواهب الخارقة التى نسبت ، حتى فى هذه الحياة ، الى المسيحيين ، دون سائر الجنس البشرى ، لابد وانها أدت الى راحتهم

---

(١) من أعظم آباء الكنيسة اللاتينية ١٦٠ — ٢٥٥ م . قضى معظم حياته فى قرطاجة (ولاية افريقية الرومانية) وله كتابات كثيرة باللاتينية واليونانية .

(٢) تقول الأساطير اليونانية انه ملك كريت ، وابن زيوس . وأصبح بعد موته أحد القضاة الثلاثة فى العالم السفلى — (المترجم) .

هم أنفسهم ، وفى الغالب الى اقتناع الزنادقة ، وفضلا عن المعجزات الطارئة ، التى كانت تحدث نتيجة التدخل المباشر للاله ، حين كان يعطل قوانين الطبيعة خدمة للمسيحيين ، ادعت الكنيسة المسيحية ، منذ عهد الحواريين وتلاميذهم الأولين ، سلسلة لم تنقطع من قوى المعجزات ، مثل الالمام باللغات والرؤى ، والتنبؤ ، والقدرة على طرد الشياطين ، وشفاء المرضى واحياء الموتى ، وكثيرا ما وصلت المعرفة باللغات الأجنبية الى معاصرى ايرينوس ، رغم أنه هو نفسه ترك ليعانى مصاعب لهجة بربرية وهو يبشر بالانجيل أهالى الغال . ويقال ان الوحى الالهى سواء جاء على شكل رؤيا فى اليقظة أو فى المنام ، انما هو منة ينعم بها فى سخاء على مختلف طبقات المؤمنين : على النساء والشيوخ وعلى الأولاد وعلى الأساقفة ، سواء بسواء . فاذا تهيأت عقولهم الى حد كاف ، عن طريق منهج من الصلوات والصوم وقيام الليل ــ لتلقى هذا المحرك الخارق ، غابوا عن حواسهم ونقلوا فى نشوة كل ما أوحى اليهم ، بوصفه جوارح من الروح القدس ، مثلهم فى ذلك مثل المزمار أو الناى ، فهو جزء لا يتجزأ عمن ينفخ فيه . ويمكن أن نضيف أن القصد من هذه الرؤى كان فى الكثير الغالب ، اما كشف الستار عن غيب التاريخ المستقبل للكنيسة ، أو توجيه ادارتها الحالية . أما طرد الشياطين من أجسام أولئك التعساء الذين كان مسموحا للشياطين بتعذيبهم ، فقد اعتبر علامة على الدين ، ولو أنه انتصار عادى له ، وكم من مرة فسره المدافعون القدامى عن الدين بأنه أعظم دليل مقنع على صدق المسيحية ! وكانت العملية البشعة تتم فى حفل عام ، وبحضور عدد كبير من النظارة وكانت سلطة طارد الأرواح الشريرة أو مهارته تخلص المريض من الشيطان ، وكان الشيطان يعترف بصوت مسموع أنه كان أحد الآلهة الكاذبة القديمة ، التى فرضت غصبا وكفرا على البشر عبادتها . بيد أن شفاء الأمراض المستعصية أو الشاذة الى أبعد حد ، لم يعد يدعو الى العجب أو الدهشة ، اذا تذكرنا أنه فى أيام ايرينوس ، حوالى أواخر القرن الثانى الميلادى ، كان احياء الموتى أبعد ما يكون عن اعتباره حدثا غير عادى ، وأن هذه المعجزة كثيرا ما تمت فى المناسبات الضرورية ، بالصوم الكبير واشتراك الكنيسة المحلية فى التضرعات ، وأن الأشخاص الذين استعادهم هؤلاء الضارعون عاشوا بعد ذلك بين ظهرانيهم سنوات طوالا . وفى مثل هذه الحقبة التى استطاع الايمان فيها أن يفاخر بانتصاراته العجيبة على الموت ، يبدو من العسير أن نعلل تشكك أولئك الفلاسفة الذين ظلوا ينكرون ويسخرون من نظرية البعث . وقد ركز أحد نبلاء اليونان كل جدله فى هذه النقطة الحساسة

الخطيرة ، ووعد توفيلوس أسقف أنطاكية باعتناق المسيحية فورا ، لذا سمح له برؤية فرد واحد بعث حيا بالفعل . وقد يكون جديرا بالذكر ، الى حد ما ، أن مطران الكنيسة الشرقية الأولى ، رغم تلهفه على تحويل صديقه الى المسيحية ، رأى من الحكمة أن يزوغ من هـذا التحـدى العادل المعقول .

وبعد أن اكتسبت معجزات الكنيسة الأولى على مر العصور سندا ومنعة ، هوجمت مؤخرا ، فى استقصاء حر بارع يبدو أنه اثار — رغم أن الناس قابلوه بترحاب بالغ — فضيحة عامة بين رجال كنيستنا وسائر الكنائس البروتستانتية فى أوربا . وسوف تتأثر نظـراتنا الى هـذا الموضوع بأية حجج أو مناقشات معينة ، أقل كثيرا منها بعاداتنا فى البحث والدرس والتأمل ، وفوق كل شىء بقيمة الدليل الذى تعودنا على أن نتطلبه لاثبات حادثة معجزة . ولا يقتضى واجب المؤرخ منه أن يقدم رأيه الخاص فى هذه المشادة الحساسة الهامة ، ولـكن ينبغى عليه الا يغض الطرف عن الصعوبة التى تعترض تبنى نظرية توفق بين مصلحة الدين ومصلحة العقل ، واجراء تطبيق سليم لتلك النظريـة ، وتعيين حدود هذه الحقبة السعيدة بدقة ، تلك الحقبة التى خلت من الخطأ ومن الغش ، والتى قد نميل الى أن نخلع عليها هبة القوى الخارقة للطبيعة. فقد تعاقبت بلا انقطاع — منذ أول الآباء الى آخر البابوات — سلسلة من الأساقفة والقديسين والشهداء والمعجزات ، وكان تقدم الخرافيـة متدرجاً ، ويكاد يكون غير ملحوظ ، الى حد أننا لا نعرف فى أية نقطة معينة يمكن أن نحطم أغلال العرف . وان كل عصر ليحمل شاهدا على الأحداث العجيبة التى يتميز بها ، ولا يبدو هذا الشـاهد أقل وزنـا وتقديرا من شاهد الجيل السابق ، حتى أدى بنا الأمر ، دون أن نشعر أو نحس الى اتهام أنفسنا بالخفة والتقلب ، اذا كنا فى القرن الثامن أو القرن الثانى عشر ننكر على الأب المحترم «بيد» Bede ، أو القديس « برنار » Bernard تلك الدرجة من الثقة التى أوليناها ، فى سخاء ، فى القرن الثانى ، لجوستين أو ايرينوس (١) . واذا قدرت صحة كل من المعجزات على أساس فائدتها ولياقتها الظاهرتين ، فقد كان فى كل عصر منكرون لاقناعهم وهراطقة لتفنيد آرائهم ، وأمم وثنية لهدايتهـا ، كما كانت هناك بواعث يمكن ابتداعها لتبرير تدخل السماء ، على انه اذا

---

(١) قد يبدو جديرا بالذكر أن برنار (من بلدة كليرفو Clairvaux) الذى سجل كثيرا من معجزات صديقه القديس مالاتشى ، لا يذكر شيئا عن معجزاته هو نفسـه ، على أنها بدورها قد رواها فى عناية تامة رفاقه وتلاميذه . وهل يوجد فى سلسلة التاريخ الكنسى الطويل مثال واحد لقديس يثبت لنفسه موهبـة الاتيان بالمعجزات ؟

كان كل صديق للوحى موقنا بصحة قوى المعجزات وكل رجل عاقل مقتنعا بتوقفها ، فواضح أنه لابد كانت هناك فترة من الفترات انسحبوا اما فجأة أو تدريجا من الكنيسة المسيحية . وأيما فترة اختيرت لهذا الغرض : موت الحواريين ، أو تحول الامبراطورية الرومانيـة (الى المسيحية) ، أو خمود الهرطقة الأريوسية (١) . فان بلادة شعور المسيحيين الذين عاشوا فى تلك الأيام مثار للدهشة الحقة بنفس القدر . فانهم ظلوا يعززون مزاعمهم بعد فقدان قوتهم ، فقد أدت سرعة التصديق أو سلامة النية مهمة الايمان ، ورخص للتعصب فى انتحال لغة الوحى ، ونسبت نتائج المفاجآت أو الحيل الى أسباب خارقة للطبيعة . وكان لابد لتجربة المعجزات الحقيقية الأصيلة الحديثة أن تكون قد علمت العالم المسيحى طرق العناية الالهية ، وراضت عيونهم (اذا جاز لنا أن نستعمل تعبيرا ناقصا كثيرا) على أسلوب الفنان « الالهى » . واذا اجترأ اليوم أبرع فنان فى ايطاليا الحديثة على أن يمهر رسومه المقلدة الضعيفة باسم رافائيل أو اسم كورجيو Correggio ، فما أسرع ما يكتشف هذا الاحتيال الوقح ، ويرفض فى ازدراء ! .

ومهما يكن من رأى فى معجزات الكنيسة الأولى فى صدر المسيحية على عهد الحواريين ، فان هذه النعومة المستسلمة البارزة بروزا عظيما فى طبع المؤمنين فى القرنين الثانى والثالث أثبتت أنها ذات فائدة طارئة لقضية الحق والدين . فثمة شك دفين ، بل قهرى لا ارادى ، يلازم فى العصور الحديثة أكثر الناس نزوعا الى التقى والورع . فان اقرارهم بالحقائق الخارقة للطبيعة انما هو رضا جاد أقل كثيرا منه اذعانا فاترا وسلبيا . واذ درجنا منذ زمن طويل على أن نلحظ ونحترم النظام الثابت « للطبيعة » فان عقلنا ، أو على الأقل تصورنا ليس مهيأ بدرجة كافية لاحتمال العمل المرئى « للاله » . ولكن موقف الجنس البشرى فى العصور الأولى للمسيحية كان مختلفا كل الاختلاف . فان أكثر الناس فضولا أو أسرعهم تصديقا بين الوثنيين غالبا ما كانوا يحملون على الدخول فى مجتمع أكد وأقر الدعوى الفعلية لقوى المعجزات . لقد وطئت أقدام المسيحيين الأولين دوما أرض الأسرار والغموض ، وألفت عقولهم تصديق أكثر الحوادث شذوذا وغرابة . وشعروا أو تصوروا أن الشياطين كانت دون انقطاع تلاحقهم من كل جانب كما

---

(١) غالبا ما يحدد البروتستانت ، عادة ، هذه الفترة بتحول قسطنطين الى المسيحية . ولا يرتضى أكثر رجال الدين تعقلا اقرار معجزات القرن الرابع ، على حين لا يرتضى أكثرهم سذاجة أن ينكروا معجزات القرن الخامس .

كانت الأشباح تدخل السكينة على قلوبهم ، والنبوءات تهديهم ، وابتهالات الكنيسة تنقذهم من الخطر وتبرئهم من العلة بل وتخلصهم من براثن الموت نفسه بشكل يدعو الى العجب . ان المعجزات أو الكرامات الحقيقية أو الوهمية التى كثيرا ما رأوا أنهم كانوا هم أنفسهم أهدافا أو أدوات لها ، أو شهودا عليها ، جنحت بهم ، فى سعادة غامرة الى أن يتبنوا ، بنفس القدر من السهولة واليسر ، ولكن بقدر أوفر كثيرا من الانصاف والحق ، العجائب الموثوقة الأصيلة فى تاريخ الانجيل ، ومن ثم فإن المعجزات التى لم تتعد نطاق تجربتهم وممارستهم ، أوحت اليهم بأن يؤكدوا ويؤمنوا الى أبعد حد بالأسرار التى اعترف بأنها تجاوز حدود ادراكهم . ان هذا الأثر العميق للحقائق الخارقة للطبيعة هو الذى عرفوه وعظموه تحت اسم الايمان . وهو حالة من حالات العقل وصفت بأنها أكبر ضمان لرضوان الله وللسعادة فى الآخرة، وأوصوا بها على أنها أول ميزة ، أو قل انها الميزة الوحيدة ، التى يتحلى بها المسيحى . ومن رأى العلماء الذين هم أكثر تشددا ان الفضائل الأخلاقية التى قد يتحلى بها الكافرون — على هذا النسق سواء بسواء — مجرد من أية قيمة أو فاعلية ، فيما تأخذ به من تبريرات .

٤ ــ الاخلاقيات الصارمة عند المسيحيين الأوائل :

ولكن المسيحى فى صدر المسيحية عبر عن ايمانه وأبرزه فى فضائله. وكان المظنون حقا وصدقا أن اليقين الالهى الذى أثار العقول أو اخضعها، لابد ، فى نفس الوقت ، أن يطهر القلوب ويوجه أعمال المؤمن . ان المدافعين الأول عن المسيحية ، الذين يبررون طهر اخوانهم وبراءتهم ، والكتاب الذين جاءوا فى عصر لاحق يمجدون طهارة أسلافهم وقداستهم ، يعرضون فى أجلى بيان ما طرأ على العالم من تهذيب واصلاح فى السلوك والآداب بفعل تعاليم الانجيل . ولما كنت أقصد أن أشير الى الأسباب الانسانية التى ساعدت على تدعيم آثار الوحى ، فانى سأعرض فى بساطة لعاملين كان طبيعيا أن يجعلا حياة المسيحيين الأولين أكثر نقاوة وأشد صرامة من حياة معاصريهم من الوثنيين أو حياة خلفائهم المنحلين : هما الندم على ما اقترفوا من آثام سابقة ، والرغبة المحمودة فى الاعلاء من شأن المجتمع الذى ارتبطوا به .

وقديما وجه الكفار ، جهلا أو خبثا ، الى المسيحيين اللوم بأنهم أغروا بالدخول الى حظيرتهم أخطر المجرمين الذين حملوا فى سهولة

ويسر ، بمجرد أن استشعروا شيئا من التأنيب ، على أن يغسلوا فى ماء التعميد كل آثامهم الماضية ، التى رفضت معابد الآلهة أن تمنحهم أى تكفير عنها ، ولكن هذا اللوم ، اذا جرد من التمويه والتحريف انما يسهم فى تمجيد الكنيسة كما أسهم فى زيادة عدد شعبها . قد يعترف أصدقاء الكنيسة دون مواربة أو خجل ، بأن كثيراً من أبرز القديسين ، كانوا قبل التعميد أكبر المجرمين المنبوذين . ان الذين اتبعوا ، فى هذه الدنيا ، ولو بشكل منقوص ، تعاليم الخير واللياقة ، استنبطوا من فكرة استقامتهم هم أنفسهم شعورا بالارتياح الهادىء الذى جعلهم أقل تعرضا للانفعالات المفاجئة بالعار أو الحزن أو الفزع ، تلك الانفعالات التى كانت سببا لكثير من الانحرافات العجيبة . واقتداء بسيدهم الربانى ، لم يحتقر المبشرون بالانجيل المجتمع ورجاله ، وخاصة نساءه، ممن أقض مضاجعهم وعيهم لرذائلهم ، وفى الكثير الغالب أزعجتهم آثارها . فلما برئوا من الخطيئة والخرافة وانطلقوا الى الأمل المشرق فى الخلود عقدوا النية على أن يهبوا أنفسهم . لا لحياة الفضيلة وحدها، بل لحياة التوبة والندم . وتملكت نفوسهم الرغبة فى الكمال ، ومن المعروف جيدا أنه على حين يتخذ العقل موقفا وسطا فاترا ، فان أهواءنا تسرع بنا فى تهور شديد الى المجال الذى يقع بين أشد المتناقضات .

ولما ادخل المتحولون فى عداد المؤمنين ورخص لهم فى الأسرار المقدسة فى الكنيسة ، وجدوا أنهم قد امتنع عليهم الافلات الى مفاسدهم الماضية نتيجة لاعتبار آخر ذى طبيعة بريئة جديرة بالاحترام الى حد كبير ، ولو أنه أقل تعلقا بالناحية الروحية . ذلك أن أى مجتمع معين يخرج على جمهرة الأمة أو الدين الذى يتبعه ، سرعان ما يصبح هدفا للنظرات الحاسدة الحاقدة من الجميع ، وبالنسبة لصغر عدده ، يتأثر خلق هذا المجتمع بفضائل الأفراد الذين يتكون منهم وبرذائلهم ، ويكون كل فرد فيه مشغولا — مع أكبر درجة من العناية واليقظة — بمراقبة سلوكه الخاص وسلوك اخوانه ، فانه ، بقدر ما يجب أن نتوقع أن يكابد جزءا من العار المشترك ، قد يأمل فى أن يتمتع بنصيب من السمعة الطيبة المشتركة . فلما أحضر مسيحيو بثنيا Bithynie أمام محكمة بلينى الصغير ، أكدوا لهذا البروقنصل أنهم — بصرف النظر عن بعدهم عن الاشتراك فى أية مؤامرة غير مشروعة ، مرتبطون بالتزام مقدس ، بالامتناع عن ارتكاب جرائم تكدر السلام الخاص أو العام فى المجتمع مثل السرقة ، النهب ، الزنا ، قول الزور ، والغش والتدليس . وحق لترتوليان ، بعد ذلك بنحو قرن من الزمان ، أن يفاخر فى صدق وأمانة أن نفرا قليلا جدا من المسيحيين وقعوا تحت

يد الجلاد ، اللهم الا بسبب ديانتهم . ان حياتهم المحفوفة بالخطر المنعزلة ، المتنافرة مع ترف العصر ، عودتهم على العفة وضبط النفس والاقتصاد ، وسائر الفضائل الوقورة العائلية . ولما كان الجزء الأكبر منهم من ذوى الحرف أو المهن ، فقد كان لزاما عليهم أن يزيلوا — بأقصى ما يمكن من النزاهة ، وبأعدل ما يمكن من التعامل — كل الشكوك التى قد تساور الكفار — وما أشد استعدادهم لها — فى مظاهر الطهر والقداسة . كما أن احتقارهم للدنيا عودهم على التواضع والحلم والصبر . وكلما أمعن فى اضطهادهم زادت وشائج الارتباط وثوقا بينهم . ولحظ الكفار ما بينهم من تواصل وتراحم ، وكثيرا ما استغله أسوأ استغلال أصدقاؤهم الغدارون المخاتلون .

وانه لشرف كبير لأخلاق المسيحيين الأوائل أن تكون هفواتهم ، بل ذنوبهم ، نابعة من الافراط فى الفضيلة . ان أساقفة الكنيسة ومعلميها الذين دلت شهادتهم ، بل وربما أثر سلطانهم ، على وظائف ومبادىء أقرب الى التعبد منها الى الدراسة الفاحصة الماهرة ، وكثيرا ما تلقوا تعاليم المسيح والحواريين الصارمة بمعناها الحرفى ، أكثر ما تكون الحرفية ، هى التعاليم التى اقتضت فطنة المعلقين المحدثين أن يتبعوا فى تفسيرها أسلوبا أكثر تفككا وأبعد مجازا . وطمعا فى تمجيد سمو الانجيل على حكمة الفلسفة أخذ الآباء الغيورون أنفسهم بالتقشف وقمع الشهوات والطهارة والصبر الى ذروة يندر امكان بلوغها ، والأندر منه ، المحافظة عليها فى مثل حالتنا الراهنة من الضعف والفساد . ان عقيدة خارقة سامية لا بد حتما أن تجلب احترام الناس ، ولكن قدر خطأ أن تحظى بموافقة هؤلاء الفلاسفة الدنيويين الذين لا يستشفون فى توجيه هذه الحياة الانتقالية (الحياة الدنيا) الا مشاعر الطبيعة ومصالح المجتمع .

وهناك نزعتان طبيعيتان كثيرا ، يمكن أن نميزهما من بين أفضل الميول وأكثرها تحررا : حب اللذة وحب العمل . ولكن اذا هذبت النزعة الأولى بالفن والتعليم ورقيت بمفاتن الاتصالات الاجتماعية ، وقويت بمراعاة الاقتصاد والصحة مراعاة صادقة ، فانها تحقق أكبر قسط من السعادة فى الحياة الخاصة . أما حب العمل فانه مبدأ ذو طبيعة أقوى بكثير ، وكذلك أكثر ابهاما وشكا ، فانه يؤدى فى الغالب الى الغضب والطمع والانتقام ، ولكنه اذا هداه احساس باللياقة والخير — يصبح مصدرا لكل فضيلة ، واذا اقترنت تلك الفضائل بقدرات متكافئة ، لكانت أية أسرة ، أو دولة ، أو امبراطورية مدينة بأمنها ورخائها

لشجاعة فرد واحد غير هياب ولا وجل . ويمكن ، على هذا ، أن ننسب الى حب اللذة أليق الصفات وأكثرها استحسانا ، وننسب الى حب العمل أكثرهم نفعا واحتراما. وان الشخصية التى يمكن أن يجتمع ويلتئم فيها الواحد مع الآخر (حب اللذة وحب العمل) لتبدو أنها تشكل اكمل فكرة عن الطبيعة الانسانية . أما الفطرة الخامدة الفاقدة الوعى ، والتى يجب أن يفترض أنها مجردة منهما ، على حد سواء ، فيجب أن يأباها الجنس البشرى بأسره ، بوصفها عاجزة تمام العجز عن تحقيق أية سعادة للفرد ، أو أى نفع عام للعالم . ولكن لم تكن هذه هى الدنيا التى كان المسيحيون الأولون يرغبون فى أن يجعلوا من أنفسهم أناسا مقبولين فيها أو نافعين لها .

ان طلب المعرفة ، وتدريب العقل أو الخيال ، والتبادل الشهى للحديث أمور تشغل وقت فراغ الذهن المتحرر ، ولكن صرامة الآباء كانت تأبى هذه المسرات مقتا وازدراء ، أو تسلم بها فى حذر بالغ ، لأنهم احتقروا كل معرفة غير مجدية فى الخلاص ، واعتبروا الرعونة فى الحديث استغلالا آثما لموهبة الكلام . فالجسم فى حياتنا هذه مرتبط بالنفس ارتباطا غير منفصم ، الى حد يبدو معه أنه من مصلحتنا أن نتذوق ، فى براءة واعتدال ، كل هذه المتع التى يتأثر بها هذا الرفيق المؤمن فى سرعة شديدة . لقد كان منطق أسلافنا الأتقياء مختلفا كل الاختلاف ، فانهم كانوا يتوقون عبثا الى الاقتداء بكمال الملائكة ، فاحتقروا أو تظاهروا باحتقار ، كل بهجة دنيوية أو جسمية ، ان بعض حواسنا ضرورى فى الواقع لحفظ النوع ، وبعضها لمعاشنا ، وبعضها الآخر للاعلام والمعرفة ، ومن ثم كان من أبعد المستحيلات أن نمتنع عن استخدامها . وكانت أول بادرة للذة بمثابة الايذان باساءة استغلالها (الحواس) . أما المرء البليد الحس المرشح للجنة فقد لقن ألا يقاوم كبرى مغريات الذوق والشم فحسب ، بل كذلك أن يصم اذنيه عن النغم المنسجم الدنس ، وأن ينظر فى غير اكترات الى أروع ما أنتجه فن الانسان ، فالملابس الزاهية والدور الفخمة والأثاث الفاخر افترض فيها كلها أنها تشكل جريمة مزدوجة ، وهى الزهو وحب الشهوات . ان مظهر البساطة والتقشف هو أليق شىء بالمسيحى الواثق من خطاياه المرتاب فى خلاصه ، وكان لوم الآباء على الترف عارضا طفيفا . ومن بين الأشياء العديدة التى تثير استنكارهم الورع يمكن أن نعدد الشعر المستعار ، اى رداء ذى لون غير الأبيض ، الآلات الموسيقية ، والزهريات من الذهب أو الفضة ، الوسائد الوثيرة (لأن يعقوب أسند رأسه الى حجر) الخبز الأبيض ، الأنبذة الأجنبية ، التحيات العامة ، استعمال

الحمام الساخن ، وحلق اللحية الذى هو ، على حد قول ترتوليان بمثابة كذب على وجوهنا ومحاولة فاسقة لتعديل صنع « الخالق » . وعند دخول المسيحية بين الأغنياء والمهذبين أهمل اتباع هذه القواعد أو السنن الشاذة كما لو كانت ، كما هى الحال فى الوقت الحاضر ، للقلة الطامعة فى طهارة أسمى . وانه لمن السهل دائما ، كما أنه من اللائق ، أن تدعى الطبقات الدنيا من الجنس البشرى لنفسها امتيازا بازدرائها هذه الأبهة وهذه اللذة اللتين وضعهما الحظ فوق متناول أيديهم . ان فضيلة المسيحيين الأولين ، مثل فضيلة الرومان الأوائل ، كثيرا ما كانت مصونة أو محكومة بالفقر والجهل .

ونبعت صرامة الآباء العنيفة فى كل ما يتعلق بالاختلاط بين الجنسين، من نفس المبدأ أو القاعدة — أى مقتهم لكل متعة ترضى الطبيعة الشهوانية وتحط من شأن الجانب الروحى فى الانسان . وكانوا يؤثرون القول بأنه لو أن آدم استمر على طاعة الخالق لعاش الى الأبد فى طهر عذرى، ولوجدت طريقة وديعة للتكاثر فى الجنة بجنس من الكائنات البريئة الخالدة . أما الزواج فقد رخص فيه لذريته المنحطة فقط كوسيلة ضرورية لاستمرار النوع الانسانى وليكون بمثابة قيد ، وان يكن ناقصا ، للجموح الطبيعى فى الشهوة . وان تردد المفتين الشرعيين الأرثوذكس فى هذا الموضوع الهام ليفضح ارتباك الرجال الذين لا يريدون اقرار نظام ارغموا هم على احتماله . وان تعداد القوانين الغريبة الأطوار جداً ، والتى فرضوها على مخدع الزوجية بطريقة أكثر ما تكون عرضية طارئة ، لما يدعو الشباب الى الابتسام ، وتتورد له وجنات الجنس اللطيف حياء وخجلا . وقد أجمعوا على أن الزواج الأول كاف للوفاء بأغراض الطبيعة والمجتمع . أما الاتصال الشهوانى فقد بلغوا فى تنقيته وتهذيبه الى حد الشبه بالاتحاد الخفى الغامض بين المسيح وكنيسة ، واعلنوا انه لا ينفصم بالطلاق أو بالموت . أما الزيجات التالية فقد دمغوها بأنها زنى قانونى ، أما الأشخاص الذين يقترفون هذه الخطيئة النكراء ضد الطهارة المسيحية فانهم سرعان ما كانوا يحرمون من أمجاد الكنيسة بل يطردون من بين احضانها . وطالما وصمت الرغبة بأنها جريمة ، واحتمل الزواج على انه نقيصة أو علة ، فانه لما يتمشى مع نفس المبدأ أن تعتبر حالة العزوبة أقرب منطلق الى الكمال الالهى . وكان عسيرا على روما القديمة أن تتقبل نظام الراهبات

العذارى الست (١) ، ولكن الكنيسة الأولى كانت تزخر بعدد كبير من الجنسين ممن نذروا أنفسهم للعفة الدائمة . وقليل من هؤلاء — يمكن أن نعد من بينهم أوريجن Origen ، رأوا أن من أكبر الفطنة أن ينزعوا من الجسم سلاحه (٢) وكان بعضهم جامدا بليد الاحساس ، كما صمد بعضهم أمام مغريات الجسد . واحتقارا لهذا الهروب الشائن ، جابهت عذارى الجو الحار فى أفريقيا عدوهن فى عقر داره وفى أوثق التحام ، فسمحن للقساوسة والشمامسة بمشاركتهن الفراش ، وتباهين فى وسط اللهب بالطهارة التى لم تلوث . ولكن « الطبيعة » المهانة أثبتت فى بعض الأحيان حقوقها ، ولم يجد هذا اللون الجديد من الاستشهاد الا فى انه الصق فضيحة جديدة بالكنيسة (٣) ، ومهما يكن من أمره فان كثيرا من الرهبان المسيحيين (وهو اسم اكتسبوه من عمليتهم المؤلمة) ربما كانوا أكثر توفيقا لأنهم كانوا أقل جراة . فقد أمدوا فقدان اللذة الشهوانية بل وعوضوا عنه بالاعتزاز الروحى . وحتى جمهور الوثنيين كانوا يقدرون قيمة التضحية بمقدار المشقة الظاهرة فيها ، وقد أفرغ الآباء بلاغتهم المجهدة فى امتداح أقران المسيح العفيفين هؤلاء . تلك هى آثار قواعد الرهبنة ونظمها ، تلك التى توازنت ، فى عصر تال ، مع كل المزايا الدنيوية للمسيحية .

ولم يكن المسيحيون أقل عداء للعمل منهم للذة فى هذه الدنيا . انهم لم يعرفوا كيف يوائمون بين الدفاع عن الأشخاص والممتلكات وبين نظرية الصبر التى أوصت بالصفح بلا حدود عن الايذاءات الماضية وأمرتهم بطلب اساءات جديدة . وقد امتهنت بساطتهم باستخدامهم الحلف والقسم ، وبأبهة الولاية ، وبالصراع القائم فى الحياة العامة ، كما أن جهلهم الموسوم بالرفق والشفقة لم يستطع أن يقنعهم بأنه من الأمور المشروعة ، فى أية مناسبة ، سفك دماء الناس بسيف العدالة

(١) ورغم الأمجاد والثواب الذى كان يجزل لهؤلاء العذارى ، كان من العسير الحصول على عدد أكبر منهن ، كما أن الخشية من موت رهيب اشد ما تكون الرهبة ، لم تحل دائما بينهن وبين الدعارة .

(٢) قبل أن تثير شهرة أوريجن الحقد عليه واضطهاده ، كان هذا العمل الشاذ يدعو الى الاعجاب أكثر منه الى اللوم ، ولما كان من عادته بصفة عامة أن يؤول الأسفار المنزلة ، فانه يبدو من سوء الحظ أنه كان لزاما عليه ، فى هذه الحالة فقط ، أن يقتبس المعنى الحرفى .

(٣) وصم بشىء من مثل هذه المحاولة الطائشة ، بعد ذلك بزمن طويل ، مؤسس طائفة فرنتفرول Fontevrault وقد أتحف بيلى نفسه وقراءه بالكتابة فى هذا الموضوع الحساس .

أو فى الحرب ، مهما كانت محاولتهم الاجرامية أو العدائية تهدد سلام وأمن الجماعة بأسرها . وكان من المعروف أنه ، فى ظل قانون أقل كمالا ، تمت ممارسة سلطات الدستور اليهودية بموافقة السماء على أيدى أنبياء ملهمين وملوك مرسومين . وأحس المسيحيون واعترفوا بأن مثل هذا النظام ربما كان ضروريا للوضع الحاضر فى العالم ، وخضعوا بكل سرور لسلطان حكامهم الوثنيين . ولكنهم فى الوقت الذى استوعبوا فيه مبادىء الطاعة السلبية أبوا أن يقوموا بأى دور فعال فى الادارة المدنية ، أو فى الدفاع العسكرى عن الامبراطورية . وقد نتغاضى ، نوعا ما ، عن الأشخاص الذين كانوا ينهضون بالفعل قبل تحولهم الى المسيحية بهذه المهام الثقيلة الدموية ، ولكنه كان يستحيل على المسيحيين — الا اذا نبذوا واجبا أكثر قداسة ، أن يتخذوا شخصية الجنود ، أو الحكام أو الأمراء (١) . ولقد عرضهم اغفالهم المتراخى ، بل الآثم ، للمصلحة العامة ، لاحتقار ولوم الوثنيين الذين كانوا يتساءلون كثيرا : ماذا عسى أن يكون مصير الامبراطورية اذا هاجمها المتبربرون من كل جانب ، اذا تبنى الناس جميعا ما تتبناه الطائفة الجديدة من مشاعر الجبن والخور ؟ وكانت اجابات المدافعين المسيحيين عن هذا السؤال المهين غامضة مبهمة ، لأنهم لم يزيدوا على أن يفصحوا عن السبب الخفى لهذه الطمأنينة ، ذلك هو توقعهم أنه ، قبل أن يتم تحول الجنس البشرى (الى المسيحية) لن يكون للحرب ، والحكومة ، والامبراطورية الرومانية ، والعالم نفسه ، أى وجود . وقد يلحظ فى هذه الحالة كذلك ، أن موقف المسيحيين الأوائل تلاقى تماما لحسن الحظ مع شكوكهم الدينية ، وأن عزوفهم عن الحياة الجادة النشيطة ساعد على اعفائهم من الخدمة أكثر منه على حرمانهم من أمجاد الحكم والجيش .

٥ — نمو حكومة الكنيسة :

ولكن الخلق الانسانى ، مهما حلق أو انحط نتيجة لحماس وقتى طارىء ، لابد أن يعود شيئا فشيئا الى مستواه الصحيح الطبيعى ، ويسترد هذه الأحاسيس التى تبدو أنها أصلح شىء لظروفه الراهنة . ان المسيحيين الأوائل لم يعنوا بمشاغل الدنيا وملذاتها ، ولكن حبهم

(١) اقترح عليهم ترتوليان أن يتخذوا مغادرة البلاد ذريعة . وهى نصيحة لو شاعت معرفتها لما صلحت لكسب رضا الأباطرة على الطائفة المسيحية .

للعمل ، ذلك الحب الذى لم تكن جذوته لتنطفىء فيهم كلية ، سرعان ما انتعش ووجد مجالا جديدا فى حكومة الكنيسة . ذلك أن المجتمع المستقل أو المنفصل الذى تصدى للديانة القائمة فى الامبراطورية ، كان مضطرا لاقتباس شكل من أشكال السياسة الداخلية ، وتعيين عدد كاف من السدنة لا يعهد اليهم بالمهام الروحية فحسب ، بل حتى بالادارة الدنيوية (الزمنية) للجمهورية المسيحية كذلك . ونبعت سلامة هذا المجتمع ومجده وتوسيعه ، حتى فى أنقى العقول ، من روح وطنية شبيهة بتلك التى استشعرها الرومان الأولون نحو الجمهورية ، كما نبعت أحيانا من عدم اكتراث مماثل باستخدام أى الوسائل التى يحتمل أن تؤدى الى هذه الغاية المرجوة . وكان طمعهم فى السمو بأنفسهم وبأصدقائهم الى أمجاد الكنيسة ومناصبها ، مستترا فى نيتهم الحسنة فى أن يخصصوا للمصلحة العامة تلك القوة والأهمية اللتين أصبح من واجبهم أن يلتمسوهما لهذا الغرض وحده . وكثيرا ما اقتضت مباشرة وظائفهم أن يكتشفوا أخطاء الهرطقة أو أحابيل الفتنة ، وأن يقاوموا خطط اخوانهم الغدارين ، ويدمغوهم بما يستحقون من عار وفضيحة ، ويخرجوهم من أحضان المجتمع الذى حاولوا أن يكدروا هدوءه وسعادته . وتعلم الحكام الكنسيون المسيحيون أن يجمعوا بين فطنة الثعبان وبراءة الحمام ، ولكن كما صقل ونقح الأول ، فقد أفسد الثانى تقاليد الحكومة ، ففى الكنيسة ، كما فى العالم بأسره ، أضفى الأشخاص الذين تولوا المناصب العامة على أنفسهم أهمية واعتبارا ببلاغتهم وحزمهم ، ومعرفتهم بالجنس البشرى وبراعتهم فى العمل ، وكثيرا ما انتكسوا — فى الوقت الذى أخفوا فيه عن الآخرين ، وربما عن أنفسهم ، البواعث الخفية لسلوكهم — انتكسوا الى الأهواء الطائشة فى خضم الحياة الصاخبة التى اصطبغت بقدر أكبر من المرارة والعناد نتيجة للغيرة الروحية .

وغالبا ما كانت حكومة الكنيسة موضوع الجهاد الدينى وحصيلته ، سواء بسواء فقد كافح جميع المنافسين المعاديين فى روما وباريس واكسفورد وجنيف، ليهبطوا بالمثل الذى ضربه الرسل أو الحواريون(١)، الى مستوى سياسة كل منهم على حدة . وكان من رأى النفر القليل الذين تتبعوا هذا البحث باخلاص ونزاهة ، أن الحواريين رفضوا مهمة

(١) حاولت الفئة الأرستقراطية فى باريس ، وكذلك فى انجلترا ، فى جرأة وحماس أن تحتفظ بالمنشأ الالهى للأساقفة . ولكن شيوخ الكنيسة الكلفينية ضاقوا ذرعا بأى رئيس . أما الحبر الرومانى فلم يعترف بأن له نظيرا .

التشريع وأنهم آثروا أن يعانوا بعض الافتراءات والانقسامات الجزئية، على أن يحرموا المسيحيين فى الأجيال القادمة من حرية تنويع أشكال حكومتهم الكنيسية تبعا لتغير الأزمان والظروف . وربما اكتشف نتيجة للخبرة والمران ، فى أورشليم أو روما أو افيسيس او كورنثة ذلك الأسلوب من السياسة الذى اتبع بموافقتهم (الحواريين) فى القرن الأول . ولم ترتبط المجتمعات التى تكونت فى مختلف مدن الامبراطورية الرومانية الا بروابط الايمان والبر والاحسان فقط . وكان قوام دستورها الداخلى الاستقلال والمساواة . أما حاجتهم من النظام والتعليم الانسانى فكان يزودهم بها « الرسل » الذين كانوا يدعون لهذه المهمة دون تمييز فى العمر أو فى الجنس أو فى القدرات الطبيعية ، والذين كانوا ، كلما أحسوا بالدفع الالهى ، صبوا فيض « الروح » فى جماعة المؤمنين . ولكن هذه المواهب الخارقة كثيرا ما أساء هؤلاء المعلمون الرسوليون استخدامها أو تطبيقها . ذلك أنهم عرضوها فى وقت غير مناسب أو شوهوا خدمة الجماعة فى غطرسة وجراة ، وقد أدخلوا الى الكنيسة الرسولية فى كورنثة بصفة خاصة ، نتيجة لغرورهم وغيرتهم الخاطئة ، سلسلة طويلة من المعايب المحزنة . ولما بات نظام « الرسل » (المعلمين) عقيما غير مجد ، بل ضارا مؤذيا ، سحبت سلطاتهم وألغيت وظائفهم وأسندت الوظائف الدينية العامة الى سدنة الكنيسة الثابتين والى الأساقفة والمشايخ وحدهم ، ويبدو أن هذين اللقبين فى نشأتهما الأولى ، كانا يدلان على نفس الوظيفة ونفس الفئة من الأفراد . وكان اسم « الشيخ » يعبر عن العمر والهيبة والحكمة. أما لقب الأسقف فكان يدل على تفقدهم ايمان وسلوك المسيحيين الذين وضعوا تحت رعايتهم فى أبرشياتهم . وكان يتولى نفر من مشايخ الكنيسة ، يقل أو يكثر تبعا لأعداد المؤمنين نسبيا — توجيه كل جماعة ناشئة بنفس القدر من السلطة ، وبالنصائح الموحدة .

ولكن ذروة اكتمال المساواة فى الحرية تتطلب يدا موجهة لحاكم أعلى ، وسرعان ما يخلق نظام المداولات العامة وظيفة الرئيس الذى يعهد اليه ، على الأقل ، بجمع آراء الجماعة وتنفيذ قراراتها . وحمل المسيحيين الأولين اهتمامهم بالهدوء العم الذى كثيرا ما كان يمكن أن يضطرب نتيجة للانتخابات السنوية أو الطارئة — نقول حملهم على انشاء حكومة محترمة دائمة ، وأن يختاروا من بين المشايخ واحدا من أعقلهم وأقدسهم ليقوم مدى الحياة ، بأعباء حاكمهم الكنسى . ومن هنا بدأ اللقب السامى « أسقف » يرتفع فوق الاسم المتواضع « شيخ » وبينما ظل هذا الأخير أفضل تمييز طبيعى لأعضاء كل مجلس لكبار

المسيحيين ، خصص الأول للدلالة على مقام الرئيس الجديد ومكـــانته . ان مزايا هذا الشكل الكنسى للحكم الذى يبدو أنه ابتدع قبـــل نهـــاية القرن الأول (١) ، كانت واضحة وهامة لعظمة المسيحية فى المستقبل ، ولسلامها فى الوقت الراهن . حتى لقد تبناه ، دون تأخير ، كل المجتمعات التى كانت منتشرة بالفعل فى أرجاء الامبراطورية والتى كانت فى حاجة الى سند من القديم (٢) ، وما تزال تجله أقوى الـكنائس فى الشرق والغرب ، باعتباره مؤسسة بدائية ، بل حتى الهية (٣) .

وليس بنا من حاجة الى القول بأن المشايخ الأتقياء المتواضـــعين الذين كرموا باللقب الكنسى فى البداية ، لم يكن لهم ، وربما أبوا على أنفسهم السلطة والأبهة اللتين تحيطان الآن بتاج الحبر الرومانى ، أو كبير الأساقفة الألمان . ويمكن أن نحدد فى ايجاز الحدود الضيقة لولايتهم التى كانت أساسا ولاية دينية ، ولو أنها كانت فى بعض الأحوال ذات طبيعة دنيوية . وقد انحصرت فى ادارة الأسرار المقدسة ونظام الكنيسة، وفى الاشراف على الاحتفالات الدينية التى زادت وتنوعت بشكــل غير ملحوظ ، ورسامة قسس الأكليروس الذين يحدد الأسقف لكل منهم عمله ، وادارة أموال الكنيسة ، وحسم الخلافات التى لم يكن المؤمنون يريدون طرحها أمام محاكم القضاء الوثنى . وكانت ممارســـة هـــذه الصلاحيات — لفترة قصيرة — تتم وفقا لمشورة رابطة المشـــايخ ، وبموافقة جماعة المسيحيين . واعتبر الأساقفة الأولون فى مكان الصدارة من نظرائهم ، والخدام المكرمين لشعب حر . فاذا خلا كرسى رياســـة الكنيسة اختير رئيس جديد من بين المشايخ بالتصويت العام فى المجتمع، الذى كان يظن كل عضو فيه أنه يتمتع بشخصية مقدسة كهنوتية .

هذا هو الدستور الذى اتسم بالاعتدال والمساواة والذى حـــكم المسيحيين لأكثر من قرن من الزمان بعد وفاة الرسل ، وشكل كل مجتمع فى نطاقه الخاص جمهورية منفصلة مستقلة . ورغم ما كان من الصـــلة

---

(١) انظر مقدمة « أبوكاليبس Apocalypse » (سفر رؤيا يوحنا العهد الجديد) وعين الأساقفة بالفعل فى المدن السبع فى أفريقيا . على أن رسالة كلمنز Clemens (التى يحتمل أنها كانت ذات تاريخ قديم) لم تؤد بنا الى اكتشاف أى آثار لحكومة الكنيسة لا فى كورنثة ولا فى روما .

(٢) كان المعروف أنه لا وجود لكنيسة بدون أسقف ، كان هذا هو الحد الأعلى منذ عهد ترتوليان وايرينوس .

(٣) وبعد اجتياز عقبات القرن الأول ، نجد أن الحكومة الكنسية قد عمت واستقرت حتى قوضت أركانها العبقرية الجمهورية عند المصلحين السويسريين والألمان .

بين أقصى هذه الدويلات الصغيرة بعضها مع بعض ، عن طرق الرسائل أو المندوبين ، فان العالم المسيحى لم يكن بعد مرتبطا بأية سلطة عليا أو جمعية تشريعية . فلما تضاعف عدد المؤمنين تبينوا المزايا التى قد تسود عليهم من وحدة المصلحة والخطط . وفى أواخر القرن الثانى اقتبست الكنائس فى اليونان وآسيا النظم المفيدة ، نظم « السنودس » فى الولايات ، أى مجمع الرؤساء الروحانيين فى كل منها ، والمفروض بحق أنهم استعاروا نظام المجلس التمثيلى من النماذج المشهورة فى بلادهم : مجالس المدن ، أو العصبة الآخية ، أو مجالس المدن الأيونية. وسرعان ما تقرر ، بحكم العادة ، أو كقانون ، أن يجتمع أساقفة الكنائس المستقلة فى عاصمة الولاية فى فترات معينة فى الربيع والخريف . وكانوا يسترشدون فى مداولاتهم بمشورة نفر من المشايخ الممتازين ، كما كان يخفف من حدتها حضور جمهور من المستمعين . وسوت الأوامر العالية التى كانت تصدر عنهم ، والتى كانت تسمى « شرائع » أى خلاف فى العقيدة أو فى النظام . وكان طبيعيا أن يسود الاعتقاد بأن فيضا كريما من « الروح القدس » كان يتدفق على هذه الجمعية المتحدة من وفود الشعب المسيحى . ووائم نظام « المجلس الكنسى » الى حد بعيد ، بين الطمع الشخصى والمصلحة العامة على حد سواء ، مما أدى الى تعميمه فى كل أرجاء الامبراطورية ، فى مدى سنين قلائل . وتبودلت المراسلات بانتظام بين مجالس الولايات التى اتصلت بعضها ببعض ، كما تبادلت التصديق على اجراءات كل منها . وسرعان ما اتخذت الكنيسة الكاثوليكية شكل الجمهورية الاتحادية (الفيدرالية) واكتسبت قوتها .

ولما حلت المجالس محل السلطة التشريعية لكل كنيسة بعينها ، ظفر الأساقفة — بفضل تحالفهم — بنصيب أكبر من السلطة التنفيذية التعسفية وحالما ارتبطوا بوحى من مصلحتهم المشتركة ، أمكنهم ، فى عزم موحد ، أن يتحدوا الحقوق الأصلية لقسسهم وشعبهم ، واستبدل أحبار القرن الثالث بشكل غير ملحوظ لغة الأمر بلغة النصح والتحذير ، وبذروا بذور اغتصاب السلطة فيما بعد ، وعوضوا عن افتقارهم الى القوة والمنطق بمجازات الكتاب المقدس وبالبلاغة الحماسية . وأشادوا بذكر وحدة الكنيسة وقوتها ، ممثلة فى منصب الأسقف ، وقد حظى كل أسقف من هذه الوحدة والقوة بنصيب متساو لا يتجزأ . وكثيراً ما تردد القول بأن فى مقدور الأمراء والحكام أن يباهوا بملك دنيوى عابر : والواقع أن السلطان الأسقفى وحده هو الذى نبع من الاله ، وامتد فوق هذه الحياة وفوق الحياة الآخرة . وكان الأساقفة نواب

المسيح وخلفاء الرسل ، والبديل الخفى للكاهن الأعظم لشريعة موسى ، واجتاح سلطانهم المطلق فى رسم القساوسة حرية الانتخابات الدينية والشعبية على حد سواء ، وحتى اذا ظلوا ، فى ادارة الكنيسة ، يلتمسون رأى المشايخ وميول الشعب ، فانهم فى أكبر عناية وحرص كانوا يقرون فى الأذهان أنهم يفعلون ذلك متفضلين طواعية واختيارا ، واعترف الأساقفة بالسلطة العليا المخولة للجمعية المشكلة من اخوانهم ولكن كل أسقف انتزع — فى حكم أبرشيته الخاصة — من « قطيعه » (شعبه) نفس القدر من الطاعة العمياء ، كما لو كان هذا المجاز المحبوب صادقا بمعناه الحرفى ، وكما لو كان « الراعى » من طبيعة أفضل من طبيعة « غنمه » . ومهما يكن من أمر ، فان هذه الطاعة لم تفرض دون بعض الجهود من جانب ، وبعض المقاومة من الجانب الآخر ، فقد كانت المعارضة الغيورة أو المغرضة من جانب الأكليروس الذين هم أدنى مرتبة تعزز الناحية الديمقراطية فى الدستور تعزيزا كبيرا فى كثير من الأماكن . ولكن وطنيتهم رميت بالنعوت الشائنة المخزية : بالشغب والخروج على الكنيسة ، وكانت قضية سلطان الأسقف مدينة ، فى تقدمها السريع ، لجهود كثير من الأساقفة الجادين الذين استطاعوا — مثل سيبريان القرطاجى — أن يوفقوا بين أفانين أشد رجال السياسة والدولة طمعا ، وبين الفضائل المسيحية التى تبدو مطابقة أو ملائمة لشخصية القديس والشهيد (١) .

ويلاحظ أن نفس الأسباب التى قضت على المساواة بين المشايخ فى البداية ، أضفت على الأساقفة تفوقا فى المنزلة ، ومن ثم سموا فى الولاية والاختصاص . فانهم كلما اجتمعوا فى الربيع والخريف فى سنودس الولاية (مجلس الآباء الروحانيين) شعر أعضاء الجمعية صراحة بالفارق بينهم فى المكانة والسمعة الشخصية ، وسيطرت على الجمع حكمة فئة قليلة من الأعضاء وبلاغتهم . ولكن نظام الاجراءات العامة تطلب تمييزا أكثر تحديدا وأقل اثارة للحقد والبغضاء . وكان نظام الرياسة الدائمة للمجالس فى كل ولاية مقصورا على أساقفة المدينة الرئيسية فيها ، وأعد هؤلاء الأساقفة المتطلعون الذين ظفروا بسرعة على الألقاب الضخمة : مطران العاصمة ، ورئيس الأساقفة — أعدوا أنفسهم سرا ليغتصبوا من رفاقهم فى حكومة الكنيسة نفس السلطة

---

(١) لو لم يكن نوفاتس Novatus وفلتشيسيموس Felicissimus وغيرهما — ممن طردهم أسقف قرطاجة من الكنيسة بل من أفريقية كلها — نقول لو لم يكونوا من أكبر أئمة الشر الممقوتين ، لطغت غيرة سيبريان على صدق روايته فى بعض الأحيان .

التى انتحلها الأساقفة أخيرا فوق رابطة المشايخ ، بل لم يمض وقت طويل حتى عمت المنافسة بين المطارنة أنفسهم فى مجال الاستعلاء والصدارة ، حيث تظاهر كل منهم بابراز الأمجاد والمزايا الدنيوية لمدينته التى يرأسها ، فى أبهى مظاهرها ، وأعداد المسيحيين الداخلين فى نطاق رعايته الكنسية وثرائهم ، والقديسين والشهداء الذين ظهروا بينهم ، والنقاوة التى حافظوا بها على تقاليد العقيدة كما انتقلت على يد سلسلة من الأساقفة الأرثوذكس من الرسل أو التلاميذ الرسوليين الذين ينسب اليهم تأسيس كنيستهم . وكان من السهل التنبؤ بأن روما — من كل الوجوه ، مدنية كانت أو كهنوتية — لابد أن تحظى باحترام الولايات — وأن تطالب بامتثالها جميعا لها . وكان عدد المؤمنين كبيرا الى الحد الذى يتناسب مع عاصمة الامبراطورية العظيمة ، وكانت كنيسة روما أعظم الكنائس وأضخمها عددا ، كما كانت بالنسبة للغرب أقدم المؤسسات المسيحية التى أخذت عنها كثير من هذه المؤسسات ديانتها بفضل الجهود التقية لمبشرى كنيسة روما وارسالياتها . وبدلا من مؤسس رسولى واحد ، وهو أكبر موضع للفخر فى أنطاكية ، أو افسيس ، أو كورنثة ، قيل ان ضفاف التيبر شرفت بوعظ أعظم اثنين من الرسل واستشهادها ، وادعى أساقفة روما أنهم وريثو كل المزايا المنسوبة الى شخص القديس بطرس أو الى منصبه (١) . وكان أساقفة ايطاليا والولايات يميلون الى أن يسمحوا لهم (لأساقفة روما) بالأولوية وبهذه المشاركة (وهذا هو نص تعبيرهم) فى الارستقراطية المسيحية . اما سلطة ولى الأمر فقد رفضت فى مقت شديد ، حيث عانت روح روما الطامحة من أمم آسيا وأفريقية مقاومة أشد لسلطانها الروحى منها لسلطانها الدنيوى . فان سبريان المحب لوطنه ، والذى تحكم فى كنيسة قرطاجة والمجالس الكنسية (Synods) فى الولايات بأكبر تسلط مطلق ، عارض بكل قوة ونجاح طمع الحبر الرومانى ، وربط فى دهاء بين قضيته وبين قضية الأساقفة الشرقيين ، وسعى — كما فعل هانيبال — الى كسب حلفاء جدد فى قلب آسيا . واذا كانت هذه الحرب البونية (حرب قرطاجة) قد استمرت دون اراقة دماء ، فان هذا يرجع الى ضعف الأساقفة المتنازعين أقل

---

(١) ان الاشارة المشهورة الى اسم القديس بطرس مضبوطة فى اللغة الفرنسية فقط حيث يقول المسيح لبطرس (و Pierre معناها بالفرنسية صخرة) : « وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى ... » (انجيل متى ١٦/١٨) . ونفس المعنى غير دقيق فى اللغات اليونانية والايطالية واللاتينية وغيرها . وغير مفهوم أطلاقا فى اللغات التيوتونية .

كثيرا مما يرجع الى اعتدالهم . فقد كان القدح والحرمان من الكنيسة أسلحتهم الوحيدة التى شهروها فى وجه بعضهم بعضا طيلة احتدام النزاع ، بنفس القدر من العنف والحماس . وان الضرورة المريرة التى اقتضت يوماً لوم أحد البابوات أو القديسين أو الشهداء لتبعث الأسى فى نفوس الكاثوليك الحديثين عندما يضطرون الى سرد تفاصيل هذا النزاع الذى انغمس فيه أبطال الكنيسة فى مثل هذه الأهواء التى هى أليق بمجلس للسناتو أو بمعسكر للجيش .

وقد نشأ عن نمو سلطان الكنيسة ذلك التمييز الذى لا ينسى ، من حيث تقسيم الناس الى علمانيين واكليروس ، ذلك التفريق الذى لم يكن معروفا لدى الاغريق والرومان (١) وكانت التسمية الأولى تشمل كل الشعب المسيحى بأسره ، أما التسمية الثانية — طبقا لمعنى اللفظ — فقد أطلقت على الفئة المختارة التى أفردت لخدمة الدين ، وهم الطائفة المشهورة من الرجال الذين قدموا للتاريخ الحديث أهم الموضوعات ، وان لم تكن فى كل الأحوال أكثرها تهذيبا وتثقيفا . وقد أقلقت عداواتهم المتبادلة فى بعض الأحيان هدوء الكنيسة الناشئة ، ولكن غيرتهم ونشاطهم اتحدا فى مجال الصالح العام ، وحفزهم حب السلطة الذى أستطاع أن يتسلل الى قلوب الأساقفة والشهداء (تحت أشد الأقنعة دهاء واحتيالا) الى الاكثار من عدد رعاياهم ، والى توسيع حدود الامبراطورية المسيحية . وكانوا مجردين من أية قوة دنيوية ، وظل الحكام المدنيون لفترة طويلة ، يثبطون هممهم ويضيقون الخناق عليهم ، أكثر من أن يعاونوهم ، ولكنهم اكتسبوا ، واستخدموا ، فى نطاق مجتمعهم ، اثنتين من أشد أدوات الحكم فعالية : الثواب والعقاب : الأول من سخاء المؤمنين النابع من تقواهم ، والثانى من مخاوفهم المنبثقة من خشوعهم وورعهم .

١ — اقتبست الكنيسة البدائية الأولى ، لفترة قصيرة ، فكرة المشاركة العامة فى طيبات الحياة ، تلك الفكرة التى داعبت خيال أفلاطون وطابت لها نفسه ، والتى عاشت بدرجة ما ، بين طائفة « الأسينيين » المتشددة Essenians ، ولقد هزت الحمية المهتدين الأولين فباعوا كل ما يملكون من المتاع الدنيوى الذى احتقروه ، ووضعوا ثمنه تحت أقدام الرسل ، وقنعوا بنصيب متساو منه عند التوزيع العام ، ولكن تقدم الديانة المسيحية عوق وأبطل شيئا فشيئا هذا السنن الكريم ،

---

(١) نشاهد التفريق بين العلمانية والدينية قبل عصر ترتوليان .

الذى كان لابد من أن تفسده وتسىء استغلاله سريعا جدا عودة الأنانية المركبة فى الطبيعة البشرية ، اذا وضع بين أيد أقل نقاوة وطهرا من أيدى الرسل . ورخص للمرتدين الذين اعتنقوا الدين الجديد فى الاحتفاظ بآرائهم ، وتسلم التركات والميراث ، وزيادة أملاك الزوجة بكل الوسائل المشروعة فى التجـارة والصناعـة . وبدلا من التضحية المطلقة أخذ التساوى نسبة معتدلة . وفى الاجتماعات الأسبوعية او الشهرية كان كل مؤمن يقدم طائعا مختارا — تبعا لمقتضى المناسبة ولدرجـة ثرائه وتقواه — ما تجود به نفسه لخدمة الصندوق العام . ولم يكن اى شىء يرفض مهما كان تافها ، ولكنهم دأبـوا على تلقين الناس أن ركـن « العشور » (أو مادة الزكاة) فى شريعة موسى لا يزال يشكل التزاما الهيا ، وأنه اذا كان اليهود فى ظل نظام أقل كمالا قد أمروا أن يدفعـوا عشر ما يمتلكون ، فالأولى بتلاميذ المسيح أن يميزوا أنفسهم بدرجـة أعلى من السخاء ، وأن يظفروا بفضل النزول عن فائض ثروتهم التى سرعان ما تفنى بفناء الدنيا نفسها (١) . وقد لا تدعو الضرورة الى القول بأن دخل كل كنيسة بعينها ، ذلك الدخل غير المحقق المتقلب ، لابد أنه كان يختلف تبعا لفقر أو غنى المؤمنين الذين انتشروا فى القرى المغمورة أو تجمعوا فى المدن الكبيرة . وكان من رأى بعض الحكام فى عهد الامبراطور دسيوس Decius أن المسيحيين فى روما امتلكوا ثروة طائلة ، وأنهم استعملوا فى عبادتهم أوانى من الذهب والفضة ، وأن كثيرا من المهتدين باعوا أراضيهم وبيوتهم ليزيدوا فى الثروة العـامة للطائفة . وأن هذا فى الواقع على حساب أطفالهم البؤساء الذين وجدوا أنفسهم متسولين لأن آباءهم كانوا قديسين ، ويجدر بنا أن نستمع فى ارتياب الى اتهامات الغرباء والأعداء ، بيد أنها فى هذه المناسبة ، على اية حال ، تتسم ظاهريا بالصحة والاحتمال ، الى حد بعيد ، كما يتبين من الحالتين الآتيتين ، وهما الوحيدتان اللتان وصلتا الى علمنا ، واللتان تحددان مبالغ دقيقة أو تعطيان فكرة واضحة . فقد جمع أسقف قرطاجة ، حوالى هذه الفترة تقريبا ، من مجتمع أقل ثراء من مجتمع روما مائة الف قطعة من العملة الفضية (أكثر من ثمانمائة وخمسين جنيها استرلينيا) ، فى نداء عاجل للبر واحسان لاغاثة الاخـوة فى نوميديا ، الذين وقعوا أسرى فى أيدى برابرة الصحراء . وقبل عهد دسيوس بنحو مائة عام ، تلقت كنيسة روما دفعة واحدة هبة قدرها مائتا ألف قطعة (اى ضعف المبلغ السابق) من أحد الغرباء فى بنطس ، أراد

(١) ساد نفس الرأى حوالى سنة ١٠٠٠ م ، وترتبت عليه نفس النتائج . وكانت كل الهبات تقدم بدافع « أن العالم قد اقتربت نهايته » .

ل يتخذ العاصمة مقرا له . وكانت هذه القرابين ، فى معظمها ، نقدا ، لأن المجتمع المسيحى لم يكن راغبا ، بل لم يكن قادرا ، بدرجة كبيرة ، على احتمال عبء الممتلكات العقارية ، فقد اشترطت عدة قوانين سنت على نسق نظام الوقف عندنا ، الا تمنح أية ضياع حقيقية لأية هيئة دون امتياز خاص أو اجازة معينة من الامبراطور أو السناتو ، اللذين قلما اتجها الى منحها لمصلحة طائفة كانت فى البداية موضع احتقارهما ، وفى النهاية مثار خوفهما وحقدهما ، وقيل على أيـة حال ، بأنه فى عهد اسكندر سيفيروس تمت صفقة يتبين منها ان الحظر قد أمكن أحيانا التخلص منه ،أو عطل ، وأنه قد رخص للمسيحيين فى امتلاك الأراضى خارج حدود روما . وساعد تقدم المسيحية واضطراب الأحوال المدنية فى الامبراطورية ، على الارخاء من قبضة القوانين ، ووهبت ، حوالى نهاية القرن الثالث ، ضياع كبيرة كثيرة للكنائس الغنيـة فى رومـا وترطاجه وأنطاكية والاسكندرية ، وغيرها من المدن الكبرى فى ايطاليا وفى الولايات .

وكان الأسقف هو الرئيس الطبيعى لسدنة الكنيسـة ، وكان هو المتصرف فى الموارد العامة للكنيسة دون حسيب او رقيب . واقتصر المشايخ على المهام الروحية ، أما فئة الشمامسة ، وهم التابعون الأدنى درجة ، فكانوا يستخدمون فقط فى ادارة دخل الكنيسة وتوزيعه . واذا جاز لنا أن نصدق تصريحات سبريان العنيفة لقلنا معه انه كان من بين الأخوة الأفريقيين كثيرون ممن دنسوا ، أثناء تأدية وظائفهم ، لا كل نواميس الكمال فى الانجيل فحسب ، بل كل جوانب الفضائل الأخلاقية كذلك . فان بعض هؤلاء السـدنة المؤمنين بددوا أمـوال الكنيسة فى صنوف الملذات الشهوانية ، كما انحرف بها بعضهم الى أغراض الكسب الخاص ، والى صفقات الشراء المزورة ، والى عمليات الربا الفاحش . ولكن لما كانت تبرعات الشعب المسيحى حرة مطلقة ، فمن المتوقع أن سوء استغلالهم لم يتكرر كثيرا . كما أن المنافع العامة التى نبعت من سخائهم عكست على المجتمع الدينى شرفا ونبلا . واحتفظ بنصيب متواضع لاعالة الأسقف ومعاونيه من الأكليروس ، وخصص مبلغ كاف لنفقات العبادة العامة ، وكان من بينها أعيـاد المحبة والاحباب (كما كانوا يسمونها) وكانت تشكل جانبا سارا . أما الجزء الباقى فكان هبة مخصصة للفقراء موقوفة عليهم ، ترك التصرف فيه لحكمة الأسقف ، من أجل اعانة الأرامل واليتامى والعرج والمرضى والعجائز فى المجتمع ، ومساعدة الغرباء والحجاج ، وتخفيف ويلات المسجونين والأسرى ، وخاصة اذا كانت متاعبهم ناجمـة عن استمساكهم بعروة

الدين . ولقد وحد بين أقصى الولايات بعضها بعضا رباط كريم من البر والاحسان ، وكانت أصغر المجامع تتلقى المساعدات عن طيب خاطر من صدقات اخوانهم الذين هم أكثر يسارا . وأدى مثل هذا النظام الذى عنى بأهلية الشخص أقل منه ببؤسه أو محنته ، الى تقدم المسيحية ، ومن ثم نرى الوثنيين الذين كانت تعتمل فيهم معان انسانية ، يعترفون بروح البر والخير فى الطائفة الجديدة (١) على حين كانوا يسخرون من عقائدها . وجذب الأمل فى المعونة العاجلة وفى الرعاية الآجلة الى أحضانها الكريمة كثيرا من التعساء الذين ربما تركهم اغفال الدنيا لهم فريسة للفاقة والمرض والشيخوخة . وهناك أيضا ما يحمل على الاعتقاد بأن عددا كبيرا من الأطفال الذين كان آباؤهم يعرضونهم للموت — طبقا للعادة غير الانسانية التى كانت سائدة فى ذلك العصر — كانوا كثيرا ما ينقذون ويعمدون ويعملون ، ويعيشون بفضل تقوى المسيحيين وعلى حساب الأموال العامة (٢) .

٢ — من الحقوق المقررة التى لا نزاع فيها أنه يمكن لكل مجتمع أن يستبعد من نطاقه ومن مزاياه الأعضاء الذين يرفضون أو يتعدون القواعد التى استقرت وتركزت برضا من الناس عامة . وفى ممارستها لهذا الحق ، كانت الكنيسة المسيحية تنزل عقابها أساسا بمرتكبى الخطايا الفاضحة ، وبخاصة الآثمين الذين ارتكبوا جرائم القتل أو التدليس أو الدعارة ، وبمبتدعى أو معتنقى آراء الهرطقة التى كانت تدينها حكومة الكنيسة ، وبأولئك التعساء الذين دنسوا أنفسهم ،طوعا أو كرها بأية طقوس وثنية بعد تعميدهم . وكانت عواقب « الحرم » أى الحرمان من الكنيسة ذات طبيعة دنيوية وروحية فى وقت معا . حيث كان المسيحى الذى يصدر عليه هذا الحكم يحرم من الاشتراك فى عبادات المؤمنين وقرابينهم ، وتقطع العلاقات الدينية والخاصة معه . ومن ثم وجد نفسه شيئا دنسا يمقته الأشخاص الذين كان يكن هو لهم أعظم التقدير ، أو الذين كانوا يحبونه أشد الحب ، وبقدر ما كان الطرد من مجتمع محترم يدمغه بالخزى والعار كان الجنس البشرى عامة يعرض عنه ويرتاب فيه . وكان موقف هؤلاء المبعدين المنكودين أليما

---

(١) يبدو أن جوليان شعر بالمذلة والهوان لأن الصدقات المسيحية لم تكن قصرا على الفقراء الغرباء كذلك .

(٢) هذا هو ـ على الأقل ـ السلوك المحمود للارساليات الحديثة ، تحت نفس الظروف فان أكثر من ثلاثة آلاف طفل سنويا يتعرضون للموت فى شوارع بكين . (المعروف أن هذا كتب فى القرن الثامن عشر ، وليت جيبون يعيش الآن ليرى بعينى رأسه كيف تبدلت الأحوال فى بكين بالذات) ـ (المترجم) .

محزنا فى حد ذاته ، ولكن مخاوفهم كانت — كما يحدث عادة — تفوق آلامهم . فان مغانم الجماعة المسيحية كانت خالدة أبدية . ولن تمحى من الأذهان تلك الفكرة الرهيبة ، تلك هى أن الله قد أودع مفاتيح الجحيم والجنة فى أيدى هؤلاء الحكام الكنسيين الذين أصدروا عليهم الحكم بالادانة والابعاد . وحقا حاول الهراقطة — مقتنعين بصواب مقاصدهم ، أو يحدوهم الأمل الموهوم بأنهم هم وحدهم الذين اكتشفوا الطريق الصحيح للخلاص — حاولوا أن يستعيدوا — عن طريق جمعياتهم المستقلة — الراحة ، الدنيوية والروحية ، التى لم يعودوا يستمدونها من المجتمع المسيحى الأكبر ، ولكن معظم الذين استسلموا كرها لسلطان الرذيلة وعبادة الأصنام ، أدركوا سوء حالتهم ، وتلهفوا على العودة الى مزايا الجماعة المسيحية .

وهناك ، فيما يتعلق بهؤلاء التائبين النادمين ، رأيان توزعت بينهما الكنيسة الأولى ، أولهما طابعه العدالة ، ويتسم ثانيهما بالرحمة . أما أهل الفتوى القساة المتشددون الذين لا تلين قلوبهم ، فقد أبوا عليهم ، الى الأبد ودون استثناء ، أحقر مكان فى رحاب الجماعة المقدسة التى امتهنوها أو هجروها ، وتركوهم لعذاب الضمير الآثم ، ولم يتسامحوا معهم الا فى بريق باهت من الأمل فى أنه يمكن أن يتقبل « الكائن الأعظم » (١) توبتهم وتذللهم فى حياتهم ومماتهم . ولكن أطهر الكنائس المسيحية وأكثرها احتراما اعتنقت عمليا ونظريا ، فكرة أكثر اعتدالا ، فان أبواب الوفاق والمصالحة ، وأبواب السماء قل أن توصد فى وجه التائب المنيب ، ولكنهم ابتدعوا نظاما قاسيا رهيبا ، قد يؤدى الى محو جريمته ، ولكنه فى نفس الوقت يردع الناس بشدة عن الاقتداء به ، ذلك أن هذا التائب المنيب — بعد أن يعترف أمام الملأ اعترافا يستشعر معه الاذلال ، ويصوم الى حد الضعف والهزال ، مرتديا أسمالا من الخيش — كان بعد هذا كله يخر ساجدا على الأرض أمام أبواب الكنيسة يتوسل بالدموع لغفران ذنبه ، ويلتمس صلوات المؤمنين من أجله (٢) . واذا كان الجرم فظيعا ، لم تكن السنوات الطوال من التوبة تعد كافية لارضاء « العدالة الالهية » . وكان المذنب أو الهرطيق ، أو المارق ، يعاد دائما الى أحضان الكنيسة بعد هذه السلسلة البطيئة الأليمة من التكفير . واحتفظ بالحكم بالحرمان الدائم

(١) وجد المنتانيون (أتباع مونتانوس Montanus فى القرن الأول) والنوفاشيانيون (أتباع نوفاشيدس Novachides فى القرن الثالث) — الذين اعتنقوا هذا الرأى فى ضراوة وعناد — وجدوا أنفسهم فى النهاية فى عداد الهراطقة المحرومين من الكنيسة .

(٢) يأسف المعجبون بالقديم على زوال هذه الكفارة .

لبعض الجرائم الفظيعة الى حد خارق للعادة ، وبصفة خاصة الانتكاسات التى لا تغتفر من هؤلاء التائبين الذين جربوا وأساءوا استغلال رفق رؤسائهم الكنسيين . واختلف تطبيق هذا النظام المسيحى تبعا لحكمة الأساقفة ، ووفقا لظروف الآثمين وعددهم . وكان مجلس أنسيرا Ancyra والاليبرس Illiberis يعقدان فى نفس الوقت تقريبا الواحد منهما فى غلطية والثانى فى اسبانيا ، ولكن قراراتهما — الموجودة حتى الآن ، يبدو أنها مختلفة فى روحها . فان ابن غلطية الذى تكرر منه تقديم القرابين الى الأوثان بعد تعميده ، كان يمكنه أن يظفر بالغفران بعد سبع سنين من التكفير والتوبة ، أما اذا أغرى غيره بالاقتداء به ، أضيفت الى مدة الحرمان ثلاثة أعوام أخر . أما الأسبانى المنكود الذى ارتكب نفس الخطيئة ، فقد حرم من الأمل فى المصالحة حتى فى لحظة الموت . ووضعت وثنيته على رأس قائمة تحتوى على سبع عشرة خطيئة كان يصدر عليها حكم لا يقل رهبة عن هذا ، ويمكن أن نميز بينها الجرم الذى لا يغتفر ، وهو الطعن فى الأسقف أو الشيخ أو حتى الشماس .

ان هذا المزيج الذى أحسن تركيبه من السخاء والصرامة ، وهذا المنهج القويم من الثواب والعقاب ، قد شكلا — وفقا لمقاييس السياسة والعدالة سواء بسواء — القوة الانسانية فى الكنيسة . فان الأساقفة الذين بسطوا رعايتهم الأبوية على الحياتين الأولى والآخرة ، كانوا يدركون أهمية هذه الامتيازات ، وكانوا — وهم يسترون أطماعهم بادعائهم اللطيف محبة الطائفة — يحقدون على كل من ينافسهم فى تطبيق مثل هذا النظام الضرورى لمنع ارتداد هذه الجموع التى انضوت تحت راية الصليب ، والتى كانت أعدادها تتزايد يوما بعد يوم . ومن الطبيعى أن نخلص من خطابات سبريان المؤثرة المتشددة الى أن نظريتى الحرمان والتكفير كانتا أهم جزء أساسى فى الديانة . وأنه كان أقل خطرا على تلاميذ المسيح أن يهملوا فى أداء الواجبات المعنوية من أن يحتقروا عقاب أساقفتهم أو سلطانهم . وقد نتصور أحيانا أننا انما نصغى الى صوت موسى حين أمر الأرض أن تنشق وتبتلع فى سعيرها المهلك أولئك المتمردين الذين رفضوا الامتثال لكهنة هرون ، وأحيانا يجدر بنا أن نفترض أننا سمعنا صوت قنصل رومانى يؤكد عظمة الامبراطورية ، ويعلن عن عزمه الأكيد الذى لا ينثنى على فرض صرامة القوانين . « اذا أجيز هذا الاعوجاج دون عقاب أو حساب . . » . (هكذا يؤنب أسقف قرطاجة زملاءه لرفقهم ورقتهم) ، « اذا أجيز هذا الاعوجاج ، فسوف يكون في هذا نهاية قوة الأساقفة وعزمهم ، ونهاية للسلطة

الالهية السامية فى حكومة الكنيسة ، ونهاية المسيحية نفسها » . وربما نبذ سبريان هذه الأمجاد الدنيوية التى كان من المحتمل الا يحصل عليها قط ، ولكن اكتساب السيطرة على ضمائر المجمع وادراكه — مهما كان صغير الشأن أو موضع احتقار العالم — أصدق ارضاء لغرور النفس البشرية ، من تملك أكبر سلطة مطلقة استبدادية تفرضها قوة السلاح والغزو على شعب أبى كاره .

لقد حاولت فى هذا البحث الهام ، رغم أنه ربما كان شاقا ، أن اعرض الأسباب الثانوية التى عاونت معاونة فعالة على سلامة تعاليم الدين المسيحى ، واذا نحن اكتشفنا بين هذه الأسباب شيئا من الزخارف المصطنعة أو الظروف الطارئة أو المزيج من الخطأ والهوى ، فليس هناك ما يدعو الى العجب من أن يتأثر الجنس البشرى وطبيعته الناقصة بهذه البواعث ، تأثرا بالغا محسوسا ، فقد بسطت المسيحية اجنحتها بنجاح كبير ، على الامبراطورية الرومانية نتيجة لهذه الأسباب : الغيرة المطلقة ، الترقب العاجل المباشر للحياة الآخرة ، دعوى المعجزات ، ممارسة الفضيلة الصارمة ، انشاء الكنيسة الأولى . وكان المسيحيون مدينين لأول هذه الأسباب ببأسهم الشديد الذى لا يغلب والذى احتقر أن يذعن للعدو الذى صمموا على قهره . أما الأسباب الثلاثة التالية فقد أمدت شجاعتهم بأقوى الأسلحة . أما آخر هذه الأسباب ، فانه وحد قلوبهم ، وسدد أسلحتهم ، وأضفى على جهودهم هذا الوزن الثقيل الذى لا يقاوم ، والذى غالبا ما تفوقت به فئة قليلة من المتطوعين الشجعان الذين أحسن تدريبهم ، على حشد كبير سيىء النظام جاهل بالموضوع غير مكترث بقيام الحرب . ومن بين مختلف ديانات الشرك ، ربما كان بعض المتعصبين المتجولين فى مصر وسوريا — ممن أسلموا انفسهم للخرافة الساذجة السائدة بين السكان — هم الفئة الوحيدة من الكهنة الذين استمدوا العون والسطوة من مهنتهم الكهنوتية ، وكانوا متأثرين من الأعماق باهتمامهم الشخصى بسلامة أو رخاء معبوداتهم الحارسة . أما كهنة المشركين فى روما وفى الولايات ، فقد كانوا ، فى الكثير الغالب ، رجالا من أصل نبيل ، ذوى ثراء وافر ، تقبلوا مهمة العناية بمعبد مشهور ، أو قربان عام ، على انها امتياز مشرف ، وكثيرا ما عرضوا ، على حسابهم الخاص ، بعض الألعاب المقدسة واقاموا فى استهتار وفتور الطقوس القديمة ، طبقا لقوانين بلادهم واسلوبها ، ولما كانوا مشغولين بمهام الحياة العادية ، فقلما اثار غيرتهم واخلاصهم أى لون من الوان المصلحة ، أو أية سجايا ذات طابع كهنوتى . وقبع كل منهم فى معبده أو مدينته ، فظلوا دون أن

يرتبطوا بأى رباط من روابط النظام أو الحكومة . وفى الوقت الذى اعترفوا فيه بالسلطة العليا للسناتو ومجمع الأحبار والامبراطور ، كان هؤلاء الحكام المدنيون يقنعون بالمهمة اليسيرة ، الا وهى الابقاء على العبادات العامة للناس فى هدوء ووقار . وقد رأينا بالفعل كم كانت العواطف الدينية لدى المشركين متباينة ، مفككة ، غامضة ، فقد تركوا بلا ضابط تقريبا للأوهام الخرافية وأماعيل الطبيعة . وقد حددت الظروف الطارئة ومراكزهم هدف اخلاصهم ودرجته . وطالما كانت عبادتهم نهبا مباحا لألف من المعبودات على التعاقب ، فقد قل أن مس واحد منا شغاف القلب ، أو نفذ الى أعماق النفس .

الظروف المواتية لتقدم المسيحية

وفى الوقت الذى ظهرت فيه المسيحية فى العالم ، كانت حتى هذه الانطباعات الباهتة المعيبة قد فقدت قوتها الأصلية ، فان العقل البشرى، القادر بقوته وحدها على ادراك خفايا العقيدة ، كان قد انتصر فى سهولة ويسر على حماقة الوثنية . واضطر ترتوليان ولكتانتيوس ، عندما بذلا الجهود فى فضح زيفها وسرفها ، الى اقتباس فصاحة شيشرون أو حصافة لوشيان . وانتقلت عدوى هذه الكتابات الملحدة الى محيط أبعد كثيرا من محيط قرائها . وانتقلت بدعة الشك أو عدم التصديق من الفيلسوف الى رجل الملذات أو الأعمال ، ومن النبلاء الى العامة ، ومن السيد الى العبد الوضيع خادم مائدته الذى أنصت فى لهفة الى حرية سيده فى الحديث . وتظاهر الفلاسفة فى المناسبات العامة بالنظر بعين الاحترام والوقار الى النظم الدينية فى بلادهم .ولكن احتقارهم الخفى كان ينفذ من خلال القناع الرقيق ، وحتى الناس أنفسهم — عندما تبينوا أن معبوداتهم كانت موضع استنكار وسخرية لدى الفئة التى درجوا على تبجيلها لعلو مكانتها وحسن ادراكها — امتلأت نفوسهم بالشكوك والمخاوف ازاء تلك المعتقدات التى ظلوا لها عاكفين فى ايمان ثابت . وبانهيار الآراء القديمة تعرض الجزء الأكبر من الجنس البشرى لموقف أليم ممض ، وقد تتلهى وتتسلى بعض العقول الفضولية الكثيرة التساؤل بحالة الشك والتردد هذه . ولكن ممارسة الخرافة أمر محبب الى جمهرة الناس ، الى حد أن ايقاظهم عنوة يظل يثير فى نفوسهم الأسف لفقدانهم هذه الرؤية البهيجة السارة . وكان حبهم لكل ما هو غريب وخارق للطبيعة ، وحبهم لاستطلاع الحوادث المستقبلة ، ونزعتهم القوية الى الامتداد بآمالهم ومخاوفهم الى ما وراء

حدود العالم المرئى — هى الأسباب المواتية لتثبيت دعائم الشرك وتعدد الآلهة . وكانت حاجة الرجل الهمجى الى العقيدة تلح عليه الحاحا يغدو معه من أقرب الاحتمالات أن يحل طراز جديد من الخرافة وشيكا محل أية أساطير تندثر . وربما احتلت بسرعة بعض المعبودات التى هى من طراز أحدث وأكثر جدة معابد جوبيتر وأبولو المهجورة اذا لم تكن حكمة « العناية الالهية » قد اقحمت فى اللحظة المناسبة تنزيلا أصيلا صالحا يوحى بأعظم التقدير والاقتناع المعقولين ، وازدانت فى نفس الوقت بكل ما يثير فضول الناس ودهشتهم وينتزع احترامهم . ولما كان كثير من الناس متحررين تقريبا من تحيزاتهم المصطنعة ، ولكنهم بنفس القدر شديدو الحساسية والرغبة فى اعتناق مذهب جديد اعتناقا مخلصا ، فربما كان أى شىء كافيا ، ولو كان أقل جدارة واستحقاقا، فى غمرة هذا الاستعداد الفعلى ، نقول كافيا لملء الفراغ فى قلوبهم ، ولتسكين هذا القلق المرتاب فى مشاعرهم . وقد يعجب الذين يميلون الى تتبع هذه الفكرة من أن نجاح المسيحية ظل أقل سرعة وانتشارا ، بدلاً من أن يدهشوا لتقدمها السريع .

وقد أثيرت ملحوظة صادقة قدر ما هى لائقة ، تلك هى أن فتوح روما قد مهدت السبيل وسهلت فتوح المسيحية . وقد حاولنا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب أن نوضح كيف أن أعظم الولايات حضارة فى أوربا وآسيا وافريقية توحدت فى ظل ملك واحد ، وأنها ارتبطت ، على مر الأيام ، بأوثق روابط القوانين والسلوك واللغة . وقد استقبل يهود فلسطين الذين ترقبوا فى لهفة وشغف مخلصا دنيويا ، استقبلوا بفتور شديد معجزات النبى المرسل ، الى حد أنهم لم يجدوا ضرورة لنشر انجيل بالعبرية ، أو على الأقل ، الاحتفاظ به . وكتبت التواريخ الموثوقة لأعمال المسيح باللغة اليونانية ، على مسافة بعيدة من أورشليم ، وبعد ان زاد الى حد كبير عدد الأمميين الذين اهتدوا الى المسيحية . وحالما ترجمت هذه التواريخ الى اللاتينية باتت واضحة مفهومة لرعايا روما ، فيما عدا فلاحى سوريا ومصر الذين كتبت من أجلهم ترجمات خاصة فيما بعد . ومهدت الطرق العامة التى كانت قد أنشئت لخدمة القوات الرومانية سبيل المبشرين المسيحيين من دمشق الى كورنثة ، ومن ايطاليا الى أقصى الأرض فى اسبانيا أو بريطانيا ، ولم يواجه هؤلاء الغزاة الروحيون أيا من العقبات التى قد تؤجل أو تعوق عادة دخول دين جديد الى بلاد نائية . وهناك من اقوى الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأنه قبل عصر دقلديانوس وقسطنطين ، كان التبشير بعقيدة المسيح يجرى فى كل ولاية وفى كل المدن الكبرى فى الامبراطورية ، ولكن تأسيس

المجامع الكثيرة والأعداد التى تألفت منها . ونسبتها الى جمهور غير المؤمنين — كل أولئك محوط بالغموض أو تائه وسط الخيال والحماس. وسنعمد الآن الى سرد هذه الظروف المبتورة ، كما وصلت الى علمنا على أية حال فيما يتعلق بانتشار المسيحية فى آسيا واليونان ، ومصر ، وايطاليا والغرب ، دون أن نغفل المكاسب الحقيقية أو الخيالية فيما وراء حدود الامبراطورية الرومانية .

وكانت الولايات الغنية الممتدة من نهر الفرات الى البحر الأيونى، هى المسرح الرئيسى الذى عرض عليه رسول الأمميين غيرته وتقواه . وقد تعهد تلاميذه ، فى جد ونشاط ، بذور الانجيل التى كان قد غرسها فى هذه التربة الخصبة ، ويبدو أن هذه المنطقة ، فى القرنين الأولين ، كانت تضم الجزء الأكبر من المسيحيين .ومن بين المجتمعات التى أنشئت فى سوريا ، لم يكن هناك مجتمعات أقدم أو أسمى من المجتمعات التى أنشئت فى دمشق وحلب وأنطاكية ، وقد وصفت المقدمة الرســولية لسفر الرؤيا (رؤيا يوحنا اللاهوتى — العهد الجديد) كنائس آسيا السبع وخلدتها : « افسس ، ازمير ، برجامس ، ثياتيرا ، سارديس ، لاودكيا ، فيلادلفيا » . وسرعان ما انتشرت مستعمراتها فى هذه البلاد الآهلة بالسكان . وفى فترة مبكرة جدا استقبلت جزيرتا قبرص وكريت وولايتا تراقيا ومقدونيا الدين الجديد استقبالا طيبا ، وأسست فى الحال جمهوريات مسيحية فى مدن كورنثة وأسبرطة وأثينا ، والحق أن قدم الكنائس فى اليونان وآسيا هيأ لها فسحة من الوقت للنمو والتكاثر . بل ان جماعات الغنوصيين وغيرهم من الهراطقة لتفيد فى تبيان مظاهر الانتعاش فى الكنيسة الأرثوذكسية ، حيث كان لفظ الهراطقة يطلق دائما على الفئة التى هى أقل عددا . ويمكن أن نضيف الى هذه الشواهد المحلية اعتراف الأمميين أنفسهم وشكاواهم ومخاوفهم . فمن كتابات لوشيان — وهو فيلسوف درس الجنس البشرى ووصف أحواله فى أجلى بيان — يمكن أن نستخلص أن وطنه — بلاد بنطس — كان يعج ، على عهد كومودس ، بالابيقوريين ، و « بالمســيحيين » . وبعــد ثمانين عاما من موت المسيح كتب السياسى الرومانى الخير « بلينى » (٦٢ — ١١٣) يرثى لتفاقم السيئات التى حاول سدى أن يمحوها ، فهو يؤكد فى رسالته العجيبة الى الامبراطور تراجان ، أن المعابد كادت تصبح مهجورة ، وأن الضحايا المقدسة تكاد لا تجد من يشتريهــا ، وأن الخرافة (يقصد العقيدة المسيحية) لم تقتصر عدواها على المدن ، بل جاوزتها الى القرى والريف فى بلاط بنطس وبيثينيا .

والملحوظ بصفة عامة ، ولو لم ندقق النظر في تعبيرات أو في بواعث هؤلاء الكتاب الذين يشيدون بتقدم المسيحية في الشرق أو يرثون لها ، أن أحدا منهم لم يترك لنا أسسا يمكن أن يستخلص منها تقدير عادل للعدد الحقيقى للمؤمنين فى تلك الولايات . وبقيت لحسن الحظ حالة واحدة يبدو أنها قد تلقى ضوءا أكثر ايضاحا على هذا الموضوع الغامض الهام . ذلك أنه فى عهد تيوديسيوس ، وبعد أن تمتعت المسيحية لمدة تزيد على ستين عاما بدفء العطف الامبراطورى ، بلغ عدد شعب الكنيسة القديمة اللامعة فى أنطاكية مائة ألف شخص ، عاش منهم ثلاثة آلاف على الهبات العامة . وقد تكون أبهة ملكة الشرق وعظمتها ، واكتظاظ السكان المعترف به فى قيصرية وسلوقية (مدينة على الفرات) والاسكندرية ، وهلاك مائتين وخمسين ألفا من الأنفس بفعل الزلزال الذى أصاب أنطاكية أيام جوستين الأكبر — قد يكون كل أولئك عوامل كثيرة تقنع بأن مجموع سكانها لم يكن يقل عن نصف مليون ، وأن المسيحيين ، مهما تكاثر عددهم نتيجة الغيرة والسلطة ، لم يتجاوزوا خمس أهل هذه المدينة العظيمة (أنطاكية) . وكم تختلف النسبة التى يجب أن نأخذ بها عندما نقارن بين المضطهدين وبين الكنيسة الظافرة ، وبين الشرق والغرب ، وبين القرى الصغيرة والمدن الآهلة ، وبين الأقطار التى تحولت حديثا الى العقيدة وتلك التى كان المؤمنون فيها فى طليعة من حظوا باسم « المسيحيين » ! على أنه يجوز الا نغفل أن كريسستوم Chrysostom (أحد آباء الكنيسة فى أنطاكية فى القرن الرابع) ، ونحن مدينون له بهذه المعلومات المفيدة — قدر فى فقرة أخرى أن عدد المسيحيين كان يفوق حتى عدد اليهود والوثنيين . ولكن تذليل هذه الصعوبة الظاهرة ميسور واضح : فان الواعظ الفصيح قارن بين الدستور الكنسى والدستور المدنى فى أنطاكية ، وبين قائمة المسيحيين الذين ظفروا ببركة السماء بالتعميد وقائمة المواطنين الذين كان لهم حق الاسهام فى الهبات العامة . وقد أدرج العبيد والغرباء والأطفال فى القائمة الأولى ، واستبعدوا من الثانية .

وهيأت تجارة الاسكندرية الواسعة ، وقربها من فلسطين ، منفذا سهلا للديانة الجديدة ، وقد اعتنقتها أعداد كبيرة من طائفة Therapeutae والأسينيين Essenians القاطنين فى منطقة بحيرة مريوط — وهم طائفة من اليهود تخلت كثيرا عن احترامها للطقوس الموسوية . وقدمت حياة التقشف والتزمت التى كان يحياها هؤلاء الأسينيون وصومهم وحرمانهم من الهيكل ، واشتراكية الملكية عندهم ، وحب العزوبة ، وتحمسهم للاستشهاد ، وحرارة عقيدتهم ، رغم عدم تفاوتها — كل

أولئك قدم بالفعل صورة حية للنظام الفطرى البدائى . ويبدو أن اللاهوت المسيحى اتخذ قالبه العلمى المحدد فى مدرسة الاسكندرية ، ووجد هادريان ، عند زيارته لمصر ، كنيسة تتألف من اليهود والاغريق بلغت من الأهمية ما يكفى لجذب انتباه هذا الأمير الفضولى المحب للاستقصاء . ولكن تقدم المسيحية ظل زمنا طويلا مقصورا على نطاق مدينة واحدة ، كانت فى حد ذاتها مستعمرة أجنبية . وظل أسلاف ديمتريوس ، حتى نهاية القرن الثانى ، هم الأحبار الوحيدين ، فى الكنيسة المصرية ، ثم رسم ديمتريوس بيديه ثلاثة أساقفة ، وزاد عددهم الى عشرين فى أيام خلفه هرقلاس Heraclas . أما جمهور المواطنين ، وهم شعب يتميز بالصلابة الكئيبة ، فقد استقبلوا الدين الجديد فى فتور واشمئزاز ، وكان من النادر ، حتى فى أيام أوريجن Origen أن تلتقى بمصرى تغلب على تعصبه القديم للحيوانات المقدسة فى بلده. والحق أنه حالما اعتلت المسيحية العرش ، امتثلت حماسة هؤلاء المتبريرين للرأى المقنع السائد ، وزخرت مدن مصر بالأساقفة ، وعجت صحراء طيبة بالنساك .

وتدفق الى رحاب روما الواسع سيل من الغرباء وسكان الولايات، وكان أى غريب أو ممقوت ، مذنب أو مشتبه فيه ، يمكن أن يأمل فى الافلات من عين القانون الساهرة فى خضم هذه المدينة المترامية الأطراف . وسهل ، وسط هذا الخليط من الامم ، على أى معلم يدعو الى الهدى أو الزيف ، وأى مؤسس لرابطة تقوم على الفضيلة ، أو على الاثم والعدوان ، أن يضاعف عدد تلاميذه أو شركائه . وبلغ عدد المسيحيين — كما صوره بالفعل تاسيتس — رقما كبيرا — أيام اضطهادات نيرون الطارئة . وتكاد لغة هذا المؤرخ العظيم تشبه الأسلوب الذى استخدمه ليفى Livy عندما روى قصة ادخال طقوس باخوس Bacchus اله الخمر عند اليونان والرومان والغائها . وبعد أن كان عباد باخوس قد أهاجوا قسوة السناتو ، توجس هذا المجلس خيفة من أن يكون حشد كبير — كما لو كان شعبا آخر — قد لقن تلك الأسرار الممقوتة . ثم أظهر بحث أكثر دقة أن المخالفين الآثمين لم يتجاوزوا سبعة آلاف ، وهذا فى الواقع رقم مخيف ، اذا نظر اليه على أنه هدف العدالة العامة . وفى مثل هذا الاعتراف الصريح يجب أن تفسر هذه العبارات الغامضة التى أوردها تاسيتوس ، أو التى جاءت فى حالة سابقة على لسان بلينى ، حين يبالغان فى حشود المتعصبين المخدوعين الذين نبذوا العبادات القائمة للآلهة . ولا ريب فى أن كنيسة روما كانت أولى الكنائس وأكثرها عددا . ولدينا سجل موثوق حجة يشهد بحالة

الديانة في هذه المدينة حوالي أواسط القرن الثالث ، وبعد هدوء دام ثمانية وثلاثين عاما . وكان الاكليروس آنذاك يتألف من أسقف وستة وأربعين من المشايخ ، وسبعة شمامسة ومثلهم من وكلائهم ، واثنين وأربعين سادنا ، وخمسين من القرائين وطاردى الأرواح الشريرة والحمالين ، وبلغ عدد الأرامل والعجزة والفقراء الذين كانوا يعيشون على تبرعات المؤمنين ، ألفا وخمسمائة . وبحكم المنطق ، وبالقياس الى أنطاكية ، قد نجرؤ على تقدير المسيحيين في روما بنحو خمسين ألفا . وربما كان من المتعذر التحقق من عدد السكان في هذه العاصمة الكبيرة بالضبط ، ولكن أكثر التقديرات تواضعا لا يمكن ، على التحقيق ، أن يهبط به الى أقل من مليون نسمة ، يشكل المسيحيون منهم جزءا من عشرين جزءا .

ويبدو أن سكان الولايات الغربية استقوا معرفتهم بالمسيحية من نفس المنبع الذى نشر عليهم لغة روما ومشاعرها وعاداتها . وتهيأت أفريقية والغال ، في هذا الطرف الذى هو أكثر أهمية وخطرا ، للاقتداء بالعاصمة ، ورغم المناسبات الكثيرة المواتية التى ربما دعت الارساليات الرومانية الى زيادة ولاياتها اللاتينية ، فقد تأخر طويلا عبورهم للبحر أو جبال الألب ، فلسنا نستطيع أن نجد في هذه الأقطار العظيمة أية آثار محققة للعقيدة أو الاضطهادات، تصل الى ما بعد عهد الأنطونيين . وكان التقدم البطىء للانجيل في المناخ البارد في الغال يختلف تمام الاختلاف عن الحماس الذى يبدو أنه استقبل به في الرمال المحرقة في أفريقية ، وسرعان ما أصبح المسيحيون الأفريقيون أحد الأعضاء الرئيسية في الكنيسة الأولى . وساعد التقليد الذى أدخل في هذه الولاية — أفريقية — وهو تعيين الأساقفة في أصغر المدن وأحقر القرى، في حالات كثيرا جدا — ساعد على ازدياد عظمة وبهاء مجتمعاتهم الدينية التى ألهبتها طوال القرن الثالث ، غيرة ترتوليان ، ووجهتها مقدرة سبريان ، وتألقت بفصاحة لكتانتيوس ، ولكنا ، على النقيض من ذلك، اذا ولينا وجوهنا شطر الغال ، لوجب علينا ان نقنع ، في عهد ماركوس أنطونينوس ، بالعثور على المجامع الهزيلة ، الموحدة في ليون وفيين (جنوبى ليون في فرنسا) ، بل حتى عهد ديسيوس ، لم يكن يوجد ، على التحقيق ، الا في قليل من المدن فقط — آرل ، ناربون ، تولوز ، ليموج ، كليرمونت ، تور ، وباريس — بعض الكنائس المبعثرة هنا وهناك ، والتى قامت على اخلاص نفر قليل من المسيحيين . والحق أن الصمت يلتئم مع التعبد والنسك كل الالتئام ، ولكنه قلما يلتئم مع الغيرة والحماس ، ومن ثم يمكن أن نرى ونرثى لحالة جمود المسيحية

فى هذه الولايات التى استبدلت اللغة اللاتينية بالكلية حيث انها لم تنجب طوال القرون الثلاثة الأولى كاتبا كهنوتيا واحدا . ومن بلاد الغال التى زعمت لنفسها التفوق فى العلم والسلطان على كل البلاد الواقعة فى هذا الجانب من الألب انعكس نور الانجيل ، على الولايتين التابعتين : اسبانيا وبريطانيا ، فى شعاع أشد خفوتا . واذا نحن صدقنا توكيدات ترتوليان العنيفة ، فانهم تلقوا بالفعل القبس الأول من العقيدة عندما وجه هو خطابه الى حكام الامبراطور سيفيروس . ولكن المنشأ الغامض المهوش لكنائس غرب أوربا دون فى اهمال شديد ، الى حد اننا لو أردنا أن نروى زمن تأسيسها وظروفه ، لوجب علينا أن نعوض عن صمت الأقدمين بتلك الأساطير التى أملاها الجشع أو الخرافة ، بعد ذلك بزمن طويل ، على الرهبان فى أديرتهم المظلمة الخاملة . ولا يستحق الذكر من هذه الأقاصيص الا قصة الرسول القديس جيمس لتطرفهـــا الشاذ . فقد تحول من صياد ســمك مســالم فى بحيرة جنســارت Gennesareth ، الى فارس مقدام اغار على رأس الخيالة الاسبان فى معاركهم ضد العرب . وقد مجد أعماله أكثر المؤرخين وقارا . وأظهر ضريح كمبوزتلا Compostella العجيب قوته ، وكان سيف الطائفة المحاربة تعاونه محاكم التفتيش كافيا للقضاء على أى اعتراض من نقد خبيث .

ولم يكن تقدم المسيحية محصورا فى دائرة الامبراطورية الرومانية، فان الآباء الأولين الذين يفسرون الحقائق بالنبوءات ليقولون ان الدين الجديد طرق بالفعل أبواب المعمورة بأسرها فى بحر قرن واحد من موت « منشئة الالهى » (السيد المسيح) ويقول جوستين الشهيد : « لا يوجد شعب يونانى أو متبربر ، أو أى جنس آخر من الناس ، يتميز بأية لغة أو سلوك ، جاهل بالفنون أو الزراعة ، يعيش تحت الخيام ، أو يجوب الآفاق فى عربات مغطاة ، لا تقام فيه الصلوات ، باسم المسيح المصلوب، لله خالق كل شيء » . ولكن هذه المبالغة الفاخرة التى يصعب غـــاية الصعوبة ، حتى فى وقتنا الحاضر ، التوفيق بينها وبين حقيقة أحـــوال الجنس البشرى ، يمكن أن نعتبرها مجرد ملحة طائشة من كاتب ورع غير موثوق لم يراع الدقة ، تحددت مقاييس ايمانه بقدر أمانيـــه . ولكن ايمان الآباء أو أمانيهم لا يمكن أن تغير حقيقة التاريخ . وستظل حقيقة لا يتطرق اليها الشك أن متبربرى سكيذيا وألمانيا الذين قوضوا أركان الملكية الرومانية كانوا مغمورين فى ظلام الوثنية ، وأنه لم يكن ثمة أى مسعى ناجح الى أية درجة من النجاح لتحويل ايبريا أو ارمينيا أو اثيوبيا الى الدين الجديد ، الى أن انتقل صولجان الملك الى يدى

امبراطور أرثوذكسى . وربما أفادت ظروف الحرب والتجارة ، قبل ذلك الوقت ، فى نشر بعض التعريف بالانجيل ، بين القبائل فى كاليدونيا (اسكتلنده) وبين القاطنين على حدود الراين والدانوب والفرات ، ووراء هذا النهر الأخير ، تفردت أذاسا باعتناقها المبكر المكين للعقيدة. ومن أذاسا دخلت مبادىء المسيحية فى سهولة ويسر الى المدن اليونانية والسورية التى خضعت لخلفاء أرتجزرسيس ، ولكن يبدو أنهم لم يؤثرا تأثيرا عميقا فى عقول الفرس ، الذين كان نظامهم الدينى قد أنشىء بجهود طائفة دقيقة التنظيم ، بطريقة أكثر دهاء وصلابة من الأساطير اليونانية والرومانية الغامضة .

أعداد المسيحيين الأولين وأحوالهم

وربما يبدو من هذا العرض النزيه ، وان كان عرضا غامضا ، لتقدم المسيحية أنه من المحتمل أن عدد المهتدين قد بولغ فيه الى حد الاسراف، بفعل الخوف من ناحية والورع من ناحية أخرى . وكانت نسبة المؤمنين — طبقا لشهادة أوريجن التى لا يوجه اليها لوم ولا نقد — ضئيلة جدا ، اذا قورنت بمجموع عالم غير المؤمنين ، ولكن من الصعب — تبعا لافتقارنا الى معلومات واضحة — أن نحدد ، بل من الصعب حتى أن نحزر الأعداد الحقيقية للمسيحيين الأولين . ومهما يكن من أمر ، فان أحسن تقدير يمكن استخلاصه من أمثلة أنطاكية وروما ، لا يجيز لنا أن نتصور أن عددا من جزء أكثر من عشرين جزءا من رعايا الامبراطورية قد انضووا تحت راية الصليب قبل تحول قسطنطين ، ذلك التحول الهام الخطير الى المسيحية . ولكن يبدو أن ما درجوا عليه فى شئون العقيدة والغيرة الدينية والاتحاد ، قد ضاعف من أعدادهم . وساعدت نفس الأسباب التى أسهمت فى ازدياد عددهم فيما بعد ، على ابراز قوتهم واكسابهم مزيدا من المهابة .

ان بناء المجتمع المدنى ليهبط بجمهرة الشعب الى مهاوى الضعة والجهل والفقر ، فى الوقت الذى تتميز فيه فئة قليلة بالثروة أو المرتبة أو المعرفة . فكانت النتيجة أن الديانة المسيحية التى خاطبت الجنس البشرى بأسره ، لابد أن تضم تحت لوائها من المهتدين من المراتب الدنيا ، عددا أكبر بكثير منه من المراتب العليا فى الحياة . وتحول هذا الظرف البرىء الطبيعى الى اتهام كريه جدا ، يبدو أن المدافعين عن العقيدة أنكروه فى جراة أقل مما استغله أعداؤها للتحريض عليه ، وهو

أن الطائفة المسيحية الجديدة تكاد تتألف تماما من سفلة القوم ، من الفلاحين والميكانيكيين ، من الأطفال والنساء ، من المتسولين والعبيد ، وربما قدم هؤلاء الأخيرون — العبيد — فى بعض الأحيان ، الارساليات التبشيرية الى الأسرات الفنية النبيلة التى يتبعونها . هؤلاء المعلمون الخاملون (وتلك هى نفثة الحقد والكفر) كانوا يلوذون بالصمت فى العلن ، قدر ما يثرثرون ويؤكدون عقيدتهم فى مجالسهم الخاصة . وبينما كانوا يتحاشون فى حذر المجابهة الخطيرة للفلاسفة ، كانوا يختلطون بالجمهور الأمى الشرس ، ويتسللون الى تلك العقول التى يجنح بها السن أو الجنس (ذكر أو أنثى) أو التعليم أحسن جنوح الى التأثر بالارهاب الخرافى .

ان هذه الصورة القبيحة ، رغم ما تحمل من شبه طفيف ،لتفضح بتصويرها القاتم ومعالمها المشوهة قلم الخصم الذى رسمها . فقد اعتنق المسيحية ، عندما انتشرت فى العالم أفراد كثيرون ممن استمدوا بعض النتائج من هبات الطبيعة أو الحظ . فان ارستيد الذى وجه الى الامبراطور هادريان دفاعا مجيدا بليغا كان فيلسوفا أثينيا . والتمس جوستين الشهيد المعرفة الالهية فى مدارس زينون وارسطو وفيثاغورس وأفلاطون ، قبل أن يسعده الحظ فابتدره الرجل الشيخ ، أو بالأحرى احد الملائكة الذى حول انتباهه الى دراسة أنبياء بنى اسرائيل . وظفر كل من كليمنز الاسكندرى وترتوليان بقراءات كثيرة ، الأول فى اليونانية ، والثانى فى اللاتينية ، كما حصل جوليوس الأفريقى واوريجن على قسط كبير من التعليم فى عصرهما . ورغم التباين الشاسع بين اسلوبى كل من سبريان ولكتانتيوس ، فان هذين الكاتبين كانا معلمين شعبيين للبلاغة . بل ان دراسة الفلسفة دخلت أخيرا بين المسيحيين، ولكنها لم تسفر دائما عن أحسن النتائج ، وكثيرا ما كانت المعرفة داعية الى الهرطقة أو التدين على قدر سواء . ويمكن أن يطلق الاسم الذى لخلع على اتباع أرتيمون Artemon بنفس القدر من اللياقة ، على مختلف الشيع التى قاومت خلفاء الرسل . « انهم يجسرون على ان يغيروا الأسفار المنزلة المقدسة ، وينبذوا القاعدة القديمة للايمان ، ويشكلوا آراءهم وفق التعاليم الدقيقة للمنطق . واهمل علم الكنيسة سعيا وراء دراسة الهندسة . وان ابصارهم لتعمى عن السماء عندما ينصرفون الى قياس الأرض ، وانك لتجد اقليدس دوما بين أيديهم ، وأرسطو وتيوفراستس Theophrastus موضع اعجابهم،وكم من الاجلال والاحترام يظهرون لمؤلفات جالينوس . ان أخطاءهم صادرة عن سوء استخدامهم

لفنون الكفار وعلومهم . وانهم ليفسدون بساطة الانجيل بتنميقات العقل البشرى » .

ولا يمكن التثبت بحق من أن مزايا المولد أو الثروة كانت دواما بمعزل عن اعتناق المسيحية . وقد مثل كثير من المواطنين الرومان أمام محكمة بلينى ، وسرعان ما اكتشف أن عددا كبيرا من الناس من كل طبقة وطائفة فى بيثينيا قد نبذوا ديانة آبائهم وأجدادهم . وقد تحظى شهادته التى لا شبهة عليها ، فى هذه المناسبة ، بنصيب من الثقة والتصديق أكبر من التحدى الجرىء من جانب ترتوليان ، حيث يثير مخاوف البروقنصل فى أفريقية ويهيب بالروح الانسانية فيه على حد سواء ، بقوله له انه بامعانه فى أعمال القسوة سوف يبيد عشر أهل قرطاجة ، ولسوف يجد بين المذنبين أفرادا كثيرين من مرتبته ، ومن شيوخ السناتو ، ومن نساء أشرف الأسرات ، ومن أصدقاء أو أقرباء أوثق صحابته صلة به ، ويبدو ، على أية حال ، أن الامبراطور فاليريان، بعد أربعين عاما من ذلك التاريخ ، قد اقتنع بصدق هذا الكلام . حيث يورد صراحة فى أحد أوامره العالية أن بعض أعضاء السناتو والفرسان الرومان وفضليات النساء قد اعتنقوا المسيحية ، ودابت الكنيسة على الاستزادة من بهائها الظاهرى حين فقدت نقاوتها الباطنة ، وفى عهد دقلديانوس اندس سرا فى القصر وفى محاكم العدل ، بل وفى الجيش ، كثير من المسيحيين الذين حاولوا التوفيق بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة .

.. على أن هذه الحالات الاستثنائية اما أن تكون قليلة العدد أو حديثة العهد ، الى حد لا يمكن معه أن تزيل تماما هذا الاتهام بالجهل أو الوضاعة الذى ألصق فى غطرسة زائدة بالمهتدين الأوائل الى المسيحية . وبدلا من أن نلجأ فى الدفاع الى تخيلات وأقاصيص العصور المتأخرة ، قد يكون أقرب الى الفطنة والحرص أن نحول مظنة الفضيحة والعار الى موضوع للتهذيب والتثقيف . وقد يهدينا التفكير الجدى الى أن الرسل أنفسهم قد اختارتهم « العناية الالهية » من بين صائدى الأسماك فى « الجليل » وأننا كلما هبطنا بمستوى المسيحيين الأولين الدنيوى الى الحضيض ، توافر لنا المزيد من الأسباب الداعية الى الاعجاب بجدارتهم وتوفيقهم . انه لزام علينا الا تغرب عن أذهاننا قط مملكة السماء ، فقد وعد بها فقراء الروح ، وأن العقول التى توالت عليها المصائب وابتليت باحتقار الناس هى التى تصغى فى ابتهاج وسرور الى الوعد الالهى بالسعادة فى الحياة الآخرة ، بينما — على النقيض

من ذلك — يقنع المحظوظون بتملك هـذه الدنيا . كما أن الحكمـاء يفرطون فى الشك ويحاجـون فى تفوقهـم العقيم فى حسن ادراكهـم ومعرفتهم .

وقد نكون فى حاجة الى بعض هذه التأملات لنخفف عن أنفسنـا فقدان بعض الشخصيات اللامعة التى قد تبدو فى أعيننا أجدر بالنعمة الالهية . ان أسماء ، سنكـا ، وبلينى الـكبير ، وبلينى الصـغير ، وتاسيتوس ، وبلوتارك ، وجالينوس ، والعبد ابكتيتوس Epictetus ، والامبراطور مارك انطونينوس — ان هذه الأسماء تزين العصر الذى ازدهرت فيه ، وترفع من شأن الطبيعة البشرية . فقد أضفى كل منهم مجدا وجلالا على المكان الذى شغله فى دنيا النشاط والعمل أو دنيا الفكر والتأمل على حد سواء ، ووسع البحث والدرس مداركهم الممتازة ، ونقت الفلسفة أذهانهم من شوائب الخرافة الشعبية ، وقضوا أيامهم فى البحث عن الحقيقة وممارسة الفضيلة . ولكن هؤلاء الحكماء جميعا (وهذا مثار الدهشة ومثار الاهتمام معا) ضربوا صفحا عـن كمال المذهب المسيحى أو أنكروه . وان افصاحهم أو صمتهم ليشف ، بقدر سواء ، عن احتقارهم لهذه الطائفة الناشئة التى نشرت فى زمـانهم لواءها على الامبراطورية الرومانية . أما الذين تفضلوا منهم فذكروا المسيحيين ، فانهم اعتبروهم فئـة من المتحمسين العنيدين المتمـردين الذين خضعوا خضوعا صريحا لمعتقداتهم الغامضة ، دون أن يكونوا قادرين على الاتيان بحجة واحدة يمكن أن تجذب انتباه أهل العقـل والعـلم .

وقد يكون من المشكوك فيه ، على الأقل ، أن هؤلاء الفلاسفة قرأوا كل ما نشره المسيحيون الأولون مرارا وتكرارا دفاعا عن انفسهم وعن دينهم ، ولكنه مما يدعو الى مزيد من الرثاء أن مثل هذه القضية لم يتول الدفاع فيها محامون أعظم قدرة ، فان هؤلاء انما يكشفون عن اسفاف الشرك فى حصافة وفصاحة مسرفتين ، ويستدرون رحمتنا اذ يعرضون براءة اخوانهم المنكوبين وشقاءهم ، ولكنهم اذا ما رغبوا فى عرض النشأة الالهية للمسيحية ، ألحوا على النبوءات التى بشرت بظهور المسيح الحاحا اقوى بكثير مه على المعجـزات التى صـاحبت ظهوره . وقد تجدى حجتهم المفضلة فى تثقيف المسيحى أو تحويـل اليهودى ، لأن هذا وذلك يعترفان بقـوة هذه النبوءات ، ويقتضيهما الاجلال الورع أن يسعيا وراء معناها ووراء تحققها . ولكن هـذه الطريقة فى الاقناع تفقد كثيرا من وزنها وتأثيرها اذا وجهت الى أناس لا يفهمون الشريعة الموسوية والأسلوب الرسولى . ان المعنى السامى

للوحى العبرى المنزل ليتبختر على الأيدى غير الحاذقة ، أيدى جوستين ومن جاء بعده من المدافعين الذين لجأوا الى استخدام الأساليب المغرية والغرور المصطنع والمجازات الجامدة ، بل ان حجية هذا الوحى أو أصالته وصحته أصبحت موضع شك الأممى غير المستنير ، بفعل هذا الخليط من التلفيقات التى تتسم بالتقى ، والتى أقحمت باسم أورفيوس Orpheus وهرمز Hermes والعرافات والمتنبئات بالغيب(١)، على هذا الأممى ، وكأنها فى منزلة الوحى السماوى الأصيل . وغالبا ما يذكرنا اقتباس هذا التدليس والسفسطة فى الدفاع عن الوحى المنزل بالسلوك المعيب الغرير للشعراء الذين يثقلون ظهور أبطالهم الذين لا ينفذ اليهم أى سلاح ، بدروع مربكة هشة لا فائدة فيها .

ولكن كيف نغفر للوثنيين ولعالم الفلسفة غفلتهم اللاهية عن الأدلة التى قدمتها « القدرة الالهية » لا لعقولهم ، بل لحواسهم ؟ ففى عهد المسيح وحوارييه وتلاميذه الأوائل ، تأكدت العقيدة التى بشروا بها بكثير من الكرامات والمعجزات ، فقد استوى الأعرج على قدميه ، وعاد الى الأعمى نور عينيه ، وبرىء المريض من علته ، وعاد الميت الى الحياة ، وطرد الجن والشياطين ، وكثيرا ما توقفت الطبيعة تدعيما للكنيسة . ولكن حكماء اليونان وروما أشاحوا بوجوههم عن هذه المشاهد العجيبة ، وبدا أنهم — فى غمرة مهام حياتهم العادية ودراساتهم — لا يلقون بالا الى أية تغييرات فى التدابير الأدبية أو المادية التى تحكم العالم . ففى عصر تيبيريوس ، ساد العالم ، أو قل ولاية مشهورة فى الامبراطورية الرومانية — ظلام دامس غير طبيعى لمدة ثلاث ساعات . ولكن هذه الحادثة الخارقة التى كان يجدر أن تثير الدهشة والفضول والتقوى فى نفوس البشر ، مرت دون أن يلتفت اليها أحد فى عصر هو من عصور العلم والتاريخ . وقد وقعت هذه الحادثة فى حياة سنكا وبلينى الكبير اللذين كان مفروضا أن يعانيا النتائج المباشرة ، أو يتلقيا أول نبأ لهذه المعجزة . وقد سجل كل من هذين الفيلسوفين فى مؤلف قيم ، كل الظواهر الطبيعية الكبرى ، الزلازل ، النيازك ، الشهب ، الخسوف والكسوف ، وغير ذلك مما جمعه حبهم للاستطلاع دون كلال

---

(١) وربما كان يصبح من السهل على الفلاسفة الذين سخروا من نبوءات العرافات التى هى أقدم عهدا ، أن يكتشفوا التلفيقات اليهودية والمسيحية التى كان يقتبسها الآباء فرحين منتصرين ، من عهد جوستين الى لكتانتيوس . فلما حققت هذه المقتبسات غرضها المحدد نبذت — كما نبذت فكرة « العصر الألفى السعيد » . ومن سوء الحظ أن العرافة المسيحية حددت عام ١٩٥ موعدا لسقوط روما ، أى بعد ٩٤٨ سنة من تأسيسها !

أو ملال . ولكن كليهما أغفل ذكر أكبر ظاهرة شهدتها العين الفانية منذ بدء الخليفة . وأفرد بلينى فصلا خاصا عن كسوف ذى طبيعة خارقة استمر لمدة غير عادية ، ولكنه اكتفى بوصف النقص الشاذ فى الضوء، الذى أعقب مقتل يوليوس قيصر ، حين بدا قرص الشمس باهتا لا يتألق طوال الجزء الأكبر من السنة . وخلد بالفعل معظم الشعراء والمؤرخين فى ذلك الزمان ذكر فصل الظلام ، هذا الذى لا يمكن ، على التحقيق ، مقارنته بالظلمة الخارقة التى خيمت على الأرض عند موت المسيح .

الفصل السادس عشر
(٢٥٨ ـ ٣١٣م)

سياسة الحكومة الرومانية ازاء المسيحيين

موقف الأباطرة • استشهاد سبريان • تنوع سياسة الاضطهاد الكنيسة فى عهد دقلديانوس وخلفائه • مرسوم جاليريوس للتســـامح

اننا اذا تأملنا جديا فى فى طهارة الدين المسيحى ، ونقاوة تعاليمه الأخلاقية وبراءة حياة الكثرة الكثيــرة ممن اعتنقــوا الــدين فى صــدر المسيحية وتقشفهم وتشددهم ، لكان أمرا طبيعيا بالضرورة أن نذهب الى القول بأن مثل هذه العقيدة الخيرة البارة كان يمكن أن يتلقاها ، حتى العالم غير المؤمن ، بالاجلال اللائق ، وأن يقرر العلماء والمهذبون ــ رغم سخريتهم من المعجزات ــ فضائل الطائفة الجديدة ، وأن يحمى الحكام ، بدلا من أن يضطهدوا ، أفراد هذه الفئة الذين التزموا الطاعة العمياء للقوانين ، ولو أنهم عزفوا عن المهام الجدية فى الجيش والحكومة. ولكنا ، من جهة أخرى ، اذا تذكرنا التسامح التام الذى قوبل به مذهب الشرك وتعدد الآلهة ، ذلك التسامح الذى آمن به الناس دون تفريق ، وتذكرنا ارتياب الفلاسفة وعدم تصديقهم ، وسياسة السناتو والأباطرة الرومان ، اذا استرجعنا كل أولئك فى الذاكرة لوقعنا فى حيرة من الأمر ، ولتساءلنا : أى ذنب جديد جناه المسيحيون ، وأى استفزاز جديد أسخط وغاظ اللامبالاة الرفيقة القديمة ، وآية بواعث جديدة دفعت بالأمــراء الرومان الذين لم يلقوا يوما بالا الى الف من الديانات عاشت فى سلام فى ظل حكمهم الوادع ــ دفعت بهم الى انزال أشد العقاب بأى فريق من رعاياهم اختاروا لأنفسهم لونا فريدا بريئا من العقيدة والعبادة ؟ .

ويبدو أن السياسة الدينية القديمة اتخذت موقفا أشــد صلابة وأبعد عن التسامح ، لتقاوم تقدم المسيحية . وبعد نحو ثمانين عاما من

موت المسيح عوقب تلاميذه الأبرياء بالاعدام الذى أصدر الحكم به بروقنصل وديع مولع بالفلسفة ، بناء على قوانين سنها امبراطور اتسمت ادارته العامة بالحكمة والعدالة . وكم امتلأت صفحات الدفاع التى وجهت مرارا الى خلفاء تراجان بالشكاوى المحزنة المثيرة من أن المسيحيين الذين استجابوا لحرية الضمير وتوسلوا اليها ، حرموا وحدهم ، دون سائر رعايا الامبراطورية ، من المزايا المشتركة لحكومتهم السعيدة الموفقة . وسجلت بعناية وفاة عدد قليل من الشهداء البارزين . ومنذ الوقت الذى تسلمت فيه المسيحية مقاليد السلطة العليا ، لم يكن حكام الكنيسة أقل انشغالا وتيقظا الى الكشف عن قسوة مخالفيها الوثنيين ، منهم بالاقتداء بهم فى سلوكهم . وسبيلنا فى هذا الفصل هو أن نستخلص (اذا امكن) قليلا من الحقائق الصحيحة والطريفة معا من الركام غير المستساغ من الروايات والقصص والأخطاء ، وأن نسرد بشكل واضح معقول ، أسباب الاضطهادات التى تعرض لها المسيحيون الأولون ومداها ومدتها وأهم ظروفها .

وانه ليندر أن يكون أتباع الديانة المضطهدة ، الذين يقض الخوف مضاجعهم ، ويهيجهم الاستياء ، وربما يلهيهم الحماس — يندر أن يكونوا فى مزاج عقلى سليم ، يمكنهم من التنقيب الهادىء أو التقدير الصادق لبواعث أعدائهم ، تلك البواعث التى كثيرا ما تغيب عن النظرات المتجردة الغامضة حتى لأولئك الذين يقفون فى مأمن وبمنأى عن نيران الاضطهاد ، وقد ذكر لسلوك الأباطرة ازاء المسيحيين الاولين ، على وجه التحديد ، سبب يبدو أنه أكثر تمويها وأقرب احتمالا ، لانه مشتق من عبقرية الشرك المعترف بها . فقد كان الملحوظ بالفعل أن الوئام الدينى فى العالم كان يعززه فى الأساس القبول والاحترام الصريحان اللذان كانت تظهرهما الأمم القديمة كل منها نحو تقاليد الأخرى وطقوسها . ومن ثم كان من المتوقع أن تتحد كلها ، بلا حرج ولا غضب، ضد أية طائفة أو شعب ينزع نفسه عن جماعة الجنس البشرى ، ويحتقر بالضرورة — بحكم ادعائه الملكية المطلقة للمعرفة الالهية — أى لون من العبادة باعتباره ضلالا ووثنية ، اللهم الا عبادته هو فحسب . وكانت المثابرة على رعاية حقوق التسامح متبادلة بنفس القدر . وكانت هذه الحقوق تضيع عند الامتناع عن دفع الجزية المعتادة . ولما كان اليهود وحدهم هم الذين امتنعوا بتاتا عن دفع هذه الجزية ، فان الباعث الذى حدا بحكام الرومان الى المعاملة التى لقيها منهم اليهود قد يوضح الى أى مدى تبرر الحقائق هذه التأملات ، وتؤدى الى الكشف عن الأسباب الحقيقية لاضطهاد المسيحية .

وسوف نشير فقط ، دون تكرار الى ما أسلفنا بالفعل ذكره من احترام الملوك والحكام الرومان للهيكل فى أورشليم ، الى أن تدمير الهيكل والمدينة ، اقترنا ، كما أعقبهما ، بكل الظروف التى تغضب الفاتحين ، ويتيح الاضطهاد الدينى بأشد ذرائع العدالة الاجتماعية والأمن العام تمويها وخداعا . فمنذ عهد نيرون حتى عهد أنطونينوس بيوس أظهر اليهود ضجـرا جديدا بحكم روما ، تجلى مرارا فى أعنف المذابح والثورات . وان العالم ليصعق لدى سماعه بأفظع أعمال القسوة الرهيبة التى ارتكبوها فى مدن مصر وقبرص وبرقة ، حيث عاشوا فى صداقة غدارة خائنة مع المواطنين غير المرتابين . واننا لنميل الى امتداح القصاص الشديد الرادع الذى أنزلته فرق الجيش بهذا العنصر من المتعصبين الذين يبدو أن خرافتهم (عقيدتهم) الشريرة الغريرة جعلت منهم أعداء الداء ، لا للحكومة الرومانية وحدها ، بل للجنس البشرى بأسره . وكان حماس اليهود يستند الى الرأى القائل بأن دفع الضريبة لسيد وثنى أمر غير مشروع لديهم ، والى الوعد الموهوم الذى استقوه من الوحى القديم الذى لديهم ، بقرب ظهور المسيح الذى سيفتح العالم ، ويحطم أغلالهم، ويخلع امبراطورية الأرض على أحباء السماء المقربين . وقد أعلن باركوكيباس Barchochebas الشهير نفسه مخلصهم الذى طال انتظارهم له ، وأهاب بذرية ابراهيم أن يحققوا أمل اسرائيل ، وبهذا جمع جيشا كبيرا تحدى به سلطان الامبراطور هادريان لمدة عامين .

ورغم الانتفاضات المتكررة ، زال استياء الأمراء الرومان بعد انتصارهم ،ولم تدم مخاوفهم لاكثر من فترة الحرب والخطر . وبفضل التسامح العام الذى تميز به مذهب الشرك ، وبفضل الطبع الرقيق المعتدل الذى تميز به أنطونينوس بيوس أعيدت لليهود امتيازاتهم القديمة ، ورخص لهم ثانية فى ختان أطفالهم ، مع قيد بسيط واحد ، وهو عدم اجراء هذه العملية المميزة للعبرانيين لأى مهتد أجنبى .وسمح للبقايا الكثيرة من هذا الشعب ، رغم انهم ظلوا بعيدين عن تخوم اورشليم ــ بانشاء المؤسسات الكبيرة أو الاحتفاظ بها فى ايطاليا وفى الولايات . وبالحصول على حرية روما ، وبالتمتع بمزايا المدينة ، على أن يكون فى نفس الوقت حق الاعفاء من مناصب المجتمع الثقيلة العبء الكثيرة النفقة . وهيأ اعتدال الرومان أو احتقارهم لهذه الطائفة سندا قانونيا لانشاء نوع من الشرطة الملية (الكنسية) وخول الحاخام الذى اتخذ مقره فى طبرية ، سلطة تعيين القسس والحواريين التابعين له وأن يمارس القضاء المحلى ، وأن يتلقى من اخوانه المبعثرين هنا وهناك

اعانات سنوية . وكثيرا ما شيدت هياكل جديدة فى المدن الرئيسية فى الامبراطورية . واقيمت احتفالات مهيبة عامة فى ايام السبت ، أو لمناسبة الصوم ، أو الأعياد التى نزلت بها شريعة موسى ، أو اوصت بها تقاليد الأحبار . وهدأت هذه المعاملة الكريمة من طبع اليهود الحاد بطريقة غير ملحوظة ، فلما أفاقوا من علم النبوءة والغزو نهجوا منهج الرعايا المسالمين المجدين . أما كراهيتهم التى لا تهدأ للجنس البشرى ، فانها بدلا من أن تتقد فى أعمال العنف والدم ، استنفدت فى أعمال أقل خطرا . ولكنها أعمال تشبع رغباتهم . وانتهزوا كل فرصة للتفوق على الوثنيين فى التجارة ، وصبوا اللعنات الخفية الغامضة على مملكة ايدوم (Edom ، أى الدولة الرومانية) المتغطرسة .

واذ تمتع اليهود الذين نبذوا فى مقت واحتقار معبودات ملوكهم واقرانهم من الرعايا ، بالحرية فى ممارسة ديانتهم الانعزالية غير الاجتماعية على أية حال ، فلا بد أنه كان يوجد سبب آخر عرض تلاميذ المسيح لأعمال القسوة التى اعفيت منها ذرية ابراهيم . والفرق بينهما بسيط جلى ، ولكنه كان وفقا لمقاييس الأقدمين أو مشاعرهم ، على أعظم جانب من الأهمية ، ذلك أن اليهود كانوا أمة ، ولكن المسيحيين فرقة أو شيعة . واذا كان طبيعيا أن تحترم كل جماعة النظم المقدسة لجيرانها ، فانه كان لزاما عليهم أن يبقوا على ملة آبائهم . ولقد فرض صوت الوحى وتعاليم الفلسفة وسلطان القانون بالاجماع ، هذا الالتزام الوطنى . وربما أثار اليهود بادعائهم العريض تفوقهم فى الطهارة والقداسة ، حفيظة المشركين فاعتبروا اليهود جنسا كريها ممقوتا غير نقى ، وربما كان اليهود جديرين بهذا الاحتقار نتيجة ترفعهم عن الاتصال بالأمم الأخرى . وربما كانت قوانين موسى مستهترة أو عابثة ، ولكن طالما تلقاها على مر الأجيال مجتمع كبير ، فقد كان لأتباع موسى فى بنى الانسان اسوة ، وفيما اقروه عامة سند ، يبرران حقهم فى ممارسة ما قد يكون اجراما منهم أن يهملوه . ولكن هذا المبدأ الذى حمى كنيس اليهود لم يقدم للكنيسة فى صدر المسيحية أية رعاية أو أمن . بل ان المسيحيين باعتناقهم رسالة الانجيل جلبوا على أنفسهم الوزر المزعوم ، وزر جريمة غير طبيعية لا تغتفر : انهم حلوا روابط العرف والتعاليم المقدسة ، وانتهكوا حرمة النظم الدينية فى بلدهم ، واحتقروا فى جراة ووقاحة كل ما آمن به آباؤهم على انه حق أو بجلوه على انه مقدس . كما أن هذه الردة (اذا جاز أن نستعمل هذه اللفظة) لم تكن جزئية أو محلية ، لأن المرتد التقى الذى كان ينسحب من معابد مصر وسوريا كان يستنكف أن يلتمس ملجأ فى معابد أثينا وقرطاجة .

ونبذ كل مسيحى ، فى ازدراء ، خرافات عشيرته ومدينته وولايته ، ورفض جمهور المسيحيين عامة أى ارتباط بآلهة روما أو الامبراطورية، بل بمعبودات الجنس البشرى بأسره . وعبثا أكد المؤمن المغبون حقوق الضمير والرأى الخاص التى هى وقف على كل فرد . ومهما دعا موقفه الى الاشفاق ، فان حججه لم تنفذ الى عقول الفلاسفة أو المؤمنين فى دنيا الأوثان . بل ان اعتناق بعض الأفراد للشكوك بدلا من الامتثال للون العبادة المقررة ، لم يثر فى عقولهم دهشة أقل منها فيما لو وقعت عيونهم فجأة على كراهية للعبادات والزى واللغة فى وطنهم .

وسرعان ما تحولت دهشة الوثنيين الى سخط واستياء . وتعرض أتقى الناس للاتهام الجائر ولكنه الخطير ، أى الكفر والالحاد . واجتمع الحقد والتعصب على تصوير المسيحيين على انهم مجتمع من الكفار الذين استقوا — لهجومهم البالغ على الدستور الدينى للامبراطورية — أعنف سخط من الحكومة المدنية ، فانهم نأوا بأنفسهم (وكم طرب المسيحيون لهذا الاعتراف !) عن كل لون من ألوان الخرافة رحب به أى فريق من أئمة الشرك فى مختلف أقطار الأرض ، كما انه لم يتضح قط أى معبود وأية عبادة استبدلوها بمعبودات القدماء ومعابدهم . ولقد غابت الفكرة النقية السامية — فكرة « **الكائن الأعظم** » عن الادراك البليد لدى جمهور الوثنيين الذين حاروا فى العثور على اله روحى أحد ، لا يتمثل فى صورة مجسمة أو رمز مرئى ، ولا يعبد بالأبهة المعهودة فى سكب الخمر والأعياد والمذابح والقرابين . ان حكماء اليونان وروما الذين سموا بعقولهم الى مرتبة التامل فى الوجود وفى صفات « **الكائن الأول** » قد أغراهم ادراكهم السليم أو زهوهم بأن يحتفظوا لأنفسهم وللصفوة من تلاميذهم بامتياز هذا النسك الفلسفى. وكانوا أبعد ما يكونون عن اقرار أهواء بنى الانسان على أنها مقياس الحقيقة ، ولكنهم اعتبروها منبثقة عن النزعة الأصلية فى الطبيعة البشرية ، وذهبوا الى أن أى لون مألوف من العقيدة أو العبادة ، رغم التنصل من مساعدة الحواس ، لا بد انه ، بنسبة ما يتنحى عن الخرافة — سيجد نفسه عاجزا عن الحد من شطحات الخيال أو أشباح التعصب . ان النظرة الواهية المستهترة التى تفضل رجال العقل والعلم بالقائها على الوحى المسيحى لم تجد الا فى توكيد رأيهم المتسرع واقتناعهم بأن المبدأ الذى كان يمكن أن يحترموه ، مبدأ « وحدانية الله » قد شوهته حماسة الطوائف الجديدة ، وأطاحت به تأملاتهم الخيالية . وانك لترى مؤلف الحوار المشهور ، الذى نسب الى لوشيان ، حين يتظاهر بمعالجة موضوع « التثليث » الغامض فى أسلوب من التسفيه والتحقير — تراه

يفضح جهله بضعف الادراك الانســـانى ، وبالطبيعـة العويصة التى لا يمكن ادراك كنهها ، طبيعة الكمال الالهى .

وقد يبدو أقل اثارة للدهشة انه يجب على تلاميذ مؤسس المسيحية الا يوقروه بوصفه حكيما ونبيا فحسب ، بل كذلك يعبدوه على انه اله ، وكان المشركون يميلون الى اقتباس أى ركن من أركان العقيدة قـد يحمل أى شبه ، مهما كان بعيدا أو ناقصا ، بالخرافات المألوفـة او بأساطير باخوس ، وهرقل ، وأسكولابيوس Aesculapius هيأت خيالهم بشكل ما لظهور « ابن الله » فى صورة انسان ، ولكنهم تولاهم العجب من هجر المسيحيين لمعابد هؤلاء الأبطال القدامى الذين اخترعـوا فى بداية الدنيا الفنون وسنوا القوانين ، وقهروا الطغاة والمـردة الذين أزعجوا الأرض ، من أجل أن يختاروا لهدفهم الوحيد المطلق للعبـادة الدينية معلما مغمورا ، وقع فى سن مبكرة ، وسط شعب متبـربر ، ضحية لضغن بنى جلدته أو حقد الحكومة الرومانية . ورفض جمهور الوثنيين الذين رأوا الاحتفاظ بمزايا الحياة الدنيا وحدها ، رفضوا نعمة الحياة والخلود ، تلك النعمة التى تفوق حق التقدير والتى وعد بهـا يسوع الناصرى جميع البشر . ولم يكف ثباته الهادىء وسـط الآلام الرهيبة الاختيارية ، وبره العام الشامل وبساطته الرائعة فى عملـه وفى خلقه — لم يكف كل أولئك فى نظر هؤلاء الرجال الدنيويين الماديين ليعوض عن افتقاده الشهرة والملك والنجاح ، وبينما رفضوا الاعتراف بانتصاره الهائل على قوى الظلام وقوى الدمار ، نراهم حرفوا ، أو احتقروا ، المولد المبهم للمنشىء الالهى للمسيحية وحياته المتجولة ، وميتته الشائنة .

ولقد بولغ الى أقصى حدود المبالغة فى الجـرم الذى ارتكبه كل مسيحى فى ايثاره عاطفته الخاصة على الديانة الوطنية ، وجاءت هذه المبالغة نتيجة لتعدد المجرمين واتحادهم . ومن المعروف جيدا ، وقـد لحظ بالفعل ، أن السياسة الرومانية كانت تنظر بأشد القلق والريبة الى أية رابطة تقوم وسط رعاياها ، وكانت الامتيازات تمنح للهيئات الخاصة فى أضيق الحدود ، وفى تقتير شديد رغم أن الهيئات كانت ذات أهداف خيرة بعيدة عن الأذى والضرر . ولكن الجمعيات المسيحية التى انفصلت عن العبادة العامة الشائعة بدت ذات طبيعة أقل براءة . فقد كانت غير مشروعة من حيث المبدأ ، وربما باتت خطيرة من حيث العواقب ، ولم ير الأباطرة أنهم انتهكوا حرمة قوانين العدالة حين حرموا — حرصا على سلامة المجتمع — هذه الاجتماعات السرية والليلية احيانا . لقد

عكس تمرد المسيحيين التقى الورع على سلوكهم ، أو ربما على خططهم، ضوءا بدا للناظرين منذرا بخطر أشد واجرام أفدح . وفى بعض الأحيان حاول الأمراء الرومان — الذين أجازوا لأنفسهم أن يلقوا بسلاحهم ، اذا ما رأوا الاستعداد للتسليم والانقياد ، مقدرين أن شرفهم متعلق بتنفيذ أوامرهم — حاولوا بالعقوبات الرادعة أن يخضعوا هذه النزوع الاستقلالية التى اعترفت فى جراة ، بسلطان يسمو على سلطان الحاكم. وبدا أن اتساع مدى هذه المؤامرة الروحية واستطالة مدتها ، جعلها يوما بعد يوم أحق بلومه وسخطه . ولقد رأينا بالفعل كيف أن غيرة المسيحيين الجادة الموفقة قد أدت الى انتشارهم ، بشكل غير ملحوظ، فى كل ولاية ، بل على الأغلب فى كل مدينة فى الامبراطورية . وبدا أن المهتدين الجدد أنكروا عشيرتهم وبلدهم حتى يندمجوا فى عصبة موحدة لا تنفصم عراها ، تشكل مجتمعا خاصا معينا اتخذ فى كل مكان طابعا مغايرا لسائر البشر . وأدخل مظهرهم العبوس المتشدد ، وعزوفهم عن الأعمال والمباهج المشتركة فى الحياة ، وتنبؤاتهم الكثيرة بالبلايا المحدقة — كل أولئك ، أدخل فى روع الوثنيين توجس الخيفة من خطر ينجم عن هذه الطائفة الجديدة التى هى أشد ازعاجا كما أنها أشد غموضا . وكما قال بلينى « مهما يكن من أمر المبدأ الذى يحكم سلوكهم ، فان عنادهم الذى لا يلين ولا ينثنى بدا جديرا بالعقاب » .

وأملى الخوف والضرورة ، فى البداية ، تلك الاحتياطات التى لجأ اليها تلاميذ المسيح فى اقامة شعائر دينهم ، ولكنهم استمروا عليها طواعية واختيارا . وتوهم المسيحيون أنهم — باقتدائهم بالكتمان العجيب الذى كان يحوط « الأسرار الأليوسية Eleusinian Mysteries » (احتفالات دينية كانت تقام فى الربيع قديما بمدينة اليوسيس فى اليونان) — قد يضفون على نظمهم المقدسة مزيدا من الاحترام فى أعين العالم الوثنى . ولكن هذا التصرف — كما يحدث غالبا فى عمليات السياسة الحاذقة — خدع أمانيهم وآمالهم . فقد استنتج أنهم انما حجبوا فقط عن الانظار كل ما كان يجدر أن تحمر وجوههم خجلا لاخفائه . فان فطنتهم قد هيأت الفرصة للحقد أن يخترع ، وللسذاجة المرتابة أن تصدق تلك القصص الشنيعة التى نعتت المسيحيين بأنهم أشر البرية ، وأنهم كانوا فى خلواتهم المظلمة يأتون من المنكرات ما يزينه لهم أحط الخيال ، ويلتمسون رضا الههم المجهول عن طريق التضحية بكل فضيلة أخلاقية . وكان ثمة كثيرون ممن ادعوا الاعتراف بطقوس هذا المجتمع البغيض أو سرد أنبائها . فقيل على وجه التأكيد ان « طفلا حديث الولادة مغطى تماما بالدقيق ، كان يعرض — وكأنه رمز روحانى للدخول

فى الأخوية المسيحية — لسكين المهتدى الجديد الذى يهوى به فيثخن على غير هدى الضحية البريئة لخطاياه بكثير من الجروح الخفيــة القتلة ، حتى اذا ما انتهى من ارتكاب هذا العمل القــاسى ، شرب المجتمعون الدم ، ومزقوا الأوصال المرتعدة فى شره ونهم ، وتعاهدوا على كتمان السر الى الأبد ، شاعرين شعورا متبادلا بالذنب . كما قيل بنفس القدر من التأكيد ، ان هذه التضحية غير الانسانية كان يعقبها حفل لائق تلعب الخمر فيه برءوسهم وتوقظ الشهوة البهيمية الجامحة بين ضلوعهم حتى اذا حانت اللحظة المقررة أطفئت الأنوار مجــأة ، وخلعوا عذار الحياء وتناسوا الطبيعة ، واختلط الحابل بالنابــل ، ولوثوا ســواد الليل بارتكاب أشــنع الفــواحش : الاخوة مع الأخوات ، والأبناء مع الأمهات » (١) .

ولكن قراءة الدفوع القديمة كانت كافية لازالة حتى أتفه الشكوك من ذهن الخصم المنصف العادل . ومن ثم يعمد المسيحيون — فى اطمئنان جرىء الى براءتهم — الى الاستعانة من ظلم الشائعات بانصاف الحكام، فيقررون أنهم يكونون جديرين بأشد العقاب . اذا أقيم أى دليــل على الجرام التى ألصقتها بهم الوشــايات . انهم يتعجلون العقاب . ويتحدون البينة ، وفى نفس الوقت يعترضون بشدة ، وبنفس القدر من الصدق واللياقة ، بأن الاتهام ليس أقل بعدا عن الاحتمال ، منه تجردا من الحجة والبرهان ، ويتساءلون عما اذا كان هناك من يصــدق أن تعاليم الانجيل النقية المقدسة التى غالبا ما تحد من التنعم بأكثر المتع مشروعية ، تصرف الذهن الى اقتراف أبغض الآثام ، وأن مجتمعا كبيرا يعمــد الى تلطيخ شرفه فى أعين أعضائه ، وأن جمعــا كبيرا من الجنسين من مختلف الأعمار والأخلاق ، لا يتأثر بالخوف من الموت أو الفضيحة ، فينتهك حرمة المبادىء التى نقشتها الطبيعة والتعــليم فى عقولهم مثل النقش فى الحجر . وقد يبدو أنه ليس ثمة شىء يمكن أن يضعف من قوة أو من أثر مثل هذا التبرير الذى لا يستطاع نقضه ، اللهم الا السلوك الغرير لأولئك المدافعين الذين خانوا قضية الدين ، ارضاء لبغضهم المروع لأعداء الكنيسة المحليين . وقيل — تلميحــا دلفيا تارة ، وتوكيدا جريئا تارة أخرى — ان هذه الضحايا الدموية

(١) لسنا فى حاجة الى القول بان هذا هراء بشع صوره خيال دنىء كافر بالقيم الانسانية ، وربما كان أجدر بالوثنية ، والمسيحية منه براء بلا ريب . وكم عانت المسيحية والاســـلام من ايذاء الملحدين بالقول والعمل . وقد أثبتناه لمجرد الأمانة فى النقل . (المترجم) .

وهذه الأعياد الفاحشة ، التى نسبت زورا وبهتانا الى المؤمنين الأرثوذكس ـ كان يحتفل بها المرخيونيون Marcionites والكربكراتيون Carpocratians وغيرهم من شيع الغنوصيين (اللا أدريين) الذين كانوا لا يزالون يتأثرون بمشاعر المسيحيين ، وتحكمهم تعاليم المسيحية ، رغم أنهم ربما انزلقوا الى مهاوى الهرطقة . كما ألصق بالكنيسة اتهامات من مثل هذا النوع جماعة المنشقين الذين انفصلوا عنها ، وقد اعترف فى جميع الأحوال بأن أشد السلوك فجورا كان يسود الأفواج الكبيرة التى تظاهرت باعتناق المسيحية . وربما سهل على الحاكم الوثنى الذى لم يؤت فسحة من الوقت أو شيئا من القدرة على تبين الخط الطفيف غير المحسوس الذى يفصل بين الصراط المستقيم وبين الهرطقة ـ سهل عليه أن يتصور أن البغضاء المتبادلة بينهم هى التى أزاحت الستار عنوة عن جرائمهم المشتركة . وكان من حسن حظ المسيحيين الأولين ـ من أجل طمأنينتهم ، أو على الأقل سمعتهم ـ أن تصرف الحكام اتسم أحيانا بمزيد من اللياقة والاعتدال أكثر مما يتأتى مع الغيرة الدينية ، وقالوا ـ كنتيجة متجردة غير متحيزة لتحرياتهم القانونية ـ ان الطوائف التى تخلت عن العبادة القائمة بدت لهم مخلصة فى عقائدها ، وانه لا غبار على سلوكها ، مهما تعرضت لمؤاخذة القانون بخرافتها المسرفة الحمقاء .

موقف الأباطرة من المسيحيين

ان التاريخ الذى يأخذ على عاتقه تسجيل أحداث الماضى لتكون عبرة وتوجيها للأجيال القادمة ، لا يستحق شرف هذه المهمة ، اذا تنازل فدافع عن قضية الطغيان ، أو برر منهج الاضطهاد . ومهما يكن من أمر ، فانه يجب الاعتراف بأن سلوك الأباطرة الذين بدا أنهم أظهروا أقل العطف على الكنيسة الأولى ، ليس ، بأية حال من الأحوال ، فى مثل القدر من الاجرام الذى يتسم به سلوك الملوك الحديثين الذين استخدموا وسائل العنف والارهاب ضد الآراء الدينية التى اعتنقها بعض رعاياهم . وربما اكتسب ملك مثل شارل الخامس أو لويس الرابع عشر ، بوحى من تأملاتهم أو من مشاعرهم الخاصة ، معرفة صادقة بحقوق الضمير أو بالتزامات العقيدة ، أو ببراءة الخطأ . ولكن أمراء روما القديمة وحكامها كانوا غرباء على هذه المبادىء التى ألهبت وعززت عناد المسيحيين الذى لا يلين ، فى قضية الحقيقة ، كما أنهم هم أنفسهم لم يستطيعوا أن يتبينوا فى أعماق صدورهم أى باعث كان من

الجائز أن يدفعهم الى رفض الخضوع المشروع ، بل الطبيعى ، للنظم المقدسة فى بلادهم ، وكان نفس السبب الذى يساهم فى تخفيف جريمة اضطهاداتهم ، لابد وأنه اتجه الى الحد منها . ولما كانوا يصدرون ، لا عن غيرة المتعصبين العنيفة ، بل عن سياسة المشرعين المعتدلة فلابد أن العصيان كثيرا ما أرخى ، وأن الروح الانسانية الطيبة غالبا ما عطلت تنفيذ تلك القوانين التى سنوها ضد أتباع المسيح الأذلاء المغمورين . وطبيعى أن نخلص من النظرة العامة الى أخلاقهم وبواعثهم الى :

١ — أنه قد مضى زمن طويل قبل أن يتبينوا أن الطائفة الجديدة تستحق اهتمام الحكومة .

٢ — وأنهم فى أدانة أى من رعاياهم الذين اتهموا بمثل هذه الجريمة الشاذة ، تصرفوا فى حذر وعلى كره منهم .

٣ — وأنهم كانوا معتدلين فى استخدام العقوبات .

٤ — وأن الكنيسة المنكوبة نعمت بفترات كثيرة من السلام والهدوء. وعلى الرغم من الاستهتار العقيم المهمل الذى عالج به أغزر الكتاب الوثنيين مادة ، وكذا أدقهم فى التفاصيل فى شئون المسيحيين ، فانه سيظل فى مكنتنا أن نثبت كل واحد من هذه الفروض المحتملة بشواهد من الحقائق الصادقة الصحيحة .

١ — اقتضت حكمة « العناية الالهية » أن تسدل على طفولة الكنيسة الأولى حجابا غامضا ، أفلح — حتى اشتد عود العقيدة المسيحية وزاد عدد المسيحيين — فى وقايتهم ، لا من شر دنيا الوثنية فحسب ، بل حتى مجرد معرفتها بهم . فقد زود الالغاء المتدرج المتأنى للطقوس الموسوية أول الداخلين فى شريعة الانجيل بقناع آمن برىء ، ولما كان معظمهم من عشيرة ابراهيم ، فانهم تميزوا بتلك العلامة الخاصة وهى الختان ، وقاموا بعباداتهم فى معبد أورشليم حتى دمر تدميرا نهائيا ، وتقبلوا « الشريعة » والرسل على أن الجميع تنزيل أصيل من عند الله . أما الأمميون المتحولون الذين كانوا قد ارتبطوا بأمل اسرائيل نتيجة اختيار روحى ، فقد كان يصعب تمييزهم ، وهم فى زى اليهود ومظهرهم ، ولما كان اهتمام المشركين بأركان العقيدة أقل من اهتمامهم بالمظاهر الخارجية للعبادة ، فان الطائفة الجديدة التى اخفت فى عناية تامة ، أو أعلنت اعلانا خافتا عن عظمتها وأطماعها المستقبلة ، سمح لها أن تظلل نفسها بظل التسامح العام الذى كان ممنوحا لشعب قديم

مشهور فى الامبراطورية الرومانية . وربما لم يمض وقت طويل قبل أن يدرك اليهود أنفسهم ، وقد تملكتهم غيرة أشد ضراوة ، وأثارهم ايمان أشد حقدا ، أن أخوتهم النصارى ينفصلون تدريجا عن عقيدة الكنيس اليهودى ، وربما طاب لهم أن يطفئوا نيران هذه الهرطقة الخطيرة بدماء أتباعها ! ولكن قضاء السماء أحبط كيدهم . ورغم أنهم عمدوا فى بعض الأحيان الى التمرد المفاجىء ، فانهم لم يعودوا يملكون زمـــام القضاء الجنائى ، كما لم يكن من السهل عليهم أن ينفثوا فى صـــدر الحاكم الرومانى الهادىء سخائم غيرتهم وكراهيتهم . وأعلن حــكام الولايات أنهم على استعداد للاستماع الى أى اتهـام من شـأنه أن يضر بالسلامة العامة . ولكنهم حالما كانوا يعرفون أن المسألة مسألة كلام ، لا حقائق ، ونزاع حول تفسير شرائع اليهود ونبوءاتهم ، كانوا يعتبرون انه لا يليق بمكانة روما وعظمتها أن يبحثوا بحثا جديا فى الخـلافات الغامضة التى قد تنشأ بين شعب متبربر يؤمن بالخرافات . وكأنى بالجهل والاحتقار كانا يحميان براءة المسيحيين الأولين . وكثيرا ما ثبت أن قضاء الحاكم الوثنى كان خير عاصم لهم من غضب الكنيس اليهودى. ولو كنا نجنح حقا الى تبنى تقاليد القدامى السذج الأغرار ، لسردنـــا الجولات النائية والمنجزات العجيبة التى قام بها الرسل أو الحواريون الاثنا عشر ، والميتة المختلفة التى لقيها كل منهم ، ولكن الاستقصـــاء الذى هو أكثر دقة قد يدفع بنا الى الارتياب فى أن واحدا من هؤلاء الأشخاص الذين كانوا شهودا على معجزات المسيح ، قد أذن له فيما وراء حدود فلسطين أن يؤكد ببصمات من دمه صدق شهادته (١) . ومن الطبيعى أن نفترض ، تبعا للأجل العادى لحياة الانسان ، أنهم قضوا نحبهم قبل أن ينفجر سخط اليهود فى تلك الحرب الضروس التى لم يضع لها حدا الا تدمير أورشليم . فاننا طوال هذه الحقبة الطويلة التى انقضت بين موت المسيح وبين هذه الثورة المشهودة لن نستطيع أن نتبين أى آثار لتشدد الرومان أو عدم تسامحهم ، اللهم الا فى هذا الاضطهاد المفاجىء العابر ، ولكنه كذلك القاسى ، الذى أذاقه نيرون للمسيحيين فى العاصمة ، بعد خمس وثلاثين سنة من سابقه ، وقبل عامين من ثانى هذين الحدثين الجسيمين ، وان شخصـــية المـؤرخ الفيلسوف الذى ندين له بالتعرف على هذا العمل الشاذ ، لتكفى وحدها لتجعله أهلا لدراستنا الواعية .

(١) اقتصر شرف الاستشهاد فى أيام ترتوليان وكليمنز السكندرى على القديس بطرس والقديس بولس والقديس يوحنا . وقد أسبغ هذا الشرف على بقية الرسل الاغريق الذين هم أحدث عهدا ، والذين اختاروا فطنة وحرصا منهم ، بلدا نائيا عن حدود الامبراطورية الرومانية ليكون مسرحا لوعظهم وآلامهم .

ففى السنة العاشرة من حكم نيرون أصيبت العاصمة بحريق اندلع فى شدة لم يعرف لها فى التصور الخوالى نظير أو مثال . ولم تنج من الدمار الشامل آثار فن اليونان وقوة الرومان والأنصاب التذكارية لحروب البلوبونيز والغال ، وأقدس المعابد ، وأفخم القصور . ومن الأحياء الأربعة عشر التى كانت تضمها روما ، سلم أربعة فقط ، ومحى منها ثلاثة محوا تاما أما الأحياء السبعة الباقية التى تلظت فى سعير النيران ، فقد كشفت عن منظر مفجع حزين للخراب والوحشة . ولا يبدو أن يقظة الحكومة لم تغفل اتخاذ أية احتياطات لتخفف من أثر هذه الكارثة الرهيبة . ففتحت الحدائق الامبراطورية أبوابها للجموع المنكوبة ، وشيدت بعض المبانى المؤقتة لايوائهم ، ووزعت كميات كبيرة من القمح والمؤن بأسعار معتدلة . وبدا أن أكرم سياسة قد أملت القوانين التى حددت فتح الشوارع واقامة المساكن الخاصة — وكما يحدث عادة فى أيام الرخاء — وأنتج حريق روما فى بضع سنين قلائل ، مدينة جديدة ، أدق نظاما وأوفر جمالا من سابقتها . ولكن كل الفطنة والروح الانسانية اللتين تظاهر بهما نيرون لم تنقذه من شكوك الشعب ، فان أية جريمة يمكن أن تلصق بقاتل زوجته وأمه ، كما يستحيل الظن بأن الأمير الذى أساء الى شخصه والى مكانته يعجز عن ارتكاب اشنع الخطايا . واتهمت الاشاعات الامبراطور باحراق عاصمته عمدا ، ولما كانت ابعد القصص عن التصديق هى التى تلتئم أكثر ما يكون الالتئام مع عبقرية الشعب فى سورة غضبه ، فقد ذكر فى أسلوب جاد لا هزر فيه كما ساد الاعتقاد الجازم الراسخ ، بأن نيرون الطروب للكارثة التى أحدثها ، تسلى على قيثارته بأنشودة تدمير طروادة القديمة . وصمم الامبراطور على الصاق التهمة ببعض المجرمين الوهميين ليحول عن شخصه الشبهة التى عجزت قوة الاستبداد عن القضاء عليها . ويتابع تاسيتس حديثة فيقول : « وعلى هذا الأساس انزل (نيرون) أشد الوان العذاب بهؤلاء الرجال الذين كانوا — تحت اسم المسيحية القبيح (فى راى نيرون) — قد وصموا فعلا بأشنع العار ، فقد اشتقوا اسمهم ونشأتهم من المسيح الذى لقى حتفه فى عهد تيبيريوس ، على يد نائب الحاكم بيلاطس البنطى . وأخمدت هذه الخرافة المروعة لفترة قصيرة ، ولكنها ما لبثت أن انتشرت وذاعت ، لا فى ارض الميعاد وحدها ، وهى الموطن الأول لهذه الطائفة الشريرة ، بل كذلك وصلت الى روما ، وهى الملاذ العام الذى يتلقى ويحمى كل ما هو ملوث مهما كان تلوثه ، وكل شىء فظيع مهما بلغت فظاعته . وكشفت اعترافات المقبوض عليهم عن شركاء كثيرين لهم ، وادينوا جميعا ، بتهمة كراهيتهم للجنس البشرى ، اكثر منهم بتهمة اشعال

النار فى المدينة . وعذبوا حتى ماتوا ، وزاد السباب والسخرية من مرارة التعذيب . ودق بعضهم بالمسامير على الصلبان ، وخيط آخرون فى جلود الحيوانات المتوحشة ، وتركوا لنهم الكلاب ، وصب على بعضهم مواد محرقة ، وأوقدت فيهم النار ، واستخدموا كمشاعل تضىء حلكة الليل . وخصصت حدائق نيرون للمشهد الحزين الذى صحبه سباق للخيل ، والذى شرف بحضور الامبراطور الذى اختلط بالشعب فى زى وهيئة قائد عجلة حربية . واستحقت جريرة المسيحيين فى الواقع أقسى عقاب يكون فيه عبرة لغيرهم ولكن المقت العام تحول الى اشفاق ، استنادا الى أن التضحية بهؤلاء الأشقياء التعساء لم تكن من أجل المصلحة العامة قدر ما كانت لقسوة الطاغية الحقود » . وقد يلحظ كل الذين يستعرضون ثورات الجنس البشرى بنظرات فاحصة مدققة أن حدائق وملعب نيرون فى الفاتيكان ، تلك التى لطخت بدم المسيحيين الأولين قد ازدادت شهرتها بانتصار الديانة المضطهدة وبسوء استغلالها . ففى نفس البقعة ، ومن ذاك العهد ، أقيم معبد يفوق الروعة القديمة للكابيتول بكثير ، اقامه أحبار المسيحية الذين استمدوا دعوى ملكية العالم من صائد السمك المتواضع فى « الجليل » فاعتلوا عرش القياصرة ، وسنوا القوانين لغزاة روما المتبربرين ، وبسطوا ولايتهم من ساحة البلطيق الى شواطىء المحيط الهادى .

وقد لا يكون من اللائق أن نترك اضطهاد نيرون دون ابداء بعض ملاحظات قد تكون مفيدة فى تذليل بعض المشاكل التى اقترنت به ، والقاء بعض الضوء على التاريخ اللاحق للكنيسة .

(أ) ان أكثر النقاد تشككا مضطر الى احترام صدق هذه الحقيقة الشاذة ونزاهة هذه القطعة المشهورة التى كتبها تاسيتس . أما الحقيقة فقد أكدها سويتونيوس Suetonius اليقظ الدقيق الذى أورد ذكر العقوبة التى انزلها نيرون بالمسيحيين ، وهم طائفة من الناس اعتنقوا خرافة (عقيدة) جديدة آثمة . أما النزاهة فقد تثبتها مطابقة الحقيقة لأقدم المحفوظات ، والخاصية الفريدة المنقطعة النظير لأسلوب تاسيتس، وسمعته التى حصنت كتاباته ضد دس الاحتيال الورع ، وفحوى روايته التى اتهمت المسيحيين الأولين بأبشع الجرائم دون الايعاز بأنه كانت لهم قوى معجزة أو حتى سحرية تفوقوا بها على سائر البشر .

(ب) ورغم أنه يحتمل أن يكون تاسيتس قد ولد قبل حريق روما ببضع سنوات قلائل ، فانه كان من الميسور له من قراءاته وأحاديثه

أن يستقي معلوماته عن حادث وقع في طفولته . وكان قبل أن يظهر للناس ويذيع صيته بينهم ، قد انتظر في هدوء وسكون حتى بلغت عبقريته ذروة النضج ، وكان قد جاوز الأربعين من عمره حين انصت مع التقدير والامتنان لذكريات أجريكولا الفاضل ، وانتزع منه أولى البواكير التاريخية في مؤلفاته التي قد تطيب لأبعد الأعقاب والذراري مطالعتها ، والتي تثقف هؤلاء الأعقاب والذراري . وبعد أن امتحن قوته وقدرته في تدوين حياة أجريكولا ، وفي وصف ألمانيا ، فكر في النهاية في انجاز عمل اكثر مشقة ، هو « تاريخ روما » في ثلاثين جزءا ، من سقوط نيرون الى اعتلاء نرفا العرش . وبدأ بحكم نرفا عصر من العدالة والازدهار ، خصصه تاسيتس ليكون شغله الشاغل ايام شيخوخته ، ولكنه لما دقق النظر في موضوعه — وربما ارتأى أن تسجيل مساوىء الطغاة السابقين مهمة أكثر شرفا وأقل اثارة للحسد والبغضاء من تمجيد فضائل الملك الحاكم — اختار أن يسرد على هيئة حوليات — أعمال الخلفاء الأربعة المباشرين لأوغسطس . وكان جمع سلسلة تغطى ثمانين عاما وتبويبها وتدبيجها في مؤلف خالد ، تنوء كل عبارة فيه بأعمق الملاحظات وأروع الصور — كل أولئك كان عبئا كافيا لاستنفاد عبقرية تاسيتس نفسه في الجزء الأكبر من حياته . وفي أخريات حكم تراجان حين بسط الملك الظافر سلطان روما فيما وراء حدودها القديمة ، كان المؤرخ يصف طغيان تيبيريوس في الكتابين الثاني والرابع من حولياته ، ولابد أن الامبراطور هادريان كان قد تبوأ العرش قبل أن يتمكن تاسيتس — في المدى الطبيعي لانجاز عمله — من رواية حريق العاصمة وقسوة نيرون ضد المسيحيين التعساء . وكان من واجب كاتب الحوليات ، وقد مضى على حادث الحريق ستون عاما أن يقتبس رواية المعاصرين ، ولكن كان من الطبيعي أن ينصرف الفيلسوف الى وصفه نشأة الطائفة الجديدة وتقدمها وأخلاقها ، على ألا يستند الى معلومات عصر نيرون وما ساده من آراء متحيزة ، قدر استناده الى عصر هادريان .

(جـ) وكثيرا ما يترك تاسيتس لفضول قرائه أو تأملهم ، مهمة استيفاء الظروف أو الأفكار الوسيطة أو المتداخلة التي ارتأى هو في ايجازه المخل أنه من الأليق كتمانها . ومن ثم قد نجترىء فنتصور سببا محتملا لقساوة نيرون ضد المسيحيين في روما ، الذين كان ينبغي أن يكون لهم من غموضهم وبراءتهم سياج يحميهم من سخطه ، بل من علمه بوجودهم . على حين كان اليهود ، وهم كثرة في العاصمة ، وهم يقاسون الظلم ألوانا في بلدهم ، أكثر أهلية لأن يكونوا هدفا لشكوك

الامبراطور والشعب ، كما أنه لم يكن من غير المتوقع لأمة مقهورة اكتشفت بالفعل مقتها للنير الرومانى ، أن تعمد الى أبشع الوسائل لارضاء شهوة الانتقام المتقدة فى قلوبهم . ولكن اليهود كانوا يملكون ناصية دفاع قوى جدا فى القصر ، بل حتى فى قلب الطاغية ، أعنى زوجته ومحظيته ، بوبيا Poppea الجميلة ، ولاعب أثير من قوم ابراهيم ، استخدما بالفعل شفاعتهما لمصلحة الشعب الكريه . وكان لزاما أن تقدم بدلا من هذا الشعب اية ضحايا اخرى . وكان من أيسر اليسير أن يقال — رغم براءة الاتباع الأصلاء لشريعة موسى من وزر حريق روما — انه قد ظهرت بينهم طائفة جديدة خبيثة من أبناء الجليل ، فئة قادرة على اقتراف أبشع الجرائم . واختلط تحت اسم « الجليليين » (أبناء الجليل) طائفتان متميزتان من الناس ، تختلف الواحدة منهما عن الأخرى كل الاختلاف فى سلوكها ومبادئها : التلاميذ الذين اعتنقوا عقيدة يسوع الناصرة — والمتعصبون الذين اتبعوا مذهب يهوذا الجليلى ، وكان الأولون أصدقاء الجنس البشرى ، والآخرون أعداءه . ويتركز الشبه الوحيد بينهما فى الجلد الذى لا ينثنى ، الذى جعلهم لا يتأثرون بالموت او التعذيب فى دفاعهم عن قضيتهم . ولم يلبث اتباع يهوذا الذين حركوا بنى جلدتهم الى التمرد والعصيان — لم يلبثوا أن دفنوا تحت انقاض أورشليم ، بينما انتشر أتباع يسوع الذين عرفوا بالاسم الأكثر شهرة : « المسيحيون » فى مختلف أرجاء الامبراطورية . فكم كان طبيعيا أن ينسب تاسيتس ، فى عصر هادريان ، الى المسيحيين جرائم وآلاما كان يمكن أن يلصقها ، بدرجة اكبر من الصدق والعدل ، بطائفة كادت أن تخبو ذكراها المقيتة ! .

(د) ومهما كان الرأى فى هذا الحدس والتخمين (لأنه لا يعدو أن يكون كذلك) فمن الواضح أن اثر اضطهاد نيرون ، مثله فى ذلك مثل سببه — لم يتعد جدران روما ، وأن عقيدة الجليليين أو المسيحيين لم تتخذ قط موضوعا للعقاب أو حتى للتحقيق ، وأنه ، لما كانت فكرة آلامهم قد ارتبطت لفترة طويلة بفكرة القساوة والجور ، فان اعتدال الأمراء المتعاقبين حدا بهم الى الابقاء على طائفة عانت من ظلم طاغية اتجه حنقه عادة ضد الفضيلة والبراءة .

وقد يكون من الغريب ، الى حد ما ، أن نيران الحرب التهمت ، فى نفس الوقت تقريبا هيكل اورشليم وكابيتول روما ، ولا يبدو اقل غرابة أن الجزية أو الاتاوة التى كان الحماس الدينى قد خصصها للأول حولتها قوة فاتح منتصر لاعادة بناء الثانى وتنميقه . فقد فرض الأباطرة

ضريبة راس عامة على الشعب اليهودى ، ورغم أن المبلغ المفروض على الرأس كان تافها ، فان وجه انفاقه والصرامة فى جمعه ، اعتبرتا حيفا لا يحتمل . ولما جاوز مأمورو الدخل الحد وطالبوا بغير حق كثيرا من الأشخاص الغرباء على الدم اليهـودى والديانة اليهودية ، كـان من المستحيل على المسيحيين ، وهم الذين كثيرا ما استظلوا بظل الكنيس، أن ينجوا بأنفسهم من الاضطهاد الوحشى الجشع . وكان حرصـهم شديدا على اجتناب اية شبهة وثنية ، فأبت عليهم ضمائرهم أن يسهموا فى تكريم ذلك الشيطان الذى تقمص شخصية جوبيتر فى آلكابيتولين . ولما كانت فئة كبيرة ، ولو انها فى طريق الاضمحلال ، بين المسيحيين ، ظلت ملتزمة بشريعة موسى ، فان جهودهم فى ستر منبتهم اليهودى قد فضحها الاختبار الحاسم ، الا وهو الختان ، على حين لم يـكن لدى الحكام الرومـان فسحة من الوقت لاستقصـاء أوجه الخـلاف بين مبادئهم الدينية . ومن بين المسيحيين الذين جئ بهم امام الامبراطور، او على الأصح محكمة الحاكم فى أرض الميعاد ، وجد اثنان قيل انهما — فيما يبدو — يتميزان بكرم المحتد ، وانهما يفوقان بحق أعظم الأباطرة شرفا ونبلا . وكان هذان الشخصان حفيدى القديس يهوذا الرسول ، من اشياع يسوع المسيح (وهو غير يهوذا الأسخربوطى) . وربمـا جذبت دعواهم الطبيعية بحقهم فى عرش داود احترام الشعب ، وأثارت حقد الحاكم ، ولكن وضاعة ملابسهم وبساطة اجاباتهم اقنعتاه فى الحال بأنهما لا يرغبان، بل ولا يستطيعان ، تكدير صفو الهدوء فى الامبراطورية الرومانية ، وقـد اعترفا صراحة بأصلهما الملكى ، وبقرابتهما القريبة للمسيح ، ولكنهما تنصلا من اية مطامع دنيوية ، كما قررا أن ملكوته الذى ارتقباه فى لهفة ، انما هو من طبيعة روحية ملائكية خالصة . فلما سئلا عن ثروتهما ومهنتهما ، كشفا عن أيديهما التى اخشوشنت بفعل كدحهما اليومى ، وأعلنا انهما يكسبان قوتهما من فلح مزرعـة قرب كوكبه Cocaba ، تبلغ مساحتها اربعـة وعشرين فـدانا انجليزيا ، وتبلغ قيمتها تسعة آلاف درهم (ثلثمائة جنيه استرلينى) . ومن ثم اخرج حفيدا القديس يهوذا مشيعين بالاشـفاق والازدراء .

ولكن ، على الرغم من أن وضاعة آل داود ، ربما جاز أن تحميهم من شـكوك الطاغية ، فان عظمة أسرته الحـالية أزعجت مزاج دوميتيان الجبان ، الذى لم يهدئ من روعه الا دم أولئك الرومان الذين خافهم أو كرههم أو احترمهم . فسرعان ما أخذ أكبر ابنى عمه فـلافيوس سابينوس بتهمة الخيانة ، اما أصغرهما ، وكان اسمه فلافيوس كليمنز فقد كان مدينا بسلامته الى افتقاره الشجاعة والمقـدرة . واختص

الامبراطور لفترة طويلة بحبه وحمايته ابن عمومته هذا الذى لا يقدم على اية اساءة أو أذى ، وخلع عليه ابنة أخيه ، وكان اسمها دوميتللا Domitilla وتبنى الأطفال الذين اثمرهم هذا الزواج ، على أمل أن يخلفوه على العرش ، ومنح أباهم مرتبة القنصل ، ولكنه لم يكد ينهى فترة حكمه ، ومدتها عام ، حتى أدين لادعاء تافه وأعدم . ونفيت دوميتللا الى جزيرة مقفرة على ساحل كمبانيا . وصــدرت الأحكــام بالاعدام او مصادرة الأموال على عدد كبير من الأشخاص الذين اشتركوا فى نفس التهمة ، أما الجريمة التى نسبت اليهم فهى « الالحاد » والتشبه بأخلاق اليهود ، وهو ترابط فريد لا يمكن تطبيقه بحال من الأحــوال الا على المسيحيين ، حيث كان الحكام والكتاب فى ذاك الزمان يرونهم بشكل غامض معيب . وبمقتضى قوة هذا التفسير المحتمل ، وتلهفا على التسليم بأن شكوك الطاغية تعتبر شاهدا على ذنبها المشرف ، وضعت الكنيسة كلا من كليمنز ودوميتللا فى عداد شهدائها الأوائل ، ودمغت قساوة دوميتيان باسـم الاضطهاد الثـانى . ولكن هـذا الاضـطهاد (اذا استحق أن نسميه اضطهادا) لم تطل مدته . ذلك أنه بعد بضعة أشهر من موت كليمنز ونفى دوميتللا ، أعـدم ستيفن ـ وهـو رجـل معتق ، كان من خدم الأخيرة ، حظى بعطفها ، ولم يكن من المحقق انه اعتنق عقيدة محظيته ـــ أعدم الامبراطور فى قصره . وأدان السناتو ذكرى دوميتيان ، وأبطلت قوانينه ، وأعيد من نفاهم . وفى ظل الادارة الوادعة على عهد نرفا ، بينما نرى الأبرياء قـد استعادوا مراكزهم وثرواتهم ، نجد أن أكبر المجرمين قد حصلوا على العفو أو هربوا من العقاب .

٢ ـــ وبعد ذلك بنحو عشرة أعوام ، فى عهد تراجان ، عهد الصديق والسيد ، الى بلينى الصغير . بحكم بيثينيا وبنطس ، وسرعان ما وقع الحاكم فى حيرة من امره : اية قاعدة من قواعد العدل أو القـانون يتخذها اساسا لسلوكه فى ممارسة مهام وظيفة هى أبغض ما تكون الى روحه الانسانية . ولم يكن بلينى قد اشترك قط فى اجراءات قضائية ضد المسيحيين الذين يبدو أنه لم يعرف عنهم الا مجرد اسمهم ، ولم يصل الى علمه شىء عن طبيعة جريمتهم، وأسلوب اتهامهم ، ودرجة عقوبتهم. وعاد ، فى غمرة هذه الحيرة ، الى مألوف طريقته ، وهى أن يرفع الى حكمة تراجان بيانا نزيها متجردا ، ومن بعض الوجوه لطيفا ، عن الخرافة (العقيدة) الجديدة ، ملتمسـا من الامبراطور أن يتفضـل فيبدد شكوكه او يجبر جهله . لقد قضى بلينى حياته فى طلب العلم والانشغال بأمور الدنيا ، فقد ترافع بامتياز منذ سن التاسعة عشرة فى محاكم روما ،

وشغل مقعدا فى السناتو ، وتقلد منصب القنصل ، وكون علاقــات كثيرة مع كل طبقات الناس فى ايطاليا وفى الولايات . ومن ثم يمكن أن نستخلص من جهله بعض المعلومات المفيدة . فيمكن أن نوقن بانه عندما قبل حكومة بيثنيا ، لم تكن هناك قوانين أو مراسيم عامة من السناتو ، نافدة المفعول ضد المسيحيين ، وانه لا تراجان ، ولا أحد من أسلافه الأفاضل ـــ ممن كانت أوامرهم العالية تصدر فيما يتعلق بالقضاءين المدنى والجنائى ـــ أعلن بصراحة عن اتجاهاتهم أو مقاصدهم فيما يتعلق بالطائفة الجديدة ، وانه مهما كان من اجراءات اتخذت ضد المسيحيين، فانه لم يكن من بين هذه الاجراءات شيء ذو قيمة وقوة يصلح معهما ليشكل سابقة توجه سلوك اى حاكم رومانى .

ويكشف جواب تراجان ، ذلك الجواب الذى كثيرا ما لجأ اليه المسيحيون فى العصر التالى ـ يكشف عــن احترام كبير للعـــدالة والانسانية ، مما تمكن الملاءمة بينه وبين أفكاره الخاطئة عن السياسة الدينيـــة . وبدلا من الكشف عن الغيـــرة الشـــديدة التى لا تنثنى من « محقق » متلهف على استيضاح أدق تفاصـــيل الهرطقـــة ، نـــرى الامبراطور يعبر عن رغبة وقلق من أجل حماية أمن الأبرياء أشد كثيرا منه للحيلولة دون افلات المجرمين . وانه ليعترف بالصعوبة فى تحديد خطة عامة ، ولكنه يضع قاعدتين مفيدتين غالبا ما كان فيهمـــا غوث وتدعيم للمسيحيين المنكوبين . فانه رغم توجيهاته الى الحكم بان يعاقبوا الأشـــخاص الذين أدينـــوا قانونا ، يحرم عليهم ، فى تناقض رحيم جدا ، التحقيق مع المجرمين المشتبه فيهم ، كما انه لم يكن مرخصا للحكام فى أن يتخذوا اجراء بشأن كل بلاغ أو اخبارية تصل اليهـــم ، كما أن الامبراطور يرفض الاتهامات الغفل من الأسماء باعتبارها منافية لمبادىء الانصاف فى حكومته ، ويطالب بشدة وفى اصرار ، لادانة من تلصق بهم تهمة المسيحية ، بدليل ايجابى من مدع عادل يعلن عن اسمه . ومن المحتمل كذلك أن هؤلاء الأشخاص الذين تولوا هـــذه المهمـــة المثيرة للبغضاء ، كانوا ملزمين بالافصاح عن أسس شكوكهم ، وتفصيل (زمان ومكان) هذه الجمعيات السرية التى تردد عليها أعداؤهم المسيحيون ، واماطة اللثام عن الظروف التى أخفيت بمنتهى الحقد الحذر عن أعين الكفار المدنسين ، فاذا أفلحوا (أى المخبرين) فى رفـــع الدعـــوى ، تعرضوا لسخط فئة كبيرة من الناس ، ولوم الفئة التى هى أكثر تحررا، وللمقت الذى يلازم شخصية المخبـــر أو المبلغ فى كل زمان ومكان . وعلى النقيض من ذلك ، اذا أخفقوا فى اقامة الأدلة جلبوا على أنفسهم عقوبة صارمة ، وربما كانت عقوبة الاعدام ، التى كانت تنزل ـــ طبقا لقانون

أصدره هادريان ـــ باى شخص ينسب زورا وبهتانا جريمة المسيحية الى زملائه المواطنين . وربما طغى عنف الضغائن الشخصية أو الخرافية (العقائدية) على أشد الخوف الطبيعى من العار أو الخطر . ولكن لا يمكن على التحقيق أن يتصور أن الرعايا الوثنيين فى الامبراطورية الرومانية عمدوا ، فى قليل أو كثير ، الى هـذه الاتهامات التى لا يبدو أنها تبشر بالخيـر .

ان الوسيلة التى استخدموها للافلات من حصانة القانون ، لتقدم دليلا كافيا على مدى الفعالية التى احبطوا بها كل الخطط الشريرة المنبعثة عن الحقد الشخصى أو الغيرة الخرافية ، وان روادع الخوف والعار المفروضة قسرا على الأفراد فى الجماعة الكبيرة الصاخبة لتفقد الجزء الأكبر من تاثيرها . وترقب المسيحى التقى الذى رغب فى الحصول على شرف الاستشهاد أو فى الافلات منه ـ ترقب وقـد نفـد صـبره أو تملكه الرعب ـــ الموعد المحدد لعودة الألعاب والأعياد العـامة ، وكان سكان المدن الكبرى فى الامبراطورية ، فى مثل هذه المناسبات ، يتجمعون فى الملعب أو المسرح حيث كان كل مشهد من مشاهـد المكان أو الاحتفال يساعد على اذكاء روح النسك والتعبد أو اخماد الروح الانسانية فيهم ، وبينما أسلم جمهور النظارة ـــ وهم يضعون أكاليل الغار على رءوسـهم وقد تطيبوا بالبخور ، وتطهروا بدم القرابين ، تحيط بهم مذابح وتماثيل معبوداتهم الحارسة ـــ بينما أسلموا أنفسهم للتمتع بهذه المسرات التى اعتبروها جزءا أساسيا من عبادتهم ، تذكروا أن المسيحيين وحدهم مقتوا آلهة بنى الانسان ، وأنهم بتخلفهم عن حضور هذه الاحتفالات المهيبة ، أو شعورهم بالحزن اذا شهدوها ، بدوا وكأنهم يسيئون الى الابتهاج العـام أو يرثون لـه . واذا ألمت بالامبراطورية أية كارثة حديثة : طاعون ، مجاعة ، حرب غير موفقة ، أو اذا فاضت مياه التيبر على جوانبه ، أو لم يأت فيضان النيل ، أو زلزلت الأرض أو اختل النظام اللطيف فى تعاقب الفصول ـــ اذا حدث شىء من ذلك ، اقتنع الوثنيون المؤمنون بالخرافات بأن كفر وجرائم المسيحيين الذين أبقى عليهم افراط الحكومة فى الرفـق واللين ، هى التى استفزت العدالة الالهية آخر الأمر . وما كانت أساليب الاجراءات القانونية لتراعى وسط جمهور فاجر غاضب ، وما كان صوت الاشفاق والرحمة ليسمع فى مدرج ملطخ بدماء الحيوانات الكاسرة والمجالدين . ولكن صيحات الجمهور الجزوع توعدت المسيحيين بأنهم أعداء الآلهة والناس ، وقضت عليهم بأشد العذاب ، وبلغت بهم الجرأة الى حـد توجيه الاتهام بالاسم الى نفر من ألمع أفراد الطائفة الجديدة ، وطالبوا ،

فى سورة غضبهم الذى لا يقاوم بالقبض عليهم والقائهم الى السباع . وكان حكام الولايات الذين تصدروا الاحتفالات العامة يميلون عادة الى ارضاء نزعات الشعب وتهدئة خواطره ، بتقديم بعض الضحايا البغيضة ، ولكن حكمة الأباطرة عصمت الكنيسة شر هذه الهتافات الصاخبة والاتهامات الشاذة التى عابوا عليها بحق أنها منافية لقواعد الحزم ولمبادىء الانصاف فى حكمهم . ونصت مراسيم هادريان وأنطونينوس بيوس على أن صوت الجماهير لا يجوز أن يسلم به كدليل قانونى لادانة أو عقاب أولئك الأشخاص التعساء الذين اعتنقوا العقيدة المسيحية .

٣ — ولم تكن العقوبة هى النتيجة المحتومة للادانة ، ذلك أن المسيحيين الذين ثبتت جرائمهم ثبوتا قاطعا بشهادة الشهود . او حتى باعترافهم الاختيارى ، ظل فى مكنتهم هم أنفسهم أن يستبدلوا الحياة بالموت ، فان الجرم السابق لم يكن يثير سخط الحاكم ، قدر ما تثيره المقاومة الفعلية ، فقد أيقن انه انما قدم لهم عفوا ميسورا ، حيث انهم — اذا ارتضوا وضع بعض حبات البخور على المذبح — كانوا يغادرون ساحة المحكمة فى امان واستحسان . فقد قدر أن من واجب القاضى الرحيم أن يصلح ويهذب أكثر من أن يعاقب ويعذب هؤلاء المتحمسين المخدوعين . وكان يبدل من نبرات صوته ، تبعا لأعمار السجناء أو جنسهم (ذكر أو أنثى) ومراكزهم ، وغالبا ما يتلطف معهم ، فيبسط أمام اعينهم كل ما يمكن أن يجعل الحياة أكثر متعة ومسرة ، أو يجعل الموت أكثر فزعا ورهبة ، ويطلب منهم ، لا بل يتوسل اليهم ، أن يستشعروا شيئا من الرحمة بأنفسهم وبأسراتهم ، وبأصدقائهم ، فاذا لم تجد التهديدات والمغريات نفعا عاد الى استعمال العنف ، واتى بالسوط والمخلعة (اداة استعملت للتعذيب قديما) ليعوضا عن عجز الجدل والمناقشة ، واستخدمت كل الوان القسوة لاخضاع هذا العناد الذى لا يلين ، أو كما بدا للوثنيين العناد الاجرامى . وعاب المدافعون القدامى عن المسيحية ، بنفس القدر من الصدق والعنف . على مضطهديهم سلوكهم الشاذ ، الذى أقر التعذيب خلافا لكل مبادىء العدالة والاجراءات القضائية ، لا من اجل الحصول على اعتراف من يحققون معهم ، بل لحملهم على انكار الجريمة موضوع التحقيق ، وكثيرا ما ابتدع رهبان العصور اللاحقة الذين تسلوا فى خلواتهم الهادئة بتعداد وفيات وآلام الشهداء الأوائل — ابتدعوا صنوفا من العذاب اكثر تهذيبا وبراعة . وجدير بالذكر أنه قد طاب لهم أن تذهب بهم الظنون الى أن غيرة الحكام الرومان ، استخفافا منهم بكل فضيلة اخلاقية

وبآداب اللياقة العامة ، حاولوا أن يفسقوا بمن أخفقوا فى اخضاعهم ، وانهم أمروا بممارسة أشد ألوان التعذيب مع من استحال عليهم أن يتالوا منهم شيئا من ذلك . ويروى أن النسوة الفاتنات اللاتى تهيأن لاستعذاب الموت ، تعرضن أحيانا لامتحان أشد وأنكى ، حيث كان يطلب اليهن أن يحددن أيهما أكبر عندهن قيمة : دينهن أم عفتهن ، وحرض القاضى أيما تحريض أولئك الشباب الذين أسلم هؤلاء النسوة لأحضانهم الفاجرة ، على بذل أقصى الجهد للانتقام لمجد فينوس (ربة العشق والجمال عند اليونان) رغم أنف هؤلاء العذارى الملحدات اللائى رفضن احراق البخور فى مذبحها . ولكن غالبا ما أحبط عنف هؤلاء الشباب ، على أية حال ، حيث تدخلت فى الوقت المناسب قوة خارقة معجزة فعصمت فتيات المسيح الطاهرات العفيفات من العار ، حتى ولو أكرهن على الاستسلام اكراها . ولكن يجدر بنا فى الواقع الا نغفل الاشارة الى أن أقدم وأصدق سجلات الكنيسة قل أن تلوثت بمثل هذه الأقاصيص المسرفة الشائنة (١) .

ودعا الى هذا الاغراق فى اغفال الحقيقة ، وترجيح وقوع هذه الاستشهادات الأولى خطأ طبيعى جدا . ذلك أن كتاب الكنيسة فى القرنين الرابع والخامس نسبوا الى حكام روما نفس القدر من الغيرة الطاغية التى لا تلين ولا تنثنى ، والتى أوغرت صدورهم ضد الهراطقة أو الوثنيين فى أيامهم . وليس بمستبعد أن يكون بعض هؤلاء الأشخاص الذين تبوءوا مناصب الامبراطورية قد أشربوا تعصب الشعب ، وأن تكون النزعة الى القسوة قد استثارها فى آخرين بواعث الجشع أو الاستياء الشخصى (٢) . ولكنه من المحقق — ويمكن الرجوع فى هذا الى اعترافات المسيحيين الأولين التى تفيض بالشكر — أن الأغلبية العظمى من هؤلاء الحكام الذين مارسوا فى الولايات سلطة الأباطرة أو سلطة السناتو ، والذين وضع فى أيديهم وحدهم أمر التحكم فى الحياة والموت ، سلكوا مسلك رجال تحلوا بآداب رفيعة مهذبة وتلقوا تعليما متحررا ، واحترموا قواعد العدالة ، وكانوا على اطلاع واسع بمبادىء الفلسفة ، وكثيرا ما نبذوا المهمة البغيضة ، الا وهى مهمة الاضطهاد ، وأسقطوا الاتهام فى احتقار ، أو أوعزوا الى المسيحى

(١) يروى لنا جيروم فى كتابه « أسطورة بولس الناسك » قصة غريبة لشاب قيد بالأغلال عاريا فى فراش من الأزهار ، وباغتته غانية جميلة لعوب ، فما كان منه الا أن قضم لسانه ليخمد جذوة الشهوة بين ضلوعه .

(٢) استفز اعتناق زوجة كلوديوس هرمنيانوس Claudius Herminianus حاكم كبادوكيا للمسيحية ، الى معاملة المسيحيين بقسوة غير عادية .

المتهم ببعض الحيل القانونية التى يمكن بها الافلات من صرامة القانون. وكانوا اذا خولوا حرية التصرف — استغلوها فى نجدة الكنيسة المنكوبة وفى مصلحتها أكثر كثيراً منها فى البطش أو التنكيل بها . وكانوا بعيدين كل البعد ، عن الحكم على كل المسيحيين المتهمين الذين يمثلون أمام محكمتهم ، وبعيدين جداً عن الحكم بالاعدام على أولئك الذين أدينوا بالتعلق العنيد بالخرافة (العقيدة) الجديدة ، اكتفاء منهم ، فى معظم الأحوال ، بالعقوبة الأخف : السجن ، النفى ، السخرة فى المناجم ، وتركوا لضحايا قضائهم البائسة فرصة التعلق بالأمل فى مناسبة سعيدة. مثل ارتقاء امبراطور الى العرش أو زواجه أو انتصاره ، مناسبة يصدر فيها عفو عام يعجل بعودتهم سيرتهم الأولى . أما الشهداء الذين نفذ فيهم الحكام الرومان حكم الاعدام فورا ، فانه يبدو أنهم اختيروا من بين فئتين على طرفى نقيض . فكانوا اما من بين الأساقفة والمشايخ ، وهم أبرز الأشخاص وسط المسيحيين بحكم مراتبهم ونفوذهم ، من الذين يلقى أمثالهم الرعب فى قلوب الطائفة بأسرها ، أو أحط وأحقر المسيحيين وبخاصة أولئك الذين اتسمت معيشتهم بالذل والاستعباد ، ممن قدر أن حياتهم غير ذات قيمة ، وممن نظر الأقدمون الى آلامهم وشقائهم بأكبر قدر من الاستهتار والاغفال . ويعلن العلامة أوريجن ، وهو الواسع الاطلاع على تاريخ المسيحيين بحكم خبرته وقراءاته ، يعلن فى أجلى بيان أن عدد الشهداء كان قليلا جدا . وقد تكون حجته وحدها كافية لدحض القول بوجود هذا الجيش العرمرم من الشهداء الذين أخذت رفاتهم ، فى معظم الأحوال من قبور روما ، وزخر بها كثير من الكنائس (١) . والذين كانت أعمالهم الخارقة موضوع مجلدات كثيرة

---

(١) اذا تذكرنا أن كل العامة فى روما لم يكونوا مسيحيين ، وان كل المسيحيين لم يكونوا قديسين أو شهداء ، لأمكن الحكم الى أى حد من الطمأنينة كانت الأمجاد الدينية تضفى على العظام أو زجاجات الرماد التى كانت تؤخذ دون تمييز من المقابر العامة . وبعد عشرة قرون من عمل حر صريح ثارت بعض الشكوك فى أوساط الكاثوليك ، وخاصة الأكثر علما منهم ، فانهم يتطلبون الآن ، كدليل على القداسة والاستشهاد ، وجود الحرفين ب . م . (B.M.) أو قارورة مليئة بسائل أحمر يظن أنه دم ، او صورة نخلة . ولكن العلامتين الأوليين ليست لهما قيمة كبيرة ، أما عن العلامة الأخيرة فقد لاحظ النقاد : (١) أن صورة النخلة — كما يسمونها ، ربما كانت شجرة السرو ، وربما كانت مجرد نقطة (للوقف) ، أو التنميق بالشولة (،) فى النقوش الأثرية . (٢) أن النخلة كانت رمز النصر عند الوثنيين . (٣) أنها تستخدم عند المسيحيين كشعار الاستشهاد فقط ، بل صفة عامة لبعث بهيج .

جداً من القصص الدينى (١) ، ولكن توكيد أوريجن العام قد « توضحه وتعززه الشهادة الخاصة لصديقه ديونيسيوس ، الذى يعد ، فى مدينة الاسكندرية الضخمة ، وفى ظل اضطهاد ديسيوس العنيف ، يعد عشرة رجال وسبع نساء شنقوا باعترافهم بأنهم مسيحيون .

استشهـــاد سبريـــان

وطوال نفس فترة الاضطهادة هذه ، تولى سبريان ، الغيور البليغ الطموح ، أمر الكنيسة ، لا فى قرطاجة وحدها ، بل حتى فى أفريقية بأسرها ، وكان يتحلى بكل خصلة تجعله موضع احترام المؤمنين أو تثير شكوك الحكام الوثنيين وحنقهم ، وبدا أن شخصية هذا الحبر المقدس ومركزه يميزانه بأنه أبرز هدف للحقد والخطر . وان التعرف على حياة سبريان ليكفى ، على اية حال ، للتدليل على أن خيالنا قد بالغ فى خطورة موقف أى أسقف مسيحى ، وأن الأخطار التى كان يتعرض لها أقل من تلك التى تتهيأ الأطماع الدنيوية لمواجهتها فى السعى وراء أمجاد الحياة . فقد هلك بحد السيف اربعة من اباطرة الرومان مع اسراتهم وخلصائهم واتباعهم فى مدى عشر سنوات ، قاد فى أثنائها ، أسقف قرطاجة ، بسلطته وبلاغته ، مجالس الكنيسة الأفريقية . أما سبريان ، فلم يكن امامه ثمة شىء يخشاه ، اللهم الا فى السنة الثالثة من ولايته ، ولبضعة شهور قلائل فحسب ، حين أوجس خيفة من مراسيم ديسيوس الصارمة ، وتيقظ الحكام ، وصيحات الجماهير التى دوت مطالبة بوجوب القاء سبريان زعيم المسيحيين الى السباع ، وارتأت الفطنة ضرورة الانزواء المؤقت . وكان الامتثال لهاتف الفطنة ، فانسحب الى معزل مجهول ، استطاع منه أن يكون على اتصال دائم برجال الدين والشعب فى قرطاجة . وباختفائه حتى هدأت العاصفة استطاع أن يبقى على حياته ، دون أن يتخلى عن سلطته أو شهرته . ولكن حرصه الشديد لم ينج ، على أية حال ، من لوم المسيحيين الذين كانوا أكثر تشددا ، والذين رثوا لهذا السلوك ، أو من تأنيب أعدائه الشخصيين الذين عابوه وسبوه حيث اعتبر هؤلاء وأولئك سلوكه تخليا جبانا آثما عن اقدس واجب . وكانت الأسباب التى ساقها لتبرير سلوكه أنه رأى من

---

(١) قد نكتفى ، كنموذج لهذه الأساطير ، بأن عشرة آلاف من الجنود صلبهم تراجان أو هادريان فى يوم واحد فوق جبل أرارات . ويقال ان اللفظ المختصر (Mil) الذى قد يدل على عدد « ألف » ، أو على « الجنود » قد سبب بعض أخطاء غير عادية .

الأوفق أن يدخر حياته لما تقتضيه حاجة الكنيسة فى المستقبل ، وأنه اقتدى فى ذلك بكثير من الأساقفة المقدسين ، وأنه ـــ كما صرح هو بذلك ـــ انما فعل ذلك امتثالا للتنبيهات الالهية التى تلقاها فى رؤياه ومنامه وفى غيبوبته واستغراقه . ولكن أحسن اعتذار يمكن أن نجده فى الثبات البهيج الذى لاقى به الموت فى سبيل الدين ، بعد ذلك بنحو ثمانى سنوات . وقد سجل تاريخ استشهاده فى صراحة ونزاهة غير عاديتين ، ومن ثم ، قد يكفى اقتباس قطعة صغيرة من أهم مشاهده لتزويدنا بأوضح المعلومات عن روح الاضطهادات الرومانية وأساليبها .

عندما كان فاليريان قنصلا للمرة الثالثة ، وجالينوس للمرة الرابعة، دعا باترنوس ، بروقنصل أفريقية ، سبريان للحضور الى قاعة مجلسه المخصوص ، وهناك أطلعه على الأمر الامبراطورى الذى كان قد تلقاه آنذاك ، بأنه يجب على الذين نبذوا الديانة الرومانية أن يعودوا من فورهم الى ممارسة طقوس آبائهم وأجدادهم . فأجاب سبريان دون تردد بأنه مسيحى وأنه أسقف متمسك بعبادة الاله الواحد الحق . الذى يرفع اليه كل يوم تضرعاته وابتهالاته من أجل سلامة ورخاء الامبراطورين ، مليكيه الشرعيين . وفى ثقة وتواضع التمس أن يمنح حق المواطن فى الامتناع عن الاجابة عن بعض الأسئلة المثيرة ، وفى الحقيقة ، غير القانونية ، التى وجهها اليه البروقنصل . وصدر الحكم بالنفى عقابا لعصيان سبريان ، وسيق دون ابطاء الى كوروبيس Curuibis وهى مدينة حرة بحرية فى زيوجيتانا Zeugitana ، ذات موقع جميل وسط أرض خصبة على مسافة نحو أربعين ميلا من قرطاجة . وقد تمتع الأسقف المنفى براحة الحياة ونعيم التقوى . وطبقت شهرته آفاق أفريقية وايطاليا ، ونشرت قصة مسلكه رغبة فى الاشادة بذكر العالم المسيحى ، وكثيرا ما قطعت عليه خلوته رسائل المؤمنين وزياراتهم وتهانيهم له . وبدا لبعض الوقت ، بوصول بروقنصل جديد الى الولاية ، أن حظ سبريان قد يتخذ طريقا أوفق ، فقد استدعى من منفاه ، ورغم أنه لم يكن سمح له بعد بالعودة الى قرطاجة ، فقد خصصت لاقامته بساتينه المجاورة للعاصمة .

وأخيرا ، وعلى التحديد بعد عام من القبض على سبريان لأول مرة، تلقى جالريوس مكسيموس بروقنصل أفريقية أمرا امبراطوريا باعدام الفقهاء المسيحيين . وكان أسقف قرطاجة يحس بأنه سيكون من أوائل الضحايا ، فأغراه خور الطبيعة بأن ينجو بنفسه ، بالنهار سرا ، من خطر الاستشهاد وشرفه ، ولكنه سرعان ما استرد الصلابة التى

اقتضتها شخصيته وعاد الى بساتينه ، مترقبا ، فى صبر وجلد ، وصول رسل الموت . ووضع ضابطان كبيران مكلفان بهذه المهمة — وضعا سبريان بينهما فى عربة ، ولما كان البروقنصل ساعتئذ مشغولا ، فقد قاداه — لا الى السجن — بل الى دار خاصة كان يملكها أحدهما فى قرطاجة . وأعد عشاء فاخر احتفاء بالأسقف ، وسمح لأصدقائه المسيحيين أن يتمتعوا بصحبته لآخر مرة ، على حين ازدحمت الشوارع بجموع المؤمنين ، قلقين جزعين لدنو مصير أبيهم الروحى . وفى الصباح مثل أمام محكمة البروقنصل الذى أحيط علما باسم سبريان وموقفه ، فأمره بتقديم قربان ، وألح عليه فى تدبر عواقب عصيانه . ولكن رفض سبريان كان حازما حاسما ، ونطق الحاكم بعد أن أخذ رأى المجلس بحكم الاعدام وهو كاره ، وهذا نصه : « ان تاسيوس سبريانوس يجب أن تضرب عنقه فورا ، بوصفه عدوا لآلهة روما ، ورئيس وزعيم رابطة أثيمة ، حرضها على المقاومة الملحدة لقوانين أقدس امبراطورين « فاليريان وجالينوس » ، وكانت طريقة التنفيذ ألطف وأقل مايمكن ايلاما بالنسبة لشخص أدين بجريمة عظمى ، كما أنه لم يسمح بتعذيب أسقف قرطاجة لحمله على انكار عقيدته أو الكشف عن شركائه .

وعندما أعلن الحكم . تعالت على الفور صيحات جموع المسيحيين الذين احتشدوا للاستماع اليه أمام أبواب القصر ، وهم يهتفون « لابد أن نموت معه » . ولكن نفثات غيرتهم ومحبتهم لم تكن ذات نفع لسبريان ، أو ذات خطر عليهم أنفسهم ، واقتيد فى حراسة عدد من التربيون وضباط المائة دون أن يقاوم أو تبدر منه أية اساءة ، الى ساحة الاعدام ، فى سهل فسيح منبسط بالقرب من المدينة ، مكتظ بالنظارة ، ورخص لمشايخه وشمامسته المخلصين بمصاحبة أسقفهم المقدس ، فعاونوه فى خلع ردائه الخارجى ، وفرشوا على الأرض ملاءة من الكتان ليتلقوا عليها شيئا من دمه الغالى ، واستمعوا الى أوامره بمنح الجلاد خمسا وعشرين قطعة ذهبية ، وعندئذ غطى الشهيد وجهه بيديه ، وبضربة واحدة فصلت رأسه عن جسده ، وبقى جثمانه لبضع ساعات معرضا لأنظار الأمميين ، ولكنه نقل فى الليل وحمل فى موكب ظافر وفى أضواء باهرة الى مدافن المسيحيين ، واحتفل بجنازة سبريان احتفالا عاما دون أى تدخل من جانب الحكام الرومان ، بل ان الأشخاص المسيحيين الذين قاموا باتمام الواجبات الدينية لشخصه ولذكراه كانوا بمأمن من خطر التحقيق معهم أو عقابهم . ومما تجدر الاشارة اليه أن سبريان من بين العدد الكبير من الأساقفة فى ولاية أفريقية ، كان أول من قدر بأنه جدير بأن ينال شرف الاستشهاد .

ولقد ترك لسبريان الاختيار بين أن يموت شهيدا أو يعيش مرتدا ، ولكن على اختياره كان يتوقف الشرف أو العار . واذا ذهب بنا الظن الى أن أسقف قرطاجة ـ سبريان ـ قد استخدم اعترافه بالعقيدة المسيحية مجرد أداة لجشعه أو طمعه ، لظل لزاماً عليه أن يدعم الشخصية التى انتحلها ، وأن يعرض نفسه ، اذا أوتى شيئا يسيراً من عزمة الرجال لأشد الوان العذاب ، خيرا من أن يستبدل ، فى تصرف واحد من تصرفاته ، بشهرة العمر مقت أخوته المسيحيين واحتقار الكفار الأمميين ، ولكن اذا كانت لغيرة سبريان ركيزة قوية من الاقتناع الخالص بصدق المبادىء التى بشر بها . فلابد أن شرف الاستشهاد بدا له موضوع رغبة لا رهبة . وليس من السهل أن نستنبط أية أفكار واضحة من كتابات الآباء المؤثرة الغامضة رغم فصاحتها ، أو نؤكد درجة العظمة والسعادة الخالدتين اللتين وعدوا بهما عن ثقة أولئك الذين أسعدهم الحظ باراقة دمائهم فى سبيل الدين ، وقد لقنوا الناس ، فى يقظة مقبولة أن حرارة الاستشهاد عوضت كل نقيصة ومحت كل خطيئة ، وانه بينما كان لزاما أن تمر أرواح المسيحيين العاديين بعملية تطهير بطيئة أليمة ، دخل المعذبون (المستشهدون) الظافرون مباشرة الى النعيم الخالد ، حيث ساروا مع المسيح ، وبرفقة الآباء والرسل والأنبياء ، وشاركوا بوصفهم معاونيه ، فى المحاكمة العامة للجنس البشرى . وقد أفلح التبشير الأكيد بخلود الشهرة على الأرض ، وهو باعث بهيج حبيب الى الطبيعة الانسانية ، أفلح فى استحثاث شجاعة الشهداء . وليست الأمجاد التى أسبغتها روما أو أثينا على المواطنين الذين سقطوا من أجل وطنهم الا مظاهر جامدة عقيمة للاحترام والاجلال ، اذا قورنت بالتقدير والاخلاص اللذين أظهرتهما الكنيسة الأولى لأبطال العقيدة المنتصرين . واعتبر الاحتفال السنوى بذكرى فضائلهم وآلامهم ، لونا من الطقوس المقدسة ، وانتهى الأمر بهم الى العبادة الدينية ، ومن بين المسيحيين الذين اعترفوا علنا بمبادئهم الدينية ، ظفر أولئك الذين لفظتهم محاكم الحكام الوثنيين أو سجونهم (كما حدث كثيرا) ، ظفروا من الأمجاد بما هو جدير عدلا باستشهادهم الناقص وثباتهم الكريم . والتمس أنقى النسوة السماح لهن بطبع قبلة على القيود التى كن مكبلات بها ، وعلى الجروح التى أثخنت بها أجسادهن . ورفعهن الناس الى مصاف القديسات . وتقبلوا قراراتهن باحترام . ولكنهن ، بزهوهن الروحى وسلوكهن المعيب ، كثيرا ما أسأن استخدام المكانة السامية

التى أضفتها عليهن الغيرة والبسالة (١) . ان مثل هذه المفارقات تبرز الخصال الكريمة والشيم الحميدة ، ولكنها فى نفس الوقت تكشف عن العدد الضئيل لأولئك الذين شقوا أو قضوا نحبهم من أجل المسيحية .

ان الادراك الرشيد فى عصرنا الحاضر أكثر استعدادا ليعيب على المسيحيين الأولين غيرتهم أكثر من أن يعجب بها ، ولكن الاعجاب بها أهون عليه من محاكاتها ، فهؤلاء هم الذين كانوا ، على حد التعبير الجميل الذى استخدمه سبكيوس وسيفيروس Sulpicius Severus كانوا أكثر تلهفا على الموت فى سبيل الدين ، من تلهف معاصريه على منصب الأسقف . ان الرسائل التى كتبها أجناطيوس ، وهو يرسف فى الأغلال عبر مدن آسيا لتفيض بأسوأ ما تعافه الأحاسيس العادية للطبيعة الانسانية . وانه ليهيب بالرومان ، ألا يحرموه — عند تعريضه للوحوش فى المدرج — من تاج المجد ، بتدخلهم الرحيم الذى يجىء فى غير أوانه ، ويعلن تصميمه على استفزاز واهاجة الوحوش التى قد تستخدم أدوات لقتله . وثمة قصص تروى عن شجاعة نفر من الشهداء وفوا بالفعل بما كان يعتزمه اجناطيوس ، فأهاجوا غيظ الأسود ، واستحثوا الجلاد على انجاز مهمته ، وقفزوا فى غبطة وابتهاج الى النيران التى أشعلت لالتهامهم ، وغمرهم شعور من الجذل والانشراح وسط أشد ألوان التعذيب . وهناك أمثلة كثيرة لا تزال باقية عن أناس ضاقوا ذرعا بتلك القيود التى فرضها الأباطرة من أجل أمن الكنيسة وسلامتها ، فتطوع المسيحيون أحيانا بالاعلان عن أنفسهم اذا عز وجود من يوجه اليهم الاتهام ، وأزعجوا الموظفين المدنيين الوثنيين أيما ازعاج ، واندفعوا فى جموع حاشدة حول محاكم الحكام الرومان ، يستصرخونهم أن ينطقوا بحكم القانون وينفذوه . وكان سلوك المسيحيين أبرز من أن تخطئه أنظار الفلاسفة القدامى ، ولكن يبدو أنهم أعجبوا به أقل كثيرا مما عجبوا له . ولما كانوا عاجزين عن ادراك البواعث التى طوحت بثبات المؤمنين أحيانا الى ما وراء حدود الروية أو العقل ، فانهم نظروا الى هذا التشوق الى الموت على أنه نتيجة غريبة ليأس قاتل ، أو جمود كالح أو خبل خرافى ، وصاح البروقنصل أنطونينوس فى مسيحيى آسيا متعجبا : « أيها الرجال التعساء ! أيها الأشقياء ! اذا كنتم سئمتم الحياة الى هذا الحد ، فهل يصعب على الواحد منكم أن يجد حبلا يشنق به نفسه وجدثا يواريه ؟ » وكان — (كما لحظ مؤرخ عالم تقى)

---

(١) تضاعف عدد من زعموا أنهم شهداء ، نتيجة التقليد الذى درجوا عليه ، وهو اطلاق هذا اللقب الكريم على كل من يعترف بالدين .

محاذرا غاية الحذر من معاقبة اناس لم يجدوا من يتهمهم الا انفسهم ، لأن القوانين الامبراطورية لم تتضمن مادة لمثل هذه القضية غير المتوقعة، فأصدر حكمه على نفر قليل منهم ليكونوا عبرة لاخوانهم ، وطرد الجموع الحاشدة فى استياء واحتقار . وعلى الرغم من هذا الازدراء الصادق أو المصطنع ، فان هذا الثبات الشديد الذى تحلى به المؤمنون كانت له نتائج ابعد اثرا فى تلك العقول التى هيأتها الطبيعة أو السماحة لتقبل الحق الذى اتى به الدين ، فى يسر وهوادة . وفى مثل هذه المناسبات الحزينة ، كم من الأميين الكفار أشفق على من حكم عليهم ، وأعجب بهم ، وتحول الى ديانتهم المسيحية ، فقد انتقل هذا الحماس الكريم من المعذبين الى المتفرجين ، واصبح دم الشهداء على حد ما جاء فى تعليق مشهور نواة الكنيسة ! .

تنوع سياســة الارهاب

وعلى الرغم من أن التعبد رفع من حرارة تلك الحمى التى انتابت العقول ، واستمرت البلاغة تزيدها التهابا ، فانها أفسحت المجال ، بطريقة غير ملحوظة ، للآمال والمخاوف التى هى أقرب الى طبيعة قلب الانسان ، وطبيعة حبه للحياة ، وخشيته من الألم وفزعه من الموت . ووجد اكثر حكام الكنيســة فطنة وتبصرا ، انفسهم مضــطرين الى أن يكبحوا جماح هذه الحماسة الطائشة فى اتباعهم ، والا يثقــوا فى هذا الوفاء الذى كثيرا ما هجرهم عند الامتحان ، ولما قــل فى الحياة القشف وقمع الشهوات ، قل فى الناس الطموح الى الاستشهاد ، يوما بعد يوم ، وكثيرا ما تخلى جند المسيح عن مواقعهم ، بــدلا من أن تشهرهم أعمالهم البطولية الاختيارية ، وفروا على غير هدى امام العدو الذى كان لزاما عليهم أن يتصدوا له . وكانت هناك ، على اية حال ، أساليب ثلاثة للفرار من جحيم الاضطهاد ، لم تدمغ كلها بنفس القدر من المعصية ، وقد اعتبر أولها فى الواقع اسلوبا بريئا بصفة عامة ، أما الثانى فقد اكتنفه الشك ، أو قل انه قابل للغفران . ولكن الثالث انطوى على ردة صريحة آثمة عن عقيدة الكنيسة .

١ — قد يدهش « المحقق » فى عصرنا الحديث ، اذ يسمع أنه اذا نمى الى علم اى حاكم رومانى أن شخصا فى دائرة ولايته قد انضم الى الطائفة المسيحية ، كانت التهمة تبلغ الى المتهم ، وكانت تترك له فسحة

من الوقت لتسوية شئونه الخاصة ، وأعداد جواب عن التهمـــة التى الصقت به ، فاذا ساوره شىء من الشك فى تجلده ، هيأت له هـــذه المهلة فرصة الابقاء على حياته وشرفه بالهرب ، فرصة اللجوء الى مكان مجهول أو ولاية نائية ، والتذرع بالصبر انتظــارا لعــودة الهــدوء والطمأنينة . وسرعان ما أقرت نصائح أقدس الأحبار والاقتداء بهم مثل هذا الاجراء الذى يتمشى مع العقل والادراك السليم . ولكن يبدو أنه قد ندد به نفر قليل ، اللهم الا المونتانيون الذين انزلقوا الى الهرطقة نتيجة تعلقهم العنيد الشديد بصرامة النظام القديم (١) .

٢ ــ ان حكام الولايات الذين لم تتملكهم الغيرة قدر ما سيطر عليهم الجشع ، ارتضوا عملية بيع شهادات (كانت تسمى الاقرارات) تثبت أن الشخص المذكور اسمه فيها قد امتثل للقوانين ، وأنه قدم القرابين للمعبودات الرومانية ، وبابراز مثل هـــذه الاقرارات الزائفة تمكــن المسيحيون الأثرياء الجبناء من أن يخرسوا المخبر الخبيث ، ويوفقوا ، بشكل ما ، بين سلامتهم وديانتهم . وكان يكفر عن هذا النفاق الدنس شىء قليل من التوبة .

٣ ــ ووجدت فى كل اضطهاد اعداد كبيرة من المسيحيين التافهين الذين نبذوا أو انكروا صراحة وعلنا العقيدة التى سبق اعتناقهم لهــا ، واكدوا اخلاصهم فى ارتدادهم بالأعمال المشروعة ، من احراق البخــور او تقديم القرابين . واستسلم بعض هؤلاء المرتدين لدى أول تهديــد أو وعيد من الحاكم ، على حين استنفد الامعان فى التعذيب صبر آخرين منهم . ونم الفزع المرتسم على بعض الوجوه عما يعتمل فى أعماقهم من تراجع عن عقيدتهم دون أن يبدوا حراكا ، على حين خف آخرون فى ثقة ورشاقة الى مذابح الآلهة ، ولكن القناع الذى نسجه الخوف لم يــدم لأكثر من ساعة الخطر . وما أن خفت وطأة الاضطــهاد حتى هرعت جموع النادمين التائبين الى أبواب الكنائس ، يلتمسون بنفس القدر من الحماسة والحمية ، اعادتهم الى المجتمع المسيحى ، ولكن تباينت درجة نجاحهم فى تحقيق ملتمسهم .

---

(١) يعتبر ترتوليان أن الفرار من الاضطهاد بمثابة ردة لم تتوفر كل أركانها ، ولكنها اثم كبير ، ومحاولة كافرة للهروب من ارادة الله ... وكتب فى هذا الموضوع رسالة مليئة بأبشع التعصب ، وبأكثر الحماس تنافرا . ومهما يكن من أمر ، فانه مما تجدر الاشارة اليه ، الى حد ما ، أن ترتوليان نفسه لم يمت شهيدا ، فلم يكابد الاستشهاد .

٤ — ورغم القواعد العامة المقررة فى اتهام المسيحيين وعقابهم ، فلابد أن يتوقف مصيرهم الى حد كبير ، فى مثل هذه الحضرمة الاستبدادية المترامية الأطراف ، على سلوكهم هم أنفسهم ، وعلى ظروف عصرهم ومزاج الحاكم الأعلى ومزاج مرءوسيه . وقد تهيج الغيرة الخرافية عند الوثنيين سورة غضبهم تارة ، ويوهن أو يخفف التروى والتبصر منها تارة أخرى . وثمة دوافع مختلفة كانت تجنح بحاكم الولاية الى تنفيذ القانون أو الى التراخى فى تطبيقه ، ومن أقوى هذه الدوافع، اهتمامه ، لا بالقوانين العامة وحدها ، بل بالمقاصد الخفية للامبراطور نفسه ، حيث كانت نظرة منه واحدة تكفى لتستعر نار الاضطهاد أو يخبو أوارها . وكان المسيحيون الأولون يندبون حظهم ، وربما بالغوا فى آلامهم وشقائهم ، كلما نزلت بهم بعض الشدائد فى مختلف أرجاء الامبراطورية ، ولكن مؤرخى الكنيسة فى القرن الخامس ، الذين أوتوا من نفاذ البصيرة ما استطاعوا معه أن يتبينوا ابتسام الحظ من عثار الجد فى الكنيسة — من عهد نيرون الى عهد دقلديانوس — وهم الذين حددوا الاضطهادات بالعدد المشهور ، وهو « عشرة » اضطهادات . وأوحت اليهم المطابقات البارعة مع أحداث الطاعون « العشرة » فى مصر ، وقرون التنين « العشرة » التى ورد ذكرها فى سفر الرؤيا (Apocalypse الكتاب الأخير من العهد الجديد) — أوحت الى عقولهم بهذا الحساب فى البداية ، ثم حرصوا ، فى تطبيقهم لصدق النبوءة على صدق التاريخ ، حرصوا على اختيار العهود التى كانت أشد عداء لقضية المسيحية . ولكن هذه الاضطهادات العابرة لم تثمر الا فى بعث الغيرة واعادة النظام الى صفوف المؤمنين ، وعوضت عهود طويلة من السلام والأمن عن لحظات العنف الشاذة ، وهيأ استهتار بعض الأمراء واغضاء بعض آخر ، للمسيحيين فرصة التمتع بالتسامح الدينى الشامل ، تسامحا عمليا ، وربما كان غير مشروع .

وتضمن دفاع ترتوليان مثالين — قديمين جدا ، فريدين جدا ، ولكنهما فى نفس الوقت مشكوك فيهما — عن رفق الأباطرة واعتدالهم وهما المرسومان اللذان أصدرهما تيبيريوس وماركوس انطونينوس ، لا لمجرد تعزيز براءة المسيحيين فحسب ، بل حتى لابراز تلك المعجزات الفذة التى شهدت بصدق عقيدتهم . وقد اكتنف المثل الأول بعض صعاب قد تربك العقلية المتشككة . وانه ليراد بنا أن نصدق أن بيلاطس البنطى Pontius Pilateus ابلغ الامبراطور نبأ الحكم الجائر الذى أصدره ضد شخص برىء يبدو انه مقدس ، عرض نفسه للخطر دون أن ينال شرف الاستشهاد ، وأن تيبيريوس الذى اعلن صراحة استهزاءه بكل الديانات

عقد النية على الفور على ادراج « المسيح اليهودى » فى قائمة آلهة روما ، وأن السناتو الخنوع تجاسر على عصيان أوامر سيده ، وأن تيبيريوس — بدلا من استنكار هذا الرفض — قنع بأن يعصم المسيحيين من صرامة القوانين ، قبل عدة سنين من سن مثل هذين المرسومين ، وقبل ان تتخذ الكنيسة اسما أو كيانا متميزا . واخيراً يراد بنا ان نصدق، أن ذكرى هذا التصرف الخارق محفوظة فى أصدق السجلات العامة التى اخطاها علم مؤرخي اليونان والرومان ، والتى وقعت عليها فقط عينا مسيحى أفريقى (ترتوليان) كتب دفاعه بعد مائة وستين عاما من وفاة تيبيريوس . اما مرسوم ماركوس انطونينوس ، فالمفروض أنه جاء نتيجة اخلاصه وامتنانه لمعجزة خلاصه وانقاذه فى الحرب بينه وبين ماركوماني . وقد سجلت فصاحة عدة كتاب وثنيين ما عاناه جيش ماركوس من كرب وضيق فى البداية ، والمطر الذى أنزله الله عليهم لاطفاء عطشهم ، كما سجلت فزع المتبربرين من الرعد الذى أرسله الله عليهم وهزيمتهم . ولو أن فى الجيش نفرا من المسيحيين ، لكان من الطبيعى أن ينسب بعض الفضل الى الصلوات والدعوات الحارة التى تضرعوا بها فى ساعة العسرة من اجل سلامتهم ، ومن أجل السلامة العامة . ولكن الآثار النحاسية والرخامية ، والأوسمة الامبراطورية ، وعمود انطونينوس ، ما تزال تؤكد لنا أنه لا الأمير ولا الشعب داخلهم الاحساس بهذا الالتزام الفريد ، لأنهم بالاجماع ينسبون خلاصهم الى عناية الاله جوبيتر ، وتدخل الاله هرمس . واحتقر ماركوس المسيحيين طوال حكمه ، بوصفه فيلسوفا ، ووقع عليهم العقوبات بوصفه ملكا .

وتوقفت على الفور ، قضاء وقدرا ، تلك الأهوال التى قاسوها فى ظل حكومة أمير فاضل حين تبوأ العرش طاغية ، ولما لم يعان أحد غيرهم من جور ماركوس ، فانهم وحدهم كذلك احتموا فى رفق كمودوس وتساهله . ذلك ان مارشا الشهيرة Marcia ، احب خليلاته اليه،تلك التى حاولت آخر الأمر قتل عشيقها الامبراطور ، تعلقت تعلقا شديدا غريبا بالكنيسة المظلومة ، وربما راودها الأمل — رغم استحالة التوفيق بين ممارسة الدعارة وبين تعاليم الانجيل — فى أن تكفر عن سقطات بنات جنسها وحرفتها ، بأن تعلن انها راعية المسيحيين ، ومن ثم نعموا فى ظل الحماية الكريمة لمارشا ، ثلاث عشرة سنة من الأمن والطمأنينة ، وهى فترة حكم الطاغية الغاشم . فلما استقر عرش الامبراطورية فى أسرة سيفيروس ، انشأ المسيحيون علاقة خاصة ، واكنها علاقة اشرف ، مع الحاشية الجديدة . واقتنع الامبراطور ،

بأنه فى مرضه الخطير ، قد أفاد ، روحيا أو ماديا ، من الزيت المقدس الذى مسحه به أحد عبيده . ومن ثم عامل عدة أفراد من الجنسين ممن اعتنقوا الدين الجديد معاملة خاصة متميزة . وكانت مربية كاراكللا (ابنه) وكذلك معلمه ، من المسيحيين ، واذا كان هذا الأمير الصغير قد اظهر يوما شيئا من العاطفة الانسانية ، فان ذلك يرجع الى حادثة ارتبطت رغم تفاهتها بقضية المسيحية . ففى عهد سيفيروس كبح جماح الجماهير ، وأوقف بطش القوانين ، وقنع حكام الولايات بتسلم هدية سنوية من الكنائس الواقعة فى دائرة اختصاصهم ، ثمنا أو مكافأة لاعتدالهم ، وأجج النزاع بين أساقفة آسيا وايطاليا اختلافهم على الموعد الدقيق للاحتفال بعيد الفصح ، وكان هذا الاختلاف أهم ما يشغل فترة الفراغ والهدوء هذه ، كما أنه لم يعكر صفو الكنيسة وقتئذ شيء ، حتى تزايد عدد المهتدين الجدد الى الحد الذى يبدو أنه جذب انتباه سيفيروس وحول مجرى تفكيره . فأصدر ، بغية الحد من تقدم المسيحية ، قانونا قصد أن يقتصر أثره على هؤلاء المرتدين الجدد الى المسيحية ، ولكنه رغم ذلك ، لم يكن من الميسور تنفيذه ، تنفيذا دقيقا ، دون أن يعرض للخطر وللعقاب ، أشد المعلمين والمبشرين غيرة . ويمكن أن نتبين حتى فى مثل هذا الاضطهاد المخفف ، روح التساهل فى روما وفى المشركين ، تلك الروح التى تقبلت عن طيب خاطر كل عذر فى جانب اولئك الذين مارسوا طقوس آبائهم الدينية .

ولكن سرعان ما زالت القوانين التى كان قد سنها سيفيروس بزوال سلطانه ، ونعم المسيحيون ، بعد هذه العاصفة الطارئة بهدوء دام ثمانية وثلاثين عاما . وكانوا حتى هذه الفترة يعقدون اجتماعاتهم فى دور خاصة أو أماكن منعزلة ، أما الآن فقد رخص لهم فى تشييد أو تدشين أبنية مريحة ملائمة لأغراض العبادة ، وفى شراء الأراضى حتى فى قلب روما ، لتستخدمها الطائفة فى اجراء انتخاب الموظفين الكنسيين بطريقة علنية ، ولكنها كانت فى نفس الوقت مثالية استحقت احترام الأمميين ، واسترعت انتباههم . واقترن هذا الهدوء الطويل الأمد فى الكنيسة بالجلال والعظمة . وثبت أن عهود الأمراء الذين نبتوا فى الولايات الآسيوية كانت أوفق العهود للمسيحيين . وسمح لألمع أفراد الطائفة ، بعد أن كانوا يلتمسون حماية أحد العبيد أو احدى المحظيات، بالدخول الى القصر ، معززين مكرمين ، بوصفهم قساوسة أو فلاسفة. واثارت مبادئهم الغامضة التى كانت قد انتشرت بالفعل بين الشعب ، أثارت تشوف الملك دون أن يشعر . ولما مرت الامبراطورة ماميا

بأنطاكية أبدت رغبتها فى التحدث الى الرجل المشهور أوريجن ، الذى طبقت شهرة ورعه وعلمه آفاق الشرق ، ورحب أوريجن بهذه الدعوة المغرية ورغم أنه لم يكن يأمل فى تحويل هذه المرأة الداهية الطموح ، فانها أصغت فى سرور الى عظاته البليغة ، وصرفته مكرما الى ماواه فى فلسطين . وتبنى الاسكندر أحاسيس والدته ماميا . وتميز النسك الفلسفى لهذا الامبراطور بتقدير فريد ولكنه تقدير طائش للديانة المسيحية . ووضع فى معبده الخاص بالقصر تماثيل ابراهيم ، وأورفيوس ، وأبولونيوس ، والمسيح ، تكريما جديرا بهؤلاء الحكماء الموقرين الذين هدوا البشر الى الطرق المختلفة التى يظهرون بها اجلالهم وولاءهم للاله الأعظم للكون كله . واعتنق كل من فى القصر ، ومارسوا علنا ، عقيدة وعبادة أنقى . وشوهد الأساقفة ، وربما لأول مرة ، فى الحاشية . فلما مات الاسكندر ، صب مكسيمين الغليظ القلب جام غضبه على كل الخلصاء والموظفين من رجال ولى نعمته المنكود الحظ ، وراح عدد كبير من المسيحيين من الجنسين ضحية هذه المذبحة الهوجاء ، التى أطلق عليها من أجلهم ، وبغير حق اسم « اضطهاد » .

ورغم اتجاهات مكسيمين القاسية ، كانت آثار حنقه على المسيحيين محدودة مؤقتة جدا ، وظل أوريجن الذى أهدر دمه ، على أنه ضحية مخلصة ، يبشر الملوك بحقائق الانجيل ، ووجه رسائل تهذيبية الى الامبراطور فيليب وزوجته وأمه . وحالما اغتصب الأمير الذى ولد بجوار فلسطين ، عرش الامبراطورية ، التمس فيه المسيحيون صديقا وراعيا . وأثار عطف ، بل تحيز ، الامبراطور فيليب للطائفة الجديدة ، وتوقيره الدائم لرجال الكنيسة ، أثار الشبهات التى حامت فى أيامه حول اعتناقه المسيحية ، ومهد للخرافة التى ابتدعت بعد ذلك ، والتى تقول بأنه تطهر وكفر عن الوزر الذى ارتكبه بقتل سلفه البرىء .

وبسقوط فيليب وتغير الحكام والرؤساء قام أسلوب جديد من الحكم ، أسلوب شديد الجور على المسيحيين الى حد أنهم صوروا حالتهم السابقة ، حتى منذ أيام دوميتيان ، على أنها حرية وطمأنينة كاملتان ، اذا قورنت بالمعاملة البالغة القسوة التى عانوها فى فترة حكم ديسيوس القصيرة . ولا تكاد فضائل هذا الأمير تدع لنا مجالا للشك فى أنه كان مسوقا بدافع من السخط الدنىء على خلصاء سلفه . وانه لأقرب الى العقل والمنطق أن نعتقد أنه فى متابعته لخطته العامة لاستعادة نقاوة العادات الرومانية ، كان يرغب فى تخليص الامبراطورية

مما وصمه هو بانه خرافة (عقيدة) مستحدثة آثمة . فقضى على أساقفة أكبر المدن بالنفى أو بالاعدام . وحالت يقظة الحكام بين رجال الكنيسة في روما وبين اجراء أية انتخابات جديدة مدى ستة عشر شهرا . وقال المسيحيون انه أهون على الامبراطور أن يحتمل منافسا له على العرش من ان يرى أسقفا في العاصمة . فهل كان من المحتمل أن بصيرة ديسيوس قد استشفت زهوا وغرورا تحت ثوب الوداعة والمسكنة ، أو انه تنبأ بتطلع السلطة الدينية تحت ستار ادعاءاتها الروحية الى السلطة الدنيوية ، وربما كانت دهشتنا أقل اذا رأينا أنه اعتبر خلفاء القديس بطرس أخطر منافسين لخلفاء أوغسطس .

وتميزت ادارة فاليريان بطيش وتقلب لا يتلاءمان مع هيبة « الرقيب الرومانى » ، ففى أوائل حكمه ، تجاوز رفقه رفق أولئك الأمراء الذين اشتبه فى تعلقهم بالعقيدة المسيحية ، وفى فترة السنوات الثلاث ونصف السنة الأخيرة من حكمه ، وتحت تأثير اصفيائه الى دس أو اغراء وزير انغمس فى خرافات مصر ، نرى الامبراطور وقد تبنى مبادىء سلفه ديسيوس ، واقتدى به فى قسوته . الا أن ارتقاء جالينوس الى العرش وهو أمر زاد من مصائب الامبراطورية ، أعاد الهدوء والسلام الى الكنيسة ، وحصل معه المسيحيون على حرية ممارسة عقيدتهم ،بمقتضى مرسوم وجه الى الأساقفة ، واعتبر اقرارا بوظيفتهم وشخصيتهم العامة . ولم تلغ القوانين القديمة رسميا ، ولكن سمح بالقائها فى زوايا النسيان . ونعم تلاميذ المسيح (فيما عدا بعض النوايا العدائية التى نسبت الى الامبراطور أوريليان) بأكثر من أربعين سنة من رخاء كان أشد خطرا بكثير ، على طهارتهم ، من أفظع بلايا الاضطهاد .

وقد تكون قصة بولس السمسطى (اسمها الآن سمسط على الضفة الشرقية لأعلى الفرات) ، الذى كان يشغل كرسى الأسقفية فى أنطاكية ، أيام حكم أوديناتوس وزنوبيا فى الشرق ، ذات فائدة فى تصوير أحوال ذاك العصر وطبيعته . وكان ثراء هذا الحبر دليلا كافيا على جريمته ، لأنه لم يرثه عن آبائه ، ولم يكسبه عن طريق العمل الشريف ، ولكن بولس اعتبر خدمة الكنيسة مهنة تدر الربح الوفير . وكانت ولايته الكنسية دنيئة جشعة ، فكثيرا ما ابتز التبرعات من أغنى الموسرين من المؤمنين ، وحول لمصلحته الخاصة قدرا كبيرا من الدخل العام . وغدت الديانة المسيحية ، نتيجة غروره وبذخه ، مقيتة كريهة فى أعين الأمميين . وكانت قاعة مجلسه وعرشه ، والهالة من الأبهة والفخفخة التى أحاط بها نفسه أمام الناس ، وجموع ذوى الحاجات

الذين جاءوا يلتمسون رعايته ، وأكداس الرسائل والعرائض التى أملى ردوده عليها ، وزحمة العمل التى احتوته — كانت كل هذه أمورا أليق كثيرا بحالة حاكم مدنى (١) ، منها بوداعة أسقف بدائى . وتكلف بولس ، فى خطبه الى شعبه من فوق المنبر ، الأسلوب المجازى والاشارات المسرحية لسفسطائى أفريقى ، على حين كانت الكاتدرائية تضج بأعلى صيحات الاستحسان وأكثرها تطرفا لفصاحته الالهية ، أما مع أولئك الذين تحدوا سلطته أو أبوا أن يتملقوا كبرياءه وغروره ، فقد كان حبر أنطاكية متعجرفا عنيفا عنيدا ، ولكنه كان يخرق النظام ويبعثر أموال الكنيسة على القساوسة التابعين له ، والذين سمح لهم بالاقتداء بسيدهم فى كل نزوة شهوانية . فقد انغمس بولس ، فى شراهة مطلقة فى ملذات المائدة ، واستقبل فى قصره الكنسى غادتين جميلتين ، كرفيقتين دائمتين له فى أوقات فراغه (٢) .

ولو أن بولس السمسطى — رغم رذائله الفاضحة — أبقى على نقاوة المذهب الأرثوذكسى المستقيم لانتهت ولايته على عاصمة سوريا بانتهاء حياته فحسب ، ولو أن اضطهادا معقولا تدخل فى الأمر فلربما أدى ضرب من ضروب الشجاعة الى رفعه الى مراتب القديسين والشهداء . ولكن بعض الأخطاء الخبيثة الرقيقة ، التى تبناها فى غير تبصر . وتمسك بها فى عناد شديد ، فيما يتعلق بمبدأ التثليث ، أثارت غيرة الكنائس الشرقية واستياءها ، وتكتل الأساقفة من مصر الى البحر الأسود ، وقاموا وقعدوا وثارت ثائرتهم بسبب هذه الأخطاء ، وعقدت عدة اجتماعات ، ونشرت عدة تفنيدات لدحضها ، وصدرت عدة قرارات بالحرمان من الكنيسة ، وظهرت من الجانبين تفسيرات غامضة تأرجحت بين القبول والرفض ، وعقدت معاهدات ثم نقضت ، وانتهى الأمر بتجريد بولس السمسطى من منصبه الأسقفى بقرار من سبعين أو ثمانين أسقفا اجتمعوا لهذا الغرض فى أنطاكية ، وعينوا ، بمقتضى سلطتهم الخاصة ، خلفا لبولس ، دون أخذ رأى الأكليروس

---

(١) كان الاتجار بالمناصب الدينية معروفا فى هاتيك الأيام . فقد اشترى رجال الأكليروس أحيانا ، ما كانوا يعتزمون بيعه . ويبدو أن أسقفية قرطاجنة قد اشترتها سيدة تدعى لوتشلا لأحد خدمها المدعو ماجورينوس ، بثمن قدره ٤٠٠ صرة من النقود فى كل منها ١٢٥ قطعة من الفضة ويقدر المبلغ كله بنحو ٢٤٠٠ جنيه .

(٢) اذا أردنا أن نحصى رذائل بولس لكان لزاما أن نثير الشبهات حول أساقفة الشرق مجتمعين ، فى أنهم نشروا أشنع الفضائح فى رسائل دورية وجهت الى كل كنائس الامبراطورية

أو الشعب ، وزاد الشذوذ الواضح فى هذا الاجراء من عدد أفـراد الفريق المعارض ، ولما لم يكن بولس غريبا على أفانين البلاط وحيله ، فقد تسلل الى عطف الملكة زنوبيا ، ومن ثم احتفظ لأكثر من أربعـة أعوام بدار الأسقفية ومنصبها . ولكن انتصار أوريليان غير وجـه الشرق ، وصدرت الأوامر للطرفين المتنازعـين الذين رمى الواحـد منهما الآخر بالمروق والزيغ ، أو قل رخص لهما ، بعرض قضيتهما على محكمة الامبراطور الفاتح . وان هذه المحاكمة العلنية الفريدة لتقـدم برهانا قاطعا على اعتراف حكام الامبراطورية على الأقل — ان لم تكن القوانين كذلك — بوجود المسيحيين وممتلكاتهم وامتيازاتهم وسياستهم الداخلية . وقلما كان من المتوقع أن يدخل أوريليان — بوصفه وثنيـا وجنديا — فى مجادلات ليخلص الى أى الفريقين : بولس أو خصومه ، تتفق مبادئه مع العقيدة الصحيحة أكثر اتفاق ! ومهما يكن من شىء فقد بنى الامبراطور قراره على المبادىء العامة للانصاف والمنطق . واعتبر أساقفة ايطاليا ، أكثر القضاة نزاهة واحتراما بين المسيحيين ، وحالما أبلغ أنهم وافقوا على حكم المجلس بالاجماع ، أذعن لرأيهم ، وأصدر على الفور أوامره بارغام بولس على التنحى عن كل الممتلكات الدنيـوية المرتبطة بمنصب قد صار حرمانه منه ، فى رأى اخـوته ، بطـريقة سليمة . ولكنا اذ نمتدح العدالة ، يجدر بنـا ألا نغض الطـرف عن سياسة أوريليان الذى كان يرنو الى استعادة اعتماد الولايات عـلى العاصمة وتدعيم تبعيتها لها ، بكل وسيلة يمكن أن توثق لحبه أى جزء من شعبه وتقيد أهواءهم .

الكنيسة فى عهد دقلديانوس وخلفائه

ظل المسيحيون ينعمون بالسلام والرخاء وسط الثورات المتكررة التى اجتاحت الامبراطورية . ورغم الحقبة المشهودة التى يطلق عليها « عصر الشهداء » ، نشأ بارتقاء دقلديانوس الى العرش ، أسلوب جديد من السياسة ، ابتدعته وتعهدته حكمة هذا الأمير ، واستمر هذا الأسلوب طوال ثمانية عشر عاما ينفخ من روح التسامح الدينى أكثرها اعتدالا وتحررا . والحق أن عقلية دقلديانوس نفسـه كانت أقـل استعدادا للأبحاث النظرية منها للأعمال الجادة فى مجـال الحـرب والحكم . وقد نفره حذره ورويته من الاندفاع فى الابتداع والابتكار ، ورغم أن مزاجه لم يكن سريع التأثر بالغيرة والحماس . الا انه درج على اظهار الاحترام للمعبودات القديمة فى الامبراطورية . ولكن فراغ

الامبراطورتين : بريسكا Prisca زوجته وفاليريا Valeira كريمته ، هيأ لهما سبيل الاصغاء ، في مزيد من الاهتمام والاحترام ، الى حقائق المسيحية التى اعترفت ، فى كل العصور ، بانها مدينة اكبر الدين لتبتل المرأة وولائها . وبسط الخصيان الرئيسيون : لوشيان ودوروثيوس ، وجورجونيوس واندزو ، الذين لازموا شخص دقلديانوس ، وحظوا بحبه وعطفه ، وكانوا أصحاب الأمر والنهى فى قصره — نقول بسط هؤلاء الخصيان ، بنفوذهم القوى ، حمايتهم على العقيدة الجديدة التى كانوا قد اعتنقوها . وحذا حذوهم كثير من اهم الموظفين فى القصر الذين وكل اليهم ، كل — حسب وظيفته — أمر العناية بحلى الامبراطور ، وبالملابس وبالأثاث وبالمجوهرات ، بل حتى بالخزانة الخاصة . وعلى الرغم من التزامهم أحيانا بمصاحبة الامبراطور فى تقديم الضحايا والقرابين فى المعبد ، هؤلاء الموظفين وزوجاتهم وأولادهم وعبيدهم ، نعموا بالحرية فى ممارسة الديانة المسيحية . وكثيرا ما خص دقلديانوس وزملاؤه ، بأهم المناصب ، أولئك الأشخاص الذين اعلنوا بغضهم لعبادة الآلهة ، ممن تكشفت فيهم القدرات والمواهب اللازمة لخدمة الدولة : وكانت لكل من الأساقفة منزلة كبيرة فى ولايته . وكانوا يلقون معاملة ملؤها التقدير والاجلال ، لا من الشعب وحده ، بل من الحكام أنفسهم . وتبين فى كل مدينة تقريبا أن الكنائس القديمة لا تتسع للعدد المتزايد من الداخلين فى الدين ، فشيد مكانها أبنية افخم وأرحب تصلح لاقامة الصلوات العامة للمؤمنين . وقد يعتبر سوء السلوك وفساد المبادىء اللذين نعى عليهما يوسوبوس Eusebius (أحد مؤرخى الكنيسة ٢٦٠ — ٣٤٠ م) لا مجرد نتيجة ، بل برهانا على الحرية التى تمتع بها المسيحيون وأساءوا استغلالها فى عصر دقلديانوس . وكأنى بالرفاهية قد ارخت من قبضة النظام ، وتفشى الغش والحقد والضغينة فى كل المحافل المسيحية . وتطلع المشايخ الى منصب الأسقفية الذى بات يوما بعد يوم هدفا اجدر بالطمع فيه . أما الأساقفة الذين كانوا يزاحمون بعضهم بعضا على التفوق فى مجال الكنيسة ، فقد بدا من تصرفاتهم أنهم يزعمون لأنفسهم سلطة دنيوية استبدادية فى الكنيسة . وتجلى الايمان المتفتح الذى ظل يميز المسيحيين عن الكفار ، اقل كثيرا فى حياتهم منه فى كتاباتهم الجدلية .

وربما تبين للمراقب اليقظ ، على الرغم من هذه الطمأنينة الظاهرة ، بعض أعراض أنذرت الكنيسة باضطهاد أعنف من أى اضطهاد عانته من قبل . ذلك أن غيرة المسيحيين وسرعة تقدمهم

أيقظتا المشركين من سباتهم واستهتارهم بقضية تلك المعبودات التى علمهم العرف والتلقين ضرورة اجلالها واحترامها . وأثارت الاستفزازات المتبادلة فى حـرب دينيـة دامت لأكثر من مائتى عام — أثارت ثائرة الفريقين المتنازعين ، وغاظ الوثنيين تهـور تلك الشـيعة الحديثة الحقيرة التى اجترأت على رمى مواطنيهم بالبعد عن جادة الصواب ، والقاء آبائهم وأجدادهم فى وهدة الشقـاء المقيم . وولد دابهـم على الدفاع عن الأساطير الشعبية المألوفة ضد تجريح عدو عنيد ، وولد فى أذهانهم مشاعر من الايمان والاجلال لأسلوب كانوا قد تعـودوا أن ينظروا اليه بأكبر قدر من الاستهتار والاستهانة . وقد أوحت تلك القوى الخارقة التى انتحلتها الكنيسة ، بالرهبة والمنافسـة فى نفس الوقت . واعتصم أتباع الديانة القديمة (الوثنية) بسياج مماثل مـن الكرامات والمعجزات ، وابتدعوا أشكالا جديدة للقرابين والضحايا ، وللكفارة ، وللدخول فى الدين (١) ، وحاولوا أن يحيوا التصديق والثقة بالوحى المنقرض ، واستمعوا فى سذاجة متلهفة الى أى دجال يتملـق تحيزهم باحدى القصص الملأى بالعجائب ، وبدا أن كلا من الفريقين اعترف بصدق المعجزات التى ادعاها غريمه . وبينما قنعوا جميعـا بتسبيقها الى أفانين السحر وقوة الجن ، نجد الفـريقين كليهما قـد استعادا للخرافة سلطانها وثبتا دعائمها (٢) . وتحولت الآن الفلسفة، وهى الد أعدائها ، الى حليفها النافع ، الى أبعد حدود النفع ، وكادت أن تهجر خمائل الأكاديمية وحدائق أبيقور ، بل حتى قاعات الرواقيين ، لأن كثيرا من مختلف مدارس الشك أو الالحاد وكثيرا من الرومان ، رغبوا فى وجوب ادانة كتابات شيشرون وابطالها بمقتضى ما للسناتو من سلطة ، ورات طائفة الأفلاطونيين الحديثين أنه من الفطنـة أن يقفوا الى جانب الكهنة الذين ربما احتقرهم هؤلاء الأفلاطونيون الجدد ، ضد المسيحيين الذين كان ثمة ما يبرر توجس الخيفة منهم . واتخذ هؤلاء الأفلاطونيون أسلوب استخراج الحكمة المجازيـة من قصـص

(١) وقد نقتبس من بين العدد الكبير من الأمثلة ، العبادة الخفية لمترا Mithra (عبادة الشمس فى الفرس قديما) وتوروبوليا Taurobolia (عبادة وثنية نشأت أولا فى آسيا الصغرى) ، وكانت هذه العبادة هى عبادة العصر فى عهد الأنطونينيين . وأن قصة أبوليوس Apuleius لتزخر بالنسك والهجاء بقدر سواء .

(٢) انه لمما يؤسف له أشد الأسف أن الآباء المسيحيين ، باعترافهم بالجانب الخارق للطبيعة — أو كما قدروه هم أنفسهم — الجانب الخبيث فى الوثنية ، انما يقضون بأيديهم على الفائدة التى ربما حصلنا عليها — لو لم يفعلوا ذلك — من اذعان خصومنا الذى يتسم بالتحرر .

الشعراء اليونانيين ، وفرضوا للعبادة شعائر خفية يقوم بها تلاميذهم المختارون ، وأوصوا بعبادة الأرباب القدامى بوصفها رموزا أو خداما « للاله الأعظم » ، وألفوا لدحض عقيدة الانجيل كثيرا من الرسائل المتقنة التى جعلتها فطنة الأباطرة طعما للنار منذ ذلك الوقت .

وعلى الرغم من أن سياسة دقلديانوس وقسطنطينوس اتجهت الى الاستمساك باحترام مبادىء التسامح ، فانه سرعان ما تبين أن شريكيهما مكسيميان وجالريوس أضمرا لاسم المسيحيين وديانتهم ألد عداوة لا تلين . ان نور العلم لم يجد سبيلا الى عقل هذين الأميرين ، ولم يصقل التعليم طباعهما قط ، وهما مدينان بعظمتهما للسيف . وتمسكا ، وهما فى أوج مجدهما ، بآراء الجنود والفلاحين المبنية على الخرافة ، ونفذا فى ادارة الولايات تلك القوانين التى كان ولى نعمتهما قد شرعها ، ولكن كثيرا ما وجدا الفرصة سانحة فى معسكرهما وفى قصورهما لممارسة الاضطهاد الخفى الذى أضفت عليه غيرة المسيحيين الطائشة أحيانا أشد المزاعم تلفيقا وتمويهها . فمثلا نفذ حكم الاعدام فى شاب أفريقى يدعى مكسيمليانوس ، قدمه أبوه للحاكم على أنه فى سن التجنيد وأنه لائق له ، ولكن الشاب أصر فى عناد على القول بأن ضميره لا يطاوعه على الانخراط فى سلك الجندية . كما لا يكاد يكون من المتوقع أن تحتمل أية حكومة تصرف ضابط المائة مارسلوس Marcellus دون حساب أو عقاب ، ذلك أنه يوم عيد عام ، ألقى هذا الضابط بحزامه وسلاحه وشعارات وظيفته ، وصاح بصوت عال ، أنه لن يطيع الا يسوع الملك الأبدى ، وأنه سينبذ الأسلحة الدنيوية الى الأبد ، كما يطرح خدمة سيد وثنى . وسرعان ما أفاق الجنود من دهشتهم وقبضوا على مارسلس . وحقق معه فى مدينة تنجى Tingi بمعرفة رئيس هذا القسم من موريتانيا . وأدين بناء على اعترافه ، وحكم عليه ، وضرب عنقه بتهمة الهرب من الخدمة العسكرية . ان رائحة الاضطهاد الدينى لتفوح من مثل هذه الحالات أقل مما تفوح منها رائحة القانون العسكرى . بل حتى القانون المدنى ، ولكنها أفلحت فى تحويل عقل الامبراطورين ، وفى تبرير قسوة جالريوس الذى طرد عددا كبيرا من الموظفين المسيحيين من وظائفهم ، وفى تعزيز الرأى القائل بأن مثل هذه الطائفة من المتحمسين الذين أعلنوا من المبادىء ما يضر بسلامة الدولة ، يجدر أن يبقوا عاطلين لا يرجى منهم نفع ، والا باتوا خطرا على الامبراطورية .

وبعد أن رفع الانتصار فى الحرب ضد فارس من آمال جالريوس وزاد من شهرته ، قضى الشتاء مع دقلديانوس فى قصر نيقوميديا ، وكان تقرير مصير المسيحيين هدف مداولاتهم السرية . وكان الامبراطور المحنك لا يزال ميالا الى الأخذ باللين والرفق . ورغم موافقته فى الحال على استبعاد المسيحيين من وظائف القصر أو الجيش ، نراه يحذر من الخطر الذى ينجم عن سفك دماء هؤلاء المتعصبين المغرر بهم ، ومن بشاعة هذا العمل وانتزع منه جالريوس آخر الأمر ترخيصا بدعـوة مجلس من نفر قليل من أبرز الموظفين والعسكريين فى الدولة ، وأثيرت هذه المسألة الهامة بحضورهم ، وسهل على رجال البلاط الطامحين أن يدركوا أن من واجبهم أن يظاهروا ، بكل ما وتوا من فصاحة ، الحاح القيصر على استعمال العنف . ويمكن القول بأنهم أصروا على كل ما من شأنه أن يرضى غرور مليكهم أو تقواه أو مخاوفه ، فيما يتعلق بتدمير المسيحية . ولعلهم صوروا العمل المجيد ، ألا وهو انقاذ الامبراطورية، بأنه سوف يظل ناقصا مشوبا ، طالما سمح لشعب مستقل بالبقـاء والتكاثر فى قلب الولايات ، وربما ذهبوا الى القول (وهو ادعاء خداع) بأن المسيحيين الذين نبذوا عبادة روما ونظمها ، قد أسسوا جمهورية متميزة مستقلة ، من الميسور بعد القضاء عليها قبل أن تكون لها قوة عسكرية ، جمهورية تحكمها قوانينها الخاصة ، ويتولى زمام الأمر فيها حكام منها ، ولها أموالها العامة ، وترتبط بين مختلف أجزائها بروابط وثيقة تلك الاجتماعات المتكررة التى يعقدها الأساقفة الذين انصـاع لقراراتهم رعاياهم الكثيرون الموسرين انصياعا تاما صريحـا . ويبـدو أن مثل هذه الحجج قطعت على دقلديانوس سبيل الاحجام وحملته على اتخاذ أسلوب جديد فى الاضطهاد ، وقد يساورنا الشك ، ولو أنه ليس فى مقدورنا أن نسهب القول ، فى دسائس القصر الخفية ، وفى الآراء والضغائن الخاصة ، وحقد النساء أو الخصيان ، الى غير ذلك من الأسباب التافهة ، ولكنها الحاسـمة التى تعمـل عملهـا فى مصـير الامبراطوريات ومجالس أرجح الحكام عقلا .

وتجلت آخر الأمر دلالة ابتهاج الامبراطورين لأعين المسـيحيين الذين كانوا يرقبون فى قلق زائد ، طوال هذا الشتاء الكئيب ، نتيجـة المشاورات السرية الكثيرة . وحدد (عفوا أو قصـدا) اليوم الثالث والعشرون من فبراير ، الذى وافق يوم العيد الرومـانى ترمينـاليا Terminalia لوضع القيود على تقدم المسيحية ، ذلـك أنه فى الساعات الأولى من فجر ذلك اليوم ، قصد رئيس الحرس البريتورى وبرفقته عدد من القواد والتربيون ومامورى الدخـل ، الى الكنيسـة

الرئيسية فى نيقوميديا ، الواقعة على مرتفع من الأرض فى أجمل بقاع المدينة وأكثرها ازدحاما بالسكان ، وفى الحال فتحوا الأبواب عنوة واندفعوا الى المحراب ، ولما فتشوا عبثا عن أى جسم مادى للعبادة ، اضطروا الى الاكتفاء باحراق مجلدات الكتاب المقدس ، وكان وراء موظفى دقلديانوس حشد كبير من أفراد الحرس والطلائع ساروا فى تشكيل معركة مزودين بكل الآلات اللازمة لتدمير المدن المحصنة . وواصلوا العمل ، حتى استطاعوا فى بضع ساعات قلائل أن يهدموا هذا البناء السامق المقدس الذى شمخ فوق القصر الامبراطورى والذى طالما أثار حنق الأمميين وحقدهم .

ونشر فى اليوم التالى مرسوم الاضطهاد العام ، وعلى الرغم من أن دقلديانوس ظل معارضا لسفك الدماء . وخفف من حدة جالريوس الذى اقترح أن يحرق حيا على الفور كل من يرفض تقديم القرابين والضحايا ، فان العقوبات التى كانت تنزل بالمسيحيين المعاندين قد كانت تعتبر قاسية وفعالة الى حد كاف . ونص المرسوم على أن كنائسهم فى كل الولايات يجب أن تهدم من أساسها ، وعلى الحكم بالاعدام على كل شخص يجرؤ على عقد أية اجتماعات بقصد العبادة الدينية . أما الفلاسفة الذين انتحلوا لأنفسهم المهمة العقيمة ، مهمة توجيه التحمس الأعمى للاضطهاد ، فانهم درسوا دراسة يقظة طبيعة الديانة المسيحية وقدرتها ، ولما كانوا لا يجهلون أن المبادىء النظرية مفروض وجودها فى كتابات الرسل والحواريين والانجيليين ، فالأرجح أن هؤلاء الفلاسفة اقترحوا اصدار أمر يحتم على الأساقفة والمشايخ أن يسلموا كل كتبهم المقدسة الى الحكام الذين أمروا — تحت طائلة أشد العقاب — باحراقها بطريقة علنية مهيبة . وبمقتضى نفس المرسوم صودرت فى الحال أملاك الكنيسة وبيعت أجزاؤها لمن يدفع أكبر ثمن ، أو ضمت الى أملاك الامبراطور ، أو وهبت للمدن والهيئات، أو منحت لرجال الحاشية الجشعين بناء على توسلاتهم . وبعد هذه الخطوات الفعالة للقضاء على ديانة المسيحيين وحل حكومتهم ، رئى من الضرورى أن يخضع لأشد العذاب الذى لا يطاق أولئك المتمردون الذين ظلوا يرفضون ديانة الطبيعة ، وديانة روما ، وديانة آبائهم . واعتبر الأشخاص الأحرار ذوو المنبت الكريم محرومين من الحصول على أية أمجاد أو وظائف ، وحرم العبيد الى الأبد من أى أمل فى الحرية ، وحرم الشعب (المسيحى) بأجمعه من حماية القانون . ورخص للقضاة فى الاستماع والحكم فى أية قضية ضد أى مسيحى ، ولكن لم يكن مرخصا للمسيحيين فى حق الشكوى من أى ضرر أو أذى

يصيبهم هم أنفسهم ، ومن ثم تعرضت هذه الطائفة المنكودة لصرامة العدالة العامة ، على حين حرموا من التمتع بمزاياها . وربما كان مثل هذا الأسلوب من الاستشهاد الأليم البطيء الغامض الكريه ، خير الأساليب لارهاق عزيمة المؤمن والفت في عضده ، وليس من شك في اتجاه البشر ، في مثل هذه الظروف ، بعواطفهم وبحكم مصلحتهم ، الى مسايرة رغبات الأباطرة ، ولكن لابد أن سياسة حكومة دقيقة التنظيم قد تدخلت أحيانا لمصلحة المسيحيين المظلومين ، كما أنه لم يكن من الممكن أن يمحو الأمراء الرومان الخوف من العقاب محوا تاما ، أو يتستروا على أى عمل من أعمال التدليس أو العنف دون تعريض سلطتهم ، وتعريض سائر رعاياهم (غير المسيحيين) لأفدح الأخطار .

ولم يكد هذا المرسوم ينشر علنا في أبرز مكان في نيقوميديا قبل أن تمزقه اربا يدا مسيحى عبر ، في نفس الوقت ، بأقذع السباب عن احتقاره ومقته لهؤلاء الحكام الملحدين الطغاة . ورقى جرمه ، بمقتضى أخف القوانين الى درجة الخيانة ، واستحق الاعدام . واذا صح أنه كان رجلا متعلما ذا مرتبة عالية ، فان هذه الظروف لم تثمر شيئا سوى مضاعفة جرمه . وقد أحرق أو على الأصح شوى في نار هادئة . واستنفد جلادوه — في تحمسهم للثأر لهذه الصفعة المهينة التى أصابت أشخاص الأباطرة — استنفدوا كل أفانين القسوة والعنف ، دون أن ينالوا من جلده وصبره أو يغيروا من الابتسامة الساخرة الثابتة التى ارتسمت على وجهه ، حتى وهو يعانى سكرات الموت . واعترف المسيحيون بأن سلوكه لم يتفق تمام الاتفاق مع قواعد الحذر والروية ، الا أنهم رغم ذلك أعجبوا بتوقد غيرته المقدسة ، كما أن افراطهم في تمجيد ذكرى بطلهم وشهيدهم ساعد على خلق احساس عميق بالرعب والكراهية في نفس دقلديانوس .

وأهاج مكامن الخوف عنده نذير سوء كاد يودى به ، ولكنه نجا منه بأعجوبة ، ففى مدى خمسة عشر يوما أشعلت النيران مرتين في قصر نيقوميديا وفي مخدع دقلديانوس نفسه ، وأطفىء الحريق في المرتين دون خسائر مادية ، ولكن مجرد تكرار الحريق اعتبر بحق دليلا قاطعا على أنه لم يأت بمحض الصدفة أو نتيجة اهمال . وطبيعى أن تحوم الشبهات حول المسيحيين ، وذهبت الظنون ، مع شيء من الترجيح ، الى أن هؤلاء المتعصبين المستميتين الذين استفزتهم آلامهم الراهنة ، وتوقعوا المزيد من كوارث تحدق بهم ، قد دبروا مع اخوانهم المؤمنين

من خصيان القصر مؤامرة ضد حياة الامبراطورين اللذين يمقتونهما كل المقت بوصفهما عدوين لدودين لكنيسة الله . وملأ الحقد والحنق كل الصدور وخاصة دقلديانوس . وزج فى السجون بعدد كبير من ذوى المناصب أو الحظوة . وبلغ الامعان فى التعذيب بمختلف الوسائل حد الشطط . وتلوث القصر والمدينة على السواء بدماء أولئك الذين نفذ فيهم حكم الاعدام . ولما كان من المتعذر استجلاء غوامض هذه الفعلة الخفية ، فيبدو أنه لزام علينا اما أن نفترض براءة هؤلاء المعذبين أو نبدى الاعجاب بقوة عزيمتهم . وأسرع جالريوس بعد ذلك بأيام قلائل بمغادرة نيقوميديا ، معلنا أنه لو أبطأ فى الرحيل عن هذا القصر المتعبد لوقع حتما فريسة لغضب المسيحيين . أما مؤرخو الكنيسة الذين نستقى منهم شذرات من معلومات متحيزة مبتورة ، فانهم فى حيرة من أمرهم ، كيف يعللون مخاوف الامبراطورين ويعللون الخطر المحدق بهما . وكان اثنان منهم احدهما أمير والثانى من أئمة البلاغة — شاهدى عيان لحريق نيقوميديا ، وينسب أحدهما هذا الحريق الى صاعقة من غضب السماء ، بينما يؤكد الثانى أنه من تدبير جالريوس وكيده .

ولما كان المرسوم الصادر ضد المسيحيين قد وضع على أساس أن يكون قانونا عاما يطبق فى جميع أنحاء الامبراطورية ، ولما كان دقلديانوس وجالريوس قد تأكد لهما اتفاق أميرى الغرب معهما فى الرأى ، ولو لم يكن لزاما عليهما أن يتريثا حتى تتم الموافقة ، فانه يبدو أكثر تمشيا مع آرائنا فى السياسة أن حكام جميع الولايات قد تلقوا تعليمات سرية لينشروا — كل فى نطاقه — فى يوم واحد اعلان الحرب ، وكان من المتوقع على الأقل أن الطرق العامة الميسرة ونقط الرقابة المقامة عليها سوف تمكن الأباطرة من نقل أوامرهم بأقصى سرعة من قصر نيقوميديا الى أقصى أطراف العالم الرومانى ، والا يتحملوا مضى خمسين يوما قبل أن ينشر المرسوم فى سوريا ، وقرابة أربعة شهور قبل أن يعلن فى مدن أفريقية ، وربما رجع هذا الابطاء الى طبع دقلديانوس الحريص المحاذر ، الذى وافق كارها على اجراءات الاضطهاد ، والذى رغب كل الرغبة فى محاولة هذه التجربة، أقرب ما يكون الى بصره وسمعه ، قبل أن يفسح المجال للاضطراب والسخط اللذين لابد أن تحدثهما هذه التجربة فى الولايات النائية . والحق أن الحكام منعوا أول الأمر من سفك الدماء ، ولكن رخص لهم فيما عدا ذلك من ألوان القسوة ، بل استحثوا عليها . على أن المسيحيين من جهة أخرى ، رغم أنهم تخلوا فى رضا عن زخارف كنائسهم،

لم يكن فى وسعهم أن يقرروا ابطال اجتماعاتهم الدينيــة أو تســليم كتبهم المقدسة الى النيران . ويبدو أن ورع فيلكس Felix العنيد ، وهو أسقف أفريقى ، قد أزعج صغار موظفى الحكومة ، فأرسلــه أمين مدينته مكبلا بالأصفاد الى البروقنصل ، فحمله هــذا بدوره الى رئيس الحرس البريتورى فى ايطاليا ، وأخيراً أطاحوا برأس فيلكس الذى احتقر حتى أن يجيب اجابة مراوغة فى فينوسيا فى لوكانيا ، وهو مكان اكتسب شهرة بولادة هوراس فيه . ويبدو أن هذه السابقة ــ بالاضافة الى مرسوم امبراطورى يحتمل أن يكون قد صدر نتيجة لها ــ خولت حكام الولايات حق انزال عقوبة الاعــدام بالمسيحيين الــذين يمتنعون عن تسليم كتبهم المقدسة ، وليس من شك فى أن كثيراً من الناس انتهزوا هذه الفرصة ليفوزوا بشرف الاستشهاد ، ولكن كان هناك بالمثل كثيرون ممن اشتروا حياة بغيضة بالكشف عــن مخابىء الكتب المقدسة وتسليمها غدرا الى الكفار . ووصم عدد كبير ، حتى من الأساقفة والمشايخ ، من جراء هذا التواطؤ الاجرامى ، بوصمة هذا النعت الشائن « الخونة » وكانت هذه الخطيئــة سببــا فى كثير من فضائح العصر ، وفى كثير من الاضطراب والخلل فى الكنيسة الأفريقية فيما بعد .

وكانت نسخ الكتاب المقدس وترجماته قــد تكــاثر عــددها فى الامبراطورية الى درجة لم تعد تسفر معها أقسى التحريات عن نتائج حاسمة ، بل ان التضحية بتلك المجلدات التى كانت محفوظة فى كل المجامع للاستعمال العام ، كانت تقتضى رضاء بعض المسيحيين الخونة الأدنياء . ولكن عملية تدمير الكنائس كان من السهل تنفيذها بسلطة الحكومة وجهود الوثنيين . ومهما يكن من شىء ، فقد اكتفى الحكام فى بعض الولايات باغلاق أماكن العبادة . وكان آخرون أشد تمسكا بحرفية نصوص المرسوم ، فنزعوا الأبواب والمقاعد والمنبر ، وأحــرقوها ، وكأنها كومة جنائزية ، ثم هدموا بقية المبنى عن آخره . وربما كــان لزاما علينا ، من أجل هذه المناسبة الأسيفة ، أن نلجأ الى تلك القصة المشهورة التى تروى فى كثير من وجوه التباين والاستحالة ، الى درجة أنها قد تثير فضولنا أكثر مما تشبعه . ففى بلدة صغيرة فى فريجيا (اقليم قديم فى أواسط آسيا الصغرى) لم ننبأ باسمها أو موقعها ، والظاهر أن حكامها وجمهور شعبها كانوا قد اعتنقوا المسيحية ــ كان من المتوقع أن تحدث بعض المقاومة لتنفيذ المرسوم ، ومن ثم زود حاكم الولاية بفضيلة من جنود الجيش ، ولدى اقترابهم من المدينة هــرع المواطنون الى الكنيسة موطدين العزم على الدفاع بأسلحتهم عن هذا

المكان المقدس أو الهلاك تحت أطلاله ، وأبوا فى إجتقسيار أن يلقوا بالا الى الاعلان والأذن اللذين أعطيا لهم بالانسحاب ، حتى استفز اباؤهم العنيد الجنود فأشعلوا النار فى كل جوانب المكان ، وأبادوا بهذا اللون الغريب من الاستشهاد عددا كبيرا من أهسالى فريجيسا وزوجاتهم وأطفالهم .

وحدثت فى سوريا وعلى حدود أرمينيا قلاقل بسيطة لم تلبث أن ثارت حتى أخمدت ، ولكنها رغم ذلك هيأت لأعداء الكنيسة مناسبة خداعة للايعاز بأن هذه المتاعب انما أثارتها سرا دسائس الأساقفة الذين نسوا فى الواقع تفاخرهم بالاعتراف بالطاعة المطلقة بغير حدود، وتجاوز حنق دقلديانوس ومخاوفه ، آخر الأمر ،حدود الاعتدال الذى تذرع به حتى الآن . فأعلن فى سلسلة من المراسيم الصارمة عن عزمه على محو اسم المسيحية ، وقضى أول هذه المراسيم على حكام الولايات باعتقال كل رجال الكنيسة ، وسرعان ما امتلأت السجون المخصصة لكبار المجرمين بجموع الأساقفة والمشايخ والشمامسة والقراء . بل حتى وطاردى الأرواح الشريرة . وأمر الحكام بمقتضى المرسوم الثانى، باللجوء الى كل وسائل العنف التى يمكن أن تبعد أولئك عن خرافتهم الخبيثة ، وتضطرهم الى الرجوع الى عبادة الآلهة القائمة . وامتد هذا الأمر الرهيب ، بناء على مرسوم تال ، الى جماعة المسيحيين كافة ، ومن ثم تعرضوا لاضطهاد عنيف شامل . وأصبح من واجب الموظفين الامبراطوريين ، بل ومن مصلحتهم كذلك بدلا من تلك القيود السليمة التى كانت تتطلب من المدعى اقامة بينة صريحة جدية ، أن يكتشفوا ويتعقبوا ويعذبوا أبغض الأشخاص من بين المؤمنين . وفرضت العقوبة الصارمة على كل من يجرؤ على انقاذ أى مشايع للمسيحية حرم من حماية القانون ، من الغضب العادل للآلهة أو الأباطرة ، وعلى الرغم من صرامة هذا القانون ، فان الشجاعة الخيرة التى تجلت فى اخفاء كثير من الوثنيين لأصدقائهم وأقربائهم ، لتقدم أنبل برهان على أن بطش الخرافة لم يخمد فى نفوسهم عواطف الطبيعة والانسانية .

وما كاد دقلديانوس يصـدر مراسيمه ضد المسيحيين ، حتى جرد نفسه من صولجان الملك ، وكأنه بذلك أراد أن يلقى بمهمة الاضطهاد الى أيد غير يديه . بيد أن أخلاق زملائه وخلفائه ومواقفهم دفعتهم تارة الى اعمال هذه القوانين الجائرة ونزعت تارة أخرى الى وقف العمل بها . ونحن لا نستطيع الحصول على فكرة صادقة واضحة عن هذه الحقبة الخطيرة من تاريخ الكنيسة ، الا إذا درسنا أحوال

المسيحية في مختلف أجزاء الامبراطورية ، كل على حدة ، طوال الأعوام العشرة التى انقضت بين أول مراسيم دقلديانوس وبين السلام النهائى فى الكنيسة .

ولم يرتض طبع قسطنطيوس الرقيق الوديع ظلم أى فريق من رعاياه ، فتولى المسيحيون الوظائف الرئيسية فى قصره ، وأحب أشخاصهم وقدر أمانتهم ، ولم يستشعر شيئا من الكراهية لمبادئهم الدينية ، ولكن طالما بقى قسطنطيوس فى المركز التابع أو الثانى « قيصر » (لا أغسطس) ، فانه لم يكن فى مقدوره ، صراحة ، أن يرفض قوانين دقلديانوس ، أو يعصى أوامر مكسيميان . لكن سلطته على أية حال ، ساعدت فى تخفيف الآلام التى حزن لها وكرهها . فقد رضى على كره منه بهدم الكنائس ، ولكنه جرؤ على حماية المسيحيين أنفسهم من بطش الجمهور ومن جور القوانين . وذانت ولايات الغال (ويمكن أن نلحق بها بريطانيا على الأرجح) بالهدوء الفريد الذى نعمت به ، لوساطة مليكهم الكريمة . ولكن داشيانوس ، رئيس أسبانيا أو حاكمها ، بفعل الغيرة أو السياسة ، آثر أن ينفذ المراسيم العامة التى اصدرها الامبراطوران ، على أن يفطن الى المقاصد الدفينة فى نفس قسطنطيوس . وقل أن يوجد مجال للشك فى أن ادارته للولاية قد تلطخت بدماء نفر من الشهداء . ولما تبوأ قسطنطيوس الى الرتبة السامية المستقلة — مرتبة أوغسطس — انفسح أمامه مجال العمل الحر لتحقيق رغباته . ولم يمنعه قصر حكمه من ارساء أسلوب جديد للتسامح ، كان لابنه قسطنطين فيه قدوة يحتذيها ، ومنه ناموس يسير على هديه . واستحق الابن الموفق — الذى أعلن نفسه منذ اللحظة الأولى لارتقائه عرش الامبراطورية ، حامى الكنيسة — استحق أن يطلق عليه انه أول امبراطور اعترف علانية بالديانة المسيحية وثبت دعائمها . ان بواعث تحوله ، التى يمكن استخلاصها ، بشكل أو بآخر ، من حب الخير ، أو السياسة ، أو الاقتناع ، أو تأنيب الضمير ، ونجاح الانقلاب الذى أصبحت معه المسيحية ، بفضل نفوذه القوى ونفوذ أبنائه ، الديانة الغالبة فى الامبراطورية الرومانية — نقول ان كل أولئك سوف يشكل فصلا ممتعا هاما فى فصل تال من هذا التاريخ ، أما الآن فيكفى أن نشير الى أن كل انتصار أحرزه قسطنطين كان له بعض الأثر فى التخفيف عن الكنيسة وبعض النفع لها .

وعانت ولايات ايطاليا وأفريقية من اضطهاد لم يطل أمده ولكنه كان عنيفا . ذلك أن مراسيم دقلديانوس الجائرة نفذها ، فى دقة

وابتهاج ، شريكه مكسيميان ، الذى كره المسيحية منذ زمن طويل ، والذى كان يطرب لسفك الدماء وأعمال العنف . والتقى الامبراطوران دقلديانوس ومكسيميان ، فى خريف العام الأول للاضطهاد ، فى روما ، ليحتفلا بذكرى انتصارهما . ويبدو أن عدة قوانين جائرة قد انبثقت عن مشاوراتهما السرية ، واستمد الحكام من حضرة الامبراطورين قوة . وبعد تنازل دقلديانوس عن الحلة الامبراطورية ، عهد بادارة ايطاليا وأفريقية الى سيفيروس ، وتعرضتا — دون دفاع — لسخط سيده جالريوس الذى لا يرحم . ومن بين شهداء روما ، يستحق أدوكتس Adauctus — تمجيد الأجيال القادمة ، فقد كان سليل أسرة نبيلة فى روما ، وتدرج فى مناصب القصر ، حتى وصل الى المنصب الخطير ، خازن الممتلكات الامبراطورية الخاصة . وقد ذاعت شهرة أدوكتس باعتباره أول شخص من ذوى المكانة والامتياز يبدو انه لقى حتفه طوال فترة هذا الاضطهاد العام .

وأعاد تمرد مكسنتيوس على الفور السلام والهدوء الى كنائس ايطاليا وأفريقية ، وظهر نفس الطاغية الذى سام سائر طبقات رعاياه الوان الظلم — بمظهر العادل الوديع ، بل حتى المتحيز للمسيحيين المنكوبين . واعتمد على عرفانهم لجميله وحبهم له . وكان طبيعيا أن يقدر أن ما عانوا من أذى ، وما ظلوا يتوقعون من أخطار ، على يدى عدوه العنيد لابد أن يؤمن له اخلاص فريق باتت له بالفعل أهميته وقيمته عددا وثراء ، بل ان سلوك مكسنتيوس نحو أساقفة روما وقرطاجة قد يعتبر دليلا على تسامحه ، حيث انه من المحتمل أن أكثر الأمراء استقامة وتمسكا بالدين لا بد أن ينهجوا مثل هذا النهج ازاء رجال الدين القائم . وكان مارسلس Marcellus ، أول هؤلاء الأحبار قد أثار الاضطراب فى العاصمة بما فرض من كفارة على عدد كبير من المسيحيين الذين كانوا قد نبذوا أو تنكروا للدين ، فى فترة الاضطهاد السابق . واشتد الهياج ، وتوالت الفتن العنيفة ، وسفك المؤمنون دماءهم بأيديهم ، ووجد أن نفى مارسلس الذى بدا أن فطنته كانت أقل سموا من غيرته — هو الاجراء الوحيد الذى يمكن به اعادة السلام الى الكنيسة الممزقة فى روما . ويبدو أن سلوك منسوريوس Mensurius أسقف قرطاجه ، ما فتىء ينذر بالخطر . فان أحد شمامسة هذه المدينة نشر قذفا فى حق الامبراطور ، واحتمى الشماس المسىء بدار الأسقفية، ورغم أن الوقت لم يكن قد حان بعد للمطالبة بحق الحصانة الكنسية ، فقد رفض الأسقف تسليمه الى أيدى العدالة . واستدعى منسوريوس الى البلاط ، من أجل هذه المقاومة التى تتسم بالخيانة ، ولكنه ، بدلا

من أن يتلقى حكما عادلا بالاعدام أو النفى ، سمح له بعد تحقيق قصير بالانصراف الى أبرشيته . تلك كانت حالة السعادة التى نعم بها رعايا مكسنتيوس المسيحيون ، الى حد أنهم اذا عن لهم أن يحصلوا على بعض جثث الشهداء لاستعمالهم الخاص ، اضطروا الى شرائهـا من أقصى ولايات الشرق ، وثمة قصة تروى عن آجلا Aglae ،وهى سيدة رومانية منحدرة من احدى أسرات القناصل ، تمتلك ضيعة كبيرة تطلبت ادارتها ثلاثة وسبعين موظفا ، كان بونيفاس Boniface أكثرهم حظـوة لدى سيدته ، ويروى أنه لما مزجت آجـلا الحب بالعبادة ، سـمحت له بمضاجعتها ، ومكنتها ثروتها من تحقيق الرغبة التقية فى الحصول على بعض الرفات المقدسة من الشرق ، فزودت بونيفاس بمبلـغ كبير من الذهب ، وكمية كبيرة من العطور ، وسعى عشيقها ــ يحف به اثنا عشر خيالا ، وتتبعه ثلاث عربات مغطاة ، حاجا الى مكان سحيق ، الى مدينة طرسوس فى قيليقيا .

مرسوم جالريوس للتسامح

كـان جـالريوس ذو المـزاج الدموى والمنشىء الأول والرئيسى للاضطهاد ــ شديد البأس على المسيحيين الذين ألقى بهم حظهم العاثر فى نطاق مملكته . وقد يحق لنا أن تذهب بنا الظنون الى أن أفرادا كثيرين من الطبقة الوسطى الذين لم تحد من حريتهم قيـود الثروة أو أغلال الفاقة ، كثيراً ما هجروا وطنهم والتمسوا ملجأ وملاذاً فى المناخ الذى هو أكثر اعتدالا فى الغرب ، وطالما اقتصر سلطان جالريوس ــ على جيوش الليريكوم Illyricum وولاياتها ــ فانه لقى صعوبة فى العثور على الشهداء أو صنع عدد منهم ، وسط بلد محارب استقبل المبشرين بالانجيل بفتور وامتعاض أكثر مما استقبلوا بهما فى أى مكان آخر فى الامبراطورية . ولكنه حين استحوذ على السلطة العليا ، وآلت اليه حكومة الشرق ، سدر فى غيرته وقسوته الى أبعد مدى ، لا فى ولايتى تراقيا وآسيا فقط ، حيث دانت هاتان الولايتان لسلطانه المباشر ، بل كذلك فى ولايات سوريا وفلسـطين ومصر ، حيث أرضى مكسيمين نزعته الخاصة بالطاعة العمياء لأوامر ولى نعمته الكالحة. أما جالريوس فقد أقنعته آخر الأمر خيبته المتكررة فى تحقيق أطماعه ، وتجربة سنوات ست من الاضطهاد ، والأفكار المفيدة التى أوحى بها الى عقله اعتـلال طويل المدى اليم فى صحته ــ أقنعتـه بأن أعنف أعمال الاستبـداد والطغيان لا تكفى لابادة شعب بأسره ، أو للقضـاء على معتقـداتهم

الدينية ، ومن ثم أصدر — تحدوه الرغبة فى اصلاح ما افسدته يداه — مرسوما عاما يحمل اسمه ، واسمى ليسينيوس ، وقسطنطين ، تألقت فى ديباجته المشرقة الألقاب الامبراطورية ، ثم جاء بعدها :

« من بين المهام الخطيرة التى تشغل أذهاننا ، من أجل مصلحة الامبراطورية والحفاظ عليها ، أن اتجهت ارادتنا الى تصحيح كل الأوضاع ، واعادة بنائها ، وفقا للقوانين القديمة ، والنظام العام عند الرومان . وانا لشديدو الرغبة ، بصفة خاصة ، فى أن نهدى الى طريق العقل والطبيعة أولئك المسيحيين المضللين الذين نبذوا الديانة والطقوس التى شرعها آباؤهم ، والذين تبجحوا فازدروا شعائر الأقدمين ، ومن ثم ابتدعوا قوانين وآراء متطرفة ، أملاها عليهم خيالهم ، وشكلوا مجتمعا متعدد الألوان فى مختلف أرجاء الامبراطورية ، ان المراسيم التى أصدرناها لفرض عبادة الآلهة ، عرضت كثيرا من المسيحيين للخطر والكروب ، فقضى الكثيرون نحبهم ، على حين ظل عدد اكبر سادرين فى حماقتهم الملحدة حيث جردوا من الحق فى الممارسة العلنية للدين ، ومن هنا اتجهت ارادتنا الى أن نبسط مزايا رأفتنا المألوفة على هؤلاء الأفراد التعساء . ولذلك نرخص لهم فى اعلان آرائهم الخاصة فى حرية تامة ، وفى عقد اجتماعاتهم السرية دون خوف أو ازعاج ، شريطة أن يظهروا دوما الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائمة . ولسوف نوضح مقاصدنا للقضاة والحكام ، فى مرسوم آخر ، وأنا لنأمل أن يحفز تسامحنا المسيحيين الى الصلاة والتضرع الى الاله الذى يعبدون ، من أجل سلامتنا ورخائنا . وسلامتهم ورخائهم هم أنفسهم ، وسلامة الجمهورية ورخائها » .

وليس من المألوف أن نقفو ، فى لغة المراسيم والمنشورات ، شخصية الأمراء الحقيقية ، أو دوافعهم الخفية . ولكن لما كانت هذه الفاظ امبراطور يحتضر ، فلربما سلمنا بأن يكون موقفه بمثابة تعهد بأخلاصه .

ولما وقع جالريوس مرسوم التسامح هذا ، كان متأكدا كل التأكد أن ميسينيوس على استعداد لمسايرة نزعات صديقه وولى نعمته ، وأن أية خطوات تتخذ لمصلحة المسيحيين سوف تحظى بقبول قسطنطين ، ولكن الامبراطور (جالريوس) لم يكن ليجرؤ على أن يضع فى ديباجة المرسوم اسم مكسيمين ، الذى كانت موافقته على اكبر جانب من الأهمية ، والذى كان قد تولى بعد ذلك بأيام قلائل حكم ولايات آسيا .

وفي الشهور الستة الأولى من حكمه تظاهر مكسيمين ، على أية حال . بأنه يتبع النصائح الحكيمة لسلفه ، ورغم أنه لم يتفضل يوما باصدار مرسوم عام لتأمين هدوء الكنيسة ، فان سابينوس رئيس حرسه البريتورى ، وجه كتابا دوريا الى الولاة والحكام فى الولايات ، أفاض فيه الحديث عن رفق الأباطرة واعترف فيه بضراوة عناد المسيحيين ، وأشار فيه على رجال القضاء بوقف محاكماتهم العقيمة ، وغض الطرف عن الاجتماعات السرية لهؤلاء المتحمسين . وتبعا لهذه الأوامر أطلق سراح كثير من المسيحيين من السجون ، أو أنقذوا من المناجم . وعاد المصرون على عقيدتهم المسيحية الى بلادهم ، وهم ينشدون أغنية النصر ، أما أولئك الذين كانت قد خارت قواهم واستسلموا لعنف العاصفة ، فقد توسلوا فى دموع الندم فى أن يرخص لهم بالعودة الى أحضان الكنيسة .

ولم يدم طويلا أمد هذا الهدوء الغدار . وما كان مسيحيو الشرق ليثقوا قط فى مليكهم ، فان القسوة والخرافة (العقيدة) كانتا تسيطران على عقل مكسيمين ، أما القسوة فقد ابتدعت وسائل الاضطهاد ، على حين جددت الثانية أهدافه . فقد كان الامبراطور مثابرا على عبادة الآلهة ودراسة السحر والايمان بالوحي ، وكثيرا ما ارتقى بالرسل أو الفلاسفة الذين احترمهم وبجلهم على أنهم « مقربون الى السماء » ارتقى بهم الى مناصب الحكم فى الولايات ، ورخص لهم فى حضور أخص مجالسه السرية ، وقد اقنعه هؤلاء بأن المسيحيين مدينون بانتصاراتهم الى نظامهم الدقيق ، وأن ضعف المشركين ناتج عن افتقارهم الى وحدة رجال الدين وأحكام الرياسة والتدرج بينهم . ومن ثم أدخل أسلوب من الحكم ، من الواضح أنه اقتبس من شريعة الكنيسة . وبأمر من مكسيمين تم اصلاح المعابد وتجميلها فى كل المدن الكبيرة فى أنحاء الامبراطورية . وأخضع الكهنة القائمون على خدمة مختلف الآلهة لسلطان حبر أعظم ، قدر عليه أن يناهض الأسقف وأن يرعى مصلحة الوثنية . واعترف الأحبار بدورهم بالاختصاص الأعلى لمطارنة الولايات أو كبار الكهنة فيها ، أولئك الذين كانوا بمثابة وكلاء مباشرين للامبراطور نفسه . وكان الرداء الأبيض شعار مرتبتهم العالية ، واختير هؤلاء الأحبار الجدد من أشرف الأسر وأغناها ، ووصلت بتأثير الحكام وتأثير هذا النظام الكهنوتى — وصلت الى الامبراطور رسائل كثيرة تنم عن الطاعة ، وبخاصة من مدن نيقوميديا وانطاكية وصور ، تجلت فيها — فى مكر ودهاء — مقاصد البلاط المعروفة ، على أنها نابعة من الشعور العام للشعب ، والتمست من الامبراطور أن يلجأ الى قوانين العدالة ،

خيرا من أن يرجع الى ما يمليه عليه رفقه ورأفته ، وعبرت عن كراهيتهم للمسيحية ، وتوسلت فى خشوع الى أنه يجدر ، على الأقل ، ابعاد هذه الفئة الضالة الملحدة من المسيحيين الى خارج بلادهم (بلاد أصحاب الرسائل) . وما يزال جواب مكسيمين عن ملتمس أهالى صور موجودا . فهو يمتدح غيرتهم واخلاصهم لعبادتهم فى عبارات تنم عن أعظم الرضا والارتياح ، ويسهب فى وصف عناد المسيحيين فى الحادهم . وبمبادرته الى الموافقة على نفيهم ، أى المسيحيين ، ويعلن أنه اعتبر نفسه كأنما يأتمر هو بأمرهم (مواطنى صور) أكثر من أن يصدر هو أمرا ملزما . وخول الكهنة والحكام حق تنفيذ مراسيمه التى كانت محفورة على الواح من النحاس . وعلى الرغم من توصيتهم بتجنب سفك الدماء ، فقد أنزلوا اقسى العقوبات وأبغضها بالمسيحيين المتمردين .

وحق للمسيحيين فى آسيا أن يتوجسوا كل الخيفة من قسوة ملك عنيد متعصب دبر أعمال العنف بمثل هذه السياسة المقصودة . ولكن لم تمض شهور قلائل حتى أرغم مكسيمين على وقف تنفيذ خططه بفضل المراسيم التى أصدرها امبراطورا الغرب ، وشغلت كل تفكيره تلك الحرب الأهلية التى تهور فى شنها ضد لوسينيوس ، وخلصت هزيمة مكسيمين وموته الكنيسة من آخر أعدائها وأشدهم ضراوة وعنادا .

ولقد تعمدت فى هذه النظرة العامة للاضطهاد الذى رخصت فيه لأول مرة مراسيم دقلديانوس ، أن أمسك عن وصف المعاناة التى كابدها كل من الشهداء المسيحيين وميتة كل منهم ، وكان من الميسور أن تجمع سلسلة من الصور المرعبة الكريهة ، من تاريخ يوسوبوس ومن خطابات لكتانتيوس المؤثرة ومن أقدم المؤلفات ، وأن تملأ منها صفحات كثيرة بذكر الخوازيق والسياط والأصفاد ، والحديد المحمى ، وغير ذلك من مختلف الوان العذاب التى يمكن أن تصلى بها النار والحديد والوحوش الكاسرة والجلادون الذين هم اشد وحشية ، تصلى بها جسم الانسان . فان هذه المناظر الكئيبة المحزنة قد تهيجها أو تبعثها حية مجموعة من الرؤى والمعجزات التى قضى عليها أن تؤجل موت أولئك القديسين المخلصين الذين عانوا الآلام من اجل اسم المسيح او تسجل انتصارهم أو تكتشف رفاتهم . ولكنى لا أستطيع أن أحدد ماذا ينبغى أن أنقل الا اذا اقتنعت بما يجدر بى أن أصدق . أن يوسيبيوس نفسه ، وهو أكثر مؤرخى الكنيسة وقارا وجدية ، ليعترف بأنه روى كل ما قد يؤدى الى مجد الديانة المسيحية ، واغفل كل ما يمكن

أن يشينها . وان مثل هذا الاعتراف ليثير الشك فى أن الكاتب الذى خرق خرقا صريحا واحدا من قوانين التاريخ الأساسية ، لم يقم وزنا كبيرا لملاحظات الكاتب الآخر ، وان الشك ليكتسب قوة من شخصية يوسيبيوس التى كانت اقل اصطباغا بالسذاجة وسرعة التصديق ، واكثر تمرسا بأفانين البلاط ، من شخصية أى واحد من معاصريه تقريبا . والمفروض فى بعض حالات معينة ، حين كانت بعض بواعث شخصية نابعة من المصلحة أو الحنق تثير حفيظة الحكام ، أو كانت غيرة الشهداء تغريهم بنسيان قواعد الحرص وربما قواعد الاحتشام فيخربون المذابح ، أو يصبون اللعنات على الأباطرة ، أو يضربون القضاة وهم جالسون فى منصة القضاء — نقول ان المفروض فى مثل هذه الأحوال أن يستنفد مع هؤلاء الضحايا الغيورين ، كل ما يمكن أن تبتدعه القسوة أو يصمد أمامه الجلد . ومهما يكن من أمر ، فقد ذكرت ، فى غير حذر ، حالتان توحيان بأن المعاملة العامة ، التى لقيها المسيحيون الذين كان رجال العدالة قد قبضوا عليهم — كانت أقل ضراوة أو أكثر احتمالا مما يتصور ، عادة ، أن تكون عليه هذه المعاملة .

١ — كان يسمح للمؤمنين الذين حكم عليهم بالعمل فى المناجم — نتيجة لانسانية حراسهم أو اهمالهم — ببناء كنائس صغيرة ، وبحرية ممارسة ديانتهم فى هذه الأماكن المقفرة .

٢ — كان الأساقفة ملزمين بكبح جماح الغيرة المتبججة والتنديد بها ، غيرة أولئك المسيحيين الذين سلموا أنفسهم طائعين مختارين ، الى الحكام . وكان بعض هؤلاء قد أرهقهم الفقر والديون ، وسعوا سعيا أعمى الى انهاء وجود تعيس بميتة مجيدة مشرفة . كما خدع آخرون بالأمل فى أن فترة قصيرة يقضونها فى السجن قد تكفر عن كل خطايا الحياة . وهناك فريق ثالث كان يعتمل فى نفسه باعث أقل شرفا ، وهو الحصول على معاش أكبر أو ربح وفير من الصدقات التى كان المؤمنون المحسنون يدفعونها للمسجونين . وبعد انتصار الكنيسة على كل أعدائها ، أدت بالمسجونين مصلحتهم وغرورهم على قدر سواء ، الى المبالغة فى تقدير ما يستحقون من مجد وشرف ، جزاء وفاقا لما عانى كل منهم من آلام . وهنا لابد من القول بأن تعاقب الأزمان أو تباعد المكان قد افسحا المجال لانتشار الروايات والخيالات والأوهام ، وبأن الأمثلة الكثيرة المزعومة لشهداء مقدسين ، شفيت على الفور جراحهم ، أو جددت قوتهم أو أعيدت اليهم أوصالهم المفقودة

ـــ مثل هذه المزاعم كانت ملائمة كافية لازالة أية عقبة واخراس أيـــة معارضة . ولما أدى أثر هذه الأساطير سرفا وتطرفا الى مجد الكنيسة فقد هلل لها الجمهور الساذج السريع التصديق ، وساندتها قوة رجال الدين ، كما أقرتها الشواهد المريبة فى تاريخ الكنيسة .

وانه لمن السهولة بمكــان كبير أن يطلق الخطيب الداهية لقلمـــه العنان للمبالغة أو التخفيف من الأوصاف الغامضة للمنفى والسجن ، والألم والتعذيب ، الى حد يحملنا بالضرورة الى تقصي حقيقة أكثر جلاء وأشد تثبيتا عن عدد من أعدموا نتيجة لقوانين دقلديانوس وشركائه وخلفائه . ان الروايات الحديثة تسجل الحشود والمدن التى اجتاحتها سورة الاضطهاد دون تمييز . أما الكتاب القدامى فيكتفون بوابل من السباب واللعنات الفاجرة المفجعة ، دون أن يتفضلوا بالتحقق مـــن الرقم الدقيق لأولئك الذين قيض لهم أن يؤكدوا بدمــائهم ايمـــانهم بالانجيل . ويمكن أن نستخلص من تاريخ يوسيبيوس ، على أية حال ، أن حكم الاعدام صدر على تسعة أساقفة ، كما يؤكد لنا تعداده الخاص لشهداء فلسطين أن عدد المسيحيين الذين فازوا بهذا اللقب الكريم لم يتجاوز اثنين وتسعين (١) . ولما كنا على علم تام بمقـــدار الغـــيرة والشجاعة الدينية اللتين سادتا ذاك العصر ، فليس فى مقـــدورنا أن نستخلص أية نتائج مفيدة من أولى هاتين الحقيقتين ، أما الثانية فقد تصلح لتبرير نتيجة هامة محتملة جدا . فان فلسطين ـــ وفقا لتوزيع الولايات الرومانية ، تعتبر القسم السادس عشر من الامبراطوريـــة الشرقية ، ولما كان هناك بعض الحكام الذين تنزهوا نتيجة لشعور

---

(١) ويختم روايته بان يؤكد لنا بان هذا هو عدد من استشهدوا فى فلسطين طوال فترة الاضطهاد . وقد يبدو أن الفصل التاسع من كتابه الثامن المتعلق بولاية طيبة فى مصر ، يتعارض مع تقديرنا المعتدل ، ولكنه يؤدى بنا الى الاعجاب بدهاء المؤرخ فى علاج الموضوع ، فقد اختار أبعد الأركان وأكثرها انعزالا فى الامبراطورية الرومانية مسرحا لأبشع أعمال العنف والقسوة ، وقال ان ما بين عشرة ومائة شخص كثيرا ما استشهدوا كل يوم فى طيبة . ولكنه لما انتقل الى الكلام عن رحلته فى مصر أصبحت لهجته ، دون ان يحس ، أكثر حرصا واعتدالا . وبدلا من الاتيان برقم كبير ، ولكنه محدد ، نراه يتحدث عن كثير من المسيحيين ، وينتقى فى دهاء بالغ ـ لفظتين مبهمتين ، يبدو أنهما تشيران اما الى ما رأى أو الى ما سمع ، واما الى توقع العقوبة أو الى تنفيذها . فلما تهيأت له هذه المراوغة الآمنة تقدم بهذه القطعة المبهمة الى القراء والمترجمين ، وهو يدرك بحق أن ورعهم سيحملهم على ايثار المعنى الأوفق لهم . وربما اتسمت بالخبث اشارة تيودوروس ميتوشيتا Theodorus Metochita الى أن كل الواقفين على أحوال المصريين ـ مثل يوسيبيوس Eusebius ـ سروا بالأسلوب الغامض المعقد .

حقيقى أو مصطنع من الرفق والرحمة — عن تلطيخ أيديهم بدماء المؤمنين، فانه من المعقول أن يذهب بنا الاعتقاد الى أن البلد الذى شهد مولد المسيحية أنجب على الأقل جزءا من ستة عشر جزءا من الشهداء الذين لقوا حتفهم فى نطاق اختصاص جالريوس ومكسيمين . وعلى هذا يكون مجموع الشهداء عامة نحو الف وخمسمائة ، وهو عدد اذا قسم بالتساوى على أعوام الاضطهاد العشرة ، لكان نصيب العام الواحد مائة وخمسين شهيدا . فاذا خصصنا نفس النسبة لولايات ايطاليا وافريقية ، وربما اسبانيا كذلك ، حيث أوقفت أو ألغيت قوانين العقوبات الصارمة بعد سنتين أو ثلاث ، لهبط عدد المسيحيين الذين وقعت عليهم عقوبة الاعدام بمقتضى حكم قضائى فى الامبراطورية الرومانية الى أقل من ألفى شخص . ولما كان من غير المشكوك فيه قط أن المسيحيين كانوا أكثر عددا ، وأن أعداءهم كانوا أشد غيظا فى عهد دقلديانوس عنهم فى أى اضطهاد سابق ، فقد يهدينا هذا الحساب المعتدل الى تقدير عدد القديسين والشهداء الأولين الذين ضحوا بأرواحهم من أجل غرض هام سام هو نشر المسيحية فى العالم .

ونختم هذا الفصل بحقيقة مفجعة تفرض نفسها على الذهن كرها ، تلك هى أنه ، حتى مع التسليم دون تردد أو بحث بكل ما سجله التاريخ أو زيفه النسك والتعبد فى موضوع الاستشهاد ، فان المسيحيين ، فى خصوماتهم الداخلية ، أصلوا بعضهم بعضا من ألوان العنف والقسوة ، ما هو أفظع مما عانوا من غيرة الكفار والزنادقة . ففى عصور الجهل التى أعقبت سقوط الامبراطورية فى الغرب ، بسط أساقفة العاصمة الامبراطورية سلطانهم على العلمانيين والكهنوتيين فى الكنيسة اللاتينية . وانتهى الأمر بأن شنت جماعة من المتعصبين الجسورين الذين انتحلوا من القرن الثانى عشر الى القرن السادس عشر الشخصية المحبوبة ، شخصية المصلحين — شنوا هجومهم على مسرح الخرافة الذى كان أولئك الأساقفة قد أقاموه ، والذى كان من الجائز أن يتحدى الى أمد طويل جهود العقل المتواضعة . ودافعت كنيسة روما بعنف عن الامبراطورية التى كانت قد كسبتها بالفتن والخداع . وسرعان ما وصم الحرمان من حماية القانون والحروب والمذابح ، ونظام الوظائف الدينية ، نظاما يدعو الى السلام والبر فلطخته ، ولما كان المصلحون مدفوعين بحب الحرية المدنية والحرية الدينية معا ، فقد ربط الأمراء الكاثوليك مصلحتهم بمصلحة رجال الدين ، وفرضوا بالنار والسيف ارهاب الأحكام الروحية ، ويقال ان مائة الف من رعايا شارل الخامس فى الأراضى المنخفضة

(هولنده) وحدها لقوا حتفهم على يد الجلاد ، وأكد هذا الرقم الغريب جـروشيوس (Grotius ١٥٨٢ ـ ١٦٤٥ من رجـال السـياسة والقضاء فى هولنده) . ــ وهو رجـل عبقرى عالم احتفظ باعتداله وسط سورة الغضب بين الفـرق المتنازعة · وألف حوليـات عصـره وبلده ، فى وقت يسر فيه اختراع الطباعة ووسائل الأعلام ، وزاد من خطر الكشـف عـن الحقـائق ، فـاذا كان علينـا أن نؤمن بصـدق جروتسيوس ، لوجب القول بأن عدد البروتستانت الذين أعـدموا فى ولاية واحدة فى ظل حكم واحد يجاوز كثيرا عدد الشهداء الأولين على مدى ثلاثة قرون وفى نطاق الامبراطورية الرومانية بأسرها . ولكن اذا توقفت استحالة الواقعة ذاتها على قيمة الدليل ، واذا ثبتت عـلى جروشيوس المبالغة فى جدارة السابقين وآلامهم ، كـان طبيعـيا ان نتساءل : أية ثقة يمكن أن توضع فى الآثار المريبة المعيبة التى خلقتهـا السذاجة القديمة ، وأية درجة من التصـديق يجب أن نوليها سـقفا مهذبا وخطيبا مؤثرا عاطفيا ، نعم تحت حماية دقلديانوس ، بالحـق المطلق فى تدوين الاضطهادات التى عاناها المسيحيون على يد المنافسين المقهورين أو الأسلاف المحتقرين لمليكهم الرحيم .

الاتجاه نحو الشرق

الفصل السابع عشر
(٣٢٤ ـ ٣٣٤م)

روما الجديدة : تأسيس القسطنطينية وتدشينها

تقسيمات المناصب فى النظام الجديد للحكومة . بداية الدولة البوليسية

كان لوسينيوس المنكود الحظ آخر منافس تصدى لعظمة قسطنطين ، وآخر أسير توج انتصاراته . وورث الفاتح أسرته بعد حكم اتسم بالهدوء والازدهار ، تركة الامبراطورية الرومانية : عاصمة جديدة ، وسياسة جديدة ، وديانة جديدة ، ورحبت الأجيال المتعاقبة بالمبتكرات التى ابتدعها وقدستها . وان عهد قسطنطين الأكبر وأبنائه ليزخر بالأحداث الهامة ولكنها ترهق المؤرخ بكثرة عددها وتنوعها ، ما لم يفصل الأحداث التى لا يربط بينها الا الترتيب الزمنى ، بعضها عن بعض . فيصف النظم السياسية التى أمدت الامبراطورية بالقوة والاستقرار ، قبل أن يعرض لذكر الحروب والثورات التى عجلت باضمحلالها ، ويختار ذلك التقسيم الذى لم يكن يعرفه الأقدمون بين الشئون المدنية والشئون الدينية ، للتهذيب والتثقيف ثم للفضيحة معا .

وبعد هزيمة ليسنيوس واعتزاله ، خف منافسه الظافر ليضع أساس مدينة قيض لها فى مستقبل الأيام أن تحكم بوصفها « سيدة الشرق » وأن تبقى بعد امبراطورية قسطنطين وديانته . وزاد اقتداء خلفاء دقلديانوس به وبسجاياه طوال أربعين عاما من قيمة دوافع الزهو أو السياسة ، التى حدت به فى البداية الى الانسحاب من المقر القديم للحكومة . واختلطت روما ، بطريقة غير ملحوظة ، بالممالك التابعة التى اعترفت يوما بسيادتها . وغدت بلد القياصرة ينظر اليها بعين

ملؤها الاستهتار والفتور ، عين أمير عسكري ولد في جوار الدانوب ، وتعلم في بلاط آسيا وجيوشها ، وخلعت عليه فرق بريطانيا حلة الامبراطورية . وامتثل الايطاليون الذين رحبوا بقسطنطين بوصفه مخلصهم ومنقذهم ـ امتثلوا في خشوع للمراسيم التي تفضل أحيانا بتوجيهها الى السناتو والشعب في روما ، ولكنهم قلما حظوا بشرف حضور مليكهم الجديد . ودأب قسطنطين طوال زهرة العمر ، وتبعا لمختلف دواعي الحرب والسلم ، على التحرك في عظمة متئدة ويقظة جادة على حدود مملكته الشاسعة ، وكان دوما على أهبة الاستعداد لملاقاة أي عدو خارجي أو داخلي ، ولكنه لما بلغ مع الأيام ذروة الازدهار ، وتقدمت به السنون على طريق الفناء ، بدأ يتدبر مشروعا تستقر به قوة العرش وجلاله في مكان أشد ثباتا . وفي اختياره للموقع الملائم ، آثر قسطنطين تخوم أوربا وآسيا ليضرب بيد من حديد على أيدي المتبربرين الذي كانوا يقطنون بين الدانوب والتانيس Tanais ، وليرقب بعين ساهرة سلوك ملك الفرس الذي احتمل ساخطا نير معاهدة مخزية ، وبهدي من هذه الاعتبارات تخير دقلديانوس من قبل مقر اقامته في نيقوميديا وزينه ، ولكن حامي الكنيسة كان يكره بحق ذكرى دقلديانوس ، وكان قسطنطين واقعا تحت تأثير الطمع في تأسيس مدينة تخلد مجد اسمه . وتهيأت له الفرصة ، في عمليات الحرب الأخيرة ضد ليسينيوس ، أن يدقق النظر ، بوصفه جنديا ورجل دولة ، في موقع بيزنطة المنقطع النظير . وأن يرى كيف تحرسها الطبيعة حراسة قوية ضد أي عدوان ، على حين يسهل الوصول اليها من كل جانب للأغراض التجارية ، وقبل عصر قسطنطين بعدة أجيال ، وصف مؤرخ من أقوى المؤرخين القدامى بصيرة مزايا موقع استطاعت منه مستعمرة يونانية هزيلة أن تسيطر على البحر ، وأن تفوز بأمجاد جمهورية مزدهرة مستقلة .

واذا استعرضنا بيزنطة في المدى الذي بلغته تحت الاسم العظيم « القسطنطينية » لأمكن أن نمثل المدينة الامبراطورية على شكل مثلث غير متساوي الأضلاع ، يلتقي طرفه المنفرج الذي يمتد شرقا الى شواطيء آسيا ، بأمواج بسفور تراقيا ويصدها . وتحد الميناء الجزء الشمالي من المدينة ، أما الجنوبي فتحفه مياه بحر مرمرة . أما قاعدة المثلث فانها تواجه الغرب ، وعندها تنتهي قارة أوربا ، ولكن لا يمكن استيعاب الشكل الباهر للأرض والماء اللذين يحيط الواحد منهما بالآخر ويجاوره ، والتقسيم المدهش بينهما ، استيعابا واضحا كافيا ، الا بمزيد من الشرح والتفسير .

وأطلق على المجرى المتعرج الذى تجرى فيه مياه البحر الأسود جريانا سريعا لا ينقطع الى البحر الأبيض المتوسط اسم البسفور ، وهو اسم لا يقل شهرة فى التاريخ القديم عنه فى القصص الخرافى العتيق ، وهناك مجموعة من المعابد ومذابح النذور المبعثرة فى غير نظام على ضفافه الشديدة الانحدار المغطاة بالأشجار ، تشهد على عدم براعة الملاحين اليونان ورعبهم وتعبدهم ، حين كانوا يرتادون مخاطر البحر الأسود الماحل ، على غرار ما فعله ملاحو الأساطير اليونانية القديمة « Argonauts » . واحتفظت التقاليد القديمة على هذه الشواطىء بذكرى قصر فينيوس Phineus الذى سكنته وازعجته الحيوانات الغريبة التى كان لكل منها جسم طائر ورأس امرأة ، وذكرى حكم الغاب ، أى حكم أميكوس (Amycus فى الأساطير اليونانية أحد ملوك بيثينيا وكان جبارا متوحشا يلزم كل من يحل فى بلده بملاكمته) الذى تحدى ابن ليدا Leda ليلاكمه بالقفازات . وتنتهى مضايق البسفور بالصخور الزرقاء التى طفت يوما — وفقا لوصف الشعراء — على سطح الماء ، وخصصها الآلهة لحماية مدخل البحر الأسود من عين الفضول الدنس . ويمتد طول البسفور المتعرج من الصخور الزرقاء الى طرف بيزنطة وميناءها نحو ستة عشر ميلا . أما أقصى عرضه العادى فيبلغ نحو ميل ونصف الميل . هذا والقلاع الجديدة فى أوربا وآسيا مقامة فى كلتا القارتين على أنقاض معبدين مشهورين : معبد سيرابيس Serapis ومعبد جوبيتر أوريوس ، وتشرف القلاع القديمة التى بناها أباطرة اليونان ، على أضيق جزء فى المجرى ، فى مكان تبعد فيه الضفتان المتقابلتان كل منهما عن الأخرى نحو خمسمائة خطوة . وقد جدد محمد الثانى بناء هذه القلاع وقواها ، عندما فكر فى حصار القسطنطينية ، ولكن الفاتح التركى كان على الأرجح يجهل أنه قبل عصره بنحو ألفى سنة اختار دارا نفس المكان ليربط بين القارتين بجسر من القوارب . ويمكن أن نرى على مسافة قصيرة من القلاع القديمة ، بلدة اشقودرة الصغيرة التى تكاد تعتبر الضاحية الأسيوية للقسطنطينية ، ويمر البسفور بين بيزنطه وخلقدونية ، حين تبدأ مياهه فى الانسياب الى بحر مرمرة ، وقد بنى الاغريق هذه المدينة الأخيرة قبل الأولى ببضع سنين ، وهناك تعبير جرى مجرى المثل ، تصويرا للسخرية من الغباء الذى وصم به مؤسسو خلقدونية ، الذين غفلوا عن المزايا الرائعة للساحل المقابل .

وفى وقت سحيق جدا اكتسبت ميناء القسطنطينية التى يمكن اعتبارها ذراعا للبسفور ، اسم القرن الذهبى . فان الانحناء الذى

ترسمه ، يمكن مقارنته بقرن غزال ، أو كما يبدو مع احتشام أكبر ، قرن ثور . ويعبر لفظ « ذهبى » عن الثروة التى تتدفق مع كل هبة ريح من أقصى الأرض الى ثغر القسطنطينية الآمن الواسع . ويمد نهر ليسوس — الذى تكون من التقاء مجريين صغيرين — يمد الميناء بمعين لا ينضب من الماء العذب الذى يفيد فى تنظيف القاع وفى جذب أسراب السمك الموسمية لتلتمس لها ملجأ فى هذا التجويف المناسب . ولما كانت تقلبات المد والجزر يندر أن يكون لها أثر فى هذه البحار ، فان العمق الثابت للمياه فى الميناء يسهل عملية تفريغ البضائع على الأرصفة مباشرة دون استخدام القوارب . وقد لوحظ فى أماكن كثيرة أن السفن الكبيرة تلقى مراسيها ويظهر مقدمها أمام المنازل ، على حين يطفو مؤخرها فى الماء . ويبلغ طول لسان البسفور من مصب نهر ليسوس الى الميناء أكثر من سبعة أميال ، ويبلغ عرض المدخل نحو خمسمائة ياردة . ويمكن عند الاقتضاء وضع سلسلة متينة تحمى الثغر والمدينة من هجوم أى أسطول معاد .

وتحيط ببحر مرمرة شواطىء أوربا وآسيا ، على الجانبين ، بين البسفور والدردنيل ، وكان هذا البحر معروفا قديما باسم بروبونتيس Propontis . وتبلغ المسافة من مخرج البسفور الى مدخل الدردنيل نحو مائة وعشرين ميلا . وان الذين يبحرون فى اتجاه الغرب وسط بحر مرمرة ، سيلمحون على الفور أراضى تراقيا وبيثينيا ، ولن تغيب عن أبصارهم قمة جبل أوليمس الشاهقة ، المكسوة بالجليد الدائم ، ويخلفون الى اليسار خليجا عميقا كانت تقع فى قاعه نيقوميديا مقر الامبراطور دقلديانوس ، ويمرون بالجزيرتين الصغيرتين سيزيكس Cyzicus وبروكنيسوس Proconnesus قبل أن يلقوا مراسيهم عند جاليبولى ، حيث يتقلص البحر الذى يفصل بين آسيا وأوربا الى قنال صغير . ويقدر الجغرافيون الذين مسحوا شكل الدردنيل واتساعه بأقصى دقة ومهارة ، يقدرون المجرى المتعرج لهذه المضايق المشهورة بنحو ستين ميلا ، والاتساع العادى بنحو ثلاثة أميال . ولكن يوجد أضيق جزء فى المجرى الى الشمال من القلاع التركية القديمة بين مدينتى سستوس وأبيدوس . وهذا هو المكان الذى خاطر فيه لياندر المغامر بعبور الفيضان ليحظى بسيدته ، وهنا أيضا حيث لا تتجاوز المسافة بين الشاطئين المتقابلين خمسمائة خطوة ، وضع اجزرسيس جسرا متينا من القوارب لينقل الى أوربا مائة وسبعين من الآلاف المؤلفة من المتبربرين . وان بحرا تقلص الى هذه الحدود الضيقة ليبدو غير جدير بالنعت الغريب بأنه « عريض » الذى كثيرا ما أسبغه هوميروس

وأورفيوس على الدردنيل ، ولكن أفكارنا عن العظمة نسبية ، فان أى سائح ، وبخاصة اذا كان شاعرا ، ركب الدردنيل ، وتتبع تعاريج مجراه ودقق النظر فى مناظره الريفية التى تمتد على مدى البصر لابد أن ينسى البحر دون أن يحس ، ويسبغ على هذه المضايق الشهيرة كل صفات نهر عظيم سريع الجريان وسط بلد محصور مغطى بالغابات ، حتى يصل آخر الأمر الى مصب واسع يتدفق الى بحر ايجه أو بحر الأرخبيل . وأشرفت طروادة القديمة الواقعة على ربوة عند سفح جبل ايدا Ida — أشرفت على مصب الدردنيل الذى قلما تلقى أية زيادة فى مائه من فيض النهرين الخالدين سيمواس Simois وسكامندر Scamander . وامتد المعسكر الاغريقى نحو اثنى عشر ميلا على الشاطىء بين أكمتين هما سيجيان وروثان . وكان أشجع الرؤساء الذين حاربوا تحت راية أجا ممنون يحمون أجنحة الجيش ، وكان أشيلس وجنوده الأشداء المخلصون يحتلون أحدى هاتين الأكمتين ، على حين نصب أجاكس الجرىء غير الهياب الخيام على الأكمة الأخرى. وبعد أن وقع أجاكس فريسة لغروره اليائس ولجحود الاغريق ، أقيم له ضريح فى البقعة التى كان يحمى منها الأسطول ضد عدوان جوف Jove وهكتور Hector وخلد ذكراه أهالى المدينة الناشئة روتيوم . وقبل أن يقطع قسطنطين برأى فى اتخاذ مقر الحكم فى موقع بيزنطة ، درس مشروع اقامته فى هذه البقعة المشهورة التى اشتق الرومان منها نشأتهم الخرافية . واختير للعاصمة الجديدة أول الأمر ذلك السهل الفسيح الممتد تحت مدينة طروادة القديمة أمام جبل روتيان . ورغم أن هذا المشروع تم بسرعة ، فانه ما تزال هناك بقايا أسوار وأبراج لم يكمل بناؤها تسترعى انتباه من يبحرون عبر مضايق الدردنيل .

وخليق بنا الآن ان نلقى نظرة على موقع القسطنطينية الممتاز الذى أبدعته يد الطبيعة ليكون مركزا وعاصمة لملكة عظيمة . ان العاصمة الامبراطورية الواقعة على خط عرض ٤٣ ، تسيطر على تلالها السبعة على شاطىء أوربا وآسيا المتقابلين ، وهى تتمتع بمناخ صحى معتدل ، وتربة خصبة ، وميناء منيعة واسعة . وكان المدخل الى القارة قصير المدى والدفاع ميسورا . ويعتبر البسفور والدردنيل بوابتين للقسطنطينية ويستطيع أى أمير يسيطر عليهما أن يغلقهما فى وجه أى أسطول معاد ، ويفتحهما فى وجه السفن التجارية . وقد ينسب — الى حد ما — الاحتفاظ بالولايات الشرقية الى سياسة قسطنطين حيث ان قبائل المتبربرين فى البحر الأسود التى كانت تشن غاراتها على البحر المتوسط فيما مضى تقاعست بسرعة عن اعمال

ترسمه ، يمكن مقارنته بقرن غزال ، أو كما يبدو مع احتشام أكبر ، قرن ثور . ويعبر لفظ « ذهبى » عن الثروة التى تتدفق مع كل هبة ريح من أقصى الأرض الى ثغر القسطنطينية الآمن الواسع . ويمد نهر ليسوس — الذى تكون من التقاء مجريين صغيرين — يمد الميناء بمعين لا ينضب من الماء العذب الذى يفيد فى تنظيف القاع وفى جذب أسراب السمك الموسمية لتلتمس لها ملجأ فى هذا التجويف المناسب . ولما كانت تقلبات المد والجزر يندر أن يكون لها أثر فى هذه البحار ، فان العمق الثابت للمياه فى الميناء يسهل عملية تفريغ البضائع على الأرصفة مباشرة دون استخدام القوارب . وقد لوحظ فى أماكن كثيرة أن السفن الكبيرة تلقى مراسيها ويظهر مقدمها أمام المنازل ، على حين يطفو مؤخرها فى الماء . ويبلغ طول لسان البسفور من مصب نهر ليسوس الى الميناء أكثر من سبعة أميال ، ويبلغ عرض المدخل نحو خمسمائة ياردة . ويمكن عند الاقتضاء وضع سلسلة متينة تحمى الثغر والمدينة من هجوم أى أسطول معاد .

وتحيط ببحر مرمرة شواطىء أوربا وآسيا ، على الجانبين ، بين البسفور والدردنيل ، وكان هذا البحر معروفا قديما باسم بروبونتيس Propontis . وتبلغ المسافة من مخرج البسفور الى مدخل الدردنيل نحو مائة وعشرين ميلا . وان الذين يبحرون فى اتجاه الغرب وسط بحر مرمرة ، سيلمحون على الفور أراضى تراقيا وبيثينيا ، ولن تغيب عن أبصارهم قمة جبل أولمبس الشاهقة ، المكسوة بالجليد الدائم ، ويخلفون الى اليسار خليجا عميقا كانت تقع فى قاعه نيقوميديا مقر الامبراطور دقلديانوس ، ويمرون بالجزيرتين الصغيرتين سيزيكس Cyzicus وبروكنيسوس Proconnesus قبل أن يلقوا مراسيهم عند جاليبولى ، حيث يتقلص البحر الذى يفصل بين آسيا وأوربا الى قنال صغير . ويقدر الجغرافيون الذين مسحوا شكل الدردنيل واتساعه بأقصى دقة ومهارة ، يقدرون المجرى المتعرج لهذه المضايق المشهورة بنحو ستين ميلا ، والاتساع العادى بنحو ثلاثة أميال . ولكن يوجد أضيق جزء فى المجرى الى الشمال من القلاع التركية القديمة بين مدينتى سستوس وأبيدوس . وهذا هو المكان الذى خاطر فيه لياندر المغامر بعبور الفيضان ليحظى بسيدته ، وهنا أيضا حيث لا تتجاوز المسافة بين الشاطئين المتقابلين خمسمائة خطوة ، وضع اجزرسيس جسرا متينا من القوارب لينقل الى أوربا مائة وسبعين من الآلاف المؤلفة من البرابرة . وان بحرا تقلص الى هذه الحدود الضيقة ليبدو غير جدير بالنعت الغريب بأنه « عريض » الذى كثيرا ما أسبغه هوميروس

وأورفيوس على الدردنيل ، ولكن أفكارنا عن العظمة نسبية ، فان أى سائح ، وبخاصة اذا كان شاعرا ، ركب الدردنيل ، وتتبع تعاريج مجراه ودقق النظر فى مناظره الريفية التى تمتد على مدى البصر لابد أن ينسى البحر دون أن يحس ، ويسبغ على هذه المضايق الشهيرة كل صفات نهر عظيم سريع الجريان وسط بلد محصور مغطى بالغابات ، حتى يصل آخر الأمر الى مصب واسع يتدفق الى بحر ايجه أو بحر الأرخبيل . وأشرفت طروادة القديمة الواقعة على ربوة عند سفح جبل ايدا Ida — أشرفت على مصب الدردنيل الذى قلما تلقى أية زيادة فى مائه من فيض النهرين الخالدين سيمواس Simois وسكامندر Scamander . وامتد المعسكر الاغريقى نحو اثنى عشر ميلا على الشاطىء بين أكمتين هما سيجيان وروثان . وكان أشجع الرؤساء الذين حاربوا تحت راية أجا ممنون يحمون أجنحة الجيش ، وكان أشيلس وجنوده الأشداء المخلصون يحتلون أحدى هاتين الأكمتين ، على حين نصب أجاكس الجرىء غير الهياب الخيام على الأكمة الأخرى. وبعد أن وقع أجاكس فريسة لغروره اليائس ولجحود الاغريق ، أقيم له ضريح فى البقعة التى كان يحمى منها الأسطول ضد عدوان جوف Jove وهكتور Hector وخلد ذكراه أهالى المدينة الناشئة روتيوم . وقبل أن يقطع قسطنطين برأى فى اتخاذ مقر الحكم فى موقع بيزنطة ، درس مشروع اقامته فى هذه البقعة المشهورة التى اشتق الرومان منها نشأتهم الخرافية . واختير للعاصمة الجديدة أول الأمر ذلك السهل الفسيح الممتد تحت مدينة طروادة القديمة أمام جبل روتيان . ورغم أن هذا المشروع تم بسرعة ، فانه ما تزال هناك بقايا أسوار وأبراج لم يكمل بناؤها تسترعى انتباه من يبحرون عبر مضايق الدردنيل .

وخليق بنا الآن أن نلقى نظرة على موقع القسطنطينية الممتاز الذى أبدعته يد الطبيعة ليكون مركزا وعاصمة لمملكة عظيمة . ان العاصمة الامبراطورية الواقعة على خط عرض ٤٣ ، تسيطر على تلالها السبعة على شاطىء أوربا وآسيا المتقابلين ، وهى تتمتع بمناخ صحى معتدل ، وتربة خصبة ، وميناء منيعة واسعة . وكان المدخل الى القارة قصير المدى والدفاع ميسورا . ويعتبر البسفور والدردنيل بوابتين للقسطنطينية ويستطيع أى أمير يسيطر عليهما أن يغلقهما فى وجه أى أسطول معاد ، ويفتحهما فى وجه السفن التجارية . وقد ينسب — الى حد ما — الاحتفاظ بالولايات الشرقية الى سياسة قسطنطين حيث ان قبائل المتبربرين فى البحر الأسود التى كانت تشن غاراتها على البحر المتوسط فيما مضى تقاعست بسرعة عن أعمال

القرصنة ، ويئست من اقتحام هذا الحاجز المنيع ، وحتى فى حالة اغلاق بوابتى البسفور والدردنيل ، كانت العاصمة تنعم فى المساحة الفسيحة بينهما ، بانتاج كل ما يسد حاجة السكان الكثير عددهم أو يوفر لهم حياة الترف والبذخ . وما تزال شواطىء تراقيا وبيثينيا اللتين ترزحان تحت النير التركى ، تزخران بالكروم والبساتين والمحاصيل الوفيرة ، واشتهر بحر مرمرة فى كل العصور بهذا المعين الذى لا ينضب من السمك الذى يؤخذ فى المواسم المعينة دون براعة أو جهد غالبا ، ولكن اذا فتحت المضايق أمام التجارة ، تدفقت الثروات الطبيعية والمصنوعات من الشمال ومن الجنوب على التوالى ، عبر البحر الأسود والبحر المتوسط ، فقد دفعت مختلف الرياح كل المواد الخام التى جمعت من غابات المانيا وسكيذيا ، من أقصى منابع نهرى تانيس والدنيبر ، وكل ما أبدعته أوربا وآسيا من مصنوعات ، وغلال مصر ، وجواهر الهند النائية وتوابلها — دفعت الرياح كل أولئك الى ثغر القسطنطينية الذى ظل على مدى أجيال طويلة يجتذب تجارة العالم القديم .

تأسيس القسطنطينية

واجتمع فى بقعة واحدة بعينها من الجمال والأمان والثراء ما كان كافيا ليبرر اختيار قسطنطين لها . ولكن ثمة مزيج وقور من المعجزة والخرافة ، كان يعكس ، فى كل عصر ، قدرا من العظمة اللائقة على منشأ المدن الكبرى ، ومن هنا أراد الامبراطور أن ينسب قراره الى أمر محقق أزلى من الحكمة الالهية ، أكثر من نسبته الى رأى غير أكيد تمليه سياسة الانسان . وعنى فى أحد قوانينه بأن يحيط الأجيال القادمة علما ، بأنه امتثالا لأوامر الله ، وضع الأساس الخالد لمدينة القسطنطينية . وعلى الرغم من انه لم يتفضل فيروى لنا كيف هبط عليه وحى السماء ، فان عبقرية الكتاب اللاحقين الذين جاءوا بعده ، عرضت بسخاء عن صمته المتواضع ، حين وصفوا الشبح الذى تراءى ليلا لخيال قسطنطين ، وهو نائم فى رحاب بيزنطة ، فقالوا أن ربة المدينة وحارستها — وهى سيدة وقور بلغت من الكبر عتيا وأثخنتها العلل والعاهات — تحولت فجأة الى شابة فى نضارة الأزهار بدت فى أبهى زينة حين ألبسها الامبراطور بيديه شعارات العظمة الامبراطورية . وأفاق المليك من نومه ، وفسر الفأل السعيد ، وامتثل لارادة السماء دون تردد . وجرت عادة الرومان على الاحتفال بيوم مولد مدينة من

المدن أو مستعمرة من المستعمرات فى اسراف بالغ سنته الخرافات السخية (وفقا لعقيدتهم الوثنية) . وربما جاز لقسطنطين أن يلغى شيئا من هذه الطقوس والشعائر التى نمت بشكل صارخ عن أصلها الوثنى ، ولكنه كان حريصا رغم ذلك على أن يترك أثرا عميقا من الأمل والاجلال فى نفوس المتفرجين . وتصدر الامبراطور نفسه الموكب سيرا على الأقدام وفى يده حربة ، ودل على الخط الذى تتبعه هو ومن معه ليكون حدا للعاصمة المقدرة ، حتى عرت معاونيه الدهشة من أن محيط المدينة يزداد اتساعا ، وتجاسروا على القول بأنه تجاوز المساحة المعقولة لمدينة عظيمة ، فأجاب قسطنطين : « سأواصل السير حتى يرى الدليل الخفى الذى يسير أمامى أنه من المناسب أن أتوقف » . ولسوف نقنع — دون الاجتراء على التحرى عن طبيعة هذا المرشد الخارق للطبيعة وعن بواعثه — بمهمتنا التى هى أكثر تواضعا ، ألا وهى وصف امتداد القسطنطينية وحدودها .

وفى الوضع الراهن للمدينة ، يقوم قصر السلطان على المرتفع الشرقى ، وهو أول التلال السبعة ، على مساحة تبلغ نحو مائة وخمسين فدانا انجليزيا (ايكر) . ان موطن الاستبداد والأنانية التركية هو الآن قائم على أنقاض جمهورية اغريقية . والمظنون أن البيزنطيين أغراهم الموقع الملائم للميناء ، فمدوا مساكنهم على هذا الجانب الى ما وراء الحدود الجديدة للسراى ، وامتدت أسوار قسطنطين من الميناء الى بحر مرمرة عبر الجزء الذى زيد فى مساحة المثلث ، على مسافة نحو ١٢٠٠ قدم من التحصينات القديمة . وأدخلوا فى نطاق مدينة بيزنطة خمسة من التلال السبعة التى يبدو للمقترب من القسطنطينية أنها ترتفع بعضها فوق بعض فى ترتيب جميل . وبعد قرن من وفاة مؤسس المدينة (قسطنطين) امتدت المبانى الجديدة فوق الميناء من جهة وعلى طول شاطىء بحر مرمرة من الجهة الأخرى ، وبذلك غطت الحافة الضيقة والقمة العريضة للتل السابع . واقتضت الحاجة حماية هذه الضواحى من غارات المتبربرين التى لا تنقطع ، وأن يعنى تيودوسيوس الأصغر نفسه باحاطة عاصمته بسياج متين دائم من الأسوار ، وبلغ أقصى طول للقسطنطينية ، من المرتفع الشرقى الى القرن الذهبى نحو ثلاثة أميال رومانية ومحيطها من عشرة الى أحد عشر ميلا ، أما المسطح فيقدر بنحو ألفى فدان انجليزى . وليس من الميسور تبرير المبالغات العقيمة الساذجة للسياح الحديثين الذين مدوا فى بعض الأحيان حدود القسطنطينية الى ما وراء القرى المجاورة على الشاطىء الأوربى بل على الشاطىء الآسيوى كذلك . وقد تستحق

ضاحيتا بيرا وغلطه — رغم وقوعهما وراء الميناء أن تعتبرا جزءا من المدينة ، ويجوز أن تؤكد هذه الاضافة صحة ما ذهب اليه مؤرخ بيزنطى من أن محيط مدينته يبلغ ستة عشر ميلا يونانيا (نحو ١٤ ميلا رومانيا) . وقد يبدو هذا الرحاب جديرا بالمقر الامبراطورى . ومع ذلك فانه يجدر بالقسطنطينية أن تسلم القياد (من حيث الاتساع) الى بابل ، وطيبة ، وروما القديمة ، ولندن ، بل والى باريس .

واستطاع سيد عالم الرومان الذى تطلع الى اقامة أثر خالد يشهد بأمجاد عصره ، استطاع أن يجند لتنفيذ مشروعه العظيم ، كل ما بقى من ثروة ملايين المطيعين من رعاياه وجهدهم ، وعبقريتهم . ويمكن أن نقدر سخاء الامبراطور فى الانفاق على تأسيس القسطنطينية اذا علمنا أنه أنفق مبلغ مليونين وخمسمائة ألف جنيه لبناء الأسوار والأروقة وقناطر المياه . وجادت الغابات التى ظللت شواطىء البحر الأسود والمحاجر المشهورة بالرخام الأبيض فى جزيرة بروكنيسس Proconnesus بمعين لا ينضب من المواد المعدة للنقل بطريق البحر لمسافة قصيرة هينة يسيرة الى ميناء بيزنطة . وجد جمع غفير من العمال والصناع المهرة فى انجاز العمل ، ولكن قسطنطين القلق الذى نفد صبره سرعان ما تبين أن مهارة مهندسية ووفرة عددهم ، ازاء انحطاط الفنون ، لن تتناسب قط مع عظمة تصميماته ، ولذلك صدرت التعليمات الى الحكام فى أقصى الولايات ، لانشاء المدارس وتعيين الأساتذة واغراء العدد الكافى من الشبان النابغين الذين تلقوا تعليما متحررا ، بالأمل فى نيل الجوائز والامتيازات — اغرائهم بدراسة فن العمارة ، وأقيمت مبانى المدينة الجديدة بجهود أولئك الصناع الذين أمكن توفيرهم فى عهد قسطنطين ، ولكن الزخارف التى ازدانت بها كانت من ابداع أشهر الأساتذة فى عهد بركليز والاسكندر ، والحق أن احياء عبقرية فيدياس Phidias وليبسيبوس Lysippus جاوزت قدرة العاهل الرومانى . ولكن النتاج الخالد الذى ورثوه للأجيال من بعدهم تعرض ، دون أن يجد من يحميه ، لغرور حاكم مستبد عصف به — فقد جردت بناء على أوامره ، مدن اليونان وآسيا من أثمن نفائسها . ذلك أن الأنصاب التذكارية للحروب المشهورة ، والمعبودات الدينية ، وأروع تماثيل الآلهة والأبطال والحكماء والشعراء ، فى العصور القديمة ، — كل هذه أسهمت فى النصر المؤزر الذى أحرزته القسطنطينية ، وهيأت فرصة للمؤرخ سدرينوس Cedrinus ليتحمس الى حد القول بأنه لم ينقص هذه الأشياء الا أرواح عظماء الرجال الذين قدر لهذه الآثار البديعة أن تمثلهم ، ولكنا يجب الا نفتش عن روح هوميروس وروح ديمستين فى

مدينة قسطنطين ، ولا فى عصر اضمحلال الامبراطورية ، حيث أرهق العقل البشرى بالاسترقاق الدينى والمدنى .

ونصب الفاتح خيمته فى أثناء حصار بيزنطة ، ، فوق التل الثانى على شرف من الأرض يسيطر على المكان كله . وتخليدا لذكرى هذا الموقع الممتاز ، اختاره ليكون الساحة الرئيسية Forum التى يبدو أنها كانت على شكل دائرى ، أو على الأرجح بيضوى . وكون المدخلان المتقابلان أقواس النصر . وامتلأت الأروقة المحيطة بها من كل جانب بالتماثيل ، وأقيم وسط الساحة عمود ، توصم قطعة مشوهة منه الآن باسم « التمثال المحروق » أقيم على قاعدة من الرخام الأبيض على ارتفاع عشرين قدما ، وكان مكونا من عشر قطع من حجر طول كل منها نحو عشرة أقدام ومحيطها نحو ثلاثة وثلاثين قدما . ووضع على قمة العمود ، على ارتفاع مائة وعشرين قدما من الأرض ، تمثال أبولو الضخم وكان مصنوعا من البرونز ، وربما نقلوه من أثينا أو من احدى المدن فى فريجيا ، والمظنون انه من صنع فيدياس . ومثل الفنان اله النهار — أو كما فسر فيما بعد على أنه الامبراطور قسطنطين نفسه — بالصولجان فى يمناه ، والكرة الأرضية فى يسراه ، وتاج من الأشعة يتألق فوق رأسه . أما السيرك ، أو ميدان السباق ، فكان بناء فخما يبلغ طوله نحو أربعمائة خطوة وعرضه نحو مائة خطوة . وكانت المسافة فيه بين الحدين مليئة بالتماثيل والمسلات . وما تزال ترى حتى اليوم قطعة فريدة من الآثار ، تلك هى أجسام حيات ثلاث ملتفة حول عمود نحاسى . وكانت رءوسها الثلاثة تشكل حاملا ذهبيا ذا ثلاثة قوائم ، احتفظ به الاغريق المنتصرون وقدسوه فى معبد دلفى بعد هزيمة اجزرسيس ، ولكم شوهت أيدى الفاتحين الأتراك الخشنة جمال ميدان السباق ، ولكنهم يسمونه حتى الآن « الميدان » ويستخدمونه لتدريب الخيل . ومن مكان العرش حيث كان الامبراطور يجلس لمشاهدة ألعاب السيرك ، هبط سلم متعرج يؤدى الى القصر ، وهو بناء فخم ، لا يكاد يدانيه قصر الامبراطور فى روما نفسها ، ويشغل مع الأفنية والحدائق والأروقة الملحقة به رقعة كبيرة من الأرض على ضفاف بحر مرمرة ، بين حلبة السباق وكنيسة ايا صوفيا . وإن ننس لا ننس الحمامات التى ظلت تحمل اسم زيوكسيبس Zeuxippus بعد أن جملتها أريحية قسطنطين وسخاؤه بالأعمدة السامقة ، وبمختلف أنواع الرخام وبأكثر من ستين تمثالا من البرونز . ولسوف نحيد عن منهج التاريخ اذا حاولنا أن نفصل القول فى وصف الأبنية أو الأحياء المختلفة فى هذه المدينة ، ومن ثم نجتزىء بالاشارة الى أن

القسطنطينية ضمت بين جدرانها كل ما يمكن أن يعلى من مكانة العاصمة ويزيد فى عظمتها ، أو يحقق لسكانها الكثيرين نفعا أو يوفر لهم أسباب المتعة والسرور . وبعد قرن من تأسيسها ظهر فى وصفها بصفة خاصة كتاب ذكر أنه كان فيها كابيتول أو مدرسة وسيرك ، ومسرحان ، وثمانية حمامات عامة ، ومائة وثلاثة وخمسون حماما خاصا ، واثنان وخمسون رواقا ، وخمسة مخازن للغلال ، وثمانية خزانات للمياه ، وأربع قاعات فسيحة لاجتماعات السناتو ، أو محاكم القضاء ، وأربع عشرة كنيسة ، وأربعة عشر قصرا ، وأربعة آلاف وثلثمائة وثمانية وثمانون بيتا ، تستحق أن تنفرد بمساحتها وجمالها عن مجموعة مساكن العامة .

وكانت المسألة الثانية بل أم المسائل التى تشغل بال الامبراطور فى مدينته الحبيبة الأثيرة لديه ، هى اكتظاظها بالسكان . ففى العصور المظلمة التى أعقبت نقل الامبراطورية شوه غرور الاغريق وسذاجة اللاتين النتائج البعيدة والمباشرة لهذا الحادث المشهود الخالد تشويها غريبا ، فذكروا وصدقوا أن كل الأسرات النبيلة فى روما ، والسناتو ، وكبار رجال الجيش ، مع أتباعهم الذين لا يحصى عددهم ، قد لحقوا بامبراطورهم الى شواطىء بحر مرمرة ، وترك جنس زائف من الغرباء والعامة لينفرد بوحشة العاصمة القديمة التى هجرها أصحابها ، وأن أرض ايطاليا التى تحولت منذ أمد بعيد الى جنات عالية ، أقفرت من أهلها وزرعها . ولسوف نعمد فى هذا الكتاب الى رد هذه المبالغات الى قيمتها الحقيقية ، على أنه لما كان من المتعذر أن ينسب نمو القسطنطينية الى التزايد العادى فى السكان أو فى الصناعة ، فانه لابد فى هذه الحالة من التسليم بأن هذه المدينة التى أقيمت ، انما قامت على حساب المدن القديمة فى الامبراطورية . ومن المحتمل أن قسطنطين قد دعا كثيرا من أعضاء السناتو الموسرين من روما والولايات الشرقية الى الاقامة فى البقعة الطيبة التى اختارها لتكون مقرا له . وقلما يمكن التفريق بين دعوة الحاكم وبين أوامره ، ومن ثم قوبل على الفور كرم الامبراطور بالطاعة المقرونة بالابتهاج ، وأنعم هو على خلصائه المقربين بالقصور التى كان قد شيدها فى مختلف أحياء المدينة . وخصص لهم الأراضى وأجرى عليهم الرواتب التى تحفظ لهم مكانتهم ، وتنازل عن أملاكه فى بنطس وآسيا ، ليقطعهم ضياعا وراثية بشرط سهل للملكية ، وهو الاقامة فى العاصمة . ولكن هذه المغريات والالتزامات قد تجاوزت الحد المعقول ، وقد ألغيت شيئا فشيئا ، وحيثما يكن مقر الحكومة ، ينفق الأمير نفسه ، ووزراؤه ، وقضاته وموظفو قصره جزءا كبيرا من الدخل

العام ، وتجذب أقوى بواعث المصلحة والواجب ، واللهو والفضول ، أنظار أغنى سكان الولايات . وهناك — الى جانب هؤلاء وهؤلاء ، طبقة ثالثة هى أكثر عددا ، تتكون بطريقة غير محسوسة ، قوامها الخدم والصناع والتجار الذين يكسبون عيشهم بعرق جبينهم ، عن طريق احتياجات الطبقات العالية أو ترفها . ومن هنا نجد القسطنطينية استطاعت فى أقل من قرن من الزمان ، أن تنافس روما فى التفوق فى الثراء وعدد السكان . واكتظت بالمباني الجديدة المتلاصقة دون رعاية للصحة أو لوسائل الراحة ، مما لم يسمح الا بالقليل من الشوارع الضيقة لمرور الأفواج المتلاحقة من الناس والدواب والعربات . ولم تكن المساحة المحددة من الأرض كافية لاستيعاب الشعب المتزايد ، بل ان الأبنية الاضافية التى امتدت على الجانبين الى البحر كان يمكن وجدها أن تشكل مدينة كبيرة قائمة بذاتها .

ان توزيع الخمر والزيت والغلال أو الخبز ، والنقود أو المؤن ، توزيعا مستمرا منتظما ، كاد أن يخلص المواطنين المعوزين فى روما من عبء الحاجة الى الكدح ، وظل مؤسس القسطنطينية يحاكى بذخ القياصرة الى حد ما ، ولكن كرمه مهما حظى بالمديح والاطراء من شعبه، جلب عليه لوم الأجيال التى جاءت بعده . فان أمة من المشرعين والغزاة قد تؤكد دعواها فى الحصول على محصولات أفريقية التى اشتروها بالدماء . وكان أوغسطس يقول فى دهاء ان الرومان ، وهم يتمرغون فى الرخاء والوفرة ، يجدر بهم أن يتخلوا عن ذكرى الحرية . ولكن تبذير قسطنطين لم يكن ليغتفر لأية اعتبارات من المصلحة العامة أو الخاصة ، فان جزية الغلال التى فرضت على مصر من أجل عاصمته الجديدة استنفدت فى اطعام أناس كسالى مفلسين على حساب المزارعين فى ولاية جادة عاملة . ولهذا الامبراطور ، الى جانب ذلك ، تنظيمات اقل عرضة للوم ، ولكنها كذلك أقل جدارة بالاهتمام . وقسم القسطنطينية الى أربعة عشر قسما أو حيا ، وكرم المجلس العام بأن أطلق عليه اسم السناتو ، وأضفى على المواطنين امتيازات ايطاليا ، وأسبغ على المدينة الناشئة لقب « مستعمرة » ، أولى بنات روما القديمة وأكثرهن حظوة . وظلت الأم الوقور تحتفظ بالتفوق المشروع المعترف به ، اللائق بما حملت فوق ظهرها من السنين ، وبمكانتها وبذكرى عظمتها السابقة .

تدشين القسطنطينية

وكان قسطنطين يستحث انجاز العمل بصبر نافد وكأنه عاشق ولهان ، فأقيمت الأسوار والأروقة والأبنية الرئيسية فى بضع سنين قلائل ، وفى رواية أخرى فى بضعة شهور قلائل ، ولكن هذا النشاط الخارق لابد أن يستثير أقل قدر من الاعجاب ، لأن كثيرا من المبانى تم بطريقة معيبة متعجلة ، الى درجة أن خلف قسطنطين وجد صعوبة فى حمايتها من التصدع المحدق بها . ولكن بينما كانت تظهر حيوية الشباب ونضارته ، كان المؤسس يستعد للاحتفال بتدشين مدينته . ومن السهولة بمكان أن نتخيل الألعاب والمنح والهبات التى توجت أبهة هذا الاحتفال المشهود ، ولكن ثمة ناحية ذات طبيعة أكثر تفردا وخلودا ، لا ينبغى اغفالها قط ، تلك أنه كلما حان موعد الاحتفال بذكرى مولد المدينة ، أقيم على عربة من عربات النصر تمثال قسطنطين الذى صنع بأمر منه ، من الخشب المموه بالذهب ، حاملا بيده اليمنى رمزا لعبقرية المكان ، ومواكب الحراس حاملين شموعا بيضاء مرتدين أثمن الثياب ، الموكب المهيب وهو يسير عبر حلبة السباق ، حتى اذا صار فى مواجهة العرش الذى يجلس عليه الامبراطور الحاكم ، نهض هذا من مقعده ، ومجد فى اجلال وامتنان ذكرى سلفه . ونقش فى يوم الاحتفال بالتدشين على عمود من الرخام مرسوم امبراطورى يخلع اسم « روما الثانية أو الجديدة » على مدينة القسطنطينية ، ولكن اسم القسطنطينية فاق هذه التسمية الكريمة . وما يزال ، بعد ثورة اربعة عشر قرنا ، يخلد شهرة منشئها .

نظام الحكومة الجديد

وطبيعى أن يرتبط تأسيس عاصمة جديدة بانشاء نظام جديد فى الادارة المدنية والعسكرية . ان النظرة الغامضة الى النظام السياسى المعقد الذى أدخله دقلديانوس وهذبه قسطنطين ، وأكمله خلفاؤه المباشرون ، مثل هذه النظرة لن يتسلى فيها الخيال بالوقوع على صورة فريدة لامبراطورية عظيمة فحسب ، ولكنها الى جانب هذا تتجه الى توضيح الأسباب الخفية والداخلية لاضمحلالها السريع . وكثيرا ما يقودنا تتبع أى نظام مشهور الى أقدم عصور التاريخ الرومانى وأحدثها . ولكن النطاق المعقول لهذا البحث ينحصر فى مدى نحو مائة وثلاثين عاما ، ابتداء من حكم قسطنطين الى نشر قوانين تيودوسيوس،

وهى التى نستقى منها ، كما نستقى من « سجلات الشرق والغــرب » (نوتيشيا Notitia) أغزر المعلومات وأصدقها عن حالة الامبراطورية وستعوق مثل هذه الأشياء مجرى الكلام لبعض الوقت ، ولكن لن يعيب علينا هذا الانقطاع الا القراء الذين لا يستشعرون أهمية القــوانين والسلوك ، على حين يتلهف فضولهم على دسائس البلاط العــابرة أو احتــدام معــركة عارضة .

واعتز الرومان اعتزازا كريما بالسلطة الفعلية ، وتركوا لغرور الشرق مجال التباهى والظهور بمظهر العظمة ، ولكنهم لما فقدوا حتى مجرد صور الفضائل التى نبعت من حريتهم القديمة ، تلوثت بطريقة غير ملوحظة ، ببساطة سلوكهم بالأبهة المصطنعة فى بــلاط آسيــا . فان امتيازات الكفاية الشخصية والتأثير الشخصى ، تلك التى تبرز فى أيــة جمهورية ، على حين أنها قد تكون ضعيفة غامضة فى أية ملكية ، قضى عليها ، استبداد الأباطرة الذين استبدلوا بها اذلالا عاتيا لكل ذى مكانة أو منصب ، من العبيد الذين أضفيت عليهم الألقاب . ووضعوا عــلى عتبات العرش ، الى أحقر أدوات السلطة المطلقة . واهتم هذا الحشد الكبير من سفلة الأتباع بتدعيم الحكومة الفعلية القائمة خشية نشوب ثورة تطوح بآمالهم ، وتحول بينهم وبين ما يرقبون من جزاء لقــاء خدماتهم . ففى مثل هذه الحكومة الالهية (وهكذا كانوا يسمونها) تحددت كل مرتبة بأكبر قدر من التأنق والدقة ، وأبرزت عظمتها بمختلف المراسم التافهة المهيبة ، التى كان التمسك بها عملية شاقة ، والتى كان اهمالها تدنيسا وانتهاكا . وانحطت نقاوة اللغة اللاتينية لأنهم اقتبسوا ، فى غمرة الزهو والملق ، فيضا من حثالة الألفاظ التى كان يتعذر عــلى شيشرون فهمها ، والتى كان لابد أن يأباها أوغسطس فى احتقار . وكان الملك نفسه يخاطب أصحاب الوظائف الرئيسية فى الامبراطورية بالألقاب الخداعة الخلابة كأن يقول للواحد منهم : يا صاحب الاخلاص، يا صاحب الهيبة ، يا صاحب السعادة ، يا صاحب السمو ، يا صــاحب الأهمية العالية العجيبة ، يا صاحب العظمة السنية الوقورة . وزوقت تزويقا عجيبا براءات وظائفهم بشعارات منتقاة أحسن انتقاء لتوضيح طبيعتها ورفعة شأنها ، ومن هذه الشعارات صورة الامبراطور الحاكم، وعربة نصر ، وسجل الأوامر موضوعا على منضدة مغطاة بمفرش ثمين تخفق حوله أربع شمعات مضاءة ، والصور الرمزية للولايات التى حكموها ، أو أسماء وأعلام الفرق التى تولوا قيادتها . وكانت بعض هذه الشعارات الرسمية تعرض فعلا فى قاعات استقبالهم ، وبعضها يتقدم مسيرتهم المحوطة بالأبهة والجلال أنى ظهروا فى احتفال أو مكان

عام . وصفوة القول انهم جمعوا فى سلوكهم وفى أرديتهم فى أرسمتهم وحليهم وفى ركابهم كل ما يوحى بالاجلال والاكبار لممثلى صاحب الجلالة وهكذا كان الجائز أن يخطىء مراقب حكيم ، نظام الحكومة الرومانية فيحسبه مسرحا فخما يعج بممثلين من مختلف الشخصيات والدرجات ، يرددون الفاظ نموذجهم الأصلى (أى الامبراطور) ، ويحاكون شهواته ونزواته .

وكان الموظفون الذين تؤهلهم وظائفهم ليكونوا فى عـداد الهيئة العامة الحـاكمة فى الامبراطورية يندرجون تحت ثلاث فئات متميزة : الأولى البارزون Illustrious والثانية المبجلون Respectable والثالثة الموقرون Honourable . وفى عهد البساطة الرومانية كان هذا اللفظ الأخير بمثابة تعبير غامض عن الرعاية أو التكريم ، حتى أصبح آخر الأمر لقبا معينا مخصصا لأعضاء السناتو ، ثم بعد ذلك لمن اختير من هذا المجلس الموقر لحكومة الأقاليم . أما أولئك الذين كانوا يزعمون لأنفسهم ـ بحكم مراتبهم ووظائفهم ـ امتيـازا يسمو بهـم على سائر هيئة السناتو ، فقد اطلق عليهم تسامحا فيما بعد ذلك بوقت طويل لقب « المبجلون » أما لقب « البارزون » فقد احتفظ به دائما للشخصيـات الرفيعة الشأن الذين كانوا موضع احترام الطائفتين الثانيـة والثالثة وطاعتهما . وكان يطلق فقط على (أ) القناصل والنبلاء (البطاركة). (ب) رؤساء الحرس البريتورى والوالى فى كل من روما والقسطنطينية. (ج) والقائد العام لكل من الفرسان والمشاة . (د) نظار القصر السبعة الذين مارسوا مهامهم المقدسة الى جوار شخص الامبراطور . ولم يكن لأسبقية التعيين اى اعتبار طالما تماثلت الوظائف.وعمد الأباطرة الذين ارادوا الاكثار من خلصائهم المقربين ، الى منح البراءات الشرفيـة كوسيلة لارضاء غرور رجال البلاط القلقين ، ولو لم يحققوا اطماعهم .

القناصل والبطاركة (النبلاء)

كان القناصل الرومان ، وهم الحكام الأول فى دولة حرة ، يستمدون حقهم فى السلطة من اختيار الشعب لهم . وظـل القناصل ينتخبـون بالاقتراع العام الحقيقى أو الشكلى فى السناتو ، طالما تفضل الأباطرة باخفاء الاستبعاد الذى فرضوه من وراء قنـاع . ولقد الغيت منـذ عهـد دقلديانوس تلك الملامح الباهتة للحرية . وتظاهر المرشحون الناجحون الذين كانوا يفوزون بشرف الوظائف القنصلية عاما بعد عـام ، بأنهم

يرثون لمهاوى الاذلال التى تردى فيها اسلافهم . فقد بلغ الهوان بأسرتى سكبيو وكاتو أنهم يلتمسون أصوات العامة ، ويعانون من طريقة الانتخابات الشعبية المملة الباهظة التكاليف ، ويعرضون كرامتهم للخزى والعار اذا حبس الشعب أصواته عنهم ، على حين استبقاهم حظهم الأسعد لعهد وحكومة كانت فيهما حكمة الامبراطور الرءوف الرحيم المعصوم من الخطأ هى التى تحدد مكافأة الميزات والفضائل . وقد أعلن الامبراطور صراحة فى الرسائل التى وجهها الى القنصلين المنتخبين ، انهما من صنع سلطانه ويده هو وحده . وصنعت لوحات مذهبة من العاج نقش عليها اسماهما وصورتاهما ، ووزعت على الامبراطورية هدية الى الولايات والمدن والحكام والسناتو والشعب . وجرى الاحتفال المهيب بتنصيبهما فى القصر الامبراطورى . وحرمت روما لمدة مائة وعشرين عاما من حكامها القدامى . وفى صباح اليوم الأول من يناير كان القناصل يتسلمون شعارات مناصبهم . وكان لباسهم عبارة عن رداء أرجوانى موشى بالحرير والذهب ، محلى أحيانا ببعض الجواهر الثمينة . وكان يسير فى ركابهم فى هذه المناسبة المهيبة كبار موظفى الدولة ورجال الجيش فى زى أعضاء السناتو ويتقدمهم ضباط يحملون شعارات هى عبارة عن قضبان محزومة على بلطة ، وكانت هذه يوما مخيفة مروعة . وكان الموكب يسير من القصر الى الساحة أو الميدان الرئيسى فى المدينة حيث يصعد القنصل الى مقره ويجلس فى مقعده الفاخر المثلث القوائم المصنوع على الطراز القديم ، ومن ثم يمارس على الفور عملا من اختصاصاته ، وهو أن يعتق عبدا كان يمثل أمامه لهذا الغرض ، وهذا لون من الطقوس قصد به تمثيل عمل بروتس الأكبر المشهود منشىء الحرية ، ومنشىء وظيفة القنصل ، حين أدخل فى عداد مواطنيه فندكس الأمين Vindex الذى كشف مؤامرة آسرة تاركوين . واستمرت الاحتفالات العامة لعدة أيام فى جميع المدن الرئيسية : بحكم العرف والعادة فى روما ، والتقليد والمحاكاة فى القسطنطينية ، وحبا فى المسرات والبهجة ونظرا لوفرة الغنى والثراء فى قرطاجة وانطاكية والاسكندرية . وبلغت تكاليف ألعاب المسرح والسيرك والمدرج فى عاصمتى الامبراطورية أربعة آلاف رطل من الذهب ، أى نحو مائة وستين ألف جنيه استرلينى ، فاذا تجاوزت هذه النفقات الباهظة قدرة الحكام أو حدود مشيئتهم دفع المبلغ من الخزانة الامبراطورية . واذا فرغ القناصل من هذه الواجبات التقليدية المعتادة اضحوا أحرارا فى الركون الى ظل حياة خاصة لينعموا طوال بقية العام بأن يسرحوا الطرف فيما يحف بهم من عظمة وجلال ، دون أن يعكر عليهم أحد صفوهم ، فلم يعودوا يرأسون المجالس الوطنية أو يقررون

الحرب والسلم ، ولم يكن لمواهبهم وقدراتهم كبير قيمة (الا اذا شغلوا وظائف أكثر فعالية) ، ولم يكن لأسمائهم من فائدة الا فى تحديد الموعد القانونى للسنة التى كانوا قد ملأوا فيها الكرسى الذى كان يشغله ماريوس وشيشرون . على أنه ظل من الأمور المحسوسة المعترف بها فى أواخر عهد الاستعباد الرومانى أن هذا اللقب الأجوف قد يقارن بالاستحواذ على السلطة الفعلية ، بل قد يفضل عليه . فقد ظل لقب القنصل محط الأنظار وهدف الأطماع وأوفى جـزاء للسيرة الحسنة والاخلاص ، بل ان الأباطرة أنفسهم — أولئك الذين احتقروا الظلال الباهتة للجمهورية — كانوا يدركون كل الادراك أنهم انما يحظـون بمزيد من الجلال والعظمة حين يفوزون كل عام بأمجاد منصب القنصل .

ولا يمكن أن يوجد فى أى عصر أو بلد تفريق أدق وأكثر زهوا بين النبلاء والشعب ، من هذا التفريق الذى كان قائما بين النبلاء والعامة فى أول عصور الجمهورية الرومانية ، حيث كانت الثروة والأمجـاد ووظائف الدولة والطقوس الدينية تكاد تكون مقصورة قصرا تماما على الأولين الذين احتفظوا بنقاوة دمائهم بأشد الحقد المسىء ، وبذلك أبقوا أتباعهم فى حالة من الاسترقاق الخداع . ولكن التريبيونات قضوا بجهودهم المتواصلة ، وبعد صراع طويل ، على هذه الفوارق التى لا تتناسب مع روح شعب حر .. فتجمع أفراد العامة (البلبيان) الذين أوتوا أكبر قدر من النشاط والتوفيق والثروات ، وتطلعوا الى الأمجاد وكانوا جديرين بالنصر وعقدوا الزيجات ، وبعد بضعة أجيال حاكوا النبلاء فى خيلائهم وفخارهم — أما أسرات النبلاء ، من جهـة أخرى تلك التى لم يحص عددها حتى نهاية عصر الجمهـورية والتى اخفقت فى المجال العادى للحياة الطبيعية ، أو أبيدت فى الحـروب الخارجية والداخلية الكثيرة ، أو بسبب افتقارها الى الموهبة والحـظ ، فانها امتزجت ، دون أن تشعر بجمهرة الشعب ، وبقى منها عدد قليل جدا يمكن أن يرجع بعرقه النقى الأصيل الى نشأة مدينة روما أو حتى الى نشأة الجمهورية ، حين خلق قيصر وأوغسطس وكلوديوس وفسبازيان من هيئة السناتو عددا كافيا من أسرات بطاركة جديدة ، يحدوهم الأمل فى تثبيت نظام ظلوا يعتبرونه شرفا مقدسا ، ولكن سرعان ما اكتسح بطش الطغاة ، والثورات الكثيرة ، وتبدل السلوك واختلاط الأمم — اكتسح هذه الأسرات المصنوعة (التى كان البيت الحاكم فى عدادها دائما) . ولم يبق من ذلك عند اعتلاء قسطنطين العرش ، سوى تقليد غامض مشوه يقول بأن النبلاء هم أوائل الرومان . وكان من الجائز ألا يلتئم مع شخصية قسطنطين وسياسته ، تكوين هيئة من

النبلاء يكون لها من تأثيرها ونفوذها ما يقيد سلطة الملك ويعززها فى نفس الوقت ، ولكن لو انه تبنى جديا مثل هذه الخطة ، لما كان فى مكنته ، بجرة قلم أو بأمر عال حاسم ، أن يقر نظاما لابد لترسيخه من عامل الزمن وتهيئة الأفكار . والواقع أنه أحيا لقب « البطاركة » (أى النبلاء) ولكنه أحياه بوصفه امتيازا شخصيا لا لقبا وراثيا ، ولم يسبقهم فى علو المنزلة الا القناصل الذين اقترنت مناصبهم السنوية بهذا التفوق العابر ، ولكن البطاركة فيما عدا ذلك سموا فوق جميع كبار الموظفين فى الدولة ، ولم يكن بينهم وبين شخص الأمير حجاب قط . وكانوا يمنحون هذه المنزلة الرفيعة لمدى الحياة . ولما كانوا عادة من المقربين ، ومن الوزراء الذين بلغوا أرذل العمر فى البلاط الامبراطورى، فقد فسد الاشتقاق أو الأصل الحقيقى للكلمة بفعل الجهل والرياء ، وحظى بطاركة القسطنطينية بالاجلال والاحترام على أنهم « الآباء » المختارون للامبراطور وللدولة .

رؤساء الحرس · البروقنصل · الحكام

كانت حظوظ رؤساء الحرس Prefect تختلف اختلافا جوهريا عن حظوظ القناصل والبطاركة . فقد رأى البطاركة عظمتهم القديمة تذوب فى لقب عقيم ، أما القناصل الذين صعدوا شيئا فشيئا من أدنى درجات السلم ، فقد عهد اليهم بالادارة الفنية والعسكرية فى العالم الرومانى ، فمنذ عهد سيفيروس الى عهد دقلديانوس ، وضع الحرس والقصر ، والقوانين والأموال ، والجيوش والولايات تحت اشرافهم ورعايتهم ، فأمسكوا بيد خاتم الامبراطورية وباليد الأخرى علمها ، شأنهم فى ذلك شأن وزراء الشرق . وكانت فرق الحرس البريتورى تعزز طمع رؤسائهم ، الذى كان تارة مخيفا وتارة مميتا ، بالنسبة للسادة الذين هم فى خدمتهم . ولكن لما أضعف دقلديانوس شوكة هذه الفرق المتغطرسة . وقضى عليها قسطنطين قضاء مبرما ، انحط من بقى من قوادهم ، دون صعوبة ، الى مرتبة الحكام المدنيين النافعين المطيعين . ولما لم يعودوا مسئولين عن سلامة شخص الامبراطور ، تخلوا عن الولاية أو السلطة التى كانوا قد ادعوها ومارسوها ، حتى ذلك الوقت ، على كل ادارات القصر وأقسامه . وحرمهم قسطنطين من القيادة العسكرية حالما انقطعوا عن قيادة زهرة القوات الرومانية الى الميدان بناء على أوامرهم الخاصة ، وفى نهاية الأمر حول قواد الحرس ، نتيجة ثورة فريدة فى بابها الى حكام مدنيين فى الولايات .

وطبقا لخطة الحكم التى وضعها دقلديانوس ، كان لكل واحـد من الأمراء الأربعة رئيس لحرسه البريتورى . ولما اتحدت الملكية مرة أخرى فى شخص قسطنطين ، ظل متمسكا بعدد رؤساء الحرس الأربعة ووكل الى كل منهم أمر الولايات التى كانوا يعملون فيها . (أ) رئيس الشرق ، وامتد اختصاصه على ثلاثة أجزاء المعمورة التى كانت خاضعة للرومان من شلالات النيل الى ضفاف فاسيس · ومن جبـال تراقيـا الى حدود فارس . (ب) وأقرت الولايات الهـامة : بانونيا ، وداشيا ومقدونيا واليونان يوما بسلطان رئيس الحرس فى الليريكوم . (ج) ولم يقتصر سلطان رئيس الحرس فى ايطاليا عـلى حـدود البـلد الذى اشتق منه لقبه ، بل امتد الى راشيا حتى ضفاف الدانوب وعـلى الجزر التابعة فى البحر المتوسط ، وذلك الجزء من افريقية الواقع بين مشارف برقة وحدود تنجيتانيا Tingitania . (د) أما رئيس حرس الغال ، فقد ضم تحت هذا الاسم الجامع الولايات المجاورة ، بريطانيا وأسبانيا ، ودان لسلطانه الجـزء الممتـد من سـور انطونينـوس (فى اسكتلنده) الى سفح جبال أطلس .

ولما ابعد القواد البريتوريون عن القيادة العسكرية بأسرها ، كانت المهام التى قدر لهم أن يتولوها فى الأمم الخاضعة تتلاءم مع مطامح أقدر الموظفين ومواهبهم . فقد عهد الى حكمتهم بمهمتين سـاميتين القضاء والمال ، وهما الموضوعان اللذان يستنفدان ، وقت السلم ، جهود الملك والشعب . ففى الأولى ، اى القضاء يحمون المواطـنين الذين يخضعون للقانون ، وفى الثانية يجمعون من أموالهم القدر اللازم لمساهمتهم فى نفقات الدولة . وكان هؤلاء الرؤساء البريتوريون بفضل سلطانهم يوفرون العملة والطرق والبريد ومخازن الغلال والصناعات وغير ذلك مما يحقق الرخاء العام . وخول لهم بوصفهم ممثلين للجلالة الامبراطورية أن يفسروا وينفذوا ، وفى بعض الأحيان يعدلوا ، المراسيم العامة ، بما يصدرون من بلاغات أو اعلانات وفق مقتضيات الظروف . كما اشرفوا على سلوك حكام الولايات فعزلوا منهم المهملين وعاقبوا المذنبين ، وكان يستأنف امام محكمة الرئيس الهريتورى كل قضية ذات أهمية ، مدنية كانت أو جنائية من اختصاص الهيئات الداخلة فى دائرة ولايته الشرعية . وكان حكمه نهائيا حاسما ، بل ان الأباطرة انفسهم أبوا أن يقبلوا أية شكوى ضد حكم أو نزاهة هؤلاء القضـاة الذين كرموهم بمثل هذه الثقة غير المحدودة . وكانت مخصصاته متناسبة مع مكانته ، أما اذا تولاه الجشع ، فما أكثر ما استمتع بالفرص لابتزاز حصيلة طيبة من الرسوم والهدايا والمبالغ الاضافية ! . وعلى الرغم من

أن الأباطرة لم يعودوا يخشون طمع هؤلاء الرؤساء البريتوريين ، فانهم حرصوا على ايجاد شيء من التوازن لمواجهة قوة هذا المنصب العظيم ، عن طريق عدم التثبت من مدة شغله وقصر هذه المدة .

واستثنيت روما والقسطنطينية وحدهما لخطورة أهميتهما ومكانتهما من ولاية الرؤساء البريتوريين . لقد هيأ اتساع مدينة روما ، وتجربة التعويق والاهمال العقيم للقوانين ، هيأت الفرصة أمام سياسة أوغسطس ليجد تبريرا مموها لتعيين حاكم جديد يمكنه وحده أن يكبح جماح جمهور ذليل مشاغب بيد من حديد . فعين فاليريوس مسالا Messala أول رئيس بريتورى لروما لعل حسن سمعته يمكنه من اتخاذ هذا الاجراء المثير للبغضاء . ولكن المواطن المهذب اعتزل منصبه ، ولما يمض عليه فيه سوى أيام قلائل ، معلنا ، بروح جديرة بصدق بروتس ، أنه وجد نفسه عاجزا عن ممارسة سلطة لا تلتئم مع الحرية العامة . ولما بات معنى الحرية أقل روعة ، اتضحت مزايا النظام بشكل أكثر جلاء وسمح للرئيس البريتورى ، الذى بدا أنه خصص ليكون أداة ارهاب للعبيد والمتشردين — سمح له أن يبسط ولايته فى الأمور المدنية والجنائية على أسرات الفرسان والنبلاء فى روما . ولم يكد البريتوريون الذين يمينون سنويا لمناصب القضاء والانصاف يستطيعون أن ينازعوا على ملكية الساحة ومركز القضاء Forum قاضيا دائم اليقظة حظى عادة بثقة الأمير . ومن ثم هجرت محاكمهم ، وهبط بالتدريج عددهم الذى تراوح يوما بين اثنى عشر وثمانية ، الى اثنين أو ثلاثة ، وانحصرت وظائفهم الهامة فى التزام باهظ النفقات ، هو عرض الألعاب لتسلية الشعب . وبعد أن تحولت وظيفة القناصل الرومان الى مجرد تمثيلية من التقاليد الماضية قلما تعرض فى العاصمة ، احتل الرؤساء البريتوريون أماكنهم الشاغرة فى السناتو ، وسرعان ما اعترف لهم بأنهم الرؤساء الطبيعيون فى هذا المجلس الموقر . وتلقوا طلبات الاستئناف من مسافة مائة ميل . وأصبح من مبادىء الفقه المسلم بها أن كل السلطة البلدية تنبع منهم وحدهم . وكان يعاون محافظ روما فى مهمته الشاقة خمسة عشر موظفا ، كان بعضهم نظراء له من قبل ، بل منهم من كانوا رؤساءه . وكانت كل الادارات الرئيسية تتناسب مع مقتضيات الاشراف على المرافق المتعددة مثل مكافحة الحرائق والسرقات والحوادث الليلية وحجز المخصصات العامة من الغلال وتوزيعها ، وتعهد الميناء وخزانات المياه ، والمجارى العامة ، ومراقبة الملاحة فى التيبر ، وتطهير قاع النهر ، والتفتيش على الأسواق والمسارح ، والأشغال العامة

والخاصة . والواقع أن يقظتهم كانت تنتظم الأهداف الثلاثة لأية شرطة نظامية : الأمن ، الرخاء ، والنظافة . ثم بعد ذلك المحافظة على أبهة العاصمة وزينتها كدليل على سهر الحكومة وعنايتها . وقد عين مفتش خاص للتماثيل ، وكأنى به حارس على عالم الجماد ، أو هؤلاء الموتى الذين لا يكاد يقل عددهم عن السكان الأحياء فى روما ، كما قال أحد الكتاب مبالغا فى تقدير عددها . وبعد ثلاثين عاما من تأسيس القسطنطينية عين للمدينة الناشئة محافظ شبيه بهذا الذى كان فى روما ، لنفس الأغراض وبمثل هذه الصلاحيات ، وسوى فى المرتبة بين المحافظ (رئيس البلدية) وبين الرؤساء البريتوريين .

وشكل الذين يتميزون فى سلم الوظائف الامبراطورية بلقب « المبجلين » ، طبقة وسطا بين الولاة « البارزين » وحكام الولايات « الموقرين » . وكان للبروقنصل فى آسيا وآخيا (ولاية اغريقية) وأفريقية مركز ممتاز فى هذه الطبقة ، وهو مركز منح بفضل ذكرى مكانتهم السابقة ، وكان استئناف أحكامهم الى محاكم الولاة البريتوريين هو الرمز الوحيد لتبعيتهم أو عدم استقلالهم . وانقسمت الحكومة المدنية فى الامبراطورية الى ثلاث عشرة وحدة ادارية كبيرة كانت كل منها تعادل فى الحقيقة مساحة مملكة قوية ، وكانت أولى هذه الوحدات من اختصاص حاكم (كونت Count) الشرق . ويمكن أن نكون فكرة عن خطورة شأن مهامه وتنوعها اذا لاحظنا أن ستمائة من العاملين الذين يمكن أن نسميهم اليوم سكرتارية أو كتبة أو حجابا أو حملة الرسائل ، كانوا يعملون فى مكتبه . ولم يعد منصب « الوالى الامبراطورى » على مصر يشغل بأى فارس رومانى ، ولكن احتفظ بالاسم فقط ، أما السلطات غير العادية التى كانت يوما ما ، والتى جعل منها مركز مصر وطباع أهليها ضرورة حتمية ، فقد ظلت فى يد المحافظ . أما الوحدات الاحدى عشرة الباقية : آسيانا ، وبونتيكا وتراقيا ، ثم مقدونيا وداشيا وبانونيا ، أو الليريكوم الغربية ، ثم ايطاليا وأفريقية ، ثم الغال واسبانيا وبريطانيا ــ فكان فى كل منها نائب للوالى ، وقد يكفى الاسم لتوضيح طبيعة الوظيفة وتبعيتها أو ارتباطها بغيرها . ويمكن القول بأن نواب قواد الجيش الرومانية ، والكونتات Counts والأدواق العسكريين الذين سيرد ذكرهم فيما بعد ــ كانوا كذلك يتمتعون بمكانة ولقب « المبجلين » .

ولما طغت روح الحقد والتباهى على مجالس الأباطرة ، ثابروا فى شغف زائد على توزيع السلطة ومضاعفة عدد القابها . ومزقت شر

ممزق ، بطريقة غير محسوسة ، تلك الأقطار الكبيرة التى كان الفاتحون الرومان قد وحدوها فى ظل شكل بسيط واحد من أشكال الحـكم ، حتى انقسمت الامبراطورية آخر الأمر الى مائة وست عشرة ولاية ، ناءت كل منها بعبء جهاز ادارى باهظ النفقة بهى المنظـر ، تختلف ألقاب من يتولون الحكم فيها : ففى ثلاث منها كان لقبه « البروقنصل » . وفى سبع وثلاثين كان « القنصل » . وفى خمس كان يدعى « كركتور Corrector » (وهو طراز من الموظفين كان يتولى الحكم فى المدن الحرة نشأ لأول مرة فى عهد أوغسطس) . وفى احدى وسبعين ولاية كان يدعى « الرئيس » وهكذا تعددت تسميات هؤلاء الحكام ، وتدرجت مراتبهم بعضها فوق بعض ، كما اختلفت شعارات هذه المراتب بشكل غريب ، ولم تكن حظوظهم على قدر سواء ، فى الارتياح الى هـذه المراكز أو الانتفاع بها ، بل تأرجح هذا وذاك صعودا وهبوطا تبعـا للظروف الطارئة ، ولكنهم كانوا جميعا (باستثنـاء البروقنصـل) يندرجون تحت طبقة « الموقرين » ، وعهد اليهم جميعا — فى حالـة رضا الأمير وتحت سلطة الولاة أو نوابهم (أو بتفويض منهم) — بشئون القضاء والمال ، كل فى نطاق اختصاصـه . وان المجلدات الضخمة للتشريعات والفتاوى لتزود الباحث المدقق بمادة غزيرة عن نظام الحكم فى الولايات ذلك النظام الذى تناولته بالتهـذيب والتنقيح على مدى ستة قرون أيدى رجال السياسة والقانون من الرومان . وقد يكتفى المؤرخ بنصين فريدين نافعين قصد بهما الحد من سـوء استغلال السلطة :

١ — تسلح حكام الولايات بسيف العدالة من أجل المحافظة على الأمن والنظام ، وأنزلوا العقوبات البدنية ، وحكموا بالاعدام فى الجرائم الكبرى ، لكن لم يكن من حقهم أن يسمحوا للمحكوم عليه باختيـار الطريقة التى ينفذ بها الحكم أو بصدور الحكم بالنفى مهما كان الحكم خفيفا أو مشرفا . فقد احتفظ بهذه الامتيازات للوالى الذى كان لـه وحده أن يفرض غرامة ثقيلة قدرها خمسون جنيها ذهبا ، أما نائبه فقد انحصر فى فرض غرامة يسيرة لا تعدو بضع أوقيات من الذهب . وكان هذا التفريق — الذى يبدو أنه يخول القدر الأكبر من السلطة ، على حين ينكر القدر الأيسر منها — مبنيا على أساس معقول ، ذلك أن هذا القدر الأيسر على التحقيق ، أكثر عرضة لسوء الاستغـلال ، فكثيرا ما سولت الأهواء لحاكم الولاية ارتكاب المظالم التى تصيب الرعايـا فى حريتهم وفى أرزاقهم ، على حين يداخله الرعب ، بدافع الروية أو الانسانية ، من احتمال وزر الدم البرىء . كذلك يمكن اعتبار النفى ،

او الغرامات الكبيرة أو الميتة السهلة ، تتصل اكثر ما تتصل ، بصفة خاصة بالأغنياء والنبلاء ، وبهذه الطريقة او بحكم هذا النص ، ينقذ من الاضطهاد الخفى لحاكم الولاية اولئك الأشخاص الذين هم اكثر عرضة لجشعه أو سخطه ،وينتقل التصرف فى شانهم الى محكمة اكثر مهابــة وتجردا هى محكمة الوالى البريتورى .

٢ ــ وكانوا يخشون ، وحق لهم ان يخشوا ، أن تنحرف بالقاضى عن جادة النزاهة مصلحته او ميوله ، ولهذا صدرت التعليمات المشددة، باستبعاد اى موظف من حكومة الولايات التى ولد فيها ، دون اجــازة خاصة من الامبراطور ، كما حرم على الحاكم وابنه الزواج من مواطنة او مقيمة فى الولاية ، أو شراء العبيد أو الأراضى والبيوت فى نطــاق ولايتــه .

ورغم هذه الاحتياطات الشديدة ، ظل قسطنطين بعد حــكم دام خمسا وعشرين سنة ،ينعى على الرشوة والجور فى القضاء ، ويعبر عن استيائه الشديد من ان نظر القاضى للدعوى وسرعة تصرفه فيها او تأجيله لها ، ثم حكمه النهائى ــ كل اولئك كان يباع ، اما بطريق مباشر أو عن طريق موظفى محكمته . وان تكرار القــوانين غــير الرادعة والتهديدات غير المؤثرة لينهض دليلا على المضى فى مثل هــذه الجــرائم دون حساب أو عقـــاب .

وكان كل الحكام المدنيين من رجال القانون ، فقد فتحت معاهد جستنيان أبوابها لشباب ممتلكاته الذين وهبوا انفسهم لدراسة الفقه الرومانى ، ويتلطف الملك ، حفزا لهمة الشباب ، فيؤكد لهم انه سيجزيهم احسن الجزاء لقاء مهارتهم وكفايتهم نصيبا وافرا فى حكومة الجمهورية. وكانت اصول هذا العلم المربح تدرس فى كل المدن الكبيرة فى الشرق والغرب ، ولكن اشهر مدرسة له كانت فى بيــروت على الشــاطىء الفينيقى ، وقد ازدهرت لأكثر من ثلاثة قرون ، منذ عهد الاســكندر سيفيروس ، الذى اسس معهدا ربما كان نافعا لبنى وطنــه ، وكــان الطلبة بعد دراسة منتظمة مدتها خمس سنوات فيه ، يضربــون فى الولايات سعيا وراء الثروة والأمجاد ، وما كان ليعوزهم المعين الذى لا ينضب من العمــل فى امبراطورية مترامية الأطــراف افسدها تعدد القوانين ، وكثرة الأمانين والرذائل . وكانت محكمة الوالى البريتورى فى الشرق كافية وحدها لايجاد عمل لمائة وخمسين محاميا ، تفرد اربعة وستون منهم بمزايا خاصة ، واختير من بينهم اثنان آخران بمرتب قدره

ستون جنيها ذهبا للدفاع فى قضايا الخزانة . وجــرى أول اختبــار لمواهبهم القضائية بتعيينهم ليعملوا بوصفهم معاونين للحكام ، ومن هنا كانوا يرقون الى منصة الرياسة فى المحاكم التى كانوا يترافعون أمامها. وتولوا مناصب الحكم فى الولايات ، ثم صعدوا بفضل جــدارتهم أو شهرتهم أو حظوتهم ، خطوة خطوة ، الى أعلى مناصب الدولــة ، وعدوا من « البارزين » واعتبر هؤلاء الرجال سعة الادراك أو العقل أداة المقارعة فى ساحة القضاء ، وفسروا القوانين وفق مصــالحهم الشخصية ، وربما لازمت العادات الوبيلة خلقهم فى مجال ادارة شئون الدولة . والحق أن المحامين القدامى والمحدثين ــ الذين شغلوا أهم المراكز بنزاهة خالصة وحكمة بالغة ــ قد رفعوا من شــأن المهنــة الحرة ، ولكن التدرج العادى للمحامين ، فى عهد اضمحلال الفقه الرومانى اقترن بأبلغ الضرر والعار . فقد وقعت المهنة الشريفــة التى ظلت ميراثا مقدسا للنبلاء ــ وقعت بين أيدى المعتقين والعامة الذين اتخذوا منها ، خبثا لا براعة ، تجارة دنيئة سيئة . وطرق بعضهم أبــواب الأسرات لاثارة المنازعات وتشجيع التقاضى وجر المغــانم لأنفســهم ولاخوانهم . وقبع بعضهم فى أماكنهم ، وانتحلوا وقار أساتذة القانون ، وزودوا عملاءهم الأغنياء بأحذق الحيل لتشــويه أوضح الحقائق ، وبالحجج لتزييف أشد المزاعم بطلانا . وتألفت الطبقة الجليلة المشهورة من المحامين الذين ضجت الساحة بفصاحتهم التى تتسم باللغو والثرثرة والمبالغــة . ولم يقيموا وزنا للشهرة أو العدالة ، ووصــموا ، فى أغلب الأحوال ، بأنهم أذلاء جهلة جشعون ، قادوا عملاءهم فى تيه من النفقات والابطاء وخيبة الأمل ، حتى اذا كاد ينفد صبرهم وأموالهم ، فى سلسلة مملة من السنين ، كان مآلهم الطرد ورفض الدعوى .

وزراء القصر السبعة

والى جانب الحكام والقواد الذين مارسوا سلطاتهم المخولة اليهم فى الولايات والجيوش ، بعيــدا عن البــلاط الامبراطــورى ، منح الامبراطورية مرتبة « البارزين » Illustrious لسبعة من أقرب موظفيه الذين وكل اليهم لأمانتهم واخلاصهم أمر سلامته وتقــديم المشــورة اليه وادارة أمواله .

١ ــ تولى خصى عزيز اثير شئون الجناح الخاص فى القصر ، وكان يسمى بلغة ذلك العصر Praepositus أى حاجب المخدع المقدس

(الأمين الخاص) . وكانت مهمته أن يلازم الامبراطور فى ساعات عمله أو لهوه ، ويؤدى لشخص الامبراطور كل الخدمات الحقيرة التى لا تستمد بهاءها الا من الملكية . وكان الحاجب العظيم (وقد نسميه كذلك) ، مع الأمير الجدير بالملك ، خادما نافعا ذليلا ، ولكنه خادم داهية ، يتجين كل مناسبة لما وضع فيه من ثقة عالية ليجد له الى العقلية الضعيفة منفذا قل أن تجده الحكمة الجافة أو الفضيلة الصارمة . ورفع احفاد تيودوسيوس المنحلون — وكانوا محتجبين عن أنظار رعاياهم محتقرين فى أعين أعدائهم — رفعوا حجاب مخادعهم فوق هامات سائر الحجاب فى القصر ، بل الأدهى من ذلك ان نائبه الذى لم يعد أن يكون على رأس موكب العبيد الواقفين رهن الاشارة ، كان يسبق فى مرتبته مرتبة البروقنصل « المبجل » فى اليونان أو فى آسيا — وكان ثمة اثنان من الملاحظين يحملان لقب « كونت » يشرفان على مناط الأبهة والعظمة والترف فى القصر ، فتولى أحدهما أمر خزائن الملابس الملكية ، وعهد الى الثانى بشئون المائدة الامبراطورية ، وكانا يأتمران فى هذه المهمة الخطيرة بأمر حاجب المخدع وينفذان تعليماته .

٢ — وعهد بالادارة الرئيسية للشئون العامة الى رئيس الديوان وكان الحاكم الأعلى فى القصر ، يتفقد النظام ويراقب الفرق المدنية والعسكرية ، ويتلقى الاستئنافات من مختلف أنحاء الامبراطورية فى قضايا هذا الجيش العرمرم من الأفراد أصحاب الامتيازات ، الذين كسبوا لأنفسهم ولأسراتهم ، بوصفهم خداما فى البلاط ، حق عدم الانصياع الى سلطان القضاة العاديين . وكانت المكاتب الأربعة او بالأحرى مكاتب وزير الدولة هذا ، تتولى أمر المراسلات بين الأمير ورعاياه . وكان المكتب الأول يختص بالمذكرات والتقارير الرسمية . والثانى بالرسائل ، والثالث بالعرائض والملتمسات ، والرابع بالوثائق والأوامر من شتى الأنواع . وكان يدير كلا من هذه المكاتب رئيس ادنى مرتبة من فئة « المبجلين » . وكان يقوم على هذه العملية كلها مائة وثمانية واربعون سكرتيرا او كاتبا معظمهم من رجال القانون ، نظرا لكثرة ما يصادفهم فى عملهم من الحاجة الى تلخيص التقارير والى المراجع . وثمة تنازل ربما اعتبر غير جدير بالجلالة الرومانية فى العصور الأولى ، ذلك هو تعيين سكرتير خاص للغة اليونانية . وعين مترجمون لاستقبال سفراء المتبربرين ، ولكن ادارة الشئون الخارجية ، التى تشكل جانبا جوهريا فى السياسة الحديثة ، قل أن جذبت انتباه رئيس الديوان ، فقد كان كل تفكيره منصرفا الى توجيه

البريد وادارة الترسانات في الامبراطورية التي كانت تضم أربعا وثلاثين مدينة ، منها خمس عشرة في الشرق وتسع عشرة في الغرب ، وفيها جميعا حشود من العمال تشتغل بصنع أسلحة الدفاع ، وادوات الهجوم من مختلف الأنواع والآلات الحربية التي كانت تودع الترسانات ، وتنقل عند اللزوم الى الميادين لتستخدمها الفرق .

٣ — وحدث في مدى تسعة قرون ، تطور غريب في وظيفة « الكوستر Quaestor » أي الصراف او الموظف المالي . ففي العهود الأولى في روما كان الشعب يختار كل عام موظفين صغيرين لمعاونة القنصل في المهمة البغيضة ، مهمة ادارة الأموال العامة . وعين لهذا الغرض كذلك معاون لكل بروتنصل أو رئيس تولى القيادة العسكرية أو الادارة الفنية في الولاية ، وتضاعف عدد هذين الموظفين الماليين تدريجا ، نتيجة التوسع في الفتوح ، الى أربعة ، ثم ثمانية ، ثم عشرين وربما الى أربعين ، في فترة وجيزة . وتطلع أشرف المواطنين الى وظيفة تهيىء لهم مقعدا في السناتو ، وتعلقوا من ورائها بالأمل الصادق في الفوز بأمجاد الدولة . وفي الوقت الذي تظاهر فيه اوغسطس بصون حرية الانتخاب تراه يقبل عن طيب خاطر الامتياز الذي اختصوه به ، الا وهو أن يوصي في كل عام ، أو على الأرجح أن يعين عددا محددا من المرشحين ، وكان من عادته أن يتخير أحد أولئك الشبان الممتازين ليقرأ خطبه أو رسائله في اجتماعات السناتو ، وحذا خلفاء اغسطس حذوه في ذلك ، وتحولت المهمة الطارئة الموقوتة الى وظيفة دائمة ، واطلق على شاغلها لقب « كوستر » وهذا هو « الكوستر » الوحيد ذو الحظوة الذي اتخذ شخصية جديدة اكثر لمعانا ، وبقي بعد الغاء وظائف زملائه القدامى العقيمين . ولما كانت الخطب التي يكتبها « الكوستر » باسم الامبراطور قد اكتسبت قوة المراسم النافذة واكتسبت آخر الأمر صيغتها ، فقد اعتبر هذا الموظف ممثل السلطة التشريعية ، ومهبط الوحي في المجلس والمصدر الأصلي للتشريع المدني . وكان يدعى أحيانا الى حضور جلسات القضاء الأعلى في المجمع الامبراطوري بين الرؤساء البريتوريين ورئيس الديوان ، ويطلب اليه أن يقطع بالرأي فيما يستشكل على صغار القضاة . ولما لم يكن مرهقا بأية مهام ثانوية ، فقد شغل فراغه واستخدم مواهبه في ابتداع ذلك الأسلوب الرفيع المنمق من الفصاحة التي حفظت للقوانين الرومانية جلالها وروعتها ، رغم فساد الذوق واللغة . ويمكن من بعض الوجوه أن نقارن وظيفة « الكوستر » الامبراطوري بوظيفة حامل

الأختام الحديثة ، ولكن الخاتم الكبير الذى يبدو أن المتبربرين الأميين قد ابتدعوه ، لم يستخدم قط ليشهد على صحة الأوامر العامة للأباطرة .

٤ — وثمة لقب غريب هو كونت « رئيس العطايا المقدسة » أى ناظر المالية ، وربما صيغ هذا اللقب على أساس أن أى مبلغ يدفع انما هو فيض اختيارى من كرم الملك . وانه لما يتجاوز قدرة أقوى خيال ، ادراك التفاصيل الدقيقة للنفقات السنوية واليومية للادارة المدنية والعسكرية فى كل جزء من أجزاء امبراطورية مترامية الأطراف . واستخدم لهذا الغرض بضع مئات من الموظفين وزعوا على أحد عشر مكتبا مختلفا تهدف فى دهاء الى مراجعة عمل كل منها والرقابة عليه — وكان عدد هؤلاء الموظفين يميل بالطبيعة الى التزايد . وساد التفكير أكثر من مرة فى أن يعاد الى بلادهم هؤلاء الأفراد الزائدون عن الحاجة والذين لا يرجى منهم نفع ، والذين هجروا أعمالهم الشريفة وهرعوا فى لهف شديد الى الوظائف المالية المربحة . وكان فى الولايات تسعة وعشرون من موظفى الخزانة يتبعون ناظر المالية ، حظى منهم ثمانية عشر بلقب « كونت Count » . وكان سلطان ناظر المالية يمتد على المناجم التى تستخرج منها المعادن النفيسة ، وعلى دور السك التى تحول فيها هذه المعادن الى عملة ، وعلى الخزائن العامة فى أهم المدن ، حيث تودع الأموال لخدمة الدولة . وتولى هذا الناظر كذلك تنظيم التجارة الخارجية للامبراطورية ، كما أدار مصانع الكتان والصوف ، حيث كانت تجرى عمليات الغزل والنسيج والصباغة ، ويقوم عليها نسوة رقيقات الحال لاستعمال القصر والجيش — وكان فى الغرب الذى هو أحدث عهدا بالفنون ، ست وعشرون من هذه المنشئات ، وعدد أكبر منه فى الولايات النشيطة فى الشرق .

٥ — والى جانب الدخل العام الذى يمكن لأى حاكم مطلق أن يجمعه أو ينفقه كيفما يحلو له ، اقتنى الأباطرة ، وكأنهم مواطنون أثرياء ، ممتلكات واسعة ، كان يديرها « الكونت » أو ناظر الضياع الخاصة » وربما كان بعضها خاصا بالملوك والجمهوريات القديمة ، وربما نتجت بعض الاضافات عن طريق الأسرات التى تعاقبت على العرش ، ولكن الجزء الأكبر من هذه الممتلكات الامبراطورية جاء من مصدر دنس ، الا وهو المصادرة والغرامات ، وكانت الضياع الامبراطورية متناثرة فى طول الولايات وعرضها ، من موريتانيا الى بريطانيا ، ولكن التربة الغنية الخصبة فى كبادوكيا أغرت الامبراطور

باقتناء أجمل ممتلكاته فيها . واقتنص قسطنطين وخلفاؤه الفرصة لتبرير الجشع بالغيرة الدينية ، فقضوا على معبد كومانا الغنى ، حيث كان الكاهن الأعلى لآلهة الحرب أشبه شيء بملك مطلق السلطان ، واستغلوا لمنفعتهم الخاصة الأراضى المقدسة التى كان يعيش عليها ستة آلاف من رعايا أو عبيد هذه الأراضى أو كهنتها . ولكن لم تكن لهؤلاء السكان قيمة الى جانب سلالة الخيل الأصيلة التى نشأت فى هذه الرقعة الممتدة من سفح جبل ارجوس Argaeus الى ضفاف نهر ساروس ، وهى سلالة تتميز بعظمة شكلها وسرعتها التى لا تبارى عن سائر السلالات المعروفة فى العالم القديم . ونصت القوانين على حماية هذه الخيول التى خصصت لخدمة القصر والألعاب الامبراطورية ، من أن يمتهنها أو يدنسها سيد فظ شرس . وبلغت أهمية كبادوكيا الى حد تعيين موظف (كونت) خاص للاشراف عليها ، أما سائر أجزاء الامبراطورية فقد عين لها موظفون أقل مرتبة . أما نواب ناظر المالية وناظر الضياع الخاصة على حد سواء ، فقد ظلوا يمارسون مهامهم المستقلة وشجعوا على الحد من سلطان حكام الولايات .

٦ ، ٧ — ووضعت الفرق المختارة من الخيالة والمشاة الذين يحرسون شخص الامبراطور تحت الاشراف المباشر للموظفين الاثنين المكلفين بالشئون الخاصة (المنزلية) . وكانت هذه الفرق تتألف من ثلاثة آلاف وخمسمائة فرد تنقسم الى سبع فرق فى كل منها خمسمائة وعهد بهذه الخدمة النبيلة فى الشرق الى الأرمن وحدهم تقريبا . وكلما ظهروا فى الاحتفالات العامة فى أبهاء القصر وأروقته ، تجلت فيهم ، بقاماتهم العالية وأسلحتهم الفخمة المصنوعة من الفضة والذهب ، تجلت فيهم العظمة الحربية اللائقة بجلال الامبراطورية الرومانية . واختيرت من بين الفرق السبع جماعتان من الفرسان والخيالة ، من البريتوريين الذين كان مركزهم الممتاز معقد الرجاء ومناط الجزاء لأعظم الجنود جدارة واستحقاقا . وقد تولوا الحراسة فى الأجنحة الداخلية ، وأرسلوا الى الولايات لتنفيذ أوامر سيدهم بمنتهى السرعة والقوة ، وكان موظفو الشئون الخاصة (الكونت) يرقون الى مناصب الرؤساء البريتوريين ، وتاقت نفوسهم الى الخروج من خدمة القصر الى قيادة الجيوش ، شأنهم فى ذلك شأن هؤلاء الرؤساء البريتوريين .

بدء الدولة البوليسية

يسر انشاء الطرق وتنظيم البريد سبل الاتصال الدائم بين البلاط والولايات ولكن هذه الانشاءات النافعة اقترنت فجأة بسوء استغلال وبيل لا يطاق . فقد استخدم مائتان أو ثلاثمائة من العمال أو الرسل، تحت امرة رئيس الديوان : لاعلان أسماء القناصل السنويين ، ومراسيم الأباطرة أو انتصاراتهم . وترخص هؤلاء ، دون أن يشعروا ، فى الابلاغ عما أمكنهم أن يلحظوا على سلوك الحكام أو المواطنين العاديين ، وسرعان ما نظر اليهم على أنهم عيون الملك وسوط الشعب . وفى ظل النفوذ الشديد للحكم الضعيف بلغ عددهم رقما لا يصدق ، أى نحو عشرة آلاف ، وضربوا بالانذارات الخفيفة التى كثيرا ما وردت فى القوانين عرض الحائط ومارسوا فى الاتجار المربح بالوظائف ظلما مقرونا بالجشع والوقاحة . وعن طريق المجاملة والعطف والمكافآت تشجع هؤلاء الجواسيس الرسميون الذين يتصلون بالقصر بانتظام ، على أن يرقبوا فى لهفة ، تطور أى عمل من أعمال الخيانة ابتداء من أتفه اعراض السخط الدفين الى التدابير الفعلية لثورة علنية . واستتر انتهاكهم الدنىء الاجرامى لحرمة الحق والعدل وراء قناع مقدس من الغيرة والحماس ، ومن الجائز أن يسددوا . وهم آمنون مطمئنون، سهامهم المسمومة الى صدور المذنبين والأبرياء على حد سواء ، ممن أثاروا استياءهم أو أبوا شراء صمتهم . وكان المواطن المخلص فى سوريا ، وربما فى بريطانيا ، معرضا لخطر سوقه ، أو على الأقل للتهديد بسوقه ، مكبلا فى الأصفاد الى المحكمة فى ميلان أو فى القسطنطينية ، ليدافع عن حياته أو عن أمواله ضد الاتهام الخبيث الذى الصقه به هؤلاء المخبرون المحظوظون . وسارت الادارة العادية على هذا الأسلوب الذى لا تسيغه الضرورة القصوى وحدها ، وكانت وسائل التعذيب تعوض عن كفاية الأدلة .

وكان الفقه الرومانى يسلم أكثر من أن يوافق على هذا الاختبار الخداع الخطير فى القضية الجنائية ، كما كانوا يؤكدون تسميتها . وكانوا يمارسون هذه الطريقة الدموية فى الاختبار مع سفلة القوم الذين لم تكن لآلامهم لدى رجال الدولة المتغطرسين أية قيمة فى ميزان العدالة أو الانسانية ، ولكنهم لم يتقدموا قط على امتهان شخص المواطن المقدس الا اذا تم أنصع الدليل على جريمته . وتروى حوليات الطغيان من عهد تيبيريوس الى عهد دوميتيان ، عرضا ، اعدام كثير من الضحايا البريئة . ولكن طالما أمكن الابقاء على أقل بصيص من ذكرى الحرية

الوطنية والشرف الوطنى ، برئت اللحظات الأخيرة فى حياة أى رومانى من خطر التعذيب المقيت (١) . على أن سلوك حكام الولايات لم يكن مقيدا بمألوف عادات المدينة أو مبادىء المدنيين الصارمة ، فقد ألفوا التعذيب سائدا ، لا بين العبيد فى ممالك الشرق الاستبدادية وحدها ، بل كذلك بين المقدونيين الذى خضعوا لملك مقيد ، وبين أهل رودس الذين ازدهرت أحوالهم فى ظل حرية التجارة ، بل بين الاغريق الحكماء الذين أكدوا وقدسوا كرامة الانسان . وشجع اذعان أهل الولايات حكامهم على أن يكتسبوا ، بل قل أن يغتصبوا ، لأنفسهم سلطة التعذيب بالخازوق لينتزعوا من المتشردين أو العامة المذنبين اعترافهم بما اقترفوا من جرائم ، حتى انتهى الأمر بهؤلاء الحكام الى حد أنهم ، دون أن يشعروا ، أخطأوا الفوارق بين المراتب وأغفلوا امتيازات المواطنين الرومان . ولكن الرعايا دفعتهم مخاوفهم الى التماس الاعفاء من التعذيب كما أن الملك ألزمته مصلحته بمنح اعفاء خاص منه فى كثير من الحالات . وفى هذا ترخيص ضمنى بل اقرار باللجوء الى التعذيب بصفة عامة . ومنعوه عن الأفراد من مرتبة « البارزين » ومرتبة « المبجلين » وعن الأساقفة ومشايخ الكنيسة وأساتذة الفنون الحرة والجنود وأسراتهم وموظفى البلديات وذريتهم حتى الجيل الثالث ، والأطفال الذين لم يبلغوا سن الرشد . ولكن أدخل فى التشريع الجديد فى الامبراطورية مبدأ هو أشبه شىء بسيف مصلت على الرقاب ، ذلك أنه فى حالة الخيانة ، وهى تشمل كل جريمة يستطيع حذق المحامين أن يستنبطها من المقاصد العدائية ضد الأمير أو ضد الدولة ، تعطلت أو بطلت كل الامتيازات ، وهبطت كل الحالات الى هذا المستوى البغيض ، مستوى الخيانة . ولما كانت سلامة الامبراطور تفوق صراحة اى اعتبار للعدالة أو للانسانية فقد تعرضت حرمة الشيخوخة أو نضارة الشباب على حد سواء ، لأشد ألوان التعذيب ، وأصبح الرعب من تبليغ خبيث بأن واحدا من المواطنين الرومان الأصليين كان شريكا ، ربما فى جريمة وهمية ، بل مجرد شاهد عليها ، اصبح هذا الرعب سيفا مصلتا على رقاب الجميع .

ان شعبا انتفخت أوداجه تيها وعجبا ، أو تبرم ضجرا وسخطا ، قل أن يكون أهلا لتقدير موقفه تقديرا صادقا . وهكذا كان رعايا

---

(١) فى مؤامرة بيزو ضد نيرون ، كانت ابيكارس Epicharis (المرأة المتحررة) هى الشخص الوحيد الذى عذب . أما الباقون فقد أعفوا من التعذيب . وقد يكون من نافلة القول أن نضيف مثالا أضعف من هذا لانه من الصعب أن نجد مثالا أقوى . « حوليات تاسيتس ١٥/٥٧ » .

قسطنطين عاجزين عن التنبه الى انحطاط مستوى العبقرية وفضائل الرجولة ، الأمر الذى هبط بهم الى ما دون مكانة أسلافهم . ولكنهم استطاعوا أن يحسوا بوطأة الطغيان وتراخي القوانين وفداحة الضرائب وأن يرثوا لهذه كلها . وقد يلحظ المؤرخ النزيه الذى يسلم بعدالة شكاواهم بعض ظروف مواتية تميل الى التخفيف من شقوتهم . فقد ظل فى الامكان بعد صد أو وقف غارات المتبربرين التى كانت تهدد حدود الامبراطورية ، والتى سرعان ما قوضت عظمة الرومان . وهذب سكان قسم كبير من الكرة الأرضية فنون البذخ والأدب ونعموا بملاذ المجتمع البهيجة . وساعدت أشكال الادارة المدنية وبهاؤها ونفقاتها على الحد من الاباحية الشاذة فى الجنود ، وعلى الرغم من ان القوة انتهكت حرمة القوانين ، أو أنها قد انحرف بها الحذق والدهاء ، فان المبادىء القويمة فى التشريع الرومانى ، أبقت على أثارة من النظام والانصاف لم تكن معروفة لدى الحكومات الاستبدادية فى الشرق ، وربما وجدت حقوق الانسان لها فى الدين والفلسفة سياجا آمنا . أما اسم الحرية الذى لم يعد يزعج خلفاء أوغسطس ، فلربما أنذرهم أحيانا بأنهم لم يحكموا أمة من العبيد أو من المتبربرين .

الفصل الثامن عشر
(٣٢٤ ـ ٣٣٧م)

شخصية قسطنطين ، أسرته ، وفاته
نهوض دولة فارس فى عهد شابور الثانى

جذبت شخصية الأمير الذي نقل مقر الحكم في الامبراطورية وأدخل مثل هذه التغييرات الهامة على الدستور المدني والديني فى بلده ، جذبت أنظار الجنس البشرى ، كما انقسمت الآراء فيها ، أما غيرة المسيحيين الشاكرين العارفين لفضل منقذ الكنيسة ، فقد أضفت عليه كل صفات البطل بل القديس ، على حين أن سخط الفريق المغلوب على أمره قارن قسطنطين بأبغض أولئك الطغاة الذين دنسوا بمساوئهم وضعفهم الحلة الامبراطورية . وانتقلت هذه المشاعر الى الأجيال المتعاقبة بدرجات متفاوتة ، وما تزال شخصية قسطنطين تعتبر فى عصرنا الحاضر موضع قدح أو مدح . وأننا لنأمل ، بالمزج النزيه بين المثالب التى اعترف بها أشد المعجبين ، والمزايا التى سلم بها ألد الأعداء ، أن نرسم صورة صادقة لهذا الرجل الخارق ، صورة يجدر بالتاريخ الحقيقى الصريح أن يقررها دون خجل أو حياء . ولكن ربما اتضح على الفور أن المحاولة العقيمة لمزج هذه الألوان المتنافرة وللمواءمة بين هذه الصفات المتناقضة لابد أن تخرج بصورة مارد جبار ، أكثر من أن تنتج صورة انسان ، الا اذا نظرنا اليها فى أضوائها الصحيحة الواضحة مع الفصل الدقيق بين مختلف فترات حكم قسطنطين .

لقد حبت الطبيعة شخص قسطنطين وذهنه أثمن ما لديها ، فكان فارع الطول مهيب الطلعة ، محمود السيرة ، وتجلت قوته ونشاطه فى كل ما يمارسه الرجال ، واحتفظ منذ نعومة أظفاره حتى أخريات أيامه

بقوة البنية ، بفضل ما التزم من العفة وضبط النفس . وكان يأنس للعلاقات الاجتماعية برفع الكلفة فى الحديث والمناقشة . ورغم أنه ربما أطلق لنفسه العنان أحيانا فى التهكم والمزاح ، فى تحفظ أقل مما تقتضيه هيبة مركزه ، فان بشاشته وسماحته أسرتا قلوب كل من اتصلوا به . وقد يشك فى صدق مودته ، ولكنه أظهر فى بعض المناسبات أنه غير عاجز عن الحفاظ على ود خالص مقيم . ولم يكن نقص تعليمه ليحول دون تقديره الصادق لقيمة الدرس والتحصيل ، وحظيت الفنون والعلوم ببعض التشجيع بفضل رعايته الكريمة لها . وكان ينصرف الى العمل فى عزيمة لا تفتر وهمة لا تعرف الكلل . وكاد ان يستغل كل قوى ذهنه الجبار فى القراءة أو الكتابة أو اعمال الفكر ، وفى استقبال السفراء والنظر فى شكاوى رعاياه . واضطر حتى أولئك الذين عابوا عليه بعد تصرفاته عن اللياقة الى الاعتراف بأنه أوتى شهامة نفذ بها الى أشق المشروعات ، وتميز بالجلد على تنفيذها ، دون أن يعوقه عنها نقص التفكير أو صيحات الجماهير . وكان فى ميدان القتال ينفخ من روحه الوثابة فى الجنود الذين كان يقودهم فى عزمة القـــائد المكتمل النمـــو والمواهب ، ومن ثم يمكن أن ينسب الى قدراته ، أكثر من أن ينسب الى حظه ، تلك الانتصارات الرائعة التى احرزها ضد أعداء الدولة فى الخارج والداخل . لقد تعشق المجد جزاء وفاقا لأعماله ، ان لم يكن دافعا عليها ، ويمكن أن نجد للطموح غير المحدود الذى يبدو أنه ملك عليه حواسه منذ اللحظة التى قبل فيها التاج فى يورك — نجد له تبريرا فى الأخطار المحدقة بمركزه ، وفى شخصيات أعدائه ، وفى ادراكـــه لجدارته الفائقة ، وفى تطلعه الى أن نجاحه سوف يمكنه من استعادة السلام والنظام فى امبراطورية حائرة . وقد استغل فى حروبه الداخلية ضد مكسنتيوس وليسينيوس ، ميول الشعب الذى قارن بين الرذائل المتأصلة فى هذين الطاغيتين ، وبين روح الحكمة والعدالة التى يبدو أنها شاعت فى الطبيعة العامة لادارة قسطنطين .

ولو أن قسطنطين هبط على ضفاف التيبر أو حتى فى سهـــول أدرنة ، لكانت تلك هى نفس الشخصية التى كان قد نقلها الى ذراريه ، مع استثناءات يسيرة . ولكن خاتمة عهده (وفقا لحكم معتدل ، بل فى الواقع رفيق ، لكاتب عاش فى نفس العصر) هبطت به دون المرتبة التى كان قد حظى بها بين أنبه الأمراء الرومان ذكرا . وقد تقع العين فى عهد أوغسطس على طاغية تحول على درجات تكاد تكون غيـــر ملحوظة ، حتى صار أبا لبلده وللجنس البشرى أجمع ، على حين تبصر فى عصر قسطنطين بطلا طالما أوحى الى رعاياه بالحب وأدخل على

قلوب أعدائه الرعب ، ينحدر الى ملك غاشم منحل ، أفسده حظه أو رفعته الفتوحات فوق مقتضيات النفاق والرياء . وكان السلام الشامل الذى ساد السنوات الأربع والعشرين الأخيرة من حكمه ، فترة بهاء ظاهـرى ، أكثر منه رخـاء حقيقياً ، وصمت شيخوخة قسطنطين بالمساوىء المكتسبة ، ولكنها المساوىء التى تلتئم مع السلب والنهب والتبذير ، واستنفدت الأموال المكدسة فى قصرى مكسنتيوس وليسينيوس فى اسراف بالغ ، فقد استلزمت الابتكارات التى أدخلها الفاتح مزيدا من النفقات وتطلبت تكاليف مبانيه وحاشيته واحتفالاته مددا عاجـلا وفيرا ، ومن ثم لم يكن سبيل للوفاء بمقتضيات ابهة الملك غير ارهاق الشعب واستنزاف دمه . واغتصب أحباؤه التافهون الذين أثروا بمـا أغدق عليهم من أموال بلا حساب — اغتصبوا لأنفسهم ، دون حسيب أو رقيب حق السلب والنهب والافساد . وساد احساس خفى ولكنه شامل ، بدبيب الانحلال فى مختلف جوانب الادارة العامـة . وخسر الامبراطور نفسه على مر الأيام تقدير رعاياه ، ولو أنه ظل محتفظـا بامتثالهم له . ولم يفلح الزى والسلوك اللذان اختار أن يتظاهر بهما فى أخريات أيامه ، الا فى الحط من قدره فى أعين الناس جميعا ، واتسمت الأبهة الآسيوية التى اقتبسها غرور دقلديانوس ، اتسمت فى شخص قسطنطين بروح من الطراوة والتخنث ، فقد صور بشعر مستعـار متعدد الألوان جهد مهرة فنانى العصر فى تصفيفه ، وتاج من طراز جديد أكثر نفقة ، ومجموعة كبيرة من الجواهـر واللآلى والأطـواق والأساور ورداء مزركش فضفاض من الحرير موشى بأزهار من الذهب فى أعجب شكل . واننا — أمام هذا الزى الذى قل أن يسيغه شباب الاجابالوس أو طيشه — لنحار فى اكتشاف حكمة الملك العجوز وبساطة الرومانى المحنك . وعجزت العقلية التى استنامت للرخاء والرفق عن أن ترقى الى مستوى الشهامة التى تحتقر معها الشبهات وتجرؤ على الصفح . وربما بررت موت مكسنيتوس وليسينيوس قواعد السياسة كما تلقن فى مدارس الطغاة ، ولكن رواية نزيهة عن اعدامهما ، وعـلى الأصح ذبحهما ، الذى لطخ شيخوخة قسطنطين ، لابد أن توحى الى أصدق تفكيرنا وأخلصه ، برأى فى الأمير الذى استطـاع طـوعا ، لا كرها ، أن يضحى بقوانين العدالة ومشاعر الطبيعة ، فى سبيـل أهوائه أو فى سبيل مصلحته .

أسرة قسطنطين

يبدو ان التوفيق الذى لم يفتأ يلازم راية قسطنطين ، قد وفر له الآمال والراحة والدعة فى حياته المنزلية . لقد يئس اسلافه الذين نعموا بأزهى عهود الحكم واطولها — مثل اوغسطس وتراجان ودقلديانوس — لقول يئسوا من انجاب الأعقاب . ولم تتح الثورات الكثيرة لأية أسرة امبراطورية وقتا كافيا للنمو والتكاثر فى ظل التاج ، الا ان ملكية اسرة الفلافيين التى كان قد رفع من شأنها فى البداية كلوديوس القوطى انحدرت عبر عدة أجيال . وقد استمد قسطنطين نفسه من والده الملك تلك الأمجاد الوراثية التى نقلها الى اولاده . وتزوج الامبراطور مرتين . وتركت له الأولى منرفينا Minervina التى تعلق بها ايام شبابه فى علاقة مشروعة . ولكنها غامضة — تركت له ولدا واحدا سمي كرسبس Crispus وانجب من الثانية فاوستا Fausta ابنة مكسيميان ثلاث بنات وثلاثة بنين بالأسماء المتشابهة : قسطنطين ، قسطنتيوس ، قنستنز . وانفسح المجال امام اخوة قسطنطين الاكبر — يوليوس قسطنتيوس ، دلماشيوس ، هانيباليانوس — ليتمتعوا باشرف مكانة واوفر حظ يتفقان مع مركزهم الخاص . وقضى أصغر الثلاثة نحبه دون ان يخلف اسما أو يترك عقبا . وتزوج أخواه الأكبران من ابنتين لشيخين موسرين من شيوخ السناتو ، وانجبا فرعين جديدين للدوحة الامبراطورية . واصبح جالوس وجوليان فيما بعد المع ابناء يوليوس قسطنتيوس « النبيل » . اما ابنا دلماشيوس اللذان منحا لقب « الرقيب » العقيم فقد سميا دلماشيوس وهانيباليانوس . وتزوجت كريمتا قسطنطين الاكبر : اناسطاسيا واوتروبيا ، من عضوين فى السناتو ، من أصل نبيل ، فى مرتبة القنصل هما ابتاتوس Optatus ونيبوتيانوس Neptianus . أما الاخت الثالثة كنستانتيا فقد تفردت بما حظيت به من قبل من عظمة وتعاسة ، وظلت معروفة بأنها ارملة ليسينيوس الذى اندحر ، وبفضل توسلاتها احتفظ صبى برىء ، هو ثمرة زواجهما ، لبعض الوقت ، بحياته ، وبلقب « قيصر » ، وبأمل مزعزع فى العرش ، والى جانب نساء بيت فلافيوس وحلفائه ، كان هناك عشرة أو اثنا عشر من الذكور ممن يمكن ان يطلق عليهم بلغة البلاط الحديث امراء يجرى فى عروقهم الدم الملكى ، يبدو انه كان مقدرا لهم ، بحكم مولدهم ، ان يرثوا عرش قسطنطين أو يدعموه . ولكن الأسرة الكبيرة المتكاثرة انحصرت ، فى مدى ثلاثين عاما ، فى شخصى قسطنطين وجوليان ، وهما الوحيدان اللذان عاشا بعد سلسلة من الجرائم والنكبات ، على غرار ما روى شعراء المآسى فى

قصائدهم المقدسة عن بلوبس Pelops وكدموس Cadmus (فى الأساطير اليونانية) .

وصور المؤرخون المتجردون كرسبوس أكبر أبناء قسطنطين ووريث الامبراطورية المحتمل على أنه شاب محبوب مثقف ، وعهد بتعليمه — أو على الأقل بأمر دراسته ، الى لكتانتيوس أفصح المسيحيين ، وهو معلم خير أهل لتربية ذوق تلميذه اللامع واستثارة فضائله . وحين بلغ كرسبوس سن السابعة عشرة خلع عليه لقب « قيصر » وعهد اليه بادارة ولايات الغال ، حيث هيأت له غارات الألمان عليها فرصة مبكرة لابراز بسالته الحربية . وفى الحرب الأهلية التى سرعان ما نشبت بعد ذلك ، اقتسم الوالد والولد سلطاتهما . وقد مجد هذا التاريخ شجاعة هذا الأخير وحسن تصرفه فى اقتحام مضايق الدردنيل التى كان يدافع عنها دفاعا مستميتا أسطول ليسينيوس المتفوق . وساعد هذا الانتصار البحرى على تقرير مصير الحرب ، واقترن اسم قسطنطين باسم كرسبوس فى هتافات رعاياهما الشرقيين، الذين ابتهجوا وهللوا معلنين أن العالم قد أخضعه وحكمه امبراطور اجتمعت له كل الفضائل والشمائل كما وهب ابنا لامعا أميرا اختصته السماء بحبها ، وصورة حية زاهية لصفات الكمال فى والده . وبسط العطف الشامل الذى قلما اقترن بالشيخوخة ، جناحيه حول شباب كرسبوس ، فى هالة مشرقة ، واستحق الشاب تقدير الحاشية والجيش والشعب ، وتعلقوا به جميعا . وقد يعترف الرعايا ، كارهين، بما يخبرون فى شخص الملك المتربع على العرش من صفات الفضيلة وكثيراً ما ينكرونها فى همهمات متحيزة ساخطة ، على حين تنفرج أساريرهم اذ يلحظون المزايا المتفتحة فى شخص خلفه ، ويتعلقون بأهداف الأمل غير المحدود فى هناءة خاصة وعامة ، ينعمون بها على عهده .

وسرعان ما أثارت هذه الشعبية المحفوفة بالخطر انتباه قسطنطين الذى ضاق ذرعا بوصفه أبا وملكا معا ، بظهور ند له ، وبدلا من محاولة الحفاظ على ولاء ابنه له ، بايلائه ثقته الكريمة والاعتراف بفضله ، وطد العزم على الحيلولة دون ما يتوجس من أذى بسبب أطماعه الساخطة . وما أسرع ما وجد كرسبوس ما يبرر شكواه ، من أنه فى الوقت الذى رأى فيه أخاه الصبى الصغير قد خلع عليه لقب « قيصر » وعهد اليه بمهام الحكم فى هذه الرقعة الممتازة : ولايات الغال ، رأى نفسه وهو الأمير الناضج الذى أدى مؤخرا مثل هذه الخدمات الفريدة بدلا من

رفعه الى المرتبة الأسمى ، مرتبة « أوغسطس » — رأى نفسه وقد ضيق عليه الخناق وانه سجين فى بلاط أبيه ، معرضا بلا قوة ولا قدرة على الدفاع ، لما قد يكيده له خبث أعدائه . وما كان الشاب الذى يجرى فى عروقه الدم الملكى ، قادرا دائما فى هذه الظروف الأليمة ، على ضبط نفسه أو كظم غيظه . ولابد كذلك أن نكون على يقين من أنه كان محوطا بزمرة من الأتباع المتهورين أو المخاتلين ، الذين أمعنوا فى الدأب على اذكاء نار الحقد السافر فى نفسه ، ان لم يكونوا قد دسوا عليه للغدر به . وأصدر قسطنطين ، حوالى هذا الوقت ، مرسوما أفصح فيه علنا ، عن شكوكه الصادقة أو المصطنعة ، فى مؤامرة تدبر ضد شخصه وضد حكومته ، ويهيب ، مع الوعد والاغراء بالأمجاد والمكافآت ، بأى فرد يستطيع أن يدلى بمعلومات ، أن يبلغ ، دون استثناء ، عن حكامه أو وزرائه أو أصدقائه أو أقرب المقربين ، مقسما بأغلظ الأيمان أنه سوف يصغى الى هذه الاتهامات بشخصه ، وأنه سيثأر لهذه الاساءات بنفسه ، ويختتم نداءه بدعاء يكشف عن توقعه خطرا ، يقول فيه ان « الكائن الأعلى » ما يزال يبسط رعايته وحمايته على الامبراطور والامبراطورية .

وكان الوشاة الذين استجابوا لهذه الدعوة الكريمة ، متمرسين فى أفانين البلاء وأحابيله الى درجة تغريهم بايقاع أنصار كرسبوس ، فى الشرك على أنهم مذنبون ، وما كان لهم الا أن يسلموا بصدق الامبراطور الذى توعد بأشد الانتقام والعقوبة . ومهما يكن من أمر فقد اقتضت سياسة قسطنطين أن يبقى على مظاهر الاهتمام والثقة بابنه الذى بدأ ينظر اليه على أنه الد عدو ليس من الميسور مهادنته . وسكت الميداليات تحمل الوعود المألوفة بدوام الحكم المريب للقيصر الصغير . ولما كان الشعب الذى لم يطلع على أسرار القصر ، لا يزال يحب فى القيصر الصغير شمائله ، ويجل مكانته ، فان الشاعر الذى يتوسل لاعادته من منفاه يلجأ الى نظم قصيدة يمجد فيها ، بنفس القدر من الاخلاص ، جلال الوالد والولد ، وكان قد حل آنذاك موعد الاحتفال العظيم بذكرى العام العشرين من حكم قسطنطين ، ومن أجل هذا نقل الامبراطور بلاطه من نيقوميديا الى روما حيث أعدت أروع الترتيبات لاستقباله . وتسابقت العيون والألسنة الى التظاهر بالتعبير عن مشاعر السعادة الغامرة . واختفت ، لبرهة وجيزة تحت أستار المراسم والرياء ، أبشع خطط الانتقام والاغتيال . وقبض فى غمرة الاحتفال ، على كرسبوس المنكود ، بأمر من الامبراطور الذى تخلى عن حنان الأب دون أن يتحلى بعدالة القاضى . وكانت المحاكمة قصيرة سرية ، ولما رئى

انه من الأليق اخفاء مصير الأمير الشاب عن أعين الشعب الرومانى ، فقد أرسل تحت حراسة قوية الى بولا فى استريا ، حيث أعدم فور وصوله بيد الجلاد أو بطريقة أخف ، أى بالسم . ولقى الشاب الكريم الخلق القيصر ليسينيوس نفس المصير الذى لقيه كرسبوس ، ولم يتخلخل الحقد الطاغى الذى ران على قلب قسطنطين امام دموع أخته العزيزة أو توسلاتها للابقاء على حياة ابن لم يكن له من جزيرة الا مرتبته (قيصر) والتى لم يقدر لها البقاء طويلا بعد فقده . وأسدلت أستار الغموض والخفاء على قصة هذين الأميرين التعيسين وطبيعة جريمتهما والأدلة عليها ، وطرق محاكمتهما ، وظروف موتهما . ويلتزم الأسقف نصير البلاط الذى خلد فى مؤلف نفيس مزايا بطله وورعه — يلتزم الصمت البليغ الذى خيم على هذه الأحداث المحزنة . ان مثل هذا الازدراء الصلف بسراى الجنس البشرى ، بينما يدمغ ذكرى قسطنطين بوصمة لا تمحى ، لابد أن يذكرنا بنهج مختلف سلكه واحد من أعظم الملوك فى العصر الحاضر (عصر المؤلف — أى القرن الثامن عشر) ذلك هو القيصر بطرس ، الذى ترك ، وهو فى ذروة السلطة المطلقة ، لروسيا ولأوربا وللأجيال القادمة أمر الحكم على الأسباب التى اضطرته الى اصدار حكم الاعدام على ابن أثيم ، أو على الأقل ابن منحل .

وكانت براءة كرسبوس أمرا يسلم به القاصى والدانى الى درجة أن اليونان الحديثين الذين يقدسون ذكرى مؤسسهم ، انزلقوا الى حد التهوين من أمر الجريمة التى نهت عن تبريرها أبسط المشاعر العادية فى الطبيعة الانسانية ، الا وهى جريمة قتل الوالد لابنه . ويزعمون أنه حالما اكتشف الوالد المنكوب بطلان الاتهام الذى ضلل سذاجته على هذا الشكل الرهيب نشر على العالم ندمه وتأنيب ضميره، وأنه لبس الحداد لمدة اربعين يوما ، انقطع فيها عن الحمام وعن سائر ملاذ الحياة العادية . وأنه اراد أن يشهد الأجيال المقبلة على ذلك ، فأقام لكرسبوس تمثالا من الذهب نقش عليه العبارة التذكارية : « الى ولدى الذى أعدمته بغير حق » . وكان يجدر أن تعزز هذه القصة الأخلاقية الشائقة مراجع اقل شذوذا ، فاذا رجعنا الى مؤرخين اقدم عهد وأصدق حجة ، لأكدوا لنا أن ندم قسطنطين تجلى فقط فى أعمال الدم والانتقام ، وأنه كفر عن قتل الابن البرىء باعدام زوجة ربما كانت مذنبة ، فهم ينسبون النكبات التى حلت بكرسبوس الى الاعيب زوجة أبيه فاوستا التى أعاد بغضها المرير أو حبها اليائس فى قصر قسطنطين، تمثيل المأساة القديمة،مأساة هيبوليتوس Hippolytus وفيدرا Phaedra

(احدى مآسي سنكا) ، واتهمت ابنة مكسيميان — فاوستا — شأنها في ذلك شأن ابنة مينوس — ربيبها (ابن زوجها) كرسبوس ، بأنه هم بها ، ومن ثم سهل على الامبراطور الحانق أن يصدر حكم الموت على الأمير الصغير الذى اعتبرته بحق أقوى المزاحمين لبنيها . ولكن هيلينا ، أم قسطنطين الطاعنة فى السن حزنت وثارت لحفيدها كرسبوس الذى لقى حتفه قبل الأوان ، فلم يمض طويل وقت ، حتى زعم أنه اكتشف ، ان حقا وان باطلا ، أن هناك علاقة آثمة بين فاوستا وبين أحد العبيد فى الاسطبلات الامبراطورية . وصدر الحكم ونفذت العقوبة فور توجيه الاتهام ، وماتت الزانية خنقا بفعل البخار فى حمام زيدت فيه الحرارة ، لهذا الغرض ، الى درجة غير عادية . وقد يظن البعض أن ذكرى عشرين عاما من زواج سعيد ، وأن شرف ما انجبا من ذرية انحصرت فيها وراثة العرش ، ربما خففا من قساوة قلب قسطنطين ، وأقنعاه بالسماح لزوجته مهما بدت آثمة بالتكفير عن ذنبها فى سجن موحش . وانه لمن نافلة القول ان نتدبر الاليق وغير الأليق ، الا اذا تأكدنا من حقيقة هذا الحادث الغريب الذى اكتنفته بعض ظروف الارتياب والتشويش . ان أولئك الذين هاجموا شخصية قسطنطين ، وأولئك الذين دافعوا عنها على حد سواء ، اغفلوا قطعتين مشهورتين فى خطبتين القيتا فى عهد خلفه ، تشيد أولاهما بفضائل الامبراطورة فاوستا وبجمالها وحظها ، بوصفها ابنة وزوجة واختا واما لكثير من الأمراء ، وتؤكد الثانية بعبارة صريحة أن أم قسطنطين الأصغر (فاوستا) الذى ذبح بعد ثلاث سنوات من وفاة والده ، عاشت لتذرف الدمع سخينا وتندب حظ ابنها . ورغم البراهين القاطعة التى أتى بها عدة كتاب من الوثنيين والمسيحيين على السواء ، يظل هناك ما يحمل على الاعتقاد او على الأقل على الشك ، فى أن فاوستا قد افلتت من قساوة زوجها الغاشمة المرتابة . وقد يكفى على اية حال ، موت ابن وابن أخ ، واعدام عدد كبير من اصدقائهما المحترفين ، وربما الأبرياء ، ممن جمعهم نفس المصير — يكفى لتبرير سخط الشعب الرومانى ، ولتفسير أبيات الهجاء الواردة على بوابة القصر تقارن بين عهدى قسطنطين ونيرون ، وهما عهدان تميزا بالبهاء والعظمة كما تلطخا بالدماء .

وبدا ، بعد وفاة كرسبوس ، أن وراثة عرش الامبراطورية قد انحصرت فى أبناء فاوستا الثلاثة الذين أوردنا أسماءهم من قبل وهم : قسطنطين ، قسطنطيوس ، قنستنز ، وقد خلع عليهم على التتابع لقب « قيصر » فى السنة العاشرة ، والسنة العشرين ، والسنة الثلاثين

من حكم أبيهم ، ورغم أن هذا التصرف كان من شأنه مضاعفة منافسة أو حكام المستقبل فى العالم الرومانى ، فربما كان له ما يبرزه فى تعلق الأب بأبنائه وتحيزه لهم ، ولكن ليس من السهل أن نتبين الباعث الذى حدا بقسطنطين الى تعريض سلامة أسرته وشعبه للخطر ، حين رفع مرتبة ابنى أخيه دلماتيوس وهانيباليانوس دون ضرورة تلجئه الى ذلك . فرفع الأول الى مرتبة « القيصر » مساواة له بأبناء عمه . وابتدع مجاملة للثانى ، لقبا جديدا غريبا هو « صاحب المجد الأثيل » Nobilissimus وهو لقب يتميز حامله برداء أرجوانى موشى بالذهب . كما تفرد هانيباليانوس ، من بين العدد الكبير من الأمراء الرومان على مر العصور ، بلقب «ملك» وهو لقب ربما كان يبغضه رعايا تيبريوس بوصفه سبة دنسة مقذعة لطاغية غريب الأطوار . واستعمال هذا اللقب ، حتى كما يبدو فى عصر قسطنطين — حقيقة غريبة نابية ، يكاد لا يمكن تقبلها على أساس المصدرين المشتركين وهما الميداليات الامبراطورية ، والكتاب المعاصرون .

وكانت الامبراطورية بأسرها تبدى أشد الاهتمام والعناية بتعليم هؤلاء الشبان الخمسة المسلم بأنهم خلفاء قسطنطين ، فأعدتهم الرياضة البدنية لاحتمال مشاق الحرب ومهام الحياة الجادة النشيطة ، ويقول الذين أشاروا عرضا الى تربية قسطنتيوس ومواهبه ، انه برز وتفوق فى فنون القفز والعدو ، وانه كان قواسا بارعا ، ومارسا ماهرا ، وانه كان يحذق استعمال مختلف الأسلحة التى يستخدمها الخيالة والمشاة على حد سواء . وبذلت الجهود المتواصلة لتنشئة سائر أبناء قسطنطين وأبناء اخوته وتثقيف عقولهم ، ولكنها لم تكلل بنفس القدر من النجاح . وأجزل الامبراطور العطاء لأشهر الأساتذة الذين دعوا لتلقينهم العقيدة المسيحية ، والفلسفة اليونانية ، والفقه الرومانى ، واحتفظ هو لنفسه بالمهمة الخطيرة الشأن ، الا وهى تعليم الشبان الملكيين فنون الحكم ودراسة الانسان ، ولكن عبقرية قسطنطين نفسه كانت ثمرة المحن والخبرة . فقد تعلم فى معاملاته الحرة فى حياته الخاصة ، ووسط الأخطار فى بلاط جالريوس ، أن يضبط عواطفه ، وأن يواجه عواطف نظرائه ، وأن يعتمد فى سلامته الراهنة وعظمته المستقبلة ، على سلوكه الشخصى المقرون بالفطنة والحزم . ولكن كان من سوء حظ خلفائه أنهم ولدوا وتربوا فى كنف الحلة الامبراطورية . فكانوا دوما محوطين بمواكب المتملقين ، ومن ثم قضوا شبابهم يمرحون فى بحبوحة الترف ، وفى تجربة اعتلاء العرش . وما كانت ملذاتهم السامية لتسمح لهم بالنزول من عليائهم التى تظهر فيها مختلف أنماط الطبيعة

البشرية بمظهر واحد من النعومة والرقة . وأباح لهم تساهل قسطنطين، فى سنهم المبكرة ، أن يشاركوا فى ادارة الامبراطورية ، فدربوا فن الحكم على حساب الشعب الذى وضعت مقدراته بين أيديهم . فحكم قسطنطين الصغير بلاد الغال ، أما أخوه قسطنتيوس فقد استبدل بهذه الرقعة التى كانت وقفا على أبيه فيما مضى ، بلاد الشرق التى هى أكثر ثروة ، وأقل عناء من الناحية العسكرية . وتلقت ايطاليا والليريكوم الغربية وافريقية بمظاهر الاجلال والاكبار قنستنز — الابن الثالث — بوصفه ممثل قسطنطين الأكبر ، وعين دلماشيوس على الجبهة القوطية ، وضم اليها حكم تراقيا ومقدونيا واليونان . واختيرت مدينة قيصرية لتكون مقرا لهانيباليانوس ، الذى شملت مملكته الجديدة ولايات بنطس وكبادوكيا وارمينيا الصغرى . وأنشىء لكل من هؤلاء الأمراء جهاز مناسب ، حيث خصص لكل منهم عدد كاف من الحرس ، ومن فرق الجيش ، ومن المعاونين ، مما يتناسب مع وضع كل منهم ، ومع مقتضيات الدفاع . وكان الموظفون والقواد الذين وضعهم قسطنطين حولهم ،من الطراز الذى يطمئن الامبراطور الى أنهم سيساعدون ، بل حتى يراقبون ، هؤلاء الملوك اليافعين فى ممارستهم لما خول لهم من سلطات . وكلما تقدمت بهم السنون ، وعركتهم التجربة ، عظم سلطانهم وقويت شوكتهم ، ولكن الامبراطور كان يحتفظ دائما بلقب « أوغسطس » ، وبينما كان يقدم « القياصرة » للجيوش والولايات ، احتفظ لمقامه الأعلى بنفس القدر من الامتثال والطاعة فى كل ركن من أركان الامبراطورية ، وطوال السنوات الأربع عشرة الأخيرة من حكم قسطنطين ، لم يكدر صفو الهدوء تمرد جمال حقير فى جزيرة قبرص ، او الدور الخطير الذى اقتضت سياسة قسطنطين أن يقوم به فى حروبه مع القوط والسارماتيين .

★★★

استمرت الحرب سجالا ، دون نتيجة د[illegible]مة ، بين السارماتيين والقوط وبين قسطنطين ، طوال أعوامه الأخيرة .

وفـــــاة قسطنطين

أكد قسطنطين عظمة الامبراطورية الرومانية بتحطيم كبرياء القوط، وتقبل فروض الولاء التى قدمتها أمة خانعة ضارعة ، ورفع سفـــراء اثيوبيا وفارس وبلاد الهند النائية اليه تهانيهم بحالة السلام والرخاء التى تسود عهده . واذا حسب أن من علامات توفيقه وضربات حظه السعيد موت ابنه الأكبر وابن أخيه بل وربما زوجته كذلك ، فانه نعم حتى العام الثلاثين من حكمه بفيض غامر لم ينقطع من السعادة والغبطة فى حياته الخاصة والعامة ، وهى فترة لم يتيسر قط لأحد من أسلافه ، منذ عهد أوغسطس ، أن يشهدها . وعاش قسطنطين عشرة أشهر بعد الاحتفال المهيب بهذه المناسبة ، ثم قضى نحبه بعد مرض قصير ، وهو فى سن النضوج والكمال ، فى الرابعة والستين من عمره ، بعد حياة حافلة مشهودة — قضى نحبه فى قصر أشيريون Achyrion فى ضواحى نيقوميديا ، الذى آوى اليه التماسا لطيب الهواء على أمل استرداد قواه المنهوكة باستخدام الحمام الساخن . وجاوز الاسراف فى مظاهر الأسى والحزن ، أو على الأقل الحداد ، كل ما عرف من قبل فى مثل هذه المناسبات . ورغم الحاح السناتو وشعب روما القديمة ، نقـــل جثمان الامبراطور الراحل ، بناء على توصـــيته الأخيرة ، الى المدينـــة التى كان مقدرا لها أن تحتفظ باسم مؤسسها وبذكراه . ووضع جثمان قسطنطين مكللا بشعارات العظمة الفانية وبالحلة الأرجوانية وبالتاج على سرير من الذهب فى أحد أجنحة القصر ، كان قـــد أثث وأضىء لهذا الغرض أفخم تأثيث واضاءة ، وكان التمسك بمراسم البلاط غاية فى الدقة ، ففى الساعات المحـــددة فى كل يوم كان كبار موظفى الدولة والجيش والحاشية يقتربون من شخص مليكهم فى انحناءات كبيرة ومظهر وقور ، ويقدمون له الولاء والاحترام فى جد ورزانة ، كما لو كان بعد على قيد الحياة . وتكررت هذه الصورة المسرحية لبعض الوقت لدوافع سياسية ، ولم يغفل الملق هذه الفرصة للاشارة الى أن قسطنطـــين وحده ، باذن من السماء ، قد بقى يحكم بعد وفاته .

ولكن هذا الحكم لم يكن ليعيش الا فى أبهة زائفة جوفاء . وسرعان ما تبين أن رعايا الملك المستبد المطلق قل أن يمتثلوا لارادته أو يلتزموا طاعته طالما أنهم لم يعودوا يطمعون فى عطفه أو يرهبون سخطه . بل ان نفس النظار والقواد الذين انحنوا اجلالا ورهبة أمام جثمان مليكهم الراحل ، انشغلوا فى مداولات سرية لاقصاء ولدى أخيه دلماشيـــوس وهانيباليانوس ، وحرمانهما من النصـــيب الذى خصصه لهمـــا فى حكم

الامبراطورية . ان معلوماتنا عن حاشية قسطنطين ناقصة الى حد أننا لا نستطيع أن نكون فكرة صحيحة عن حقيقة البواعث التى كانت توجه زعماء المؤامرة ، الا اذا ذهب بنا الظن الى أنهم كانوا مسوقين بدافع من روح الحقد والانتقام من أحد الرؤساء ، وهو يدعى أبلافيوس Ablavius ، وكان واحدا من المقربين المغرورين ، كان يحرك القناصل حسب أهوائه ، ويسىء استغلال ثقة الامبراطور الراحل فيه . وكانت الحجج التى تذرعوا بها ضمانا لرضا الشعب والجيش وموافقتهما ، مصوغة فى أجلى بيان : فالتزموا جانب اللياقة والحق ، فى الاشارة الى ان أبناء قسطنطين أعلى مكانة وأولى بالحكم ، والى الخطر من تعدد الملوك ، والى النكبات التى تهدد الدولة من جراء التنافر بين عدة أمراء متنافسين لا تؤلف بين قلوبهم وشائج الأخوة . وحيكت المؤامرة فى جو من الحماسة والسرية . حتى أمكن التوصل الى اعلان جماعى مدو من فرق الجيش بأنها لن ترتضى عن أبناء الامبراطور المأسوف عليه بديلا لحكم الامبراطورية الرومانية . ومن المسلم به أن دلماشيوس الصغير الذى جمعت بينه وبين ابناء عمومته روابط الصداقة والمصلحة ، ورث نصيبا كبيرا من مواهب قسطنطين الأكبر ، ولكن يبدو أنه فى هــذه الآونة لم يتخذ أية اجراءات ليثبت بقوة السلاح حقه وحق أخيه الذى يجرى فى عروقه الدم الملكى ، وهو حق جادت لهما به مكارم عمهما . وقد أذهلتهما وأحدقت بهما سورة غضب الشعب وهياجه ، حتى بدا انهما باتا ، عاجزين عن الهرب أو المقاومة ، فى يد أعدائهما الألداء . وبقى مصيرهما معلقا حتى وصل قسطنتيوس ثانى ابناء قسطنطين ، وربما كان أحبهم الى النفوس .

وكان الامبراطور الراحل وهو يحتضر، قد أهاب بتقوى قسطنتيوس ان تولى جنازته كل الاهتمام والعناية ، واستطاع هذا الأمير ، بفضل قربه من القسطنطينية — حيث كانت اقامته فى الشرق — استطاع ، فى غير ما صعوبة ، أن يحد من نشاط أخويه اللذين كانا يقطنان فى مقر حكومتيهما البعيدتين : فى ايطاليا والغال ،فما أن وضع يده على القصر فى القسطنطينية حتى كان همه الأول أن يقضى على مخــاوف ذوى قرباه ، فأقسم يمينا مغلظة بضمان سلامتهم . وصرف همه بعد ذلك فى العثور على ادعاء كاذب يتحلل به من الالتزام الذى تسرع فى التقيد به . ووضعت افانين التدليس والتزوير فى خدمة تدابير القسوة والعنف . وخرجت شخصية من اكثر الشخصيات قداسة بتزييف جلى صريح . فقد تلقى قسطنتيوس من اسقف نيقوميديا طومارا (رقعة مكتوبــة) يختفى شبح الموت بين سطوره ، مع التوكيد بانه وثيقة أصيلة من أبيه

الامبراطور يبدى فيها شكوكه فى أن أخوته قد دسوا له السم ، ويحض أبناءه على الثأر له ، وأن يكفلوا سلامتهم هم أنفسهم بتوقيع العقوبة على المذنبين . ومهما يكن من أمر الأسباب التى ساقها هؤلاء الأمراء المنكودون للدفاع عن حياتهم وشرفهم أمام هذا الاتهام الذى لا يمكن تصديقه ، فقد أخرستهم الصيحات الغاضبة التى تعالت بين الجنود الذين كشفوا على الفور عن عدائهم لهم ، وأعلنوا أنفسهم قضـــاة وجلادين ، فى وقت معا . وكم من مرة انتهكت حرمة الاجراءات القانونية روحا وشكلا ، فى المذبحة التى اختلط فيها الحابل بالنابل ، التى جرفت فى تيارها عمى قسطنتيوس ، وسبعة من أبناء عمومته ، كان أبرزهـــم دلماشيوس وهانيباليانوس ، والنبيل أوبتاتوس Optatus زوج احدى أخوات الامبراطور الراحل ، وأبلافيوس الذى ملأت قوته وثروته قلبه ببعض الأمل فى الاستيلاء على العرش ، واذا كانت ثمة حاجة الى المبالغة فى بشاعة هذا المنظر الدموى لأضفنا أن قسطنتيوس نفسه كان قـــد تزوج من ابنة عمه يوليوس ، وانه كان قد زوج أخته من ابن عمـــه هانيباليانوس . ان هذه الأحلاف أو المصاهرات التي كونتها سياســـة قسطنطين بين مختلف فروع البيت الامبراطورى ، دون اعتبار للأحقاد العامة — هذه الأحلاف لم تفلح الا فى اقناع الجنس البشرى بأن هؤلاء الأمراء قد تبلد شعورهم باعزاز العلاقات الزوجية ، قـــدر ما تجمـــد احساسهم بروابط الدم ، وقست قلوبهم أمام توسلات الشباب المؤثرة وبراءته . ولم ينج من يد القتلة ، من بين هذه الأسرة الكبيرة العدد الا جالوس وجوليان ، أصغر أبناء يوليوس قسطنتيوس ، حين ارتوى تعطشهم الى الدماء ، وخفف هذا من غلوائهم بعض الشيء . وأحس الامبراطور قسطنتيوس ، الذى كان فى غيبة أخويه ، اكثرهم عرضـــة للوزر واللوم ، احس فى بعض مناسبات تالية ، بوخز يسير عابر من تأنيب الضمير لأعمال القسوة التى أكرهته عليها ، نصائح موظفيـــه المخاتلين وعنف جنوده الطاغى الذى تعذرت مقـــاومته ، وهـــو بعد شاب غرير لم تحنكه التجارب .

وأعقب مذبحة أسرة فلافيوس تقسيم جديد للولايات ، تم التصديق عليه فى لقاء خاص بين الاخوة الثلاثة . فكان من نصيب قسطنطين — وهو اكبر القياصرة الثلاثة سنا — العاصمة الجديدة التى تحمل اسمه واسم أبيه ، مع شيء من تمييزه فى المرتبة عن أخويه . أما تراقيا وبلاد الشرق فكانت من نصيب قسطنتيوس ، عـــلى حـــين اعترف بثالثهم قنستنز ملكا شرعيا على ايطاليا وافريقية واالليريكوم الغربية . وسلمت فرق الجيش بحقهم الوراثى ، وتنازل ثلاثتهم فقبلـــوا من الســـناتو

الرومانى ، بعد شيء من التراخى ، لقب « أوغسطس » . وعندما تسلم هؤلاء الأمراء زمام الحكم لأول مرة ، كان أولهم فى الحادية والعشرين من عمره ، والثانى فى العشرين ، والثالث فى السابعة عشرة فقط .

نهوض فارس تحت حكم شابور الثانى

على حين انضوت الأمم الحربية فى أوربا تحت لواء أخويه ، ترك قسطنتيوس وحده ، بوصفه قائدا للفرق المخنثة الأسيوية ، لينوء بعبء الحرب الفارسية . وجدير بالذكر أنه عند موت قسطنطين اعتلى عرش الشرق شابور بن هرمز جد نارسيس الذى اعترف فى خشوع بسلطان الرومان اثر انتصار جالريوس . وكان شابور لا يزال فى نضارة الشباب رغم انه كان فى السنة الثلاثين من حكمه ، فقد سبق تاريخ ارتقائه العرش تاريخ مولده ، بناء على ما قضى به قدر غريب . فقد بقيت زوج هرمز حاملا عند وفاة زوجها . ولكن عدم التثبت من جنس الجنين وهو فى احشاء أمه ، بل من واقعة الحمل فى جملتها ، أثار اطماع أمراء آل ساسان . ثم تبددت آخر الأمر المخاوف من نشوب حرب اهلية حين تأكد للمجوس عن يقين بأن ارملة هرمز حامل ، وأنها ستضع فى سلام واطمئنان مولودا ذكرا . وامتثالا لصوت الخرافة ، أعد الفرس دون ابطاء ترتيبات الاحتفال بتتويجه . ورقدت الملكة تحفها العظمة والجلالة على سرير ملكى عرض فى وسط القصر ، ووضع التاج فى البقعة التى ظن أنها تخفى فيها الوريث القادم لعرش اجزرسيس . وانبطح الولاة والحكام أمامها يمجدون عظمة مليكهم الخفى الذى لا يتأثر ولا يعى . واذا كان لنا ان نصدق هذه القصة العجيبة التى يبدو ، على أية حال ، انه قد أساغتها عقول الشعب وطول مدة حكمه غير العادية ، فاننا لابد أن نعجب ، لا بحظ شابور فحسب ، بل وبعبقريته ايضا . وفى أحضان التربيةالناعمة تحت وصاية الحريم الفارسى اكتشف الأمير الملكى أهمية استخدام قوة عقله وجسمه . واستحق بمواهبه الشخصية عرشا أجلس عليه ، ولما يع بعد واجبات السلطة المطلقة ومغرياتها . وتعرض فى حداثة سنه لنكبات الانقسامات الداخلية التى لا يمكن تجنبها ، كما باغت عاصمته ملك يمنى أو عربى يدعى Thair واعمل فيها السلب والنهب . وامتهنت كرامة الأسرة المالكة بأسر الأميرة أخت الملك الراحل ، فلما بلغ شابور أشده ، وقع « تير » الجسور وامته وبلده فريسة لأول ضربة من يد المحارب الصغير

الذى استغل ظفره فى مزيج حكيم من الشدة واللين ، الى حـد أنه استخلص من مخاوف العرب واعترافهم بحسن صنيعه لقب Dhoulacnaf « حامى الأمة » (ذو الأكناف) .

فى سنة ٣٤٠ هزم قسطنطين الثانى فى معركة اكويليا على يـد قسنتنز الذى أصبح حاكما على الغرب . واضطر قسطنتيوس حاكم الشرق الى مواجهة هجمات الفرس بقيادة شابور الثانى وكان غـزو الفرس لارمينيا تهـديدا لنمو المسـيحية فى الشرق ، وانقلب النصر فى سنجار سنة ٣٤٨ الى هزيمة ساحقة نتيجة الاهمال والغفلة . وقاومت نصيبين الحصار ثلاث مرات ، وتم الصلح فى سنة ٣٥٠ . وفى نفس العام تمكن ماجنتيوس من ازاحة قنستنز عن العرش ، على حين لبس فترانيو Vetranio الحلة الامبراطورية من قبل قسطنتيوس . واخيرا تغلب قسطنتيوس على ماجنتيوس فى مورسا فى وادى نهر الساف فى سنة ٣٥١ . وانتهى الأمر فى سنة ٣٥٣ بتولى قسـطنتيوس حـكم امبراطورية موحدة غير مجزاة .

الفصل التاسع عشر
(٣٥٥ - ٣٥٩ م)

عهد جوليان .. الادارة المدنية فى الغال

حبه لمدينة باريس

اتحدت ولايات الامبراطورية المجزاة ثانية بفضل انتصار قسطنتيوس ، ولكن هذا الأمير الضعيف كان خلوا من المزايا الشخصية سواء فى زمن السلم أو زمن الحرب ، ولما كان يخشى قواده ، ولا يثق فى معاونيه من الموظفين والنظار ، فان الانتصار العسكرى لم يجد الا فى تدعيم سلطان الخصيان فى العالم الرومانى . لقد دخلت هذه الكائنات التعسة ، التى هى من صنع الأحقاد والاستبداد فى الشرق ، الى اليونان وروما نتيجة لسريان عدوى البذخ الآسيوى اليهما . وكان تقدمهم سريعا ، فان هؤلاء الخصيان الذين كان ينظر اليهم فى عهد اوغسطس ، بين المقت والزراية بوصفهم حاشية مروعة لملكة مصر ، اجيز لهم الدخول شيئا فشيئا الى اسرات فضليات السيدات وشيوخ السناتو ، وبيوت الأباطرة انفسهم . وقد كبحت جماحهم القوانين الصارمة على عهد دوميتيان ونرفا ، ثم لقوا شيئا من التدليل والملاطفة على يد دقلديانوس وزهوه وكبريائه . ثم هبط بهم حرص قسطنطين الى وضع ذليل ، واخيرا تكاثر عددهم فى قصور ابنائه المنحلين ، وظفروا ، بطريقة غير محسوسة ، بالوقوف على خفايا مجالس قسطنتيوس السرية حتى انتهى بهم الأمر الى توجيهها . ويبدو أن نفور الناس من هذا النوع غير مكتمل الرجولة واحتقارهم له ، قد حط من اخلاق افراده ، وباتوا على الأغلب عاجزين ، كما هو مفروض فيهم ، عن الاحساس باية عواطف كريمة ، أو الاتيان باى عمل لائق . ولكن الخصيان برعوا فى افانين الملق والدسائس ، وسيطروا على عقل قسطنتيوس ، نتيجة مخاوفه تارة ، وغروره تارة أخرى . ونراه حين

وقع بصره فى المرآة الخداعة على المظهر الجميل ، ألا وهو مظهر الرخاء العام ، نراه أجاز لهم ، فى استهانة واستخفاف أن يقطعوا الطريق على شكاوى الولايات المنكوبة ، وأن يجمعوا ثروات ضخمة عن طريق الاتجار فى العدالة والوظائف ، وأن يمتهنوا كرامة أفاضــل القوم ، بترقية أولئك الذين يشترون على أيديهم مقاعد السلطة والقدرة عـلى العسف والجور ، كما أرخى لهم الحبل فصبوا لعنتهم على هذا النفر القليل من ذوى النفوس الأبية المستقلة الذين رفضوا فى كبرياء وشمم أن يحتموا فى ظل العبيد . وكان ألمع هؤلاء العبيد وأبرزهــم حاجب القصر يوسوبوس الذى سيطر بنفوذه المطلق على الامبراطور والقصر، حتى قال مؤرخ نزيه متهكما : « ان قسطنتيوس كان له بعض الحظوة لدى تابعه العزيز المتغطرس » . ونتيجة لآرائه الماكرة الخبيثة ، حمل الامبراطور على توقيع الحكم بالاعدام على جالوس المنكــود ، وأن يضيف بذلك جريمة جديدة الى ذلك الثبت الطويل من الاعدام غــير الطبيعى الذى لوث شرف بيت قسطنطين .

وعندما انقذ جالوس وجوليان ، ابنا عمومة قسطنطين من بطش الجنود ، كان عمر الأول اثنتى عشرة سنة ، والثانى ست سنوات ، وكان المظنون أن أكبرهما ضعيف البنية معتل الصحة ، فقد ظفروا دون صعوبة تذكر ، بالابقاء على حياته المزعزعة المفتقرة الى الرعاية ، من قسطنتيوس الذى تصنع الشفقة والرحمة ، والذى كان يدرى أن اعدام هذين اليتيمين البائسين قــد يعــده الجنس البشرى بأسره عمــلا من أشد أعمال القسوة المتعمدة . وخصصت عدة مدن فى ايونيا وبيثينيا لابعادهما وتعليمهما ، ولكن ما أن كبرا أو تقدمت بهما السنون حتى ثارت حفيظة الامبراطور ، ورأى انه من الأصح والأحكم أن يودع الشابين التعيسين قلعـــة ماسللوم Macellum المنيعة قرب قيصرية . وكانت المعاملة التى لقياها طوال ست سنوات فى السجن ، شيئا مما يتوقعان من وصى حريص ، وشيئا مما يتوجسان من طاغية مرتاب ، وكان ســجنهما عبارة عن قصر قديم كان مقر ملوك كابادوكيا ، ذا موقع جميل وبناء فخــم ومساحة واسعة . وهناك تابعا دراستهما ، ومارسا رياضتهما تحت اشراف أمهر المعلمين . وكان العدد الكبير من الخدم والأتباع الذين عينوا لخدمتهما ، أو قل لحراستهما والرقابة عليهما ، وهما ابنا عمومة قسطنطين ، يتناسب مع كرم محتدهما . ولكن ما كان لهما أن يخفيا عن نفسيهما ، أنهما حرما من الثروة والحرية والطمأنينة ، وأنهما حرما من الاجتماع بمن يمكن أن يكونوا موضع ثقتهما أو تقديرهما ، وقضى عليهما بأن يمضيا ساعاتهما الحزينة برفقة عبيد أخلصوا لأوامر طاغية

امعن فى ايذائهما الى حد لم يعد معه ثمة أمل فى المسالمة . ومهما يكن من شيء فقد اضطر الامبراطور ، بضغط من ضرورات الحكم ، أو قل بتأثير الخصيان ، الى منح جالوس — وكان فى الخامس والعشرين من عمره — لقب « قيصر » ، والى أن يعزز هذه العلاقة السياسية بزواجه من الأميرة قسطنطينا . وبعد لقاء رسمى تبادل فيه الأميران العهود والمواثيق على الا يلحق أحدهما بالآخر أى أذى ، عاد كل منهما دون ابطاء الى مقره . فتابع قسطنتيوس سيره الى الغرب ، واتخذ جالوس مقرا له فى أنطاكية ، ومنها — بمقتضى السلطة المخولة له ، تولى حكم الأقسام الخمسة الكبيرة التى تتكون منها الدولة الشرقية . وفى هذا التحول السعيد ، لم يتخل القيصر الجديد عن التفكير فى أخيه جوليان ، الذى حظى بأمجاد مرتبته ، كما حظى بمظاهر الحرية ، وظفر باسترداد ميراثه الكبير .



واثبت جالوس انه غير صالح للحكم ، فقتل . اما جوليان الذى لم يتجه اليه التفكير أصلا ليكون امبراطورا ، فقد حنكته التجارب وازدادت قوته يوما بعد يوم ، واعلن ((قيصر)) فى سنة ٣٥٥ ، وتولى الدفاع عن الغال ضد هجمات الألمان والفرنجة ، فى الوقت الذى كان فيه قسطنتيوس مشغولا فى جبهة الدانوب ، وانصرف فى الحال الى بناء مدن الغال من جديد واستعادة الحياة فيها ، ((وهذا عمل اكثر التئاما مع طباعه الانسانية والفلسفية)) .

ادارة جوليان المدنية فى الغـــال

كان الاهتمام بتوفير السلام والسعادة لرعاياه هو القاعدة الذهبية التى وجهت ادارة جوليان . وكان يخصص أوقات الفراغ فى ربوعه الشتوية لأعمال الادارة المدنية ، فتظاهر بانه يجد لذة فى شخصية الحاكم والقاضى اكثر مما يجد فى شخصية القائد . وأحال قبل ان يذهب الى القتال على حكام الولايات معظم القضايا العامة والخاصة التى كانت قد رفعت الى محكمته ، حتى اذا عاد راجع كل اجراءاتهم فيها مراجعة دقيقة ، وخفف من صرامة القوانين ، وأصدر حكما ثانيا على القضاة أنفسهم . لقد تسامى جوليان فوق أقصى تجربة لأطهر العقول ، وتلك غيرة متطرفة متهورة على العدالة . ومن ثم خفف ، فى هدوء ووقار ،

من حدة المدعى الذى كان يقاضى رئيس ولاية ناربون ، بتهمة ابتزاز الأموال : قال دلفيديوس العنيف متعجبا : « اذا كان الانكار يكفى للتبرئة ، فمنذا الذى سيكون مذنبا ؟ » فأجاب جــوليان : « اذا كان مجرد توكيد التهمة كافيا للادانة فمنذا الذى ســيكون بريئـــا ؟ » . وكانت مصلحة الملك فى زمن السلم والحرب هى بعينها مصلحة شعبه عامة . ولكن ربما كان من الجائز أن يشعر قسطنتيوس بأبلغ الأذى اذا كانت فضائل جوليان قد حرمته من أى قدر من الحريــة التى كــان ينتزعها من أى بلد مرهق منهوك . وربما عمد الأمير الذى زود بكــل شعارات الملكية الى تقويم السفاهة الجشعة فى عماله الذين هم أقل منه مرتبة ، وفضح أساليبهم الفاسدة ، وادخال نظام موحــد أكثر يسرا لجباية الأموال . ولكن ادارة الأموال كانت موكولــة بطريقــة أدعى للطمأنينة الى فلورنشيوس ، الوالى البريتورى على بلاد الغال ، وكان طاغية مخنثا لا يستشعر الرحمة ولا يحس بتأنيب الضمير ، وكــان الناظر المتغطرس يشكو المعارضة الهادئة المهــذبة ، على حــين أن جوليان نفسه كان على الأرجح يميل الى لومه على سوء تصرفه . وكان القيصر قد رفض فى مقت وازدراء قرارا قدمه اليه الوالى لتوقيعــه ، بفرض ضريبة استثنائية أو اضافة جديدة ، وأغضبت تلك الصــورة الصادقة لبؤس الشعب ، والتى اضطر القيصر الى أن يبرر بها أسباب رفضه توقيع القرار ، أغضبت حاشية قسطنطين . وقد نجد لذة فى قراءة مشاعر جوليان التى عبر عنها فى حرارة وحرية فى رسالة بعث بها الى أحد أصدقائه المقربين ، فهو يقول فيها ، بعــد أن أوضــح تصرفه : « وهل كان يجوز لتلميذ أفلاطون وأرسطو أن يفعل غير هذا ؟ وهل كان يمكن أن أتخلى عن هؤلاء الرعـــايا التعســاء الذين وليت أمرهم ؟ ألم أدع لحمايتهم من هذا الايذاء المتكرر الذى يلاحقهم به هؤلاء اللصوص جامدو الاحساس ؟ ان التربيون الذى يتخــلى عــن واجبه يعاقب بالموت ، ويدفن دون احتفال أو مراسم فبأية صورة من صور العدالة أستسيغ النطق بالحكم عليــه ، اذا أهملت أنا نفسى ســاعة الخطر واجبا أكثر قداسة ؟ لقد وضعنى الله فى هذا المكان السامى ، ترعانى وتحرسنى عنايته . واذا قدر على أن أعانى وأقاسى ، فلسوف أستمد الراحة والعزاء من شهادة ضمير نقى مستقيم ، كم تمنيت لو كان لدى مستشار من طراز سللوست Sallust ؟ واذا رأوا من الخير ان يرسلوا الى خلفا ، فلسوف أتقبل هذا راضيا . وانى لأوثر أن أنتهز الفرصة القصيرة لفعل الخير ، على أن أنعم طويلا ودائما بارتكــاب الرذيلة والسوء دون حساب أو عقاب » . والحق ان المركز المزعزع التابع الذى وضع فيه جوليان أظهر مناقبه وأخفى نقائصه . ان البطل

الصغير الذى دعم عرش قسطنتيوس فى الغال لم يمكن من اصلاح مساوىء الحكومة ، ولكنه أوتى من الجرأة والشجاعة ما تمكن معه من تخفيف ضائقة الشعب ، أو الاشفاق عليه . وما لم يؤت القدرة على احياء الروح الحربية فى الرومان ، أو على بعث فنون الصناعة والعمل ، وأساليب التهذيب والثقافة بين أعدائهم الهمجيين ، ما كان فى مكنته أن يعلل نفسه بأى أمل معقول فى تحقيق الهدوء العام ، لا بمسالمة ألمانيا ولا بغزوها . على أن انتصارات جوليان أوقفت لفترة قصيرة غارات المتبربرين ، وأجلت سقوط الامبراطورية الغربية .

جوليان ومدينة باريس

أعاد جوليان ، بتأثيره الناجع ، مدن الغال الى سابق عهدها ، بعد أن ظلت ردحا طويلا من الزمن عرضة لمساوىء الاضطرابات الأهلية ، وحروب المتبربرين ، والطغيان الداخلى ، وانتعشت روح الاقبال على العمل أملا فى المتعة والتنعم ، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة ثانية تحت حماية القوانين . وزخرت الهيئات المدنية مرة أخرى بالأعضاء النافعين الموقرين . ولم يعد الشباب يخشى الزواج ، كما لم يعد المتزوجون يخافون العيلة وكثرة الأولاد . وأقيمت الأعياد العامة والخاصة بمثل بهائها المعهود ، وتجلى الرخاء الوطنى ورغد العيش فى كثرة الاتصالات الآمنة بين الولايات . ولابد أن قلبا مثل قلب جوليان قد أحس بالسعادة التى غمرت الجميع ، والتى كان هو مبدعها ومنشئها . الا أنه كان ينظر بارتياح وغبطة بنوع خاص الى مدينة باريس مقره الشتوى ، وموضع حبه وتعلقه بصفة خاصة . وكانت هذه العاصمة الفخمة مقصورة أول الأمر على تلك الجزيرة الصغيرة فى وسط نهر السين ، ولكنها أصبحت الآن تشغل مساحة شاسعة على جانبى النهر الذى استمد منه سكانها زادا عظيما من الماء النقى الصحى . وكانت مياه النهر تلاطم قاعدة الأسوار ، وكان الوصول الى المدينة يتم عن طريق جسرين خشبيين . وكانت الغابات تغطى الجانب الشمالى من السين . أما فى الجنوب فان الأرض ، التى تحمل الآن اسم « الجامعة » ، امتلأت بالدور والمنازل ، بطريقة غير ملحوظة ، كما ازدانت بقصر وملعب مدرج ، وحمامات ، وقناطر تحمل المياه ، وساحة اله الحرب مارس لتدريب الجند الرومان . ولطف قرب المحيط من تطرف المناخ . وزرعت الكروم وأشجار التين ، مع بعض التحوطات التى أملتها التجربة . ولكن السين ، فى أعوام مشهودة كان يتجمد

فى الشتاء الى درجة كبيرة ، حتى جاز لأحد الآسيويين أن يقارن كتل الجليد السابحة فوق المجرى بكتل الرخام الأبيض التى كانت تقطع من محاجر فريجيا (فى آسيا الصغرى) . وقد أعاد الفجور والفساد فى أنطاكية ، الى ذهن جوليان ذكرى الخلق الصارم البسيط فى لوتيشيا الأثيرة لديه (Lutetia ، باريس الحالية) حيث كانت متعة المسرح غير معروفة أو محتقرة فقابل فى غيظ وحنق ، بين السوريين المترفين وبين البساطة المقترنة بالأمانة والبسالة فى أهل الغال ، وأغلب الظن أنه غفر للكلتيين الوصمة الوحيدة فى خلقهم ، ألا وهى الافراط والبعد عن الاعتدال . ولو أن جوليان عاد اليوم لزيارة عاصمة فرنسا لاستطاع التحدث الى رجال من العلماء والعباقرة قادرين على استيعاب ما يقوله ربيب الفلسفة اليونانية ، وربما غفر الهفوات المتسمة بالبهجة والظرف، فى أمة لم يوهن الانغماس فى الترف من روحها العسكرية ، ولكان لزاما عليه أن يمتدح سمو الفن الرفيع الذى يلطف مجرى الحياة الاجتماعية ويهذبه ، ويضفى عليه بهاء وجمالا .

الاعتراف بالمسيحية وبداية الهرطقة

الفصل العشرون
(٣٠٦ - ٣٣٧ م)

تحـول قسطنطين الى المسيحية

مرسوم التسامح الذى أصدره رؤياه وتعمده · اقرار المسيحية بمقتضى القانون · التفريق بين السلطتين الروحية والزمنية

يعتبر الإقرار العام للمسيحية ، ثورة من أخطر الثورات الداخلية التى تثير أشد الفضول حيوية وتلقن اقيم الدروس . وان انتصارات قسطنطين أو سياسته الداخلية لم تعودا تؤثران فى حالة أوربا ، ولكن ما يزال جزء كبير من الكرة الارضية محتفظا بالأثر العميق الذى أحدثه تحول ذلك العاهل الكبير الى المسيحية ، وما تزال أفكار الجيل الحاضر وعواطفه ومصالحه ترتبط ارتباطا لا تنفصم عـراه بالنظـم الكنسية على عهده .

وقد تنشأ عند التعرض لبحث موضوع يعالج فى نزاهة وتجرد ، ولكن لا يمكن تناوله بغير اكتراث — قد تنشأ على الفور صعوبة ذات طبيعة غير متوقعة ، تلك هى التاريخ الحقيقى الدقيق لتحول قسطنطين، ويبدو الخطيب المفوه لكتانتيوس وسط حاشيته متعجلا فى أن يعـلن الملأ القدوة الحسنة للملك الفال الذى اعترف منذ اللحظة الأولى من حكمه بالاله الواحد الحق وعبده . أما العلامة يوسوبوس فانه نسب ايمان قسطنطين الى الاشارة الخارقة التى ظهرت فى السماء بينما كان قسطنطين يفكر فى الحملة الايطالية ويعد لها العدة . ولكن المـؤرخ زوسيموس Zosimus يؤكد فى خبث أن الامبراطور كان قد غمس يديه فى دم أكبر أبنائه قبل أن يعلن نبذه لمعبودات روما وآلهة أجداده . والحق أن حيرة هؤلاء الثقات المتناقضين نشـأت من سـلوك قسطنطين نفسه . وتمشيا مع دقـة التعبيـر الكنسى ، فـان أول الأباطـرة « المسيحيين » لم يكن يستحق هذا اللقب الا حين كان يلفظ أنفاسـه الأخيرة ، حيث انه فى مرضه الأخير تلقى مبادىء التعاليم المسيحيـة

فوضع الأسقف يديه على رأسه ليباركه ، ثم دخل ، بعد اجراء الطقوس الأولية للتعميد ، فى عداد المؤمنين . ويجدر أن يؤخذ تنصير قسطنطين بمعنى أكثر غموضا وتقييدا . ولابد من التزام منتهى الدقة فى تعقب التدرج البطىء ، بل غير المحسوس فى الغالب ، الذى انتهى باعلان هذا العاهل نفسه حاميا للكنيسة ، وفى آخر الأمر مهتديا اليها . لقد كان من الأعباء الشاقة عليه أن يمحو ما تلقن من عادات وآراء ، وأن يعترف بالقوة الالهية للمسيح ، وأن يدرك أن صدق الوحى الذى نزل على المسيح لا يلتئم مع عبادة الآلهة ، ولقد علمته التأملات المضنية التى يحتمل أنها شغلت ذهنه ، أن يسير بخطى وئيدة حذرة فى تغيير الديانة الوطنية ، وهو تغيير له خطره واهميته ، ثم اكتشف — دون أن يشعر — آراءه الجديده بالقدر الذى استطاع به أن يطبقها تطبيقا مأمونا فعالا . ولقد تدفق طوال سنى حكمه ، تيار المسيحية فى حركة هادئة ، ولو أنها فى نفس الوقت سريعة الخطى . ولكن الظروف الطارئة آنذاك ، وحذر الحاكم ، ان لم تكن نزواته — عوق تارة ، وانحرف تارة أخرى ، بالاتجاه العام لهذه الحركة ، وابيح لنظاره ومعاونيه أن يصوغوا نوايا سيدهم فى العبارات التى تلتئم أحسن ما تلتئم مع مبادىء كل منهم . ووازن هو فى دهاء بين آمال رعاياه وبين مخاوفهم ، بأن أصدر فى العام نفسه مرسومين ينص فى الأول على الاهتمام الشديد بيوم « الأحد » ، على حين يحض المرسوم الثانى على استشارة العرافين والدجالين . وبينما كان هذا الانقلاب الخطير يتأرجح فى يد القدر ، كان المسيحيون والوثنيون يرقبون سلوك مليكهم بنفس القدر من القلق ، ولو اختلفت مشاعر كل فريق عن مشاعر الفريق الثانى . فاندفع المسيحيون بباعث الغيرة والغرور مما يبالغون فى أية بادرة من علائم عطفه أو شواهد ايمانه . أما الوثنيون فقد حاولوا أن يخفوا عن العالم وعن أنفسهم ان الامبراطور لم يصبح بعد فى عداد اتباع آلهة روما ، الى أن تحول مجرد تخوفهم الى يأس واستياء . وتنازعت نفس المشاعر والأهواء قلوب الكتاب المتحيزين فى تلك الأيام : فتراهم يربطون الاعتراف العلنى بالمسيحية بأزهى الفترات فى حكم قسطنطين أو بأبغضها .

ومهما بدا فى أحاديث قسطنطين أو تصرفاته من مظاهر التقوى المسيحية ، فانه ثابر ، حتى قارب الاربعين من العمر ، على ممارسة الديانة القائمة . وان نفس السلوك الذى كان من الجائز ارجاعه الى خوفه وهو فى نيقوميديا ، يمكن نسبته فقط الى ميل ملك الغال أو الى سياسته . وبفضل سخائه جددت وزينت معابد الآلهة ، ونقشت على

الميداليات التى صدرت عن دار السك الامبراطورية صور جوبيتر وأبولو ومارس وهركيوليز ، وزاد ورعه البنوى من مكانة مجمع أولمبس ، الذى رفع ، فى مهابة ووقار ، والده قسطنتيوس الى مصاف الآلهة . ولكن تعبد قسطنطين كان يتجه بصفة خاصة الى عبقرية الشمس ، أى أبولو فى الأساطير اليونانية والرومانية ، وكان يسعده ويسره أن يمثلوه برموز اله النور والشعر . فان سهام هذا المعبود التى لا تخطىء ، وبريق عينيه واكليل الغار الذى يتوجه ، وجماله الخالد ومنجزاته اللطيفة — كل هذه الصفات هيأته ليكون حامى البطل الصغير . وقد زخرت مذابح أبولو بما قدم قسطنطين من قرابين ونذور ، وأدخل فى روع الجمهور الساذج أن يؤمن بأن الامبراطور قد أجيز له أن يبصر بعينيه الفانيتين العظمة المرئية البارزة فى معبودهم المحلى ، وأنه قد سعد ، فى يقظته أو فى رؤياه ، بفأل حسن ، يبشر بعهد طويل يكلله النصر والظفر ، واشتهر اله « الشمس » فى كل مكان بأنه المرشد والحامى الذى لا يقهر للامبراطور قسطنطين . وربما توقع الوثنيون بحق ، أن الاله الذى أسىء اليه لابد أن يتوعد بالانتقام الشديد من زيغ تابعه الجاحد .

وطالما مارس قسطنطين سيادة محدودة فى ولايات الغال ، كان يحمى رعاياه المسيحيين سلطان ، وربما قوانين أمير اقتضت حكمته أن يترك للالهة امر تثبيت مكانتهم وشرفهم . واذا جاز لنا أن نصدق توكيدات قسطنطين نفسه ، فانه كان يرقب فى استياء وسخط أعمال القساوة الغاشمة التى اقترفتها أيدى الجنود الرومان مع المواطنين الذين لم يكن لهم من ذنب الا عقيدتهم (١) . لقد لمس فى الشرق وفى الغرب الآثار المتباينة للعنف وللتسامح . ولما بات العنف ابغض وأشد مقتا لأنه تمثل فى شخصية عدوه العنيد جالريوس ، فقد آثر التسامح اقتداء بوالده المتوفى واتباعا لمشورته . فأوقف ابن قسطنتيوس على الفور قوانين الاضطهاد أو الغاها ، ومنح حرية ممارسة الشعائر الدينية لكل الذين اعلنوا فعلا عن اعتناقهم المسيحية . وسرعان ما تشجعوا على الاعتماد على عطف وعدالة العاهل الذى أكن لاسم المسيح ، ولاله المسيحيين اجلالا خفيا خالصا .

---

(١) ولكن من الميسور ايضاح ان المترجم اليونانى قد حسن الأصل اللاتينى ، وربما تذكر الامبراطور الشيخ اضطهاد دقلديانوس ، فأحس بمقت وازدراء اكثر مما أحس به بالفعل فى ايام صباه ووثنيته .

مرســـوم التســـامح

بعد نحو خمسة أشهر من فتح ايطاليا أعلن الامبراطور اعلانـــا صادقا أصيلا عن عواطفه فى « مرسوم ميلان » المشهور . الذى أعاد السلام والهدوء الى الكنيسة الكاثوليكية . وفى لقاء شخصى بين أميرى الغرب ، حصل قسطنطين ، بفضل تفوقه فى الذكاء والقــوة ، على موافقة فورية من زميله ليسينيوس ، وقضى اتفاقهما واشتراكهمـــا فى التوقيع وسلطانهما على غضب مكسيمين ، وبعد وفاة طاغية الشرق، استقبل مرسوم ميلان على أنه قانون عام أساسى من قوانين العـــالم الرومانى .

واقتضت حكمة الامبراطورين رد كل الحقوق الدينية الى المسيحيين الذين كانوا قد حرموا منها ظلما وعدوانا . ونص على أن تعـــاد الى الكنيسة كل أماكن العبادة والأراضى العامة المصادرة دون نقـــاش أو ابطاء أو نفقة . واقترن هذا الانذار الصارم بوعد كريم يقضى بـــان يدفع للمشترين الذين كانوا قد دفعوا ثمنا مناسبا كافيا ، تعويض من الخزانة الامبراطورية . وصيغت هذه القواعد الناجعة التى تصـــون مستقبل الهدوء بين المؤمنين فى اطار مبادىء التسامح ، مع التوســـع والمساواة فيه . ولابد أن الطائفة الجديدة قد فسرت هذه المساواة بأنها امتياز نافع مشرف . ويعلن الامبراطوران الى العالم انهما منحا المسيحيين الآخرين وغيرهم سلطة حرة مطلقة فى اعتناق أية عقيدة يرى الفرد من الأوفق له أن يؤثرها ، أو أنه وهبها عقله ونفسه ، أو انها أصلـــح ما يمكنه أن يمارس . وحرصا على توضيح كل لفظ مبهم ، واستبعاد أى استثناء ، وعلى مطالبة حكام الولايات بالالتـــزام الدقيـــق بالمعنى الحقيقى البسيط لمرسوم شرع لاقرار دعوى الحرية الدينية وتأمينهـ بلا حدود . وتفضلا بتحديد سببين هامين اقنعاهما بإباحة هذا التسامح العام الشامل : أولهما المقاصد الانسانية التى تستهدف أمن شعبهما وسعادته ، والثانى أملهما الموسوم بالتقى والورع فى أنهما بهذا العمل قد يهدئان اله السماء ويرضيانه . ويعترفان شاكرين بالشواهد العديدة الفريدة للعطف الالهى . ويثقان بأن العناية الالهية ذاتها سوف تظل تصون رخاء الأمير ورخاء شعبه . ويمكـــن أن يستخـلص من هـــذه "التعبيرات الغامضة غير المحددة المتســـمة بالتقـــوى والورع ثلاثـــة افتراضات ذات طبيعة مختلفة ، ولكنها ليست متنافرة . فلربما تأرجح عقل قسطنطين بين الديانتين الوثنية والمسيحية ، أو ربمـــا اعترف ، تمشـــيا مع الآراء الفضفاضة الطيعـــة فى مذهب الشرك ، بأن (الـــه

المسيحيين واحد من بين الأرباب الكثيرين الذين يشـــكلون حـكومة السماء . أو ربما اعتنق الفكرة الفلسفية السارة ، التى تقول بأنه رغم تعدد الأسماء والشعائر والآراء ، فان كل شيع الجنس البشرى وأممه متفقون فى عبادة الأب المشترك للكون وخالقه ....

وكثيرا ما تتأثر آراء الأمراء بنظراتهم الى المنافع الدنيوية أكثر من تأثرها باعتبارات من الحقيقة المجردة النظرية . وقد يكون من الطبيعى ارجاع عطف قسطنطين المتزايد المتحيز الى تقديره لأخلاق المسيحيين والى اقتناعه بأن انتشار الانجيل يستتبع بالضرورة التمسك بالفضائل الخاصة والعامة . ومهما يكن من موقف أى حاكم مطلق فى تصرفـــاته الخاصة ، ومهما يكن من أمر انغماسه فى أهوائه أو افســـاح المجال لعواطفه ، فان من مصلحته ، دون ريب ، أن يحترم رعاياه الالتزامات الطبيعية والمدنية فى المجتمع . ولكن اثر اعمال أحكم القوانين ناقص معيب مزعزع ، لأنها ، أى القوانين ، قل أن تـــوحى بالفضـــيلة ، ولا تستطيع دوما أن تحد من الرذيلة . وليس لها من القـــوة الكافية ما يردع عن ارتكاب كل ما تعاقب عليه ، كما أنها لا تستطيع فى كل الأحوال أن تعاقب كل ما تحرمه . وقد أهاب المشرعون القدامى بقوى التعليم والرأى لمعاونتهم . ولكن كل مبدأ كان له يوما أثره فى المحافظة على نضارة ونقاوة روما واسبرطة ، انطفأت جذوته منذ زمن طويل فى كنف امبراطورية استبدادية متداعية . وظل للفلسفة سلطانها الرقيق على العقل الانسانى ، ولكن قضية الفضيلة لم يكن لها من خرافـــة الوثنية الا سند هزيل واه . وربما حق للحاكم الفطن ، فى هذه الظروف المثبطة ، أن يغتبط ويبتهج اذ يرقب تقدم ديانة نشرت بين النـــاس أسلوبا نقيا خيرا عاما من الأخلاق ، أسلوبا صالحا لكل واجب وكل ظرف من واجبات الحياة وظروفها ، أسلوبا تواضعوا به على أنه يمثل ارادة « الاله الأعظم » ومنطقة ، وفرضوه بضمان الثواب أو العقاب الأبديين . ولم تستطع تجربة التاريخ اليونانى والرومانى أن تبين للعالم كيف يمكن اصلاح الخلق الوطنى أو تهذيبه بتعاليم الوحى الالهى ، وربما أصغى قسطنطين ، فى شىء من الثقة ، الى توكيدات لكتانتيوس المتملقة ، ولكنها المعقولة حقا، فان هذا المدافع المفوه الفصيح ، فيما يبدو ، توقع ، أو على الأرجح جرؤ على أن يعد ، بأن اقرار المسيحية سوف يجدد براءة العصور البدائية وهناءتها ، وأن عبادة الاله الحق سوف تخمد الحروب والفتن بين من يعتبرون أنفسهم على قدر ســـواء أبناء أب واحد مشترك بينهم ، وأن أية رغبة جامحة وأيـــة عاطفـــة أنانية ثائرة سوف تحد منها وتخفف من غلوائها المعرفة بالانجيل ، وأن

الحكام سوف يغمدون سيف العدالة وسط شعب تحركه كله مشاعر الصدق والتقوى والانصاف والاعتدال والانسجام والمحبة الشاملة .

ولابد أن الطاعة السلبية العمياء التى تخضع لنير السلطة ، بل حتى للظلم والجور ، قد بدت لعينى الحاكم المستبد المطلق أبرز الفضائل الانجيلية وانفعها . ان المسيحيين الأولين لم يستمدوا نظم الحكومة المدنية من رضا الشعب وموافقته ، بل استمدوها من قوانين السماء . وعلى الرغم من أن الامبراطور الحاكم كان قد اغتصب التاج عن طريق الخيانة والقتل ، فانه انتحل على الفور الشخصية المقدسة ، أى شخصية نائب الله فى الأرض . وكان أمام الله وحده محاسبا على سوء استغلال سلطته ، وكان رعاياه مرتبطين ارتباطا لا تنفصم عراه ، بعهد الاخلاص لطاغية انتهك حرمة كل قوانين الطبيعة والمجتمع . وخرج المسيحيون المتواضعون الى الدنيا وكأنهم حملان بين ذئاب ، ولما كان من غير الجائز لهم أن يستخدموا القوة حتى فى سبيل الدفاع عن عقيدتهم ، فانه يظل من اكبر الوزر أن تغريهم الامتيازات العقيمة او المتاع الدنىء فى الحياة العابرة ، بسفك دماء أقرانهم . وايمانا منهم بنظرية احد الحواريين الذى بشر فى عهد نيرون بواجب الامتثال غير المشروط ، ظلت ضمائر المسيحيين فى القرون الثلاثة الأولى نقية من اوزار المؤامرات السرية أو التمرد العلنى . وفى الوقت الذى عانوا فيه من بطش الاضطهاد ، لم يستفزهم شىء قط الى امتشاق الحسام فى وجه حاكمهم الطاغية ، ولم ينفروا ساخطين قط الى اى ركن قصى منعزل فى الكرة الأرضية . ان البروتستانت فى فرنسا وانجلترا والمانيا ، أولئك الذين اكدوا فى جراة وبسالة حريتهم المدنية والدينية ، قد أسىء اليهم بالمقارنة المثيرة الحاقدة بين سلوك المسيحيين الأولين وسلوك المسيحيين دعاة الاصلاح الدينى . وربما كان جديرا بنا عوضا عن اللوم والتانيب ، أن نمتدح ذلك المعنى السامى وتلك الروح العالية فى أسلافنا البروتستانت دعاة الاصلاح ، الذين اقتنعوا بأن الدين لا يمكن أن يلغى الحقوق الأساسية التى أقرتها الطبيعة البشرية . وربما جاز أن ننسب صبر الكنيسة الأولى الى ضعفها والى روح الفضيلة فيها على حد سواء . فان طائفة من العامة غير المحاربين ، بل قادة ، وبلا سلاح وبلا تحصينات ، كان لزاما أن تواجه دمارا محققا محتوما ، اذا هى اندفعت فى مقاومة يائسة عقيمة لسيد الجيوش الرومانية . ولكن المسيحيين ، حين اثاروا غضب دقلديانوس أو التمسوا عطف قسطنطين ، استطاعوا ان يزعموا فى صدق وثقة ، أنهم التزموا مبدأ الطاعة السلبية ، وأن سلوكهم فى مدى ثلاثة قرون كان دائما منسجما

مع مبادئهم . وربما أضافوا الى هذا أن عرش الأباطرة يمكن ان يرتكز على أساس متين ثابت اذا تعلم كل رعاياهم الذين يعتنقون المسيحية ، أن يحتملوا ويمتثلوا .

ان الأمراء والطغاة ليعتبرون ، وفقا للنظام العام « للعناية الالهية»، بمثابة وزراء للسماء ، عينوا ليحكموا وينزلوا القصاص بأمم الأرض . ولكن التاريخ المقدس يزودنا بأمثلة رائعة لتدخل الله بطريق أقرب لأن يكون مباشرا فى حكومة شعبه المختار ، فقد أودع الصولجان والسيف بين يدى موسى ويشوع ، وجدعون وداود — من المكابيين Maccabees وكانت فضائل هؤلاء الأبطال حافزا للعطف الالهى أو نتيجة له ، وقدر لنجاحهم فى الحرب أن يحقق خلاص الكنيسة أو انتصارها . واذا كان قضاة اسرائيل حكاما طارئين مؤقتين ، فان ملوك يهوذا اقتبسوا من المسحة الملكية لسلفهم العظيم حقا وراثيا لا يمس ، ولا يمكن أن تفقدهم اياه رذائلهم ، أو تبطله نزوات رعاياهم . وربما اختارت « العناية الالهية » نفسها ، التى لم تعد قصرا على الشعب اليهودى — اختارت قسطنطين وأسرته ليكونوا حماة العالم المسيحى . وراح لكتانتيوس الناسك المتعبد يعلن فى نبرات رسولية ، المجد الذى سوف يتألق فى سماء حكمه المديد الذى سيعم العالم . وكان جاليريوس ومكسيمين ومكسنتيوس وليسينيوس منافسين شاركوا « حبيب السماء » ولايات الامبراطورية . وسرعان ما أرضت مأساة موت كل من جاليريوس ومكسيمين سخط المسيحيين ، وحققت تمنياتهم الدموية . وأزاح تغلب قسطنطين على مكسنتيوس وليسينيوس ، عن طريقه مزاحمين عنيدين ظلا يعارضان انتصار « داود الثانى » . وربما ادعت قضيته ، فيما يبدو ، أن العناية الالهية قد تدخلت فيها وباركتها بصفة خاصة . لقد لوثت شخصية الطاغية الرومانى الخلة الامبراطورية والطبيعة البشرية . وربما تمتع المسيحيون بعطفه المتقلب ، ولكنهم كانوا رغم ذلك معرضين ، مع سائر رعاياه ، لآثار نزقه وقسوته الغاشمة . وسرعان ما فضح سلوك ليسينيوس أنه كان قد وافق ، وهو كاره على القواعد الحكيمة الانسانية التى تضمنها مرسوم ميلان : فقد حرم فى ممتلكاته اجتماعات المجالس الكنسية فى الولايات ، وعزل موظفيه المسيحيين بشكل مقيت ، واذا كان قد تفادى وزر — أو قل خطر الاضطهاد العام ، فان مظالمه ستظل أبشع وأشنع بانتهاكه التزاما رسميا وافق عليه طواعية واختيارا . وبينما كان الشرق — على حد التعبير الحماسى الذى ذكره يوسوبوس — يتعثر فى دياجير ظلام خبيث ، بعثت اشعة الأنوار السماوية الدفء فى ولايات الغرب

واضاءت جوانبها . وقد اعتبر ورع قسطنطين دليلا كاملا على عدالة أسلحته ، وأكد استغلاله للنصر رأى المسيحيين فى أن بطلهم كان يتصرف بالهام وتوجيه من « رب الحشود » ، لقد انبثق عن غزو ايطاليا مرسوم عام للتسامح ، وما أن تفرد قسطنطين ، بعد هزيمة ليسينيوس ، بالسلطان فى دنيا الرومان ، حتى بعث بكتب دورية الى كل الأقاليم يحض فيها جميع رعاياه على أن يقتدوا ، دون ابطاء بمليكهم ، وأن يؤمنوا بالحقيقة الالهية ويدخلوا فى المسيحية .

وولد الاعتقاد الراسخ بأن اعتلاء قسطنطين العرش مرتبط ارتباطا وثيقا بالتدبيرات الالهية — ولد فى عقول المسيحيين رايين ساعدا بوسائل مختلفة على تحقيق النبوءة . فاستنفد ولاؤهم الجاد الحار كل جهد انسانى فى سبيل نصرته ، وتوقعوا عن يقين أن الله سوف يؤيد جهودهم بعون خارق من عنده . أما أعداء قسطنطين فقد عزوا هذا التحالف الذى عقده بطريقة غير ملحوظة مع الكنيسة الكاثوليكية ، والذى ساعد على تحقيق أطماعه ، الى دوافع غير نزيهة تتفق مع مصلحته هو ، وفى أوائل القرن الرابع كانت نسبة عدد المسيحيين الى مجموع سكان الامبراطورية لا تزال ضئيلة ، ولكن ربما ساعدت روح الطائفة الدينية ووحدتها — وسط شعب منحل نظر الى تغير حكامه بلا مبالاة كما يفعل العبيد — نقول ربما ساعدت هذه الروح القائد المحبوب الذى وضعت الطائفة ، بوحى من ضمائرها ، حياتها وأموالها فى خدمته . وكانت لقسطنطين فى أبيه أسوة حسنة ، حيث تعلم منه أن يقدر شمائل المسيحيين ويكافئهم عليها . وتهيأت له فوق ذلك ميزة تقوية حكومته باختيار نظار أو قادة يمكن أن يثق فى اخلاصهم ثقة حقة لا حدود لها . وكان لزاما ، بفضل نفوذ هؤلاء الرجال أن يتضاعف عدد المهتدين الى العقيدة الجديدة فى البلاط والجيش ، وكان المتبربرون الألمان الذين ملأوا مختلف مراتب الجيش ، يتميزون بقدر من الغفلة والخفة تقبلوا معه ديانة قائدهم دون مقاومة ، ويمكن القول فى انصاف ان عددا كبيرا من الجنود ، عندما عبروا جبال الألب ، قد وضعوا أسلحتهم فى خدمة المسيح وخدمة قسطنطين . وخففت طبائع البشر وبواعث الدين ، يوما بعد يوم من أهوال الحرب وسفك الدماء ، التى سادت بين المسيحيين زمنا طويلا . وفى المجالس التى انعقدت تحت حماية قسطنطين استخدم الأساقفة فى الوقت المناسب سلطانهم لاقرار اليمين العسكرية ، وانزال عقوبة الحرمان من رحمة الكنيسة باولئك الجنود الذين القوا سلاحهم حين ساد الهدوء الكنيسة . وفى الوقت الذى زاد فيه قسطنطين ، فى نطاق ملكه ، من عدد اتباعه

ومن غيرتهم وحماسهم ، كان يستطيع أن يعتمد على تأييد حزب قوى فى الولايات التى ظلت بعد تحت حكم منافسيه ، أو تلك التى اغتصبوها ، وسرى شعور خفى بالبغض والنفور بين رعايا مكسنتيوس وليسينيوس المسيحيين . ولم يجد الغيظ الذى لم يحاول الأخير أن يخفيه ، الا فى زيادة انحيازهم الى جانب غريمه . واستطاع الأساقفة ، بفضل المراسلات المنتظمة التى ربطت بين بعضهم بعضا فى أقصى الولايات ، أن ينقلوا ، فى حرية تامة ، رغباتهم وخططهم ، وأن يوصلوا — دون ما خطر — أية أنباء مفيدة أو أية تبرعات ورعة ، يمكن أن تدعم مركز قسطنطين الذى أعلن جهارا أنه قد امتشق الحسام من أجل خلاص الكنيسة .

رؤيا قسطنطين

زاد الحماس الذى غمر الجنود — وربما غمر الامبراطور كذلك — من حدة سيوفهم وقوة سلاحهم ، كما أثلج صدورهم وأرضى ضمائرهم . فتقدموا الى المعركة ، وهم على يقين تام من أن الله الذى شق من قبل للاسرائيليين طريقا عبر مياه الأردن ، وحطم أسوار أريحا أمام صوت أبواق يشوع — لابد أن يكشف للعيان عن عظمته وقوته فى انتصار قسطنطين . ان شواهد تاريخ الكنيسة مستعدة التأكيد بأن تمنياتهم بررتها المعجزة البارزة التى ينسب اليها الجميع تقريبا تحول أول امبراطور الى المسيحية . وان السبب الحقيقى أو الخيالى لمثل هذا الحدث الجليل الخطر ، ليستحق ويتطلب اهتمام الأجيال القادمة . وسأحاول أن أكون تقييما صادقا لرؤيا قسطنطين المشهورة بدراسة متميزة للراية وللحلم وللعلامة السماوية ، عن طريق الفصل بين الجوانب التاريخية والطبيعية والخارقة أو المعجزة فى هذه القصة الغريبة ، التى مزجت فى دهاء فى كتلة ضخمة هشة ، رغبة فى صياغة حجة خداعة حسنة المظهر .

١ — أصبحت آلة من آلات التعذيب الذى كان ينزل بالعبيد والغرباء وحدهم ، موضع الهلع والفزع فى نظر المواطن الرومانى . وارتبطت فكرة الذنب والألم والفضيحة ، ارتباطا وثيقا بفكرة

الصليب (١) . وسرعان ما التفت روح التقوى فى قسطنطين — أكثر من الروح الانسانية فيه — ألغت فى نطاق ملكه تلك العقوبة التى تفضل السيد « المسيح المخلص » فعاناها ، ولكن الامبراطور كان قد تعلم أن يحتقر الأهواء التى تلقاها فى فترة تنشئته وتربيته وكذا أهواء شعبه ، قبل أن يتمكن من أن يقيم وسط مدينة روما تمثالا له وهو يحمل الصليب فى يده اليمنى ، مع نقوش ترجع الفضل فى انتصاره فى ساحة الوغى ، وتخليص روما ، الى هذه العلامة المباركة (الصليب) ، الرمز الصادق للقوة والشجاعة . وأضفى نفس الرمز على أسلحة جنود قسطنطين قدسية وطهرا ، فتألق على خوذاتهم ، ونقش على دروعهم، ونسج على راياتهم ، وتميزت الشعارات المقدسة التى ازدان بها الامبراطور نفسه بأنها صنعت من مادة أغلى قيمة ، وبقدر أكبر من الدقة والاتقان . ولكن الراية الرئيسية التى اشارت الى فوز الصليب كانت تسمى لاباروم Labarum ، وهو لفظ غامض ، ولكنه مشهور ، اشتق عبثا من كل لغات العالم تقريبا ، ووصفت هذه الراية بانها عبارة عن عمود خشبى له رأس حديدى مدبب يتقاطع معه قضيب مستعرض، تتدلى منه الراية المصنوعة من الحرير ، وقد نسجت عليها صور العاهل الحاكم وابنائه ، وارتكز على رأس العمود تاج من الذهب ، بداخله الطغراء الغامضة التى تمثل كذلك شكل الصليب والحروف الأولى من اسم السيد المسيح . وعهد بحراسة هذه الراية « لاباروم » الى خمسين حارسا مشهودا لهم بالبسالة وصدق الايمان ، وتميز مركزهم بما أضفى عليهم من امجاد ، وما منحوا من رواتب عالية . وسرعان ما وقعت أحداث سعيدة أدت الى الرأى القائل بأن نبال العدو لن تنفذ الى حراس الراية « لاباروم » وانهم فى مأمن من الخطر طالما كانوا قائمين عليها . وأحس ليسينيوس ، فى الحرب الأهلية الثانية بقوة هذه الراية المقدسة وتوجس منها خيفة ، تلك الراية التى أثار منظرها ، وسط احتدام المعركة ، فى جنود قسطنطين حماسا لا يقهر ، ونشر الرعب والفزع فى صفوف أعدائهم . ورفع الأباطرة المسيحيون الذين حذوا حذو قسطنطين ، راية الصليب فى كل حملاتهم الحربية . ولما انقطع خلفاء تيودوسيوس المتحلون عن الظهور على رأس جيوشهم ، أودعت

---

(١) أصاب الكتاب المسيحيون : جوستين ، مينوسيوس ، فليكس ، ترتوليان ، جيروم ، مكسيموس تورين ، قدرا معقولا من النجاح فى استقصاء شكل الصليب أو شبيه له فى الطبيعة أو الفن : فى تقاطع الزوال مع خط الاستواء ، فى وجه الانسان ، وطائر يحلق ، ورجل يسبح ، وفى الصارية ، وفى الفناء ، فى المحراث وفى العلم ، ... وغيرها .

راية « لاباروم » قصر القسطنطينية على أنها أثر وقور رفيع الشأن ، ولكنه عقيم غير مجد . ولا تزال أمجاد هذه الراية باقية على رصائع (ميداليات) أسرة فلافيوس . ونتيجة لنسكهم الشكور وضعوا طغراء المسيح وسط شعارات روما ، واستخدمت فى الأنصاب التذكارية الدينية والحربية على السواء تلك العبارات المهيبة : « سلامة الجمهورية » ، « مجد الجيش » ، « سعادة الشعب » ، ولا تزال توجد رصيعة (ميدالية) قسطنتيوس ، وعليها راية « لاباروم » مقرونة بالعبارة التذكارية « بفضل هذه الراية سوف تنتصر » .

٢ — درج المسيحيون الأولون على أن يحصنوا عقولهم وأجسامهم فى كل أوقات الخطر والضيق بعلامة الصليب ، التى استخدموها فى كل شعائرهم الكنسية ، وفى كل وقائع الحياة اليومية ، على أنها عاصم محقق من كل شر روحى أو دنيوى . وربما كان لسلطان الكنيسة وحده من الأهمية والاعتبار ما يبرر اخلاص قسطنطين الذى اعترف فى خطى وئيدة حذرة بصدق المسيحية واتخذ رمزها شعارا له . ولكن شهادة كاتب معاصر كان يدافع عن قضية الدين فى رسالة رسمية ، تضفى على ورع الامبراطور طابعا أشد رهبة وأكثر وقارا . فهو يؤكد ، بأكبر قدر من الثقة واليقين ، أن قسطنطين ، فى الليلة السابقة على آخر معركة مع مكسنيتوس ، تلقى فى المنام تنبيها بحفر علامة الله السماوية أى طغراء اسم المسيح المقدسة على دروع جنوده ، كما أنه قام بتنفيذ أوامر السماء ، وفاز بالنصر الحاسم عند جسر ميلفيا Milvia جزاء وفاقا على بسالته وامتثاله . وربما حدت بعض الاعتبارات بالعقل المتشكك الى الارتياب فى حكم أو صدق رب البلاغة الذى سخر قلمه ، بدافع الغيرة أو بدافع المصلحة ، لخدمة الطائفة الغالبة ، فقد نشر ، على ما يبدو ، وفيات الظالمين فى نيقوميديا ، بعد نحو ثلاث سنوات من انتصار الرومان . ولكن مسافة الألف من الأميال ، وفترة الألف من الأيام لابد تفسحان مجالا واسعا لادعاءات الخطباء المؤثرين ، ولسرعة تصديق الطائفة ، وللاستحسان الضمنى الصامت من جانب الامبراطور الذى ربما أصغى فى ارتياح الى هذه القصة الخارقة التى رفعت ذكره وأنجحت مساعيه . وأورد نفس المؤلف ، مجاملة لليسينيوس ، رؤيا فى صيغة دعاء نقله أحد الملائكة ورردده كل جيشه قبل أن يلتحم مع جنود الطاغية مكسيمين . ان كثرة تكرار المعجزات تستفز العقل البشرى ، حين لا تستطيع أن تخضعه . ولكنا اذا أنعمنا النظر فى رؤيا قسطنطين، على حدة ، فقد يكون من الطبيعى أن تفسرها سياسة الامبراطور أو حماسته . ففى سنة قصيرة من نوم متقطع ، هجع فيها قلقه من

اقتراب اليوم الذى لابد أن يتحدد فيه مصير الامبراطورية ، فرضت صورة المسيح والرمز المعروف المشهور لديانته نفسيهما على الخيال اليقظ لأمير مجد اسم اله المسيحيين ، وربما التمس منه العون والقوة سرا . فان أى رجل دولة او سياسى اريب مستعد الى اللجوء الى مناورة أو خدعة حربية من امثال تلك الاحتيالات المروعة التى عمد اليها فيليب وسرتوريوس Sertorius (فى القرن الأول قبل الميلاد) بنفس القدر من الدهاء ، فاتت بنفس النتيجة . لقد آمنت كل الأمم القديمة عامة بمنشأ الأحلام الخارق للطبيعة ، واصبح جزء كبير من جنود الغال مستعدا بالفعل لوضع ثقته فى تلك العلامة الناجعة ، علامة الدين المسيحى . وقد تكذيب الواقعة وحدها رؤيا قسطنطين الخفية أو تدحضها ، وربما راى البطل الصنديد الذى كان قد عبر الألب والأبنين ، فى يأس فاتر ، نتائج الانحدار تحت اسوار روما . واعترف السناتو والشعب الذين هللوا لخلاصهم من طاغية بغيض بأن انتصار قسطنطين جاوز قدرة البشر ، دون ان يجسروا على التلميح الى ان هذا كان من صنع الآلهة . وان قوس النصر الذى اقيم بعد هذا الحادث بسنوات ثلاث ، ليعلن فى عبارة مبهمة ، انه انقذ دولة الرومان وثأر لها ، بفضل عظمة عقله ، وبفضل الفطرة أو البواعث الالهية . ويذهب الخطيب الوثنى الذى انتهز فرصة مبكرة قبل ذلك ليشيد بمناقب الامبراطور الفاتح ، يذهب الى الظن بانه هو وحده ، أى الامبراطور ، سعد بعلاقة وثيقة خفية مع « الكائن الأعظم » الذى فوض أمر العناية بالمخلوقات الفانية الى الآلهة الذين هم أدنى منه مرتبة . ومن ثم يحدد هذا الخطيب سببا مقبولا شكلا يعلل به : لماذا لا يجدر برعايا قسطنطين ان يقدموا على اعتناق ديانة مليكهم الجديدة .

٣ — ومن المحتمل ان ينتهى الفيلسوف الذى يتفحص فى ارتياب هادىء ، الأحكام والنذر والبشائر والمعجزات والكرامات ، فى تاريخ الرجس ، بل حتى فى تاريخ الكنيسة — ينتهى الى انه اذا خدع النصب والاحتيال أحيانا ابصار الناظرين ، فكم امتهن القصص الخيالى عقول القراء !! فان أى حادث أو مظهر طارىء يبدو انحرافه عن المجرى العادى للطبيعة ، قد نسب فى اندفاع وطيش الى التدخل المباشر للآلهة . واضفى خيال الجمهور المذهول شكلا ولونا ولغة وحركة على النيازك الخاطفة غير المألوفة . ان نازاريوس ويوسوبيوس هما اشهر خطيبين ، جهدا فى مديح بليغ منمق ، فى أن يشيدا بمجد قسطنطين . فان نازاريوس يصف بعد تسع سنين من انتصار الرومان ، جيشا من محاربين الهيين يبدو انهم هبطوا من السماء ، ويشير الى جمالهم

وروحهم ، واشكالهم الضخمة ، وفيض النور الذى شع من أسلحتهم السماوية ، وجلدهم على تعريض انفسهم لأبصار أهل الأرض وأسماعهم، وتصريحهم بأنهم أرسلوا وانهم طاروا لنجدة قسطنطين العظيم . ويهيب الخطيب الوثنى بأمة الغال بأسرها ، التى كان يخطب فى حضرتها أن تصدق هذه الكرامة ، يحدوه الأمل ، فيما يبدو ، فى أن تحظى الآن الرؤى السابقة بشىء من التصديق والاهتمام من هذا الحادث الجديد العام . أما خرافة يوسوبوس المسيحية ، والتى ربما نبعت على مدى ستة وعشرين عاما ، من نفس الحلم الأصلى ، فقد صيغت فى شكل أصح وارشق ، فقد ذكر أن قسطنطين فى احدى مسيراته رأى العين النصب التذكارى المضىء للصليب موضوعا فوق شمس الظهيرة ، وقد نقشت عليه هذه العبارة : « بهذا فلتغلب » . وأدهش هذا الشىء المذهل فى السماء كل الجيش بأسره قدر ما أدهش الامبراطور نفسه . الذى لم يكن قد استقر رأيه بعد على اختيار دين . ولكن رؤيا الليلة التالية حولت دهشته الى ايمان . فقد ظهر المسيح لناظريه ومعه علامة الصليب السماوية نفسها . وأمر قسطنطين أن يصنع راية شبيهة بهذه العلامة ، وأن يسير ، موقنا بالنصر ، الى ملاقاة مكسنتيوس وسائر أعدائه — ويبدو أن أسقف قيصرية العلامة رأى ان الكشف عن هذه القصة الخارقة آنذاك (فى وقت متأخر) سوف يثير الدهشة والريبة فى نفوس أشد قرائه تقى وورعا . ولكن ، بدلا من تحديد الظروف الدقيقة للزمان والمكان ، التى تفيد دائما فى اظهار ملامح الكذب أو جلاء وجه الحق ، وبدلا من أن يجمع ويسجل أدلة كثير من شهود العيان الأحياء الذين لابد انهم رأوا رأى العين هذه المعجزة الفذة ، يكتفى يوسوبوس بدليل غاية الغرابة ، يزعمه من عندياته ، فهو يدعى أن الامبراطور الراحل قسطنطين ، بعد عدة أعوام من هذه الواقعة انطلق معه فى الحديث ، فروى له قصة هذا الحدث الفريد فى حياته ، وأكد صحته بأغلظ الأيمان . وأبت على الحبر العلامة فطنته وعرفانه للجميل أن يشك فى صدق سيده الظافر ، ولكنه يشير فى صراحة ووضوح ، الى أنه لزاما عليه أن يرفض التسليم بحقيقة من مثل هذا النوع اذا جاءت من مصدر غير وثيق ، ولكن بواعث التصديق لم تعمر بعد أن دالت دولة أسرة فلافيوس ، أما العلامة السماوية التى ربما سخر منها الزنادقة فيما بعد ، فقد أغلفها المسيحيون فى العصر الذى تلا تحول قسطنطين مباشرة . ولكن الكنيسة الكاثوليكية فى الشرق والغرب معا ، تبنت علامة تلتئم ، أو يبدو أنها تلتئم مع عبادة الصليب التى يمارسها الناس.

واحتلت رؤيا قسطنطين مكانا مرموقا فى أساطير الخرافة ، حتى تجاسرت روح النقد الجريئة الحكيمة على أن تغض من قدر الامبراطور المسيحى الأول وتناقش صدق روايته .

تعميد قسطنطين

يميل قراء العصر الحاضر من البروتستانت والفلاسفة الى الاعتقاد بأن قسطنطين ، فى روايته عن تحوله الى المسيحية ، أقر بهتانا صارخاً بيمين غموس رهيبة متعمدة . وقد لا يترددون فى القول بأنه فى اختيار الدين كان مسوقا بوازع من مصلحته ،وانه (على حد تعبير شاعر ملحد) قد استخدم مذابح الكنيسة بمثابة سلم مناسب يرقى به الى عرش الامبراطورية . ومهما يكن من أمر ، فان معرفتنا بالطبيعة البشرية وبقسطنطين وبالمسيحيين لا تسيغ الجزم بمثل هذه النتيجة القاسية المطلقة . فالملحوظ فى عصر تسوده الحمية الدينية ، أن أكثر الساسة دهاء يستشعرون شيئا من الحماس الذى يبثونه فى الناس ، على حين يتخذ أكثر القديسين استقامة لأنفسهم تلك الميزة الخطيرة ، ميزة الدفاع عن قضية الحق بأسلحة الغش الباطل . وجدير بالذكر أن المصلحة الشخصية كثيراً ما تكون مقياس ايماننا ومقياس عملنا وتصرفنا ، على حد سواء . وعلى هذا من الجائز أن نفس بواعث المنفعة الدنيوية التى وجهت سلوك قسطنطين وأعماله العامة ، جنحت به ، دون أن يحس ، الى اعتناق ديانة تلتئم مثل هذا الالتئام مع شهرته ومصيره وحظه . وقد أرضى غروره التوكيد المقرون بالملق بأن السماء قد اختارته ليحكم الأرض . وكان فى نجاحه ما يبرر حقه المقدس فى العرش . وكان هذا الحق مرتكزا على صدق الوحى المسيحى . وقد يثير المديح الذى يكال بغير حق فى بعض الأحيان ، فضيلة أصيلة حقة ، فاذا كان ورع قسطنطين فى البداية مجرد تمويه ظاهرى ، فان هذا الورع المموه ربما تحول يوما بعد يوم ، تحت تأثير الاطراء والتعود والاقتداء ، الى ايمان جدى واخلاص حار . وأجيز لأساقفة الطائفة الجديدة ومعلميها الذين لم تكن آداب سلوكهم ولا ملابسهم تؤهلهم للارتفاع الى مقام الحاشية، أن يجلسوا الى المائدة الامبراطورية ، وتسلط أحدهم ، وهو مصرى أو أسبانى ، على عقل الامبراطور بشكل اعتبره الوثنيون ضربا من السحر ، وأصبح لكتانتيوس الذى دبج تعاليم الانجيل ببلاغة شيشرون، ويوسوبوس الذى سخر علم اليونان وفلسفتهم لخدمة الدين ، صديقين أليفين لمليكهما ، وارتفعت الكلفة بينه وبينهما . واستطاع هذان العالمان،

على ما بينهما من تفاوت ، أن يتحينا فى جلد وصبر ، اللحظات الهادئة المواتية للاقناع والاغراء ، ليدليا فى حذق وبراعة بأكثر الحجج تناسبا مع خلق الامبراطور وادراكه . ومهما يكن من أمر المزايا التى يمكن الظفر بها من الفوز بمهتد امبراطورى ، فانه لم يكن يتميز عن الآلاف المؤلفة من رعاياه الذين اعتنقوا العقيدة المسيحية الا بالحلة الامبراطورية اكثر منه بالتفوق فى مجال الحكمة والفضيلة . وقد لا يكون من غير المعقول أن يستسلم عقل جندى غير متعلم لقيمة الدليل الذى أقنع أو أخضع ، فى عصر أكثر استنارة ، منطق او عقل جروشيوس أو بسكال أو لوك . وفى زحمة المهام المتلاحقة لمنصبه الخطير ، قضى هذا الجندى ، أو تظاهر بأنه يقضى ، ساعات الليل فى دراسة واعية للكتاب المقدس ، وفى اعداد الأحاديث اللاهوتية التى كان يدلى بها بعد ذلك الى جمهور المستمعين المادحين المصفقين . ويطنب الواعظ الملكى فى حديث طويل له ما يزال باقيا حتى الآن ، فى ذكر مختلف البراهين الدينية ، ولكنه يضرب فى ارتياح خاص ، على نغم أشعار العرافة سيبيل (Sibyl) وعلى نشيد الرعاة الرابع من أناشيد فرجيل ، فان شاعر مانتوا هذا (Mantua مدينة فى شمال ايطاليا مسقط رأس فرجيل) — قبل ميلاد المسيح بأربعين عاماً — شاد ، وكأنه استلهم أفكار أشعيا السماوية (أحد أنبياء بنى اسرائيل فى القرن الثامن قبل الميلاد) فى فخامة لغة الشرق واستعاراتها — شاد بعودة العذراء ، وموت الثعبان ، واقتراب مولد طفل الهى من نسل جوبيتر العظيم يكفر عن آثام البشر ، ويحكم الكون الهادىء بفضائل أبيه ، كما شاد بنشأة جنس سماوى ، وظهور أمة بدائية تنتشر فى كل بقاع العالم ، وأخيرا باستعادة براءة العصر الذهبى وهناءته يوما بعد يوم ، ومن الجائز ان الشاعر لم يدرك المعنى والمضمون الخفيين لهذه التنبؤات السامية ، التى انصرفت ، بغير حق الى طفل من ابناء القنصل أو أحد الحكام الثلاثة (يشير الى قسطنطين) ولكن اذا كان تفسير أكثر روعة وتمويها للنشيد الرابع ، قد ساعد على تحول قسطنطين الى المسيحية ، لاستحق فرجيل أن يوضع فى مصاف أعظم الدعاة الى الانجيل نجاحا وتوفيقا .

واخفيت الأسرار الرهيبة للديانة والعبادة المسيحيين عن عيون الغرباء ، بل حتى عن طالبى المعمودية فى تكتم أفلح فى اثارة دهشتهم وفضولهم . ولكن القواعد الصارمة للنظام الذى اقتضت فطنة الأساقفة وضعه ، تراخت مع نفس القدر من الفطنة من أجل الامبراطور المهتدى ، الذى كان من الأهمية بمكان اغراؤه بكل ملاطفة وديعة للدخول فى

حظيرة الكنيسة . وأبيح لقسطنطين على الأقل بمقتضى فتوى ضمنيــة صامتة ، أن يتمتع بمعظم امتيازات الرجل المسيحى قبل أن يتقيد بشىء من التزاماته . وبدلا من مغادرة المجمع اذا ارتفع صوت الشماس ايذانا بانصراف الجمهور الدنس ، صلى هو مع المؤمنين ، وجادل الأساقفة ، ووعظ فى أشد موضوعات اللاهوت تعقيدا ودقة ، واحتفل بالشعائر المقدسة فى ليلة عيد الفصح ، ولم يعلن أنه مجرد « متناول » أو مشارك، بل أعلن نفسه ــ الى حد ما ــ كاهنا أو قسيسا ضليعـا فى الأسرار المسيحية . وربما اقتضى غرور قسطنطين بعض التمييز الخارق ، وقد استحقت خدماته هذا التمييز ، وكان من الجائز أن تعصف الصرامــة ــ اذا عومل بها فى غير اوانها ــ بثمار تحوله التى لم تنضج بعد . واذا أحكم اغلاق أبواب الكنيسة فى وجه أمير هجر مذابح الآلهة ، لبــات سيد الامبراطورية عاطلا عن اى لون من الوان العبادة الدينية . وفى آخر زيارة له لمدينة روما ، أنكر الامبراطور عقيدة آبائــه وأجــداده وامتهنها ، حين رفض أن يتصدر موكب الفرسان العسكرى ، وأن يقدم النذور العامة للاله جوبيتر فى الكابيتولين . وقبل تعميد قسطنطين ووفاته بعدة أعوام ، أعلن على الملأ أن شخصه أو رسمه لن تقع عليه العين بعد الآن داخل أى معبد وثنى ، وفى نفس الوقت وزع على الولايات مجموعة من الميداليات والصور التى تمثل الامبراطور فى وضع متعبــد مسيحى يتذلل ويبتهل .

وانه ليصعب تفسير أو تبرير كبرياء قسطنطين الذى ابى أن ينعم ببركة المعمودية . ولكن يمكن تبرير الابطاء فى تعميده ، بقواعد الكنيسة القديمة وطقوسها . وكان الأسقف ، مع معاونيه من الاكليروس ،يقوم بنفسه باجراءات التعميــد فى أوقات منتظمــة فى الكنيسة الكاتدرائية فى الأسقفية ، فى الخمسين يوما التى تقع بين الاحتفالات المهيبة بعيــد الفصح وعيد العنصرة . وكانت هذه الفترة المقدسة تفسح المجال لضم كثير من الأطفال والبالغين الى احضان الكنيسة ، وكثيرا ما اقتضى حزم الآباء تأجيل تعميد اطفالهم الى ان يستطيعوا فهم الالتزامــات التى تقيدوا بها ، كما فرض تشدد الأساقفة على المتحولين الجدد قضاء فترة اختبار وتجربة تمتد الى عامين أو ثلاثة أما طالبو الدخول فى النصرانية أنفسهم ، فقلما كانوا غيورين على اتخاذ شخصية المسيحى الكامل المثبت ، وذلك نتيجة بواعث مختلفة دنيوية وروحية ، وكان المفروض أن يتضمن التعميد قضاء تاما مطلقا على الذنوب ، وعودة النفس فى الحال الى نقاوتها الأصلية الأولى ، وجدارتها بالوعد بالخلاص الأبدى . ورأى عدد كبير من بين المهتدين الى المسيحية أنه ليس من الحكمــة

التعجيل بشعيرة نافعة لا يمكن تكرارها ، وأن يهملوا ميزة لا قيمة لها ، ولا يمكن استرجاعها . فانهم بتأجيل تعميدهم يستطيعون ، فى حرية ويسر ، أن يشبعوا شهواتهم وينغمسوا فى متاع الدنيا . على حين يحتفظون فى أيديهم بوسيلة الغفران الميسور (١) . وكان أثر نظرية الانجيل السامية على قلب قسطنطين أضعفت منه على ادراكه وفهمه . فسلك جريا وراء مطمعه الكبير سبل السياسة والحرب الملتوية المظلمة الملطخة بالدم ، وأسلم نفسه ، بعد النصر ، الى المغالاة فى استغلال حظه استغلالا سيئا فى سرف بالغ . وعوضا عن توكيد تفوقه الحق على بطولة تراجان والأنطونيين المشوهة المتعبية وغلتهم الوثنية الدنسة ، فقد قسطنطين عنكما تقدمت سنه تلك الشهرة التى كان قد ظفر بها أيام شبابه . وكلما تقدمت به الأيام فى الوقوف على جوهر الحقيقة ، هبط بنفس القدر تعلقه بأهداب الفضيلة . وتلطخت نفس السنة من حكمه التى دعا فيها الى عقد مجلس نيقية ، باعدام أكبر أبنائه ، أو قل ذبحه . وهذا التاريخ وحده كاف لدحض مزاعم زوسيموس الجاهلة الخبيثة ، الذى يؤكد ، أنه بعد موت كرسبوس ، حظى أبوه من آباء الكنيسة المسيحية ، لقاء ما أحس من وخز الضمير ، بالغفران الذى كان قد التمسه عبثا من الأحبار الوثنيين . وعند وفاة كرسبوس لم يعد الامبراطور يستطيع التردد فى اختيار ديانة ، ولم يعد يجهل أن لدى الكنيسة علاجا أكيدا ، ولو أنه ارتأى أن يؤجل استخدامه حتى يحول دنو أجله دون الاغراء بالانتكاس ودون خطره . وتأثر الأساقفة الذين دعاهم فى مرضه الأخير الى قصر نيقوميديا بالحمية التى طلب وتأول بها أسرار التعميد ، وبتصريحه المهيب بأنه سيقضى البقية الباقية من عمره فى حياة جديرة بتلميذ للمسيح ، وبرفضه المقرون بالتواضع أن يلبس الحلة الامبراطورية ، بعد أن كان قد تدثر فى رداء المبتدئين (فى المسيحية) وشجعت شهرة قسطنطين والاقتداء به ، فيما يبدو ، على

---

(١) لم يستطع آباء الكنيسة الذين يعيبون على هذا الابطاء الاثم أن ينكروا المفعول الأكيد الناجع للتعميد على فراش الموت . ولم تتمخض بلاغة كريستوم (يوحنا الفم الذهبى) Chrysostom الحاذقة الا عن ثلاث حجج فقط ضد هؤلاء المسيحيين الحكماء : أ ـ أنه ينبغى أن نحب الفضيلة نفسها ، لا من أجل ما يعود علينا من نفع فقط . ب ـ أنه من المحتمل أن نفاجأ بالموت دون أن يكون هناك مجال للتعميد . ج ـ وأنه رغم أننا سوف نتخذ مكاننا فى السماء ، فاننا سنتألق فيها مثل النجوم الصغيرة فحسب بالمقارنة الى شموس البررة الصالحين . الذين قضوا أجلهم المضروب مقرونا بالعمل والتوفيق والمجد . وأعتقد أن تأجيل التعميد ، مهما أسفر عن نتائج وخيمة الى أبعد حد ، لم يعاقب عليه أى مجلس عام أو أى من مجالس الولايات ، أو أى قانون عام أو اعلان من الكنيسة . وما أيسر ما ثارت غيرة الأساقفة فى مناسبات أتفه من هذه بكثير !

تأجيل التعميد ، فتشجع الطغاة الذين جاءوا بعده على الاعتقاد بأن الدماء البريئة التى يسفكونها أثناء حكمهم الطويل سوف تغسلها على الفور مياه التعميد وما يصحبه من تجديد القلب ، ومن ثم حطم ســوء استغلال الدين أسس الفضائل الأخلاقية تحطيما خطيرا .

اقرار المسيحية بمقتضى القـــانون

مجد عرفان الكنيسة وامتنانها فضائل نصيرها الكريم واغضى عن سقطاته ، وهو الذى رفع المسيحية على عرش العالم الرومانى . وقلما ذكر اليونانيون الذين يحتفلون بعيد القدس الامبراطــورى ، اســم قسطنطين ، دون أن يضيفوا اليه لقب « المساوى للرسل » . ويجب ارجاع مثل هذه المقارنة ، ولو انها تشير الى خلق هــؤلاء المبشرين الالهيين ، الى الاسراف فى الملق الذى يتسم بالالحاد والكفر . ولكن اذا كانت المقارنة مقتصرة على مدى انتصارات قسطنطين الدينية وعددها ، فربما تعادل نجاح قسطنطين مع نجاح الرسل انفسهم ، فــقد ازال بقوانين التسامح تلك العقبات الدنيوية التى عوقت حتى ذاك الحين تقدم المسيحية . وظفر دعاتها الجادون الكثيرون بترخيص مطلق وتشجيع كريم على التبشير بحقائق الوحى الناجعة بكل حجة تنفذ الى عقــول البشر ، وتهز جانب التقوى والايمان فيهم . ولم يدم التوازن الدقيق بين الديانتين الا قليلا . فسرعان ما اكتشفت عين الطمع والشره الفاحصة النافذة أن الاعتراف بالمسيحية وبما أسهم فى تحقيق المصلحة فى هذه الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة على حد سواء . فان الأمل فى الثروات والأمجاد ، والنموذج الذى يرونه فى شخص الامبراطور ، ونصائحــه وتحذيراته ، وابتساماته التى لا تقاوم ، أشاعت الاقتناع بين الحشود السهلة الانقياد الخائفة التى تملأ عادة أبهاء القصر . اما المدن التى كان لها قصب السبق فى اظهار غيرتها بتدمير معابدها طواعية واختيارا ، فقد اختصت ببعض المزايا البلدية ، وكوفئت بالعطايا المألوفة ، كمــا كرمت عاصمة الشرق الجديدة بميزة فريدة ، تلك هى ان القسطنطينية لم تدنس قط بعبادة الأوثان . ولما كانت غريزة المحاكاة تسيطر عــلى عقول الطبقات الدنيا من المجتمع ، فان الجماهير التابعة المعتمدة على غيرها سرعان ما تحذو حذو من يتميزون بكرم المولد او بالقوة والسلطة او بالثراء . وقد اشترى « خلاص » عامة الشعب بمعدل ميسور ، اذا كان صحيحــا ما قيــل من أن نحــو اثنى عشر الف رجــل قــد عمــدوا (بضــم العــين وتشــديد الميم مع كسرها) فى روما فى ســنة واحــدة ، فضــلا عن عــدد يتنــاسب معهم من النســاء

والأطفال ، وأن الامبراطور وعـد كـل متحول الى المسيحية برداء أبيض وعشرين قطعة ذهبية . ولم ينحصر أثر قسطنطين القـوى فى النطاق الضيق لحياته أو ممتلكاته . فان التربية التى وفرها لأبنائـه وأبناء اخوته قد زودت الامبراطور بطراز من الأمراء الـذين كان ايمانهم ما زال أكثر حيوية واخلاصا لأنهم لقنوا فى صباهم المبكر روح المسيحية أو على الأقل نظـريتها . ونشرت الحروب والتجـارة والمعرفة بالانجيل الى ما وراء حدود الولايات الرومانية ، وسرعان ما تعلم المتبربرون ، الذين كانوا قد احتقروا من قبل فئة ذليلة مشردة (المسيحيين) — أن ينظروا بعين التقـدير والاجـلال الى ديانة اعتنقها مؤخـرا أعظـم ملك ، وأعظم أمة حضارة فى الكرة الأرضية . وبجل القوط والألمـان الذين انضـووا تحت لواء روما — بجلوا الصليب الذى تألق فـوق رءوس الجنود ، وفى نفس الوقت تلقى مواطنوهم المتوحشون دروس الايمـان والانسانية . وعبد ملوك ايبريـا وأرخينيا الـه حـاميهم (الامبراطور) وسرعان ما كون رعاياهم — الذين تمسكوا بالمسيحية ، بدرجات متفاوتة — علاقة مقدسة دائمة مع اخوتهم الرومان . واتهم مسيحيو فارس ، وقت الحرب ، بايثارهم دينهم على بلدهم ، ولـكن تدخل قسطنطين كان يحد من روح الاضطهاد عند المجوس طالما استتب السلام بين الامبراطوريتين . وأضاء نور الانجيل ساحل الهند ، وقاومت مستعمرات اليهود الذين كانوا قد توغلوا الى قلب بلاد العرب وأثيوبيا، قاومت تقدم المسيحية . ولكن يسر مهمة المبشرين الى حد ما سـابق معرفتهم بالوحى المنزل على موسى . وما تزال اثيوبيا تمجـد ذكـرى فرومنتيوس Frumentius الذى نذر حياته للتبشير بالمسيحية وتنصير هذه الأقاليم النائية المنعزلة . وفى عهد ابنه قسطنتيوس ، منح تيوفيلوس Theophilus — وكان من أصل هندى — لقب السفير والأسقف معا . فأبحر عبر البحر الأحمر ، ومعه مائتا جواد من أكرم جياد كابادوكيا ، هدية من الامبراطور الى أمير سبأ (أو حمير) . وحمل تيوفيلوس هدايا أخرى كثيرة ، نافعة أو غريبة ، مما قد يثير اعجاب المتبربرين ، ويوطد أواصر الصداقة معهم . وقضى عدة سنوات فى زيارة لهذه المنطقة الحارة حيث شيد الكنائس هناك ، وقد حالفه التوفيق فى هذه الرحلة .

وتجلت قوة الأباطرة الرومان التى لا يمكن دفعها فى التغيير الهام الخطير الذى حدث فى الديانة الوطنية ، وأخرست فرق الجيش بمـا نشرت من ألوان الارهاب تلك الصيحات الخافتة التى لا سند لها ، والتى انبعثت من بين الوثنيين . وكان هناك ما يحمل على توقع امتثال رجال الدين المسيحى والشعب ، امتثالا مقرونا بالابتهاج ، صادرا من

اعماق نفوسهم نابعا من امتنانهم وعرفانهم . ونص فى الدستور الرومانى منذ ذلك التاريخ على مبدأ اساسى . هو ان كل المواطنين الرومان على اختلاف مراتبهم يخضعون للقوانين ، وان رعاية الدين حق لكل حاكم مدنى ، وواجب عليه ، سواء بسواء . ولم يستطع قسطنطين وخلفاؤه ان يقنعوا انفسهم بسهولة انهم فقدوا بتحولهم اى لون من الامتيازات او الحقوق الامبراطورية ، او انهم عاجزون عن سن القوانين للديانة التى بسطوا عليها حمايتهم واعتنقوها . فظل الأباطرة يمارسون ولايتهم العليا على النظام الكنسى ، وفى الكتاب السادس عشر من مجموعة قوانين تيودوسيوس ، وتحت عنوانات كثيرة تتمثل السلطة التى فرضها الأباطرة لانفسهم فى حكم الكنيسة الكاثوليكية .

التمييز بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية

ولكن الاقرار القانونى للديانة المسيحية اوجد تمييزا بين السلطتين الروحية والزمنية وثبت اصوله ، وهو امر لم يسبق قط فرضه على اليونان وروما اللتين تأصلت فيهما روح الحرية ، فان وظيفة الحبر الأعظم التى كان يشغلها دائما منذ عهد نوما Numa الى عهد اوغسطس اعضاء السناتو البارزون ، اسندت آخر الأمر الى السدة الامبراطورية. وطالما كان حاكم الدولة الأول مسوقا بوازع من الخرافة (المقيدة) او السياسة ، فانه ادى بيديه المهام الكهنوتية ، ولم يكن ثمة فى روما او فى الولايات نظام كهنوتى ادعى لنفسه شخصية أكثر قداسة بين الناس ، او اتصالا اعظم وثاقا بالآلهة . ولكن فى الكنيسة المسيحية حيث عهد بخدمة المذبح الى طائفة دائمة متدرجة من القساوسة ، فان الملك او الحاكم الذى تقل مرتبته شرفا عن احقر شماس ، كان يجلس تحت قضبان المحراب ، مختلطا بجمهور المؤمنين ، وقد يؤدون التحية للامبراطور بوصفه ابا لشعبه . ولكنه كان يدين بواجب البنوة والاجلال لآباء الكنيسة ، وسرعان ما تطلب غرور الأساقفة لانفسهم واجبات التبجيل التى كان يؤديها قسطنطين للقديسين والمعترفين . ومن ثم دب صراع خفى بين الاختصاصات المدنية والكنسية ، نشأ عنه ارتباك سير الأمور فى الحكومة الرومانية . وذعر امبراطور ورع ايما ذعر لما ينطوى عليه لمس تابوت العهد بيد دنسة ، من وزر وخطر . والحق ان تقسيم الناس الى روحانيين وعلمانيين كان امرا معروفا لدى كثير من الأمم القديمة ، واستمد الكهنة فى الهند وفارس وآشور واسرائيل والحبشة ومصر والغال سلطتهم الدنيوية وممتلكاتهم التى اقتنوها من اصل

سماوي . وكانت هذه النظم الوقورة قد كيفت نفسها في أخلاق وحكومة البلد الذي عاش فيه كل منها . ولكن معارضة السلطة المدنية أو احتقارها أفاد في تدعيم نظام الكنيسة الأولي . واضطر المسيحيون الي اختيار حكامهم ، وتحديد دخل معين وتوزيعه ، وتنظيم السياسة الداخلية لجماعتهم عن طريق مجموعة من القوانين اقرتها موافقة الشعب عليها ، كما دعمتها تجربة دامت ثلاثة قرون . فلما اعتنق قسطنطين المسيحية ، عقد فيما يبدو ، مع هذا المجتمع المتميز المستقل تحالفا دائما ، ولم تؤخذ الامتيازات التي منحها الامبراطور أو ثبتها ، على أنها مظاهر عطف مزعزع من قبل الحاشية ، بل على أنها حقوق أساسية للنظام الكنسي .

وكان الف وثمانمائة اسقف يديرون الكنيسة الكاثوليكية ، بما لهم من ولاية روحية وقانونية . منهم الف في الولايات اليونانية ، وثمانمائة في الولايات اللاتينية في الامبراطورية . وتفاوتت سعة كل أسقفية وحدودها ، أو تقررت عرضا ، تبعا لغيرة الارساليات الأولى ودرجة نجاحها ، وتبعا لرغبات الشعب ، وتبعا لمدى انتشار الانجيل . وأقيمت الكنائس الأسقفية متقاربة على ضفاف النيل ، وساحل البحر في افريقية، وفي مناطق آسيا الخاضعة للبروقنصل الروماني ، وفي الولايات الجنوبية من ايطاليا . وسيطر الأساقفة في الغال واسبانيا وتراقيا وبلاد بنطس على رقعة كبيرة ، وفوضوا وكلاءهم الريفيين في القيام بصغرى مهام راعي الكنيسة . وقد تستوعب الأسقفية المسيحية ولاية بأسرها ، وقد تهبط الى نطاق قرية ، ولكن شخصية الأسقف في كل الأحوال كانت متكافئة لا تتغير . فقد استمدوا جميعا نفس السلطات والامتيازات من الرسل ومن الشعب ومن القوانين . وفي الوقت الذي اقتضت فيه سياسة قسطنطين فصل الوظائف المدنية والعسكرية ، قام في الكنيسة والدولة نظام جديد ثابت لموظفين كنسيين كانوا دوما موضع احترام ، وكانوا أحيانا مصدر خطر . ويمكن ادراج الاستعراض الهام لأوضاعهم وصفاتهم تحت الاقسام الآتية : ١ ـ الانتخاب الشعبي ، ٢ ـ رسامة رجال الدين ، ٣ ـ الممتلكات ، ٤ ـ الاختصاص المدني ، ٥ ـ الجزاءات الروحية ، ٦ ـ ممارسة الوعظ العام ، ٧ ـ امتياز المجالس التشريعية .

١ ـ قامت حرية الانتخاب بعد اقرار المسيحية من الوجهة القانونية بوقت طويل ، وتمتع الرعايا الرومان في الكنيسة بالميزة التي فقدوها في الجمهورية ، الا وهي اختيار الحكام الذين التزم الناس

بطاعتهم ، وما أن أطيق أى أسقف عينيه وقضى نحبه حتى أصدر المطران أمره الى أحد الوكلاء أو المعاونين بشغل المكان الشاغر ، والاعـداد للانتخابات المقبلة فى وقت معين . ومنح حق التصويت لرجال الدين من الدرجات الدنيا . وهم أقدر على الحكم على جدارة المرشحين ،ولشيوخ السناتو وأشراف المدينة ، ولكل من اشتهروا بمكـانتهم أو ثروتهم ، وأخيرا لجمهور الشعب الذين تدفقوا فى الموعد المضروب أفواجـا من أقصى أركان الابرشية ، فأخرسوا أحيانا بصيحاتهم الصاخبة صـوت العقل وقواعد النظام . وربما استقرت هذه الصيحات عرضـا على شخص أجدر المتنافسين من شيخ معمر أو ناسك مقدس ، أو رجـل علمانى اشتهر بغيرته وتقواه . ولكن السعى الى الفـوز بالـكرسى الأسقفى ، وخاصة فى المدن الكبيرة والغنية فى الامبراطورية ، كان سعيا وراء المكانة الدنيوية أكثر منه التماسا للمنزلة الروحية . ولكن الآراء المغرضة ، وعواطف الأنانية الثائرة وأفانين الغدر والنفاق ، والفساد الخفى ، وأعمال العنف السافرة ، بل الدموية ، تلك التى أهدرت حرية الانتخاب فى جمهوريات اليونان وروما قديمـا ، كثيراً ما أثرت فى اختيار خلفاء الرسل والحواريين . وبينما فاخـر أحـد المرشحين بأمجاد أسرته ، بهر الآخر أبصار ناخبيه بأطايب مائدتـه العامرة ، وعرض ثالث ، وهو أكبر منافسيه وزرا ، أن يقتسم أسلاب الكنيسة مع المتواطئين معه فى أمانيه الدنسة . وحاولت القوانين المدنية والكنسية معا أن تستبعد جمهور الشعب من هذه العملية الخطيرة الهامة . وحدت قواعد النظام القديم ، والمركز .. وغيرها ــ حدت من نزوات الناخبين التى لا تميز الخبيث من الطيب . واستخدم أساقفة الولايات الذين تجمعوا فى كنيسـة الأسقفية الشاغرة لمباركة اختيـار الشعب ــ استخدموا نفوذهم للتلطيف من أهواء الناخبين ، وتصحيح أخطائهم . وكان الأسـاقفة يستطيعون الامتناع عن رسـامة أى مرشح غير جدير بالمنصب ، وارتضت الأحزاب المتصارعة الغاضبة وساطتهم النزيهة أحيانا . وخلق استسلام الاكليروس والشعب أو مقاومتهم ، فى هذه المناسبة أو تلك ، سوابق متباينة ، تحولت بطريقة غير ملحوظة الى قوانين ايجابية نافذة ، والى أعراف وتقاليد فى مختلف الولايات . ولكن كان من المسلم به فى كل مكان ، كقاعدة أساسية فى السياسـة الدينية ، أنه لا يجوز فرض أى أسقف على كنيسة تنهج الطريق القويم دون موافقة أعضائها . وربما أبدى الأباطرة بوصفهم حـراسا على السلام العام ، وبوصفهم المواطنين الأوائل فى روما وفى القسطنطينية ، رغباتهم بطريقة فعالة فى اختيار رئيس الأساقفة ، ولكن هؤلاء الملوك

المستبدين احترموا حرية الانتخابات الكنيسة . وبينما وزعوا أو استردوا أمجاد الدولة والجيش ، نراهم أباحوا لألف وثمانمائة حاكم دائم (أسقف) أن يتولوا مناصبهم الهامة عن طريق الاقتراع الشعبى الحر. وكان مما يتفق مع قواعد العدالة ألا يتخلى أى من هؤلاء الحكام (الأساقفة) عن منصبه الرفيع الذى لا يمكن عزله منه . وحاولت حكمة المجالس دون أن تصيب نجاحا كبيرا ، أن تفرض اقامة الأساقفة وأن تمنع نقلهم . وكان النظام فى الغرب فى الواقع أقل تراخيا منه فى الشرق ، ولكن نفس الأهواء التى جعلت من هذه القواعد أو التعليمات ضرورة حتمية ، أفقدتها فعاليتها . ان المثالب والسباب التى كالها الأحبار الغاضبون بعضهم لبعض فى حدة وعنف ، انما تكشف عن وزرهم المشترك وعن نزقهم المتبادل .

٢ — اختص الأساقفة وحدهم بموهبة التناسل الروحى ، وربما عوضت هذه الميزة الفذة الى حد ما — عن العزوبة الأليمة التى فرضت عليهم بوصفها فضيلة وواجبا ، والتزاما ايجابيا آخر الأمر . ان الديانات القديمة التى أنشأت نطاقا كهنوتيا منفصلا ، خصصت عشيرة مقدسة : قبيلة أو أسرة ، تتولى الخدمة الدائمة للآلهة . وقد أقيمت هذه النظم للتملك أكثر منها للغزو ، وتمتع ابناء الكهنة بالطمأنينة المزهوة الخاملة بميراثهم المقدس ، وخففت من روح الحماسة الملتهبة هموم الحياة المنزلية وملذاتها وعلاقات الحب والاعزاز فيها . أما المحراب المسيحى فكان مفتوحا أمام كل طارق طامع متلهف على ما يقترن بالمحراب من وعود سماوية أو متاع دنيوى . ان وظيفة القسيس ، مثل الجندى والحاكم ، كان يقوم عليها فى جد وحماس أولئك الرجال الذين هيأتهم طباعهم وقدراتهم لتأدية المهام الكنيسة ، أو الذين اختارهم الأسقف البصير على أنهم خير أهل لرفع شأن الكنيسة وتأمين مصلحتها . وكان الأساقفة (حتى حدت فطنة القانون من سوء الاستغلال) يكبحون جماح الآبقين النافرين ويفرجون ضيق المكروبين ، وكانت بركة أيديهم تفيض دائما ببعض من أعظم مزايا المجتمع المدنى ، وأعفى رجال الديانة الكاثوليكية جميعا ، وربما كانوا أكثر عددا من الفرق العسكرية ، أعفوا بأمر الأباطرة ، من كل الخدمات الخاصة أو العامة ، ومن كل الأعمال البلدية ، ومن كل الضرائب والتبرعات الشخصية ، تلك التى كانت عبئا ثقيلا لا يحتمل على سائر مواطنيهم ، واعتبر قيامهم بمهمتهم المقدسة وفاء كاملا بالتزاماتهم نحو الدولة . وطالب كل أسقف بحقه المطلق الذى لا يمس فى امتثال الكاهن الذى رسمه امتثالا دائما له ، وشكل رجال الاكليروس فى كل كنيسة أسقفية مع الأبرشيات التابعة لها مجتمعا

منتظما ثابتا . واحتفظت كاتدرائيتا القسطنطينية (١) . وقرطاجة بميزة خاصة هى تعيين خمسمائة موظف كنسى . وتضاعفت مراتبهم وأعدادهم بطريقة غير ملحوظة نتيجة الخرافة التى سادت فى ذاك الزمان ، والتى أقحمت على الكنيسة احتفالات المعبد اليهودى أو الوثنى الفخمة . وأسهم ركب طويل من القسس والشمامسة ووكلائهم ، والسدنة وحملة المباخر والقراء والمنشدين والبوابين — أسهموا جميعا ، كل بدرجته فى أبهة العبادة الدينية وانسجامها ، وامتد لقب الكاهن وامتيازه الى كثير من الاخوة الأتقياء الذين دعموا عرش الكنيسة فى اخلاص وحماس ، فزار ستمائة من المغامرين مرضى الاسكندرية ، وتولى ألف ومائة ممن يحفرون القبور ، دفن الموتى فى القسطنطينية ، واسود وجه العالم المسيحى بأسراب الرهبان الذين انتشروا فيه وافدين من ضفاف النيل .

٣ — كفل مرسوم ميلان دخل الكنيسة كما كفل سلامتها . فلم يسترد المسيحيون الأراضى والدوم التى كانت قد انتزعتها منهم قوانين الاضطهاد على عهد دقلديانوس ، فحسب ، ولكنهم ظفروا كذلك بحق الملكية الكاملة لكل ما استحوذوا عليه حتى ذاك الحين ، نتيجة لتسامح الحاكم أو تغاضيه . وبمجرد أن أصبحت المسيحية دينا بين الامبراطور والامبراطورية حق لرجال الدين الوطنيين أن يطالبوا بما يكفل لهم حياة لائقة محترمة . وكان من الجائز أن دفع ضريبة سنوية سوف يخلص الشعب من جزية أشد ظلما تفرضها العقيدة على معتنقيها . فلما زادت نفقات الكنيسة تبعا لازدهارها وانتعاشها ، ظلت القرابين التى يقدمها المؤمنين تعبدا وطواعية ، تعين رجال الدين على معاشهم وتزيد من ثرائهم . وبعد ثمانى سنين من مرسوم ميلان منح قسطنطين رعاياه ترخيصا حرا شاملا فى التوصية بكل ثرواتهم للكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، وربما كانت أيديهم فى حياتهم مغلولة بحكم الترف أو الجشع ولكنها فاضت فى سخاء وورع ساعة حضرهم الموت . وكان لأغنياء المسيحيين فى مليكهم أسوة حسنة مشجعة . وربما أصبح الملك المستبد المطلق الثرى الذى لم يرث الثراء ، متصدقا محسنا دون أن يكون له فضل فى ذلك . وما أيسر ما آمن قسطنطين بأنه قد يشترى رضاء السماء اذا عال الكسالى الخاملين على حساب العاملين الجادين ، ووزع

(١) ستون شيخا أو قسيسا ، مائة شماس ، أربعون شماسة ، تسعون وكيل شماس ، مائة وعشرة قراء ، خمسة وعشرون منشدا ، ومائة بواب ، والمجموع خمسمائة وخمسة وعشرون . وحدد الامبراطور هذا العدد المتواضع لتفريج كروب الكنيسة التى تراكمت عليها الديون والربا ، نتيجة نفقات هذا العدد الضخم من التعيينات .

على القديسين أموال الدولة . ولا ضير فى أن يعهد الى الرسول الذى حمل الى افريقية رأس مكسنيتوس ، بحمل رسالة الى كاسليان أسقف قرطاجة ، يبلغه فيها أنه ، أى الامبراطور ، أصدر تعليماته الى خزائن الولاية ليسلموه ما قيمته ثمانية عشر الف جنيه استرلينى ، وأن يمتثلوا لمطالبه فيما بعد ، لاعانة كنائس أفريقية ونوميديا وموريتانيا . وتزايد سخاء قسطنطين بقدر ازدياد ايمانه وتفاقم رذائله . وفرض على كل مدينة أن تقدم كمية ثابتة من الغلال لتموين صندوق صدقات الكنيسة . وأصبح الرهبان والراهبات أقرب المقربين ذوى الحظوة لدى مليكهم . وتجلى فى المعابد المسيحية فى أنطاكية والاسكندرية وأورشليم مظاهر التقوى التى تفاخر بها أمير طمع فى شيخوخته ، فى أن يتساوى مع الأقدمين فى أعمالهم العظيمة الفائقة . وتجلت البساطة فى هذه الأبنية الدينية ، وكانت على شكل مستطيل ، ولو أنها اتخذت أحيانا شكل القباب ، أو تفرعت على هيئة صليب . وكانت معظم الأخشاب من أرز لبنان ، وغطى السقف بمربعات ربما كانت من النحاس المذهب ، أما الجدران والأعمدة والأرضية فقد كسيت بالرخام الملون . وخصصت فى اسراف بالغ أثمن الحلى والزخارف من الذهب والفضة والحرير والجواهر لخدمة المذابح ، واحتفظ بأدوات هذه الأبهة الخداعة على أنها ملك ثابت دائم . وفى مدى قرنين من الزمان — من عهد قسطنطين الى عهد جستنيان — أثرت كنائس الامبراطورية البالغ عددها الفا وثمانمائة ، بفضل الهدايا والهبات الكثيرة غير القابلة للانتقال التى أغدقها عليها الأمير والشعب . وخصص للأساقفة دخل سنوى معقول قدره نحو ستمائة جنيه استرلينى ، مما وضعهم فى منزلة وسط بين الثراء والفاقة ، ولكن ارتفع مستوى ثرائهم ، بشكل غير ملحوظ ، تبعا لمكانة المدن التى يعملون فيها ودرجة غناها . وفى سجل للايجارات(١) أصيل ولكنه ناقص ، حددت بعض الدور والحوانيت والحدائق والمزارع التى كانت تابعة لكنائس روما الثلاث — القديس بطرس والقديس بولس ، والقديس جون لاتيران — فى الولايات الثلاث : ايطاليا ، أفريقية ، الشرق . فهى تدر — بالاضافة الى عائد محقق من الزيت والكتان والورق ، والعطور وغيرها ، دخلا سنويا صافيا قدره أثنتان وعشرون ألف قطعة من الذهب ، أو اثنا عشر الف جنيه استرلينى . ولم يعد الأساقفة فى عهد قسطنطين وجستنيان يتمتعون ، وربما لم

(١) قد يشتبه بحق فى أى سجل يصدر عن الفاتيكان . ولكن سجلات الايجارات هذه تحمل طابع القدم والصدق . وانه من الواضح على الأقل أنها اذا كانت زورت ، فانها زورت فى الوقت الذى انصبت فيه مطامع البابوية على المزارع ، لا على الممالك .

يعودوا جديرين بثقة اكليروسهم وشعبهم ، ثقة لا يتطرق اليها أى شك . وكانت الايرادات الكنسية فى كل اسقفية تقسم الى أربعة أقسام ، للأغراض التالية : قسم للأسقف نفسه ، قسم لرجال الدين الذين هم اقل منه مرتبة ، وآخر للفقراء ، وقسم للعبادة العامة ، وكم من مرة منع بشدة سوء استغلال هذه الأمانة المقدسة . وكان ميراث الكنيسة لا يزال خاضعا لكل ما تفرضه الدولة عامة ، وربما التمس رجال الدين فى روما بعض الاعفاءات الجزئية وحصلوا عليها ولكن ابن قسطنطين تصدى بنجاح للمحاولة السابقة لأوانها التى بذلها مجمع ريمينى (مدينة على الادرياتيك فى شمال شرقى ايطاليا) ، والتى كان يطمح من ورائها فى الحرية الشاملة فى التصرف .

٤ ـ قبل رجال الدين اللاتين الذين أسسوا قضاءهم على أنقاض القانون المدنى العام ، قبلوا فى تواضع ، بمثابة منحة من قسطنطين(١) ان يكونوا مستقلين باختصاصهم ، الذى كان ثمرة الزمن والأحداث وثمرة جهدهم الخاص ، ولكن كرم الأباطرة المسيحيين أغدق عليهم بالفعل بعض الامتيازات القانونية التى كفلت ورفعت من شأن شخصيتهم الكهنوتية (٢) .

(أ) ظفر الأساقفة وحدهم ، فى ظل الحكومة الاستبدادية بميزة لا تقدر ، واكدوها ، تلك هى أنه لا يتولى محاكمتهم الا نظراؤهم فقط ، وانه حتى فى حالة اتهامهم باحدى الكبائر يتولى الحكم بادانتهم

---

(١) استنادا الى يوسيبوس وسوزومين ، نستطيع ان نتأكد من أن قسطنطين وضع الاختصاص الاسقفى وثبته . ولكن جودفرى ابرز مع اعظم الارتياح فرسوما مختلقا مزورا ، لم يرد ذكره بحق فى مجموعة قوانين تيودوسيوس . ومن الغريب أن يدعى مونتسكيو ، المحامى الفيلسوف صدور هذا المرسوم عن قسطنطين دون أن يساوره أى شك فيه .

(٢) احيط موضوع الاختصاص الكنسى بسحب من الهوى والتحيز والمصلحة . وقد وقع فى يدى كتابان من احسن الكتب ، اولهما « قواعد القانون الدينى » تاليف رئيس الدير فليرى « Institutes of Canon Law » by The Abbé de Fleury والثانى « التاريخ المدنى لنابولى ، تاليف جيانون « The Civil History of Naples » by Giannone) ويرجع اعتدالهما الى مركز كل منهما وطبعه . وكان فليرى من رجال الكنيسة الفرنسيين ، وكان يحترم سلطة البرلمانات . اما جيانون فكان محاميا ايطاليا يخشى سلطة الكنيسة . وارجو ان اشير هنا الى انه لما كانت القضايا التى أعالجها حصيلة كثير من الحقائق الغريبة المبتورة ، فليس امامى الا أن أحيل القارىء الى هذين المؤلفين الحديثين اللذين عالجا الموضوع فى جلاء ووضوح ، او ان التوسع فى هذه الملاحظات الى حد غير لائق وغير مناسب .

أو تبرئتهم مجلس ((Synod)) من أقرانهم فحسب . واذا لم تستفز مثل هذه المحكمة الكراهية الشخصية أو الشقاق الدينى ، فربما كانت مواتية بل متحيزة للنظام الكهنوتى . ولكن قسطنطين كان مقتنعا بأن الاعفاء الخفى من العقوبة أقل وبالا من الفضيحة العلنية ، وقد تعلم مجمع نيقيا أن يقتدى باعلانه العام (قسطنطين) أنه اذا فاجأ أسقفا متلبسا بجريمة الزنا فانه لابد أن يسدل عباءته الامبراطورية على الأسقف الآثم المذنب .

(ب) كان الاختصاص القضائى للأسقف امتيازا وقيدا فى وقت معا على طائفة الكهنة ، فقد رئى من الأليق سحب قضاياها المدنية من اختصاص القضاة الأهليين . ولم تتعرض مخالفاتهم البسيطة لعار المحاكمة أو العقوبة العلنية . وكان الأساقفة يوقعون فى قسوة معتدلة ، العقوبة الخفيفة التى يحتملها الشباب الغض من الوالدين أو المعلمين . ولكن اذا أدين القسيس فى جريمة لا يكفى للتكفير عنها طرده من عمله المشرف الذى در عليه خيرا ، جرد الحاكم الرومانى عليه سيف العدالة دون اعتبار لأية حصانات كنسية .

(ج) وأقر تحكيم الأساقفة بمقتضى قانون قاطع . وصدرت التعليمات الى القضاة بأن ينفذوا دون استئناف أو ابطاء الأوامر الأسقفية التى كانت صلاحيتها أو قوتها تعتمد حتى هذا التاريخ على رضا الطرفين . وربما أزال تحول الحكام أنفسهم وتحول الامبراطورية بأسرها الى المسيحية ، مخاوف المسيحيين وشكوكهم يوما بعد يوم . ولكنهم ظلوا يلجأون الى محكمة الأساقفة الذين اعتزوا بمواهبهم ونزاهتهم . وطاب لأوستن الموقر Austin وهو ناعم البال ، الشكوى من أن مهامه الروحية كان يعطلها ويقطعها عليه دائما عمل يثير الحقد والبغضاء ، الا وهو الفصل فى المطالبة بالفضة والذهب أو الأرض والماشية أو تملك هذه أو تلك .

(د (انتقل ما كان للمذابح القديمة من حق اللجوء اليها الى المعابد المسيحية ، وامتد بفضل ورع تيودوسيوس الأصغر الى الأراضى المقدسة المجاورة لها . ورخص للمتوسلين من الهاربين أو حتى المجرمين الأذلاء فى التماس عدالة الاله وقساوسته ورحمتهم . وكم حال تدخل الكنيسة الرقيق دون تعسف الاستبداد والمستبدين ، وأبقت شفاعة الأسقف على حياة أبرز الرعايا وعلى ثرواتهم .

٥ — كان الأسقف رقيبا دائما على أخلاق شعبه . وأسيغ نظام العقوبات الدينية (التوبة ، الكفارة) على أنه قانون كنسي ، حدد بدقة واجب الاعتراف الخاص أو العلنى ، كما حدد قواعد الأدلة ودرجات الخطيئة ومقاييس العقوبة . وكان من المتعذر على الحبر المسيحى الذى يعاقب على خطايا الجمهور الخفية ، تنفيذ هذه الجزاءات الروحية اذا هو اقر رذائل الحاكم الفاضحة أو جرائمه المخزية . ولكن كان يستحيل أن يسائل الحاكم عن سلوكه دون رقابة او اشراف على ادارة الحكومة المدنية . وعصمت بعض اعتبارات الدين او الولاء أو الخوف اشخاص الأباطرة المقدسة من غيرة الأساقفة أو سخطهم ، ولكنهم كانوا يوبخون الطغاة الذين لم يحظوا بجلال الحلة الامبراطورية ويحرمونهم من الكنيسة ، فقد حرم القديس أثناسيوس يوما أحد وزراء مصر ، وأبلغ هذا الحرمان الصارم بصورة رسمية الى كنائس كبادوكيا . وفى عصر تيودوسيوس الأصغر تولى سينسيوس المهذب الفصيح Synesius — وهو من نسل هركيوليز — الكرسى الأسقفى فى بطلومايس Ptolemais (بالقرب من أطلال مدينة برقة القديمة) ، وقد عزز هذا الأسقف الفيلسوف مكانة المنصب الذى شغله كارها (١) ، بان أزاح طاغية ليبيا الجبار ، الرئيس اندرنيكوس Andronicus الذى أساء استغلال وظيفة عرضة للرشوة والفساد ، وابتدع ألوانا جديدة من السلب والتعذيب ، وزاد الطين بلة فاضاف تدنيس الأماكن المقدسة الى جريمة الظلم والجور ، وبعد محاولة عقيمة للاصلاح من شان الحاكم المتجرف وتهذيبه فى رفق ولين ، عمد سينسيوس الى انزال أقصى عقوبة فى جعبة العدالة الكنسية ، عقوبة تدمغ اندرونيكوس وشركاءه وأسراتهم بغضب الأرض والسماء . وهكذا حرم من شرف الاسم المسيحى او امتيازاته ، ومن الأسرار المقدسة ، والعشاء الربانى ، ومن الأمل فى الجنة — حرم من هذا كله أعتى المجرمين الذين هم أشد قسوة من فالاريس او سنحريب ، واشد فتكا من الحرب او الوباء او أسراب الجراد . وحرض الأسقف رجال الدين والحكام والشعب ليظهروا المجتمع باسره على أعداء المسيح ، ويقصوهم عن دورهم وعن موائدهم ، ويابوا عليهم كل وظائف الحياة وشعائر الدفن المتواضعة . وتوجه كنيسة بطلومايس ، وهى المتواضعة

---

(١) كان سينسيوس قد اظهر من قبل عدم اهليته ، فقد أولع بالدراسات والهوايات الملحدة ، ولم يقو على احتمال حياة العزوبة ، ولم يؤمن بالبعث ، ورفض أن يعظ الناس « بالقصص الخرافى » الا اذا أبيح له أن « يشتغل بالفلسفة » فى داره . وقبل هذا الشرط ، توفيلس مطران مصر الذى عرف قدره (سينسيوس) .

المعمورة ، هذا الاعلان الى كل الكنائس الشقيقة فى العالم ، على أن يدمغ الكفار الأرجاس الذين يرفضون هذه الأوامر بجريمة أندرونيكوس وأتباعه الملحدين وينالوا عقابهم . وكان فى تطبيق هذا الارهاب الروحى على البلاط البيزنطى تدعيم للارهاب نفسه . وتضرع الرئيس الذى يرتجف فزعا الى رحمة الكنيسة ، وطابت نفس سليل هركيوليز وقرت عيناه حين رفع عن الأرض طاغية خر راكعا على قدميه . ومهدت مثل هذه المبادىء طرق النجاح للأحبار الرومان الذين داسوا بأقدامهم أعناق الملوك .

٦ ــ لقد خبرت كل حكومة شعبية نتائج الخطب البليغة المليئة بالحماس المفتعل ، حيث ينفذ ما يثيره من أحاسيس بسرعة الى الصدور ، فيهيج أكثر الطبائع جمودا ، ويثير أعظم العقول رزانة وثباتا ، ويتأثر كل مستمع بانفعالاته هو نفسه وبانفعالات جمهور المحيطين به . وكان انهيار الحرية المدنية قد أخرس السنة المهرجين السياسيين الشعبيين فى أثينا والتريبيونات فى روما ، ولم يكن القاء المواعظ التى تشكل ــ فيما يبدو ــ ركنا هاما فى العبادة المسيحية ، معروفا فى معابد الأقدمين ، ولم يكن صوت الخطابة الشعبية الخشن يطرق آذان الملوك قط ، حتى جاء الوقت الذى امتلأت فيه منابر الامبراطورية بالخطباء الدينيين الذين تحلوا بمزايا لم تكن معروفة لدى أسلافهم الوثنيين . وتصدى لحجج التريبيون وبلاغته بنفس أسلحته على الفور خصوم مهرة صامدون ، وربما استمدت قضية الحق والمنطق دعما طارئا من تصارع الأهواء المتنافرة ، وقام الأسقف ، أو أى شيخ بارز وكل اليه فى حذر مهمة الوعظ ، فالقى ، دون أن يخشى خطر المقاطعة أو الرد ، خطبة فى الجموع الممتثلة الذين كانت الطقوس الدينية الرهيبة قد هيأت عقولهم وأخضعتها . وبلغ من أمر التبعية الصارمة فى الكنيسة الكاثوليكية ، أن الأصوات المنسجمة كانت تنبعث فى وقت معا من مائة منبر فى ايطاليا ومصر ، اذا تولت ضبطها (١) يد عليا : يد مطران روما أو مطران الاسكندرية . وفكرة هذا النظام حسنة حميدة ، ولكن نتائجه لم تكن دوما محمودة طيبة . فقد أوصى الوعاظ بممارسة الواجبات الاجتماعية ، ولكنهم أطنبوا فى تمجيد فضيلة الانصراف التام الى الرهبنة الأليمة بالنسبة للفرد ، العقيمة غير المجدية للانسانية جمعاء . وفضحت

---

(١) استخدمت الملكة اليزابيث نفس هذا التعبير ، واستخدمت نفس هذا الأسلوب اذا رغبت فى الاستحواذ على عقول الشعب من أجل أى اجراء شاذ من اجراءات الحكومة . وكان خلفها يتوجس خيفة من هذه « الموسيقى » وكان ابنه يحس بها احساسا عميقا . « عندما تضج المنابر وتقرع الطبول فى الكنيسة » .

تحريضاتهم التى تتسم بطابع البر والخير ، رغبة خفية فى أن يباح لرجال الدين أن يتولوا ادارة أموال المؤمنين لمصلحة الفقراء . ولوثت أسمى معانى الصفات والقوانين الالهية بمزيج عقيم من أخباث الميتافيزيقا ، والشعائر الصبيانية السخيفة والمعجزات الزائفة المصطنعة . واطنب كل أولئك — فى حماس بالغ — فى ذكر الجزاء الذى يدخره الدين لمن يتصدى للمعارضين ، ويدين بالطاعة لسدنة الكنيسة . واذا كدرت الهرطقة والمروق صفو الهدوء ، دق الخطباء المقدسون طبول الشقاق وربما أعلنوا العصيان . وحير الغموض افهام مجامعهم ، والهب القذع والسباب مشاعرهم ، فاندفعوا من المعابد المسيحية فى أنطاكية والاسكندرية . وضربوا فى الأرض ، موطنين النفس على ملاقاة المكاره او على الاستشهاد . ان فساد الذوق واللغة ملحوظ بوضوح فى خطابات الأساقفة اللاتين العنيفة ، ولكن خطب جريجورى وكريسستوم قورنت بأروع اساليب أثينا ، او على الأقل بأساليب البلاغة الآسيوية (١) .

٧ — كان ممثلو الدولة المسيحية يجتمعون بانتظام فى الربيع والخريف من كل عام ، وقد اشاعت هذه الاجتماعات روح النظام والتشريع الكنسيين فى ولايات العالم الرومانى البالغ عددها مائة وعشرين ولاية . وخولت القوانين رئيس الأساقفة أو المطران سلطة استدعاء الأساقفة المعاونين فى الولاية ومراجعة تصرفاتهم وتاييد حقوقهم واعلان اخلاصهم ، الى جانب سلطته فى فحص أهلية المرشحين الذين انتخبهم رجال الدين والشعب لملء الشواغر فى المناصب الأسقفية . وعقد احبار روما والاسكندرية وانطاكية وقرطاجه ، ثم القسطنطينية فيما بعد ، الذين كان لهم اختصاص أوسع ، الاجتماعات الكبيرة التى كان يشهدها الأساقفة التابعون لهم . اما الدعوة الى عقد المجالس الضخمة أو غير العادية فكانت من حق الامبراطور وحده . فاذا اقتضت الظروف الطارئة فى الكنيسة مثل هذا الاجراء الحاسم ، اصدر امرا لا راد له بدعوة الأساقفة او ممثلى الولايات ، مع الترخيص لهم باستعمال خيل البريد ، وصرف مبلغ كاف لتغطية نفقات رحلتهم . وفى فترة مبكرة حين كان قسطنطين حامى الكنيسة ، اكثر منه مهتديا الى المسيحية ، احال منازعات الكنيسة الأفريقية الى مجلس آرل الذى كان يشهده اساقفة يورك وتريف وميلان وقرطاجة بوصفهم أصدقاء واخوة ، ليناقشوا بلغتهم الوطنية ، المصلحة المشتركة الكنيسة

---

(١) يقر هؤلاء الخطباء المتواضعون بانهم طالما حرموا هبة المعجزات ، فقد سموا الى الاخذ بنصيب من فنون البلاغة .

اللاتينية أو الغربية . وبعد ذلك بإحدى عشرة سنة انعقد مجمع أكثر عدداً وشهرة فى نيقيا بولاية بيثينيا ، ليخمدوا بحكمهم النهائى ذلك النزاع الحاد الذى نشأ فى مصر حول موضوع التثليث . واستجاب ثلاثمئة وثمانية عشر أسقفا لدعوة مليكهم المتسامح . وقدر عدد رجال الكنيسة من كل مرتبة وشيعة وملة بنحو ألفين وثمانية وأربعين شخصا ، وحضر اليونان بأشخاصهم ، أما اللاتين فقد عبر عنهم مندوبو الحبر الرومانى . وكثيرا ما شرفت الدورة التى استمرت نحو شهرين بحضور الامبراطور نفسه ، وكان يترك حراسه لدى الباب ، ويجلس على كرسى قصير (بإذن من المجلس) وسط القاعة . وأنصت قسطنطين دون ملل ، وتحدث فى تواضع ورقة ، على حين أثر الامبراطور على مجرى المناقشة ، نراه يعلن فى خشوع وخضوع أنه سادن ، وليس حكما بين خلفاء الرسل الذين أقيموا قديسين وآلهة فى الأرض . ومثل هذا التبجيل العميق الذى يبديه حاكم مطلق نحو جماعة ضعيفة عزلاء من رعاياه لا يمكن أن يقارن الا بالاحترام الذى كان يبديه نحو السناتو أولئك الأمراء الرومان الذين تبنوا سياسة أوغسطس . وربما عن للفيلسوف الذى يرقب تقلب أحوال الانسان على مدى تلك الخمسين عاما — أن يمعن الفكر فى تاسيتس وهو فى السناتو فى روما ، وقسطنطين وهو فى مجمع نيقية . لقد تحلل آباء الكابيتول وآباء الكنيسة ، بقدر سواء ، من فضائل المؤسسين الأولين . ولكن لما كان أثر الأساقفة أعمق جذورا فى الرأى العام ، فقد احتفظوا بمكانتهم فى زهو أكثر احتشاما ، وقاوموا أحيانا رغبات مليكهم بروح كلها رجولة . ومحا تقدم الزمن والعقيدة ذكريات الضعف والهوى والجهل التى وصمت هذه المجالس الكنسية Synods ، وخضع العالم الكاثوليكى بالاجماع للأوامر « المعصومة » التى تصدر عن المجالس العامة .

الفصل الحادي والعشرون

مذهب آريوس · مجمع نيقيا والطبقة الواحدة

الأباطرة والجدل حول مذهب آريوس ● أخلاق أثناسيوس ومغامراته مجمع آرل ، ومجمع ميلان ● الطابع العام للطوائف المسيحية

واجه قسطنطين فى مستهل عهده مشكلة الهرطقة المسيحية · ففى افريقية بدأ اتباع دوناتوس Donatus ، وهو اسقف قرطاجة المنافس ؛ انشقاقا دام فى تلك الولاية ثلاثمئة عام ـ وهو عمر المسيحية نفسها فى افريقية · غير أن أكثر نزاعات ذلك العصر انتشاراً وأعمقها جذوراً هو الذى يتعلق بالتثليث ، وهو مذهب يمكن تتبعه ، على أقل تقدير ، الى نظرية افلاطون عن الكون · ففى القرن الأول بعد الميلاد اثارت مسألة طبيعة ((ابن الله)) الهرطقة الأبيونية (١) والهرطقة الغنوصية المعارضتين · وفى نهاية القرن دحضت هاتان الهرطقتان على يدى الحوارى الرابع ، وهو القديس يوحنـا الذى فسر نظرية الكون الأفلاطونية تفسيرا مسيحيا ، وأظهر أن يسوع المسيح هو الكيان الذى تجسد فيه « الكلمة » أو العقل Logos الذى تحدث عنه افلاطون ، والذى كان مع الله منـذ البدء ، وهذه العلاقة الأزلية بين « كلمة الله Logos » وبين « الآب » هى التى اعترض عليها آريوس · ولقد أصبح مذهب آريوس ، الذى دام حتى عصر ثيودوريك وكلوفيس مذهبا معـارضا كبيرا فى العـالم المسيحى ·

بعد أن أعاد مرسوم التسامح الأمن والراحة للمسيحيين ثار الجدل من جديد حول نظرية التثليث فى الموطن القديم للافلاطونية ، ألا وهو مدينة الاسكندرية التى ضجت بالصخب والبذخ ، وازدهرت بالمعـلم ،

---

(١) الأبيونيو طائفة من قدامى المسيحيين يتمسكون بشريعة موسى وينكرون معجزة مولد المسيح ـ (المترجم) ·

وسرعان ما امتد لهيب النزاع الدينى من المدارس الى رجال الدين والشعب ، والى الولاية والشرق • وأثيرت مسألة أبدية « اللوجوس » (الكلمة) ، وهى مسألة تدق عن الفهم ، فى المؤتمرات الكنسية والمواعظ التى تلقى على الشعب • وسرعان ما أصبحت الآراء المعارضة التى نادى بها آريوس آراء علنية بفضل حماسه وحماس خصومه. ولقد اعترف أشد خصومه عنادا بعلم شيخ الكنيسة الرفيع المقام الذى لم تشب حياته شائبة والذى أعرض فى انتخاب سابق ، بل وأعرض فى جرأة ، عن حقه فى كرسى الأسقفية ، ووقف منه منافسه الاسكندر موقف قاضيه • ثم نوقشت القضية الهامة أمامه ، واذا كان قد بدا مترددا فى أول الأمر فانه نطق أخيرا بحكمه النهائى الذى يقضى بالايمان المطلق • أما شيخ الكنيسة آريوس الذى لم تهن عزيمته والذى صمم على مقاومة سلطة أسقفه الغاضب ، فقد حرم من عضوية الكنيسة . غير أن كبرياء آريوس لقيت تأييداً واستحسانا من فئة كبيرة من الناس ، وكان من بين أتباعه المقربين أسقفان من مصر ، وسبعة شيوخ ، من شيوخ الكنائس ، واثنا عشر شماسا وسبعمائة عذراء (وهو شىء لا يكاد يصدق) • ويبدو أن أغلبية كبيرة من أساقفة آسيا كانت تؤيد أو تحبذ قضيته ، ومن وراء هؤلاء كان يقف يوسوبوس كبير قساوسة قيصرية وأعلم القساوسة المسيحيين ، ويوسوبوس كبير قساوسة نيقوميديا الذى اكتسب شهرة الرجل السياسى دون أن يفقد شهرته كقديس .أما مجالس الكنيسة فى فلسطين وبيثينيا ، فقد كانت معارضة لمجالس الكنيسة فى مصر ، ولقد أثار هذا النزاع اللاهوتى اهتمام الأمير والشعب ، وأحيل الفصل فيه ، بعد ست سنوات الى السلطة العليا للمجلس العام فى نيقيا •

وعندما تعرضت أسرار العقيدة المسيحية تعرضا خطيرا للنقاش العام ، استطاع الادراك البشرى أن يكون ثلاثة اتجاهات واضحة ، ولو أنها غير كاملة ، فيما يختص بطبيعة الثالوث الالهى ، وقيل ان أيا من هذه الاتجاهات لم يكن خلوا من الهرطقة والخطأ ، بالمعنى الخالص المطلق •

١ ــ وبمقتضى الفرض الأول ، ومن ورائه آريوس وتلاميذه ، فان اللوجوس (كلمة الله) كان خلقا معتمدا على غيره ، خلقته ارادة الآب من العدم • وهذا الابن ، الذى صنع كل شىء (١) ، قد ولد قبل كل

(١) عندما دخلت نظرية الخلق المطلق من العدم بين المسيحيين بصورة تدريجية ، كانت ترتفع كرامة العامل بشكل طبيعى مع ارتفاع قيمة العمل •

العوالم ، وان أطول الأزمنة الفلكية لا تعدو أن تكون لحظة عابرة اذا قورنت بمدى وجوده · غير أن هذا الوجود لم يكن أزليا ، بل لقد كان هناك زمن سابق لخلق اللوجوس ، وهو خلق لا يمكن وصفه أو التعبير عنه ، ولقد نفخ الآب سبحانه فى ابنه الوحيد من روحه ، وغمره فى فيض من نور مجده وعظمته · ولقد رأى هذا الابن ، وهو صورة منظورة لكمال غير منظور ، على مسافة غير محدودة القياس تحت قدميه ، عروش ألمع رؤساء الملائكة · غير أن الضوء الذى كان يشعه كان منعكسا عليه ، وكان يحكم العالم خضوعا لارادة أبيه ومليكه ، شأنه فى ذلك شأن أبناء أباطرة الرومان الذين كانوا يمنحون لقب قيصر ولقب أوغسطس ·

٢ — أما الفرض الثانى فانه يقرر أن اللوجوس يمتلك كل الكمال الكامن الذى لا يمكن أن ينتقل الى غيره ، والذى تنسبه الديانة والفلسفة الى الله جل جلاله ، وأن الجوهر الالهى يتألف من ثلاثة عقول أو ثلاث مواد مميزة ولا نهاية لها ، وهى كائنات تشترك فى أنها متساوية وابدية ، وأنه لمن التناقض أن يقال ان أيا منها لم يكن له وجود ، أو ان وجودها سوف ينتهى يوما · ولقد حاول أنصار هذا الفرض ، الذى يبدو انه يشكل ثلاثة آلهة مستقلة ، أن يبقوا على وحدة « خالق الكل » الذى يبرز دوره الهام فى شكل الدنيا ونظامها بقولهم ان هذه الآلهة الثلاثة متفقة اتفاقا دائما فى عملها وفى التطابق الجوهرى لمشيئتها · وفى مقدورنا أن نلاحظ شبها ضعيفا لوحدة العمل هذه فى مجتمعات الانسان ، بل وفى مجتمعات الحيوان · فالأسباب التى تفسد ما بين الناس من اتساق انما تنشأ مما تتسم به صفاتهم من نقص ومما بينها من اللامساواة · غير أن القدرة على كل شىء التى تسترشد بالحكمة اللانهائية والصلاح اللانهائى لا يمكن أن تعجز عن اختيار الوسائل لتحقيق الأهداف الواحدة ·

٣ — أما الفرض الثالث فانه يقرر وجود ثلاثة كائنات تملك بحكم الضرورة المستمدة من ذواتها كل الصفات الالهية فى أسمى درجاتها ، وهذه الكائنات الثلاثة أبدية فى زمانها ، لا نهائية فى مكانها ، وثيقة الوجود بعضها مع بعض ، وفى الكون كله · ومن ثم فهى تفرض نفسها على العقل الحائر باعتبارها كائنا وحيداً ، يستطيع فى نطاق الحياة وفى نظام الطبيعة أن يتجلى فى أشكال مختلفة ، ويمكن أن ينظر اليه من جوانب مختلفة · وبمقتضى هذا الفرض يسمو التثليث المادى الحقيقى ويصبح تثليثا من حيث الأسماء ومن حيث الصفات المجردة التى

لا تبقى الا فى العقل الذى يفهمها . وهكذا لا يعود اللوجوس شخصا بل صفة · أما صفة « الابن » فلا تنطبق الا مجازا على العقل الأزلى الذى كان مع الله منذ البدء ، ذلك العقل الذى صنع كل شيء · ويغدو تجسيد اللوجوس مجرد وحى من الحكمة الالهية هبط على الانسان « يسوع » فملأ جوانب نفسه وهدى كل أعماله · وهكذا ترانا ندور فى الدائرة اللاهوتية ، ويدهشنا أن السابلى (١) The Sabellian ، ينتهى حيث بدأ الابيونى من قبله ، وأن السر الغامض الذى يدق عن الفهم والذى يثير اعجابنا ، يستعصى على بحثنا ·

مجمع نيقيا والطبيعة الواحدة

اذا سمح لأساقفة مجمع نيقيا أن يتبعوا فى غير تحيز ما تمليه عليهم ضمائرهم فما كان لآريوس وزملائه أن يعللوا أنفسهم بآمال الحصول على أكثرية من الأصوات فى جانب فرض يتعارض تعارضا مباشرا مع الرأيين اللذين يتمتعان بأكثر شعبية فى العالم الكاثوليكى . وسرعان ما أدرك هؤلاء خطورة موقفهم ، وأظهروا فى كثير من الحكمة تلك الفضائل المتواضعة ، التى قلما يمارسها ، بل وقلما يمتدحها الا الجانب الأضعف ، اذا ما احتدمت نزعات أهلية أو دينية . فأوصوا بممارسة ما تنص عليه المسيحية من محبة واعتدال ، وأكدوا أن الجدل القائم لا تفهم طبيعته ، ورفضوا الاعتراف باستعمال أية ألفاظ أو تعريفات ليس لها وجود فى الكتاب المقدس ، وأبدوا استعدادهم فى كثير من السخاء لارضاء خصومهم دون أن ينكروا نزاهة مبادئهم الخاصة · غير أن الحزب المنتصر تلقى كل عروضهم ومقترحاتهم بشك ممزوج بروح التعالى ، وسعى سعيا حثيثا الى ايجاد نقط خلاف لا تقبل الاتفاق والتراكى ، بحيث يؤدى رفض فريق آريوس لها الى ايقاعهم فى اثم الهرطقة وما يترتب عليها ، فقرىء على الملأ خطاب من يوسوبوس النيقوميدى ، ثم مزق تمزيقا مشينا ، وفى هذا الخطاب اعترف رئيسهم هذا اعترافا صريحا بأن قبول فكرة الطبيعة الواحدة ، وهى فكرة مألوفة لدى الأفلاطونيين ، هو شيء يتنافى مع مبادىء نظامهم اللاهوتى " وتعلق الأساقفة فى لهفة بهذه الفرصة المواتية ، وهم المتحكمون فى قرارات المجلس ، وعلى حد التعبير القوى الذى قاله « أمبروز » فقد

---

(١) نسبة الى Sabellius (القرن الثالث) الذى كان يعلم أن الآب والابن والروح القدس هم شخص واحد فى ثلاثة أقانيم ·

استخدموا السيف الذى سلته الهرطقة نفسها من غمده لقطع رأس الوحش المقوت ، وأقر مجمع نيقيا مبدأ أن الآب والابن من جوهر واحد أو من مادة واحدة Consubstantialism وافقت عليه منذ ذلك الوقت بالاجماع الكنائس اليونانية واللاتينية والكنائس الشرقية وكنائس البروتستانت ، كمادة أساسية فى الايمان المسيحى · وما كان لهذه العبارة (الجوهر الواحد) أن تلائم تلك الأكثرية التى أدخلتها فى العقيدة الصحيحة اذا لم تكن قد دمغت الهراطقة وجمعت كلمة الكاثوليك ، وكانت هذه الأكثرية تتألف من فريقين يتسمان بنزعة مضادة لأحاسيس أصحاب مذهب الآلهة الثلاثة The Tritheists ، وأصحاب مذهب الاله الواحد فى ثلاثة أقانيم وهم السابليون Sabellians · ولما بدا أن هذين المذهبين المتعارضين من شأنهما أن يقوضا أسس الديانة الطبيعية أو الموحى بها ، فقد اتفق أصحابهما على تخفيف صلابة مبادئهم ، وتجاهل النتائج التى قد يفرضها خصومهم ، وهى نتائج عادلة ولكنها تثير الحقد والفرقة · ودفعتهم مصلحة القضية المشتركة الى ضم صفوفهم واخفاء ما بينهم من خلافات ، وخفف النصح بالتسامح من العداوة القائمة بينهم ، وتوقفت نزعاتهم باستخدام التعبير الغامض – الطبيعة الواحدة Homoousion الذى أصبح كل فريق حرا فى تفسيره وفق ارادته الخاصة · أما المعنى الذى قصده السابليون ، وهو الذى أرغم مجلس انطاكية قبل ذلك بخمسين عاما على تحريم هذا اللفظ الشهير ، فقد حبب فيه أولئك اللاهوتيين الذين كانوا يميلون ميلا سريا وان يكن جزئيا الى الأخذ بمبدأ التثليث الأسمى · غير أن قديسى عصر آريوس الأكثر أخذا بالجديد مثل أثناسيوس الجرىء وجريجورى نازيانزى العالم وغيرهم من عمد الكنيسة الذين كانوا يؤيدون عقيدة « نيقيا » · فقد بدا أنهم يعتبرون كلمة « المادة » على أنها مرادف لكلمة « الطبيعة » ، وكان لديهم من الجرأة ما يدفعهم الى توضيح المعنى الذى يقصدونه بتأكيدهم أن ثلاثة رجال ينتمون الى جنس واحد مشترك هم فى واقع الأمر من مادة واحدة أو من طبيعة واحدة · ومما يؤدى ، من ناحية ، الى اتساق هذا التساوى الخالص توحيدا لا يقبل الانفصال ويؤدى اليه ، ومن الناحية الأخرى ، سمو الآب الذى كان مسلما به ما دام متمشيا مع استقلال الابن · وفى داخل هذه الحدود فان العقيدة الصحيحة المتأرجحة التى لا يكاد يفطن اليها أحد استطاعت أن تتذبذب فى أمان · وعلى جانبى هذا المجال الذى كان موضع تقديس من الجميع ، وبمنأى عنه ، كمن الهراطقة من ناحية ، وأشباه القديسين من ناحية أخرى للانقضاض على الضال التعس والتهامه · ولما كان مبلغ الكراهية اللاهوتية انما يتوقف على روح

القتال لا على أهمية الخصومة، فان الهراطقة الذين انحط مركزهم عوملوا معاملة أشد وأقسى من معاملة أولئك الذين حطموا شخص الابن . ولقد استنفدت حياة أثناسيوس فى مقاومة لا تلين ولا تهدأ شنها على الجنون الضال الذى اتصف به أتباع آريوس ، ولكنه دافع أكثر من عشرين عاما عن مذهب «السابلية» الذى نادى به « ماركللوس » الأنسيرى Marcellus of Ancyra وعندما أرغم فى نهاية الأمر على الانسحاب من عضوية الكنيسة ، ظل يذكر فى ابتسامة غامضة الأخطاء العريضة التى ارتكبها صديقه المبجل .

ولقد نقشت سلطة المجلس العام، الذى اضطر اتباع آريوس أنفسهم الى الخضوع اليه ، على ألوية الفريق الأورثوذكسى (صاحب العقيدة الصحيحة) تلك الحروف الغامضة لكلمة « الطبيعة الواحدة » التى أسهمت أساسا ، ورغم بعض الخلافات الغامضة ، فى المحافظة على وحدة الايمان ، أو على الأقل وحدة التعبير ، وفى دوام هذه الوحدة ومن ثم فان أتباع هذا الفريق الذى نادى بمذهب « الطبيعة الواحدة » أو « المادة الواحدة » ، والذى أكسبه نجاحه الحصول على اسم « الكاثوليك » ، أخذوا يفخرون ببساطة وثبات عقيدتهم ، ويسبون تقلب خصومهم الذين كانوا يفتقرون الى أى مبدأ معين من مبادىء الايمان . أما رؤساء آريوس ، فان اخلاصهم أو دهاءهم وخوفهم من القوانين أو من الناس ، وتقديسهم للمسيح ، وكراهيتهم لأثناسيوس ، وجميع الأسباب الالهية والبشرية ، مما يؤثر فى آراء أى حزب لاهوتى ويزعجها ، كل أولئك بعث فى أبناء هذه الطائفة روح التنافر والتخلخل التى خلقت فى مدى سنوات قلائل ثمانية عشر نموذجا دينيا ، وانتقمت للجرح الذى أصاب كرامة الكنيسة . وانك لترى الرجل المتحمس « هيلارى » Hilary الذى دفعته المحن الخاصة التى أحاطت بمركزه الى التخفيف من أخطاء رجال الدين الشرقيين لا الى تضخيمها ، ترى هذا الرجل يعلن أنه فى المدى الفسيح للولايات العشر الآسيوية التى نفى اليها لا تستطيع أن تجد الا قلة قليلة من كبار رجال الدين احتفظت بمعرفة الاله الصحيح . ولقد أدى الظلم الذى شعر به والفوضى التى شاهدها وكان فريسة لها ، الى تهدئة مشاعر الغضب التى احتدمت فى نفسه ، فى فترة وجيزة . وفى القطعة التالية التى سوف أنقل منها سطورا قليلة ينحرف أسقف بواتييه دون حذر الى أسلوب فيلسوف مسيحى ، فيقول : « انه لمن المؤسف والخطير على السواء أن هناك من العقائد بين الناس بقدر ما يعتنقون من آراء ، ومن المذاهب بقدر ما لهم من اتجاهات وميول ، وأن هناك من دواعى الكفر بقدر ما نرتكب من

اخطاء ، وذلك لأننا نصنع العقائد على هوانا ونفسرها بالطريقة عينها . فالمجامع المتعاقبة تنبذ مذهب الطبيعة الواحدة ، ثم تقلبها ثم تهون من شأنها . وقد أصبح التشابه الجزئى أو الكلى بين الآب والابن موضع جدل ونقاش فى هذه الأيام التعسة . وفى كل سنة ، بل وفى كل شهر ، نصنع عقائد جديدة لنفسر بها غوامض خفيفة . ونندم على ما فعلنا ، وندافع عن النادمين ، ثم نصب اللعنة على أولئك الذين دافعنا عنهم . وندين مذهب الآخرين ، ويمزق بعضنا بعضا ، ومن ثم فقد كان كل منا سببا فى هلاك الآخرين » .

ولا ينتظر أحد منى ، بل وربما لا يطيق ، أن اضخم هذا البحث اللاهوتى الخارج عن الموضوع بتمحيص دقيق للعقائد الثمانى عشرة التى نبذ واضعوها فى أكثر الأحيان ذلك الاسم المكروه ، اسم أبيهم اريوس . وأنه ليلذ للدارس المجد أن يرسم شكلا لنبات غريب ويتتبع نموه ، غير أن التفاصيل المجهدة التى تتناول وجود أوراق دون ازهار ، وغصون دون ثمار ، من شأنها ان تؤدى الى نفاد صبره ومضايقة حبه للاستطلاع . ومع ذلك فهناك مسألة انبثقت تدريجيا من الجدل الدائر حول مذهب آريوس ، ويجدر بنا ملاحظتها لانها خلقت وميزت الطوائف الثلاث التى لم يوحد صفوفها الا كراهيتها المشتركة لمذهب الطبيعة الواحدة الذى اقره مجمع نيقيا . ١ — فاذا ما سئلوا عما اذا كان الابن هو شبه الآب اجاب الهراطقة المتمسكون بمبادىء آريوس ، أو قل بمبادىء الفلسفة، اجابة قاطعة بأن الأمر ليس كذلك ، لأن تلك المبادىء تقضى بوجود فرق لا نهائى بين الخالق وبين اسمى مخلوقاته . وقد اخذ بهذه النتيجة البينة شخص اسمه ايتيوس Aetius أطلق عليه خصومه المتحمسون اسم « الملحد » . وهذا الرجل دفعته روحه القلقة المتطلعة الى مزاولة كل مهنة من مهن الحياة الانسانية تقريبا . فقد كان على التوالى رقيقا ، أو على الأقل فلاحا ، ثم مصلحا جوالا للأوانى ، ثم صائغا ، ثم طبيبا ، ثم معلما ، ثم لاهوتيا ، واخيرا أصبح رسولا لكنيسة جديدة لقيت رواجا بفضل قدرات تلميذه يونوميوس Eunomius ولقد كان ايتيوس مسلحا بنصوص من الانجيل وباقيسة منطقية مستمدة من منطق أرسطو ، ومن ثم فان هذا الرجل الماكر اكتسب شهرة المجادل الذى لا يقهر ، والذى لا يستطاع اسكاته أو اقناعه . ولقد مكنته هذه المواهب من كسب صداقة اساقفة مذهب اريوس . الى أن اضطروا الى نبذ ، بل ومجافاة ، حليف خطير اثار رأى الشعب ضد قضيتهم بدقة محاجته ، واساء الى التقوى التى كان يتصف بها أتباعهم المخلصون اكبر الاخلاص لمذهبهم . ٢ — ان

القدرة على كل شيء التي يتصف بها الخالق أوحت بحل مقبول لمشكلة التشابه بين الآب والابن ، وفي مقدور الايمان أن يقبل ما لا يجرؤ العقل على انكاره ، وهو أن الله العظيم يمكنه أن ينقل صفات كماله اللانهائي الى من يشاء ويخلق مخلوقا لا يماثل أحدا الا هو . وكان السند القوي لأتباع آريوس ما هنالك من وزن وقدرات لزعمائهم الذين تولوا رعاية قضية يوسوبيوس وجلسوا على العرش الرئيسي في الشرق . ولقد كرهوا ، وربما في شيء من التظاهر ، ذلك الضلال الذي اتصف به ايتيوس ، وقرروا أنهم يعتقدون ، اما دون تحفظ أو بناء على ما ورد في الانجيل ، ان الابن يختلف عن كل المخلوقات الأخرى ، ولا يشبه أحد الا الآب . ولكنهم أنكروا أن الابن من مادة الآب نفسها أو من مادة شبيهة وفي بعض الأحيان كانوا يبررون في جرأة هذا الخروج ، وفي أحيان أخرى كانوا يعترضون على استخدام كلمة « المادة » التي يبدو أنها تعطي فكرة مناسبة ، أو على الأقل فكرة مميزة ، عن طبيعة الاله الأعظم .

٣ ـ أما الطائفة التي كانت تقول بمذهب المادة الشبيهة فقد كانت أكثر الطوائف عددا، على الأقل في ولايات آسيا. وعندما اجتمع زعماء الطائفتين في مجمع سلوقيا Selecuia ، تغلب رأي هذه الطائفة بأكثرية مائة أسقف وخمسة ضد ثلاثة وأربعين أسقفا . أما الكلمة اليونانية التي وقع عليها الاختيار للتعبير عن هذا التشابه الغامض بين الآب والابن ، فانها وثيقة الشبه بالكلمة التي كان يستخدمها أصحاب المذهب الصحيح (الأورثوذكس) الى درجة أن غير العالمين بالدين في كل عصر كانوا يسخرون من المشادات العنيفة التي احتدمت من جراء وجود اختلاف في مقطع صوتي واحد بين كلمتي Homoiousians و Homoiousians وكثيرا ما يحدث أن الأصوات والحروف التي تشبه بعضها بعضا أشد الشبه تمثل بمحض الصدفة أفكارا أكثر ما يكون تعارضا ، ومن ثم فان هذه الملاحظة تصبح مضحكة في حد ذاتها ، لو أنه كان ممكنا أن نتبين أي فرق حقيقي معقول بين مذهب أولئك الذين أطلق عليهم دون وجه حق اسم أشباه أتباع مذهب آريوس وبين مذهب الكاثوليك أنفسهم . أما أسقف بواتييه الذي كان يهدف في كثير من الحكمة وهو في منفاه في ولاية « فريجيا » الى تحقيق ائتلاف بين الأحزاب ، فقد حاول أن يثبت أن التشابه بين الآب والابن Homoiousion ، يمكن أن يعني أنهما من جوهر واحد اذا توخينا الاخلاص والتقوى في التفسير . غير أنه يعترف بأن هذه الكلمة لها جانب غامض يثير الشبهة . ولما كان الغموض شيئا يتناسب مع النزاعات اللاهوتية ، فان أشباه أتباع آريوس الذين تقدموا نحو أبواب الكنيسة أخذوا يهاجمونها بأقسى ما يكون من الغضب .

الأباطرة والجدل حول مذهب آريوس

كانت ولايات مصر وآسيا التى احتضنت لغة اليونان وعاداتهم قد تناولت جرعات كبيرة من سموم الجدل الذى قام حول مذهب آريوس ٠ وزودت الدراسة غير المألوفة لمذهب أفلاطون بما فيهـا من ميل عقيم للنقاش وتوفر المصطلحات المرنة المطاطة ، كل أولئك زود الشعب ورجال الدين فى الشرق بمعين لا ينضب من الألفاظ والتمييزات ٠ وفى خضم نزاعاتهم الحادة ، نسوا فى سهولة ذلك التشكك الذى تحبذه الفلسفة ، وذلك الخضوع الذى يحتمه الدين ٠ أما أهل الغرب فقد كانوا أقل فضولا ، ولم تكن الأشياء غير المرئية لتثير عواطفهم بمثل تلك القوة ، كمـا أن عقولهم كانت أقل مرانا على عادات النقاش والجدل ، وكانت الكنيسـة الغالية The Gallican Church على قدر من نعيم الجهل ، الى حد أن هيلارى نفسه بعد أكثر من ثلاثين عاما من المجلس العـام الأول ، كان لا يزال غريبا على عقيدة نيقيا ٠ وكانت أشعة المعرفة بالأمور اللاهوتية قد نفذت الى اللاتين عن طريق الترجمة ، وهو طريق غامض محفوف بالشك . فان لغتهم الوطنية الفقيرة الجامدة لم تستطع دائما أن تسعفهم بمصطلحات مناسبة تقابل المصطلحات اليونانيـة ، والكلمات الفنيـة الواردة فى الفلسفة الأفلاطونية ، وهى مصطلحات وكلمات كانت موضع تقديس من الانجيل أو من الكنيسة ، بحيث تمكنهم من التعبير عن أسرار الايمان المسيحى . ولا شك فى أن العجز عن التعبير قد أدخل فى علم اللاهوت اللاتينى سلسلة من الخطأ والالتباس غير أن سـكان الولايات الغربية كانوا ، لحسن حظهم ، قد استقوا دينهم من مصدر صحيح ، ومن ثم حافظوا فى ثبات على المذهب الذى تقبلوه فى لين ويسر ، وعندما اقترب وباء مذهب أريوس من حدودهم كان لديهم فى الوقت المناسب ما يقيهم من شره وهو ايمانهم بالطبيعة الواحدة تحت الرعاية الأبوية التى أظلهم بها بابا روما ٠ ولقد ظهرت احاسيسهم وخلقهم فى المجمع الشهير الذى انعقد فى ريمنى Rimini ، وكان أكثر عددا من مجلس نيقيا لأنه كان مكونا من أكثر من أربعمائة أسقف ينتمون الى ايطاليـا وأفريقيا واسبانيا والغال وبريطانيا والليريكوم Illyricum ٠ وبدا من المناقشات الأولى أن ثمانين أسقفا فقط كانوا يؤيدون فريق أريوس ، رغم أن « هؤلاء » تظاهروا بأنهم يلعنون اسم أريوس وذكراه ٠ غير أن هذه القلة العددية عوضتها مزايا المهارة والتجربة والنظام ، وكان على رأس هذه الفئة القليلة أسقفان من الليريكوم هما فالنز Valens وأوراسكيوس Urascius اللذان قضيا حياتهما فى دسائس البلاط والمجالس ، وتدربا

تحت امرة يوسوبوس فى صراعات الشرق الدينية ، ومن ثم فقد استطاعتا بمحاجتهم وجدلهم أن يحرجا أساقفة اللاتين الأمناء البسطاء ، وتمكنا فى نهاية الأمر من التمويه عليهم وخداعهم . وقد شق على هؤلاء أن تنتزع من أيديهم مقاليد الايمان بالالحاح والخداع لا بالعنف السافر . ولم يسمح لمجلس ريمنى بأن ينفرط عقده حتى التزم الأعضاء دون تعقل أو روية بعقيدة متشككة أدخل فيها من التعبيرات التى تنم عن معنى الهرطقة ما يمس مذهب الطبيعة الواحدة . ولشد ما أدهش العالم فى تلك المناسبة أن يجد نفسه وقد أصبح يدين بمذهب آريوس ، على حد تعبير جيروم . ولكن ما أن وصل أساقفة اللاتين الى أسقفياتهم حتى اكتشفوا خطأهم وندموا على ضعفهم . وقوبل هذا التسليم الشائن المهين بالرفض المشوب بالازدراء والكراهية . أما مذهب الطبيعة الواحدة ، الذى اهتز ولكنه لم يغلب على أمره ، فقد غرس من جديد فى كل كنائس الغرب بصورة أكثر صعوبة وقوة .

هكذا نشأت وتطورت تلك النزاعات اللاهوتية التى أزعجت سلام المسيحية فى عهود قسطنطين وأبنائه من بعده ، وهكذا كان شأن الثورات الطبيعة التى اعتورتها . ولما عمد هؤلاء الأمراء الى مد سلطانهم المطلق على الدين ، كما مدوه على حياة ومصائر رعاياهم ، فان ثقل تأييدهم كان فى بعض الأحيان يرجح كفة الكنيسة ، وأصبح الملك الدنيوى هو الذى يقرر حقوق ملك السماء أو يغيرها أو يعدلها .

ولا شك فى أن روح التيافر التعسة التى سادت ولايات الشرق عاقت فوز قسطنطين ، غير أن الامبراطور ظل فترة من الزمن ينظر الى موضوع النزاع فى فتور ودون اهتمام أو مبالاة . وبما أنه كان لا يزال يجهل الصعوبة القائمة فى طريق تهدئة الخلافات ، فقد أرسل الى الطرفين المتنازعين : الاسكندر وآريوس ، رسالة تدعو الى الاعتدال (١) ، ويمكن أن يعتبر ما جاء بها صادرا من وحى جندى وسياسى فج غرير اكثر من أن يكون مستمدا من فن مستشاريه الدينيين ، وهو فى هذه الرسالة يعزو أصل الخصومة كلها الى سؤال تافه غامض يتعلق بنقطة فى القانون لا يستطاع فهمها ، سؤال سأله الأسقف فى غباء وأجاب عنه القس فى حمق . وهو يرثى فيها لحال الشعب المسيحى الذى يعبد الها واحدا

---

(١) آساءت مبادىء التسامح واللامبالاة الدينية التى تتضمنها هذه الرسالة الى بارونيوس وتلمونت Baronius - Tillemont اللذين يعتقدان أن الامبراطور كان لديه مستشار شرير . هو الشيطان يوسوبوس .

ويدين بدين واحد ويمارس عبادة واحدة ، ومع ذلك يسمح لفروق تافهة أن تؤدى به الى الانقسام . وبعد ذلك يوصى رجال الدين فى الاسكندرية بأن يحذوا حذو فلاسفة اليونان الذين كان فى مقدورهم أن يقرعوا الحجة بالحجة دون أن يطير صوابهم أو يفقدوا أعصابهم ، وأن يؤكدوا حريتهم دون تحطيم صداقتهم . وربما كان من الممكن لمسلك قسطنطين الذى اتسم بالاحتقار واللامبالاة أن يكون له أعظم الفعالية فى فض النزاع لو أن التيار الشعبى كان أقل اندفاعا وعنفا ، أو لو أن قسطنطين نفسه استطاع فى خضم التعصب والتحزب أن يحتفظ بهدوء عقله ورباطة جأشه . غير أن وزراءه من رجال الدين سرعان ما استطاعوا أن يثنوا الحاكم عن موقفه غير المتحيز وأن يوقظوا حماس المرتدين . ولقد أثارته الاهانات التى وجهت الى تماثيله ، وأزعجه المدى الكبير الذى وصل اليه الشر المستطير فعلا وتخيلا . ومنذ اللحظة التى جمع فيها ثلاثمائة أسقف داخل جدران قصر واحد قضى على كل أمل فى السلام والتسامح . وكان حضور الملك لهذا الاجتماع ايذانا بأهمية النقاش كما أن شدة اهتمامه زادت من كثرة الحجج . ولقد أبرز شخصيته بشجاعة ثابتة راسخة أشعلت حماس المتصارعين وزادتهم قوة . ورغم ما قوبلت به فصاحة قسطنطين وحكمته من استحسان وتأييد ، فانه فى موقفه هذا لم يعد أن يكون قائدا رومانيا لا تزال عقيدته موضع شك ، ولا يزال ذهنه بعيدا عن الاستنارة بشىء من الدرس أو الالهام ، تصدى تصديا مستهترا ليناقش باللغة اليونانية مسألة ميتافيزيقية أو مبحثا من مباحث الدين . وربما كانت مكانة صديقه الحميم أوزيس Osius — الذى يبدو أنه كان يرأس مجمع نيقيا — كفيلة بأن تكسب الامبراطور الى جانب المذهب الصحيح . ثم انه وقر فى ذهنه فى الوقت المناسب أن يوسوبوس Eusebius النيقوميدى نفسه ، الذى كان يحمى الآن الهراطقة ، كان منذ عهد قريب عونا للطاغية ، الأمر الذى قد يثير سخطه على أعدائهم . ولقد أقر قسطنطين عقيدة نيقيا ، وأعلن فى عزم واصرار أن أولئك الذين يقاومون الحكم الالهى الذى أصدره المجمع يجب أن يعدوا أنفسهم للنفى من البلاد فورا . وكان من شأن اعلانه هذا أنه قضى على ما كان هنالك من أصوات ضعيفة معارضة ، فانخفض عدد الأساقفة المعارضين على الفور من سبعة عشر أسقفا الى اثنين ، وأرغم يوسوبوس أسقف قيصرية مكرها على تأييد مذهب الطبيعة الواحدة فى عبارات ملتبسة ، كما أن مسلك التردد الذى سلكه يوسوبوس النيقوميدى لم يترتب عليه الا تأخير نفيه والحاق العار به فترة ثلاثة شهور . أما آريوس الضليل فقد نفى فى احدى مقاطعات الليريكوم النائية كما وصم شخصه وتلاميذه بحكم القانون بذلك الاسم الممقوت « البرفيريون » .

Porphyrians (أتباع الأفلاطونية الجديدة) ، وكذلك أحرقت كتاباته وقررت عقوبة الخيانة العظمى على كل من توجد معه تلك الكتابات وهكذا سرت فى الامبراطور روح الخصومة وصيغت مراسيمه بأسلوب ساخط ساخر قصد به أن يوغر صدور رعاياه بتلك الكراهية التى أضمرها لأعداء المسيح ٠

غير أنه يبدو أن الامبراطور كان فى مسلكه هذا مدفوعا بنزعات الهوى بدلا من المبادىء ، ومن ثم فلم تكد تنقضى ثلاث سنوات على مجلس نيقيا حتى استشعر بوادر الرحمة بل والتسامح نحو الطائفة المضطهدة التى كانت أخته الحبيبة ترعاها وتحميها فى غير علانية فاستدعى المنفيون من منفاهم ، واسترجع يوسوبوس نفوذه وتأثيره على عقل قسطنطين ، ثم أعيد الى كرسى الأسقفية الذى كان قد عزل منه بصورة مهينة شائنة . أما آريوس نفسه فقد عومل فى البلاط الامبراطورى كله بالاحترام الذى يستحقه رجل برىء وقع تحت نير الظلم ٠ ثم وافق مجلس أورشليم على مذهبه ، وبدا أن الامبراطور كان يتعجل رفع الظلم الذى أوقعه به ، فأصدر أمرا قاطعا بأن يسمح له بتناول الأسرار المقدسة فى كاتدرائية القسطنطينية ، غير أن القضاء المحتوم وافى آريوس فى نفس اليوم الذى حدد لرد اعتباره ، وثمة ظروف غريبة مزعجة مات فيها هذا الرجل ، وربما أثارت تلك الظروف شكوكا وريبا فى أن قديسى المذهب الصحيح لم يكتفوا بالصلاة لانقاذ الكنيسة من ألد أعدائها ، بل حققوا ذلك بوسائل أشد فعالية (١) ٠ ولقد وجهت اتهامات كثيرة الى الزعماء الثلاثة الكبار للكاثوليك ، أثناسيوس أسقف الاسكندرية ، ويوستاثيوس أسقف انطاكية ، وبولس أسقف القسطنطينية ، فحكمت مجالس كثيرة عليهم بالعزل ، ثم صدر الأمر بنفيهم الى ولايات نائية ٠ وكان الذى أصدر الأمر هو امبراطور مسيحى ، وهو الذى تلقى فى اللحظات الأخيرة من حياته ، شعائر المعمودية على يد أسقف نيقوميديا التابع لمذهب آريوس ، وليس فى مقدورنا أن نخلى حكومة قسطنطين الدينية من أنها كانت ضعيفة طائشة غير أن ذلك الحاكم كان يصدق كل ما يقال له ، ولم يكن بارعا فى مناورات الصراع اللاهوتى ، ومن ثم

---

(١) نستمد القصة الأصلية من أثناسيوس الذى يتورع بعض الشىء عن الاساءة الى ذكرى الميت ٠ وقد يكون مبالغا ، غير أن الاتصال الدائم بين الاسكندرية والقسطنطينية كان كفيلا بأن يجعل اختراع هذه القصة أمرا خطيرا ٠ وأولئك الذين يؤكدون القصة الحرفية لموت آريوس (وهى أن أمعاءه انفجرت فجأة فى بيت الخلاء) يجب أن يختاروا أمرا من اثنين ـ السم أو المعجزة ٠

فقد خدعه الهراطقة باقوالهم المتواضعة المنمقة ، ولم يستطع مطلقا أن يفهم أحاسيسهم فهما كاملا . ومع أنه كان يظل آريوس بحمايته ويضطهد أثناسيوس ، الا أنه كان ولا يزال يعتبر مجلس نيقيا حصنا للديانة المسيحية ومفخرة اختص بها عهده .

ولابد ان أبناء قسطنطين كانوا قد قبلوا منذ طفولتهم بين صفوف من يؤهلون للتعميد ، غير أنهم حذوا حذو أبيهم فى تأخير تعميدهم . وكانوا مثل أبيهم فى الجرأة على اصدار حكمهم فى اسرار وغوامض لم يدربوا على فهمها بصورة منتظمة ، وأصبح مصير النزاع حول مذهب التثليث متوقفا الى حد كبير على مشاعر قسطنطيوس Constantius الذى ورث ولايات الشرق وامتلك الامبراطورية كلها . أما الأسقف الآريوسى (التابع لمذهب آريوس) الذى كان قد اخفى وصية الامبراطور الراحل ليستغلها لمصلحته فقد أحسن الافادة من الفرصة المواتية التى أتاحت له أن يحظى بالفة امير كان ذوو الحظوة لديه والمقربون اليه يتغلبون دائما على مستشاريه الرسميين . ولقد نفث العبيد والخصيان سموم الأفكار الروحانية فى أرجاء القصر ، وانتقلت العدوى الخطيرة من الوصيفات الى الحراس ، ومن الامبراطورة الى زوجها الغر الغافل . وكان قسطنطين يعبر دائما عن محاباته لحزب يوسوبوس ، ونجحت براعة زعماء هذا الحزب فى تقوية هذه المحاباة بصورة غير محسوسة ، كما أن فوزه على الطاغية ماجننتيوس Magnentius زاد من ميله ، كما زاد من قدرته ، على استخدام أساليب القوة لنصرة مذهب آريوس . وبينما كان الجيشان يتقاتلان فى سهول مورسا Mursa ، ومصير المتنافسين معلقا على نتيجة الحرب كان ابن قسطنطين يقضى تلك اللحظات الحرجة فى كنيسة للشهداء تحت أسوار المدينة . ولقد عمد نديمه الروحى ، فالنز Valens ، الأسقف التابع لمذهب آريوس ، الى استخدام احتياطات أشد ما يكون دهاء للحصول على أنباء مبكرة عن المعركة بحيث يكتسب لديه حظوة اذا انتصر أو ييسر له النجاة اذا خسر . ومن ثم فانه استعان سرا بعدد من الرسل الذين تتوفر فيهم السرعة ، والثقة ، فكانوا يخبرونه بتقلبات سير المعركة . وبينما كان رجال البلاط يرتعدون حول سيدهم الذى تولاه الخوف والهلع ، اذا بالأسقف فالنز يؤكد له أن الجيوش

---

(١) يلاحظ المؤرخ ان الخصيان هم الاعداء الطبيعيون « لابن الله » قارن مؤلف الدكتور « جورتن » Remarks on Ecclesiastical History المجلد الرابع – بتسلسل الانساب الذى ورد فى كتاب Candide (الفصل ٤) الذى ينتهى بواحد من أول رفاق كرستوف كولمب .

الغالية قد اندحرت ، وأشار ، فى شىء من حضور الذهن ، الى أن هذا الحدث المجيد قد كشفه له أحد الملائكة · فاستشعر الامبراطور عرفانا بالجميل ونسب فوزه هذا الى تأييد أسقف مورسا وما يتصف به من فضائل ، والى ايمانه الذى استجابت له السماء بصورة علنية ترقى الى درجة الاعجاز · أما أتباع آريوس الذين اعتبروا انتصار قسطنطين كأنه انتصار لهم ، فقد فضلوا مجده على مجد أبيه ، وسرعان ما قام كيرلس (١) Cyril أسقف أورشليم (بيت المقدس) بوصف صليب سماوى يحف به قوس قزح رائع ، وهو الصليب الذى كان قد ظهر فوق جبل الزيتون فى الساعة الثالثة من يوم عيد العنصرة Pentecost لتثبيت ايمان الحجاج وأهل المدينة المقدسة · وجاء فى هذا الوصف أن ذلك الشهاب السماوى قد ازداد حجما بصورة تدريجية ، وأكد المؤرخ الآريوسى فى جرأة أن الصليب كان واضحا أما الجيشين المتقاتلين فى سهول بانونيا Pannonia وأن الطاغية ماجننتيوس الذى مثله المؤرخ عمدا بأحد عباد الأصنام قد لاذ بالفرار أمام صليب المسيحية الصحيحة الذى كان ظهوره بشيرا بالفوز والانتصار ·

وما لا شك فيه أن الأحاسيس التى يشعر بها رجل سليم الحكم تناول دون تحيز تطورات النزاع الأهلى والكنسى ، دون أن يكون طرفا فيه ، لهى أحاسيس يحق لنا دائما أن ندخلها فى اعتبارنا · وانى لأسوق هنا قطعة قصيرة قد يكون كتبها اميانوس Ammianus ، الذى خدم فى جيوش قسطنطين ودرس أخلاقه ، وهى قطعة قد يكون لها من القيمة أكثر من صفحات مليئة بالطعون اللاهوتية : يقول : ذلك المؤرخ المعتدل :«ان الديانة المسيحية فى حد ذاتها واضحة بسيطة ، غير أن قسطنطيوس جعلها مهوشة معقدة بسخف خرافاته ، وبدلا من أن يستخدم ثقل سلطانه فى التوفيق بين الأحزاب ، فقد شجع ونشر الخلافات التى أثارها فضوله الأجوف والتى أذكت نارها النزاعات والمهاترات الكلامية · فامتلأت الطرق بجماعات من الأساقفة يهرعون من كل فج الى الاجتماعات التى يسمونها مجالس كنسية ، ويعملون جاهدين على اخضاع الطائفة كلها الى آرائهم

---

(١) يقول كيرلس فى صراحة ان الصليب فى عهد قسطنطين قد وجد مدفونا فى باطن الأرض ، ولكنه اعتلى قبة السماء فى عهد قسطنطيوس · وهذا التناقض يوضح فى جلاء انه كان يجهل كل شىء عن المعجزة المذهلة التى ينسب اليها تحول قسطنطين الى المسيحية · ويبدو هذا الجهل اكثر مدعاة الى العجب لان اسقف قيصرية الذى جاء بعد يوسوبوس مباشرة ، منح كيرلس لقب أسقف أورشليم بعد فترة لا تزيد على اثنى عشر عاما من وفاته ·

الخاصة ، ومن ثم فقد كاد الخراب ان يحل بكنائسهم العامة نتيجة لتكرار رحلاتهم الطائشة » . وان ما نعرفه معرفة وثيقة عن مجريات الأحداث الكنسية فى عهد قسطنطيوس ، لهو خير تعليق على هذه القطعة ، وهذا الذى نعرفه يبرر المخاوف المعقولة التى كان يخشاها اثناسيوس من أن النشاط الدائب من ناحية رجال الدين الذين كانوا يجوبون أرجاء الامبراطورية بحثا عن العقيدة الصحيحة سوف يثير احتقار العالم غير المؤمن ويصبح مدعاة لسخريته ، وما أن استراح الامبراطور من فظائع الحرب الأهلية حتى كرس وقت فراغه الذى كان يقضيه فى أرل وميلان وسرميوم ، والقسطنطينية لمسرات الخصومة الدينية او متاعبها : ومن ثم فقد شهر سيف الحاكم ، أو فل سيف الطاغية لتنفيذ مبادىء رجال اللاهوت ، وبما انه كان معارضا للعقيدة الصحيحة التى أقرها مجمع نيقيا ، فلابد من الاعتراف بأن عجزه وجهله كانا مساويين لغروره وادعائه . وكان عقله الضعيف المغرور واقعا تحت تأثير الخصيان والنساء والأساقفة ، وهؤلاء جميعا اوحوا اليه بكراهية طاغية لمذهب الطبيعة الواحدة ، غير ان ظلال اتيوس Aetius — كان يزعج ضميره الوجل الهياب ، وقد تضخم جرم هذا الملحد لأنه كان موضع محاباة مريبة من جانب الشقى المنكود جاللوس Gallus ، بل ان مقتل وزراء الامبراطور الذين ذبحوا فى انطاكية انما يعزى الى ايحاء ذلك السفسطائى الخطير . وكان تفكير قسطنطين من النوع الذى لا يلينه التعقل ولا يثبته الايمان ، ومن ثم فقد كان يندفع اندفاعا أعمى الى هذا الجانب من الزاوية المظلمة الخاوية أو ذاك خوفا وفزعا من الجانب المتطرف الآخر ، وكان مرة يرضى عن احاسيس احزاب اريوس واشباهها ، ثم يدينها مرة اخرى ، وطورا ينفى زعماء تلك الأحزاب ثم يعفو عنهم ويستدعيهم . وفى موسم العمل العام أو موسم الاحتفالات كان يقضى اياما باكملها ، بل وليالى كاملة فى انتقاء الألفاظ ووزن المقاطع التى تتألف منها عقائده المتذبذبة . وكان موضوع تفكيره يلاحقه فى نومه ويشغل باله . وكانت الأحلام المفككة التى يحلم بها الامبراطور تعتبر كانها رؤى سماوية ، ولقد تقبل فى رضا وسرور لقب أسقف الأساقفة ، خلعه عليه رجال الكنيسة الذين نسوا مصلحة الطبقة التى ينتمون اليها ارضاء لشهواتهم وأهوائهم . اما فكرة تحقيق وحدة مذهبية التى دفعته الى عقد مجالس دينية كثيرة فى الغال وايطاليا واليريكوم وآسيا ، فقد اخفقت المرة بعد الأخرى ، وكان السبب فى ذلك طيشه وانقسام اتباع اريوس ومقاومة الكاثوليك ، ومن ثم فقد عقد العزم ، كمحاولة اخيرة حاسمة ، على اصدار مراسيم امبراطورية بعقد مجلس عام . غير ان الزلزال المدمر الذى

أصاب نيقوميديا ، وصعوبة العثور على مكان ملائم ، وربما أضيفت الى ذلك دوافع سياسية ، كل أولئك أحدث تغييرا فى مرسوم دعوة المجلس الى الانعقاد · فصدر الأمر الى أساقفة الشرق بالاجتماع فى سلوقيا فى ايزوريا Isauria ، بينما عقد أساقفة الغرب اجتماعهم فى ريمنى على شاطىء البحر الادرياتى · وبدلا من ايفاد مندوبين أو ثلاثة من كل ولاية صدر الأمر بذهاب هيئة الأساقفة بأجمعها · وبعد أن استنفد المجلس الشرقى أربعة أيام فى مناقشة حامية غير مجدية انفرط عقده دون الوصول الى أية نتيجة حاسمة · أما المجلس الغربى فقد امتد انعقاده سبعة شهور ، وصدرت التعليمات الى الوالى البريتورى طوروس Taurus بألا يسمح للأساقفة بالانصراف حتى تتفق كلمتهم جميعا على رأى واحد · وتأييداً لجهوده فى هذه المهمة منح من السلطة ما مكنه من نفى خمسة عشر أسقفا كانوا أشد الأساقفة عنادا وجموحا ، ووعد بأن يرقى الى منصب القنصلية اذا حقق تلك المهمة العسيرة · وفى نهاية الأمر تضافرت توسلات الوالى وتهديداته ، وسلطة الحاكم ، وسفسطة الأسقف فالنز وزميله أوراسكيوس ومحنة البرد والجوع ، والتفكير المحزن فى نفى لا يتسرب اليه أمل · كل أولئك أرغم أساقفة ريمنى على الاتفاق والقبول · وتوجه مندوبو الشرق والغرب الى حضرة الامبراطور فى قصر القسطنطينية ، وهناك كان من دواعى سرور الامبراطور ومتعته أنه فرض على العالم عقيدة التشابه بين الآب والابن دون اشارة الى أنهما من مادة واحدة · غير أن هذا الفوز الذى أحرزه مذهب آريوس كان قد سبقه ابعاد رجال الدين المنتمين الى المذهب الصحيح الأرثوذكسى الذى استحال على الامبراطور ارهابهم أو افسادهم ، وكان تعذيب اثناسيوس العظيم تعذيبا ظالما عقيما ، وصمة عار لطخت عهد قسطنطين ·

أخلاق أثناسيوس ومغامراته

قلما تتاح لنا الفرصة ، فى الحياة العلمية أو فى حياة التأمل ، أن نلاحظ الأثر الذى تحدثه قوة عقل واحد ، أو العقبات التى يتغلب عليها هذا العقل ، اذا ما انصرف فى عزم لا ينثنى ولا يلين الى السعى وراء تحقيق هدف واحد · وان اسم أثناسيوس الخالد لا يمكن أن ينفصل أبدا عن مذهب التثليث الكاثوليكى الذى كرس للدفاع عنه كل لحظة من حياته وكل قدرة عقلية فى كيانه · وبما أنه تعلم وتربى فى أسرة الاسكندر فقد عارض فى عنف وقوة سير هرطقة آريوس فى أوائل عهدها · وكان يشغل وظيفة أمين سر المطران العجوز · ويمارس أعباءها الهامة · وكان

حزبه ، أن يظهر طابع المرونة والتسامح الذى يتصف به زعـيم عاقل حصيف · ولم ينج انتخاب أثناسيوس من اللوم على أنه كان انتخابا شابه التهور وعدم التزام القواعد ، غير أن مسـلكه الرقيق المهذب أكسبه محبة الشعب ورجال الدين سواء بسواء ، وكان أهل الاسـكندرية يتلهفون على امتشاق الحسام دفاعا عن راعيهم فصـيح اللسان كريم الخـلق · وكان فى محنته يجد سندا ، أو على الأقل عزاء ، فى ولاء رجال الدين التابعين لأسقفيته · ومن ثم فقد تمسك أساقفة مصر المائة فى حمـاس لا يفتر ولا يهتز بقضية أثناسيوس · وكثيرا ما كان يقوم بزيارة الأقاليم التابعة له فى حاشية متواضعة توحى بالأنفة والكياسة معـا ، يجوب بها البلاد من مصب النيل الى حدود أثيوبيا ، ويتحـدث فى ألفة مع أدنى طبقات الشعب ، ويلقى السـلام فى تواضع ودعة على نساك الصحراء وقديسيها ولم يتجل سمو عبقرية أثناسيوس فى الاجتمـاعات الكنسية فحسب ، ولا بين أترابه ممن يشبهونه علما وخلقا فحسب ، بل انه كان يبدى فى مجالس الأمراء حزما مقرونا باللين والاحترام · وفى مختلف تقلبات حظه ، يسرا أو عسرا ، لم يفقد لحظة واحدة ثقـة أصدقائه أو حسن تقدير أعدائه ·

ولقد قاوم هذا الأسقف ابان شبابه الامبراطور العظيم قسطنطين الذى طالما عبر عن رغبته فى أن يعاد آريوس الى حظيرة الكاثوليكية ، واحترم الامبراطور هذا العزم الذى لا يلين من جانب أثناسيوس ، وربما تجاوز عنه ، أما أعضاء الفريق الذى كان يعتبر أثناسيوس ألد أعدائه فقد اضطروا الى كتمـان كراهيتهم وصمموا على اعداد هجوم غـير مباشر · ومن ثم فقد روجوا حوله الاشاعات ونثروا الشـكوك ، وصوروه طاغية ظالما عاتيا متكبرا ، واتهموه فى جرأة بأنه خرق الاتفـاق الذى عقده مجمع نيقيا مع المنشقين من أتباع ميليتيوس Miletius ، وكان أثناسيوس قد اعترض فى صراحة على ذلك الصلح الشـائن ، واعتقد الامبراطور أن أثناسيوس قد أساء استغلال سلطته الكنسية والمدنيـة لكى يضطهد ابناء تلك الطوائف المكروهة ، وأنه قد حطم كأس القربان المقدس فى احدى كنائسهم بمريوط ، وبذلك انتهك قدسـية تلك الكنيسـة ، وأنه جلد أو سجن ستة من أساقفتهم ، وأنه قتل أو على الأقل شوه أسقفا سابقـا اسمه ارسينيوس Arsinius دون رحمة أو شفقـة · واحال قسطنطين هذه الاتهامات التى لطخت شرف أثناسيوس وأثرت فى حياته الى أخيه دلماتيوس الذى كان رقيبا يقيم فى انطاكية ، ثم انعقدت مجـالس الكنائس فى قيصرية وصور ، وصدرت التعليمات الى أساقفـة

الشرق بأن ينظروا قضية أثناسيوس قبل تدشين كنيسة القيامة الجديدة فى أورشليم · وكان الأسقف أثناسيوس يدرك أنه برىء ولكنه كان يحس أيضا أن روح الحقد التى أملت الاتهام هى نفسها التى سوف توجه المحاكمة وتنطق بالحكم عليه · ومن ثم فقد أوحت حكمته أن ينبذ محكمة تتألف من خصومه وتجاهل أمر الحضور الذى أصدره اليه مجمع قيصرية · وبعد مماطلة ماكرة طويلة خضع للأوامر القاطعة التى أصدرها الامبراطور وهدد فيها بأن يعاقبه على عصيانه الاجرامى اذا رفض الحضور أمام مجلس صور · وقبل أن يرحل أثناسيوس من الاسكندرية على رأس خمسين أسقفا مصريا ، كان قد توصل فى حرص الى ضمان تحالف أتباع ميليتيوس ، وأخفى بين حاشيته الأسقف أرسينيوس ، ضحيته الموهومة وصديقه السرى · ولقد أدار يوسوبوس أسقف قيصرية مناقشات مجلس صور فى كثير من الانفعال وقليل من الدهاء مما لم يكن متوقعا من علمه وخبرته · وكرر أعضاء حزبه اتهامات لأثناسيوس بالقتل والطغيان ، وشجعهم على الضجيج والصراخ ما كان يبدو على وجه أثناسيوس من علائم الصبر · على حين أنه كان ينتظر اللحظة الحاسمة ليظهر أرسينيوس حيا لم يمسه سوء ، فى وسط الاجتماع ، أما الاتهامات الأخرى فلم تكن فى طبيعتها من النوع الذى يقبل مثل هذه الردود الواضحة المقنعة ، ومع ذلك فقد استطاع كبير الأساقفة أن يثبت أن القرية التى اتهم بأنه حطم فيها كأس القربان المقدس كانت خلوا من أية كنيسة أو مذبح أو أية كأس للقربان · أما أتباع آريوس الذين كانوا فيما بينهم قد قرروا ادانة عدوهم وحددوا الحكم عليه ، فقد حاولوا رغم كل هذا اخفاء ظلمهم باصطناع شكليات قانونية : فعين المجلس لجنة أسقفية مؤلفة من ستة مندوبين لجمع الأدلة من موطن الجريمة نفسه . وهذا الاجراء الذى عارضه ستة من الأساقفة المصريين معارضة قوية كان فاتحة لمشاهد جديدة من العنف : الزور والبهتان ·

وبعد عودة المندوبين من الاسكندرية أصدرت أغلبية المجلس حكمها على أسقف مصر بالتجريد والنفى · ثم أرسل القرار الى الامبراطور والكنيسة الكاثوليكية بعد أن صيغ فى لغة تنم عن القسوة والحقد وروح الانتقام ، وفور ذلك عاود الأساقفة مظهر الدعة والتقى الذى يتناسب مع حجم القدس الى ضريح السيد المسيح .

غير أن هذا الظلم الذى أوقعه القضاة الدينيون بأثناسيوس لم يلق منه استكانة وخضوعا ، بل انه لم يبق فى المدينة كلها انتظارا لمصيره ·

أباء الكنيسة فى مجمع نيقيا يرقبون فى دهشة واجلال ما كان يتحلى به الشماس الشاب من فضائل نامية • ويحدث أحيانا ، اذا ما لاح خطر عام ، أن يتجاوز عن شرط السن أو سمو الرتبة ، ولهذا فانه لم تنصرم فترة خمسة شهور على رجوع الشماس أثناسيوس من نيقيا حتى منح كرسى كبير أساقفة مصر • وقد شغل ذلك المنصب الرفيع اكثر من ستة وأربعين عاما ، وقضى فترة ادارته الطويلة هذه فى صراع دائم ضد مذهب أريوس • ولقد طرد أثناسيوس من هذا المنصب خمس مرات ، وقضى عشرين عاما منفيا أو هاربا لاجئا • ولقد شهدت كل ولاية تقريبا من ولايات الامبراطورية الرومانية ، واحدة بعد الأخرى ، بما كان يتحلى به من فضائل وبما كان يعانيه من آلام فى سبيل قضية «الطبيعة الواحدة» التى كان يعتبرها شغله الشاغل ولذته الوحيدة ، ويرى فيها واجبا لابد من ادائه ومجدا يتوج به حياته • ووسط عواصف الاضطهاد التى تعرض لها أسقف الاسكندرية كان دائبا وصبورا على العمل والجهاد ، زاهدا فى الشهرة ، مستهينا بأمنه وسلامته ، ورغم أن تفكيره كان مشوبا بالتعصب الا انه أظهر سموا فى الأخلاق والقدرات كان كفيلا بأن يؤهله لحكم مملكة عظيمة ، أكثر بكثير من أبناء قسطنطين ذوى الأخلاق المنحلة. وكان علمه أقل عمقا واتساعا من علم يوسوبيوس أسقف قيصرية ، أما فصاحته الفجة فلا يمكن مقارنتها بالخطابة المصقولة التى اشتهر بها جريجورى أسقف بازل Gregory of Basil ولكن كلما كان يطلب من أسقف مصر هذا أن يبرر آراءه أو سلوكه ، فقد كان أسلوبه المرتجل ، سواء فى الحديث أو فى الكتابة ، أسلوبا واضحا قويا مقنعا ، وكان فى المدرسة الأرثوذكسية موضع اجلال دائم كأستاذ اللاهوت المسيحى ، وكان المقول عنه أنه يتقن علمين دنيويين اقل تلاؤما مع الطابع الأسقفى — الفقه القانونى وعلم الغيب • وثمة تكهنات صادقة عن أحداث المستقبل ، كان ينسبها العقلاء غير المتحيزين الى خبرة أثناسيوس وسلامة حكمه على الأمور ، على حين كان أصدقاؤه ينسبونها الى الالهام السماوى ، ويعزوها أعداؤها الى السحر الجهنمى •

ولما كان أثناسيوس منشغلا بصورة مستمرة بتحيزات وأهواء كل طائفة من طوائف الناس ، من الراهب الى الامبراطور ، فان معرفة الطبيعة البشرية كانت أول دراساته وأهمها • وكان فى مقدوره أيضا أن يدرك الى أى مدى يستطيع أن يصدر أمرا جريئا ، ومتى يتحتم عليه أن يلجأ الى لباقة الايحاء ، والى أى حد يستطيع مجابهة القوة ، ومتى ينبغى عليه أن ينسحب من الكفاح • وبينما كان يواجه تحذيرات الكنيسة وتهديداتها ضد الهرطقة والتمرد ، كان فى مقدوره ، وهو وسط

فقد عقد العزم على القيام بتجربة جريئة خطيرة لكى يرى ما اذا كان صوت الحق لا يستطيع طرق اذان العرش الامبراطورى · وقبل أن يصدر الحكم النهائى فى صور اعتلى الأسقف الجسور ظهر سفينة كانت على أهبة الابحار الى المدينة الامبراطورية · ولم يحاول أثناسيون أن يلتمس مقابلة الامبراطور مقابلة رسمية خوفا من أن يقابل التماسه بالرفض أو المراوغة ، ولكنه أخفى نبأ وصوله ، وراقب لحظة عودة الامبراطور من قرية مجاورة ، وتقدم فى جرأة نحو مليكه الغاضب حين كان يمر على ظهر جواد فى الشارع الرئيسى لمدينة القسطنطينية · وقد أثار ظهوره المفاجىء هذا دهشة الامبراطور وسخطه ، وصدر الأمر الى الحراس بابعاد ذلك الرجل اللجوج الملح فى طلبه ، الا أن جلالا لا اراديا لصاحب الحاجة هذا تغلب على سخط الامبراطور واستيائه ، وأخذ الامبراطور المتشامخ الغطريس بشجاعة وفصاحة الأسقف الذى جاء يلتمس عدالته ويوقظ ضميره · وأصغى قسطنطين الى شكوى أثناسيوس بانتباه مشبع بروح الانصاف بل وبروح الرحمة ، ثم استدعى أعضاء مجلس صور لكى يبرروا ما قاموا به من اجراءات · ولولا أن فريق يوسوبيوس ضخم الذنب الذى اقترفه الأسقف بتوجيه اتهام ماكر اليه بأنه ارتكب جرما لا يمكن العفو عنه — وهو أنه وضع خطة لاعتراض وتعويق أسطول القمح السكندرى الذى يمد العاصمة الجديدة بالغذاء ، لولا أنه فعل ذلك لانكشف خبثه وارتبكت خطته الماكرة (١) · وقد اقتنع الامبراطور بأنه اذا أبعد عن الديار المصرية زعيمها الشعبى ضمن بذلك أمنها وسلمها ، ولكنه رفض أن يشغل كرسى الأسقفية برجل آخر ، وبعد تردد طويل أصدر أثناسيوس حكما يتسم بالغيرة ، وهو الابعاد ، وأبى له النفى المشين. ورحل أثناسيوس الى ولاية الغال حيث قضى ما يقرب من ثمانية وعشرين شهرا ضيفا كريما فى معية والى تريف Treves · ثم مات الامبراطور وتغيرت بذلك صورة الشئون العامة ، وفى خضم التساهل الذى اقترن بمجىء العهد الجديد أعيد الأسقف الى بلاده بمرسوم كريم أصدره قسطنطين الأصغر الذى عبر عن شعوره ببراءة ضيفه المبجل وفضله.

---

(١) يسوق يونابيوس Eunapius مثلا عجيبا يدل على قسوة قسطنطين وسرعة تصديقه لما يقال ، فى مناسبة مماثلة · ذلك أن الفيلسوف السورى سوباتر Sopater كان يحظى بصداقة الامبراطور ، وأثار بذلك سخط أبلابيوس ، الوالى البريتورى · وحدث أن أسطول القمح تأخر فى طريقه لعدم هبوب الرياح الجنوبية ، فاستاء لذلك أهل القسطنطينية ، وأمر الامبراطور بقطع رأس سوباتر بتهمة أنه قيد الرياح بقوة سحره · ويضيف سويداس Suidas أن قسطنطين أراد أن يثبت بهذا الحكم انه نبذ خرافة الكفار نبذا مطلقا · ·

غير أن موت ذلك الأمير عرض أثناسيوس للاضطهاد مرة ثانية ، وسرعان ما انضم قسطنطين ، حاكم الشرق ، الى حزب يوسيوبوس وتواطأ معه سرا · ثم اجتمع في أنطاكية تسعون أسقفا من أساقفة تلك الطائفة أو ذلك الحزب تحت ستار الادعاء بتدشين الكاتدرائية · وهناك صاغوا عقيدة مبهمة تصطبغ صبغة خفيفة بلون مذهب أشباه الآريوسيين Semi-Arianism ، ووضعوا خمسا وعشرين قاعدة دينية ما تزال تسير عليها عقيدة اليونان الأرثوذكس · وتقرر ، فى شيء من مظهر العدالة ، أن الأسقف الذى يصدر مجلس كنسي أمرا بفصله ، يجب ألا يباشر مهامه الأسقفية مرة ثانية الا اذا برأه حكم صادر من مجلس كنسى آخر · وطبق القانون فى الحال على قضية أثناسيوس ، وحكم مجلس انطاكية ، أو قل أكد الحكم بتجريده من رتبته الدينية : ثم عين أسقفا غريبا اسمه جريجورى على كرسى الأسقفية ، وصدر الأمر الى فيلاجريوس والى مصر بأن يؤيد الأسقف الجديد بما للولاية من سلطات مدنية وعسكرية · وعندما شعر أثناسيوس بالظلم الذى حاق به من جراء مؤامرة الأساقفة الآسيويين ، رحل عن الاسكندرية وقضى ثلاث سنوات منفيا يعيش فى كنف أعتاب الفاتيكان المقدسة · وهناك ثابر على دراسة اللغة اللاتينية ، واستطاع بذلك أن يفاوض رجال الدين الغربيين ، كما تمكن بشيء من الاطراء والملق المهذب من أن يؤثر فى الحبر الأعظم المتشامخ « يوليوس » ويوجه تفكيره ، ثم استماله الى وضع ظلامته موضع اهتمام خاص من الكرسى البابوى وانتهى الأمر الى أن مجلسا يتألف من خمسين أسقفاً من أساقفة ايطاليا أعلن على الملأ براءته بالاجماع · وبعد ثلاث سنوات استدعى الامبراطور قونستانز Constans الأسقف أثناسيوس للتوجه الى بلاط ميلان · ورغم انغماس الامبراطور فى ملذاته غير المشروعة فانه كان لا يزال يجهر باحترامه للعقيدة الأرثوذكسية الصحيحة · واستخدم تأثير المال لتأييد قضية الحق والعدالة ، ونصح وزراء قونستانز مليكهم بأن يعقد جمعية كنسية تمثل الكنيسة الكاثوليكية · وبناء على ذلك تقابل أربعة وتسعون أسقفا من الغرب وستة وسبعون من الشرق فى مدينة سرديكا (صوفيا) الواقعة على حدود الامبراطوريتين والداخلة فى أراضي الامبراطور حامى أثناسيوس · وسرعان ما انحطت مناقشاتهم الى مستوى المهاترات العدوانية ، فانسحب الآسيويون ، خوفا على سلامة أشخاصهم ، الى مدينة فيليبو فى تراقيا ، وصبت المجامع الدينية المتنافسة غضبها الروحانى بعضها على البعض الآخر ، ورمى كل فريق منها الفريق الآخر ، بدافع من الورع والتقوى ، بأنه عدو الرب الصحيح · ثم أعلنوا قراراتهم ،

بعد التصديق عليها ، كل مجمع فى ولايته ، أما أثناسيوس الذى كان يعتبر فى الغرب فى مصاف القديسين وكان موضع التبجيل والاحترام ، فقد أصبح موضع كراهية الشرق ، وشهر به كرجل مجرم وقد أظهر مجلس سرديكا (صوفيا) أول أعراض التنافر والانشقاق بين الكنائس اليونانية والكنائس اللاتينية التى كان عامل الانفصال بينها خلافا عرضيا من حيث المذهب ، وفارقا دائما من حيث اللغــة ٠

وخلال فترة نفى أثناسيوس الثانية فى الغرب كثيرا ما كان يسمح له بالمثول أمام حضرة الامبراطور ، في كابوا ولودى وميلان وفيرونا وبادوا وأكويليا وتريف ، وجمت العبادة أن يحضر هــذه المقابلات أسقف الأبرشية كما أن رئيس الديوان كان يقف أمام ساتر الغرفة المقدسة ، ومن ثم كان فى مقدور هذين الشاهدين الجليلين أن يشــهدا باعتــدال أثناسيوس اعتدالا ثبت عليه ولم يحد عنه ؛ ومما لا شك فيه أن الحكمة كانت تقتضى أن يتوخى اثناسيوس لهجة الاعتدال والإجلال التى تلائم مركزه كأسقف وكواحد من الرعية ٠ وفى هذه الاجتماعات التى كان يعقدها عاهل الغرب وكانت تسودها الألفة ، كان اثناسيوس يأسف لخطأ قسطنطيوس ، ولكنه كان يهــاجم فى جــرأة كل ما اقترفه خصــيانه وأساقفته الأريوسيون ، ويرثى محنة الكنيسة الكاثوليكيــة والخــطر المحدق بها ، ويحفز قونستانز على أن يحذو حذو أبيه فى حماســته وأموالها لنصرة القضية الأرثوذكسية الصحيحة ، وأرســل الى أخــيه قسطنطيوس رسالة وجيزة حاسمة ذكر له فيها أنه اذا لم يوافق على اعادة اثناسيوس ، فانه هو نفسه سوف يحضر على رأس جيش واسطول ليجلس رئيس الأساقفة على كرسى الاسكندرية ٠ وقد بادر قسطنطيوس الى قبول طلب اخيه، وتفضل امبراطور الشرق بتحقيق الصلح مع فرد من رعيته كان قد ألحق به الأذى ، وبذلك حال دون اشتعــال حــرب دينية بين شقيقين ، كان نشوبها أمراً فظيعــاً يجافى الطبيعة ، وانتظــر اثناسيوس فى عزة نفس كريمة حتى تسلم من الامبراطور ثلاث رسائل متوالية تفيض بأقوى التأكيدات بأنه سوف يكون في حمــاه وموضع رعايته وتقديره ٠ ودعاه الامبراطور فى هذه الرسائل الى الرجوع الى كرسى أسقفيته ، واضاف الى تلك الدعوة احتياطا مذلا بأنه كلف وزراءه بضمان صدق نواياه . وقد دلل الامبراطور على حسن نواياه هــذه بصورة اكثر علانيــة بأن أصدر أوامره الى مصر بأن تستدعي كل انصــار اثناسيوس ، وتعيد لهم حقوقهم وامتيازاتهم ، وتعلن براءتهم ، وتمحو من الســجلات العــامة تلك الاجراءات غير المشروعة التى دونت فيها حين

كان حزب يوسوبوس هو سيد الموقف . بعد أن منح الأسقف أثناسيوس كل أنواع الترضية والضمان التى تتطلبها العدالة ، بل وتقتضيها الكياسة ، بدأ رحلاته البطيئة الى مصر مارا بتراقيا وآسيا وسوريا ، وقد تميزت رحلاته هذه بما أبداه أساقفة الشرق من خضوع مهين أثار احتقاره لهم دون أن يخدع بصيرته النافذة . وفى مدينة أنطاكية قابل الامبراطور قسطنطين ، وتقبل فى حزم متواضع مجاملات مولاه واعتراضاته ، وتهرب من اقتراح الامبراطور الذى طلب فيه بأن يسمح لأتباع آريوس بكنيسة واحدة فى الاسكندرية بأن طلب أن يسمح لأتباعه هو فى مدائن الامبراطورية الأخرى بالمعاملة نفسها ، وهو مطلب بدا عادلا ومعتدلا من رئيس أساقفة مستقل الرأى لا يحابى ولا ينحاز . ودخل أثناسيوس عاصمته فى موكب المنتصرين ، وسط مظاهر ترحيب أهل الاسكندرية الذين ازدادوا تعلقا به بعد غيبته واضطهاده ، ثم مارس سلطته بقوة وصلابة فازدادت رسوخا وثباتا ، وذاعت شهرته من أثيوبيا الى بريطانيا فى طول العالم المسيحى وعرضه .

غير أن التابع الذى أجبر مليكه على المراءاة والتظاهر لا يمكن أن يتوقع منه تسامحا مخلصا دائما ، وسرعان ما حل المصير المحزن بالامبراطور قونستانز ، فحرم أثناسيوس بذلك من ظهير قوى كريم . ثم نشبت بين قاتل قونستانز وبين شقيق الامبراطور الوحيد الذى بقى على قيد الحياة حرب أهلية كانت بلاء شغل الامبراطورية أكثر من ثلاث سنوات ، ولكنها أتاحت للكنيسة الكاثوليكية فترة راحة وأصبح الفريقان المتنازعان راغبين فى كسب صداقة الأسقف أثناسيوس الذى يستطيع بقوة سلطانه الشخصى أن يقرر القرارات المتقلبة التى تصدرها ولاية لها أهميتها ، واستقبل أثناسيوس سفراء الطاغية الذى قتل قونستانز ، واتهم من جراء ذلك فيما بعد بأنه كان على اتصال سرى به . غير أن الامبراطور قسطنطيوس أكد مرارا لأبيه الروحى أثناسيوس ، أجل الآباء وأقربهم الى قلبه ، بأنه رغم الاشاعات الخبيثة الحقودة التى كان يروجها أعداؤهما المشتركون ، فانه قد ورث عن أخيه الراحل عواطفه نحو أثناسيوس كما ورث عرشه . وكان حريا بعرفان الجميل والعاطفة الانسانية أن يدفعا أسقف مصر الى الرثاء للمصير المحزن الذى حل بالامبراطور قونستانز قبل أوانه وان يستفظع جرم قاتله ماجننتيوس Magnentius غير أنه كان يدرك فى جلاء أن مخاوف قسطنطيوس هى ضمانه الوحيد ، ومن ثم فقد رأى أن يخفف من حرارة صلواته من أجل نجاح القضية العادلة . ولم تعد محاولة القضاء على أثناسيوس وقفا على فئة قليلة من الأساقفة الغاضبين المتعصبين

الذين يضمرون له الحقد والكراهية، بل ان الملك قسطنطيوس نفسه اعتزم أمرا طالما كبته وأخفاه وهو الانتقام لما لحق بشخصه من أذى . وفى أول شتاء قضاه فى مدينة آرل بعد انتصاره ، أخذ يستغل الوقت فى مناهضة عدو يضمر له فى نفسه كراهية أشد وأقسى من تلك التى كان يضمرها لطاغية اقليم الغال الذى قهره .

مجالس آرل وميلان

لو أن الامبراطور كان قد أوحى له مزاجه وهواه أن يقرر قتل أعظم مواطنى الجمهورية مقاما وانبلهم خلقا ، لما تردد وزراؤه من أنصار العنف السافر أو الظلم المستتر فى تنفيذ هذا القرار المتسم بالقسوة . غير أن الصعوبة التى لقيها الامبراطور فى ادانة وعقاب الأسقف المحبوب ، بالاضافة الى ما توخاه من حرص وتأخير فى هذا الشأن ، كل أولئك أظهر للعالم أن حقوق الكنيسة قد أحيت فى الحكومة الرومانية شعورا بالنظام والحرية . ولم يكن قد صدر صراحة ما يلغى الحكم الذى أصدره مجمع صور وأيدته أغلبية كبيرة من الأساقفة الشرقيين ، وبما أن أثناسيوس ، بمقتضى ذلك الحكم الصادر من اخوته الأساقفة ، كان قد أنزل من مقامه الأسقفى ، فان أى اجراء تال لذلك الحكم كان يمكن اعتباره اجراء شاذا ، بل واجراميا . غير أن ذكرى التأييد القوى الفعال الذى لقيه أسقف مصر من اتصاله بالكنيسة الغربية أجبرت قسطنطيوس على ايقاف تنفيذ الحكم حتى يحصل على موافقة الأساقفة اللاتين . وانصرم عامان فى مفاوضات كنسية ، ونوقشت القضية الهامة القائمة بين الامبراطور وأحد أفراد رعيته مناقشة جدية فى مجمع آرل أولا ، ثم فى مجمع ميلان الكبير الذى انتظم ثلاثمائة من الأساقفة . وتداعت نزاهة هؤلاء الأساقفة شيئا فشيئا أمام حجج أنصار آريوس ، ومهارة الخصيان ، ووسائل الاغراء والضغط التى مارسها الامبراطور الذى روى ظمأ انتقامه على حساب كرامته ، وأفصح عن أهوائه الشخصية بالطريقة التى اتبعها فى التأثير على أحاسيس رجال الدين . ولجأ كذلك ، وبصورة ناجحة ، الى أسلوب الافساد ، وهو أشد أعراض الحرية الدستورية فعالية ، فعرض الهدايا والحصانات وصنوف التكريم ثمنا للحصول على أصوات الأساقفة (*) ، وصادف هذا العرض قبولا من

(*) ورد ذكر الهدايا والولائم وأساليب التكريم التى أغرت كثيرا من الأساقفة ، فى أقوال أولئك الأساقفة الذين أبى عليهم كبرياؤهم أو نقاؤهم أن يقبلوها ، وكانت كلها موضع سخطهم وازدرائهم . يقول هيلارى أسقف براتييه : « اننا نقاتل قسطنطين عدو المسيح ، الذى يداعب البطون بدلا من أن يلهب الظهور بالسياط » .

الأساقفة ، وصورت ادانة أسقف الاسكندرية بطريقة ماكرة على أنها الاجراء الوحيد الذى يمكنه أن يرد الى الكنيسة الكاثوليكية سلامها ووحدتها . غير أن أثناسيوس لم يعدم الاصدقاء الذين كانوا على استعداد للوقوف الى جانبه والى جانب قضيتهم ، فثبتوا فى المناقشات العامة وفى أحاديثهم الخاصة مع الامبراطور على الالتزام الأيدى بالدين والعدالة تحفزهم على ذلك روح الرجولة والشهامة التى قلل من خطورتها ما كانوا يتصفون به من طابع القدسية . واعلنوا أنه لا الأمل فى حظوة الامبراطور ولا الخوف من غضبه يمكن أن يرغمهم على الاشتراك فى ادانة أخ غائب برىء له احترامه . وأكدوا على أساس ظاهر من الحق أن القرارات العقيمة غير المشروعة التى أصدرها مجلس صور قد أصبحت فى حكم الملغاة ضمنا بفعل المراسيم الامبراطورية ، وبحكم اعادة كبير الأساقفة الى كرسى الاسكندرية بصورة مشرفة ، وبسكوت أكثر أعدائه صخبا أو بانكارهم أقوالهم السابقة عنه . وقالوا ان أساقفة مصر جميعا قد شهدوا ببراءته ، كما أقرتها مجالس روما وسرديكا (صوفيا) بمقتضى حكم الكنيسة اللاتينية غير المتحيزة . ثم أبدوا أسفهم لدقة موقف أثناسيوس الذى يطلب اليه الآن أن يدحض أشنع الاتهامات التى لا أساس لها بعد أن تمتع سنوات عدة بمركزه وبسمعته وبما كان يبديه مليكه من ثقة فيه . ولقد كانت لغتهم منمقة مهذبة ، ومسلكهم شريفا ، غير أن الصراع كان طويلا عنيدا ، وكان من شأنه أن تركزت أبصار الامبراطورية كلها على أسقف واحد ، ومن ثم فان مختلف الأحزاب الكنسية كانت على استعداد للتضحية بالحق والعدالة فى سبيل هدف أكثر أهمية لهم ، وهو الدفاع عن ذلك النصير الجرىء لعقيدة نيقيا بالنسبة لبعض الأحزاب أو التخلص منه بالنسبة للبعض الآخر . ولقد رأى أتباع آريوس أنه من الحكمة أن يخفوا أحاسيسهم وخططهم الحقيقية فى لغة ملتبسة ، غير أن أساقفة المذهب الصحيح الأرثوذكسى ، المزودين بحظوة الشعب وبقرارات صادرة من مجلس عام ، أصروا فى كل مناسبة ، وخاصة فى ميلان ، على أن خصومهم يجب عليهم أن يطهروا أنفسهم من شبهة الهرطقة قبل أن يجرؤوا على اتهام مسلك أثناسيوس العظيم .

غير أن صوت الحق (اذا كان الحق فى جانب أثناسيوس فعلا) أسكتته أصوات صاخبة رفعتها أكثرية مغرضة أو أكثرية باعت ضمائرها . ولم تنفض مجالس ارليل وميلان حتى صدر حكم الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية على السواء بادانة أسقف الاسكندرية وعزله من منصبه . وطلب الى الأساقفة الذين كانوا فى صفوف المعارضة أن يقروا

الحكم ، وأن يتحدوا فى مشاركة دينية مع زعماء الفريق المضاد الذين كانوا موضع شبهتهم • أما الأساقفة الذين لم يحضروا الاجتماع فقد حمل اليهم رسل الدولة اقرارات للتوقيع عليها بالموافقة ، أما الأساقفة الذين رفضوا التنازل عن آرائهم الخاصة والخضوع للقرارات الحكيمة الملهمة التى أعلنتها مجالس آرل وميلان ، فقد أصدر الامبراطور أمرا بنفيهم مباشرة ، متظاهراً فى ذلك بأنه انما ينفذ قرارات الكنيسة الكاثوليكية • ونخص بالذكر ، من بين أولئك الأساقفة الذين تزعموا الفريق الشريف التمسك بعقيدته ، والذين صدر الأمر بنفيهم ، ليبريوس أسقف روما، أوزيوس أسقف قرطبة،بولينوس أسقف تريف،ديونيسيوس أسقف ميلان ، يوزيبيوس أسقف فرشيللى ، لوسيفر أسقف كاليارى وهيلارى أسقف بواتييه • وكان الأسقف ليبريوس يتمتع بمكانة رفيعة ويتحكم فى عاصمة الامبراطورية ، كما أن الأسقف المبجل أوزيوس كان يتصف بميزات شخصية وخبرة طويلة ، وأصبح موضع الاحترام والتبجيل بفضل ما كان له من حظوة لدى قسطنطين العظيم ، وبحكم كونه واضع عقيدة نيقيا وراعيها • كل تلك الصفات وضعت هذين الأسقفين على رأس الكنيسة اللاتينية ، ومن ثم فقد كان من المحتمل أن يسير جمهور الأساقفة وراءهما اذا استسلما أو اذا قاوما • غير أن المحاولات المتكررة التى بذلها الامبراطور لاغراء أو ارهاب أسقف روما وأسقف قرطبة ظلت عديمة الجدوى فترة من الوقت . فأعلن الأسقف الأسبانى أنه على استعداد لتحمل الآلام تحت حكم قسطنطيوس كما تحملها منذ ستين عاما تحت حكم جده ماكسيميان• أما أسقف روما فقد أكد فى حضرة مليكه براءة اثناسيوس وأصر على أنه من ناحية الشخصية حر فيما يرى ويعتقد • وعندما نفى الى مدينة بريا Beraea فى تراقيا ، أعاد الى الامبراطور مبلغا كبيرا من المال كان قد منحه اياه لتيسير رحلته ، وطعن بلاط ميلان بملاحظة أبداها قائلا ان الامبراطور وخصيانه قد يكونون فى حاجة الى ذلك الذهب للانفاق على جنودهم وأساقفتهم • غير أن محن الأسر والنفى التى قاساها ليبريوس وأوزيوس أرغمتها فى نهاية الأمر على التخلى عن عزمها وتصميمها • فاشترى أسقف روما عودته بشتى صنوف الامتثال المشين ، ثم كفر عن ذنبه بعد ذلك بما يناسب الذنب من ندم وتوبة • أما أسقف قرطبة ، وهو الشيخ المتداعى ، فقد استخدم معه الامبراطور وسائل الاغراء والعنف حتى أكرهه على التوقيع بالموافقة ، وكان قد وهن العظم منه وانتاب العجز قدراته ومواهبه تحت وطأة مائة من سنوات العمر • وكان هذا الفوز الدنىء الذى ناله أتباع آريوس حافزا لبعض أبناء

المذهب الصحيح على أن يعاملوا شخص هذا الرجل اليائس الهرم ، او قل ما كان له من ذكرى ، معاملة قاسية وحشية ، رغم أن المسيحية نفسها كانت مدينة لخدماته الجليلة السابقة أثقل الدين ٠

ولقد أضفى استسلام ليبريوس وأوزيوس بريقا اكثر توهجا على صمود أولئك الأساقفة الذين ظلوا متمسكين فى ولاء لا يلين ولا يتزعزع بقضية أثناسيوس وبالحقيقة الدينية ٠ وكان الحقد الخبيث الذى ملأ صدور أعدائهم قد أوحى اليهم أن يحرموهم من تبادل النصح والسلوى، فباعدوا بين هؤلاء الأساقفة اللامعين بنفيهم الى ولايات نائية ، وحرصوا على أن ينتقوا لهم أكثر بقاع الامبراطورية وحشة وأقلها ترحيبا بالوافدين (*) ٠ غير أن الأساقفة سرعان ما وجدوا أن صحراوات ليبيا وأشد بقاع كابادوكيا وحشة كانت أكثر حدبا عليهم من المقام فى تلك المدن التى يستطيع أن يشيع فيها أسقف من اتباع آريوس ، دون قيد او حد ، ذلك الحقد المحموم الذى تنفثه الكراهية الدينية . وكان يشد من عزائمهم شعورهم بصواب مسلكهم وباستقلالهم فى الرأى ، وتأييد وزيارات أنصارهم ، وما كان يبعثه اليهم هؤلاء الأنصار من خطابات وصداقات سخية ٠ وكذلك كانوا يستمدون العزاء من تلك الراحة التى سرعان ما أحسوا بها عندما وضحت لهم الانقسامات الداخلية القائمة بين أعداء عقيدة نيقيا . ولقد كان الامبراطور قسطنطين حاد المزاج شديد التقلب ، وسرعان ما كان يستشيط غضبا اذا لمس أتفه انحراف عن مبدأ العقيدة المسيحية المرسوم فى خياله ، وقد دفعه هذا الخلق الى صب نقمته ، وبالحماس نفسه ، على القائلين بأن الآب والابن من مادة واحدة، وعلى المؤيدين لفكرة أنهما من مادة مماثلة ، وعلى أولئك الذين ينكرون التشابه بينهما ٠ وكان يحدث أن يجتمع فى منفى واحد ثلاثة أساقفة جردوا من رتبتهم وأبعدوا الى المنفى لاعتناقهم هذه الآراء المتضادة ، فكان الواحد منهم ، حسبما تمليه عليه طباعه وخلقه ، يرثى لما يتصف به خصومه من حماس أعمى ، أو يندد بذلك الحماس الذى سبب لهم جميعا من الآلام اذ ذاك ما لا يمكن أن تعوضهم عنها أية سعادة مستقبلة ٠

(★) نفى قساوسة الغرب تباعا الى صحراوات بلاد العرب او طيبة ، والى البقاع الموحشة بجبال طوروس ، والى قفار اقليم فريجيا التى كانت فى يد الزنادقة « المتانيون » (الصار منتانوس) ٠ وعندما عومل ايتيوس Aetius الخارج على الدين معاملة طيبة اكثر مما ينبغى فى موبسوستيا فى قيليقيا ، نصح اكاسيوس بتغيير منفاه الى امالا ، وهو اقليم يقطنه المتوحشون وتسوده الأوبئة والحروب ٠

وكان القصد من نفى الأساقفة أصحاب المذهب الصحيح والحاق العار بهم أن يكون هذا كله خطوات تمهيدية للقضاء على أثناسيوس نفسه · وكانت قد انقضت ستة وعشرون شهرا جاهد فيها البلاط سرا وبأخبث أنواع الحيل لخلعه من الاسكندرية وحرمانه من المنحة التى كان ينفق منها بسخاء على الشعب · وعندما تخلت الكنيسة اللاتينية عن أسقف مصر ووافقت على ابعاده ، وأصبح من جراء ذلك محروما من أى سند أجنبى أرسل قسطنطين اثنين من أمناء سره بتكليف شفوى أن يعلنا الأمر بنفيه ويقوما بتنفيذه · ولما كان فريق الأساقفة كله قد أقر علانية عدالة الحكم على أثناسيوس فان الدافع الوحيد الذى منع قسطنطيوس من اعطاء رسله تفويضا كتابيا بتنفيذ الحكم هو شكه فيما سوف يحدث وشعوره بالخطر الذى قد تتعرض له المدينة الثانية فى الامبراطورية وأكثر ولاياتها خصبا اذا ما أصر الشعب على الدفاع بقوة السلاح عن براءة أبيهم الروحى · وهذا الحرص الزائد من جانب الامبراطور أتاح لأثناسيوس فرصة الادعاء بأنه فى كثير من الاحترام يشك فى صحة هذا الأمر الصادر بنفيه والذى يتنافى مع عدالة مليكه الكريم ومع تصريحاته السابقة · أما السلطات المدنية فى مصر فقد وجدت نفسها عاجزة من القيام بمهمة حث أو ارغام الأسقف على التخلى عن كرسى الأسقفية ، واضطرت الى عقد معاهدة مع زعماء شعب الاسكندرية اتفق فيها على ايقاف كل الاجراءات والأعمال العدوانية حتى تتأكد لهم مشيئة الامبراطور فى وضوح أكثر · وقد انخدع الكاثوليك بهذا الاعتدال الظاهرى وأحسوا بأمان لم يكن الا أمانا زائفا مميتا ، على حين كانت جيوش مصر العليا وليبيا قد صدرت اليها الأوامر سرا بالمتقدم على عجل لمحاصرة أو قل لمباغتة عاصمة درجت على التمرد والعصيان واشتعلت بالحماس الدينى · وكان موقع الاسكندرية ، بين البحر وبحيرة مريوط ، عاملا سهل على الجيوش أن تقترب منها وتدخل قلب المدينة قبل أن تتخذ أية خطوات لغلق الأبواب أو احتلال مراكز الدفاع الهامة . وفى منتصف اليوم الثالث والعشرين بعد توقيع المعاهدة شن سيريانوس أمير مصر ، على رأس خمسة آلاف من الجنود المسلحين المتأهبين للقتال ، هجوما فجائيا على كنيسة سانت ثيوناس حيث كان الأسقف مع فريق من القساوسة والشعب يؤدون صلواتهم الليلية · وتداعت أبواب المعبد المقدس تحت وطأة الهجوم الذى اقترن بكل فظائع الشغب واراقة الدماء · وبقيت جثث القتلى وبقايا الأسلحة الحربية الى اليوم التالى دليلا قاطعا فى حوزة الكاثوليك ، ومن ثم فان مغامرة سيريانوس يمكن أن تعتبر غارة ناجحة أكثر منها غزوة كاملة · وقد

انتهكت حرمة الكنائس الأخرى فى المدينة باعتداءات مماثلة ، وتعرضت مدينة الاسكندرية خلال أربعة شهور على الأقل الى اهانات جيش اباحى خليع يلقى تشجيعا من رجال الدين المنتمين الى حزب معـاد ٠ وقتل فى هذه الأحداث كثير من المؤمنين الذين يمكن أن يكونوا أهلا لاسم الشهداء على فرض أن موتهم لم يحدث نتيجة اثارة ولم ينتقم له ٠ وعومل الأساقفة والقساوسة بقسوة مهينـة ، وجـردت العـذارى الأطهار من ملابسهن ، ثم ضربن بالسـياط واعتـدى عليهن ، وكذلك نهبت منـازل المواطنين الأثرياء ٠ وتحت ستار من الحماس الدينى ، أشبع الجنون شهواتهم وأطماعهم وكراهيتهم الشخصية دون أن ينالوا عقابا ، بل قل ان فعالهم هذه كانت موضع الاستحسان ٠ أما وثنيو الاسكندرية ، الذين كانوا اذ ذاك يكونون فريقـا كبيرا متذمرا ، فقد أمكن اغـراؤهم فى سهولة التخلى عن أسقف كانوا يخشونه ويقدرونه ، وكان أمل الحصول على بعض المزايا الخاصة ، والخوف من أن تنالهم العقوبات العـامة المفروضة على الثوار ، من العوامل التى دفعتهم الى الوعد بتأييد خليفة أثناسيوس المنتظر المشهور ، جورج من أهل كبادوكيا ٠

وبعد أن رسم المغتصب بمعرفة مجلس دينى من اتباع آريوس ، أقامه على كرسى الأسقفية الوالى سيباستيان الذى كان قد عين أميرا على مصر لتنفيذ تلك الخطة الهامة ٠ وفى استحواذ هذا الطاغية جورج على السلطة ، وفى استخدامه اياها ، لم يأبه بقوانين الدين ومبـادىء العدالة والانسانية ، فتكررت فى أكثر من تسعين مدينة أسقفية من مدائن مصر نفس مناظر الفضائح وأعمال العنف التى شهدتها العاصمة ٠ ولقد شجع النجاح قسطنطيوس على تحبيـذ مسلك وزرائه والموافقة عليـه ففى رسالة علنية عاطفية بعث تهنئته على انقاذ الاسكندرية من طاغية شعبى كان يخدع ناخبيه العميان بسحر فصاحته ، وأطنب فى مدح ما يتحلى به الأب الأقدس والأسقف المنتخب جورج من فضائل وتقوى ، وأعرب عن أمله ، بوصف كونه راعى المدينة وسيدها ، فى أن يبز شهرة الاسـكندر نفسـه ، وأعلن فى حزم وجدية عن عزمه الأكيد على أن يتتبع بالسيف والنار أولئك المتمردين من أنصار أثناسيوس الذى يعتبر تملصـه من العدالة اعترافا منه بذنبه ، وهربا من الموت المشين الذى كان يستحقه ٠

وفى الحق أن أثناسيوس نجا من أشد الأخطار احداقا به ، ولا شك فى أن مغامراته تسترعى انتباهنا وتستحق اهتمامنـا ٠ ففى تـلك الليـلة المشهودة التى هاجمت فيها قوات سيرانيوس كنيسة سانت ثيوناس ،

كان رئيس الأساقفة جالسا على عرشه ينتظر مجيء الموت فى وقار هادىء جرىء . وعندما قطعت صيحات الغضب وصرخات الفزع حبل الصلاة العامة ، وارتعدت فرائص المصلين ، طلب منهم أن يعبروا عن ثباتهم الدينى بانشاد أحد مزامير داود الذى يذكر فيه انتصار رب اسرائيل على طاغية مصر الضال المتشامخ . وأخيرا حطم العدو الأبواب وأطلق سيلا من السهام على الناس ، واندفع الجنود بسيوفهم المسلولة نحو الهيكل المقدس ، وكانت المصابيح المقدسة المشتعلة حول المذبح تعكس بريق دروعهم المخيف . وظل أثناسيوس يرفض لجاجة الرهبان والقساوسة المحيطين به الذين ألحوا عليه فى ورع وتقوى أن يغادر المكان ، وأبى عليه نبله أن يترك مكانه الأسقفى حتى يخرج آخر فرد من المصلين . ثم واتته فرصة الظلام والجلبة ومكنته من الانسحاب . ومع أن الجمهور المرتبك المضطرب كاد يدهمه ويطغى عليه ، ورغم أنه وقع على الأرض وفقد الحس والحركة ، الا أنه استرد شجاعته التى لا تقهر وتسلل من الجنود الذين كانوا يجدون فى البحث عنه ، والذين كان أتباع آريوس قد أوحوا اليهم بأن رأس أثناسيوس سوف تكون أحب هدية الى الامبراطور ، ومنذ تلك اللحظة غاب أسقف مصر عن عيون أعدائه ، وظل أكثر من ست سنوات يحف به ظلام دامس لا تنفذ اليه الأبصار .

ولقد كان عدو أثناسيوس الحقود الذى لا يرحم يتمتع بسلطان ملأ ربوع العالم الرومانى كله ، وحاول الملك الحانق الغاضب فى رسالة عاجلة ملحة بعث بها الى أمراء أثيوبيا المسيحيين ، أن يطردوا أثناسيوس من أكثر بقاع الأرض بعدا وعزلة ، واستخدم الأمراء والولاة والتربيونات جيوشا بأكملها لمطاردة الأسقف الهارب . ولقد أثارت المراسيم الامبراطورية يقظة السلطات المدنية والعسكرية ، كما خصصت مكافآت سخية وعد بها أى رجل يجىء بالأسقف حيا أو ميتا ، وأنذر كل من يجرؤ على حماية هذا العدو العام بأشد العقوبات . غير أن صحراوات طيبة كانت اذ ذاك موطنا لقوم من المتعصبين يعيشون على الفطرة ولكنهم يتصفون بسهولة الانقياد ، وهؤلاء كانوا يفضلون أوامر الراهب أثناسيوس على قوانين مليكهم . واستقبل العديدون من أتباع أنطون وباخوم ذلك الأسقف الهارب كأبيهم الروحى وأعجبهم فيه تمسكه بأشد نظمهم صرامة فى صبر وتواضع ، وتلقفوا كل كلمة نطق بها كأنها حكمة ملهمة أصيلة تنسكب من فمه ، وأقنعوا أنفسهم بأن صلواتهم وصومهم وسهرهم كانت كلها أقل شأنا من الحماس الذى أظهروه والأخطار التى واجهوها فى الدفاع عن الحق

والبراءة · وكانت الأديرة المصرية قائمة فى أماكن موحشة مقفرة ، على رؤوس الجبال أو فى جزر نهر النيل ، وكان البوق المقدس فى تابن Tabenne هو الاشارة المعروفة لجمع عدة آلاف من الرهبان الأقوياء ذوى العزم ، الذين كان أكثرهم من فلاحى الريف المجاور · وعندما كانت الأماكن النائية التى يلجئون اليها تتعرض لغزو قوة عسكرية يستحيل مقاومتها ، كانوا يقدمون رقابهم فى سكون وصمت الى الجلاد ، مظهرين بذلك طابعهم القومى وهو أن التعذيب لا يستطيع أن ينتزع من مصرى أى اعتراف بسر عقد العزم على عدم افشائه. ولقد كرسوا حياتهم فى غيرة وحماس لسلامة أسقف الاسكندرية الذى غاب عن الأنظار وسط جمهور منظم متحد ، وعندما كان يقترب الخطر ، كانت أيديهم الرحيمة تبادر الى ابعاده من مخبأ الى مخبأ حتى وصل الى الصحراوات المنيعة التى انتشر حولها من الخرافات المخيفة ما أدخل فى روع الناس أنها موطن للشياطين والوحوش الكاسرة · وظل أثناسيوس فى عزلته هذه حتى انتهت حياة قسطنطيوس ، ولقد قضى أغلب هذه الفترة فى صحبة الرهبان الذين خدموه باخلاص كحراس ورسل وأمناء سر · ولكنه كان تواقا الى توطيد صلة وثيقة بالفريق الكاثوليكى ، وقد أغراه هذا ، كلما كانت تخف حدة المطاردة ونشاطها ، على الخروج من الصحراء والذهاب الى الاسكندرية حيث كان يلجأ الى فطنة أصدقائه وأنصاره ويأتمنهم على شخصه · وان مغامراته المختلفة لتكون فى مجموعها موضوعا لقصة رومانسية شائقة ، فقد حدث له ذات مرة أن اختبأ فى خزان ماء جاف ، وما كاد يغادره حتى وشت به امرأة من العبيد ، وفى مرة أخرى اختبأ فى مأوى أكثر غرابة ، وكان ذلك المأوى منزل عذراء لم تتجاوز العشرين من عمرها ، وتشتهر فى المدينة كلها بجمالها الرائع الفتان · ولقد قصت هذه الفتاة قصتها بعد سنوات من حدوثها ، فقالت انها فوجئت عند منتصف الليل بظهور الأسقف فى رداء عادى فضفاض ، ثم تقدم نحوها فى خطوات سريعة ، متوسلا اليها أن تأويه تحت سقف دارها المضياف ، وقال لها انه جاء ينشد حمايتها بناء على رؤيا سماوية تجلت له وقبلت العذراء التقية أن تحافظ على الرهينة المقدسة التى عهد الى حكمتها وشجاعتها برعايتها وحمايتها · ولم تبح بهذا السر لأحد ثم قادت أثناسيوس على الفور الى حرم مخدعها الأمين وتولت السهر على سلامته بحدب الصديق الوفى ومثابرة الخادم الأمين · وطالما كان الخطر قائما كانت تزوده بالكتب والمؤن ، وتغسل قدميه ، وتدبر رسائله ، وحرصت فى براعة ومهارة على أن تخفى عن عيون الشبهات تلك الصلة الأليفة المنعزلة القائمة

بين قديس تتطلب أخلاقه أطهر عفة وأنقاها ، وبين فتاة قد تثير مفاتنها أخطر العواطف (*) • وخلال السنوات الست التى قضاها أثناسيوس فى الاضطهاد والنفى ، لم ينقطع عن زيارته لرفيقته الحسناء المخلصة • وبناء على ما أعلنه رسميا من أنه شاهد اجتماعى ريمنى وسلوقيا ، لابد لنا من أن نعتقد أنه كان موجودا بطريقة سرية فى مكان انعقادهما وزمانه ، كما أن المزايا التى كان يحصل عليها من التفاوض الشخصى مع أصدقائه، ومن مراقبة وتشجيع الانقسامات القائمة بين أعدائه ، كل أولئك كان يبرر فى نظر رجل سياسى حصيف كذلك الأسقف مثل تلك المعارضة الجريئة الخطيرة ، هذا بالاضافة الى أن الاسكندرية كانت تتصل ملاحيا وتجاريا مع كل ميناء من موانىء البحر الأبيض • ولقد شن الأسقف الجرىء من أعماق مخبئه المنيع حربا هجومية مستمرة ضد الامبراطور حامى الأريوسيين • وكان يتحين الأوقات المناسبة فيكتب آراء يروجها فى مهارة ويطالعها الناس فى شغف ، وأسهمت كتاباته هذه فى توحيد الفريق الأرثوذكسى وتقويته • وكان فى اعتذاراته العلنية التى يوجهها الى الامبراطور يصطنع بين الحين والحين مديحا لروح الاعتدال ، بينما كان فى الوقت عينه يوجه اليه سرا عبارات القدح المريرة ويرميه بأنه حاكم خبيث ضعيف ، وبأنه جلاد أسرته ، وطاغية الجمهورية وعدو الكنيسة المسيحية • أما الملك المنتصر ، الذى عاقب جالوس Gallus على تهوره ، وقمع ثورة سلفانوس ، وانتزع التاج من رأس فترانيو ، وقهر فى ميدان القتال جحافل ماجننتيوس ، هذا الملك بعينه تلقى من يد خفية ، هى يد الأسقف أثناسيوس ، جرحا بليغا لم يستطع البرء منه أو الانتقام له • وكان ابن قسطنطين هذا أول ملك مسيحى يحس بقوة تلك المبادىء التى استطاعت ، فى سبيل القضية الدينية ، أن تقاوم أشد وأقسى أعمال السلطة المدنية •

الطابع العام للطوائف المسيحية

ان القصة البسيطة التى تقص أنباء تلك الانقسامات الداخلية التى ازعجت سلام الكنيسة وألحقت العار بانتصارها ، انما تؤكد وجهة نظر مؤرخ وثنى ، وتبرر شكوى أسقف مسيحى مبجل • فقد اقتنع أميانوس

(*) تحدث بالاديوس . المؤلف الاصيل لهذه الرواية ، مع تلك الفتاة بعد أن تقدم بها العمر • وكانت لا تزال تذكر فى غبطة وسرور تلك العلاقة الصالحة الشريفة • وليس فى مقدورى أن أجيز كياسة بارونيوس وفاليسيوس وتلمونت وغيرهم ممن لا يؤمنون بصحة هذه الرواية التى يرون أنها لا تتناسب مع جدية التاريخ الكنسى •

Ammianus ، نتيجة تجربته الخاصة ، بأن العداوة القائمة بين المسيحيين كانت أشد من هياج الوحوش الكاسرة ضد الانسان : أما جريجورى نازيانزن فانه يرثى فى أشد ما يكون من الحزن لما آلت اليه حل المملكة المسيحية ، ملكة الله ، التى مزقتها الخلافات وحولتها الى الى صورة للفوضى ، ولعاصفة تهب فى الظلام ، بل وجعلتها صورة من الجحيم نفسه . أما كتاب ذلك العصر الذين اتصفوا بالقسوة والتحيز ، فقد كان كل فريق منهم ينسب الفضائل كلها الى نفسه ، ويلقى الذنب كله على أكتاف خصومه ، ومن ثم فقد صوروا الوضع على أنه معركة بين الملائكة من جانب والشياطين من الجانب الآخر . غير أننا اذا توخينا التفكير الهادىء السليم ، فلابد لنا من أن نأبى مثل هذا التصوير الذى يمثل فريقا بأنه الرذيلة الكاملة الخالصة ، ويمثل الفريق الآخر بأنه القدسية البحتة التى لا تشوبها شائبة ، وأن ننسب الى كل من الطائفتين المتخاصمتين قسطا متساويا ، أو على الأقل قسطا غير متميز، من الخير والشر معاً . هاتان الطائفتان هما اللتان اتخذت واحدة منهما لنفسها اسم الأرثوذكس « أصحاب المذهب الصحيح » ، وأطلقت على الأخرى اسم الهراطقة . ولقد تعلمت الطائفتان ديانة واحدة ونشأتا فى مجتمع مدنى واحد ، وكانت آمالهما ومخاوفهما فى حاضر الزمان ، أو فى حياة مستقبلة ، متوازنة بنسبة واحدة . وقد يكون الخطأ فى هذا الجانب أو ذاك خطأ بريئا ، والايمان مخلصا صادقا ، أما التصرف فقد يكون فاسدا أو صالحا . وكانت عواطفهما تندفع نحو أهداف متماثلة ، كما أن كلا منهما كانت تسىء استغلال حظوة تنالها لدى البلاط أو لدى الشعب . ولم تستطع الآراء الميتافيزيقية التى كان يعتنقها أتباع أثناسيوس وأتباع آريوس أن تؤثر فى طابعهم الخلقى ، وكانوا جميعاً وعلى السواء مدفوعين بروح عدم التسامح التى استخلصوها تعنتنا من تفسيرهم للمبادىء النقية البسيطة الواردة فى الانجيل المقدس .

وثمة كاتب حديث، رأى فى ثقة صائبة أن يصف التاريخ الذى كتبه هو بصفتين كريمتين هما أنه تاريخ سياسى وفلسفى ، هذا الكاتب يتهم الفيلسوف مونتسكيو Montesquieu بالحرص والتهيب لأنه لم يضم الى أسباب اضمحلال الامبراطورية قانونا أصدره قسطنطين والغى بمقتضاه الغاء تاما ممارسة العبادة الوثنية ، وترتب على ذلك أن أصبح جزء كبير من رعاياه محروما من الكهنة والمعابد ومن أية ديانة علنية . ومن الواضح أن حماس هذا المؤرخ الفيلسوف لحقوق الانسان قد أغراه على قبول الأقوال المبهمة التى قالها بعض رجال الكنيسة ونسبوا فيها الى بطلهم المحبوب قسطنطين أنه شن حملة اضطهاد عامة ، معتبرين

ذلك ميزة فيه . ونحن لا نريد أن نؤكد هذا القانون المزعوم الذى ، لو أنه صدر فعلا ، لتألق واحتل مكان الصدارة بين القوانين الامبراطورية فلا تخطئه الأبصار . وبدلا من ذلك ففى مقدورنا دون خوف من الزلل أن نرجع الى الرسالة الأصلية التى وجهها قسطنطين الى أتباع الديانة القديمة فى وقت لم يعد يخفى فيه تحوله هو الى الديانة المسيحية الجديدة أو يخشى من كانوا ينافسونه على العرش . وهو فى هذه الرسالة يحث رعايا الامبراطور ويحضهم بأقوى العبارات على احتذاء مثل ملكهم ، ولكنه يعلن أن أولئك الذين لا يزالون يرفضون فتح أبصارهم لأضواء السماء فى مقدورهم أن يتمتعوا بمعابدهم وبآلهتهم الموهومة . ومما ينقض القول بأن الاحتفالات الوثنية قد أوقفت أن الامبراطور نفسه كان من الحكمة بحيث يقرر أن مبدأ تسامحه واعتداله انما يقوم على أساس أنه يأخذ فى اعتباره قوة العادة التى لا يمكن التغلب عليها ، وقوة التحيز وقوة الخرافات . ولم ينقض الامبراطور البارع قدسية وعده ، ولم يثر مخاوف الوثنيين ، ولكنه اتخذ خطوات بطيئة حريصة لتقويض صرح تعدد الآلهة الذى كان صرحا مزعزعا متداعيا . أما القبيل من أعمال العنف التى كان يلجأ اليها بين الحين والآخر ، فمع أن الباعث الخفى عليها كان حماسه المسيحى ، الا أنه كان يصطنع لها أرق الألوان ، ويدعى أنه مدفوع فى ذلك بدافع العدالة والصالح العام . وفى الوقت الذى كان قسطنطين يعمل فيه على تقويض أسس الديانة القديمة ، كان يتظاهر بأنه يهذب من مساوئها . ولقد سار على نهج أقل أجداده وأكثرهم حكمة فأدان أساليب الكهانة السرية الضالة ، وتوعد أصحابها بأشد العقوبات وأقساها لأنها أساليب كانت تثير فى الساخطين على أحوالهم الخاصة آمالا كاذبة ، وتغريهم فى بعض الأحيان على ارتكاب الجرائم والموبقات . ثم أخرس أصوات الكهان وفرض عليهم صمتا مشينا واتهمهم علانية بالغش والزيف ، وكذلك ألغى وجود الكهنة المخنثين الذين كانوا يقيمون فى وادى النيل وأخذ على عاتقه القيام بأعمال رقيب رومانى ، فأصدر أمره بهدم عدة معابد فينيقية كانت تمارس فيها كل ضروب الدعارة فى وضح النهار تكريما لربة العشق والجمال ، فينوس . وفى الحق أن المدينة الامبراطورية القسطنطينية ـ قامت الى حد كبير على حساب المعابد الفخمة التى كانت قائمة فى بلاد اليونان وفى آسيا ، وزينت بما أخذ منها من أسلاب .. وقد صودرت الممتلكات المقدسة ، ونقلت تماثيل الآلهة والأبطال دون احترام أو تبجيل ، على مرأى من شعب كان لا يعتبرها موضع عبادة واجلال بل موضع طرافة واستطلاع ، وأعيد الذهب والفضة الى التداول ، واستغل الحكام والأساقفة والخصيان

هذه الفرصة السعيدة المواتية فى ارضاء حماسهم وطمعهم واستيائهم . غير أن عمليات النهب هذه اقتصرت على جزء صغير من العالم الرومانى ودرجت الولايات زمنا طويلا منذ ذلك الوقت على تحمل مثل هذا السلب وتدنيس الأماكن المقدسة من جانب حكام الرومان وولاتهم الذين كانوا بعيدين عن شبهة القيام بأى عمل لتقويض الديانة القائمة .

وجرى أبناء قسطنطين على منوال والدهم بمزيد من الحماس وفى حرص أقل ، فازدادت (*) أعمال النهب والظلم دون أن يستشعر مرتكبوها خجلا ولقى مسلك المسيحيين غير المشروع كل تغاض وتسامح بينما كان كل شك فى مسلك الوثنيين يفسر ضد مصلحتهم ، وأصبح هدم المعابد من الأحداث السعيدة التى يحتفل بها فى عهد كونستانز وقسطنطيوس . وقد صدر قانون باسم قسطنطيوس لم يجعل هناك حاجة لاصدار أى حظر جديد فى المستقبل . يقول القانون :

« فلتكن مشيئتنا أن تغلق المعابد على الفور فى كل الأماكن وفى جميع المدن ، وتوضع تحت حراسة مشددة ، حتى لا يستطيع أحد أن يرتكب أية اساءة . ولتكن مشيئتنا أيضا أن يمتنع كل رعايانا عن تقديم الذبائح ، واذا اقترف أى انسان مثل هذا الذنب ضربنا رقبته بسيف نقمتنا ، وصودرت أملاكه بعد قتله لصالح المنفعة العامة . واذا أهمل حكام الولايات معاقبة المجرمين حل بهم القصاص نفسه » .

غير أن هناك من أقوى الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن هذا المرسوم الرهيب كتب دون أن ينشر،أو نشر دون أن ينفذ. فدليل الحقائق،والآثار الرخامية والنحاسية التى ما تزال قائمة انما تثبت أن الوثنيين ظلوا يمارسون عباداتهم طوال عهد أبناء قسطنطين . وفى الشرق وفى الغرب على السواء ، وفى المدن كما فى الريف ظل عدد كبير من المعابد موضع الاحترام ، أو ترك كما هو على الأقل دون أن يمسه سوء ، واستمرت الجماهير المتعبدة تتمتع بترف تقديم الذبائح ، وبالاحتفالات والمواكب باذن من الحكومة المدنية ، أو بالتغاضى من جانبها . وبعد انقضاء أربع سنوات على هذا المرسوم الدموى المزعوم قام قسطنطيوس بزيارة معابد

(*) يتحدث أميانوس عن أن بعض خصيان البلاط كانوا ينهبون خبز المعابد ، ويقول ليبانيوس ان الامبراطور كان يتخلص من المعبد كما لو كان كلبا أو حصانا أو عبداً أو كأسا ذهبية . غير أن الفيلسوف التقى يحرص على القول بأن هؤلاء الاخصاء الأرجاس قلما كان النجاح والتوفيق نصيبهم .

روما ، وكان مسـلكه الرقيق المهذب موضع اطراء وثناء فى خطاب القساه وثنى ووصفه بأنه مثل جدير بأن يحتذيه الملوك من بعده • يقول سيماخوس Symmachus : « لقد أقر ذلك الامبراطور بحق العذارى العفيفات فى البقاء مكرمات مصونات ، وأنعم على نبلاء روما بألقاب التكريم الكهنوتية ، ومنح المال المعتاد منحة للوفاء بنفقات الشعائر والذبائح العامة ، ورغم أنه قد اعتنق دينا مختلفا ، الا أنه لم يحاول أبدا أن يحرم الامبراطورية من العبادة القديمة المقدسة » • وظل السناتو يقدس ، بقرارات مهيبـة ما كان للملوك البلاد من ذكرى « آلهـة » بل ان قسطنطين نفسه أدرك اسمه بعد وفاته مع أولئك الآلهة الذين كان أثناء حياته يتبرأ منهم ويحقر من شأنهم • ولقد قبل سبعة من الأباطرة المسـيحيين دون تـردد لقب « الحبر الأعظم » وأعلامه وامتيازاته ، وهو لقب كان قد سـنه الامبراطور « نوما » Numa. واتخذه لنفسه الامبراطور أر غ بنس ، وأصبح الأباطرة يمارسون سلطة مطلقة على الديانة التى تخلوا عنها تفوق سلطتهم على الديانة التى اعتنقوها •

وأوقفت انقسامات المسيحية هلاك الوثنية (*) ودمـارها ، وهون

(★) نظرا لانى استخدمت كلمتى « الوثنية » ، « الوثنيون » فى كثير من المواضع ، فسوف أتتبع الآن تطورات هاتين الكلمتين :

١ ــ كلمة Πayη فى اللهجة الدورية المألوفة لدى الأيطاليين ، تعنى « نافورة » ، ويسمى الريفيون الذين يترددون على النافورة نفسها باسم Pagus Pagans .

٢ ــ وبانتشار استخدام كلمة Pagan (وثنى) أصبحت فى وكلمة « ريفى » مترادفتين ، واكتسب القرويون البسطاء هذا الاسم الذى اصبح يعنى « فلاحين » فى اللغات الأوربية الحديثة •

٣ ــ وبزيادة عدد رجال الحرب زيادة مذهلة ظهرت ضرورة استخدام كلمة تتصل بهذا الموضوع فدمغ كل الناس غير العاملين فى خدمة الحاكم بصفة حقيرة هى صـفة تعنيها كلمة Pagans .

٤ ــ كان المسيحيون جنود المسيح ، أما خصومهم الذين رفضوا تناول قربانه المقدس ، أو قسم التجنيد بالمعمودية ، فانهم يستحقون الاسم المجازى Pagaas وقد ادخل هذا الاسم الذى يحمل معنى اللوم والتقريع منذ عهد فالنتينيان Valentinian (٣٦٥ بعد الميلاد) فى القوانين الامبراطورية والكتابات اللاهوتية •

٥ ــ ثم ملأت المسيحية مدائن الامبراطورية ، وانكمشت الديانة القـديمة ابان عهـد برودنتيوس فى القرى المجهولة ، ورجعت كلمة Pagaus (وثنيين) بمعناها الجديد الى أصلها البدائى •

٦ ــ ومنذ أن انتهت عبادة جوبيتر Gupiter وأسرته ، أصبح لقب « الوثنيون » يطلق تباعا على عبدة الأصنام والالهة المتعددة فى العالم القديم والعالم الجديد •

٧ ــ أطلق المسيحيون اللاتين هذه الكلمة ، دون اعتبار ، على أعدائهم المسلمين ، ودمغوا أنقى الموحدين بالله بهذا التقريع الظالم الذى تحمله كلمة الوثنية •

الحكام والأساقفة من حربهم المقدسة ضد الكفار لأن خطر الثورة الداخلية وما كان يقترف فيها كان خطرا مباشرا أكثر تهديدا وازعاجا لهم ·
ولقد كان من الممكن تبرير القضاء على العبادة الوثنية بمقتضى مبادىء التعصب القائمة ، غير أن الطوائف المتنازعة التى تبادلت السيطرة على البلاط الامبراطورى كانت تخشى ابعاد أو اغضاب حزب قوى وان كان حزبا متهاويا · وكانت الدوافع كلها تقف الى جانب المسيحية فى كفاحها ضد الوثنية – دوافع السلطة والمصلحة والتعقل ، ودوافع الاتجاهات الحديثة ، غير أن جيلين أو ثلاثة أجيال انقضت قبل أن تنتصر تلك الدوافع ويشعر بتأثيرها العالم أجمع · ولقد ظل أناس كثيرون يبجلون تلك الديانة التى استقرت تلك المدة الطويلة والى زمن متأخر فى الامبراطورية الرومانية ، رغم أنهم كانوا يتعلقون بالعرف القديم أكثر من تعلقهم بالتفكير النظر · وكانت امتيازات الدولة والجيش تمنح لكل رعايا قسطنطين وقسطنطيوس سواء بسواء ، كما أن قدرا كبيرا من العلم والثروة والبأس ظل يستخدم فى خدمة الوثنية · وكان شيوخ السناتو والفلاحون والشعراء والفلاسفة يستمدون خرافاتهم من مصادر مختلفة ، غير أنهم كانوا يلتقون جميعا فى معابد الآلهة مدفوعين بالولاء نفسه · وكان انتصارهم الممتزج بالازدراء والاحتقار مع أنهم طائفة مبعدة مضطهدة ، شيئا يثير حماسهم دون وعى منهم ، كما أن آمالهم قد انتعشت بفضل ثقتهم الأكيدة فى أن ولى عهد الامبراطورية وحاكمها المرتقب ، وهو بطل شاب شجاع أنقذ بلاد الغال من أيدى البرابرة قد اعتنق سرا ديانة أجداده ·

انتهى الجزء الأول ويليه

الجـزء الثانى

اقرأ في هذه السلسلة

رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الادب الروائى عند تولستوى	ف . ع ادنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	هادى نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د. فاضل احمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للاطفال	د. روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا . سبنسر
النحل والطب	د. ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٩٠ ـ ١٩١٤	د. لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د. جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د. غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د. رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د. محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى

الهيروين والايدز	روى روبرتسون
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جون ر ٠ بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخي عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د٠ صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م ٠ هـ ٠ كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د٠ السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا٠ هاريس
الدليل الببليوجرافي	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل آلبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الحياة الكريمة (٢ جـ)	بيرتون بورتر

الشاهنامة (٢ جـ)	الفردوسى الطوسى
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلى
عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د٠ فيليب عطية
السينما العربية	اعداد / مونى براخ وأخرون
دليل تنظيم المتاحف	نادين جورديمر وآخرون
سقوط المطر وقصص اخرى	آدامز فيليب
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ جـ)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى أوربا	بول كولنر
صناع الخلود	موريس بير برابر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ جـ)	الفريد ج ٠ بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ جـ)	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د٠ رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتر نيكوللز
السلطة والفرد	برتراند راصل
الأزهر فى ألف عام	بينارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامة	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانية	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ جـ)	احمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود

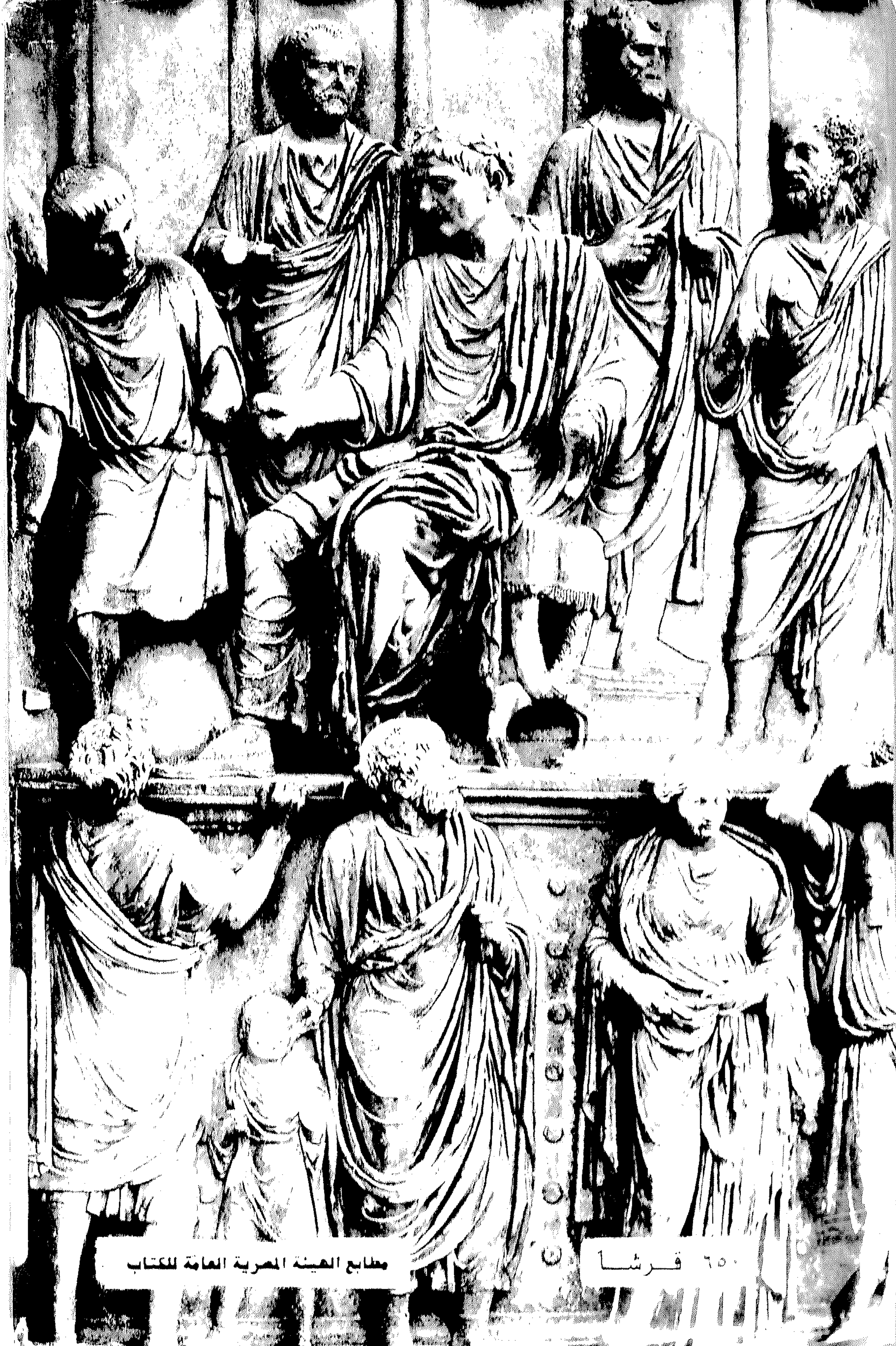
حديث النهر	اعداد/ سوريال عبد الملك
من هم التتار	د. ابرار كريم الله
ماستريخت	اعداد/ جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية (٤ جـ)	هـ . ج . ولز
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون (٣ جـ)	ريتشارد بيرتون
الطفل (٢ جـ)	أدمز متز
الحضارة الاسلامية	ارنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سونداري
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج . برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج . كارفيل
فن المايم والبانتوميم	توماس ليبهارت
تحول السلطة (٢ جـ)	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف . م . بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارد
بين تولستوى ودستويفسكى (جـ ٢)	جورج ستاينز
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ . ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى . ناش
انواع الفيلم الأميركى	ستالين جين سولومون
رحلة الأمير رودلف (٢ جـ)	عبد الرحمن الشيخ
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف نيدهام

المـــرأة الفـــرعونية	كريســـتيان ديروش
نظـــرية التصـــوير	ليوناردو دافنشى
التربيـة عن طـــريق الفـــن	هربرت ريـــد
معجـم التكنـــولوجيا الحيـــوية	وليـــم بينـــز
البرمجـــة بلغـــة السى	روبرت لافـــو
الكيميـــاء فى خدمة الانســـان	رولاند جاكســـون
مجمـــل تاريخ الأدب المعـــاصر	ايفـــور ايفـــانس
نظـــرية الأدب المعـــاصر	ديفيـد بوشبندر
مشكلات القرن الحادى والعشرين	يوسـف شـــرارة
كنـــوز الفـــراعنة	ت · ج · هـ · جميـــز
البرنامج النـــووى الاسرائيـلى	د · ممـــدوح حـــامد عطيـــة
بحثـــا عن عـــالم افضـــل	كارل بـــوبر
العـــلم وآفاق المســـتقبل	اســـحق عظيمـــوف
كونتـــا المتمـــدد	ايفـــرى شـــاتزمان
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا	نورمان كـــلارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٤٤٢٤/١٩٩٦

ISBN — 97[illegible] — 01 — 5058 — 4


مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
٦٥٠ قرشاً